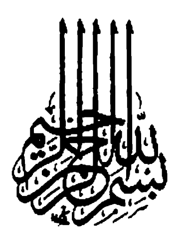
الإعجاز العلمي لمفاهيم القرآن الكريم

الشيخ عبد الله الغديري

دار المحجة البيضاء

الإعجاز العلمي
لمفاهيم القرآن الكريم


بسم الله الرحمن الرحيم

الإعجاز العلمي لمفاهيم القرآن الكريم

الشيخ عبد الله العنيزي



دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٢/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

الحمد لله رب العالمين الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ونسأله تعالى الثبات على ما يحب ويرضى ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وبعد...

هذا كتاب الإعجاز العلمي لمفاهيم القرآن الكريم قد استخرجت مواضيعه من كتاب تفسير الأمثل وغيره راجياً أن يكون نوراً وهداية إلى الصراط المستقيم لكل من يقرأه من الناس. وقد اخترت هذه المواضيع وركّزت عليها بكامل الإهتمام حتى لا يبقى (في قلب من يقرأه) أدنى شك في وجود القوة الغيبية المهيمنة على هذا الكون لما في هذا الكتاب من الآيات والعلامات الواضحات التي تدل على وجود الخالق ﷻ وتدل على نعمه ومواهبه وكراماته لهذا الإنسان الغافل الظالم المتمرّد...

وليعلم القارىء العزيز بأني أنقل هذه العلوم وغيرها من أي كتاب اعتقد بصحة تلك الكتابة أو قريبة من الصحة ظاهراً واعلم يا عزيزي أن إصابة صحة العلوم المطابقة للواقع بكل دِقَّةٍ قد تكون متعذّرة في كثير من الأحيان بالنسبة لنا ولأمثالنا من الناس العاديين دون المعصومين (الأنبياء والمرسلين والأئمة من أهل بيت الرسول محمد ﷺ)، فإنهم لا ينطقون عن الظاهر، بل ينطقون

عن الواقع، لأنهم لا ينطقون إلا عن الله ﷻ الذي أرسلهم إلى هداية الناس وبهذا الصدد تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. أي أن محمداً ﷺ الذي أثبتنا نبوّته، وأظهرنا المعجزة لتصديقه لا يمكن أن يتقول علينا بأن يأتي بحكم أو غيره من عنده وبدون رضانا ولو صنع ذلك لأخذناه من يمينه وضربنا عنقه، لأن سكوتنا عن هذه الأقاويل إمضاء منا لها، وإدخال للباطل في شريعة الهدى، فيجب علينا حفظ الشريعة في مرحلة البقاء، كما وجب علينا في مرحلة الحدوث. وعلى كل حال فالإنسان العادي مُعرَّض للخطأ في كل لحظة ونسأل من الله أن يعصمنا ويُسَدِّدَنا إنه على كل شيء قدير.

دلائل معرفة الله في القرآن

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

هذه الآية الكريمة تتحدَّث عن أهمِّ آيات علم وقدرة الخالق ﷻ فالسماوات بعظمتها بمجراتها وكواكبها، بملايين الملايين من النجوم العظيمة اللّامعة بنظامها الدقيق الذي يبهت الإنسان عند مطالعته لها. والأرض بمنابعها الحياتية، ونباتاتها المتنوّعة والورود والفواكه، بمختلف البركات والمواهب والجمال! كلُّها تعتبر آيات وعلائم تدلُّ عليه... هذا من جانب.

ومن جانب آخر فالأحياء في الأرض والسماء، كأنواع الطيور ومئات الآلاف من الحشرات وأنواع الحيوانات الأليفة والمتوحِّشة والزواحف والأسماك بأنواعها وأحجامها، والعجائب المختلفة الموجودة في كل نوع من هذه الأنواع، والأهم من ذلك حقيقة (الحياة) وأسرارها التي لم يستطع أحد التوصُّل إلى كنهها بعد آلاف السنين من البحوث لملايين العلماء، كلُّ ذلك هو من آيات الخالق عزَّ وجلَّ.

والملفت للنظر أن (دابة) يشمل الكائنات الحيَّة المجهرية التي لها حركات لطيفة وعجيبة، وتشمل الحيوانات الكبيرة العملاقة التي يصل طولها إلى عشرات الأمتار ووزنها إلى عشرات الأطنان، فكل صنف يسبّح على طريقته الخاصة ويحمد الخالق، ويبيّن عظمته تعالى وقدرته وعلمه اللّامحدود، بلسان حاله.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[1] [الشورى: ٢٩].

---

(١) (إذا) وكما يقول صاحب الكشاف، تدخل على الفعل المضارع كما تدخل على الفعل الماضي، مثل ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ولكن الفعل أكثر ما يكون بعد (إذا) على شكل الماضي وقليل جداً على شكله المضارع.

أمّا ما هو المقصود من جمع الأحياء الذي تذكره هذه الآية؟ فقد ذكر العديد من المفسّرين أنّه الجمع للحساب وجزاء الأعمال في القيامة، ويمكن اعتبار الآيات التي تذكر القيامة بعنوان (يوم الجمع) دليلاً على هذا المعنى (مثل الآية ٧ من نفس السورة والآية ٩ من سورة التغابن).

وهنا قد يطرح هذا السؤال وهو: هل إن جميع الأحياء سيحشرون يوم القيامة، حتى غير الإنسان، حيث يقال أحياناً إن كلمة (دابة) تطلق على غير الإنسان. للحساب. في حين أنّها لا تتمتع بعقل ولا اختيار ولا تكليف؟

وقد ورد جواب هذا السؤال في نهاية الآية (٣٨) من سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

وقلنا إن حياة العديد من الحيوانات مقترنة مع نظام بديع وعجيب، فما المانع من أن تكون أعمالها نتاج نوع من العقل والشعور فيها؟ وهل هناك ضرورة لإرجاع جميع هذه الأمور إلى الغريزة؟ وفي هذه الحالة يمكن تصور نوع من الحشر والحساب لها (اقرأ شرحاً أكثر لهذا الموضوع في ذيل تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنعام).

ويحتمل في تفسير الآية أعلاه أن المقصود من (الجمع) الجانب المقابل لـ(بث)، أي أن (بث) تشير إلى خلق أنواع الكائنات الحية باختلافها، ثمّ إذا شاء الخالق (جمعها) وأفناها. فكما أن العديد من الأحياء ـ (على مدى التاريخ) ـ انتشرت بشكل عجيب، ثمّ انقرضت واختفت فيما بعد. كذلك جمعها وإبادتها يكون بيد الخالق، فهي في الحقيقة تشبه الآيات التي تقول: ﴿وَيُمِيتُ﴾ (أي الخالق).

وبهذا فإنّ قضية حساب الحيوانات سوف تكون أجنبية عن هذه الآية.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٨-٩٩].

قال في الأمثل: هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد ومعرفة الله، والوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان ويسبح به في آفاق العالَم البعيدة وقد يسير به في داخل ذاته ويبيّن له آثار الله في جسمه وروحه، فيتيح له أن يرى الله في كل مكان.

فيبدأ بالقول: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

أي أنكم، على اختلاف ملامحكم وأذواقكم وأفكاركم والتباين الكبير في مختلف جوانت حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، وهذا دليل على منتهى عظمة الخالق وقدرته التي أوجدت من المثال الأوّل كل هذه الوجوه المتباينة.

وجدير بالملاحظة أنّ هذه الآية تُعبِّر عن خلق الإنسان بالإنشاء، والكلمة لغوياً تعني الإيجاد والإبداع مع التربية، أي أنّ الله قد خلقكم وتَعهَّد بتربيتكم، ومن الواضح أنّ الخالق الذي يخلق شيئاً ثمّ يهمله لا يكون قد أبدى قدرة فائقة، ولكنّه إذا استمر في العناية بمخلوقاته وحمايتها، ولم يغفل عن تربيتها لحظة واحدة، عندئذٍ يكون قد أظهر حقّاً عظمته وسعة رحمته.

بهذه المناسبة ينبغي ألّا نتوهَم من قراءة هذه الآية، أنّ أُمّنا الأولى حواء قد خُلقت من آدم (كما جاء في الفصل الثّاني من سفر التكوين من التّوراة)، ولكن آدم وحواء خُلِقا من تراب واحد، وكلاهما من جنس واحد، ونوع واحد، لذلك قال: إنّهما خُلِقا من نفس واحدة، قال في الأمثل: قد بحثنا هذا الموضوع في بداية تفسير سورة النساء.

ثم يقول: إنّ فريقاً من البشر «مستقر» وفريقاً آخر «مستودع» ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

«المستقر» أصله من «القُر» (بضم القاف) بمعنى البرد، ويقتضي السكون والتوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

«ومستودع» من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر، والوديعة هي التي يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضح من هذا الكلام أنّ الآية تعني أنّ الناس بعض «مستقر» أي ثابت، وبعض «مستودع» أي غير ثابت، أمّا المقصود من هذين التعبيرين، فالكلام كثير بين المفسّرين، وبعض التفاسير تبدو أقرب إلى الآية كما أنّها لا تتعارض فيما بينها.

من هذه التفاسير القول بأنّ «مستقر» صفة الذين كمل خلقهم ودخلوا «مستقر الرحم» أم مستقر وجه الأرض، و«المستودع» صفة الذين لم يكتمل خلقهم بعد، إنّما هم ما يزالون نطفاً في أصلاب آبائهم.

تفسير آخر يقول: إنَّ «مستقر» إشارة إلى روح الإنسان الثابتة والمستقرة، و«مستودع» إشارة إلى جسم الإنسان الفاني غير الثابت.

وقد جاء في بعض الرّوايات تفسير معنوي بهذين التعبيرين، وهو أنّ «مستقر» تعني الذين لهم إيمان ثابت و«مستودع» تعني من لم يستقر إيمانه[١].

وثمّة احتمال أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الجزأين الأولين في تركيب نطفة الإنسان، إنّ النطفة ـ كما نعلم ـ تتركب من جزأين: الأوّل هو «البويضة» من الأنثى، والثاني هو «الحيمن» أو «المني» من الذكر، إنّ البويضة في رحم الأنثى تكاد تكون مستقرة، ولكن حيمن الذكر حيوان حي يتحرك بسرعة نحوها، وما أن يصل أوّل حيمن إلى البويضة حتى يمتزج بها و«يخصبها» ويصد «الحيامن» الأخرى، ومن هذين الجزأين تتكون بذرة الإنسان الأولى.

وفي ختام الآية يعود فيقول: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

عند الرجوع إلى كتب اللغة يتبيّن لنا أنّ «الفقه» ليس كل معرفة أو فهم، بل هو التوصل إلى علم غائب بعلم حاضر[٢]، وبناء على ذلك فالهدف من التمعن في خلق الإنسان واختلاف أشكاله وألوانه، هو أن يتوصل المرء المدقق من معرفة الخلق إلى معرفة الخالق.

الآية الثانية هي آخر آية في هذه المجموعة التي تكشف لنا عن عجائب عالم الخلق وتهدينا إلى معرفة الله بمعرفة مخلوقاته.

في البداية تشير الآية إلى واحدة من أهم نعم الله التي يمكن أن تعتبر النعمة الأم وأصل النعم الأخرى، وهي ظهور النباتات ونموها بفضل النعمة التي نزلت من السماء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٧٥٠.
(٢) مفردات الراغب، ٣٨٥.

وإنّما قال: (من السماء) لأنّ سماء كل شيء أعلاه، فكل ما في الأرض من مياه العيون والآبار والأنهار والقنوات وغيرها منشؤها الأمطار من السماء، وقلّة الأمطار تؤثر في كمية المياه في تلك المصادر كلها، وإذا استمر الجفاف جفّت تلك المنابع، أيضاً.

وقال في الميزان: والظاهر أنّ المراد بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، انتهاء الذرية الإنسانية على كثرتها وانتشارها إلى آدم الذي يعده القرآن الكريم مبدء للنسل الإنساني الموجود، وأن المراد بالمستقر هو البعض الذي تلبس بالولادة من أفراد الإنسان فاستقر في الأرض التي هي المستقر لهذ النوع كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. والمراد بالمستودع من استودع في الأصلاب والأرحام ولم يولد بعد وسيولد بعد حين، فهذا هو المناسب لمقام بيان الآية بإنشاء جميع الأفراد النوعية من فرد واحد ومن الممكن أن يؤخذ مستقر ومستودع مصدرين ميميين.

وقد عبّر بلفظ الإنشاء دون الخلق ونحوه وهو ظاهر في الدفعة وما في حكمه دون التدريج، ويُؤيّد هذا المعنى أيضاً ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾. كما لا يخفى أي يعلم ما استقر منها في الأرض بفعلية التكون، «وما هو في طريق التكوُّن مما لم يتكوَّن بالفعل ولم يستقر في الأرض».

فالمعنى: وهو الذي أوجدكم معشر الأناسي من نفس واحدة وعمَّر بكم الأرض إلى حين فهي مشغولة لكم ما لم تنقرضوا فلا يزال بعضكم مستقراً فيها وبعضكم مستودع في الأصلاب والأرحام أو في الأصلاب فقط في طريق الاستقرار فيها.

وقد أورد المفسرون في الآية معاني أُخر كقول بعضهم: إن المراد من إنشائهم من نفس واحدة خلقهم من نوع واحد من النفس وهو النفس الإنسانية، أو أن المراد هو الإنشاء من نواع واحد من التركيب النفسي والبدني، وهو الحقيقة الإنسانية المؤلّفة من نفس وبدن إنسانيين.

وكقول بعضهم: إن المراد بالمستقر الأرحام وبالمستودع الأصلاب وقول

بعض آخر: إن المستقر الأرض والمستودع القبر، وقول بعض آخر: إن المستقر هو الرحم والمستودع الأرض أو القبر، وقول بعض آخر: إن المستقر هو الروح والمستودع هو البدن، إلى غير ذلك من أقاويلهم التي لا جدوى في التعرض لها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلى آخر الآية. السماء هي جهة العلو فكلما علاك وأظلَّك فهو سماء، والمراد بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على ما قيل، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء النبات والنمو الذي في كل شيء نام له قوَّة النبات من الكمون الى البروز، أي أنبتنا به كل شيء نباتي كالنجم والشجر والإنسان وسائر الحيوان.

والخضر: هو الأخضر وكأنه مخفف الخاضر، وتراكب الحب انعقاد بعضه فوق بعض كما في السنبلة، والطلع أول ما يبدو من ثمر النخل، والقنوان جمع قنو وهو العذق بالكسر وهو من التمر كالعنقود من العنب، والدانية أي القريبة، والمشتبه وغير المتشابه المُشاكِل وغير المُشاكِل في النوع والشكل وغيرهما. وينع الثمر نضجه.

وقد ذكر الله سبحانه أموراً مما خلقه لينظر فيها من له نظر وبصيرة فيهتدي بالنظر فيها إلى توحيده، وهي أمور أرضية كَفَلْق الحبة والنواة ونحو ذلك، وأمور سماوية كالليل والصبح والشمس والقمر والنجوم، وأمر راجع إلى الإنسان نفسه وهو إنشاء نوعه من نفس واحدة فمستقر ومستودع، وأمور مُؤلَّفة من الجميع كإنزال المطر من السماء وتهيئة الغذاء من نبات وحب وثمر وإنبات ما فيه من قوَّة النمو كالنبات والحيوان والإنسان من ذلك.

وقد عد النجوم آية خاصة بقوم يعلمون، وإنشاء النفوس الإنسانية آية خاصة بقوم يفقهون، وتدبير نظام الإنبات آية لقوم يؤمنون والمناسبة وظاهرة فإن النظر في أمر النظام أمر بسيط لا يفتقر إلى مؤونة زائدة بل يناله الفهم العادي بشرط أن يتنوَّر بنصفة الإيمان ولا يتلطخ بقذارة العناد واللجاج، أما النظر في النجوم والأوضاع السماوية فمما لا يتخطى العلماء بهذا الشأن ممن يعرف النجوم ومواقعها وسائر الأوضاع السماوية إلى حدّ ما، ولا يناله الفهم العام العامي إلا بمؤونة: وأما آية

الأنفس، فإن الإطلاع عليها، وعلى ما عندها من أسرار الخلقة يحتاج مضافاً إلى البحث النظري إلى مراقبة باطنية، وتعمُّق شديد وتثبُّت بالغ وهو الفقه.

ثم تشير الآية الى أثر نزول الأمطار البارز: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

يرى المفسّرون احتمالين في المقصود من ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

الأول: إنّ المقصود من ذلك كل أنواع النباتات وأصنافها التي تسقى من ماء واحد، وتنبت في أرض واحدة وتتغذى من تربة واحدة، وهذه واحدة من عجائب الخلق، كيف تخرج كل هذه الأصناف من النباتات بأشكالها وألوانها وأثمارها المختلفة والمتباينة أحياناً من أرض واحدة وماء واحد!

والإحتمال الثاني: هو أنّ النباتات يحتاج إليها كل مخلوق آخر من حشرات وطيور وحيوانات في البحر والبر، وأنّه لمن العجيب أنّ الله تعالى يخرج من أرض واحدة وماء واحد الغذاء الذي يحتاجه كل هؤلاء، وهذا من روائع الأعمال المعجزة كأنّ يستطيع أحد أن يصنع من مادة معينة في المطبخ آلاف الأنواع من الأطعمة لآلاف الأذواق والأمزجة.

والأعجب من كل هذا أنّ نباتات الصحراء واليابسة ليس وحدها التي تنمو ببركة ماء المطر، بل إنّ النباتات المائية الصغيرة التي تطفو على سطح البحر وتكون غذاء للأسماك تنمو بأشعة الشمس وقطرات المطر.

قال في الأمثل: ولا أنسى ما قاله أحد سكّان المدن الساحلية وهو يشكو قلّة الصيد في البحر، ويذكر سبب ذلك بأنّه الجفاف وقلّة نزول المطر، فكان يعتقد أنّ قطرات المطر في البحار أشد تأثيراً منها في اليابسة.

ثمّ تشرح الآية ذلك وتضرب مثلاً ببعض النباتات التي تنمو بفضل الماء، فتذكر أنّ الله سبحانه يخرج بالماء سيقان النباتات الخضر من الأرض، ومن تلك الحبّة الصلبة يخلق الساق الأخضر الطري اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾[1].

---

(١) كلمة «أخضر» تشمل كل أخضر في النباتات، حتى براعم الأشجار، ولكن بما أنّها متبوعة مباشرة بالحب المتراكب فالمقصود في الآية هو زراعة الحبوب.

ومن ذلك الساق الأخضر أخرجنا الحبّ متراصفاً منظَّماً: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

وكذلك بالماء نخرج من النخل طلعاً مغلقاً، ثمّ يتشقّق فتخرج الأعذاق بخيوطها الرفيعة الجميلة تحمل حبات التمر، فتتدلّى من ثقلها، ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

«الطلع» هو عذق التمر قبل أن ينفتح غلافه الأخضر، وإذ ينفتح الطلع تخرج منه أغصان العِذْق الرفيعة، وهي القِنوان ومفردها قِنو.

و«دانية» أي قريبة، وقد يكون ذلك إشارة إلى قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلى أنّها تميل نحو الأرض لثقلها.

وكذلك بساتين فيها أنواع الأثمار والفواكه: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾.

ثمّ تشير الآية إلى واحدة أُخرى من روائع الخلق في هذه الأشجار والأثمار، فتقول: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

انظر تفسير الآية ٣٢ من هذه السورة في شرح المشتبه وغير المتشابه للزيتون والرّمان[١].

إنّ شجرتي الرمان والزيتون متشابهان من حيث الشكل الخارجي وتكوين الأغصان وهيئة الأوراق تشابهاً كبيراً، مع أنّهما من حيث الثمر وطعمه وفوائده مختلفان، ففي الزيتون مادة زيتية قوية الأثر، وفي الرمان مادة حمضية أو سكرية، فهما متباينان تماماً، ومع ذلك فقد تزرع الشجرتان في أرض واحدة، وتشربان من ماء واحد، فهما متشابهان وغير متشابهين في آن واحد.

ومن المحتمل أنّ تكون الإشارة إلى أنواع مختلفة من أشجار الفاكهة التي يتشابه بعضها في الشجر وفي الثمر، ويختلف بعضها عن الآخر في ذلك، (أي أنّ كل واحدة من هاتين الصفتين تختص بمجموعة من الأشجار والأثمار، أمّا حسب التفسير الأوّل، فإنّ الصفتين لشيء واحد).

---

(١) «المتراكب» من الركوب وما ركب بعضه بعضاً، وأكثر الحبوب بهذا الشكل.

ثمّ تركّز الآية من بين مجموع أجزاء شجرة على ثمرة الشجرة وعلى تركيب الثمرة إذا أثمرت، وكذلك على نضج الثمرة إذا نضجت، ففيها دلائل على قدرة الله وحكمته للمؤمنين من الناس: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ما نقرأه اليوم في علم النبات عن كيفية طلوع الثمرة ونضجها يكشف لنا عن الأهمية الخاصّة التي يوليها القرآن للأثمار، إذ إنّ ظهور الثمرة في عالم النبات أشبه بولادة الأبناء في عالم الحيوان، فنطفة الذكر في النبات تخرج من أكياس خاصّة بطرق مختلفة (كالرياح أو الحيوانات) وتحط على القسم الأنثوي في النبات، وبعد التلقيح والتركيب تتشكل البيضة الملقحة الأولى، وتحيط بها مواد غذائية متشابهة لتركيبها، إنّ هذه المواد الغذائية تختلف من حيث التركيب وكذلك من حيث الطعم والخواص الغذائية والطبية، فقد تكون ثمرة (مثل العنب والرمان) فيها مئات من الحبّ، كل حبّة منها تعتبر جنيناً وبذرة لشجرة أخرى، ولها تركيب معقّد عجيب.

إنّ شرح بنية الأثمار والمواد الغذائية والطبية خارج عن نطاق هذا البحث، ولكن من الحسن أنّ نضرب مثلاً بثمرة الرمان التي أشار إليها القرآن على وجه الخصوص في هذه الآية.

إذا شققنا رمانة وأخذنا إحدى حباتها ونظرنا خلالها باتجاه الشمس أو مصدر ضوء آخر نجدها تتألف من أقسام أصغر، وكأنّها قوارير صغيرة مملوءة بماء الرّمان قد رصفت الواحدة إلى جنت الأخرى. ففي حبّة الرمان الواحدة قد تكون المئات من هذه القوارير الصغيرة جداً، يجمع أطرافها غشاء رقيق هو غشاء حبّة الرمان الشفاف، ثمّ لكي يكون هذا التغليف أكمل وأمتن وأبعد عن الخطر ركّب عدد من الحبات على قاعدة في نظام معين، ولُفَّت في غلاف أبيض سميك بعض الشيء، وبعد ذلك يأتي القشر الخارجي للرمانة، يلف الجميع ليحول دون نفوذ الهواء والجراثيم، ولمقاومة الضربات ولتقليل تبخر ماء الرمان في الحبّات إلى أقل حدّ ممكن.

إنّ هذا الترتيب في التغليف لا يقتصر على الرمان، فهناك فواكه أخرى ـ

مثل البرتقال والليمون ـ لها تغليف مماثل، أمّا في الأعناب والرمان فالتغليف أدق وألطف.

ولعل الإنسان حذا حذو هذا التغليف عندما أراد نقل السوائل من مكان إلى مكان، فهو يصف القناني الصغيرة في علبة ويضع بينها مادة لينة، ثمّ يضع العلب الصغيرة في علب أكبر ويحمل مجموعها إلى حيث يريد.

وأعجب من ذلك استقرار حبّات الرمان على قواعدها الداخلية وأخذ كل منها حصتها من الماء والغذاء وهذا كله ممّا نراه بالعين، ولو وضعنا ذرّات هذه الثمرة تحت المجهر لرأينا عالَماً صاخباً وتراكيب عجيبة مدهشة محسوبة بأدق حساب.

فكيف يمكن لعين باحثة عن الحقيقة أن تنظر إلى هذه الثمرة ثم تقول: إنّ صانعها لا يملك علماً ولا معرفة!!

إنّ القرآن إذ يقول: ﴿ٱنظُرُوٓا۟﴾ إنّما يريد هذه النظرة إلى هذا القسم من الثمرة للوصول إلى هذه الحقائق.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فإن المراحل المتعددة التي تمر بها الثمرة منذ تولّدها حتى نضجها تثير الإنتباه، لأن «المختبرات» الداخلية في الثمرة لا تنفك عن العمل في تغيير تركيبها الكيماوي إلى أن تصل إلى المرحلة النهائية ويثبت تركيبها الكيماوي النهائي، أنّ كل مرحلة من هذه المراحل دليل على عظمة الخالق وقدرته.

ولكن لا بدّ من القول ـ بحسب تعبير القرآن ـ إنّ المؤمنين الذين يمعنون النظر في هذه الأمور هم الذين يرون هذه الحقائق، وإلّا فعين العناد والمكابرة والإهمال والتساهل لا يمكن أن ترى أدنى حقيقة.

﴿. . . وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٢-٤].

التّفسير

وبعد أن بيّن خلق السماوات وهيمنة الخالق عليها تحدث عن تسخير الشمس والقمر ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ما أعظم هذا التسخير الذي يقع تحت إرادة ومشيئة الخالق، وفي خدمة الوجود الإنساني والكائنات الحيّة حيث يشعّ نورهما وتضيئان العالم، وتحافظان على دفء الكائنات وتساعدانها على النمو، وتخلقان ظاهرة الجزر والمدّ في البحار، وخلاصة القول إنّهما منشأ لجميع البركات، ولكن هذا النظام المادّي ليس أبدياً، بل ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

ثمّ يضيف بعد ذلك: إنّ هذه الحركات والتغيّرات في الأحوال ليس بدون حساب وكتاب، وبدون فائدة ونتيجة، بل ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

وتعقيباً للآيات السابقة التي نقلت الإنسان إلى السّماء لتريه الآيات الإلهيّة هناك، تنقله الآية الثانية من آيات التوحيد إلى كتاب الكون أي الأرض والجبال والأنهار وأنواع الثمار وشروق الشمس وغروبها، حتى يتفكّر في محلّ استقراره في البداية ماذا كان؟ وكيف أصبح الآن بهذه الصورة؟

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ وبسطها بالشكل الذي تتهيّأ فيه لحياة الإنسان ونمو النباتات والحيوانات، وملأ الأودية والمنحدرات الصعبة بالتراب من خلال تفتّت الصخور الجبليّة، وجعل الأرض مسطّحة وقابلة للسكن، بعد أن كانت التضاريس مانعة من سكن الإنسان عليها.

وقد يحتمل في تفسير هذه الجملة: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ الإشارة إلى ما يقوله علماء الطبيعة من أنّ الأرض كانت مغطاة بالماء. ثمّ استقرّت المياه في الوديان ظهرت اليابسة، وبمرور الوقت اتّسعت حتى أصبحت على ما نراه اليوم.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى ظهور الجبال ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ فهي تلك الجبال التي عبّرت عنها في آيات أُخرى بـ(الأوتاد) ولعلّ ذلك إشارة إلى أنّها متشابكة فيما بينها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقي وتغطّي سطح الأرض، فهي تبطل الضغوط الداخلية على الأسفل والضغط الخارجي المتمثّل بجاذبية

القمر والمدّ والجزر، وكذلك تقضي على الإضطرابات والزلازل، وتجعل الأرض مستقرّة وساكنة وصالحة لحياة الإنسان.

إنّ ذكر القرآن الكريم الجبال بعد مدّ الأرض يُحتمل أن يكون المراد منه أنّ الأرض ليست منبسطة بشكل تامّ بحيث تنعدم فيها المرتفعات، ففي هذه الصورة لا تستقرّ فيها الأمطار والمياه، أو تتحوّل إلى مستنقعات وتجري فيها السيول وتتعرّض للطوفانات الدائمة، فخلق الجبال لتأمن البشرية من هذين الأمرين.

وليست الأرض كلّها ودياناً فتكون غير قابلة للسكن، بل تحتوي على مناطق منبسطة ومناطق جبلية ووديان، وهذه أفضل صيغة لحياة الإنسان والكائنات الحيّة. ثمّ تضيف الآية بعد ذلك الأنهار ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ .

رائع جدّاً نظام سقي الأرض بواسطة الجبال، وعلاقة الأنهار بالجبال، لأنّ كثيراً من الجبال تختزن المياه بشكل ثلوج على قممها وفي شقوق الوديان، ثمّ تذوب تدريجيّاً، وطبقاً لقانون الجاذبية تأخذ طريقها من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة بدون أن تحتاج إلى قوّة أُخرى لمساعدتها، فهي تقوم بسقي كثير من المناطق وبشكل طبيعي على مدار السنة.

فلو لم يكن للأرض إنحدار كاف ولم تختزن الجبال المياه بهذا الشكل، لكان سقي كثير من المناطق اليابسة صعباً، وفي حالة الإمكان كُنّا نحتاج إلى صرف مبالغ هائلة لإيصال الماء إليها.

ثمّ يذكر القرآن بعد ذلك النباتات والأشجار التي تتكوّن من الأرض والمياه وأشعة الشمس، والتي هي أفضل وسيلة لإمرار الإنسان بالغذاء: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

والآية تشير إلى أنّ الفاكهة كائنات حيّة فيها الذكر والأُنثى، وبواسطة التلقيح تتكوّن الثمار.

فإذا كان العالم السويدي «لينه» المختص بعلم النبات هو الذي توصّل إلى هذه الحقيقة في حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وهي أنّ التزويج في عالم النباتات يعتبر قانوناً عامّاً تقريباً كالحيوانات ولها نُطف ذكرية وأنثوية

وأنّ الثمرة تتكوّن من التلقيح. فالقرآن الكريم قبل ألف ومائة عام من ذلك كشف لنا عن هذه الحقيقة، وهذه واحدة من معاجز القرآن العلمية التي تبيّن عظمة هذا الكتاب السّماوي الكبير.

وليس من شكّ أنّ ما قبل «لينه» كان كثير من العلماء يعتقدون بوجود الذكور والإناث في بعض الأشجار، حتّى الناس العاديين كانوا يعلمون بذلك، ولكن لم يكن يعلم أي واحد أنّ هذا القانون عام، حتّى كشفه «لينه» ومن قبله القرآن الكريم.

وبما أنّ حياة الإنسان وكلّ الكائنات ـ وخصوصاً النباتات ـ لا يمكن لها الإستمرار إلاّ بوجود نظام دقيق للّيل والنهار، فإنّ القرآن يشير إلى ذلك في القسم الآخر من الآية ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

ولولا ظلمة الليل وهدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر كلّ النباتات، ولم تبق فاكهةٌ ولا أي كائن حي على وجه الأرض، فسطح القمر ليس له نهار دائم ومع هذا نجد أن حتّى هذا المقدار من نهاره الذي يعادل خمسة عشر يوماً من أيّام الأرض. نرى أنّ درجة الحرارة فيها مرتفعة جدّاً بحيث لو وضعنا هناك ماءً أو أي سائل آخر فسوف يغلي ويتبخّر، ولا يمكن لأي موجود حيّ في الأرض أن يتحمّل هذه الحرارة.

وتبيّن الآية في النهاية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أولئك الذين يتفكّرون في هذا النظام الرائع، في نظام النّور والظلام، وحركة الأجرام السّماوية، وتسخير الشمس والقمر وجعلهما في خدمة الإنسان، وفي نظام مدّ الأرض وأسرار خلق الجبال والأنهار والنباتات، نعم! فهم يرون بوضوح في هذه الآيات الحكمة المطلقة والقدرة اللامتناهية للخالق العلاّم.

وفي الآية الأخيرة من هذه المجموعة يشير القرآن الكريم إلى عدّة نقاط حول علم الأرض وعلم النبات، والتي تعبّر عن النظام الدقيق للخلقة، يقول أوّلاً: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾[1] فبالرغم من أنّ هذه القطع متصلة مع

---

(١) متجاور بمعنى الجار وما يكون قريباً، فقوله: (قطع متجاورات) يقصد منه أنّ هذه القطع مختلفة وليست متساوية، وإلّا لم يكن للجملة معنى.

بعضها البعض، فإنّ لكلّ واحدة منها بناءها وتركيبها الخاص بها، فبعضها قوي والآخر ضعيف، وبعضها مالح والآخر حلو، وكلّ قطعة لها الإستعداد في تربية نوع خاص من النباتات وأشجار الفاكهة والزراعة، لأنّ احتياجات الإنسان والحيوان كثيرة ومتفاوتة، وقد تكون لكلّ قطعة من الأرض المسؤولية في تلبية إحدى هذه الحاجات. وأمّا إذا كانت في مستوًى واحد، أو لم تكن استعداداتها مقسّمة بالشكل المطلوب، لكان الإنسان يمرّ بأزمة ونقص في موادّه الغذائية والطبية وسائر الإحتياجات الأُخرى، ولكن هذا التقسيم المناسب للمسؤولية وتوزيعها على القطعات المختلفة للأرض سوف يسدّ الإحتياجات اللازمة للإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ[1] صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾[2].

«صنوان» جمع «صنو» بمعنى الغصن الخارج من أصل الشجرة، وعليه فالكلمة تعني الأغصان المختلفة الخارجة من أصل الشجرة.

والملفت للنظر أنّه يمكن أن يكون لكلّ واحد من هذه الأغصان نوع خاصّ من الثمر، وهذه قد تشير إلى قابلية الأشجار للتركيب. ففي بعض الأحيان يتمّ تركيب عدّة أغصان مختلفة على ساق واحدة، وبعد نمو هذه التراكيب تعطي كلّ واحدة منها نوعاً خاصاً من الثمر، فالتربة واحدة والساق والجذر واحد ولكن الثمر مختلف.

والأعجب من ذلك أنّها تسقى بماء واحد ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾.

وقد نرى كثيراً أنّه في الشجرة الواحدة أو في غصن واحد توجد ثمار من نفس الصنف ولكن لها أطعمة وألوان مختلفة، وفي العالم نشاهد أوراداً كثيرة، وقد يحمل الغصن الواحد أوراداً مختلفة الألوان.

---

(١) «أعناب» جمع عنب و «النخيل» جمع نخلة، ويحتمل أنّهما ذكرتا بصيغة الجمع للدلالة على الأنواع المختلفة للعنب والتمر والتي قد تصل إلى مئات الأنواع في العالم.

(٢) وقد ذكروا معنًى آخر لصنو، وهو الشبيه، ولكن يحتمل أنّ هذا المعنى مأخوذ من نفس المعنى الذي ذكرناه آنفاً.

أي مختبر للأسرار هذا الذي يعمل في أغصان الأشجار، والذي ينتج من مواد قليلة متحدة، تركيبات مختلفة تؤمّن إحتياجات الإنسان.

أليست هذه الأسرار تدلّ على وجود من يقود هذا النظام بالعلم والحكمة. وهنا في آخر الآية يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

هناك عدّة نقاط:

١ ـ ما هو وجه العلاقة بين التوحيد والمعاد؟

كان الحديث في بداية الآية عن التوحيد وأسرار الكون، ولكن نقرأ في نهايتها ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فما هو وجه العلاقة بين التوحيد والمعاد حتّى يكون الواحد نتيجة للآخر؟

للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من ملاحظة ما يلي:

أ ـ إنّ قدرة الله على إيجاد الكون دليل على قدرته في إعادته كما نقرأ في الآية ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٧] أو نقرأ في أواخر سورة «يس» قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١].

ب ـ وكما قلنا في بحثنا عن المعاد، فإنّه لا فائدة من خلق العالَم إذا لم تكن الآخرة حقيقة، لأنّه لا يمكن أن تكون هذه الحياة هي الهدف من خلق هذا العالَم الواسع. يقول القرآن الكريم ضمن آياته المتعلّقة بالمعاد من سورة الواقعة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [الواقعة: ٦٢].

٢ ـ الإعجاز العلمي للقرآن:

هناك آيات كثيرة في القرآن المجيد أزاحت الستار عن مجموعة من الأسرار العلمية التي كانت خافية على العلماء في ذلك الوقت. وهذه واحدة من دلائل إعجاز وعظمة القرآن، وغالباً ما كان يشير إليها كثير من المحقّقين في مسألة الإعجاز.

فمن جملة هذه الآيات ما ذكرناه آنفاً وهي الآية التي تذكر الزوجية في

---

(١) للمطالعة أكثر راجع كتاب (المعاد والعالم بعد الموت).

النباتات، فكما قلنا سابقاً: إنّ ظاهرة الزوجية في النباتات كانت معروفة للناس منذ القديم ولو بشكلها الجزئي، ولكن لم تكن تعرف بشكل قانون عام حتّى أواسط القرن الثامن عشر حين استطاع العالم «لينه» ولأوّل مرّة أن يكشف عن هذه الحقيقة، ولكن القرآن الكريم أخبر بذلك قبل أكثر من ألف عام.

كما أشار القرآن إلى هذا الموضوع في سورة لقمان: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

كما أشارت إليها آيات أخرى.

٣ ـ تسخير الشمس والقمر:

قرأنا في الآيات السابقة أنّ الله سخّر الشمس والقمر، كما نقرأ في آيات كثيرة أُخرى عن تسخير السّماء والأرض والليل والنهار للإنسان.

فنقرأ في آية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢] وفي آية أُخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [النحل: ١٢]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [إبراهيم: ٣٣] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

من مجموع هذه الآيات يمكن أن نستفيد ما يلي:

أولاً: إنّ الإنسان أكمل من جميع المجودات في هذا العالم، فمن وجهة إسلامية نرى أنّ الشريعة الإسلامية تعطي للإنسان القيمة الكبيرة بحيث تسخّر له كلّ ما في الكون، فهو خليفة الله، وقلبه مستودع نوره!

ثانياً: ويتّضح أنّ التسخير ليس المقصود منه أنّ جميع هذه الكائنات هي تحت إمرة الإنسان، بل هي بقدر معيّن تدخل ضمن منافعه وخدمته، وعلى سبيل المثال فإنّ تسخير الكواكب السّماوية من أجل أن يستفيد الإنسان من نورها أو لفوائد أخرى.

فلا يوجد أي مبدأ يقيّم الإنسان بهذا الشكل، ولا يوجد في أي فلسفة هذا المقام لشخصيته، فهذه من خصائص المدرسة الإسلامية التي ترفع من قيمة

الإنسان بهذا الشكل الكبير، فالمعرفة بها لها أثر عميق على تربيته، لأنّه حينما يُفكِّر الإنسان بتعظيم الله له، وتسخير السحاب والهواء والشمس والقمر والنّجوم وجعلها في خدمته، فمثل هذا الإنسان لا تعتريه الغفلة ولا يكون عبداً للشهوات وأسيراً للمال والمقام، بل يحطّم القيود ويتطلّع إلى آفاق السّماء.

كيف يمكن القول: إنّ الشمس والقمر غير مسخَّرَين للإنسان في الوقت الذي نرى أنّ في أشعّتها نوراً يضيء حياة الإنسان ويحافظ على دفئه، ولولا أشعّة الشمس لما وُجدت أي حركة أو نشاط على الكرة الأرضية، ومن جهة أُخرى فإنّ جاذبيتها تُنظِّم حركة الأرض حول مدارها، وتُوجِد ظاهرة المدّ والجزر في البحار بمساعدة القمر وهي بالتالي منبع لكثير من الفوائد والبركات.

فالبحار والأنهار، والليل والنهار، والفلك؛ كلّ واحدة هي في خدمة الإنسان ومصالحه. والدقّة في هذا التسخير والنظام دليل واضح على عظمة وقدرة وحكمة الخالق المتعال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٦].

التّفسير

فالق الإصباح:

مرّة أُخرى يُوجِّه القرآن الخطاب إلى المشركين، ويشرح لهم دلائل التوحيد في عبارات جذّابة وفي نماذج حية من أسرار الكون ونظام الخالق وعجائبه.

في الآية الأولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، وفي الآية الثانية يشير إلى ثلاثة من الظّواهر السماوية.

يقول القرآن الكريم أوّلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾.

«الفلق» شقُّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض[1].

---

(١) الراغب الأصفهاني (المفردات)، ص٣٨٥.

و«الحب» و«الحبة» تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات التي تُحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضاً[١].

و«النوى» من النّواة، قيل إنّه يخص نوى التمر، ولعل هذا يرجع إلى كثرة التمر في بيئة العرب حتى كان العربي ينصرف ذهنه إلى نوى التمر إذا سمع هذه الكلمة.

ولننظر الآن إلى ما يمكن في هذا التعبير:

ينبغي أن نعلم أنّ أهمَّ لحظة في حياة الحبّة والنّوى هي لحظة الفلق، وهي أشبه بلحظة ولادة الطفل وانتقاله من عالم إلى عالم آخر، إذ في هذه اللحظة يحصل أهمُّ تحوُّل في حياته.

وممّا يلفت الإنتباه أنّ الحبّة والنَّواة غالباً ما تكونان صلبتين، فنظرة إلى نوى التمر والخوخ وأمثالهما، وإلى بعض الحبوب الصَّلبة، تكشف لنا أنّ تلك النطفة الحياتية التي هي في الواقع صغيرة، محصنة بقلعة مستحكمة تحيط بها من كل جانب، وأنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصية على الإختراق خاصية التسليم والليونة أمام اختراق نطفة النبات، كما منحت النطفة قوة إندفاع تمكنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقّاً حادثة عجيبة في عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد.

ثم يقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾.

يتكرر هذا التعبير كثيراً في القرآن مشيراً إلى نظام الموت والحياة وتبديل هذا بذاك، فمرّة ترى الحياة تنبعث من مواد جامدة لا روح فيها في أعماق المحيطات ومجاهل الغابات والصحارى، فيخلق من تركيب مواد كل واحدة منها سم قاتل مواد حيوية، وأحياناً ترى العكس، فبإجراء تغيير بسيط على كائنات حية قوية مفعمة بالحياة تراها قد تحولت إلى كائن لا حياة فيه.

إنّ موضوع الحياة والموت بالنسبة للكائنات الحيّة من أعقد المسائل التي لم تستطع العلوم البشرية الوصول إلى كنه حقيقتها ورفع الستار عن أسرارها

---

(١) الراغب الأصفهاني (المفردات)، ص١٠٥.

لتخطو إلى أعماق مجهولاتها، ولتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعة وموادها الجامدة أن تطفر طفرة عظيمة فتتحوَّل إلى كائنات حية.

قد يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه الإنسان أن يصنع كائناً حياً باستخدام التركيبات الطبيعية المختلفة وتحت ظروف معقَّدة خاصّة، وبطريقة تركيب أجزاء مصنعة، كما يفعلون بالمكائن والأجهزة، غير أنّ قدرة البشر «المحتملة» في المستقبل لا تستطيع أن تُقلِّل من أهمية مسألة الحياة وتعقيداتها التي تبدأ من المُبدِع القادر.

لذلك نجد القرآن ـ وفي معرض إثبات وجود الله ـ كثيراً ما يكرر هذا الموضوع، كما يستدل أنبياء عظام كإبراهيم وموسى عليهما السلام على وجود مبدأ قادر حكيم بمسألة الحياة والموت لإقناع جبابرة طغاة مثل نمرود وفرعون.

يقول إبراهيم لنمرود: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ويقول موسى لفرعون: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

ينبغي ألّا ننسى أنّ ظهور الحي من الميت لا يختص في بداية ظهور الحياة على الأرض فقط، بل يحدث هذا في كل وقت بانجذاب الماء والمواد الأخرى إلى خلايا الكائنات الحية، فتكتسي كائنات غير حية بلباس الحياة، وعليه فإنّ القانون الطبيعي السائد اليوم والقائل بأنّه لا يمكن في الظروف الحالية التي تسود الأرض لأي كائن غير حي أن يتحوَّل إلى كائن حي، وحيثما وجد كائن حي فثمّة بذرة حية وجد منها هو قانون لا يتعارض مع ما قلناه، (فتأمل بدقّة).

ويستفاد من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير هذه الآية والآيات المشابهة لها، أنّ ذلك يشمل الحياة والموت المادّيين كما يشمل الحياة والموت المعنويين أيضاً[1] فثمَّة مؤمنون ولدوا لآباء غير مؤمنين، وآخرون مفسدون وأشرار ولدوا لآباء من المتقين الأخيار، ناقضين قانون الوراثة بإرادتهم واختيارهم.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، باب (طينة المؤمن الكفار)، تفسير البرهان، ج١، ص٥٤٣.

وهذا بذاته دليل آخر على عظمة الخلّاق الذي أعطى الإنسان هذه القدرة والإرادة.

النقطة الأخرى التي ينبغي الإلتفات إليها هي أنَّ «مخرج» الفعل المضارع و«مخرج» اسم الفاعل، يدلان على الاستمرار، أي أنّ نظام ظهور الحي من الميت وظهور الميت من الحي نظام دائم وعام في عالم الخلق.

وفي ختام الآية توكيد للموضوع: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي هذا هو ربّكم وهذه هي قدرته وعلمه اللامتناهي، فكيف بعد هذا تنحرفون عن الحق وتميلون إلى الباطل؟ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وفي الآية الثانية يشير القرآن إلى ثلاث نعم سماوية: فيقول أولاً: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وذكرنا، أنّ «الفلق» هو شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض، و«الإصباح» و«الصبح» بمعنى واحد.

إنّه تعبير رائع، فظلام الليل قد شُبّه بالستارة السميكة التي يشقها نور الصباح شقاً، وهذه الحالة تنطبق على الصبح الصادق والصبح الكاذب كليهما، لأنّ الصبح الكاذب هو الضوء الخفيف الذي يظهر في آخر الليل عند المشرق على هيئة عمود، وكأنّه شق يبدأ من الشرق نحو الغرب في قُبّة السماء المظلمة، والصبح الصادق هو الذي يلي ذلك على هيئة شريط أبيض لامع جميل يظهر عند امتداد الأفق الشرقي، وكأنّه يشق عباب الليل الأسود من الأسفل ممتداً من الجنوب إلى الشمال، متقدماً في كل الأطراف حتى يغطي السماء كلها شيئاً فشيئاً.

كثيراً ما يشير القرآن إلى نعمتي النّور والظلام والليل والنهار، ولكنّه هنا يتناول «طلوع الصبح» كنعمة من نعم الله الكبرى، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جو الأرض، ذلك الغلاف الضخم من الهواء الذي يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض ـ مثل القمر ـ عديمة الجو، لما كان هناك «طلوعان» ولا «فلق» ولا «إصباح» ولا «غسق» ولا «شفق» بل كانت الشمس تبزغ فجأة، بدون أي مقدمات ولسطع نورها في العيون التي اعتادت على ظلام الليل ولم تكد تفارقه، وعند الغروب تختفي فجأة، وتعم الظلمة الموحشة في لحظة واحدة كل الأرجاء، غير أنّ الجو الموجود حول الأرض والمؤدي إلى

حصول فترة فاصلة بين ظلام الليل وضياء النهار عند طلوع الشمس وغروبها يُهيّىء الإنسان تدريجياً لتقبُّل هذين الإختلافين المتضادين والإنتقال من الظلمة إلى النّور، ومن النّور إلى الظلمة، شيئاً فشيئاً، بحيث إنّه يستطيع أن يتحمَّل كل منهما، فنحن نشعر بالإنزعاج إذا كنا في غرفة مضاءة وانطفأت الأنوار فجأة وعمَّ الظلام، ثمّ إذا استمر الظلام ساعة، وعاد النّور مرّة أُخرى فجأة، عادت معها حالة الإنزعاج بسبب سطوع الضوء المفاجىء الذي يؤلِمُ العين ويجعلها غير قادرة على رؤية الأشياء، وإذا ما تكرر هذا الأمر لا شك سيؤذي العين، غير أن ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ قد جنَّب الإنسان هذا الأذى بطريقة رائعة[1].

ولكيلا يظن أحد أنّ فلق الصبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب وأنّه عقاب أو سلب نعمة، يبادر القرآن إلى القول: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾.

من الأُمور المسلَّم بها أنّ الإنسان يميل خلال انتشار النّور والضياء إلى العمل وبذل الجهد، ويتَّجه نحو سطح الجسم وتتهيّأ العضلات للفعالية والنشاط، ولذلك لا يكون النوم في الضوء مريحاً، بل يكون أعمق وأكثر راحة كلما كان الظلام أشد، حيث يتَّجه الدم نحو الداخل، وتدخل الخلايا عموماً في نوع من السكون والراحة، لذلك نجد في الطبيعة أنّ النوم في الليل لا يقتصر على الحيوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام في الليل أيضاً، وعند بزوغ خيوط الصباح الأولى تشرع بفاعليتها ونشاطها، بعكس الإنسان في هذا العصر الآلي، فهو يبقى مستيقظاً إلى ما بعد منتصف الليل، ثمّ يظل نائماً حتى بعد ساعات من طلوع الشمس، فيفقد بذلك نشاطه وسلامته.

في الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام نجد التأكيد على ما ينسجم مع هذا التنظيم، من ذلك ما جاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال يوصي أحد قواده «. . . .ولا تسر أوّل الليل فإنّ الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعناً، فأرح فيه بدنك وروح ظهرك»[2].

---

(١) يقول علماء الفلك: يبدأ طلوع الصبح عندما تصل الشمس إلى ١٨ درجة قبل الأفق الشرقي، ويعم الظلام كل شيء ويختفي الشفق عندما تصل إلى ١٨ درجة تحت الأفق الغربي.

(٢) تفسير الصافي في تفسير الآية.

وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «تزوّج بالليل فإنّه جعل الليل سكناً»[١].

وفي كتاب الكافي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنّه كان يأمر بعدم ذبح الذبائح في الليل وقبل طلوع الفجر، وكان يقول: «إنّ الله جعل الليل سكناً لكل شيء»[٢].

ثمّ يشير الله تعالى إلى الثالثة من نعمه ودلائل عظمته بجعل الشمس والقمر وسيلة للحساب: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾.

«الحسبان» بمعنى الحساب، ولعل القصد منه أنّ الدوران المنظم لهاتين الكرتين السماويتين وسيرهما الدائب (المقصود طبعاً حركتها في أنظارنا وهي الناشئة عن حركة الأرض) عون لنا على وضع مناهجنا الحياتية المختلفة وفق مواعيد محسوبة، كما ذكرنا في التفسير.

يرى بعض المفسّرين أنّ الآية تريد أن تقول إن هاتين الكرتين السماويتين تتحركان في السماء وفق حساب وبرنامج ونظام.

وعليه فهي في الحالة الأولى إشارة إلى إحدى نعم الله على الإنسان، وفي الحالة الثانية إشارة إلى واحد من أدلة التوحيد وإثبات وجود الخالق، ولعلها إشارة إلى كليهما.

على كل حال، إنّه لموضوع مهم جدّاً أن تكون الأرض منذ ملايين السنين تدور حول الشمس والقمر يدور حول الأرض، وبذلك تنتقل الشمس في أنظارنا من برج إلى برج بين الأبراج الفلكية الاثنتي عشرة، والقمر يدور في حركته المنتظمة من الهلال حتى المحاق، إنّ حساب هذا الدوران من الدقة والضبط بحيث إنّه لا يتقدم ولا يتأخر لحظة واحدة، ولو لاحظنا أنّ الأرض تدور حول الشمس في مدار بيضوي معدل شعاعه ١٥٠ مليون كيلومتر ضمن جاذبية الشمس العظيمة، والقمر الذي يدور كل شهر حول الأرض في مدار شبه دائرة شعاعه نحو ٣٧٤ ألف كيلومتر ولا يخرج من جاذبية الأرض

---

(١) تفسير الصافي في تفسير الآية.

(٢) المصدر السابق.

العظيمة، فهو دائم الإنجذاب نحوها، عندئذٍ يمكن أن ندرك مدى التعادل الدقيق بين قوة الجذب بين هذه الأجرام السماوية من جهة، والقوة الطاردة عن مراكزها (القوة المركزية) من جهة أخرى، بحيث لا يمكن أن تتوقف لحظة واحدة أو تختلف قيد شعرة.

وهذا ما لا يمكن أن يكون إلّا في ظل علم وقدرة لا نهائيتين يضعان تخطيطه وينفذانه بدقّة، لذلك تنتهي الآية بقولها: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

التّفسير

أدلّة التوحيد في السموات:

على أثر الكره الذي كان يحمله إبراهيم للأوثان وطلبه من آزر أن يترك عبادة الأصنام، تشير هذه الآية إلى نضال إبراهيم المنطقي مع مختلف عبدة الأصنام، وتبيّن كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الإستدلال العقلي الواضح.

تبيّن أولاً أنّ الله عرّف إبراهيم على أضرار عبادة الأصنام عرّفه على مالكية الله وسلطته المطلقة على السموات والأرض: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

«الملكوت» من «مُلك» بمعنى المالكية والحكم و«الواو» و«التاء» أُضيفا للتوكيد والمبالغة، فالمقصود من الكلمة هنا حكومة الله المطلقة على عالم الوجود برمّته.

---

(١) وعلى هذا، هناك محذوف (مقدّر) في الآية يدل عليه ما في الآيات السابقة، فيكون مضمون الآية: كما أرينا إبراهيم قبح ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام كذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض (تأمل بدقة).

ولعل هذه الآية إجمال للتفصيل الوارد في الآيات التالية بشأن الكواكب والقمر والشمس وإدراك أنّها من المخلوقات لدى مشاهدة أفولها.

أي أنّ القرآن بدأ بذكر مجمل تلك الحالات، ثمّ أخذ يفصلها، وبهذا يتضح المقصود من إراءة ملكوت السموات والأرض لإبراهيم عليه السلام.

كما أنّه في الختام يقول إنّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

لا شك أنّ إبراهيم كان موقناً يقيناً استدلالياً وفطرياً بوحدانية الله، ولكنّه بدراسة أسرار الخلق بلغ يقينه حدَّ الكمال، كما أنّه كان مؤمناً بالمعاد ويوم القيامة، ولكنّه بمشاهدة الطيور المذبوحة التي عادت إليها الحياة بلغ إيمانه مرحلة «عين اليقين».

الآيات التّالية تشرح هذا المعنى، وتبيّن استدلال إبراهيم من أفول الكواكب والشمس على عدم أُلوهيتها، فعندما غطّى ستار الليل المظلم العالم كلّه، ظهر أمام بصره كوكب لامع، فنادى إبراهيم: هذا ربي! ولكنّه إذ رآه يغرب، قال: لا أحبُّ الذين يغربون: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾.

ومرّة أخرى رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضي ذو الإشعاع واللمعان الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانية: هذا ربّي: ولكنّ مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكواكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيات الأفق.

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدني ربّي إلى الطريق الموصل إليه فسأكون في عداد التائهين: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

عند ذاك كان الليل قد انقضى، وراح يجمع أطراف أستاره المظلمة هارباً من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق وتلقي بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبي تنشره على الجبل والوادي والصحراء، وما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربّي فإنّه أكبر وأقوى ضوءاً، ولكنّه إذ رآها كذلك تغرب وتختفي في جوف الليل البهيم أعلن

إبراهيم قراره النهائي قائلاً: يا قوم! لقد سَئِمْتُ كل هذه المعبودات المصطنعة التي تجعلونها شريكة لله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الآن بعد أن عرفتُ أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلهاً قادراً وحاكماً على نظام الكائنات، فإني أتّجه إلى الذي خلق السموات والأرض، وفي إيماني هذا لن أشرك به أحداً، فإني مُوحِّد ولست مشركاً: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

للمفسّرين كلام كثير في تفسير هذه الآية والآيات التالية بشأن ما دفع بإبراهيم المُوحِّد العابد لله الواحد، أن يشير إلى كوكب في السماء ويقول: هذا ربّي؟ ومن بين آراء المفسّرين الكثيرة نقف عند تفسيرين قد اختار كلا منهما عدد من كبار المفسّرين، كما أنّهما مدعومان بشواهد من المصادر الحديثة:

الأوّل: يقول إنّ إبراهيم كان يريد شخصياً أن يفكر في معرفة الله وأن يعثر على المعبود الذي كان يجده بفطرته النقية في أعماق ذاته، إنّه كان يعرف الله بنور فطرته ودليل العقل الإجمالي إذ إنّ كل تعبيراته تدل على أنّه لم يكن يشك أبداً في وجوده، ولكنّه كان يبحث عن مصداقه الحقيقي، بل لقد كان يعلم بمصداقه الحقيقي أيضاً، ولكنّه كان يريد أن يصل عن طريق الإستدلال العقلي الأوضح إلى مرحلة «حق اليقين».

وقد وقعت له هذه الحوادث قبل نبوته، ويحتمل أن تكون في أوّل بلوغه أو قبيل ذلك.

نقرأ في بعض التواريخ والرّوايات أنّ هذه كانت المرّة الأولى التي يرنو فيها إبراهيم بنظره إلى السماء وإلى كواكبها الساطعة، لأن أمّه كانت منذ طفولته قد أخفته في غار خوفاً عليه من بطش نمرود الجبار وجلاوزته.

غير أنّ هذا الإحتمال يبدو بعيداً، إذ يصعب أن نتصور إنساناً يعيش سنوات طويلة في بطن غار ولا يخطو خارجه، ولو مرّة، في ليلة ظلماء، فلعل الذي قوى هذا الإحتمال في نظر بعض المفسّرين هو تعبير ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ الذي

يوحي بأنه لم يكن قد رأى كوكباً حتى ذلك الحين، ولكن هذا التعبير لا يحمل في الواقع مثل هذا المفهوم، بل المقصود هو أنّه، وإن كان قد رأى الكواكب والشمس والقمر مرات حتى ذلك الوقت، فقد ألقى الأوّل مرّة نظرة فاحصة مستطلعة إلى هذه الظواهر. وكان يفكر في مغزى بزوغها وأُفولها ونفي الأُلوهية عنها، في الحقيقة كان إبراهيم قد رآها مراراً، ولكن لا بتلك النظرة.

لذلك فإنه عندما يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ لا يقولها قاطعاً جازماً، بل يقولها من باب الفرض والإحتمال حتى يفكر في الأمر، وهذا يشبه تماماً حالتنا ونحن نحاول أن نعثر على سبب حادثة ما، فنقلب مختلف الإحتمالات والإفتراضات على وجوهها واحدة واحدة، ونستقصي لوازم كل فرضية حتى نعثر على العلة الحقيقية، وهذا لا يكون كفراً، بل ولا حتى دليلاً على عدم الإيمان، بل هو طريق لتحقيق أكثر ولمعرفة أفضل، للوصول إلى مراحل أعلى من الإيمان، كما فعل إبراهيم في مسألة «المعاد» إذ قام بمزيد من الدراسة يوصل إلى مرحلة الشهود والإطمئنان.

جاء في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّما كان إبراهيم طالباً لربّه، ولم يبلغ كفراً، وإنّه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنّه بمنزلته»[١].

وهنالك روايتان أُخريان يذكرهما تفسير نور الثقلين بهذا الشأن.

أمّا التّفسير الثّاني فيقول: إن إبراهيم كان يقول هذا الكلام أثناء مخاطبته عبدة النجوم والشمس، ويحتمل أن يكون ذلك بعد مخاصمته الشديدة في بابل مع عبدة الأوثان وخروجه منها إلى الشام، حيث التقى بهؤلاء الأقوام، وإبراهيم الذي كان قد خبر عناد الأقوام الجاهلة في بابل وخطأ تفكيرهم، أراد أن يجلب إليه إنتباه عبدة الكواكب والشمس والقمر، فأظهر في البداية أنّه معهم وقال لهم: إنكم تقولون: إنّ كوكب الزهرة هذا هو ربّي، حسناً، فلنر ما يحصل لهذا الإعتقاد في النهاية، ولم يمض وقت طويل حتى اختفى وجه الكوكب النير خلف ستار الأفق المظلم، عندئذٍ اتّخذ إبراهيم من هذا الأفول سلاحاً يواجههم به فقال: أنا لا يمكنني أن أتقبل معبوداً كهذا.

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٧٣٨.

وعليه، فإنّ عبارة ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ تعني: هذا ما تعتقدون أنّه ربّي، أو أنّه قالها بلهجة الإستفهام: «هذا ربيّ؟».

ويؤيد هذا التّفسير أيضاً رواية في «نور الثقلين» وتفاسير أُخرى عن كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السلام».

كيفية استدلال إبراهيم على التوحيد:

هنا يبرز هذا السؤال: كيف استطاع إبراهيم أن يستدل من غروب الشمس والقمر والكواكب على عدم ربوبيتها؟

يمكن أن يكون هذا الإستدلال من طرق ثلاثة:

١ ـ إنّ الله المربي، كما يستفاد من كلمة «رب» لا بدّ أن يكون دائماً قريباً من مخلوقاته وأن لا ينفصل عنهم لحظة واحدة، وعليه لا يجوز لكائن يغرب ويختفي ساعات طويلة، بنوره وبركته وتنقطع صلته كلياً عن الكائنات الأُخرى، أن يكون ربّاً وإلهاً.

٢ ـ إنّ كائناً يغرب ويبزغ ويخضع للقوانين الطبيعية، لا يمكن أن يحكم على هذه القوانين ويملكها؟ إنّه هو نفسه مخلوق ضعيف يخضع لأوامرها وغير قادر على أدنى انحراف عنها...

٣ ـ إنّ الكائن المتحرك لا يمكن إلّا أن يكون كائناً حادثاً، فقد أثبتت الفلسفة أنّ الحركة دليل على الحدوث، لأنّ الحركة ذاتها نوع من الوجود الحادث، وأن ما يكون في معرض الحوادث، أي يكون ذا حركة، لا يمكن أن يكون كائناً أزلياً وأبدياً (تأمل بدقة).

ملاحظات

هنا لا بد من الإنتباه إلى النقاط التالية:

١ ـ في الآية الأُولى من الآيات التي نحن بصددها، كلمة «كذلك....» تلفت النظر، وهي تعني: إنّنا مثلما أوضحنا ـ عقلاً ـ أضرار عبادة الأصنام لإبراهيم، كذلك نريه مالكية الله للسماوات والأرض وحكمه عليها، يقول بعض المفسّرين: ذلك يعني: إنّنا كما أريناك قدرة الله وحكمه على السموات، أريناها لإبراهيم أيضاً لكي يزداد معرفة بالله.

٢ ـ أصل «الجَنّ» ستر الشيء عن الحاسة، فمعنى الآية هو: عندما ستر الليل ملامح الكائنات عن إبراهيم.... وإطلاق كلمة «مجنون» على المخبول لإسدال ستار على عقله، وإطلاق «الجِنّ» على الكائنات غير المرئية جاء من هذا الباب، وكذلك الجَنين لاختفائه عن الأنظار في رحم أُمه، و«الجَنَّة» هي البستان التي اختفت أرضها تحت أغصان الأشجار، وقيل للقلب «الجنان» لاستتاره في الصدر، أو لأنّه يخفي أسرار الإنسان.

٣ ـ وبشأن تعيين الكوكب الذي رآه إبراهيم، ذهب المفسّرون مذاهب شتّى، غير أنّ معظمهم يراه «الزهراء» أو «المشتري» ويذكر التاريخ أنّ القدامى كانوا يعبدون هذين الكوكبين من بين آلهتهم، أمّا الحديث المنقول عن الإمام الرضا عليه السلام في «عيون الأخبار» فيقول: إنّ ذلك الكوكب كان «الزهراء»، وهذا ما جاء أيضاً في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام[1].

يقول بعض المفسّرين إنّ أهالي كلدة وبابل شرعوا في محاربة عبدة الأصنام، وراحوا يختارون السيارات باعتبار كل واحدة منها تمثل إلهاً لنوع من أنواع الأشياء من ذلك أنّهم اعتبروا «المريخ» إله الحرب، و«المشتري» إله العدل والعلم، و«عطارد» إله الوزراء «الشمس» ملك الآلهة جميعاً.

٤ ـ «بازغ» من «بزغ» وبزغه: شقه وأسال دمه، ولذلك تطلق على عمل البيطار في الجراحة، وإطلاق هذه الكلمة على طلوع الشمس أو القمر تعبير بليغ يحمل أجمل صور التشبيه، فالشمس والقمر عند الطلوع يشقان الظلام، ويسكبان عند الأُفق إحمرار الشفق الذي ليس ببعيد الشبه عن الدم المسفوح.

٥ ـ «فَطَرَ» من «الفطور» بمعنى الشق، ولعل إطلاق هذه الكلمة على خلق السماء والأرض ناشيء ـ كما قلنا في تفسير الآية (١٤) من هذه السورة ـ من كون العالم كان في اليوم الأوّل حسبما يقول العلم اليوم ـ كتلة واحدة، ثمّ تشققت وظهرت الكرات والأجرام السماوية الواحدة بعد الأُخرى (أنظر تفسير الآية المذكورة لمزيد من الإيضاح).

٦ ـ «الحنيف» هو الخالص، كما جاء في تفسير الآية (٦٧) من سورة آل عمران.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٧٣٥ و٧٣٧.

هبوب الرياح المنتظمة وحركة السفن في القرآن

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: ٣٢-٣٦].

التّفسير

هبوب الرياح المنتظمة وحركة السفن:

مرّة أُخرى نشاهد أنّ هذه الآيات تقوم بتبيان علائم الخالق وأدلّة التوحيد، وتستمر في البحث الذي أشارت إليه الآيات بهذا الخصوص.

وهنا نذكر موضوعاً يتعامل معه الإنسان كثيراً في حياته المادية، خصوصاً المسافرين عبر البحار وسكان السواحل، حيث تقول الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾.

«جوار» جمع (جارية) وهي صفة للسفن حيث لم تذكر للإختصار، وعادةً فإن الآية تقصد حركة السفن، ولذا فقد استخدمت هذه الصفة.

ويقال للبنت الشابة «جارية» لأن الشباب والنشاط يجري في عروقها ووجودها.

«أعلام» جمع (عَلَم) على وزن (قلم) وتعني الجبل، إلّا أنّها في الأصل بمعنى العلامة والأثر الباقي الذي يخبر عن شيء معين، مثل (علم الطريق) و(علم الجيش) وما شابه.

أمّا لماذا سمّي الجبل بالعلم؟ فذلك لأنّه ظاهر من بعيد، وأحياناً كانوا

يشعلون النّار فوق قمته حتى تكون مناراً للسائرين، إلّا أن وجود النّار وعدمها لا يؤثر في التسمية.

وعلى هذا الأساس فإنّ القرآن يعتبر حركة السفن العملاقة في هذه الآية (كما في الآيات المتعددة الأخرى) بسبب هبوب الرياح المنتظمة، من آيات الخالق.

فليس مهمّاً حركة السفينة الصغيرة أو الزوارق على سطح الماء بسبب هبوب الرياح، المهم حركة السفن والبواخر العملاقة بحمولتها الكبيرة ومسافريها المتعددين عند هبوب الرياح، فتقطع آلاف الأميال وتصل إلى مرساها.

فمن الذي خلق هذه المحيطات بخصوصياتها ومياهها وعمقها؟ من أعطى للخشب الذي تصنع منه السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟

ومن يأمر الرياح بالهبوب بشكل منظم على سطح البحار والمحيطات كي يستطيع الإنسان أن يصل من نقطة إلى أُخرى بالإستفادة من هذه الرياح؟

نعم، فلو أخذنا بعين الإعتبار الخرائط التي يملكها البّحارة بخصوص حركة الرياح، والمعلومات التي يمكلها البشر حول هبوب الرياح من القطبين نحو خط الإستواء ومن خط الإستواء إلى القطبين، وأيضاً هبوب الرياح المتناوبة من السواحل واليابسة نحو البحار وبالعكس، عندها سندرك أن هذا الأمر مُخطّط وله نظام.

في زماننا، تقوم المحركات الضخمة بتحريك السفن ودفعها إلى الأمام، إلّا أنّ الرياح تبقى مؤثرة أيضاً في حركة هذه السفن.

وللتأكيد أكثر تقول الآية: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾. وكاستنتاج تضيف الآية في نهايتها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

نعم، فهبوب الرياح، وحركة السفن، وخلق البحار، والنظام الخاص المتناسق الذي يتحكم بهذه الأمور... كلّها آيات مختلفة للذات المقدسة.

ونعلم أن هبوب الرياح يتمّ بسبب الإختلاف في درجة الحرارة بين منطقتين على الكرة الأرضية، لأنّ الهواء يتمدّد بسبب الحرارة ويتحرك نحو الأعلى، ويضغط على الهواء المحيط به ويقوم بتحريكه، ومن جانب آخر يترك مكانه للهواء المجاور له عند تحركه نحو الطبقات العليا، فلو سحب الخالق هذه

الخاصية (خاصية التمدد) من الهواء، عندها سيطغى السكون والهدوء القاتل وستقف السفن الشراعية في عرض البحار دون أي حركة.

«صبار» و(شكور) صيغتا مبالغة حيث تعطي الأولى معنى كثرة الصبر، والثانية كثرة الشكر. وهذان الوصفان الواردان في هذه الآية ـ وفي موارد أخرى[١] ـ يشيران إلى ملاحظات لطيفة.

فهاتان الصفتان توضّحان حقيقة الإيمان، لأن المؤمن صبور في المشاكل والإبتلاءات وشكور في النعم، وقد ورد في حديث عن الرّسول ﷺ: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر»[٢].

إضافةً إلى ذلك، فإنّ البحث في أسرار نظام الخلق يحتاج إلى الصبر والإستمرار وتخصيص الوقت الكافي، ومن جانب ثان يستحق شكر النعم.

فمتى ما توفر هذان العاملان عندها يكون الإنسان مُؤهّلاً للبحث في هذه الآيات، وعادةً فإنّ البحث في أسرار الخلق يعتبر بحد ذاته نوعاً من الشكر.

ومن جانب ثالث، فإنّ هاتين الصفتين تتجسدان في الإنسان أكثر من أي وقت مضى متى ما ركب السفينة، حيث الصبر حيال حوادث ومشاكل البحار، والشكر عند الوصول إلى الساحل.

مرّة أخرى، لتجسيد عظمة هذه النعمة الإلهية، تقول الآية الأخرى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾، أيّ لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التي ارتكبها المسافرون.

وكما قرأنا في الآيات الماضية، فإنّ المصائب التي تصيب الإنسان غالباً ما تكون بسبب أعماله.

إلّا أنّه بالرغم من ذلك فإنّ اللطف الإلهي يشمل الإنسان: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾. فلولا عفو الخالق لم يكن لينجو أحد من عذاب الخالق سوى المعصومين والخواص والطاهرين، كما نقرأ في الآية (٤٥) من سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

نعم، فهو يستطيع أن يمنع الرياح من الهبوب حتى تقف السفن في وسط

---

(١) إبراهيم ٥، لقمان ٣١، سبأ ١٩، والآية التي نبحثها.

(٢) تفسير الصافي، مجمع البيان، الفخر الرازي والقرطبي نهاية الآية (٣١) من سورة لقمان.

البحار والمحيطات، أو يحوّل هذه الرياح إلى عواصف هوجاء تدمر هذه السفن والبواخر، إلّا أن لطفه العام يمنع هذا العمل.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[1] وما لهم من ملجأ سوى ذاته المنزهة.

فهؤلاء سوف لا يشملهم العفو الإلهي، لأنّهم عارضوه بعلم ووعي، واستمروا في محاربته عن عداوة وعناد، فهؤلاء سوف لا يشملهم عفوه ورحمته، ولا خلاص لهم من عذابه.

«محيص» مأخوذة من كلمة (حَيص) على وزن (حَيف) وتعني الرجوع والعدول عن أمر ما، وبما أن (محيص) اسم مكان، لذا وردت هذه الكلمة، بمعنى محل الهروب أو الملجأ.

والكلام في آخر آية موجّه إلى الجميع حيث تقول: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

فلا تتصوّروا أنّه سيبقى لكم، لأنّه كالوميض الذي يبرق ثمّ يخبو، وكالشمعة في مهبّ الريح والفقاعة على سطح البحر، ولكن ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنيوي الزائل المحدود التافه بمتاع أبدي خالد، فتلك هي التجارة المربحة العديمة النظير.

فالمواهب في هذه الدنيا لا تخلو من المشاكل، حيث توجد الأشواك دائماً إلى جانب الورود، والمحيطات إلى جانب الآمال، في حين أن الأجر الإلهي لا يحتوي على أي إزعاجات، بل هو خير خالص ومتكامل.

ومن جانب آخر فإن هذه المواهب مهما كانت فستزول حتماً، إلّا أن الجزاء الأخروي أبدي خالد، عندها هل يقبل العقل أن يستغني الإنسان عن هذه التجارة المربحة، أو يصاب بالغرور والغفلة وتبهره زخارف الدنيا؟

---

(١) جملة ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ...﴾ كما يقول الزمخشري في كشافه: وردت منصوبة بسبب عطفها على تعليل محذوف وتقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون... فالهدف أن ينتقم الخالق من هذه المجموعة والهدف أن يعلم المجادلون بعدم وجود طريق للنجاة.

لذا فإننا نقرأ في الآية (٣٨) من سورة التوبة: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وأساساً، فإنّ «الحياة الدينا» (بالمعنى المتقدم) تشير إلى الحياة الدنية والحقيرة، وطبيعي أن أي متاع أو وسائل للإستفادة من مثل هذه الحياة ستكون ـ أيضاً ـ مثلها في القيمة.

لذا فقد ورد في حديث عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «والله ما الدنيا في الآخرة إلّا مثل أن يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟!»[١].

والملفت للنظر أنّه ورد في هذه الآية التأكيد على الإيمان والتوكل، وهذا بسبب أنَّ نيل الأجر الإلهي هو للذين يُفوّضون أُمورهم في جميع الأعمال ويستسلمون لله تعالى إضافة إلى الإيمان، لأن التوكل يعني تفويض الأمور، وتقابل هذه المجموعة أشخاص يجادلون في آيات الله بسبب حب الدنيا والإرتباط بالمتاع الزائل، ويُقلّبون الحقائق، وبهذا الترتيب فإنّ آخر آية هي بمثابة تعليل للآية التي قبلها، والتي كانت تتحدَّث عن الذين يجادلون في آيات الله.

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) روح البيان، المجلد الثالث، ص٤٢٩، (نهاية الآية ٣٨ من سورة التوبة).

صفات الله في القرآن

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩]

التّفسير

الولي المطلق:

أوضحت الآيات السابقة أن لا وليّ ولا نصير سوى الله، والآيات التي بين أيدينا تعطي أدلّة على هذه القضية، وتنفي الولاية لما دونه سبحانه وتعالى.

تقول الآية بأسلوب التعجب والإنكار: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[1]. إلّا أنّهُ: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.

فلو أراد هؤلاء أن يختاروا وليّاً، فعليهم أن يختاروا الله، لأنّ أدلّة ولايته واضحة في الآيات السابقة، مع بيان أوصافه الكمالية، فالعزيز والحكيم، والمالك والعلي والعظيم، والغفور والرحيم، هذه الصفات السبع التي مرّت علينا تعتبر ـ لوحدها ـ أفضل دليل على اختصاص الولاية به.

ثم تذكر دليلاً آخر فتقول: ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

ويجب اللجوء إليه لا لغيره، لأنّ المعاد والبعث بيده، وأنّ أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعد الموت.

ثم تذكر دليلاً ثالثاً فتقول: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) اعتبر بعض المفسّرين كالزمخشري في الكشاف والفخر الرازي في التفسير الكبير ـ أنّ «أم» هنا بمعنى الإستفهام الإنكاري، أما البعض الآخر كالطبرسي في «مجمع البيان» والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ـ فقد اعتبروها بمعنى «بل».

وهذه إشارة إلى أنّ الشرط الرئيسي للولي هو امتلاكه للقدرة الحقيقية.

الآية التي بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[الشورى:١٠]. فهو الوحيد الذي يستطيع أن يحل مشاكلهم.

إنّ من اختصاصات الولاية أن يستطيع الولي إنهاء اختلافات من هم تحت ولايته بحكمه الصائب، فهل تستطيع الأصنام والشياطين التي تعبدونها أن تقوم بذلك، أم أنّ هذا الأمر يختص بالله الحكيم والعالم والقادر على حل مشاكل عباده، وتنفيذه لحكمه وإرادته دون غيره؟

إذن فالله العزيز الحكيم هو الحاكم لا غيره.

لقد حاول بعض المفسّرين حصر مفهوم الإختلاف الذي تشير إليه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ في الإختلاف الوارد في الآيات المتشابهة، أو في الإختلاف والمخاصمات الحقوقية فقط، إلّا أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك، إذ هي تشمل الإختلاف سواء كان في المعارف الإلهية والعقائد، أم الأحكام الشرعية، أم القضايا الحقوقية والقضائية، أم غير ذلك ممّا يحدث بين الناس لقلّة معلوماتهم ومحدوديتها؛ إنّ ذلك ينبغي أن يحل عن طريق الوحي، وبالرجوع إلى علم الله وولايته.

وبعد ذكر الدلائل المختلفة على اختصاص الولاية بالله، تقول الآيات على لسان النبي ﷺ ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾[1] فهو الذي يتصف بهذه الأوصاف الكمالية ولهذا السبب: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أيّ أعود إليه في المشكلات والشدائد والزلات.

جملة: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ تشير إلى الربوبية المطلقة لله بمعنى الحاكمية المتزامنة مع التدبير. ونحن نعلم أنّ للربوبية قسمين: القسم التكويني الذي يعود إلى إدارة نظام الوجود، والقسم التشريعي الذي يقوم بتوضيح الأحكام ووضع القوانين وإرشاد الناس بواسطة الرسل والأنبياء ﷺ.

---

(١) في بداية هذه الجملة تكون كلمة «قل» مقدّرة، فهذه الجملة وما بعدها تتحدث عن لسان النبي ﷺ فقط، أمّا جملة ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ فهي استمرار لحديث الخالق جلّ وعلا. والذين اختاروا غير ذلك لم يسلكوا الطريق الصحيح في الظاهر.

وعلى أساس ذلك طرحت الآية فيما بعد قضية «التوكل» و«الإنابة» حيث تعني الأولى رجوع جميع الأمور الذاتية في النظام التكويني إلى الخالق جلَّ وعلا. والثّانية تعني رجوع الأمور التشريعية إليه[١].

الآية التي تليها يمكن أن تكون دليلاً خامساً على ولاية الله المطلقة، أو دليلاً على ربوبيته، واستحقاقه دون غيره للتوكل والإنابة، إذ تقول: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾.

«فاطر» من مادة «فطر» وتعني في الأصل فتق شيء ما، ويقابلها «قط» التي تعني بقول البعض الشق العرضي.

وكأنّما الآية تشير إلى تفتق ستار العدم المظلم عند خلق الكائنات وخروج الموجودات منه.

وبهذه المناسبة فإنّ «فُطُر» تطلق على «طلاع» التمر عندما يتفتق ويخرج من التمر.

والمقصود بالسماوات والأرض هنا جميع السماوات والأرض وما فيها من كائنات وما بينها، لأنّ الخالقية تشملها جميعاً.

ثم تشير الآية إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾[٢].

وهذه لوحدها تعتبر إحدى الدلائل الكبيرة على تدبير الله وربوبيته وولايته، حيث خلق سبحانه وتعالى للناس أزواجاً من أنفسهم، وهو يعتبر أساساً لراحة الروح وسكون النفس، ومن جانب آخر يعتبر الزواج أساساً لبقاء النسل واستمراره، وتكاثره.

وبالرغم من أنّ خطاب الآية موجّه للإنسان، والمعنى منصبٌّ عليه من خلال «يذرؤكم» إلّا أنّ هذا الأمر هو حكم سائد وسنّة جارية في جميع الأنعام والموجودات الحية الأخرى التي تسري عليها التكاثر بالمثل.

---

(١) الميزان، المجلد ١٨، الصفحة٢٣.

(٢) الضمير في «فيه» يعود إلى «التدبير» أو «جعل الأزواج» و«يذرؤ» من «ذرأ» على وزن «زرع» وتعني «الخلق» لكنّه الخلق الذي يقترن ويتزامن مع إظهار الأفراد. وقد وردت أيضاً بمعنى الإنتشار.

وفي الواقع إنّ توجيه الخطاب للإنسان دونها يشير إلى مقامه الكريم، وأما أمر البقية فيتبيّن من خلال الإنسان كمثال.

الصفة الثالثة التي تذكرها الآية هو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

إنّ هذا الجزء من الآية يتضمّن حقيقة أساسية في معرفة صفات الله الأخرى، وبدونها لا يمكن التوصّل إلى أي صفة من صفات الله، لأنّ أكبر منزلق يواجه السائرين في طريق معرفة الله يتمثل في «التشبيه» حيث يُشبِّهون الخالق جلَّ وعلا بصفات مخلوقاته، وهو أمر يؤدي للسقوط في وادي الشرك!

إنّ وجود الله تعالى ليس له نهاية ولا يحدُّ بحد، وكل شيء غيره له نهاية وحد من حيث القدرة والعمر والحياة والإرادة والفعل... ؛ وفي كلّ شيء.

وهذا هو خطُّ تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

لذا فإنّ ما يثبت لغيره لا يصح عليه (سبحانه وتعالى) ولا ينطبق على ذاته المنزّهة، بل ولا معنى له.

فبالنسبة إلينا تكون بعض الأمور سهلة والأخرى صعبة، وبعض الأحداث وقع في الماضي وبعضها يقع الآن، ومنها ما يقع في المستقبل. وبعض الأشياء صغير وبعضها كبير.

إنّ مقاييس هذه الأشياء ومدلولاتها ومفاهيمها تحتكم إلى وجودنا المحدود، وهي تلائم إدراكنا وحاجتنا إلى مقايسة الأشياء بغيرها.

أمّا هذه المواصفات والمقاييس والمصطلحات المحدودة. فإنّ أياً منها لا ينطبق على صفات الله، إذ لا معنى لديه للقرب والبعد، فالكل قريب وفي متناول إرادته، ولا معنى للصعب والسهل، فكل شيء سهل وطوع إرادته المطلقة، ولا يوجد مستقبل وماض، فكل شيء بالنسبة إليه تعالى حضور وحال.

إنّ إدراك هذه المعاني غير مستطاع من دون تفريغ الذهن وتخليته ممّا هو فيه.

لهذا السبب يقال: إنّ من السهل معرفة أصل وجود الخالق جلَّ وعلا، لكن من الصعب معرفة صفاته.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الشأن: «وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه إلّا سواء»[1].

تشير نهاية الآية إلى صفات أُخرى من صفات الله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

هو الخالق والمدبّر، والسميع والبصير، وفي نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير أو مثيلْ، ولهذا لا ينبغي الإستظلال إلّا تحت ولايته، ولا تصح العبودية والربوبية إلّا له، وذلك لا يكون إلّا بفكّ قيود عبودية الغير، وتصريفها إليه دون غيره سبحانه وتعالى.

الآية التي بعدها تتحدّث عن ثلاثة أقسام أُخرى من صفات الفعل والذات حيث توضح كلّ واحدة منها قضية الولاية والربوبية في بُعد خاص.

يقول تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فكل ما يملكه مالك هو منه سبحانه وتعالى، وكل ما يرغب به راغب ينبغي أن يطلبه منه، لأنّ له تعالى خزائن السماوات والأرض وليس «مفاتيحها» وحسب ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

«مقاليد» جمع «مقليد» وتعني المفتاح، وهي تستخدم ككناية للسيطرة الكاملة على كلّ شيء ما، فيقال مثلاً: إنّ مفتاح هذا الأمر بيدي، يعني أنّ برنامجه وطريقه وشرائطه كلّها تحت قدرتي وفي يدي.

وفي الصفة الأُخرى، والتي هي في الواقع ثمرة ونتيجة للصفة السابقة تقول الآية: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات والأرض، فإن جميع الأرزاق في قبضته، ويقسمها وفقاً لمشيئته التي تصدر بمقتضى حكمته، ويلاحظ فيها مصلحة العباد.

إنّ من مقتضيات استفادة جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها، ومكانها وسائر شؤون حياتها الأُخرى، لذا تضيف الآية في آخر صفة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وهناك ما يشبه هذا الأمر وهو ما جاء في الآية (٦) من سورة «هود» في

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٤.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وبذلك يتّضح أنّ الآيات الأربع التي بحثناها ذكرت إحدى عشرة صفة من صفات الله الكمالية سواء الذاتية منها أو الفعلية.

فقد وصفته بصفات الولاية المطلقة، إحياء الموتى، قدرته على كلّ شيء، خلقه للسماوات والأرض، خلقه للأزواج وكثرة النسل، لا يوجد مثيل له، سميع، بصير، له خزائن السماوات والأرض، رزاق، وعليم بكل شيء.

إنّها صفات تُكمّل الواحدة منها الأُخرى من حيث البيان، وكلّها دليل على ولايته وربوبيته، وبالنتيجة تعتبر طريقاً لإثبات توحيده في العبادة.

بحوث

١ ـ معرفة صفات الله تعالى:

إنّ علمنا وعلوم الكائنات جميعاً محدود، لذا لا نستطيع أن نصل إلى كنه وحقيقة ذات الخالق غير المحدودة، لأنّ المعرفة بحقيقة شيء ما تعني الإحاطة به، فكيف يستطيع الكائن المحدود أن يحيط بالذات غير المحدودة؟

وكذلك الحال بالنسبة لصفات الله، إذ لا يمكن معرفتها بالنسبة لنا، خصوصاً وأنّ صفاته هي عين ذاته.

لذلك فعلمنا بذات الخالق وصفاته هو علم إجرائي، وأكثر ما يدور حول آثاره جلّ وعلا.

من جانب آخر لا تستطيع ألفاظنا أن تبيّن ذات الله وصفاته المطلقة غير المحدودة، لأنّ ألفاظنا موضوعة لتلبية حاجاتنا في حياتنا اليومية، لذلك سوف نصل إلى معاني خاطئة من خلال استخدام ألفاظنا في توصيف صفات الخالق الكمالية، كالعلم والقدرة والحياة والولاية والمالكية، وسائر الصفات الأُخرى.

نقول مثلاً: إنّ الله هو «الأول» وهو أيضاً «الآخر» هو «الظاهر» وهو «الباطن» هو مع كلّ شيء وليس مع شيء، وبعيد عن كلّ شيء، إلّا أنّهُ ليس غريباً عنهُ.

قد يبدو في بعض هذه الألفاظ تناقض أو تضاد، لأنّ معاني الألفاظ نقيسها على الأشياء والموجودات المحدودة، فيمكن أن يكون هو الأوّل ولا يكون الآخر، والظاهر ولا يكون باطنه ولكن التفكير الدقيق في ذات الله وصفاته يوصلنا إلى إمكانية انطباق معاني هذه الألفاظ عليه، فهو الأوّل في نفس الوقت الذي هو الآخر، وهو الباطن في نفس الوقت الذي يكون فيه هو الظاهر أيضاً.

وعلينا أن نعترف هنا بأنّ المهم في معرفة أوصافه الجمالية والجلالية هو أن ننتبه إلى حقيقة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

يشير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى هذه الحقيقة بوضوح فيقول: «ما وحَّده من كيَّفه، ولا حقيقته أصاب من مثَّله، ولا إيّاه عنى من شبَّهه، ولا صمَّده من أشار إليه وتوهَّمه»[1].

وفي مكان آخر يقول: «كل مسمّى بالوحدة غير قليل»[2].

خلاصة القول: يجب ولوج البحث في صفات الخالق على ضوء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعلينا أن ننظر إلى ذاته المقدسة من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وعبارة «سبحان الله» في العبادات وغيرها تشير إلى هذه الحقيقة.

٢ ـ ملاحظة أدبية:

إنّ الكاف في جملة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ للتشبيه، وتعني المثل أيضاً ـ لذا فإنّ هذا التكرار أصبح سبباً لأن يعتبر الكثير من المفسّرين أنّها زائدة، وأنّها جاءت للتأكيد ـ وأمثال ذلك كثير من الكلمات الفصحى.

ولكن ثمة تفسير أجمل، وهو أن يقال أحياناً: مثلك لا يهرب من ساحة الأحداث.

أي أنّ الذي يملك الشجاعة والعقل والذكاء مثلك، لا ينبغي عليه الهرب (والخلاصة أن من يملك مثل صفاتك يجب أن يكون هكذا وهكذا).

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٨٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٦٥.

وفي الآية التي نبحثها سيكون المعنى هكذا: مثل الخالق الذي ذكرنا أوصافه، كالعلم الواسع والقدرة العظيمة اللامتناهية ليس له مِثْلٌ.

ذهب أرباب اللغة وعلماؤها إلى إنّ هناك بعض المصطلحات لها نفس معنى (مثل) إلّا أنّها ليس مثلها في المفهوم من زاوية عموميتها وشموليتها، مثلاً:

«نِدّ» على وزن «ضِد» وتقال عندما يكون القصد من التشبيه الإشارة إلى المشابهة في الجوهر والماهية.

«شِبْهٌ» وتقال عندما يكون الكلام عن الكيفية فقط.

«مساوي» وتقال عندما يكون الكلام عن الكمية فقط.

«شَكْل» وتقال عندما يكون الكلام في التشبيه عن المقدار والمساحة.

إلّا أنّ «مِثْل» لها مفهوم أوسع وأكثر عمومية، بحيث تشمل جميع المفاهيم الآنفة الذكر.

لذا فإنّ الله عندما يريد أن ينفي عن ذاته أي شبيه أو نظير يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[1].

٣ ـ بعض الملاحظات حول الرزق الإلهي:

أ: معيار بسط الرزق وتقديره:

يجب أن لا نتصوّر أبداً أن بسط الرزق يعني محبة الله لنا، أو أن تضييق المعيشة هي دليل غضبه، لأنّ الله قد يختبر الإنسان بواسطة البسط في رزقه، وأحياناً يريد أن يمتحن صبره ومقاومته عن طريق التضييق بالمعيشة عليه.

وعن هذا الطريق يصار إلى تربية الإنسان.

إنّ الثروة الكبيرة قد تكون أحياناً سبباً لعذاب أهلها وتعبهم وسلبهم استقرارهم وراحتهم النفسية، حيث يقول القرآن الكريم في الآية (٥٥) من سورة التوبة: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) لاحظ مفردات الراغب مادة «مثل».

وفي الآيتين (٥٥ ـ ٥٦) من سورة (المؤمنون)، نقرأ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ب: تحديد الأرزاق لا يتعارض مع بذل الجهود:

إنّ الآيات التي تتحدث عن تحديد مقدار الرزق لا تتنافى مع سعي الإنسان في مجال تحصيله للرزق. وينبغي أن لا يكون الأمر مبعثاً للخمول والكسل والهروب من تحمل مسؤوليات الجهاد الفردي والإجتماعي، إذ هناك آيات قرآنية كثيرة تؤكد أهمية وقيمة السعي الإنساني.

إن الهدف هو أن ندرك أنّنا رغم سعينا وعملنا فهناك يد خفية تقوم أحياناً بحجب نتائج هذه الجهود، وتقوم في بعض الأحيان بعكس ذلك، حتى لا ينسى الناس في حياتهم الإجتماعية الطويلة أنّ ثمّة قدرة أخرى هي قدرة مسبب الأسباب وهي التي تدبر شؤون العالم.

وينبغي هنا أن لا نلقي تبعات الكسل والإهمال والتقاعس على مفهوم الرزق الإلهي المحدود لكل إنسان، لأنّه تعالى صرّح بأن عطاء الرزق يساوي ما يبذله الفرد من جهد وعناء.

ج: عدم اقتصار الرزق على المفهوم المادي:

للرزق معنى واسع بحيث يشمل الرزق المعنوي، بل إنّ الرزق الأصلي هو الرزق المعنوي، وفي الأدعية نلتقي مع أمثلة كثيرة تؤكد ذلك، فنقول حول الحج مثلاً: «اللهم ارزقني حج بيتك الحرام».

وفي أدعية طلب الطاعة تقول: «اللهم ارزقني توفيق الطاعة، وبعد المعصية».

وفي أدعية أيام شهر رمضان نقول: «اللهم ارزقني فيه طاعة الخاشعين» (دعاء اليوم الخامس عشر).

وهكذا بالنسبة للهبات المعنوية الأخرى.

د: القرآن والأسباب التي تؤدي إلى زيادة الرزق:

لقد ذكر القرآن الكريم بعض الأمور التي تعتبر بحدّ ذاتها درساً لتربية

الإنسان وبنائه، ففي الآية (٧) من سورة إبراهيم نقرأ قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وفي الآية (١٥) من سورة الملك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.

وفي سورة الأعراف، آية (٩٦) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

هـ: التضييق في الرزق والقضية التربوية:

أحياناً يكون ضيق الرزق لمنع الناس عن الطغيان، كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧].

و: الرّزاق هو الله:

يؤكّد القرآن الكريم أنّ الذي يعطي الرزق للناس هو الله، وعليهم أن لا يطلبوا من غيره، وعليهم بعد الإيمان والتوكل أن يعتمدوا على وسعهم وطاقاتهم، كما ورد في الآية (٣) من سورة فاطر في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

والآية (١٧) من سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

وهكذا تقطع التربية القرآنية روح الحاجة لدى الإنسان إلى عباد مثله، وتجعله مرتبطاً بخالقه وبارئه ورازقه، فتنمي فيه روح الإباء، والعبودية والانقطاع إلى الله.

قال في الامثل: ولدينا بحث مفصل بخصوص الأرزاق والسعي للحياة، وأسباب الرزق ومصادره في نهاية تفسير الآية (٧١) من سورة النحل، وكذلك في نهاية تفسير الآية (٦) من سورة هود فليراجع هناك.

آيات الآفاق في القرآن

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٥٣-٥٤].

التّفسير

علائم الحق في العالم الكبير والصغير:

الآيتان الختاميتان في هذه السورة تشيران إلى موضوعين مهمين، وهما بمثابة الخلاصة الأخيرة لبحوث هذه السورة المباركة.

فالآية الأولى تتحدث عن التوحيد (أو القرآن)، والثانية عن المعاد.

يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

«آيات الآفاق» تشمل خلق الشمس والقمر والنجوم والنظام الدقيق الذي يحكمها، وخلق أنواع الأحياء والنباتات والجبال والبحار وما فيها من عجائب وأسرار لا تعد ولا تحصى، وما في عالم الأحياء من عجائب لا تنتهي، إنّ كلّ هذه الآيات هي دليل على التوحيد وعلى وجود الله.

أمّا «الآيات النفسية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، والنظام المحيّر الذي يتحكّم بالمخ وحركات القلب المنتظمة والشرايين والعظام والخلايا، وانعقاد النطفة ونمو الجنين في ظلمات الرحم - ثمّ اسرار الروح العجيبة - إنّ كلّ ذلك في كتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظيم.

صحيح أنّ هذه الآيات قد طرقت سابقاً بمقدار كاف من قبل الله تعالى،

إلّا أنّ هذه العملية والإراءة مستمرة، لأنّ (سنريهم) فعل مضارع يدل على الإستمرار، وإذا عاش الإنسان مئات الآلاف من السنين، فسوق تنكشف لهُ في كلّ زمان علامات وآيات إلهية جديدة، لأنّ أسرار العالم لا تنتهي.

إنّ كافة كتب وبحوث العلوم الطبيعية وما يتصل بمعرفة الإنسان في أبعاده المختلفة (التشريح، فسلجة الأعضاء، علم النفس، والتحليل النفسي) وكذلك العلوم التي تختص بمعرفة النباتات والحيوانات والهيئة والطبيعة وغير ذلك، تعتبر في الواقع كتباً وبحوثاً في التوحيد ومعرفة الخالق جلّ وعلا، لأنّها عادةً ما ترفع الحجب عن الأسرار العجيبة لتبيّن قدراً من حكمة الخالق العظيم، وقدرته الأزليّة، وعلمه الذي أحاط بكل شيء.

أحياناً يستحوذ علم واحد من هذه العلوم، بل فرع من فروعه المتعدّدة على اهتمام عالم من العلماء فيصرف عمرهُ في سبيله، وفي النهاية يقرّر قائلاً: مع الأسف لا زلت لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وما علمتُه لحد الآن يجعلني أغوص أكثر في أعماق جهلي.

نعود الآن إلى الآية التي تنتهي بجملة ذات مغزى حيث يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

وهل هناك شهادة أفضل وأعظم من هذه التي كتبت بخط القدرة التكوينية على ناصية جميع الكائنات، على أوراق الشجر، في الأوراد والزهور، وبين طبقات المخ العجيبة، وعلى الأغشية الرقيقة للعين، وفي آفاق السماء وبواطن الأرض، وفي كلّ شيء من الوجود تجد أثراً يدل على الخالق، وشهادة تكوينية على وحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه سبحانه وتعالى.

إنّ ما قلناه أعلاه هو أحد التّفسيرين المعروفين للآية، إذ بناءً على هذا التّفسير فإنّ الآية بجميعها تتحدث عن قضية التوحيد، وتجلّي آيات الحق في الآفاق والأنفس.

---

(١) ذهب الكثير من المفسّرين إلى أنّ «الباء» زائدة و«ربك» تقوم مقام الفاعل. وجملة «أنّه على كلّ شيء شهيد» «بدل» ذلك، والمعنى يكون هكذا: «أولم يكفهم أن ربّك على كلّ شيء شهيد».

أما التّفسير الثاني فيذهب إلى قضية إعجاز القرآن، وخلاصته أنّ الله يريد أن يقول: لقد عرضنا معجزاتنا ودلائلنا المختلفة لا في جزيرة العرب وحسب، وإنّما في نواحي العالم المختلفة، وفي هؤلاء المشركين أنفسهم، حتى يعلموا بأنّ هذا القرآن على حق.

فمن آيات الآفاق ما تمثّل بانتصار الإسلام في ميادين الحرب المختلفة، وفي ميدان المواجهة الفكرية والمنطقية، ثمّ انتصاره في المناطق التي فتحها وحكم فيها على أفكار الناس.

ثم إنّ نفس المجموعة من المسلمين التي كانت في مكّة، كيف يسّر الله لها أمرها بالهجرة، ثمّ انطلقت إلى بقاع الدنيا، لتدين لدينها الشعوب في مناطق واسعة من العالم ورفع راية الإسلام.

ومن آيات الأنفس ما تمثل في انتصار المسلمين على مشركي مكّة في معركة بدر، في يوم فتح مكّة، ونفوذ الإسلام إلى قلوب العديد منهم.

إنّ هذه الآيات الآفاقية والأنفسية أثبتت أنّ القرآن على حق.

وهكذا فإنّ الخالق العظيم الذي يشهد على كلّ شيء، شهد أيضاً على حقانية القرآن عن هذا الطريق.

وبالرغم من أنّ لكل واحد من هذين التّفسيرين قرائن وأدلّة ترجحُه، إلّا أن التأمل في نهاية الآية والآية التي تليها يكشف عن رجاحة التّفسير الأوّل[1].

---

(١) التفسير الأوّل لهُ أربعة مرجحات هي:

أولاً: إنّ أكثر ما تؤكد عليه الآيات هو قضية التوحيد وأدلته.

ثانياً: إنّ تعبيري «آفاق وأنفس» أكثر تناسباً مع آيات التوحيد.

ثالثاً: تشير نهاية الآية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إلى قضية التوحيد، وشهادة الله التكوينية على حقانية ذاته المنزّهة.

رابعاً: الآية التي تليها تتحدث عن المعاد، ونحن نعرف أنّ المبدأ والمعاد غالباً ما يقترن أحدهما بالآخر.

أما التفسير الأوّل فلهُ ثلاثة مرجحات هي:

أوّلاً: إنّ ضمير «إنّه» مفرد للغائب، في حين أنّ ضمير «آياتنا» مُتكلّم مع الغير، وهذه إشارة إلى أنّ كلّ ضمير من الضميرين يختص بمتابعة موضوع خاص.

ثانياً: إنّ الآية السابقة كانت حول القرآن بالخصوص.

ثالثاً: إن جملة «سنريهم» التي هي فعل مضارع للإستمرار، تفيد هذا المعنى بالذات، أي أنّ الآيات المذكورة سنعرضها فيما بعد.

وثمّة أقوال أخرى في تفسير الآية تركناها لعدم جدواها.

الآية الأخيرة في السورة تشير إلى الأساس والسبب في شقاء هذه المجموعة المشركة الفاسدة، إذ يقول تعالى عنهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾.

ولأنّهم لا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، فهم يقومون بأنواع الجرائم والمعاصي مهما كانت، ومهما بلغت، إنّ حجب الغفلة والغرور تهيمن على هؤلاء فتنسيهم لقاء الله، ممّا يؤدي بهم إلى السقوط عن مصاف الإنسانية.

ولكنّهم يجب أن يعلموا: ﴿أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

إنّ جميع أعمالهم ونواياهم حاضرة في علم الله، ولكل ذلك يسجّل لمحكمة القيامة والحشر.

«مرية» على وزن «جزية» و«قرية» تعني التردُّد في اتخاذ القرار، والبعض اعتبرها بمعنى الشك والشبهة العظيمة، والكلمة مأخوذة في الأصل من «مُرِيَتِ الناقة» بمعنى عُصر ثدي الناقة بعد حَلبها أملاً بوجود الحليب فيه، ولأنّ هذا العمل مع الشك والتردُّد، فقد وردت هذه الكلمة بهذا المعنى.

وعندما نسمع إطلاق كلمة «المِراء» على «المجادلة» فذلك لما يحاوله الإنسان من إخراج ما في ذهن الطرف الآخر.

والآية ـ في هذا الجزء منها ـ رد على شبهات الكفار بخصوص المعاد، فهؤلاء يقولون: كيف يمكن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ينفصل؟ ومن يستطيع أن يجمع أجزاء الإنسان؟ والأكثر من ذلك: من الذي يحيط بنيات الناس وأعمالهم على مدى تأريخ البشرية؟

القرآن يجيب على كلّ ذلك بالقول: كيف يُمكن للخالق المحيط بكل شيء أن لا تكون هذه الأمور طوع قدرته وواضحة بالنسبة له؟

ثم إنّ دليل إحاطة علمه بكل شيء، هو تدبيره لكل هذه الأمور، فكيف يجوز لهُ أن لا يعلم بأمور ما خلقَ ودبَّر؟

بعض المفسّرين اعتبر أنّ الآية تختص بالتوحيد وليس بالمعاد، حيث يقول العلامة الطباطبائي في ذلك: «الذي يفيده السياق أنّ في الآية تنبيهاً على أنّهم لا ينتفعون بالإحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيداً على كلّ شيء، وهو

أقوى براهين التوحيد وأوضحها لمن تعقَّل، لأنّهم في مرية وشك من لقاء ربّهم، وهو تعالى غير محجوب بصفاته وأفعاله عن شيء من خلقه»[١].

قال في الأمثل: ولكن هذا التّفسير مُستبعد نظراً لأنّ تعبير «لقاء الله» عادةً ما يأتي للكناية على يوم القيامة.

بحوث

أوّلاً: التوحيد بين دليل «النظم» ودليل «الصدّيقين»:

أشار الفلاسفة في بحوثهم حول التوحيد إلى الأهمية الكبيرة لنوعين من الإستدلال على الخالق جلَّ وعلا: أحدهما الإستدلال من خلال «النظم» والآخر دليل «الصديقين».

ودليل «النظم» كما يظهر من اسمه، يبدأ من نظام عالم الوجود وأسراره ودقائقه، ليرشد إلى مصدر العلم والقدرة والخلق الذي أوجد ذلك ودبره، والقرآن الكريم مليء بهذا النوع من الإستدلال، فهو يذكر نماذج كثيرة عن آيات الله في السماء والأرض وفي مظاهر الحياة ونظمها وما يمور فيها من كائنات، وينتهي من هذا الطريق إلى إثبات وجود الصانع المدبّر جلَّ وعلا.

إنّ كلّ شخص يستطيع استيعاب هذا النوع من الإستدلال مهما كان مستواه وعلى قدر ما يحمل من علم وإدراك، إذ يستفيد منه أكبر العلماء على قدر استعداده وثقافته واستيعابه، في نفس الوقت الذي يستفيد منه الأمّي وغير المتعلّم وغير المطّلع على فنون العلوم والمعرفة.

أمّا دليل «الصدقين» فهو نوع من الإستدلال يقوم بالوصول إلى (الذات) بواسطة (الذات) نفسها، ومثل هؤلاء يعرفونه تعالى من خلال وجوب وجوده.

بعبارة أخرى: إنّ الممكنات والمخلوقات لا تكون هنا واسطة لإثبات وجوده، بل إنّ ذاته بنفسه تدل على ذاته، ويكون تعالى مصداقاً لـ «يا من دلَّ على ذاته بذاته»[٢] ومصداقاً أيضاً لـ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

---

(١) تفسير الميزان، المجلد ١٧، صفحة ٤٠٥.

(٢) هذا المقطع من دعاء الصباح المنقول عن أمير المؤمنين عليه السلام.

إنّ هذا الإستدلال استدلال فلسفي مُعقَّد بحيث لا يستطيع أن يحيط بكنهه وبأعماقه إلّا من يحيط بمبادئه، وليس من قصدنا هنا تبسيط الدليل فذلك شأن الكتب الفلسفية، وإنّما أردنا من خلال هذا العرض أن نقف على آراء بعض المفسّرين من الذين يعتقدون بأنّ مطلع الآية في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ يتضمّن إشارة إلى دليل «النظم» والعلة والمعلول. بينما اعتبروا نهاية الآية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. إشارة إلى دليل «الصديقين».

ولكن ليس ثمّة قرائن واضحة من نفس الآية تؤيد فكرة هذا الإستنتاج!

ثانياً: حقيقة إحاطة الله بكل شيء:

يجب أن لا نتصور ـ مطلقاً ـ أنّ إحاطة الخالق جلَّ وعلا بالموجودات والكائنات تشبه إحاطة الهواء الذي يلف الكرة الأرضية ويغلّفها، لأنّ مثل هذه الإحاطة هي دليل المحدودية، بل الإحاطة المعنية هنا تتضمن معنى دقيقاً ولطيفاً يتمثل في ارتباط كلّ الكائنات والموجودات بالذات المقدسة.

وبعبارة أُخرى: لا يوجد في عالم الوجود سوى وجود أصيل واحد قائم بذاته، وبقية الموجودات والكائنات تعتمد عليه وترتبط به، بحيث لو زال هذا الإرتباط لحظة واحدة فلا يبقى شيء منها.

إنّ هذه الإحاطة نتلمّس كنهها وحقيقتها في الكلمات الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: «مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا بمزايلة».

وقد نلمح هذا المعنى بعينه فيما ذكره الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة ذي المحتوى العميق، إذ يقول فيه: «أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً»[1].

(١) مقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، وهو ممّا تذخر به كتب الأدعية.

ثالثاً: آيات الآفاق والأنفس:

لو أتيح للإنسان أن ينكر كلّ ما يستطيع، فهو لا يستطيع أن ينكر وجود نظام دقيق قائم يعم بنسقه عالم الوجود، فأحياناً يقضي عالم معين كلّ عمره بالدرس والمطالعة حول تركيب العين وأسرارها أو المخ أو القلب، ويقرأ الكتب الكثيرة ممّا كتب حول الموضوع، إلّا أنّه أخيراً يعترف بأنّ هناك أسراراً كثيرة حول موضوعه لا تزال مجهولة.

وهنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ علوم علماء اليوم، ليست سوى نتيجة متراكمة لجهود ودراسات آلاف العلماء عبر تأريخ البشر.

إنّ العالم اليوم ينطق في كلّ جزء من أجزائه بوجود قدرة أزلية تكمن وراءه، فكل شيء يدل على الصانع المُدبِّر، وأي نبات ينب على الأرض يهتف «وحده لا شريك له».

نستطيع هنا أن نترك الحديث عن القضايا العلمية المعقدة، ونَتَّجه إلى ظواهر عادية ممّا ينتشر حولنا، لنتلمّس فيها أدلّة واضحة على إثبات الصانع العظيم.

قال في الأمثل: ولا بأس هنا من ذكر هذين المثالين:

المثال الأوّل: الجميع يعرف أنّ هناك تقوّس في أخمص قدم كلّ إنسان بحيث لا يبدو الأمر ملفتاً للنظر مطلقاً، ولكنّا نسمع في معادلات الفحص الطبي الخاص بأداء الخدمة العسكرية، أنّ الشاب الذي يفتقد مثل هذا التقوّس يعفى من الخدمة العسكرية أو يحال إلى الأعمال المكتبية الإدارية.

إنّ الإنسان الذي يفتقد مثل هذا التقوّس يتعب بسرعة، ولا يملك الإستعداد الكافي لأداء الخدمة العسكرية التي تستدعي المشي الطويل.

وهكذا كلّ شيء في هذا العالم وفي وجود الإنسان مخلوق بدقّة ونظم، حتى التقوس البسيط في أخمص قدم الإنسان!

المثال الثاني: في داخل فم الإنسان وعينه منابع فوّارة منتظمة ودقيقة الإفراز، يخرج من فتحتها الصغيرة على مدى حياة الإنسان سائلان مختلفان تماماً، لولاهما لما استطاع الإنسان أن يكون قادراً على الرؤية أو التحدّث أو مضغ الطعام وبلعه.

بعبارة أُخرى: إنّ الحياة مستحيلة بدون هذين السائلين العاديين ظاهراً!

فبدون أن يكون سطح العين رطباً بشكل دائم يستحيل دوران الحدقة التي ستصاب بآلام كثيرة والأذى بمجرّد ملامستها لأجسام صغيرة، بل ستمنعها هذه الأجسام عن الحركة.

كذلك إذا لم يكن فم الإنسان وبلعومه رطباً، فإنّ الكلام يصبح أمراً مستحيلاً بالنسبة له، وكذلك مضغ الطعام وبلعه، بل وحتى التنفس إذا كان الفم جافاً.

وكذلك ينبغي أن تكون التجاويف الأنفية رطبة دائماً حتى يسهل دخول الهواء ومروره باستمرار.

والدقيق هنا أنّ ماء العين ينزل عبر قنوات خاصة من العين إلى الأنف للمحافظة على رطوبته، وإذا قدِّر لهذا المجرى أن يغلق ليوم واحد فقط ـ كما نشاهد ذلك في حال بعض المرضى ـ فإن الدموع ستسيل على الوجه بشكل دائم وسيكون لها منظر مزعج مؤذ.

ونفس الكلام يقال بالنسبة للغدد اللعابية في الفم، فقلّة إفرازاتها تزيد من جفاف اللسان والفم والبلعوم، وكثرته تعوق التحدث وتجعل اللعاب يسيل من الفم إلى الخارج.

ثم إنَّ المذاق الملحي للغدد الدمعية يؤدي إلى حفظ أنسجة العين ضدَّ الأجسام الغريبة بمجرّد دخولها إلى العين.

بينما يفتقد اللعاب لأي طعم، كي يستطيع الإنسان أن يشعر بالمذاق الخاص للأطعمة، بينما تساعد الأملاح الموجودة فيه على هضم الطعام.

وإذا تدبرنا في طبيعة التكوين الكيماوي والفيزيائي لسوائل هذه الغدد وأنظمتها الدقيقة ومنافعها، نتبيّن عندها أنَّ وجودها لا يمكن أن يكون مجرّد صدفة عمياء لا تعقل ولا تعي، بل هي من آيات الله الأنفسية ومصداق لقول الحق جلَّ وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

وفي إشارة عابرة لكنّها كبيرة الدلالة والمعنى، يتحدث الإمام الصادق في

الحديث المعروف بتوحيد المفضَّل، الذي هو غني جدّاً في الإشارة إلى الآيات الآفاقية والأنفسية لله في الوجود، يقول عليه السلام: «أي مفضل! تأمل الريق وما فيه من المنفعة، فإنّه جعل يجري جرياناً دائماً إلى الفم، ليبل الحلق واللهوات فلا يجف، فإنّ هذه المواضع لو جعلت كذلك كان فيه هلاك الإنسان، ثمّ كان لا يستطيع أن يسيغ طعاماً إذا لم يكن في الفم بلة تنفذه، تشهد بذلك المشاهدة»[١].

فإذا تجاوزنا جسم الإنسان فإنّ روحه بؤرة للعجائب بحيث حيّرت جميع العلماء. وثمّة آلاف الآلاف من هذه الآيات البينات التي تشهد جميعاً «أنّهُ الحق».

وهنا يلتقي صوتنا ـ بدون إرادة منّا ـ مع صوت الحسين عليه السلام، ونقول: «عميت عين لا تراك»!!

(١) بحار الأنوار، المجلد٣، صفحة٧٧.

مظاهر عظمة الله في القرآن

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

التّفسير

مظاهر عظمة الله في الكون:

آخر آية في المبحث الماضي دارت حول توحيد الله، وهذه الآية تقدم الدليل على وجود الله ووحدانيته.

قبل أن ندخل في تفسير الآية، لا بدّ من مقدمة موجزة. حيثما كان «النظم والإنسجام»، فهو دليل على وجود العلم والمعرفة، وأينما كان «التنسيق» فهو دليل على الوحدة. من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم والإنسجام في الكون من جهة، والتنسيق ووحدة العمل فيه من جهة أُخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم والقدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

حينما نمعن النظر في الأغشية الستة للعين الباصرة ونرى جهازها البديع، نفهم أن الطبيعة العمياء الصماء لا يمكن إطلاقاً أن تكون مبدأ مثل هذا الأثر البديع، ثم حينما ندقق في التعاون والتنسيق بين هذه الأغشية، والتنسيق بين العين لكل أجزائها وبين جسم الإنسان، والتنسيق الفطري الموجود بين الإنسان وبين سائر البشر، والتنسيق بين بني البشر وبين كل مجموعة نظام الكون، نعلم أن كل ذلك صادر من مبدأ واحد، وكل ذلك من آثار وقدرة ذات مقدسة واحدة.

ألا تدل القصيدة الجميلة العميقة المعنى على ذوق الشاعر وقريحته؟!

ألا يدلّ التنسيق الموجود بين قصائد الديوان الواحد على أنها جميعاً صادرة من قريحة شاعر مقتدر واحد؟

بعد هذه المقدمة نعود إلى تفسير الآية، هذه الآية الكريمة تشير إلى ستة أقسام من آثار النظم الموجود في عالم الكون، وكل واحد آية تدل على وحدانية المبدأ الأكبر.

١ - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾.

من العلامات الدالة على ذات الله المقدسة وعلى قدرته وعلمه ووحدانيته، السماء وكرات العالم العلوي، أي هذه المليارات من الشموس المشرقة والنجوم الثابتة والسيارة، التي ترى بالعين المجردة أو بالتلسكوبات، ولا يمكن رؤية بعضها بأقوى أجهزة الإرصاد لبعدها الشاسع. . . الشاسع للغاية، والتي تنتظم مع بعضها البعض في نظام دقيق مترابط.

وهكذا الأرض بما على ظهرها من حياة، تتجلّى بمظاهر مختلفة وتتلبس بلباس آلاف الأنواع من النبات والحيوان.

ومن المدهش أن عظمة هذا العالم وسعته وامتداده تظهر أكثر كلما تقدّم العلم، ولا ندري المدى الذي سيبلغه العلم في فهم سعة هذا الكون!

يقول العلم لنا اليوم: إن في السماء آلافاً مؤلفة من المجرات، ومنظومتنا الشمسية جزء من واحدة من المجرات، وفي مجرتنا وحدها مئات الملايين من الشموس والنجوم السّاطعة، وحسب دراسات العلماء يوجد بين هذه الكواكب مليون كوكب مسكون بمليارات الموجودات الحيّة!

حقاً ما أعظم هذا الكون! وما أعظم قدرة خالقه!!

٢ - ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ. . .﴾.

من الدّلائل الأُخرى على ذاته المقدسة وصفاته المباركة تعاقب الليل والنهار، والظلمة والنور بنظام خاص، فينقص أحدهما بالتدريج ليزيد من الآخر، وما يتبع في ذلك من تعاقب الفصول الأربعة، وتكامل النباتات وسائر الأحياء في ظل هذا التكامل.

لو انعدم هذا التغيير التدريجي، أو انعدم النظام في هذا التدريج، أو انعدم تعاقب الليل والنهار لانمحت الحياة من وجه الكرة الأرضية، ولو بقيت واستمرت ـ فرضاً ـ لأصابتها الفوضى والخبط[١].

٣ ـ ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

الإنسان يمخر عباب البحار والمحيطات بالسفن الكبيرة والصغيرة، مستخدماً هذه السفن للسفر ولنقل المتاع. وحركة هذه السفن خاصة الشراعية منها تقوم على عدّة أنظمة:

الأوّل: نظام هبوب الرياح على سطح مياه الكرة الأرضية، فهناك الرياح القارية التي تهبّ من القطبين الشمالي والجنوبي نحو خطّ الإستواء وبالعكس وتدعى «اليزه» و«كنتر اليزه»؟؟. وهناك الرياح الإقليمية التي تهب وفق نظام معين، وتعتبر قوة طبيعية لتحريك السفن نحو مقاصدها.

وهكذا خاصية الخشب، أو خاصية القوة الدافعة التي يسلطها الماء على الأجسام الغاطسة فيه، فيجعل هذه السفن تطفو على سطح الماء.

أضف إلى ذلك خاصية القطبين المغناطيسيين للكرة الأرضية، التي تساعد البحارة باستخدام البوصلة أن يعرفوا اتجاههم في وسط البحار، إضافة إلى استفادتهم من نظام حركة الكواكب في معرفة جهة السير.

كل هذه الأنظمة تساعد على الإستفادة من الفلك[٢]، وتعطي دليلاً محسوساً على قدرة الله وعظمته، وتعتبر آية من آيات وجوده.

استعمال المحركات الوقودية بدل الأشرعة في السفن اليوم، لم يقلل أهمية هذه الظاهرة، بل زادها عجباً ودهشة، إذ نرى اليوم السفن العملاقة التي تشبه مدينة بجميع مرافقها، تطفو على سطح الماء وتنتقل بفنادقها وساحات لعبها وأسواقها، بل ومدارج للطائرات فيها... على ظهر البحار والمحيطات.

---

(١) «الإختلاف» قد يعني التعاقب أي مجيء شيء وذهاب آخر، وقد يعني الزيادة والنقصان في الليل والنهار، وعلى المعنيين تتحدث الآية عن نظام خاص لليل والنهار لا يمكن أن يكون قائماً على الصدفة. ومن دون تدخل وجود عالم وقادر في ذلك. ولهذا ورد في القرآن الكريم، هذا المعنى في موارد متعددة كدليل على الذات المقدسة.

(٢) الفلك: هي السفينة أو السفن، فاللفظ مفرد وجمع.

٤ ـ ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ . . .﴾.

من مظاهر قدرة الله وعظمته المطر الذي يحيي الأرض، فتهتز ببركته وتنمو فيها النباتات وتحيا الدواب بحياة هذه النباتات، وكل هذه الحياة تنتشر على ظهر الأرض من قطرات ماء لا حياة فيها.

٥ ـ ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ. . .﴾، لا على سطح البحار والمحيطات لحركة السفن فحسب، بل على الجبال والهضاب والسهول أيضاً لتلقيح النباتات فتخرج لنا ثمارها اليانعة.

وتارة تعمل على تحريك أمواج المحيطات بصورة مستمرة ومخضها مخض السقاء لإيجاد محيط مستعد لنمو وحياة الكائنات البحرية.

وأُخرى تقوم بتعديل حرارة الجو وتلطيف المناخ بنقلها حرارة المناطق الإستوائية إلى المناطق الباردة، وبالعكس.

وأحياناً تقوم بنقل الهواء الملوّث الفاقد للأوكسجين من المدن إلى الصحارى والغابات لمنع تراكم السموم في الفضاء.

أجل فهبوب الرياح مع كل تلك البركات والفوائد علامة أُخرى على حكمة الباري ولطفه الدائم.

٦ ـ ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾، والسحب المتراكمة في أعالي الجوّ، المحمَّلة بمليارات الأطنان من المياه خلافاً لقانون الجاذبية والمتحركة من نقطة إلى أُخرى دون إيجاد خطر، من مظاهر عظمة الله سبحانه.

إضافة إلى أن هذا الوَدْق (المطر) الذي يخرج من خلال السحاب يُحيي الأرض وبحياة الأرض تحيا النباتات والحيوانات والإنسان، ولولا ذلك لتحوَّلت الكرة الأرضية إلى أرض مقفرة موحشة. وهذا مظهر آخر لعلم الله وقدرته. وكل تلك العلامات والمظاهر ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، لا للغافلين الصم البكم العمي.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

التّفسير

١ ـ السّماوات السّبع:

كلمة «سماء» تشير إلى جهة عليا، ولها مفهوم واسع ذو مصاديق مختلفة. ولذلك كان لها استعمالات عديدة في القرآن الكريم:

١ ـ أطلقت أحياناً على «الجهة العليا» المجاورة للأرض كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

٢ ـ وعنى بها القرآن تارة المنطقة البعيدة عن سطح الأرض: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩].

٣ ـ عبّر القرآن بها في موضع آخر عن (الغلاف الجوي) المحيط بالأرض: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. لأن هذا الغلاف يقي الكرة الأرضية من الصخور السماوية (النيازك) التي تتجه إلى الأرض ليلاً ونهاراً بفعل جاذبية الأرض، لكن اصطدام هذه الصخور بجوّ الأرض يؤدي إلى اشتعالها ومن ثم تحوّلها إلى رماد.

٤ ـ وأراد القرآن بالسماء في موضع آخر (الكرات العليا): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

نعود الآن إلى «السماوات السبع» لنرى ما المقصود من هذا العدد. تعددت آراء المفسرين والعلماء المسلمين في ذلك.

١ ـ منهم من قال إنها السيّارات السّبع[(١)] في اصطلاح الفلكيين القدماء: أي عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل والقمر والشمس.

٢ ـ ومنهم من قال إن المقصود بها هو الطبقات المتراكمة للغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية.

---

(١) منهم من قسّم كرات المنظومة الشمسية العشر (تسع سيارات معروفة إضافة سيارة كانت موجودة بين المريخ والمشتري، ثم تهشمت وظلت العشر بقاياها تدور في نفس المقدار) إلى مجموعتين: مجموعة تحت مدار الأرض (عطارد والزهرة) ومجموعة خارج مدار الأرض وفوقه، وهي سبع سيارات. ولعلهم بهذا أرادوا تفسير السماوات السبع بالكرات السبع الخارجية. (تأمل بدقة).

٣ ـ ومنهم من قال إن العدد (سبعة) لا يراد به هذا العدد المعروف، بل يراد به الكثرة، أي أن معنى «السماوات السبع» هو السماوات والكرات الكثيرة في الكون.

ولهذا نظير في كلام العرب وفي القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

وواضح أن المقصود بالسبعة في هذه الآية ليس العدد المعروف، لأن علم الله لا ينتهي حتى ولو أن البحر يمده من بعده الآلاف المؤلفة من الأبحر.

٤ ـ قال في الأمثل: الأصح في رأينا أن المقصود بالسماوات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. وتكرر هذه العبارة في آيات الذكر الحكيم يدل على أن العدد المذكور في هذه الآيات لا يعني الكثرة، بل يعني العدد الخاص بالذات.

ويستفاد من آيات أُخرى أن كل الكرات والسيّارات المشهودة هي جزء من السماء الأولى، وثمة ستة عوالم أُخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا ووسائلنا العلمية اليوم. وهذه العوالم السبعة هي التي عبّر عنها القرآن بالسماوات السبع.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: ١٢].

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

ويتضح من هاتين الآيتين أن ما نراه وما يتكون منه عالم الأفلاك هو جزء من السماء الأُولى، وما وراء هذه السماء ست سماوات أُخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

نحن نرى اليوم أنه كلما تقدمت العلوم الناقصة للبشر اكتشفت عجائب ومجاهيل عظيمة. علم الفلك تقدّم إلى مرحلة بعيدة جداً في الرصد عن طريق التلسكوبات، ثم توقفت قدرة الرؤية إلى أكثر من ذلك.

أبعد ما اكتشفته دوائر الأرصاد الفلكية العالمية حتى الآن مسافة في الكون تعادل ألف مليون (مليار) سنة ضوئية. والراصدون يعترفون أن أقصى ما اكتشفوه هو بداية الكون لا نهايته. وما يدريك أن العلم سيكتشف في المستقبل سماوات وعوالم أُخرى.

من الأفضل أن نسمع هذا الحديث عن لسان مرصد عالمي كبير.

٢ ـ عظمة الكائنات:

المرصد لـ «بالومر» يصف عظمة الكون كالآتي:

«. . . . قبل نصب مرصد بالومر، كان العالم في نظرنا لا يزيد على خمسمائة سنة ضوئية. لكن هذا الناضور وسّع عالمنا إلى ألف مليون سنة ضوئية. واكتشف على أثر ذلك ملايين المجرات الجديدة التي يبعد بعضها عنا ألف مليون سنة ضوئية. أما بعد هذه المسافة فيتراءى لنا فضاء عظيم مهيب مظلم لا نبصر فيه شيئاً، أي أن النور لا ينفذ إليه كي يؤثر على صفحة التصوير في المرصد.

ومن دون شك أن هذا الفضاء المهيب المظلم يحتوي على مئات الملايين من المجرات التي تحافظ بجاذبيّتها على هذا العالم المرئي.

كل هذا العالم العظيم المرئي الحاوي على مئات آلاف الملايين من المجرات ليس إلا جزءاً صغيراً جداً من عالم أعظم. ولسنا واثقين من عدم وجود عالم آخر غير هذا العالم الأعظم».

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

التّفسير

قسمٌ آخر من دلائل عظمة الله:

يتطرّق القرآن الكريم مرّةً ثانية إلى آيات التوحيد وعلائم العظمة وأسرار الخلقة. فهذه الآيات تحاول أن تقرّب العلاقة بين الإنسان وربّه من خلال الإشارة إلى بعض الظواهر الطبيعيّة بشكل موجز وعميق المعنى لكي يشعّ نور الإيمان في قلوب الناس، فتشير أوّلاً إلى البرق: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فالبرق بشعاعه يبهر العيون من جانب، ويحدث صوتاً مخيفاً وهو الرعد من جانب آخر، وقد يسبّب أحياناً الحرائق للناس وخصوصاً في المناطق الصحراوية فيبعث على خوفهم ومن جانب آخر فإنّه يسبّب هطول الأمطار ويروي ظمأ الصحراء ويسقي المزروعات فيطمع فيه الناس، وبين هذا

الخوف والرجاء تمرّ عليهم لحظات حسّاسة. ثمّ تضيف الآية: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ القادر على إرواء ظمأ الأراضي الزراعية.

بركات الرعد والبرق:

نحن نعلم أنّ ظاهرة البرق في المفهوم العلمي هي إقتراب سحابتين إحداهما من الأخرى، وهما تحملان شحنات سالبة وموجبة، فيتمّ تفريغ الشحنات بين السحابتين فتحدث شرارة عظيمة، ويحدث مثل ذلك عند اقتراب سلكين أحدهما سالب والآخر موجب، وإذا كنّا قريبين منهما فإنّنا نسمع صوتاً خفيفاً، ولكن لاحتواء الغيوم على شحنات هائلة من الألكترونات فإنّهما تحدثان صوتاً شديداً يسمّى الرعد.

وإذا ما اقتربت سحابة تحمل الشحنة الموجبة من الأرض التي تحتوي على شحنات سالبة فستحدث شرارة تسمّي بالصاعقة، وخطورتها تكمن في أنّ الأرض والمناطق المرتفعة تعتبر رأس السلك السالب، حتّى الإنسان في الصحراء يمكن أن يمثّل هذا السلك فيحدث تفريغ للشحنات يحوّل الإنسان إلى رماد في لحظة واحدة، ولهذا السبب عند وقوع البرق والرعد في الصحراء يجب أن يلجأ الإنسان إلى شجرة أو حائط أو إلى الجبال أو إلى أي مرتفع آخر، أو أن يستلقي في أرض منخفضة.

وعلى أي حال، فإنّ للبرق ـ الذي يسمّى في بعض الأحيان مزاج الطبيعة ـ فوائد جمّة عُرفت من خلال ما كشفه العلم الحديث. ونشير هنا إلى ثلاثة منها:

١ ـ **السقي**: من الطبيعي أنّ البرق تتولّد منه حرارة عالية جدّاً قد تصل بعض الأحيان إلى (١٥) ألف درجة مئوية، وهذه الحرارة كافية لأن تحرق الهواء المحيط بها، وفي النتيجة يقلّ الضغط الجوي، فيسبّب سقوط الأمطار. ولهذا السبب نرى هطول الأمطار الغزيرة بعد حدوث البرق.

وهذه في الواقع واحدة من وظائف البرق (السقي).

٢ ـ **التعقيم**: ونتيجةً للحرارة العالية التي يسبّبها البرق فسوف يزداد مقدار الأوكسجين في قطرات الماء، ويسمّى هذا الماء بالماء الثقيل أو الماء المؤكسد ($H2O2$) ومن آثاره قتل الميكروبات، ولهذا السبب يستعمل لغسل

الجروح، فعند نزول هذه القطرات إلى الأرض سوف تُبيد بيوض الحشرات والآفات الزراعية، ولهذا السبب يقال إنّ السنة الكثيرة الآفات الزراعية هي السنة القليلة البرق والرعد.

٣ ـ التغذية والتسميد: تتفاعل قطرات الماء مع الحرارة العالية للبرق لتنتج حامض الكاربون، وعند نزولها إلى الأرض وتركيبها مع محتوياتها تضع نوعاً من السّماد النباتي، فتتمّ تغذية النبات من هذا الطريق.

يقول بعض العلماء: إنّ مقدار ما ينتجه البرق من الأسمدة في السنة يصل إلى عشرات الملايين من الأطنان، وهذه كميّة كبيرة جدّاً.

وعلى أي حال، نرى من خلال ظاهرة طبيعيّة صغيرة كلّ هذه المنافع والبركات، فهي تقوم بالسقي ورشّ السموم والتغذية، فيمكن أن تكون دليلاً واضحاً لمعرفة الله، كلّ ذلك من بركات البرق، كما أنّه يمكن أن يكون البرق عاملاً مهمّاً في إشعال الحرائق من خلال الصاعقة، وقد تحرق الإنسان أو الأشجار، ومع أنّها نادرة الحدوث ويمكن الوقاية منها، فهي مع ذلك عامل خوف للناس، فمفهوم الخوف والطمع للبرق قد يكون إشارة إلى جميع هذه الأمور.

ويمكن أن تكون الجملة ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ لها علاقة بالبرق الذي يصنع هذه الغيوم المليئة بالمياه.

الآية الأخرى تشير إلى صوت الرعد الذي يتزامن مع البرق ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

نعم، فهذا الصوت المدوّي في عالم الطبيعة يُضرب به المثل، فهو مع البرق في خدمة هدف واحد ولهما منافع متعدّدة كما أشرنا إليها، ويقومان بعملية التسبيح، وبعبارة أُخرى فالرعد لسان حال البرق يحكي عن عظمة الخالق وعن نظام التكوين، فهو كتاب معنوي، وقصيدة غرّاء، ولوحة جميلة وجذّابة، نظام محكم ومنظّم ومحسوب بدقّة، ولسان حاله يتحدّث عن علم ومهارة وذوق الكاتب والرسام والمعمار ويحمده ويثني عليه، كلّ ذرّات هذا العالم لها أسرار ونظام دقيق. وتحكي عن تنزيه الله وخلوّه من النقص والعيوب (وهل التسبيح غير ذلك؟!).

وتتحدّث عن قدرته وحكمته (وهل الحمد غير بيان صفات الكمال؟!!).

وقد احتمل بعض الفلاسفة أنّ لكلّ ذرّات هذا العالم نوعاً من العقل والشعور، فهي من خلال هذا العقل تسبّح الله وتقدّسه، ليس بلسان الحال فقط، بل بلسان المقال أيضاً.

وليس الرعد وسائر أجزاء العالم تسبّح بحمده تعالى، بل حتّى الملائكة ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾[1] فهم يخافون من تقصيرهم في تنفيذ الأوامر الملقاة على عاتقهم، وبالتالي فهم يخشون العقاب الإلهي، ونحن نعلم أنّ الخوف يُصيب أولئك الذين يحسّون بمسؤولياتهم ووظائفهم.. خوف بنّاء يحثّ الشخص على السعي والحركة.

وللتوضيح أكثر في مجال البرق والرعد تشير الآية إلى الصاعقة ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ومع كلّ ذلك ـ وبمشاهدة آيات العظمة الإلهية في عالم التكوين من السّماء والأرض والنباتات والأشجار والبرق والرعد وأمثالها، وفي قدرة الإنسان الحقيرة تجاه هذه الحوادث، حتّى في مقابل واحدة منها مثل شرارة البرق ـ نرى أنّ هناك جماعة جاهلة تجادل في الله ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

«المحال» في الأصل «الحيلة» بمعنى التدبير السرّي وغير الظاهر، فالذي له القدرة على هذا التدبير يمتلك العلم والحكمة العالية، ولهذا السبب يستطيع أن ينتصر على أعدائه ولا يمكن الفرار من حكومته.

وذكر المفسّرون وجوهاً عديدة في تفسير ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ فتارةً بمعنى «شديد القوّة» أو «شديد العذاب»، أو «شديد القدرة» أو «شديد الأخذ»[2].

وفي الميزان والمعنى: هو الذي يُظْهِرُ لعيونكم البرق لِيَظْهَرَ فيكم صفتا الخوف والطمع كما أن المسافر يخافه، والحاضر يطمع فيه، وأهل البحر يخافونه، وأهل البَرّ يطمعون فيه، ويخافون صاعقته، ويطمعون في غيثه،

(١) يقول الشيخ الطوسي (رحمه الله) في تفسيره التبيان: الخيفة بيان لحالة الشخص أمّا الخوف فمصدر.
(٢) فسّر البعض «المحال» من «المحلّ، الماحل» بمعنى المكر والجدال والتصميم على العقوبة، ولكن ما أشرنا إليه أعلاه هو الصحيح، والتفسيران قريبا المعنى.

ويخلف بإنشائه السحاب التي تثقل بالمياه التي تحملها، وفي ذكر آية البرق بالإراءة، وآية السحاب بالإنشاء لطف ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إلخ الصواعق: جمع صاعقة وهي القطعة النارية النازلة من السماء عن برق ورعد، والجدال: المفاوضة والمنازعة في القول على سبيل المغالبة، وأصله من فتلت الحبل إذا أحكمت فتله...

قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٣].

وهذه الآيات تتحدَّث عن آيات الله ودلائله في الأرض وفي وجود الإنسان نفسه ليطَّلع على مسألة التوحيد، ومعرفة الله، وصفاته التي هي مبدأ الحركة نحو الخيرات كلّها من جهة، وعلى قدرته على مسألة المعاد والحياة بعد الموت من جهة أُخرى، لأنّ خالق الحياة على هذه الأرض وما فيها من عجائب قادر على تجديد الحياة بعد الموت كذلك! تقول هذه الآية أوّلاً ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

والحقّ أنّ دلائل الله وقدرته غير المتناهية وعلمه وحكمته التي لا حدّ لها في هذه الأرض كثيرة ووفيرة إلى درجة أنّ عمر أي إنسان مهما كان لا يكفي لمعرفتها جميعاً.

فحجم الأرض وبُعدها عن الشمس وحركتها حول نفسها وحركتها حول الشمس والقوى الجاذبة والدافعة التي تنتج عن حجمها وحركتها وهي متعادلة فيما بينها تماماً متناسقة فجميع هذه الأمور مجتمعةً توفّر الحياة على سطح الأرض وكلّ ذلك من آيات الله الكبرى.

في حين أن لو تغيّرت حركة من هذه الحركات واختلفت الخصائص أقل اختلاف، لاضطربت الموازين وتبدلّت ظروف الحياة على سطح الأرض.

فالمواد التي تتشكّل منها الأرض والمنابع التي هي فوق سطح الأرض وداخلها ـ المعدّة للحياة ـ كلّ منها آية من آيات الله ودلائله.

الجبال والسهول والهضاب والأنهار والعيون التي كلّ منها له أثره في استمرار الحياة واتّساق ظروفها دلائل أُخرى من دلائله وآياته.

مئات الآلاف من أنواع النباتات والحشرات والحيوانات... أجل، مئات الآلاف كلّ منها بخصائصه وعجائبه عند مطالعة كتب الأحياء و«البايلوجيا» وكتب الجيولوجيا والتربة وعلم النبات وعلم الحيوان تدع الإنسان يستغرق في حيرة مذهلة!

وفي كلّ زاوية أو جانب من هذه الكرة الأرضية أسرار مثيرة قلّ أن يلتفت إليها أحد، إلّا أنّ الباحثين والعلماء كشفوا النقاب عن جزء منها وأظهروا عظمة الخالق وقدرته.

ولا بأس أن ننقل هنا جانباً من كلمات بعض العلماء المعروفين في العالم الذين لهم دراسات كثيرة في هذا الصدد: إنّه «كرسي موريسين» فلنصغ إليه قائلاً:

«لقد روعي منتهى الدقّة في تنظيم العوامل الطبيعية فلو تضخّمت القشرة الخارجية للكرة الأرضية أكثر ممّا كانت عليه عشر مرّات لانعدم الأوكسجين الذي هو المادّة الأصلية للحياة، ولو أنّ أعماق البحار كانت أكثر عمقاً ممّا هي عليه قليلاً أو كثيراً لانجذب جميع الأوكسجين والكربون من سطح الأرض ولم يعد أي إمكان لحياة النبات أو الحيوان على سطح الأرض»!

ويقول في مكان آخر من الغلاف الجوّي الذي يحيط بالأرض: لو أنّ هذا الغلاف الذي يحيط بالأرض من الهواء كان رقيقاً لخرقته الشهب الثواقب التي تأتي كلّ يوم بنحو عدّة ملايين فتصيب الأرض حيث ما وقعت، إلّا أنّ هذا الغلاف الجوّي يمنعها لكثافته فتتلاشى وتحترق عنده فلا تصل إلى الأرض.

ولو أنّ الشهب الثواقب خفّت سرعتها لما احترقت عند اصطدامها بالهواء ولوقعت على الأرض ودمّرت الكثير.

ويقول في مكان آخر «إنّ نسبة الأوكسجين في الهواء هي إحدى وعشرين بالمائة فحسب، فلو كانت هذه النسبة خمسين بالمائة لاحترق به كلّ ما من شأنه الإشتعال في هذا العالم... ولو وصلت شظية صغرى من النار إلى شجرة في غابة لاحترقت الغابة جمعاء»!

إنّ نسبة كثافة الهواء المحيط بالأرض إلى درجة بحيث يوصل الأشعة المناسبة لرشد النباتات ونموّها وتعدم الميكروبات الضارّة في الفضاء نفسه وتنتج الفيتامينات النافعة.

ومع وجود الأبخرة المختلفة التي خرجت من باطن الأرض خلال القرون المتمادية وانتشرت في الهواء وأغلبها أبخرة سامّة فمع ذلك فإنّ الهواء المحيط بالأرض لم يتلوّث وما يزال باقياً على حالته الطبيعية المناسبة للحياة الإنسانية.

والجهاز الذي يوجد هذه الموازنة ويحفظ هذا التعادل هو البحر والمحيط الذي منه تستمدّ المواد الحياتية والغذاء والأمطار واعتدال الهواء والنباتات وأخيراً فإنّ وجود الإنسان نفسه يستمدّ منه أيضاً.

فكلّ من يدرك هذه المعاني فعليه أن يطأطىء رأسه للبحر تعظيماً وأن يشكر مواهبه وخالق البحر[1].

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا تبصرون الآيات في أنفسكم أيضاً؟!

ولا شكّ أنّ الإنسان أعجوبة عالم الوجود وما هو في العالم الأكبر موجود في عالم الإنسان الأصغر أيضاً، بل في الإنسان عجائب لا توجد في أي مكان من العالم!

والعجب أنّ هذا الإنسان على عظمته وعقله وعلمه وهذا الإبتداع والإبتكار والصنع العجيب كان أوّل يومه على صورة نطفة صغرى لا قيمة لها!! لكن ما أن استقرّت في الرحم حتّى تكاملت بسرعة وتبدّلت يوماً بعد يوم ولحظة بعد أخرى فإذا هذه النطفة التي لا قيمة لها تغدو إنساناً كاملاً سويّاً!

خليّة واحدة التي هي أصغر جزء في بدن الإنسان تشكّل بناية ضخمة متداخلة عجيبة فهي على حدّ تعبير بعض العلماء تعادل «مدينة صناعية».

يقول أحد علماء «علم الأحياء» إنّ هذه المدينة العظمى مع آلاف الأبواب أو البوّابات المثيرة وآلاف المعامل والمخازن وشبكات المجاري والتأسيسات

---

(١) الكاتب كرسي موريسين في كتابه (أسرار خلق الإنسان) ص٣٢ ـ ٣٦.

الكثيرة والإرتباطات والأعمال الحياتية المختلفة كلّ ذلك في مساحة صغيرة جدّاً بمقدار خلية من أكثر الأمور تعقيداً وإثارة، إذ لو أردنا أن نُهيّيء تأسيسات مثلها (ولن نستطيع أبداً) لكان علينا أن نشغل مساحة آلاف الهكتارات من الأرض وعليها النباتات والماكينات المختلفة المعقّدة لنصل إلى مثل هذه الخطّة!! إلّا أنّ الطريف أنّ جهاز الخلقة جعل كلّ ذلك في مساحة تعادل خمسة عشر ميلونيم الميليمتر فحسب[١].

إنّ الأجهزة الموجودة في بدن الإنسان كالقلب والكلية والرئة وخاصّة عشرات آلاف الكيلومترات من الأعصاب الرقيقة أو الكبيرة والأعصاب الدقيقة التي لا ترى بالعين المجرّدة وجميعها مسؤولة عن إيصال الغذاء والماء والتهوية إلى عشرة مليون مليار خلية، والحواس المختلفة كالسمع والبصر والحواس الأخر كلّ منها آية عظمى من آيات الله.

وأهمّ من كلّ ذلك لغز الحياة التي لم تعرف أسرارها وبناء الروح أو العقل الإنساني الذي يعجز عن إدراكه عقول جميع الناس وهنا ـ ينحني الإنسان ويتمتم بالتسبيح والحمد والثناء لله دون اختياره ويترنّم بهذه الأشعار:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلا
أنت حيّرت ذوي اللـ ـبّ وبلبلت العقولا
كلّما قدّم فكري فيك شبراً فرّ ميلا
ناكصاً يخبط في عمـ ـياء لا يُهدى سبيلا

وقد ورد في حديث عن النبي ﷺ أنّه قال «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[٢].

أجل إنّ معرفة النفس في جميع المراحل طريق لمعرفة الله والتعبير: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تعبير لطيف: أي إنّ هذه الآيات حولكم وفي داخلكم وفي تمام وجودكم بحيث لو فتحتم أعينكم ولو قليلاً لأبصرتم آيات الله ولارتوت أرواحكم من إدراك عظمته!

---

(١) سفرة في أعماق وجود الإنسان، قسم الخلايا.
(٢) سفينة البحار، ج٢، ص٦٠٣ مادّة النفس.

وفي الآية الثالثة من الآيات ـ محل البحث ـ إشارة إلى القسم الثالث من دلائل عظمة الخالق وقدرته على المعاد إذ تقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

وبالرغم من أنّ بعض الرّوايات الإسلامية تفسّر «الرزق» في هذه الآية بـ«المطر» الذي يمنح الحياة وهو مصدر الخير والبركة في الأرض جميعاً، والآية (٥) من سورة الجاثية أيضاً توافق هذا التّفسير إذ تقول: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إلّا أنّ هذا المعنى يمكن أن يكون مصداقاً جليّاً من مصاديق الآية، في حين أنّ سعة مفهوم الرزق تشمل حبّات المطر وغيرها كنور الشمس الذي يأتي من السماء وله أثره الفاعل في الحياة، والهواء الذي هو أساس حياة الموجودات.

كلّ هذا لو أخذنا مفهوم السماء بالمعنى اللغوي أي السماء التي فوقنا، إلّا أنّ بعضهم فسّرها بعالم الغيب وما وراء الطبيعة أو اللوح المحفوظ الذي تقدّر منه أرزاق العباد!

وبالطبع فإنّ الجمع بين التّفسيرين ممكن، وإن كان التّفسير الأوّل أنسب وأوضح!

وأمّا جملة ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فيمكن أن تكون تأكيداً على مسألة الرزق عند الله في هذا المجال، أو أنّ المراد منها الجنّة الموعودة، لأنّنا نقرأ الآية (١٥) من سورة النجم ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أو أنّها إشارة إلى كلّ خير وبركة أو عذاب ينزل من السماء! أو أنّ «ما توعدون» ناظر إلى جميع هذه المعاني، لأنّ مفهوم «ما توعدون» واسع جدّاً.

وعلى كلّ حال، فهذه الآيات الثلاث فيها ترتيب لطيف، فالآية الأولى تتحدّث عن أسباب وجود الإنسان وحياته، والآية الثانية تتحدّث عن الإنسان نفسه، والآية الثالثة تتحدّث عن أسباب بقائه ودوامه!

وجدير بالإلتفات أيضاً أنّ ما يمنع البصيرة ويصدّها عن مطالعة أسرار الخلق وأسرار الأرض وعجائب وجود الإنسان هو «الحرص على الرزق» فالله سبحانه يطمئن الإنسان في الآية الأخيرة بأنّ رزقه مضمون، ليستطيع أن ينظر إلى عجائب العالم ويتحقّق فيه قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟!

لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تُقسم فتقول: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

وقد بلغ الأمر حدّاً أن يقسم الله على ما لديه من عظمة وقدرة ليُطمئنَ عباده الشاكّين ضعاف الأنفس الحريصين إنّ ما توعدون في مجال الرزق والثواب والعقاب والقيامة جميعه حقّ ولا ريب في كلّ ذلك[١].

والتعبير بـ ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ تعبير لطيف ودقيق يتحدّث عن أكثر الأشياء لمساً، لأنّه قد يخطىء الإنسان في الباصرة أو السمع بأن يتوهّم أنّه سمع أو رأى، إلّا أنّه لا يمكن أن يتوهّم أنّه قال شيئاً مع أنّه لم يقله... لذلك فإنّ القرآن يقول: كما أنّ ما تنطقون به محسوس عندكم وله واقع، فإنّ الرزق والوعد الإلهي عنده كذلك!

ثمّ بعد هذا كلّه فإن النطق بنفسه واحد من أكبر الأرزاق والمواهب الإلهيّة التي لم يتمتّع بها أي موجود حيّ سوى الإنسان، وليس بخاف أثر الكلام والنطق في الحياة الإجتماعية وتعليم الناس وتربيتهم وانتقال العلوم وحلّ مشاكل الحياة على أحد.

بحوث

١ ـ قصّة الأصمعي المثيرة:

ينقل الزمخشري في كشّافه عن الأصمعي[٢] أنّه قال خرجت من مسجد البصرة فبصرت بأعرابي من أهل البادية راكباً على دابته فواجهني وسألني: من أي القبائل أنت؟! فقلت من بني الأصمع... فقال من أين تأتي؟ فقلت: من مكان يقرأ فيه كلام الله فقال لي: اقرأ لي منه، فقرأت له آيات من سورة الذاريات حتّى بلغت ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال كفى. ثمّ نهض وعمد إلى بعير

---

(١) هناك كلام بين المفسّرين في أنّ مرجع الضمير في «إنه» على أي شيء يعود؟ قال بعضهم يعود على الرزق، وقال بعضهم يعود على ما توعدون وقال بعضهم يعود على النبي والقرآن إلّا أنّ التفسير الأوّل انسب.

(٢) كان يدعى «عبد الملك بن قريب» وكان يعيش في عهد هارون الرشيد وله حافظة عجيبة واطّلاعات واسعة تاريخ العرب وأشعارها وتوفّي في البصرة سنة ٢١٦ الكنى والألقاب، ج٢، ص٢٧.

عنده فنحره وقسّم لحمه على المحتاجين من الذاهبين والآيبين ثمّ عمد إلى سيفه وقوسه فكسّرهما أيضاً وألقاهما جانباً واستدار إلى الوراء ومضى وانتهت هذه القصّة!

وحين مضيت إلى حجّ بيت الله الحرام بمعيّة هارون الرشيد وكنت مشغولاً في الطواف إذا أنا برجل يناديني بصوت ضعيف فنظرت فإذا هو ذلك الأعرابي وكان نحيلاً مصفرّ الوجه، «وكان يظهر عليه العشق الملتهب الذي لم يدع له قراراً» فسلّم عليّ وطلب منّي أن أعيد عليه سورة الذاريات فلمّا بلغت الآية آنفة الذكر صرخ: وقال وجدنا وعد ربّنا حقّاً. . . ثمّ أضاف هل هناك آية بعدها؟! فقرأت ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ فصرخ ثانية وقال يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتّى حلف ليصدّقوه بقوله حتّى ألجأوه إلى اليمين[١].

٢ ـ أين الجنّة؟!

كما ذكرنا في الآيات آنفة الذكر فإنّ بعض المفسّرين يرى أنّ جملة ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ معناها الجنّة. وقالوا: يستفاد من هذه الآية أنّ الجنّة في السماء، إلّا أنّ هذا الكلام لا ينسجم مع الآية التي تتحدّث عن الجنّة فتقول: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وكما قلنا ـ إنّ هذا التفسير لجملة ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ لا دليل عليه، بل يمكن أن يكون إشارة إلى وعد الله برزقه أو عذاب السماء.

وإذا كان في الآية (١٥) من سورة النجم قد ورد أنّ جنّة المأوى في السماء عند سدرة المنتهى فليس ذلك دليلاً على هذا المعنى، لأنّ «جنّة المأوى» قسم من بساتين الجنّة لا جميع الجنّة. . . (فلاحظوا بدقّة).

٣ ـ الإستفادة من آيات الله تحتاج إلى قابلية:

حين تتحدّث آيات القرآن عن أسرار الخلق ودلائل الله في عالم الوجود تقول تارة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

وأخرى تقول: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

(١) تفسير الكشاف، ج٤، ص٤٠٠.

أو تقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

وفي مكان آخر تقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

وتارةً تقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

وأخيراً تقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

والآيات محلّ البحث تقول: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؟!

أي إن آيات الله في الأرض وفي أنفسكم واضحة جليّة لأُولئك الذين لهم بصر ثاقب.

وهذه التعبيرات تدلّ دلالة واضحة على أنّ الإستفادة من الآيات التي لا تحصى ـ الدالّة على وجود ذاته المقدّسة في الأرض تحتاج إلى استعداد كاف، عين باصرة، أُذن سميعة، فكر يقظ، قلب ذكي وروح مهيّأة لقبول الحقائق متعطّشة لها. . . وإلّا فمن الممكن أن يعيش الإنسان سنين بين هذه الآيات إلّا أنّ مثله كمثل الحيوانات التي همّها علفها.

٤ ـ الرزق حقّ:

من جملة الأُمور التي يحكمها نظام دقيق «مسألة الرزق» التي أُشير إليها في الآيات محلّ البحث إشارات واضحة.

صحيح أنّ الإستفادة من مواهب الحياة مشروطة بالجدّ والسعي والمثابرة وأنّ الكسل والخنوع مدعاة للتأخر والحرمان من الحياة. . . إلّا أنّه من الخطأ البيّن أن نتصوّر أنّ رزق الإنسان يزداد بالحرص والولع والأعمال الكثيرة وأنّ رزقه يقلّ بالتعفّف والتجلّد وما إلى ذلك.

قال في الأمثل: ونلاحظ في الأحاديث الإسلامية تعابير طريفة في هذا المجال: ففي حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الرزق لا يجرّه حرص حريص ولا يصرفه كره كاره».

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام جواباً على بعض أصحابه وقد طلب منه أن يعظه وينصحه فقال عليه السلام «. . . . وإن كان الرزق مقسوماً فالحرص لماذا»؟!

والهدف من بيان هذه الأحاديث ليس هو الوقوف بوجه الجدّ والسعي بل

هو تنبيه الحريصين أن يلتفتوا إلى أنّ رزقهم مقدّر ليرتدعوا عن حرصهم!

وهنا لطيفة جديرة بالإلتفات وهي أنّ الرّوايات الإسلامية ذكرت أُموراً كثيرة على أنّها مدعاة للرزق أو مانعة له، وكلّ منها مهمّ في نفسه!

وقال في الميزان: «وفي الآية إشارة إلى ما تتضمّنه الأرض من عجائب الآيات الدّالة على وحدة التدبير القائمة بوحدانية مدبّرة من برّ وبحر وجبال وعيون وأنهار ومعادن ومنافعها المتّصلة بعضها ببعض الملائمة بعضها لبعض يُنتفع بما عليها من النبات والحيوان في نظام واحد مستمر من غير اتّفاق وصدفة لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكمة دال على أن خالقها، وتدبير أمرها ينتهي إلى خالق مدبّر قادر عليم حكيم. . .

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وفي أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر إليها وركز النظر فيها أفلا تبصرون، والآيات التي في النفوس: منها ما في تركّب الأبدان من أعضائها وأعضاء أعضائها حتى ينتهي إلى البسائط، وما لها من عجائب الأفعال والآثار المتحدة في عين تكثرها المدبَّرة جميعاً لمدبّر واحد، وما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينية والطفولية والرهاق والشباب والشيب. . .

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٤٧-٥١].

مرة أُخرى تتحدث عن هذه الآيات عن موضوع عظمة الله في عالم الخلق وهي في الحقيقة تتمّة لما ورد في الآيتين (٢٠ و٢١) من هذه السورة في شأن آياته في الأرض وفي نفس «الإنسان» ووجوده، وهي ضمناً دليل على قدرة الله على المعاد والحياة فتقول أوّلاً: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

«الأيد» على وزن الصيد، معناه القدرة والقوّة ـ وقد تكرّر هذا المعنى في آيات القرآن المجيد، وهو هنا بمعنى قدرة الله المطلقة العظيمة في خلق السماوات!

ودلائل هذه القدرة العظيمة واضحة جليّة في عظمة السماوات ونظامها الخاصّ الحاكم عليها أيضاً[١].

وهناك كلام بين المفسّرين في المراد من ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

فقال بعضهم معناه توسعة الرزق من قِبَلِ الله على العباد بواسطة نزول الغيث، وقال بعضهم معناه توسعة الرزق من جميع الجهات، وقال بعضهم معناه غنى الله وعدم حاجته، لأنّ خزائنه من السعة بحيث لا تنفد ولا تنقص مهما كان عطاؤه!

إلّا أنّه مع ملاحظة موضوع خلق السماء في الجملة السابقة ومع الأخذ بنظر الإعتبار ما اكتشفه العلماء من اتّساع العالم عن طريق المشاهدات الحسّية المؤيّدة، يمكن الوقوف على معنى أكثر لطافةً لهذه الآية، وهو أنّ الله خلق السماوات ويوسعها دائماً.

والعلم الحديث [المعاصر] يقول ليست الكرة الأرضية وحدها تتضخّم وتثقل على أثر جذب المواد السماوية تدريجاً، بل السماء أيضاً في اتّساع دائم، أي أنّ بعض النجوم المستقرّة في المجرات تبتعد عن مركز مجرّاتها بسرعة هائلة حتّى أنّ هذه السرعة لها أثرها في الإتّساع في كثير من المواقع!

ونقرأ في كتاب «حدود النجوم» بقلم الكاتب «فِرد هويل»: أنّ أقصى سرعة لابتعاد النجوم عن مركزها حتّى الآن ٦٦ ألف كيلومتر في الثانية، والمجرّات التي هي أبعد منها ـ في نظرنا ـ ومض نورها قليل جدّاً حتّى أنّه من الصعب تحديد سرعتها، والصور الملتقطة من السماء تدلّ على أهميّة هذا الكشف وأنّ الفاصلة ما بين هذه المجرّات تتّسع أكثر من المجرّات القريبة منّا بسرعة[٢].

---

(١) وقع خطأ أو إشتباه عند بعض المفسّرين وغيرهم هنا وينبغي التنويه إليه.
أ ـ قال بعض المفسّرين أنّ للأيد «معنيين»: «القدرة» و«النعمة» مع أنّ الأيد تعني القدرة لغةً، إلاّ أنّ اليد تُجمع على أيدي وجمع جمعها أياد تأتي بمعنى القدرة والنعمة، وقد ذكرنا المعنيين أيضاً في الآية (١٧) من سورة ص تبعاً للمرحوم الطبرسي صاحب مجمع البيان ونصحّحه هنا.
ب: جاء في المعجم المفهرس لمحمد فؤاد عبد الباقي ذكر اليد في الآية محلّ البحث بيائين (ايد) ويظهر أنّ هذا الإشتباه ناشىء من بعض الرسم في كتابة المصاحف وإلاّ فإنّ المفسّرين ذكروا معنى القدرة لليد. (الأمثل)

(٢) حدود النجوم، ص٣٣٨ ـ ص٣٤٠.

ثمّ يتحدث المؤلّف عن سرعة هذه المجرّات «السنبلة والإكليل والشجاع وغيرها» فيبيّن سرعتها العجيبة المذهلة في هذا الكتاب[١].

ولنصغ إلى بعض العبارات للأستاذ «جان الدر» إذ يقول:

«إنّ أحدث وأدقّ طول الأمواج التي تبثّها النجوم يكشف الستار عن وجه حقيقة عجيبة ومحيّرة أي أنّها تكشف لنا أنّ مجموع النجوم التي يحويها العالم تبتعد عن مركزها بسرعة دائماً وكلّما كانت الفاصلة بينها وبين مركزها إزدادت سرعتها.

فكأنّ جميع النجوم كانت مجتمعة في هذا المركز ثمّ تفرّقت عنه مجاميع كبيرة من النجوم واتّجه كلّ منها إلى اتّجاه خاص».

ويستنتج العلماء من ذلك أنّ العالم كانت له نقطة بداية وشروع[٢].

ويقول «جورج جاموف» في كتاب خلق العالم في هذا الصدد «إنّ فضاء العالم المتشكّل من مليارات المجرّات في حالة إنبساط سريعة، والحقيقة هي أنّ عالمنا ليس في حالة من السكون، بل إنبساطه مقطوع به.. والإذعان إلى أنّ عالمنا منبسط يهيّىء المفتاح لخزينة أسرار معرفة العالم لأنّه إذا كان العالم الآن في حالة الإنبساط فيلزم أن يكون في زمان ما في حالة إنقباض شديد[٣].

وليس العلماء المذكورون آنفاً يعترفون بهذه الحقيقة فحسب.. فإنّ هناك آخرين ذكرو هذا المعنى في كتاباتهم ويجرّنا نقل كلماتهم إلى الإطالة.

وممّا يستجلب النظر أنّ التعبير بـ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ دالّة على الدوام والإستمرار، فهي جملة إسمية ذات إسم فاعل، كما أنّها تدلّ على أنّ هذا الإتّساع موجود دائماً وكان ولا يزال، وهذا يؤيد تماماً ما وصل إليه العلم الحديث أنّ جميع النجوم والمجرّات كانت مجتمعة في البداية في مركز واحد «بوزن خاصّ له ثقل خارق» ثمّ انفجرت إنفجاراً عظيماً مثيراً (مرعباً) وعلى أثر ذلك تلاشت أجزاء العالم وظهرت بصورة كرات وهي بسرعتها في حالة الإتّساع والابتعاد (عن المركز).

---

(١) حدود النجوم، ص٣٣٨ ـ ص٣٤٠.

(٢) بداية العالم ونهايته، الصفحات ٧٤ـ ٧٧ بتلخيص.

(٣) المصدر السابق.

وأمّا التعبير الوارد في شأن خلق الأرض: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، ففي كلمة «ماهدون» لطافة تدلّ على أنّ الله مهّد الأرض بجميع وسائل الراحة للإنسان، لأنّ «الماهد» مأخوذ من المهد، ومعناه ما يعدّ للطفل من الفراش أو أي محل للإستراحة، فمثل هذا المحل ينبغي أن يكون هادئاً محفوظاً ليّناً دافئاً مطمئناً، وجميع هذه الأمور متوفّرة في الأرض!

وبأمر الله أضحت الحجارة ليّنة وتبدّلت إلى تراب هذا من جهة، وصلابة الجبال وقشر الأرض القوي من جهة ثانية جعلت الأرض تقاوم الجزر والمدّ، ومن جهة ثانية فإنّ الغلاف الجوّي المحيط بالأرض يخفّف من وطأة حرارة الشمس ويحفظها وهو بمثابة اللّحاف لها كما أنّه يصدّ النيازك والأحجار العظيمة التي تهوي من السماء إلى الأرض فيمنعها من النفوذ إليها فتتلاشى عنده وتتحوّل رماداً.

وهكذا فإنّ الله هيّأ جميع وسائل الراحة لاستقبال الإنسان الذي هو ضيف الله في هذه الكرة الأرضية.

وبعد خلق السماء والأرض تصل النوبة إلى خلق الموجودات المختلفة في السماء والأرض وأنواع النباتات والحيوانات فتقول الآية التالية في هذا الشأن: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ويعتقد كثير من المفسّرين أنّ كلمة «الزوجين» هنا معناها الأصناف المختلفة وأنّ الآية تشير إلى أصناف الموجودات المختلفة في هذا العالم التي تبدو على شكل زوج كالليل والنهار، والنور والظلمة، والبحر واليابسة، والشمس والقمر، والذكر والأنثى وغيرها.

إلّا أنّه كما ذكرنا سابقاً ذيل الآيات المشابهة لهذه الآيات أيضاً أنّ الزوجية في مثل هذه الآيات يمكن أن تكون إشارة إلى معنى أدقّ، لأنّ كلمة «الزوج» تطلق عادةً على جنسي الذكر والأنثى، سواءً في عالم الحيوانات أو النباتات، وإذا ما توسّعنا في استعمال هذه الكلمة فإنّها ستشمل جميع الطاقات الموجبة والسالبة (- و+) ومع ملاحظة ما جاء في القرآن ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يشمل جميع الموجودات لا الموجودات الحيّة فحسب. فيمكنها أن تشير إلى

هذه الحقيقة وهي أنّ جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرّات موجبة وسالبة، ومن المسلّم به هذا اليوم من الناحية العلمية أنّ الذرّات مؤلّفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالألكترون، ومنها ما يحمل طاقة موجبة وتدعى بالبروتون.

فبناءً على ذلك لا داعي أن نفسّر الشيء بالحيوان أو النبات حتماً أو أنّ نفسّر الزوج بمعنى الصنف «المزيد من الإيضاح ذكرنا شرحاً مفصّلاً ذيل الآية ٧ من سورة الشعراء» وينبغي الإلتفات أنّه في الوقت ذاته يمكن الجمع بين التفسيرين.

وجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تشير إلى أنّ الزوجية والتعدّد في جميع أشياء العالم تذكّر الإنسان بأنّ الله خالق هذا العالم واحد أحد، لأنّ التشبيه والتعدّد من خصائص المخلوقات.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إذ قال: «بمضادته بين الأشياء عُرف أن لا ضدّ له وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، واليبس بالبلل والخشن باللين، والصرد بالحرور مؤلّفاً بين متعادياتها مفرّقاً بين متدانياتها دالّة بتفريقها على مفرقها، وبتأليفها على مؤلّفها وذلك قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ويضيف القرآن في الآية التالية مستنتجاً ممّا تقدّم من الأبحاث التوحيدية قائلاً: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

والتعبير بـ«الفرار» هنا تعبير لطيف وبليغ، لأنّ الفرار يطلق في ما إذا واجه الإنسان موجوداً أو حادثاً مخيفاً من جهة، وهو من جهة أُخرى يعرف مكاناً يلتجيء إليه فيُسرع من مكان المواجهة إلى ذلك المكان ويلتجيء إلى نقطة الأمن والأمان... فالآية تقول: فرّوا من عقيدة الشرك الموحشة وعبادة الأصنام إلى التوحيد الخالص الذي هو منطقة الأمن والأمان الواقعي.

---

(١) توحيد الصدوق، طبقاً لما ورد في نور الثقلين، ج٥، ص١٣٠.

ففرّوا من عذاب الله وتوجّهوا نحو رحمته!

فرّوا من عصيانه وعناده وتوسّلوا بالتوبة إليه.

والخلاصة: فرّوا من السيّئات والقبائح وعدم الإيمان وظلمة الجهل والعذاب الدائم والتجأوا إلى رحمة الحقّ وسعادته الأبدية.

ولمزيد التأكيد، يستند القرآن إلى وحدانية العبادة لله الأحد فيقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

ويحتمل أنّ الآية السابقة ـ تدعو إلى أصل الإيمان بالله! وهذه الآية تدعو إلى وحدانية ذاته المقدّسة فيكون تكرار جملة: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ في المورد الأوّل على أنّه إنذار على ترك الإيمان بالله، وفي المورد الآخر إنذار على الشرك وعبادة الأصنام، وهكذا فإنّ كل جملة وإن تكررت تشير إلى موضوع مستقل! وجاء في بعض الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ المراد من قوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ هو الحج وزيارة البيت، وواضح أن المراد هنا ذكر مصداق واحد من المصاديق الواضحة للفرار إلى الله، لأن الحج يعرّف الإنسان حقيقة التوحيد والتوبة، والإنابة إلى الله، ويمنحه الإلتجاء إلى ألطاف الله سبحانه.

أوجه الإعجاز

منها **أولاً**: من حيث فصاحته وبلاغته التي أخرست البلغاء والفصحاء لا في عصر نزوله خاصّة، بل في جميع الأزمنة والدهور، وأعجزتهم عن معارضته، وتحدّتهم في معاملتهم، وعقر دارهم.

ثانياً: من حيث احتوائه على أفضل القوانين والنظم، وأرقى التشريعات في جميع المجالات الحيوية، وإتيانه بما عجز عن الإتيان به أرقى الحضارات البشرية حتى يومنا هذا.

ثالثاً: من حيث إخباره بالأمور المستقبلية واحتوائه على الأمور الغيبية، إذ أخبر عن وقائع وحوادث مستقبلية تحققت بعده حرفاً بحرف.

رابعاً: من حيث سلامته عن التناقض والإختلافات في النظم والأسلوب،

وفي المعنى والمضمون رغم تدرجه في النزول على النبي ﷺ وتنزله في ظروف مختلفة متباينة كيفاً وحالاً، وخلال ثلاث وعشرين سنة محفوفة بالمشاكل الجسيمة، والتطورات العنيفة.

خامساً: من حيث تناوله الدقيق للوقائع التاريخية الماضية، حيث قصها على نحو خال عن شائبة الأساطير والخرافات، وهو أمر يمكن معرفته بمقارنة القرآن الكريم مع التوراة والإنجيل.

سادساً: من حيث اشتماله على إشارات رائعة عميقة إلى حقائق كثيرة من العلوم الطبيعية التي توصل اليها العلم الحديث ـ في هذا العصر ـ بفضل الجهود الطويلة، المضنية وبواسطة المختبرات، والوسائل العلمية والتجارب والإختبارات العديدة.

سابعاً: من حيث قوة احتجاجه على خصومه ومعارضيه، وما جاء به من حجج لم يسبق لها نظير في علم المناظرة والإحتجاج وكانت ـ ولا تزال ـ أنجح الحجج في إفحام الخصوم وإسكات المجادلين، والمشككين، بل وهدايتهم في أغلب الأحيان.

ثامناً: من جهة ما جاء به في مجال الأخلاق والتربية للفرد والمجتمع حيث استقصى الأخلاق الفاضلة وحث على التزين بها بما توجبه الحكمة من البعث والترغيب، وأحصى الأخلاق الرذيلة وزجر عن التلوث بها بما توجبه الحكمة، ويقتضيه الإصلاح من التخويف والتنفير وسلك في ذلك كله طريقة فريدة لها أبلغ الأثر حتى في أشد القلوب قساوة وتصلباً.

تاسعاً: من حيث روحانيته البالغة التي تنفذ إلى الأعماق، وتأخذ بمجامع القلوب، وتستميل المشاعر، فإذا بآياته روح تحيا بها نفوس الخلق، ونور يضيء الوجود الإنساني كما تضيء الشمس الآفاق، فتنشط الأحياء، وتتحرك الطبيعة.

عاشراً: من حيث تناوله لأدق المعارف العقلية، والقضايا الإعتقادية الرفيعة التي لا تصل إليها أفكار البشر، ولا تبلغها علومهم، مما يتعلق بالله سبحانه وصفاته وأسمائه وافعاله، وما أخبر به من عوالم غيبية في الملأ الأعلى، والنشأة الأخرى.

إلى غير ذلك من الجهات والوجوه التي يقصر البيان عن الإحاطة بها، وإحصائها في هذا المختصر.

غير أن الجهة الأخيرة من هذه الجهات وهي التي كان يتوجب تناولها بالدراسة الوافية والتحليل الشامل، وخاصة في عصرنا الحاضر، قد أُهملت في مؤلفات المفسرين غالباً فهم لم يدرسوها بجامعية تليق بالموضوع وتناسب أهميته، وتعطي حقه من العناية والبحث.

ولعل عذرهم في ذلك هو أن تفسيرهم للكتاب العزيز كان على وجه التفسير التدريجي للقرآن، أي التفسير سورة فسورة، وآية فآية، ولم يتبادر إلى أذهانهم أن هناك نوعاً آخر من التفسير هو التفسير الموضوعي الذي يفسر الكتاب العزيز حسب المفاهيم والموضوعات، وهو النمط الذي أشرنا إليه في مقدمة الجزء الأول من هذه السلسلة القرآنية. (مفاهيم القرآن).

لزوم الإهتمام بالمعارف الإلهية:

وإنما ينبغي إعطاء المزيد من الإهتمام بالمعارف الإلهية التي ترتبط بالله سبحانه، وأسمائه وصفاته وأفعاله وغير ذلك مما تناوله القرآن بالدقة المشهودة لأن تناول القرآن لهذه المعارف بهذا الشكل يدل ـ بوضوح لا يقبل الجدل ـ على أن النبي الأمي ﷺ لم يأخذ هذه المعارف إلا من مستقى (الوحي)، إذ من المستحيل لابن الجزيرة الخالية من أي حضارة وثقافة أن يأتي ـ في كتابه ـ بما أبهر عقول الفلاسفة والمفكرين، في القديم والحديث، وذلك من لدن نفسه وصنع فكره، أو يكون قد تلقاها في مدرسة، أو اقتبسها من معلم في أرض لم يعرف أهلها إلا الأوهام، ولم يؤمنوا إلا بالخرافة، فلا ثقافة ولا مثقفين، اللَّهمّ إلا بضعة أشخاص[١] لم ينالوا من الثقافة إلا صبابات هي إلى الجهل أقرب منها إلى العلم والمعرفة.

---

(١) لقد نقل البلاذري في كتابه فتوح البلدان إنّ الذين كانوا يعرفون الكتابة في مكة ـ آنذاك ـ لا يتجاوزون سبعة عشر شخصاً، وفي المدينة أحد عشر شخصاً، وإليك نص ما قاله في هذا المجال:

«دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب» ثم عدّهم وذكر أسمائهم وقال: «كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلين... فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون» ثم ذكر أسمائهم، راجع ص٤٥٦ ـ ٤٥٩، باب في أمر الخط، فتوح البلدان.

إنَّ القرآن جاء بأصول وأفكار في مجال المعارف العقلية العليا لم يقف عليها حتى النوابغ من الفلاسفة، في الشرق والغرب، إلا عن طريق ذلك الكتاب الإلهي وهدايته.

إنَّ من الظلم الفظيع إهمال دراسة هذه المعارف العليا بحجة أنها مسائل غيبية يجب الإعتقاد بها إجمالاً، وترك دراستها ومناقشتها وتحليلها.

والعجب أنه روي عن الإمام مالك أنه جاء إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟

فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء. ثم قال: «الإستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وما أراك إلّا مبتدعاً».

فأمر به أن يخرج[1] ونحن نظن أنّه كان على الإمام أن يجيب على سؤال السائل، ويهديه إلى مراده سبحانه من هذه الآية بدل رميه بالإبتداع، وإخراجه من المجلس...

(١) مجموعة الرسائل الكبرى، لابن تيميّة، ج١ ص٤٤٣.

سريان معرفة الله في الكون كله

قال الفيلسوف الإسلامي الجليل المرحوم (صدر المتألّهين) صاحب الآراء الجليلة في الإلهيّات، وما وراء الطبيعة وأحد كبار المؤسّسين لأصول الفلسفة الإسلامية يقول هذا الفيلسوف الإسلامي ما توضيحه: إن الكَون بجميع أجزائه يسَبّح لله وبحمده، ويثني عليه تعالى عن شعور وإدراك.

فلكل موجود من هذه الموجودات نصيب من الشعور والإدراك بقدر ما يملك من الوجود من نصيب.

وعلى هذا الشعور تُسبّح الموجودات كلها، خالقها، وبارئها، وربها سبحانه وتنزهه عن كل نقص وعيب.

ثم يقول: «إن العلم والشعور والإدراك كل ذلك متحقق في جميع مراتب الوجود، ابتداء من «واجب الوجود» إلى النباتات والجمادات، وأنّ لكل موجود يتحلّى بالوجود سهماً من الصفات العامة كالعلم والشعور والحياة و. . . و. . . ولا يخلو موجود من ذلك أبداً، غاية ما في الأمر أن هذه الصفات قد تخفى علينا ـ بعض الأحيان ـ لضعفها وضآلتها.

على أن موجودات الكون كلما ابتعدت عن المادة والمادية، واقتربت إلى التجرد، أو صارت (مجردة) بالفعل ازدادت فيها هذه الصفات قوة وشدة ووضوحاً بينما كلما ازدادت اقتراباً من المادة والمادية، وتعمّقت فيها، ضعفت فيها هذه الصفات، وضؤلت حتى تكاد تغيب فيها بالمرة، كأنها تغدو خلوة من العلم والشعور والإدراك ولكنها ليست كذلك (أي أنّها ليست خلوة من العلم والشعور والإدراك) ـ كما نتوهم ـ إنما بلغ فيها ذلك من الشغف، والضآلة بحيث لا يمكن إدراكها بسهولة وسرعة[1].

---

(١) راجع الأسفار، ج١ ص١٨، وج٦ ص١٣٩ ـ ١٤٠، الطبعة الجديدة.

ثم إنّ صاحب هذه النظرية أثبتها عن طريق الأدلّة والبراهين الفلسفية، والمكاشفات النفسانية.

على أنه خطى خطوة أكبر، إذ قال: إن ما يقوله القرآن بأن «البشر لا يفقه تسبيح الموجودات» ناظر إلى أغلب الناس، لأن أغلبهم لا يفقهون هذا التسبيح ولا يمنع ذلك من أن يفقهه بعض (العارفين) الذين ارتبطت أرواحهم بحقائق الموجودات، فلمسوا تسبيح الكائنات عامة، بعين القلب، واطلعوا على تقديسها لله سبحانه، وانقيادها لمشيئته، وخضوعها له.

أجل إن القلوب الخالية من الوساوس الشيطانية، الطاهرة من العلائق المادية التي صارت محلاً للنور الإلهي ومحطاً للفيوض الربانية، ومهبطاً للبركات المعنوية قادرة على «مشاهدة» هذه الحقائق العليا، مشاهدة وجدانية، وإدراكها إدراكاً قلبياً لا يتطرق إليه شك... وماذا يمنع من ذلك ياترى؟!

وبعد أن وصل البحث إلى هذه النقطة يلزم أن نحاول الوصول إلى هذه الحقيقة القرآنية، بالتدبر في آياتها التي تنسب الشعور والعلم إلى عموم الموجودات لأن القرآن إذا نسب «التسبيح والحمد» إلى عمومها فهو في نفس الوقت يصف كل ذرات العالم بأنها شاعرة، ومدركة، وسامعة.

فإذا وضعنا هاتين الطائفتين من الآيات إلى جانب بعض، ثبتت لنا صحة النظرية التي ذهب إليها «صدر المتألّهين».

وإليك ـ فيما يأتي ـ الآيات الدالة على سريان الشعور، والعلم في عامة الموجودات بدءاً من الذرة وانتهاء بالمجرة، مع ما يمكن استنباطه واستفادته من هذه الآيات.

سريان الشعور في عموم الموجودات:

ويمكن إثبات هذا الإدعاء عن طريقين:

أولاً: عن طريق الآيات التي تشهد على وجود الشعور، وسريانه في جميع موجودات العالم، أحيائها، وغير أحيائها.

ثانياً: عن طريق البراهين والدلائل العقلية التي تثبت وجود الشعور في كل ذرات الكون.

وإليك الطريق الأول، ويتألف من آيات متعددة هي:

١ ـ يشهد القرآن ـ بصراحة ووضوح ـ على أن النملة تتمتع بشعور خاص، لأنها عندما مرّ على واديها سليمان وجنوده راحت نملة تخاطب بني نوعها وتحثهم على الدخول في بيوتهم لئلا يسحقهم سليمان وجنوده، كما يحدثنا القرآن يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل:١٨]. وكان هذا النداء التحذيري من تلك النملة، نداءً حقيقياً، واقعياً، ولا يمكن أن نحمله على معنى مجازي، وندّعي بأن ما قالته النملة كان بلسان «الحال» وذلك لأن سليمان تبسم على أثر سماعه ذلك النداء، ودعا ربه أن يوفقه للشكر على ما وهبه وأنعم عليه وعلى والديه، إذ يقول القرآن: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا[1] وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [النمل:١٩].

٢ ـ إن في القرآن قصة عن (الهدهد) تكشف عن شعور خاص لدى هذا الطائر، بحيث يمكن للهدهد أن يميز بواسطة: «المُوحِّد» عن «المُشرك» وبحيث كان سليمان يبعثه في إنجاز مهام معينة تحتاج إلى الشعور وتتطلب العلم والفهم.

وإليك هذه القصة بلسان القرآن نفسه: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل: ٢٠-٢٨].

---

(١) إن في لفظة «قولها» دلالة على أن نداءها لم يكن بلسان الحال؛ بل كان بالكلام والقول الذي ينطلق من شعور وإدراك.

ألا يدل فعل هذا الطائر ـ العجيب الذي يدرك كل الأمور الدقيقة، ويخبر عنها بدقة وأمانة، ويمتثل لأوامر سيده سليمان على أحسن وجه.

أقول: ألا يدل كل هذا على أن هذا الطائر يتمتع بشعور خاص وإدراك مخصوص هو الذي أهله لتحمل تلك المسؤولية الكبيرة الدقيقة؟

٣ ـ يَعدُ القرآن من مفاخر سليمان: علمه بمنطق الطير وهذا يكشف عن وجود منطق خاص للطير كاشف عن شعوره بما يقول، إذ قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

كما أنّ القرآن يخبرنا بأنّ سليمان ألّف جيشاً ضخماً من الإنسان والجن والطير، وكانت جميعها تحت أمره، ورهن إرادته، وإشارته: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٧].

وهكذا يستفاد من مجموع هذه الآيات أن الطيور والنمل تتمتع بنوع خاص من الوعي والشعور، وأنّه لو أتيح للإنسان أن يحكم على الكون كله، لاستطاع أن يتحدَّث معها ويعرف حديثها، وأن يستفيد منها في إرساء النظام التوحيدي وتقوية دعائمه، وتحطيم مظاهر الشرك والوثنية وتقويض قواعدها، كما استفاد سليمان من الهدهد ذلك الأمر، والظاهر أنه لا خصوصية للمورد.

سريان الشعور في الجمادات:

تحدثت الآيات القرآنية عن هذه الحقيقة بنحو ما، وراحت تنسب أفعالاً إلى (الجمادات) تقترن بالشعور وتُثبِتُ الإدراك لها.

فالقرآن الكريم يرى أن سقوط بعض الصخور من نقطة ما، إنما هو نتيجة خوفها من الله وخشيتها منه تعالى إذ يقول: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

نعم ربما يحتمل أن المراد من قوله تعالى: «وإن من الحجارة لما يهبط من خشية الله. . . .» الخ، هو التعبير عن شدة قسوة قلوب اليهود بشهادة أن من الحجارة ما تتفجّر منه الأنهار، دون قلوبهم، وأن من الحجارة ما يهبط من خشية الله دونها وعند ذاك لا تصلح الآية للإستدلال على سريان الشعور في الموجودات عامة. (مفاهيم القرآن).

ثم قال: غير أن هذا الاحتمال لا يضر بما ذهبنا إليه فإن التعبير عن شدة قسوة قلوبهم يجتمع مع دلالة الآية على سريان الشعور في عامة الموجودات فإن الآية أثبتت للحجارة صفتين، التفجر، والهبوط من خشية الله.

فكما أن التفجر أمر حقيقي لها فكذلك الهبوط من خشية الله أمر حقيقي لها ومع ذلك تدل على شدة قسوة قلوبهم.

وفي آية أخرى يخبر القرآن الكريم عن قضية عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، وامتناع هذه الأشياء عن حملها، خشية وإشفاقاً فيقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

بعد ملاحظة هذه الآيات والروايات الكاشفة عن سريان الشعور والفهم في كل الموجودات يتعين علينا أن نختار نظرية المرحوم صدر المتألهين التي فسّر فيها التسبيح المذكور في مورد الكائنات عامة، بالتسبيح «الحقيقي الواقعي» بمعنى أنّ الموجودات تُسبِّح لله، عن شعور وإدراك لا «بلسان الحال» والتكوين كما ذهبت إليه النظريات الأخرى.

سريان الشعور والعلم الحديث:

من حسن الحظ أن العلوم الحديثة ـ اليوم ـ أثبتت بفضل جهود المحققين والباحثين: «وجود الوعي والعلم» في عالم النباتات إلى درجة أن علماء روس اعتقدوا بأن للنبات (أعصاباً) على غرار الإنسان، وأنها تصرخ وتظهر من نفسها (ردود فعل) معينة.

وإليك ما نشرته صحيفة اطلاعات في هذا الصدد: «كشفت إذاعة موسكو عن نتائج جديدة لتحقيقات علماء روس في (عالم النبات) حيث قالت: بأن العلماء توصلوا مؤخراً إلى أن للنباتات أجهزة عصبية شبيهة بالأجهزة في (الحيوانات).

ولقد توصل العلماء إلى هذه الحقيقة بعد أن علقوا أجهزة (سمع وبث) الكترونية دقيقة على ساق نبات الفرع ثم لاحظوا ـ بوضوح ـ ظهور (ردود فعل) غريبة على ساق النبات المذكور عندما راحوا يقطعون بعض جذوره!!

وفي الوقت ذاته كانت قد أُجريت اختبارات مشابهة في المختبر الفسيولوجي للنبات بأكاديمية العلوم الزراعية أفرزت نتائج مشابهة أيضاً!

ففي هذه الإختبارات وضعوا جذور إحدى النباتات في ماء ساخن فضبطوا على أثره (صيحات ألم وأنّات) صدرت من النبات غير أن هذه الأصوات لم تسمع بالطبع بالأذن المجردة، وإنما أجهزة تسجيل الأصوات الإلكترونية الدقيقة هي التي التقطت هذه الصرخات، وسجلتها على أشرطة خاصة» (مفاهيم القرآن).

نظام الكون في القرآن

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝﴾ [النبأ: ٦-١٦].

قال في الأمثل: تجيب الآيات المذكورة على أسئلة منكري المعاد، والمختلفين في هذا «النبأ العظيم» لأنها تستعرض جوانب معينة من نظام الكون، وعالم الوجود الموزون مع تبيان لبعض النعم الإلهية الواسعة ذات التأثير الفعّال في حياة الإنسان، وذلك من جهة دليل على قدرة الباري عزَّ وجلَّ المطلقة، ومنها قدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته، ومن جهة أخرى إشارة إلى أنّ الكون وما فيه من دقّة تنظيم، لا يمكن أن يُخلق لمجرّد العبث واللهو! بل لا بدّ من وجود حكمة بالغة لهذا الخالق. في حين أنّه لو كان الموت يعني نهاية كل شيء، فمعنى ذلك أنّ وجود العالم عبث وخال من أي حكمة!! وبهذا فقد استدل القرآن الكريم على حقيقة «المعاد» بطريقين:

١ ـ برهان القدرة.

٢ ـ برهان الحكمة.

وقد عرضت الآيات الإحدى عشر، اثنتي عشر نعمة إلهية، بأُسلوب ملؤه اللطف والمحبّة، مصحوباً بالإستدلال، لأنّ الإستدلال العقلي لو لم يقترن بالإحساس العاطفي والنشاط الروحي يكون قليل التأثير.

وتشرع الآيات بالإشارة إلى نعمة الأرض، فتقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾.

(المهاد): كما يقول الراغب في المفردات: المكان الممهّد الموطأ، وهو في الأصل مشتق من «المهد» أي المكان المهيّأ للصبي.

وفسّره بعض أهل اللغة والمفسّرين بالفراش، لنعومته واستوائه وكونه محلاً للراحة. واختيار هذا الوصف للأرض ينم عن مغزًى عميق.

فمن جهة: نجد في قسم واسع من الأرض الإستواء والسهولة، فتكون مهيأة لبناء المساكن والزراعة.

ومن جهة ثانية: أودع فيها كل ما يحتاجه الإنسان لحياته من المواد الأولية إلى المعادن الثمينة، سواء كان ذلك على سطحها أم في باطنها.

ومن جهة ثالثة: تحلل الأجساد الميتة التي تودع فيها، وتبيد كل الجراثيم الناشئة عن هذه العملية بما أودع فيها الباري من قدرة على ذلك.

ومن جهة رابعة: ما لحركتها السريعة المنظمة ولدوراتها حول الشمس وحول نفسها من أثر على حياة البشرية خاصّة، بما ينجم عنها الليل والنهار والفصول الأربعة.

ومن جهة خامسة: خزنها لقسم كبير من مياه الأمطار الغزيرة، وإخراج ذلك على شكل عيون، آبار، أنهار.

والخلاصة: إنّ جميع وسائل الإستقرار والعيش لبني آدم متوفرة في هذا المهد الكبير، وقد لا يلتفت الإنسان إلى عظم هذه النعمة الرّبانية، إلّا إذا ما أصاب الأرض زلزالاً... وعندها سيدرك معنى استقرار الأرض، ومعنى كونها مهاداً.

وبما أنّ نعمة استواء الأرض وسهولتها قد تهمش نعمة الجبال، فقد جاءت الآية التالية لتبيّن أهمية الجبال ودورها المهم في حياة الإنسان: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

تشكل الجبال آيةً ربانية زاخرة بالعطاء، وتؤدي وظائف كثيرة، منها أنّها تحفظ القشرة الأرضية من الإنهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، وذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض... وتحافظ عليها من تأثيرات جاذبية القمر في عملية المد والجزر... وتشكل جدران الجبال سداً

منيعاً للتقليل من آثار الرياح الشديدة والعواصف المدمرة... وتهيّيء للإنسان الملاجيء الهادئة في مغارتها وبين تعرجاتها لتأمنه من ضربات العواصف المهلكة... وتقوم بخزن المياه وادخار أنواع المعادن الثمينة في باطنها...

بالإضافة لكل ما ذكر، فتوزيع الجبال على الأرض بالشكل الموجود وتعاملاً مع حركة الأرض يعمل على تنظيم حركة الهواء المحيط بالكرة الأرضية بالشكل الذي يؤثر إيجابياً على الحياة فوق الأرض، وفي هذا المجال، يقول العلماء: لو كان سطح الكرة الأرضية مستوياً كله، لتولدت عواصف شديدة لا يمكن السيطرة عليها جرّاء حركة الأرض وسكون الغلاف الجوي، ولفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان، لأنّ استمرار الاحتكاك الحاصل من حركة الأرض الدائمة وسكون الغلاف الجوي سيؤدي بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية ممّا يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان.

وبعد أن بيّن القرآن هذين النموذجين من النعم الإلهية والآيات الآفاقية، عرج إلى ذكر ما أنعم الباري على الإنسان من النعم والآيات الأنفسية فقال: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[1].

«الأزواج» جمع زوج، المتشكل من الذكر والأُنثى، ويخرج الإنسان إلى حياة الوجود من هذين الجنسين، ويستمر وجوده في الحياة من خلال عملية التناسل التي تساهم في استقرار الإنسان من الناحيتين الجسمية والنفسية، كما تشير إلى هذا الآية (٢١) من سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

وبعبارة أُخرى: إنّ كلاً من الذكر والأُنثى مكمل لوجود الآخر، وعاملاً على إشباع احتياجات الطرف الآخر من الناحيتين الجسمية والنفسية.

وفسّر البعض كلمة «أزواج» بالأصناف المختلفة للناس، لأنّ من معاني (أزواج): الأصناف والأنواع، فاعتبروها إشارة إلى ذلك التباين الموجود بين

(١) جملة: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ وما بعدها، جاءت بصيغة الإثبات، أمّا ما احتمله البعض من كونها جملاً منفية معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ المتقدم في الآية الأولى فبعيد ويحتاج إلى تقدير لا موجب.

البشر من حيث: اللون، الجنس، الإستعدادات والقابليات، للدلالة على عظمة الباري جلَّ شأنه والعامل على تكامل المجتمع الإنساني.

ويشير بعد ذلك إلى نعمة النوم، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

«السُّبات»: من (السَّبْت)، بمعنى القطع، ثمّ استعملت بمعنى (تعطيل العمل) لأجل الإستراحة، وسمي «يوم السبت» بذلك لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم في اليوم المذكور.

ويحمل وصف «النوم» بالسبات إشارةً لطيفة إلى تعطيل قسم من الفعاليات الجسمية والروحية للإنسان عند النوم.

ويعطي التعطيل فرصة: لاستراحة أعضاء البدن... لتجديد القوى... لتقوية الروح والجسد، لتجديد النشاط ورفع أيّ نوع من التعب والآلام، والإستعداد لتقبل المرحلية القادمة (بعد النوم) بفاعلية ونشاط متجدد.

وبالرغم من أنّ النوم يشكّل ثلث حياة الإنسان، ولكنّ الإنسان لا زال يجهل الكثير من خفاياه، بل ولا زال الإنسان (منذ القديم وحتى الآن) لا يعرف سبب تعطيل بعض فعاليات الدماغ في مدّة معينة وتغميض العين أجفانها وتسكن جميع أعضاء البدن!

وبات من المعروف ما للنوم من دور مهم في حياة الإنسان، حتى حرص أطباء علم النفس دوماً على تنظيم نوم مرضاهم بصورته الطبيعية حفاظاً على حالة التوازن النفسي للمرضى.

فالذين لا يتمتعون بنوم طبيعي تراهم مصابون بحدّة المزاج، القلق، الإضطراب، الكآبة، وبالمقابل، نرى الذين يتمتعون بنوم طبيعي ينهضون كل صباح بنشاط وحيوية وبقدرة جديدة.

ومن بين ما يقدمه النوم من تأثير مهم على الإنسان: سرعة تقبل ذهن الإنسان للدراسة والمطالعة بعد فترة نوم طبيعية وهادئة وسرعة إنجاز الأعمال الفكرية والبدنية ولعلّ من أسهل أساليب تعذيب الإنسان هو حرمانه من النوم، خصوصاً وأنّ التجارب العلمية أثبتت بأنّ قابلية الإنسان على تحمل الأرق ضعيفة جدّاً، وإذا حاول أيُّ إنسان أن يجرب ذلك، فلا تمضي عليه فترة وجيزة إلّا ويصاب في سلامته ويمرض.

وكلّ ما ذكر من فوائد النوم فإنّه يختص بالنوم الطبيعي الموزون، وأمّا إذا زاد عن حدّه الطبيعي فلا يجني صاحبه سوى الآثار السلبية لهذا الإفراط، كحال الإفراط في الطعام.

ومن الغريب أنّ نسبة فترة النوم تختلف من إنسان لآخر، ولا يمكن تعيين فترة محددة لكل الناس، وعليه... فكل إنسان يعرف الفترة التي تناسبه طبيعياً بما يناسب فعالياته الجسمية والروحية، وتجربة الإنسان هي التي تُعين نسبة النوم الضروري له.

والأغرب من ذلك، إنّه قد يضطر الإنسان في الحوادث والشدائد إلى السهر واليقظة مدّة طويلة، ولذلك تزداد مقاومته للنوم بشكل ملحوظ ولكنّه مؤقت، وقد يستكفي في تلك الأحيان بساعة أو ساعتين من النوم لليوم الواحد، ولكن.. سرعان ما ينتهي ذلك التمكن بمجرّد الرجوع إلى الحالة الطبيعية، بل وقد يحتاج لساعات نوم أطول من السابق للتعويض عمّا فاته من نوم!

ومن النادر أن نرى إنساناً يعيش حالة اليقظة لعدة أشهر، وفي قبال ذلك نرى بعض الناس ينامون أثناء المشي، بل وهناك مَنْ ينام وأنت تشاطره أطراف الحديث، ومثل هكذا أشخاص يعيشون حالة غير طبيعية وغالباً ما تكون الحوادث المؤسفة في انتظارهم، فالضرورة تقتضي ألّا يتركوا بدون مراقب أو مرافق.

والخلاصة: إنّ هذا الحادث العجيب والظاهرة الغامضة التي تدعى بـ«النوم» مصحوبة بعجائب كثيرة وكأنّها معجزة من المعاجز[1].

ومع أنّ ذكر النوم في الآية قد جاء باعتباره إحدى النعم الإلهية، إلّا أنّ الآية المباركة قد تشير بذلك إلى الموت، لما للنوم من شبه بالموت، والإستيقاظ بالبعث.

وبعد الإنتهاء من ذكر نعمة النوم، ينتقل القرآن الكريم لذكر نعمة الليل، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾.

---

(١) للتزود من عجائب عالم النوم، راجع ما بحثناه في تفسير الآية (٣٤) من سورة الروم. وكذا الرؤيا وعجائبها في ذيل الآية (٤) من سورة يوسف.

وتضيف الآية التالية مباشرة: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[1].

الآيتان تفندان جهل الثنويون بأسرار الخلق، حيث يقولون: إنّ النور والنهار نعمة، والظلام والليل شر وعذاب، ويجعلون لكلّ منهما خالق (إله الخير وإله الشر). وبقليل من التأمل نجد أنّ كلاً منهما يمثل نعمة إلهيّة معطاءة، حيث تنبع منها نعم أخرى.

وشبهت الآيةُ الليلَ باللباسِ والغطاء الذي يُلقى على الأرض ليشمل كل مَنْ على الأرض، وليجبر فعاليات الموجودات الحيّة المتعبة على الأرض بالتعطل عن الحركة وممارسة النشاطات، ويخيم الظلام والسكون ليضفي على الأرض الهدوء ليستريح الناس من رحلة العمل والمعاناة خلال النهار، وليتمكنوا من مواصلة نشاطهم لليوم التالي لأنّ النوم المريح لا يتيسر للإنسان إلّا في أجواء مظلمة.

وبالإضافة لكل ما ذكر، فحلول الليل يعني زوال نور الشمس وإلّا لانعدمت الحياة واحترقت جميع النباتات والحيوانات في حال استمرار شروق الشمس.

ولذا نجد القرآن الكريم يؤكّد على هذه الحقيقة، فتارة يقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:٧٢]. وتأتي الآية التالية لتقول: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾. ويلاحظ في القرآن الكريم أنّه قد أقسم بأمور كثيرة، ولكن قسمه لا يتعدّى المرة الواحدة لكل ما قسم به، ما عدا الليل فقد جاء القسم به سبع مرات! ولمّا كان القسم بشيء دليل على أهميته، فهذا يعني أنّ للّيل أهميّة بالغة.

الأشخاص الذين يضيئون الليل بأنوار صناعية ويسهرون ليلهم ويقضون نهارهم بالنوم، هم أناس غير طبيعيين، وترى علامات الكسل والخمول بادية

(١) «المعاش»: إمّا أن يكون إسم زمان أو اسم مكان، بمعنى زمان ومكان الحياة. ويمكن أن يكون مصدراً ميمياً، فيكون له محذوف، والتقدير: (سبباً لمعاشكم)، والمعاش: من العيش، أي الحياة، إلّا أنّ تعبير الحياة يمكن إطلاقه على الباري عزّ وجلّ والملائكة، فيما تختص كلمة العيش بحياة الإنسان والحيوان.

عليهم. في حين نرى القرويين أكثر صحة من أهل المدن وأسلم بدناً وحواساً، لأنّهم ينامون بعد حلول الليل بقليل ويستيقظون مبكراً.

ومن منافع الليل الجانبية أنّ فيه (وقت السحر) الذي هو أفضل أوقات الدعاء والصلاة ومناجاة الباري جلّ شأنه لتربية وتزكية النفوس، كما تصف الآية (١٨) من سورة الذاريات عُبّاد الليل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

والنهار بنوره الفياض نعمة ربانية عظيمة، حيث يدفع الإنسان ليتحرك ويسعى لبناء حياته ومجتمعه، وبالنور تنمو النباتات، وتمارس الحيوانات شؤون حياتها وحقّاً قال الباري: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾، بما لا يدع مجالاً للتفصيل والشرح.

وخاتمة المقال: إنّ تعاقب الليل والنهار وما فيهما من نظام دقيق آية بيّنة من آيات خلقه سبحانه وتعالى، إضافة إلى أنه تقويم طبيعي لتفصيل الزمن في حياة الإنسانية على مرّ التاريخ.

وتأتي الآية التالية لتنقلنا من عالم الأرض إلى عالم السماء حين تقول: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾.

قد يراد من العدد المذكور بالآية «الكثرة» للإشارة إلى كثرة الأجرام السماوية والمنظومات الشمسية والمجرات والعوالم الواسعة لهذا الوجود، والتي تتمتع بخلق محكم وبناء رصين لا خلل فيه... ويمكن أن يراد منه العدد، للإشارة إلى أنّ الكواكب وما يبدو لنا منها إنّما تعود إلى السماء الأولى، كما أشارت الآية (٦) من سورة الصافات إلى ذلك: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾، وثمة سماوات ستة وعوالم أُخرى وراء السماء الأولى «الدنيا» خارجة عن حدود معرفتنا.

وثمّة احتمال آخر، وهو أنّ المراد منها طبقات الهواء المحيطة بالأرض فإنّها مع رقتها تتمتع باستحكام وقوة عجيبة بحيث تحمي الأرض من آثار

---

(١) قال في الأمثل: راجع بحوثنا حول أسرار الليل والنهار، ونظام النور والظلمة في ذيل الآيات (٧١ - ٧٣) من سورة القصص، في ذيل الآية (٤٧) من سورة الفرقان، في ذيل الآية (١٨) من سورة الذاريات.

الشهب الملتهبة والمتساقطة عليها باستمرار، فبمجرّد دخول الشهب في الغلاف الجوي الرقيق نتيجة لجاذبية الأرض لها، تحترق تلك الشهب لاحتكاكها السريع بالغلاف الجوي حتى تتلاشى، ولولا تلك الطبقات الجوية المحيطة بالكرة الأرضية لكانت المدن والقرى عرضة للإصابة بتلك الصخور والأحجار السماوية المتساقطة عليها على الدوام.

وقد توصل بعض العلماء إلى أنّ سُمْك الغلاف الجوي يقرب من مائة كيلومتر، وله من الأثر ما يعادل سقف فولاذي بسمك عشر أمتار!

وبذلك نحصل على تفسير آخر لما جاء في الآية.. ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾[1].

وبعد أن أشار القرآن إجمالاً إلى السماوات، يشير إلى نعمة الشمس، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾[2].

«الوهاج»: من الوهج، بمعنى النور والحرارة التي تصدر من النار[3].

وإطلاق هذه الصفة على الشمس، للإشارة إلى نعمتين كبيرتين وهما: (النور) و(الحرارة) ويتفرع عنهما نعم وعطايا كثيرة يزخر بها عالمنا.

ولا تتحدد فوائد نور الشمس بإضاءة الدنيا للإنسان، بل لها أثر كبير في نمو سائر الكائنات الحيّة.

وإضافة لكل ما تقدم، فلحرارة الشمس اثر اساس في: تكوّن الغيوم، حركة الهواء، نزول الأمطار، وسقي الأرض اليابسة.

ولأشعة الشمس كذلك الأثر البالغ في مكافحة الجراثيم، لاحتوائها على الأشعة ما وراء الحمراء التي تقتل الجراثيم، ولولاها لتحولت الأرض إلى مستشفى عظيمة، ولانتهت الحياة البشرية على ظهرها خلال مدّة محدودة جداً.

واشعة الشمس في واقعها: نور صحي مجاني دائمي، يصلنا بكيفية لا هي بالشديدة المحرقة، ولا هي بالقليلة العديمة التأثير.

---

(١) لزيادة المعلومات، راجع ذيل الآية (٢٩) من سورة البقرة.
(٢) «جعلنا»: في هذا الموضع بمعنى (خلقنا)، فلذلك أخذت مفعولاً واحداً.
(٣) مفردات الراغب: مادة (وهج).. وفي لسان العرب: الوهج: حرارة الشمس والنار من بعيد.

ونسبة ما يصلنا من الطاقة الشمسية قياساً مع بقية المصادر كثير جداً، وعلى سبيل الفرض: فلو أردنا إنماء شجرة تفاح بواسطة نور صناعي، فستكلفنا التفاحة الواحدة مبلغاً رهيباً، نعم... فنعمة هذا السراج الوهّاج لا يمكننا تعويضها بمال كل الأغنياء[١].

وقد قُدّر حجم الشمس بما يقارب المليون وثلاثمائة ألف مرّة نسبة إلى حجم الكرة الأرضية، والفاصلة بين الشمس والأرض تقدر بحدود مائة وخمسين مليون كيلومتر... وأنّ حرارة الشمس الخارجية تصل إلى ستة آلاف درجة مئوية... وتصل حرارتها الداخلية ما يقارب مليون درجة مئوية! وهذا النظام الموزون بحكمة بالغة، لمن الدقة بحال أنّه لو اختل قليلاً (زيادة أو نقصان) لما أمكن للبشر أن يعيشوا على سطح الكرة الأرضية، ولا يسعنا المجال لنتطرق لمزيد من التفصيل والبيان حول هذا الموضوع.

وبعد ذكر نعمة النور والحرارة يتناول القرآن نعمة حياتية أُخرى لها ارتباط بأشعة الشمس، ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾.

«المعصرات»: جمع «معصر»، من العصر بمعنى الضغط.. والكلمة تشير إلى أنّ الغيوم تقوم بعملية وكأنّها تعصر نفسها عصراً لكي ينهمر منها الماء على شكل أمطار[٢] (ينبغي ملاحظة أنّ «المعصرات» جاءت بصيغة اسم فاعل).

وفسّرها بعضهم بالغيوم المستعدة لإنزال الأمطار، باعتبار أنّ اسم الفاعل يأتي في بعض الأحيان بمعنى الإستعداد للقيام بعمل ما.

---

(١) ورد في كتاب عالم النجوم من تأليف (آنتري وايت) حساباً للنور والحرارة الواصلين من الشمس إلى الأرض، يقول صاحب الكتاب: لو أردنا أن ندفع أجوراً مقابل ما يصلنا من نور وحرارة الشمس مجاناً بما يساوي ما ندفعه من أجور الكهرباء عادة، فعلى سكان الأرض أن يدفعوا لكل ساعة من النور والحرارة مليار وسبعمائة مليون دولار، وإذا حسبنا ما علينا أن ندفع خلال سنة واحدة فسنصل إلى رقم خيالي من الدولارات، وبهذا يظهر قيمة ما وهبنا الله تعالى من ثروة طائلة دون مقابل.

ويقول مؤلف كتاب (من العوالم البعيدة): إنّ أهل الأرض لو أرادوا الحصول على ما يصلهم من نور الشمس من مصابيح توضع في مكان الشمس للزم لكل منهم خمسة ملايين مليار مصباح ذو مائة واط.

(٢) يقول بعض العلماء: إنّ الغيوم حين تتراكم تخضع لنظام معين، حيث تقوم بعصر نفسها فتتساقط قطرات الأمطار منها، وهذا في واقعه يكشف عن إحدى المعاجز العلمية للقرآن في استعماله لهذا التعبير (راجع كتاب ـ الهواء والأمطار).

وقال بعض آخر: إنّ «المعصرات» ليست صفةً للغيوم، وإنّما للرياح التي تقوم بضغط وعصر الغيوم.

«الثجاج»: من الثج، بمعنى سيلان الماء بكمية كبيرة، و«ثجاج» صيغة مبالغة، ويراد بها هنا غزارة الأمطار المنهمرة نتيجة العصر الحاصل للغيوم.

وبالإضافة لكون المطر منبعاً لكثير من مصادر الخير والبركة، فهو: ملطف للجو، مزيل للتلوثات الموجودة في الجو، مخفض للحرارة ومعدل للبرودة، مقلل لأسباب الأمراض، يمنح الإنسان روحاً متجددة ونشاطاً، ومع كل ذلك.. فقد ذكر القرآن ثلاث فوائد أُخرى له: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ١٥-١٦].

يقول الراغب في مفرداته: «ألفافاً» أي التفّ بعضها ببعض لكثرة الشجر[١].

والآيتان تشيران إلى ما يستفيد منه الإنسان والحيوان من المواد الغذائية التي تخرج من الأرض، فالحبوب الغذائية تشكل قسماً مهمّاً من المواد الغذائية «حبّاً» والخضر تشكل القسم الآخر «ونباتاً» وتأتي الفاكهة لتشكل القسم الثالث «وجنّات».

ولا تنحصر فوائد المطر بهذه الفوائد الثلاث المذكورة في هاتين الآيتين، فللماء دور أساسي وحيوي في عملية حياة الكائنات الحيّة، وعلى الأخص الإنسان، حين أنّ الماء يشكل ما يقارب السبعين في المائة من بدنه، بل ويتعدى ذلك ليشمل كل كائنٍ حيّ، كما يشير القرآن الكريم لهذه الحقيقة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وتتجاوز فوائد الماء حدود الكائن الحيّ لتشمل: المصانع، جمال الطبيعة، وأفضل الطرق التجارية والإقتصادية هي الطرق المائية.

---

(١) «ألفاف» جمع لفيف ـ كما يقول كثير من أهل اللغة والتفسير ـ وقال بعضهم: جمع لُف (بضم اللام)، وقال بعض آخر: جمع لِف (بكسر اللام)، وقال آخرون: هي جمع لا مفرد له.. ولكنّ المشهور هو القول الأوّل.

ملاحظة

علاقة الآيات بـ «المعاد»:

أشارت الآيات المبحوثة إلى أهم العطايا الرّبانية والنعم الإلهية والتي لها الدور المهم والأساس في الحياة البشرية: النور، الظلمة، الحرارة، الماء، التراب، والنباتات.

وذكر نظام الكون على ما فيه من دقة موزونة ومحسوبة لدليل على قدرة الله عزَّ وجلَّ المطلقة من جهة، وبه يُسد كل ثغرات التساؤل عن قدرة الله على إحياء الموتى، وكما أجابت آخر سورة «يس» منكري المعاد بالقول: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].

ومن جهة أُخرى أنّه لا بدّ أن يكون لهذا الخلق العظيم من هدف، ولا يعقل أن يكون الهدف منه هو هذه الأيّام المعدودة لحياتنا الدنيا، إذ ليس من الحكمة أن يكون كل هذا الخلق وبما يحمل من أنظمة وعمليات من أجل الأكل والشرب والنوم وأمثال ذلك! بل لا بدّ من وجود هدف أسمى يتناسب وحكمة الباري جلَّ شأنه، وبعبارة أُخرى.. ما النشأة الأُولى إلّا تذكيراً للنشأة الآخرة: مرحلة متقدمة، ومحطة تَزوُّد بالوقود وصولاً لغاية السفر المحتوم، وكما ينبهنا القرآن الكريم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؟! [المؤمنون: ١١٥].

وبعد ذلك.. فما النوم واليقظة إلّا مثلاً للموت والحياة الجديدة، وما إحياء الأرض الميتة بنزول المطر ـ الشاخصة أمام أعين الناس على طول السنة ـ إلّا توضيحاً لحالة المعاد، وإشارات مليئة بالمعاني ترمز إلى مسألة القيامة والحياة بعد الموت، كما جاء في سورة فاطر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

الهدف من إرسال الرسل في القرآن

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ابتدأ الله سبحانه وتعالى عباده بالنعم فكانت رحمته ولطفه ومغفرته ونعمه الكثيرة التي لا تحصى والتي أشير إليها في الآيات السابقة. . . ولأنّ هذه النعم تحتاج إلى تقنين في استعمالها، ونظم وشرائط لنيل نتائجها المرجوّة، لذا فإنّه يحتاج إلى قيادة تقوم بمباشرتها والإشراف عليها وإعطاء التوجيهات الإلهية بشأنها، وهؤلاء القادة يجب أن يكونوا (قادة إلهيين) والآية مورد البحث ـ التي تعتبر من أكثر الآيات القرآنية محتوى ـ تشير إلى المعنى، وتبيّن هدف إرسال الأنبياء ومناهجهم بصورة دقيقة، حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

«البيّنات» هي الدلائل الواضحة، ولها معنى واسع يشمل المعجزات والدلائل العقليّة التي تسلّح بها الأنبياء والرسل الإلهيّون.

المقصود من (كتاب) هو نفس الكتب السماوية، ولأنّ روح وحقيقة الجميع شيء واحد، لذا فإنّ التعبير بـ (كتاب) جاء بصيغة مفرد.

وأمّا «الميزان» فيعني وسيلة للوزن والقياس، ومصداقها الحسّي هو الميزان الذي يقاس به وزن البضائع، ومن الواضح أنّ المقصود هو المصداق المعنوي، أي الشيء الذي نستطيع أن نقيس به كل أعمال الإنسان، وهي الأحكام والقوانين الإلهيّة أو الأفكار والمفاهيم الربّانية، أو جميع هذه الأمور التي هي معيار لقياس الأعمال الصالحة والسيّئة.

وبهذه الصورة فإنّ الأنبياء كانوا مسلّحين بثلاث وسائل وهي: «الدلائل الواضحة»، و«الكتب السماوية»، و«معيار قياس الحقّ من الباطل» والجيّد من الرديء. ولا يوجد مانع من أن يكون القرآن (بيّنة) أي معجزة، وهو كذلك كتاب سماوي ومبيّن للأحكام والقوانين، أي أنّ الأبعاد الثلاثة تصبّ في محتوى واحد وهي موجودة في القرآن الكريم.

وعلى كلّ حال، فإنّ الهدف من تعبئة هؤلاء الرجال العظام بهذه الأسلحة الأساسية، هو إقامة القسط والعدل.

وفي الحقيقة أنّ هذه الآية تشير إلى أحد الأهداف العديدة لإرسال الرسل، لأنّنا نعلم أنّ بعث الأنبياء وسعيهم كان من أجل أهداف عدّة.

منها: التعليم والتربية، كما جاء في الآية التالية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ . . .﴾ [الجمعة: ٢].

والهدف الآخر كسر الأغلال والقيود التي أسّرت الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والهدف الثالث: إكمال القيم الأخلاقية، كما جاء في الحديث المشهور: «بُعِثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق»[١].

والهدف الرابع: إقامة القسط والعدل، الذي أُشير إليه في الآية مورد البحث.

وبهذا الترتيب نستطيع تلخيص بعثة الأنبياء في الأهداف التالية: (الثقافية، الأخلاقية، السياسية، الإجتماعية).

ومن الواضح أنّ المقصود من الرسل في الآية مورد البحث، وبقرينة إنزال الكتب، هم الأنبياء أُولي العزم ومن يمثّلهم.

وممّا يجدر ذكره أنّ المقصود من التعبير القرآني: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي أن يتحرّك الناس أنفسهم لتحقيق القسط، وليس المقصود أن يلزم الأنبياء على إقامة القسط، ولهذا يمكن القول بأنّه المراد من الآية وهدفها هو أن يعمل الناس بمفاهيم القسط ويتحرّكوا لتطبيقها.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٧٢ باب حسن الخُلق نهاية الحديث الأوّل.

والمهمّ أن يتربّى الناس على العدل والقسط بحيث يصبحون واعين له داعين إليه، منفّذين لبرامجه وسائرين في هذا الإتّجاه بأنفسهم.

ثمّ إنّ أي مجتمع إنساني مهما كان مستواه الأخلاقي والإجتماعي والعقائدي والروحي عالياً، فإنّ ذلك لا يمنع من وجود أشخاص يسلكون طريق العتو والطغيان، ويقفون في طريق القسط والعدل، وإستمرار لمنهج الآية هذه يقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

نعم، إنّ هذه الأسلحة الثلاثة التي وضعت تحت تصرّف الأنبياء هي بهدف أن تكون الأفكار والمفاهيم التي جاء بها الأنبياء فاعلة ومؤثرة، وتحقّق أهدافها المنشودة، فقد وضع الحديد والبأس الشديد في خدمة رسل الله.

وبالرغم من أنّ البعض يتصوّر أنّ تعبير (أنزلنا) يعكس لنا أنّ الحديد جاء من كرات سماوية إلى الأرض، إلّا أنّ الصحيح أنّ التعبير بـ (الإنزال) في مثل هذه الحالات هو إشارة إلى الهبات التي تعطى من المقام الأعلى إلى المستوى الأدنى، ولأنّ خزائن كلّ شيء عند الله تعالى فهو الذي خلق الحديد لمنافع مختلفة، فعبّر عنه بالإنزال، وهنا حديث لأمير المؤمنين عليه السلام في تفسيره لهذا القسم من الآية حيث قال: «إنزاله ذلك خلقه إيّاه»[1].

كما نقرأ في الآية (٦) من سورة الزمر حول الحيوانات حيث يقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

وفسّر البعض (أنزلنا) بأنّها من مادّة (نزل على وزن (شبر) بمعنى الشيء الذي يهيّأ لاستقبال الضيوف، ولكن الظاهر أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

«البأس» في اللغة بمعنى الشدّة والقسوة والقدرة، ويقال للحرب والمبارزة (بأس) ايضاً، ولذا فإنّ المفسّرين فسّروها بأنّها الوسائل الحربية، أعمّ من الدفاعية والهجومية، ونقل في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «يعني السلاح وغير ذلك»[2].

والواضح أنّ هذا من قبيل بيان المصداق.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٥٠، حديث١٠٠.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٥٠، حديث١٠١.

والمقصود من «المنافع» هنا هو كلُّ ما يفيد الإنسان من الحديد، وتتبيّن الأهميّة البالغة للحديد في حياة الإنسان أنّ البشرية قد بدأت عصراً جديداً بعد اكتشافه، سمّي بعصر الحديد، لأنّ هذا الاكتشاف قد غيّر الكثير من معالم الحياة في أغلب المجالات، وهذا يمثّل أبعاد كلمة (المنافع) في الآية الكريمة أعلاه.

وقد أُشير إلى هذا المعنى بآيات مختلفة في القرآن، منها قوله تعالى بشأن تصميم ذي القرنين على صنع سدّه العظيم: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

وذلك عندما شمل لطفه عزَّ وجلَّ داود ﷺ بتليين الحديد له ليستطيع أن يصنع دروعاً منه يقلّل فيها أخطار الحروب وهجمات العدو.

ثمّ يشير سبحانه إلى هدف آخر من أهداف إرسال الأنبياء وإنزال الكتب السماوية، وخلقه وتسخيره الوسائل المفيدة للإنسان كالحديد مثلاً، حيث يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

المقصود من (علم الله) هنا هو التحقّق العيني ليتوضّح من هم الأشخاص الذين يقومون بنصرة الله ومبدئه، ويقومون بالقسط؟ ومن هم الأشخاص الذين يتخلّفون عن القيام بهذه المسؤولية العظيمة؟

ومفهوم هذه الآية يشبه ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وبهذه الصورة نلاحظ أنّ المسألة هنا مسألة اختبار وتمحيص واستخراج الصفوة التي استجابت لمسؤوليتها والقيام بواجبها الإلهي، وهذا هو هدف آخر من الأهداف الأساسية في هذا البرنامج.

ومن الطبيعي أنّ المقصود بـ (نصرة الله) أنّها نصرة الدين والمبدأ والحاملين وحي الرسالة، وإقامة الحقّ والقسط.. وإلّا فإنَّ الله ليس بحاجة إلى نصرة أحد، بل الكلّ محتاج إليه، ولتأكيد هذا المعنى تنتهي الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

حيث بإمكانه سبحانه أن يغيّر ما يشاء في العالم، بل يقلبه رأساً على عقب بإشارة واحدة، ويهلك أعداءه، وينصر أولياءه.. وبما أنّ الهدف الأساس له سبحانه هو التربية وتكامل البشر، لذا فقد دعاهم عزّ وجلّ إلى نصرة مبدأ الحق.

تعقيب

١ ـ الحدود بين القوّة والمنطق:

رسمت الآية أعلاه صورة وافية ومفصّلة من وجهة النظر الإسلامية في مجال التربية والتعليم، وتوسعة دائرة العدل وإقامة القسط في المجتمع الإنساني.

ففي البداية أكّدت الآية على ضرورة الإستفادة من الدلائل والبيّنات والكتب السماوية، وضوابط القيم، وبيان الأحكام والقوانين.. وذلك لترسي أساساً لثورة فكرية وثقافية متينة مرتكزة على قاعدة من العقل والمنطق.

إلّا أنّه في حالة عدم جدوى تلك الوسائل والأساليب، وحين الوصول إلى طريق مغلق في الإستفادة من الأسلوب المتقدّم بسبب تعنّت الطواغيت، ومواجهة الإستكبار لرسل الحقّ والقسط، والإعراض عن قيم وضوابط وأحكام (الكتاب والميزان).. فهنا يأتي دور «الحديد»، الذي فيه «بأس شديد» حين يوجّه صفعة قويّة على رؤوس الجبابرة بهذا السلاح كي يستسلموا للقسط والعدل ودعوة الحقّ التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام، ومن الطبيعي أنّ نصرة المؤمنين أساسيّة في هذا المجال.

وورد حديث عن رسول الله ﷺ في هذا الصدد حيث قال: «بعثت بالسيف بين يديّ الساعة، حتّى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي، تحت ظلّ رمحي»[(١)].

وهذا الحديث إشارة إلى أنّ الرسول ﷺ مأمور بحمل السلاح أمام الكفر والإستكبار، ولكن لا بلحاظ أنّ هذا هو الأصل والأساس في المنهج الإسلامي كما جاء ذلك صراحة في الآية الكريمة أعلاه.

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الخير كلّه في السيف، وتحت السيف، وفي ظلّ السيف»[(٢)].

وجاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في هذا الصدد: «إنّ الله عزّ وجلّ فرض

---

(١) تفسير المراغي، ج٢٧، ص١٨٣.

(٢) فروع الكافي، ج٥، ص٨، حديث: ١١.

الجهاد وعظّمه وجعله نصره وناصره، والله ما صلحت دنيا ولا دين إلّا به»[١].

ونختم حديثنا بقول آخر لرسول الله ﷺ: «لا يقيم الناس إلّا بالسيف، والسيوف مقاليد الجنّة والنار»[٢].

وبناءً على هذا فإنّ القادة الإلهيين يحملون في يد الكتب السماوية وهي مشعل الحقّ، وباليد الأخرى السيف. يدعون الناس أوّلاً بالعقل والمنطق إلى الحقّ والعدل، فإن أعرض الطواغيت عن المنطق، ورفض المستكبرون الإستجابة لنهج الحقّ والعقل عندئذٍ يأتي دور السيف والقوّة لتحقيق أهدافهم الإلهية.

٢ ـ الحديد واحتياجات الحياة الأساسية

بعض المفسّرين شرح هدف الآية أعلاه بما يلي:

إنّ الحياة الإنسانية بصورة عامّة تتقوّم بأربعة مرتكزات (الزراعة، والحياكة، أي الصناعة، والسكن، والسلطة)، ولهذا السبب فإنّ الحاجات الأساسية للإنسان باعتباره موجوداً إجتماعياً تتركّز بـ (الغذاء والسكن واللباس) والتي لا يستطيع أن يوفّرها لنفسه بصورة فردية، ومسألة تأمينها بشكل عام لا بدّ أن تكون بواسطة المجتمع ولأنّ كلّ مجتمع لا يخلو من تزاحم المصالح، وكذلك العديد من المشاكل والتعقيدات. لهذا، فإنّه بحاجة إلى (سلطة) تجري العدل فيه وترعى الحقوق وتنظّم الحياة... والملفت هنا أنّ هذه الأسس الأربعة المتقدّمة الذكر تعتمد جميعها بشكل أساسي على الحديد، وعلينا أن نتصوّر كم ستكون حياة الإنسان صعبة لو لم يكن هذا المعدن (الحديد) في خدمتها.

ولأنّ الحاجة إليه ماسّة ومتزايدة، فإنّ الله سبحانه قد وفّره بحيث سهّل ويسّر عملية الحصول عليه، وبالرغم من عدم إغفال الدور المفيد لكلّ من الفلزات الأخرى، إلّا أنّ الحديد يبقى له دور أساس في حياة الإنسان.

ومن هنا يتوضّح مقصود قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) فروع الكافي، ج٥، ص٨، حديث: ١٥.

(٢) فروع الكافي، ج٥، ص٢، حديث١.

الأمر بالنظر المقترن بالتفكر في القرآن

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٦-١١].

التّفسير

انظروا إلى السماء لحظةً:!

هذه الآيات تواصل البحث عن دلائل المعاد، فتارةً تتحدّث عن قدرة الله المطلقة لإثبات المعاد، وأخرى تستشهد له بوقائع ونماذج تحدث في الدنيا تمثّل حالة المعاد.

فهي تستجلب وتُلفت أنظار المنكرين إلى خلق السماوات فتقول: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾.

والمراد بالنظر هنا هو النظر المقترن بالتفكير الذي يدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذي خلق السماوات الواسعة وما فيها من عجائب مذهلة وتناسق وجمال واستحكام ونُظُم ودقّة.

جملة ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. أي لا انشقاق فيها، إمّا أن يكون بمعنى عدم وجود النقص والعيب والارتباك كما ذهب إليه بعض المفسّرين، أو أن يكون معناه عدم الإنشقاق والإنفطار في السماء المحيطة بأطراف الأرض وهي ما يعبّر عنها بالغلاف الجوّي للأرض أو ما يعبّر القرآن عنه بالسقف المحفوظ كما ورد في سورة الأنبياء الآية (٣٢) إذ توصد الطريق بوجه النيازك والسدم والشُهب التي تهوي باستمرار نحو

الأرض وبسرعة هائلة وقبل أن تصل إلى الأرض تستحيل إلى شعلة فرماد، كما أنّها تحجب الأشعّة الضارّة للشمس وغيرها من الأشعّة الكونية، وإلّا فإنّ السماء معناها الفضاء الواسع الذي تسبح فيه الأجرام الكروية المعروفة بالنجوم.

وهنا احتمال ثالث أيضاً، وهو أنّ الجملة السابقة إشارة إلى نظرية وجود «الأثير».. وطبقاً لهذه النظرية فإنّ جميع عالم الوجود بما فيه الفواصل التي تقع ما بين النجوم ـ مليء من مادّة عديمة اللون والوزن تُدعى بـ«الأثير» وهي تحمل أمواج النور وتنقلها من نقطة لأخرى، وطبقاً لهذه النظرية فإنّه لا وجود لأيّ فُرجة ولا فجوة ولا انشقاق في عالم الإيجاد والخلق، وجميع الأجرام السماوية والكواكب السيارة تموج في الأثير!

وبالطبع فإنّه لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة وإن كانت النظرية الثالثة التي تعتمد على فرضية الأثير لا يعوّل عليها ولا يمكن الركون إليها، لأنّ موضوع الأثير ما يزال قيد الدرس ولم يثبت بصورة قطعيّة عند جميع العلماء لحدّ الآن!

ثمّ تشير الآيات إلى عظمة الأرض فتقول: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

أجل، خلق الأرض من جهة، ثمّ اتّساعها «وخروجها من تحت الماء» من جهة أُخرى، ووجود الجبال «الرواسي» عليها وارتباط بعضها ببعض كأنها السلاسل التي تشدّ الأرض وتحفظها من الضغوط الداخلية والخارجية الجَزْر والمَدّ الحاصلين من جاذبية الشمس والقمر من جهة ثالثة.. ووجود أنواع النباتات بما فيها من عجائب واتّساق وجمال من جهة رابعة جميعها تدلّ على قدرته اللّامحدودة[١].

والتعبير بـ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ إشارة إلى مسألة الزوجية في عالم النباتات التي لم تكن معروفة كأصل كلّي حين نزول الآيات محلّ البحث، وبعد قرون وسنين متطاولة استطاع العلم أن يميط النقاب عنها. أو أنّه إشارة إلى اختلاف النباتات وأنواعها المتعدّدة، لأنّ التنوّع والإختلاف في عالم النبات عجيب مذهل.

---

(١) كنّا قد بحثنا فوائد إيجاد الجبال واتّساع الأرض وبسطها وزوجية النباتات بحثاً مفصّلاً في سورة الرعد بذيل الآية (٣).

أمّا الآية التالية فهي بمثابة الإستنتاج إذ تقول: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[(١)].

أجل إنّ من له القدرة على خلق السماوات بما فيها من عظمة وجمال وجلال، والأرض بما فيها من نعمة وجمال ودقّة، كيف لا يمكنه أن يلبس الموتى ثوب الحياة مرّة أُخرى وأن يجعل لهم معاداً وحياة أُخرى!؟

ترى أليست هذه القدرة المذهلة العظيمة دليلاً واضحاً على إمكان المعاد؟!

أمّا الآية التالية ففيها استدلال آخر على هذا الأمر إذ تقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

«الجنّات» هنا إشارة إلى بساتين الثمار، أمّا ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ فإشارة إلى الحبوب التي تعدّ مادّة أساسيّة لغذاء الإنسان كالحنطة والشعير والذرّة وغيرها.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ كلمة: «باسقات» جمع باسقة بمعنى الشجرة المرتفعة العالية و«الطلع» ثمر النخل وما يكون منه الرطب والتمر بعدئذٍ، وكلمة «النضيد» معناها المتراكم بشكل دقيق، والمعروف أنّ عذق النخل قبل أن ينشقّ، يحمل داخله طلعاً متراكباً متراكماً وحين ينشقّ هذا الطلع يكون مذهلاً وعجيباً.

والآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تقول: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

وهكذا فإنّ هذه الآيات ضمن بيان النعم العظمى للعباد وتحريك إحساس الشكر فيهم في مسير المعرفة تذكّرهم بأنّهم يرون مثلاً للمعاد كلّ سنة في حياتهم في هذه الدنيا، فالأرض الميتة الخالية واليابسة تهتزّ وتنبت النباتات عليها عند نزول قطرات الغيث وكأنّ أصداء القيامة تترنّم على شفاه النباتات قائلة: «وحده لا شريك له».

فهذه الحركة العظيمة نحو الحياة في عالم النباتات تكشف عن هذه

---

(١) يمكن أن تكون تبصرة مفعولاً لأجله كما يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً... إلّا أنّ الإحتمال الأوّل أنسب، ومثل هذا يقع الكلام على كلمة «ذكرى».

الحقيقة، وهي أنّ بارىء عالم الموجودات قادر على إحياء الموتى مرّةً أُخرى، لأنّ وقوع الشيء أقوى دليل على إمكانه!

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٧].

هل أنتم الزارعون أم الله؟

قال في الأمثل: استعرضنا لحدّ الآن أربعة أدلّة من الأدلّة السبعة التي جاء ذكرها في هذه السورة حول المعاد والآيات (مورد البحث واللاحقة لها) تستعرض الأدلّة الأخرى المتبقية، والتي كل منها مصداق لقدرة الله اللامتناهية، فالدليل الأول يرتبط بخلق الحبوب الغذائية والثاني يرتبط بخلق الماء، والثالث يتعلّق بالنار، وهذه المحاور تشكل الأركان الأساسية في الحياة الإنسانية فالحبوب النباتية أهمّ مادّة غذائية للإنسان، والماء أهمّ عنصر للحياة، والنار أهمّ وسيلة لإصلاح المواد الغذائية وسائر أُمور الحياة الأُخرى.

يقول سبحانه في البداية: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾.

الملفت للنظر هنا أنّ الآية استعملت تعبير (تحرثون) من مادّة (حرث) على وزن (درس) وهو يعني الزراعة ونشر الحبوب وتهيئتها للإنبات، وفي الآية الثانية كان التعبير بـ(تزرعونه) من مادّة «زراعة» بمعنى النمو والنضج.

ومن البديهي أنّ عمل الإنسان هو الحرث فقط، أمّا النمو فهو من عمل الله سبحانه فقط، ولذا نقل في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا يقولنّ أحدكم زرعت وليقل حرثت، فإنّ الزارع هو الله»[1].

شرح هذا الدليل هو أنّ عمل الإنسان في الزرع كعمله في الإنجاب حيث ينثر البذرة ويتركها، والله سبحانه هو الذي يخلق في وسط هذه البذرة الحياة، فعندما توضع البذرة في محيط مهيّأ من حيث التربة والضوء والماء، فإنّها تستفيد إبتداءً من المواد الغذائية الموجودة في الأرض حيث تعمل أجهزة

---

(١) القسم الأوّل من الحديث جاء في تفسير مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث، ونقل القسم الثاني في روح البيان كإضافة عليه.

عظيمة وتحدث تغييرات عميقة في داخل النبات، تتمخّض عن أغصان وسيقان وأوراق وثمار.. وأحياناً تنتج البذرة الواحدة عدّة آلاف من البذور[١].

يقول العلماء: إنّ التركيبات الموجودة في بناء نبات واحد أعجب وأعقد بمراتب من التشكيلات الموجودة في مدينة صناعية عظيمة مع معاملها المتعدّدة.

هل أنّ القوّة التي لها مثل هذه القدرة تعجز عن إحياء الموتى مرّة أخرى؟

وفي الآية اللاحقة يؤكّد الدور الهامشي للإنسان في نمو ورشد النباتات فيقول: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾.

نعم، يستطيع الباري أن يرسل رياحاً سامّة تقتل البذور قبل الإنبات وتحطّمها، أو يسلّط عليها آفة تتلفها بعد الإنبات كالجراد، أو تنزل عليها صاعقة كبيرة بحيث لا تبقي ولا تذر إلّا شيئاً من التين اليابس، وعند ذلك تضطربون وتندمون عند مشاهدتكم لمنظرها.

هل كان بالإمكان حدوث مثل هذه الأمور إذا كنتم أنتم الزارعون الحقيقيون؟ إذاً فاعلموا أنّ كلّ هذه البركات من مصدر آخر.

«حطام» من مادّة (حطم) على وزن (حتم) تعني في الأصل كسر الشيء، وغالباً ما تطلق على كسر الأشياء اليابسة كالعظام النخرة وسيقان النباتات الجافّة، والمقصود هنا هو (التين).

ويحتمل أيضاً أنّ المقصود بالحطام هنا هو فساد البذور في التربة وعدم نموّها[٢].

«تفكّهون»: من مادّة (فاكهة) بمعناها المتعارف، كما تطلق فكاهة على المزاح وذكر الطرائف التي هي فاكهة جلسات الأنس، ويأتي هذا المصطلح أحياناً للتعجّب والحيرة، والآية مورد البحث من هذا القبيل.

في بعض الأحيان يضحك الإنسان في الحالة العصبية وتسمّى هذه الضحكة

---

(١) قال في الأمثل: بالرغم من أنّ الحبّة الواحدة من الحنطة لا تنبت سوى عدّة مئات من الحبوب، إلّا أنّه كما قلنا في ج٢ من هذا التفسير: أنّه قد وجد في بعض مزارع القمح في إحدى المحافظات الجنوبية لإيران أنّ سنبلة واحدة تحوي على أربعة آلاف حبّة وذلك طبقاً لما أعلنته منشورات صحفية.

(٢) تفسير أبو الفتوح الرازي نهاية الآية مورد البحث.

بـ(ضحكة الغضب) كما في المزاح الذي يكون عند الظروف الصعبة والمصائب الثقيلة، وبناءً على هذا المقصود: بالفكاهة ـ أحياناً ـ هو المزاح المقترن بالألم.

نعم تتعجّبون وتغمركم الحيرة وتقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ[١][٢] ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

وإذا كنتم أنتم الزارعين الحقيقيين، فهل بإمكانكم أن تمنعوا وتدافعوا عن زرعكم الأضرار والمصير المدمّر والنتيجة البائسة؟ وهذا التحدّي يؤكّد لنا أنّ جميع أُمور الخلق من الله سبحانه، وكذلك فإنّه هو الذي ينبت من بذرة لا قيمة لها نباتات طريّة وأحياناً مئات أو آلاف البذور منها، تلك النباتات التي يتغذّى عليها الإنسان بشكل أساسي ويستفيد من أغصانها وأوراقها وأحياناً جذورها وبقيّة أجزائها غذاء للحيوان ودواء للأمراض والأسقام.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٤].

التّفسير

من الذي خلق الماء والنار؟

يشير سبحانه في هذه الآيات إلى سادس وسابع للمعاد في هذا القسم من آيات سورة الواقعة، التي تبيّن قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، بل في كلّ شيء.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩].

«مزن»: على وزن (حزن) كما يقول الراغب في المفردات تعني (الغيوم البيضاء) وفسّرها البعض بأنّها (الغيوم الممطرة)[٣].

---

(١) الجملة﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ محذوف، تقديره (وتقولون إنّا لمغرمون).

(٢) «مغرمون»: من مادّة (غرامة) بمعنى الضرر وفقدان الوقت والمال.

(٣) لسان العرب، مادّة مزن.

إنّ هذه الآيات تجعل الوجدان الإنساني أمام استفسارات عدّة كي تأخذ إقراراً منه، حيث يسأل الله سبحانه: هل فكّرتم بالماء الذي تشربونه باستمرار والذي هو سرّ حياتكم؟

وهل تدبّرتم من الذي يأمر الشمس بالشروق على صفحات المحيط حيث تفصل جزئيات الماء الخالص الحلو والطاهر من بين المياه المالحة؟

وهل علمتم من الذي يحمل هذا البخار نحو السماء؟

ومن الذي يأمر البخار بالتجمّع وتشكيل غيوم الأمطار؟

ومن الذي يأمر الرياح بالتحرّك وحمل الغيوم إلى الأراضي القاحلة والميتة؟

ومن الذي يمنح للطبقات العليا في الجوّ هذه الخاصيّة من البرودة بحيث تمنع استمرار صعود البخار نحو الأعلى، كي يتحوّل البخار إلى قطرات صغيرة وملائمة تسقط على الأرض بهدوء وتعاقب؟

وهل نعلم ماذا سيحدث لو انقطعت الشمس عن الشروق لمدّة سنة واحدة؟

أو توقّفت الرياح عن التحرّك؟

أو رفضت الطبقات العليا حفظ البخار من الصعود إلى الأعلى؟

أو حبسته من النّزول إلى الأرض؟

لا شكّ أنّ الذي سيحدث يمثّل كارثة، حيث يموت الزرع والنخيل وتهلك مزارعكم وحدائقكم وحيواناتكم، بل ستهلكون أنتم من الظمأ أيضاً.

إنّ القوّة التي أعطت هذه القدرة ومنحت كلّ هذه النعم والبركات العظيمة، بما أودعت من قوانين ونظم في عالم الخلق، أتظنّون أنّها غير قادرة على إحياء الموتى؟

وهل أنّ إحياء الموتى غير هذا؟

أليس إحياء الأراضي الميتة نوعاً من أنواع إحياء الموتى؟

نعم، إنّه دليل على ذلك، وهو دليل على التوحيد وعظمة القدرة الإلهيّة، ودليل أيضاً على الحشر والمعاد.

وإذا لاحظنا في الآيات أعلاه عملية استعراض لماء الشرب ـ فقط ـ وعدم التحدّث عن تأثير في حياة الحيوانات أو النباتات فإنّ السبب هو الأهميّة البالغة للماء في حياة الإنسان نفسه، بالإضافة إلى أنّه قد أُشير له في الآيات السابقة في حديث الزرع، لذا لا حاجة لتكرار ذلك.

والطريف هنا أنّ أهميّة الماء وتأثيره في حياة الإنسان تزداد مع مرور الزمن وتقدّم الصناعة والعلم والمعرفة الإنسانية، فالإنسان الصناعي يحتاج إلى الماء بصورة متزايدة، لذلك فإنّ كثيراً من المؤسسات الصناعية العظيمة لا تكون لها القدرة على الفاعلية إلّا حينما تكون على ضفاف الأنهار العظيمة.

وأخيراً ـ ولإكمال البحث في الآية اللاحقة ـ يقول سبحانه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[1].

نعم، لو أراد الله تعالى، للأملاح المذابة في مياه البحار أن تتبخّر مع ذرّات الماء، وتصعد إلى السماء معها وتشكّل غيوماً مالحة ومرّة، وتنزل قطرات المطر مالحة مرّة أيضاً كمياه البحر، فهل هنالك من قوّة تمنعه؟ ولكنّه بقدرته الكاملة لم يسمح للأملاح بذلك، ولا للميكروبات ـ أيضاً ـ أن تصعد إلى السماء مع بخار الماء، ولهذا فإنّ قطرات المطر عندما يكون الجوّ غير ملوّث تعتبر أنقى ،أطهر وأعذب المياه.

«أُجاج»: من مادّة (أجّ) على وزن (حجّ) وقد أخذت في الأصل من «أجيج النار» يعني إشتعالها واحتراقها، ويقال: «أجاج» للمياه التي تحرق الفمّ عند شربها لشدّة ملوحتها ومرارتها وحرارتها.

نختم حديثنا هذا بحديث رسول الله ﷺ حيث ذكر الرواة أنّ النّبي كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»[2].

وأخيراً نصل إلى سابع ـ وآخر ـ دليل للمعاد في هذه السلسلة من الآيات الكريمة، وهو خلق النار التي هي أهمّ وسيلة لحياة الانسان وأكثرها أهميّة له في

---

(١) في هذه الجملة حذفت اللام وفي التقدير هكذا «لو نشاء لجعلناه».

(٢) تفسير المراغي، ج٢٧، ص١٢٤٨ وتفسير روح المعاني، ج٢٧، ص١٢٩.

المجالات الصناعية المختلفة، حيث يقول سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾.

«تورون»: من مادّة (ورى) على وزن (نفى) بمعنى الستر، ويقال للنار التي تكون مخفية في الوسائل التي لها القابلية على الإشتعال والتي تظهر بشرارة «ورى» و«إيراء»، وخروجها يكون عن.

وتوضيح ذلك: إنّ لإشعال النار وإيجاد الشرارة الأُولى، والتي تستحصل اليوم بواسطة الكبريت والقداحات وما إلى ذلك، فإنّهم كانوا يحصلون عليها من الحديد والحجر المخصّص للقدح، حيث تظهر الشرارة بضرب الواحد للآخر، أمّا أعراب الحجاز فكانوا يستفيدون من نوعين من الشجر الخاصّ الذي ينمو في الصحراء وهما (المرخ) و(العفار) حيث يأخذون قطعتي خشب ويضعون الأُولى أسفل والعفار فوقه فتتولّد الشرارة منها كما تتولّد من الحجر المستعمل للقدح.

وفسّر أغلب المفسّرين الآية بأنّها دليل آخر على قدرة الله البالغة في النار المخفية في خشب الأشجار الخضراء كمولّد للشرر والنار، في الوقت الذي تكون فيه الأشجار الخضراء مشبّعة بالماء، فأين الماء؟ وأين النار؟

هذا الخالق العظيم الذي يتميّز بهذه القدرة، الذي وضع الماء والنار جنباً إلى جنب الواحد داخل الآخر، كيف لا يستطيع أن يلبس الموتى لباس الحياة، ويحييهم في الحشر.

وقد ورد دليل شبيه لهذا حول المعاد في آخر آيات سورة «يس» أيضاً بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

ولكن كما ذكرنا في تفسير الآية أعلاه فإنّ تعبير القرآن يمكن أن يكون إشارة إلى دليل أظرف، وهو حشر وتحرّر الطاقات وانطلاقها.

وبتعبير آخر: فإنّ الحديث هنا ليس فقط عن (القادحات) بل عن المواد التي لديها قابلية الإشتعال ـ كالخشب والحطب ـ حيث تولّد عند احتراقها كلّ هذه الحرارة والطاقة.

وتوضيح ذلك: أنّه ثبت من الناحية العلمية أنّ النار التي نشاهدها اليوم عند احتراق الأخشاب هي نفس الحرارة التي أخذتها الأشجار من الشمس

على مرّ السنين وادّخرتها في داخلها، فنحن نتصوّر أنّ أشعّة الشمس طيلة إشراقها على الشجر خلال خمسين سنة قد ذهبت آثارها غافلين عن أنّ حرارتها قد ادّخرت في الشجرة، وعندما تصل شرارة النار إلى الأخشاب اليابسة تبدأ بالاحتراق وتطلق الحرارة الكامنة فيها.

وبذلك يكون هنا أيضاً معاد ومحشر وتحيا الطاقات من جديد مرّة أُخرى، ولسان حال الأشجار يقول: إنّ الخالق الذي هيّأ لنا الحشر قادر على أن يهيّىء لكم حشراً يا بني البشر. (ولمزيد من الاطلاع في هذا المجال راجعوا البحث المفصّل الذي بيّناه في الآية من سورة يس).

جملة (يورون) ـ بمعنى إشعال النار ـ بالرغم من أنّها فسّرت هنا بما يستفاد منه توليد النار، إلّا أنّه لا مانع من أن تشمل الأشياء المشتعلة أيضاً كالحطب باعتباره ناراً خفيّة تظهر وقت توفّر الشروط المناسبة لها.

ولا تنافي بين المعنيين، حيث المعنى الأوّل يفهمه العامّة من الناس، والثاني أدقّ، يتوضّح مع مرور الزمن وتقدّم العلم والمعرفة.

وفي الآية اللاحقة يضيف مؤكّداً الأبحاث أعلاه بقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

إنّ عودة النار من داخل الأشجار الخضراء تذكّرنا برجوع الأرواح إلى الأبدان في الحشر من جهة، ومن جهة أُخرى تذكّرنا هذه النار بنار جهنّم.

يقول الرسول الأكرم ﷺ «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم»[(١)].

أمّا تعبير ﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ فإنّه إشارة قصيرة ومعبّرة للفوائد الدنيوية لهذه النار، وقد ورد تفسيران لمعنى المقوين:

الأوّل: إنّ (مقوين) من مادّة (قواء) على وزن (كتاب) بمعنى الصحراء اليابسة المقفرة، ولهذا أُطلقت كلمة (المقوين) على الأشخاص الذين يسيرون في الصحارى، ولأنّ أفراد البادية فقراء، لذا فقد جاء هذا التعبير بمعنى «الفقير» أيضاً.

---

(١) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦٣٩٢؛ وتفسير روح المعاني، ج٢٧، ص١٣١.

والتّفسير الثاني: إنّ (مقوين) من مادّة (قوّة) بمعنى أصحاب القوّة، وبناءً على هذا فإنّ المصطلح المذكور هو من الكلمات التي تستعمل بمعنيين متضادّين[١].

صحيح أنّ النار هي مورد استفادة الجميع ـ ولكن المسافرين يستفيدون منها ويعتمدون عليها في الدفء والطهي وخاصّة في أسفارهم في الأزمنة القديمة أكثر من الآخرين.

واستفادة «الأقوياء» من النار واضحة أيضاً، وذلك لاتّساع المجالات التي يستعملون النار فيها في أمور حياتهم المختلفة، خصوصاً مع اتّساع دائرة البحث العلمي كما في عالمنا المعاصر، حيث إنّ الحرارة الناشئة من أنواع النار تحرّك عجلة المصانع العظيمة، وإذا ما تعطّلت هذه الوسيلة المهمّة وانطفأت شعلتها العظيمة ـ والتي جميعها من الشجر ـ بما في ذلك النار المأخوذة من الفحم الحجري أو المواد النفطية حيث ترجع إلى النباتات بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ فإنّها ستتعطّل الحياة المدنية، بل وستنطفىء حياة الإنسان أيضاً.

وبدون شكّ فإنّ النار من أهمّ اكتشافات البشر، في حين أنّ الله تعالى هو الذي أوجدها ودور الإنسان فيها بسيط وعادي جدّاً.

لقد قفز اكتشاف النار بالإنسانية مرحلة مهمّة حيث بدأت تسير من ذلك الوقت في مراحل جديدة من التمدّن والرقي.

نعم هذه الحقائق جميعاً عبّر عنها القرآن الكريم بجملة قصيرة: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

وممّا يجدر ذكره أنّ الآية أعلاه استعرضت في البداية الفوائد المعنوية للنار، والتي تذكّرنا بيوم القيامة، والتي هي محور الحديث في هذا البحث، ثمّ انتقلت إلى ذكر تفاصيل الفوائد الدنيوية لها، لأنّ للناحية الأولى أهميّة أكثر، بل تمثّل الأصل والأساس في البحث.

بعد ذكر النعم الثلاث (الحبوب الغذائية، والماء، والنار) والتي روعي ترتيب أهميّتها وفق تسلسل طبيعي ـ لأنّ اهتمام الإنسان يبدأ أوّلاً بالحبوب

---

(١) من الجدير بالملاحظة أنّ كلمة (متاع) تطلق على كلّ وسيلة يستفيد منها الإنسان في حياته.

الغذائية ثمّ يمزجها بالماء ومن ثمّ يطهوها ويهيّؤها للغذاء بواسطة النار ـ يستنتج سبحانه نتيجة مهمّة بعد ما ركّز على أهميّة هذه النعم للإنسان وذلك بتسبيحه والشكر له تعالى باعتباره المصدر الوحيد لهذه النعم.. فيقول سبحانه في آخر آية مورد البحث: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1].

نعم، إنّ الله الذي خلق كلّ هذه النعم، والتي كلّ منها تذكّرنا بقدرته وتوحيده وعظمته ومعاده، لائق للتسبيح والتنزيه من كلّ عيب ونقص.

إنّه ربّ، وكذلك فإنّه «عظيم» وقادر ومقتدر، وبالرغم من أنّ المخاطب في هذه الآية هو الرّسول الأعظم ﷺ إلّا أنّ من الواضح أنّ جميع البشر هم المقصودون.

تعقيب

قال في الأمثل: من المناسب هنا الإشارة إلى بعض الأحاديث الشريفة ـ حول الآيات أعلاه ـ عن الرّسول الأعظم ﷺ وكذلك عن الإمام علي عليه السلام.

أوّلاً: نقرأ في تفسير روح المعاني حديثاً للإمام علي عليه السلام أنه في إحدى الليالي كان الإمام يصلّي ويقرأ سورة الواقعة، ولمّا وصل إلى الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾. قال ثلاث مرّات: بعد انتهاء صلاته «بل أنت يا ربّ» وعندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ قال ثلاث مرّات أيضاً «بل أنت يا ربّ» ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ قال ثلاث مرّات «بل أنت يا ربّ»[2].

وموضع العبرة في هذا الحديث هي ضرورة ملاحظة هذه الآيات التي وردت في القرآن الكريم بعنوان استفهام تقريري وأن يعطي الإنسان جواباً إيجابياً لله سبحانه الذي يتحدّث معه لتركيز هذه الحقائق في روحه ونفسه، وعليه أن يتعمّق في ذلك من خلال القراءة المتدبّرة الواعية، ولا يقتنع بالتلاوة الفارغة.

---

(١) الباء في (باسم ربّك) يمكن أن تكون للتعدية (حيث إنّ الفعل المتعدّي سبّح يؤخذ بمنزلة اللازم) واحتمل البعض أيضاً أنّ الباء هنا جاءت للاستعانة أو زائدة أو ملابسة، إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

(٢) تفسير روح المعاني، ج٢٧، ص١٣٠.

ثانياً: جاء في حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تمنعوا عباد الله فضل ماء ولا كلأ ولا نار فإنّ الله تعالى جعلها متاعاً للمقوين، وقوّة للمستضعفين».

ثالثاً: ونقرأ في حديث آخر أنّ الرّسول ﷺ قال حينما نزلت الآية الكريمة: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: «اجعلوها في ركوعكم»، أي قولوا في ركوعكم: سبحان ربّي العظيم وبحمده.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

التّفسير

فلينظر الإنسان إلى طعامه:

تحدثت الآيات السابقة حول مسألة المعاد، والآيات القادمة تتناول نفس الموضوع بشكل أوضح، ويبدو أنّ الآيات المبحوثة ـ وانسياقاً ـ مع ما قبلها وما بعدها ـ تتطرق لذات البحث تبيّن مفردات قدرة الباري جلّ شأنه على كلّ شيء كدليل على إمكان تحقق المعاد، فما يقرّب إمكانية القيامة إلى الأذهان هو إحياء الأراضي الميتة بإنزال المطر عليها، العملية تمثل إحياء بعد الموت مختصة في عالم النبات.

ثمّ البيان القرآني في الآيات أعلاه قد طرح بعض مفردات الأغذية التي جعلها الله تحت تصرف الإنسان والحيوان، لتثير عند الإنسان الإحساس بضرورة شكر المنعم الواهب، وهذا الإحساس بدوره سيدفع الإنسان ليتقرب في معرفة بارئه ومصوّره.

وشرعت الآيات بقولها: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾[1] كيف خلقه الله تعالى؟!

الغذاء من أقرب الأشياء الخارجية من الإنسان وأحد أسباب العوامل الرئيسية في بناء بدنه، ولولاه لتقطّعت أنفاس الإنسان وأسدلت ستارة نصيبه من

---

(١) يمكن اعتبار جملة «فلينظر»: جزاء شرط مقدّر، والتقدير: (إن كان الإنسان في شك من ربّه ومن البعث فلينظر إلى طعامه).

الحياة، ولذلك جاء التأكيد القرآني على الغذاء وبالذات النباتي منه من دون بقية العوامل المسخرة لخدمة هذا المخلوق الصغير في حجمه.

ومن الجلي أنّ «النظر» المأمور به في الآية جاء بصيغة المجاز، وأُريد به التأمل والتفكير في بناء هذه المواد الغذائية، وما تحويه من تركيبات حياتية، وما لها من تأثيرات مهمّة وفاعلة في وجود الإنسان، وصولاً إلى حال التأمل في أمر خالقها جلَّ وعلا.

أمّا ما احتمله البعض، من كون «النظر» في الآية هو النظر الظاهري (أي المعنى الحقيقي للكلمة)، وعلى أساس طبي، حيث إنّ النظر إلى الغذاء يثير الغدد الموجودة في الفم لإفراز موادها كي تساعد في عملية هضمه في المعدة، فيبدو هذا الاحتمال بعيداً جدّاً، لأنّ سياق الآية وبربطها بما قبلها وما بعدها من الآيات لا ينسجم مع هذا الاحتمال.

وبطبيعة الحال إنّ الذين يميلون إلى هذا الاحتمال هم علماء التغذية الذين ينظرون إلى القرآن الكريم من زاوية تخصصهم لا غير.

وقيل أيضاً: نظر الإنسان إلى غذائه في حال جلوسه حول مائدة الطعام، النظر إلى كيفية حصوله... فهل كان من حلال أم من حرام؟ هل هو مشروع أم غير مشروع؟ أي ينظر إلى طعامه من جانبيه الأخلاقي والتشريعي.

وقد ذُكر في بعض روايات أهل البيت ﷺ، إنّ المراد بـ «الطعام» في الآية هو (العلم) لأنّه غذاء الروح الإنسانية.

ومن هذه الروايات ما روي عن الإمام الباقر ﷺ في تفسير الآية، إنّه قال: «علمه الذي يأخذه عمن يأخذه»[١].

وقد روي عن الإمام الصادق ﷺ ما يشابه معنى الرواية أعلاه[٢].

وإذا كان المستفاد من ظاهر الآية هو الطعام الذي يدخل في عملية بناء الجسم، فلا يمنع من تعميمه ليشمل الغذاء الروحي أيضاً، لأنّ الإنسان في

---

(١) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٢٩.

(٢) المصدر السابق.

تركيبته مكوّن من جسم وروح، فكما أنّ الجسم يحتاج إلى الغذاء المادي فكذا الروح بحاجة إلى الغذاء المعنوي.

وفي الوقت الذي ينبغي على الإنسان أن يكون فيه دقيقاً متابعاً لأمر غذائه وباحثاً عن منبعه: وهو المطر المحيي الأرض بعد موتها (كما سيأتي في الآيات التالية)، فعليه أيضاً أن يهتم في أمر غذائه الروحي وباحثاً في منشأته، وهو غيث الوحي الإلهي النازل على قلب الحبيب المصطفى ﷺ، والذي خُزِنَ في صدور المعصومين عليهم السلام من بعده، حيث ينبع من صفحات قلوبهم الطاهرة ليسقي الموات عسى أن تثمر ألوان الثمار الإيمانية اللذيذة من فضائل أخلاقية وعقائدية.

نعم... ينبغي على الإنسان أن يكون دقيقاً في متابعة مصدر ومنبع علمه ليطمئن لغذائه الروحي، وليأمن بالنتيجة من مدلهمات الخطوب التي تؤدي لمرض الروح أو هلاكها.

وبواسطة الدلالة الإلتزامية، يستفاد من الآية المباركة ضرورة النظر في حلية وحرمة الغذاء، وذلك عن طريق قياس الأولوية.

وثَمّة مَنْ يقول: إنّ المعنى كلٍّ من «الطعام» و«النظر» من الوسع بحيث يشمل كلّ ما ذكره أعلاه، ولكن... مَنْ المخاطب في الآية؟

الجميع مخاطبون، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فعلى كلّ إنسان أن ينظر إلى طعامه ويتفكر فيما أودع فيه من أسرار وعجائب كماً وكيفيةً، وعسى الضال - والحال هذه - أن يجد ضالته فيترك طريق الضلال ويسلك طريق الحقّ، ولكي يزداد المؤمنون إيماناً.

فالأغذية بما تحمل وتقدم تعتبر عالماً مضيئاً وآيات باهرة تنير درب الباحثين عن الحق في لجج الضياع والجهالة، وتوصل الباحثين عن الأمان إلى شاطىء النجاة.

ثمّ يدخل القرآن في شرح تفصيلي لماهية الغذاء ومصدر تشكيله، فيقول: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾.

«الصب»: إراقة الماء من أعلى، وجاء هنا بمعنى هطول المطر.

و«صباً»: تأكيد، وللإشارة إلى غزارة الماء.

نعم... فالماء مصدر رئيسي للحياة، وهو على الدوام ينزل من السماء وبغزارة ليجسد لطف الله تعالى على خلقه.

كيف لا، وكلّ العيون والآبار والقنوات والأنهار قد استمدت أساس وجودها من الأمطار.

وعليه... فلا بدّ للإنسان حين ينظر إلى طعامه أن يربط ذلك بنظام المطر، ويدقق النظر في عملية تكوين الغيوم وكيفية حدوث الأمطار.

فالماء المتبخر من سطح البحار، يتجمع في الفضاء على شكل غيوم، وتتحرك تلك الغيوم بفعل الرياح إلى طبقات الجو الباردة، فتبدأ بعملية التكاثف حتى تصل لدرجة الهطول، فترى ذلك البخار وقد تحول إلى قطرات ماء زلال خال من أيّ أملاح مضرة وقد تُطَهَّرُ عن كلّ قذارة، وليستقر في آخر مطافه على الأرض ليعطيها القوة والحركة والحياة.

وبعد ذكر نعمة الماء وما له من أثر حيوي ومهم في نمو النباتات، ينتقل البيان القرآني إلى الأرض، فيقول: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾.

يذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ الآية تشير إلى عملية شقّ الأرض بواسطة النباتات التي تبدأ بالظهور على سطح الأرض بعد عملية بذر الحبوب، والعملية بحدّ ذاتها مدعاة للتأمل، إذ كيف يمكن لهذا العشب الصغير الناعم أن يفتت سطح التربة مع ما لها من صلابة وخشونة! بل ونرى في المناطق الجبلية أنّ سويقات نباتاتها وقد ظهرت من بين حافات صخورها الصلدة! فأيّ قدرة هائلة قد أودعت فيها، سبحانك يا ربّ وأنت الخلاق العليم.

وقيل: تشير الآية إلى شقّ الأرض بآلات الزراعة من قبل الإنسان، أو تشير إلى ما تقوم به الديدان من حرث الأرض وتشقيقها من خلال ممارساتها لنشاطاتها الحياتية المختصة بها.

صحيح أنّ الإنسان هو الذي يقوم بعملية الحرث، ولكنّ جميع أسبابه ووسائله من الله عزَّ وجلَّ، لذا فقد نسبت عملية شق الأرض إلى الباري جلَّ اسمه.

وثمّة تفسير ثالث يقول: إنّ شقّ الأرض في الآية إشارة إلى تفتت الصخور التي كانت على سطح الأرض.

ولهذا التّفسير مرجحات عديدة...

وتوضيح ذلك: كان سطح الكرة الأرضية مغطى بطبقة عظيمة من الصخور، وقد تشققت تلك الطبقة الصخرية بفعل غزارة هطول الأمطار المتتالية عليها، ممّا جعلتها على شكل ذرات منتشرة على معظم سطح الأرض، فتحولت إلى تربة صالحة للزراعة.

وحتى يومنا المعاش... نلاحظ قسماً كبيراً من الأتربة التي تحملها مياه الأنهار أو المصحوبة مع السيول، نلاحظها وقد كونت طبقات من التربة الصالحة للزراعة بعد أن تستقر على الأرض يتبخر الماء عنها أو تمتصه الأرض.

فالآية تمثل إحدى مفردات الإعجاز العلمي للقرآن، لأنّها تناولت موضوع الأمطار وتشقيق الأرض وتهيئتها للزراعة، بشكل علمي دقيق، والآية لم تتحدث عن شيء قد حدث، بل حدث ولا زال، ويبدو أنّ هذا التّفسير ينسجم مع ما تطرحه الآية التالية بخصوص عملية الإنبات... مع ذلك، فلا ضير من قبول التفاسير الثلاثة للآية ومن جهات مختلفة.

وبعد ذكر ركنين أساسيين في عملة الإنبات ـ أي الماء والشراب ـ ينتقل القرآن بالإشارة إلى ثمانية مصادر لغذاء الإنسان أو الحيوان: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾.

تعتبر الحبوب من الأغذية الرئيسية للإنسان والحيوان معاً، وتتوضح أهميتها فيما لو عمّ الجفاف ـ على سبيل المثال ـ فمدّة عام واحد، حيث يعمّ القحط وتنتشر المجاعة في كلّ مكان.

«حبّاً»: جاءت في الآية نكرة، لتعظيم شأنها، أو لتشير إلى تنوع أصناف الحبوب، وذهب البعض إلى أنّ الحنطة والشعير هما المرادان دون بقية الحبوب، ولكن ليس هناك دليل على هذا التخصيص، وإطلاق الكلمة يدل على شمول كلّ الحبوب.

ثمّ يضيف: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾.

وقد اختارت الآية العنب دون البقية لما أُودع فيه من مواد غذائية غنية بالمقويات، حتى قيل عنه بأنه غذاء كامل.

ومع أن «العنب» يطلق على الشجرة والثمرة، وبالرغم من ورود كلا الإستعمالين في الآيات القرآنية، لكنّ المناسب هنا الثمرة دون الشجرة.

«قضباً»: هو الخضروات التي تحصد بين فترة أُخرى، وما أُريد منها بالذات، تلك الخضروات التي تؤكل من غير طبخ (تؤكل طرية)، وقد جاء ذكرها بعد العنب لأهميتها الغذائية، وقد أكّد هذا المعنى علم التغذية الحديث.

وتستعمل كلمة (القضيب) بمعنى القطف والقطع أيضاً، و(القضيب): غصن الشجرة، و(سيف قاضب) بمعنى قاطع.

وروي عن ابن عباس قوله: إن «القضيب» في هذه الآية هو (الرطب)، ولكنّ هذا المعنى بعيد جدّاً للإشارة إلى الرطب في الآية التالية.

وقيل أيضاً: «القضيب» الوارد في الآية، بمعنى ثمار النباتات الزاحفة (كالخيار والبطيخ وما شابه)، أو النباتات الأرضية (كالبصل والجزر. . .الخ).

ولا يبعد من إرادة كلّ الخضروات التي تؤكل طرية والنباتات الزاحفة وكذا الأرضية في معنى «القضب» المشار إليه في الآية.

ثمّ يضيف: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾. ومن الواضح أنّ ذكر هاتين الفاكهتين لما لهما من الأهمية الغذائية للإنسان، حيث يعتبر الزيتون والتمر من أهم الأغذية المقوية والصحية والمفيدة للإنسان.

وتأتي المرحلة التالية: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾.

«الحدائق»: جمع (حديقة)، وهي الأرض المزروعة والمحاطة بسور يحفظها، وهي الأصل بمعنى: قطعة الأرض التي تحتوي على الماء، وسمّيت حديقة تشبيهاً بحدقة العين من حيث الهيئة وحصول الماء فيها.

ويحتمل إشارة الآية إلى أنواع الفواكه، باعتبار أنّ الحدائق غالباً ما تزرع بأشجار الفاكهة.

«غلب»: على وزن (قفل)، جمع (أغلب) و(غلباء)، بمعنى غليظ الرقبة، فالآية إذن ترمز إلى الأشجار الشاهقة المتينة.

ثمّ تضيف: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾.

«الأبّ»: (بتشديد الباء): هو المرعى المُهيأ للرعي والحصد، وهو في الأصل بمعنى «التهيؤ»، أطلق على المرعى لما فيه من أعشاب يكون بها مهيأً لاستفادة الحيوانات منه.

وذكر جمع من المفسّرين ـ من كلا الفريقين ـ في ذيل الآية: إنّ عمر بن الخطاب قرأ يوماً على المنبر: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضۡبًا ۝٢٨﴾ إلى قوله تعالى: ... ﴿غُلۡبًا﴾ قال: كلّ هذا قد عرفناه، فما الأبّ! ثمّ رمى عصاً كانت في يده، فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأبّ!! إتّبعوا ما تبيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكِلوه إلى ربّه![1].

وأغرب من ذلك، ما ورد في (الدر المنثور) عن أبي بكر حينما سئل عن ذلك، أنّه قال: (أيّ سماء تظلني وأيُّ أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم)!.

وقد اتّخذ كثير من علماء السنّة من الحديثين المذكورين على أنّه: لا ينبغي لأحد التكلُّم فيما لا يعلم، وعلى الأخص في كتاب الله.

ولكن، يبقى في الذهن إشكال... إذ كيف يكون لخليفة المسلمين أن لا يفقه كلمة وردت في القرآن الكريم، مع كونها ليست من معضلات اللغة؟!! وهذا ما يوصلنا إلى ضرورة وجود قائد إلهي في كلّ عصر، وأن يكون عارفاً بجميع المسائل الشرعية، ومنزّهاً عن الخطأ (معصوماً).

ولذلك، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، إنّه حينما سمع بما قاله الخليفة... قال: «سبحان الله أما علمَ أنّ الأبّ هو الكلأ والمرعى، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ إعتداد من الله بإنعامه على خلقه، فيما غذّاهم به، وخلقه لهم ولأنعامهم، ممّا تَحْيَى به أنفسهم وتقوم به أجسادهم»[2].

---

(١) تفسير الآية المذكورة في: تفسير روح المعاني، تفسير القرطبي، تفسير في ظلال القرآن، الدر المنثور، وتفسير الميزان.

(٢) إرشاد المفيد، ص١٠٧، وعنه تفسير الميزان، ج٢٠، ص٣١٩.

ويواجهنا سؤال: إذا كانت الآيات السابقة ذكرت بعض أنواع الفاكهة، والآية المبحوثة تناولت الفاكهة بشكل عام، هذا بالإضافة إلى ذكر الـ«حدائق» في الآية السابقة والتي قيل فيها أنّ ظاهرها يشير إلى الفاكهة... فلِمَ هذا التكرار؟

الجواب: إنّ تخصيص ذكر العنب والزيتون والتمر (بقرينة ذكر النخل)، إنّما جاء ذكرها لأهميتها المميزة على بقية الفاكهة[1].

أمّا لماذا ذكرت بشكل منفصل عن الفاكهة؟ فيمكن حمله على ما للحدائق من منافع خاصّة بها، ولا تشترك الفاكهة فيها، كجمالية منظرها وعذوبة نسيمها وما شابه ذلك، بالإضافة إلى استعمال أوراق الأشجار وجذورها وقشور جذوعها كمواد غذائية (كالشاي والزنجبيل وأمثالها)، أمّا بالنسبة للحيوانات، فأوراق الأشجار المختلفة من أفضل أغذيتها عموماً... فالآيات إذن كانت في صدد الحديث عن غذاء الإنسان والحيوان.

ولذلك... جاءت الآية التالية لتوضيح هذا المعنى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾.

و«المتاع»: هو كلّ ما يستفيد منه الإنسان ويتمتع به.

بحث

الغذاء النافع:

ذكرت الآيات المبحوثة ثمانية أنواع من المواد الغذائية النباتية لسد احتياجات الإنسان والحيوانات، وهذا التأكيد على الأغذية النباتية يعطي ما للنباتات والحبوب والفاكهة من أهميَّة غذائية تفوق في دورها على الأغذية الحيوانية التي تأتي في نظر القرآن في المرتبة الثانية من حيث الأهمية وقد اهتمَّ علماء التغذية حديثاً بما ورد في القرآن الكريم فيما يخصُّ مجال عملهم، ويكشف هذا الإهتمام بدوره عن عظمة القرآن، وقوّة ما فيه...

قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ

---

(١) بحثنا مفصّلاً موضوع الأهمية الغذائية للزيتون والعنب والتمر في هذا التفسير ضمن تفسير الآية (١١) من سورة النحل، فراجع.

وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٦-٤٨].

تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الظالمة التي عاقبها الله على ما اقترفت أيديهم فدمّر أحياءهم وأكّدت الآية الأولى هذه القضية فقالت: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ . . . .﴾. أجل تُحدِّثنا عن خرائب قصور الظلمة ومنازل الجبابرة المهدَّمة وعبدة الدنيا فلكلّ واحد منها ألف لسان يحكي لنا بسكونه المسيطر عليه ما حدث في زواياه من ظلم وفسق وجور، ويحدّثنا عن ألف حادثة وحادثة.

إنّ هذه الخرائب كتب ناطقة تتحدّث عن ماضي هؤلاء الأقوام، ونتائج أعمالهم وسلوكهم في الحياة، وعن أعمالهم المشؤومة، وأخيراً عن العقاب الذي صبّه الله عليهم!

إنّ آثار قصور الجبابرة تبعث في روح الإنسان التفكّر والإتّعاظ، حيث يعوّضنا أحياناً عن مطالعة كتاب ضخم، ومع أنّ أصل التاريخ يعيد نفسه، فإنّ هذه الآثار تجسّد للإنسان مستقبله أمام عينيه. أجل، إنّ دراسة آثار القدماء تجعل آذاننا صاغية وأنظارنا ثاقبة، ولهذا السبب يحثّ القرآن المجيد ـ في كثير من آياته ـ المؤمنين على السياحة، سياحةً إلهيّةً أخلاقيةً فيها عبرة لأنفسنا وعظة نحصّلها من دراسة إيوان المدائن وقصور الفراعنة. فمرّة نمرّ عبر دجلة إلى المدائن، وقد نسكب الدمع بغزارة دجلة على أرض المدائن، لنسمع نصائح جديدة من شقوق خرائب القصور التي كان عمّارها الملوك الجبابرة، ولنأخذ منها الدروس والعبر[١].

ولإيضاح حقيقة هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحياناً أكثر وعياً من الآخرين. أمّا العمي فهم الذين تعمى قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبداً!

---

(١) قال في الأمثل: شرحنا في تفسير الآية (١٣٧) من سورة آل عمران بإسهاب دراسة تاريخ القدماء عن طريق السياحة والسير في الأرض.

لهذا يقول الرّسول الأكرم ﷺ: «شرّ العمى، عمى القلب! وأعمى العمى عمى القلب»[١].

ونطالع حديثاً للرسول الأكرم ﷺ في كتاب غوالي اللآلي «إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عين قلبه فيشاهد بها ما كان غائباً عنه»[٢].

وهنا يثار سؤال: كيف يقال إنّ القلوب التي في الصدور تدرك الحقائق، في وقت نعلم فيه أنّ القلب مضخة للدم ليس إلّا؟!

وقد أجبنا أنّ أحد معاني القلب هو العقل، ومن معاني الصدر ذات الإنسان.

إضافةً إلى أنّ القلب مظهر العواطف، وكلّما تأثّرت العواطف والإدراكات الروحيّة في الإنسان، فإنّ أوّل أثرها ينعكس على القلب فيزداد نبضاته ويسرع الدم في جريانه، ويمنح الجسم نشاطاً وحيوية جديدة، فتنسب الظواهر الروحية إلى القلب، لأنّه أوّل من يتأثّر بها في جسم الإنسان. (فتأمّلوا جيداً).

وممّا يلفت النظر أنّ الآية المذكورة أعلاه نسبت سبل إدراك الإنسان إلى القلب (العقل) والأذنين، إشارةً إلى أنّه لا سبيل ثالث لإدراك الأشياء والحقائق. فإمّا أن يتفاعل مع الحدث في أعماق روحه ويسعى لتحليل المسائل بنفسه فيصل إلى النتيجة المتوخّاة. وإمّا أن يسمع النصيحة من المشفقين الهداة وأنبياء الله وأهل الحقّ، أو يصل إلى الحقائق عن طريق هذين السبيلين[٣].

وترسم الآية الثّانية ـ موضع البحث ـ صورة أُخرى لجهل الأغبياء وعديمي الإيمان فتقول: و﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ فردّ عليهم ألّا تعجلوا ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. و«العجول» هو من يخشى فوات الفرصة من يده، وانتهاء إمكاناتها.

أمّا الله القادر على كلّ شيء منذ الأزل، فلا حاجة له بالعجلة، فهو قادر دوماً على الوفاء بما عدَّ، فلا فرق عنده بين الساعة واليوم والسنة: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

---

(١) نور الثقلين، المجلّد الثالث، ص٥٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص٥٠٩.

(٣) عن تفسير الميزان، المجلّد الرّابع عشر، ص٤٢٦.

وسواء أكان حقاً أم باطلاً تكرارهم القول: لماذا لم ينزل الله علينا البلاء. فليعلموا أنّ العذاب يترقّبهم وسينزل عليهم قريباً. فإن أمهلهم الله، فإنّ ذلك ليعيدوا النظر في أعمالهم، وسيغلق باب التوبة بعد نزول العذاب ولا سبيل للنجاة حينذاك.

وهناك تفاسير أُخرى لعبارة: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ غير ما ذكرنا (وهو تساوي اليوم الواحد والألف سنة بالنسبة إلى قدرته تعالى) منها: قد يلزم ألف عام لإنجازك عملاً ما، والله تعالى ينجزه في يوم أو بعض يوم، لهذا فإنّ عقابه لا يحتاج إلى مقدمات كثيرة.

وتفسير آخر يقول: إنّ يوماً من أيّام الآخرة كألف عام في الدنيا، وإنّ جزاء ربّك وعقابه يزداد بهذه النسبة، لهذا نقرأ في الحديث التالي: «إنّ الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام»[١]....

---

(١) مجمع البيان، في تفسير هذه الآية.

إحياء الأرض والبركات في القرآن

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس: ٣٣-٣٦].

التّفسير

تتعرّض هذه الآية إلى قضيّة إحياء الأرض الميتة والبركات التي تعود على الإنسان من ذلك فتقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[1].

قضيّة الحياة والبقاء من أهمّ دلائل التوحيد، وهي قضيّة في واقعها معقّدة ومليئة بالألغاز وباعثة على الدهشة، إذ أنّها حيّرت عقول العلماء جميعاً، فبرغم التطور والتقدّم الحاصل في وسائل الدراسة وفي العلوم بشكل عام، لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحلّ! وحتى الآن لم يُعلم تحت تأثير أي العوامل تتحوّل موجودات ميتة إلى خلايا حيّة؟

حتى الآن، لم يعرف كيف تتكوّن طبقات خلايا البذور؟ وما هي القوانين المعقّدة التي تحكمها؟ بحيث إنّها بمجرد توفّر الشرائط المساعدة تبدأ بالتحرّك والنمو والرشد. وتستلّ من ذرّات التراب الميتة وجودها، وبهذا الطريق تتحوّل الموجودات الميتة إلى أنسجة موجودات حيّة فتعكس في كلّ يوم مظهراً مختلفاً من مظاهر حياتها ونموّها.

---

(١) وردت إحتمالات عديدة في إعراب الآية، ولكن أوضحها على ما يبدو، هو كون «آية لهم» خبر مقدّم و«الأرض الميتة» مبتدأ مؤخر، و«أحييناه» إستئنافية وهي توضيح وتفسير للجملة السابقة.

قضيّة الحياة في عالم النباتات والحيوانات وإحياء الأرض الميتة تعتبر من جانب دليلاً على وجود معلومات وقوانين دقيقة سخّرت في خلق ذلك العالم، ومن جانب آخر تعتبر دليلاً على البعث بعد الموت.

ومن الواضح أنّ الضمير في «لهم» يعود على كلمة «العباد» التي ورد ذكرها في الآيات السابقة، والمقصود من «العباد» هنا هم جميع الذين وقعوا في خطأ في تقدير مسألة المبدأ والمعاد، والذي عدّ القرآن الكريم وضعهم باعثاً على الحسرة والأسف.

تنكير «آية» إشارة إلى عظمة وأهميّة ووضوح تلك الآية التوحيدية.

جملة ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إشارة من جانب إلى أنّ الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذية، بينما بعضها غير قابل للأكل، ولكن له فوائد أُخرى كتغذية الحيوانات، وصناعة الأصباغ، والأدوية، والأُمور الأُخرى التي لها أهميّة في حياة الإنسان.

ومن جانب آخر فإنّ تقديم «منه» على «يأكلون» والذي يدلّ عادةً على الحصر، هو لبيان أنّ أكثر وأفضل تغذية للإنسان من المواد النباتية إلى درجة أنّه يمكن القول أنّ جميع غذاء الإنسان يتشكّل منها.

الآية التالية توضيح وشرح للآية الأُولى من هذه الآيات، فهي توضّح كيفية إحياء الأرض الميتة، فتقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾.

كان الحديث في الآية الأُولى عن الحبوب الغذائية، بينما الحديث هنا عن الفواكه المقوّية والمغذّية والتي يعدّ «التمر» و«العنب» أبرز وأهمّ نماذجها حيث يعتبر كلّ منهما غذاءً كاملاً.

وكما أشرنا سابقاً فقد دلّت دراسات العلماء وبحوثهم على أنّ هاتين الفاكهتين تحتويان على الفيتامينات والمواد الحياتية المختلفة واللازمة لجسم الإنسان، إضافةً إلى أنّ هاتين الفاكهتين يمكن حفظهما وتناولهما طازجتين أو مجفّفتين على مدار العام.

«أعناب» جمع «عنب» و«النخيل» ـ كما يقول الراغب في مفرداته ـ جمعه

«نَخْلٌ» ولكن باختلاف بين الكلمتين، (فالعنب) يطلق على الثمرة نفسها، ومن النادر إطلاقه على شجرة العنب ولكن «النخل» إسم للشجرة، و(الثمرة) يقال له «الرطب» أو «التمر».

يرى البعض بأنّ هذا الإختلاف في التعبير عن الفاكهتين بالإشارة إلى الشجرة مرّة وإلى الثمرة مرّة أُخرى، بسبب أنّ النخلة ـ وكما هو معروف ـ كلّها مفيدة وقابلة للإستفادة، جذعها وجريدها وسعفها وأخيراً ثمرها، في حين أنّ شجرة (الكرم) غالباً ما يستفاد من «عنبها» فقط، وأمّا ساقها وأوراقها فلا يستفاد منها إلّا قليلاً.

وأمّا ما ورد من ذكر الإثنتين بصيغة الجمع، فيبدو أنّه إشارة إلى الأنواع المختلفة لكلّ منهما، إذ أنّ كلا منهما لها عشرات الأنواع تختلف في أشكالها وخصائصها ومذاقها.

والجدير بالملاحظة ـ أيضاً ـ أنّ الحديث في هذه الآية تعرّض إلى إحياء الأرض الميتة دون أن يقرن ذلك بذكر المطر الذي عادةً ما يذكر في مثل هذه المواضع، وورد الحديث هنا عن «العيون» وذلك لأنّ المطر كاف لزراعة الكثير من المحاصيل والنباتات، في حين أنّ الأشجار المثمرة تحتاج إلى الماء الجاري أيضاً.

«فجّرنا» من مادّة «تفجير» وهو شقّ الشيء شقّاً واسعاً، ومن هنا استخدمت الكلمة للتعبير عن العيون، لأنّها تشقّ الأرض وتدفع ماءها إلى سطح الأرض[1].

الآية الثالثة تشرح وتوضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركة المثمرة فتقول: إنّ الغرض من خلقها لكي يأكلوا من ثمارها دون حاجة إلى بذل جهد في ذلك ودون تدخّل الإنسان في صناعتها... ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾.

نعم، ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها، قابلة للأكل

---

(١) من الجدير بالملاحظة أنّ الصيغة الثلاثية المجردة لها «فَجَر» بمعنى (الشق) وهنا استخدمت على وزن «تفعيل» بمعنى التكثير التشديد.

بمجرّد جنيها من أغصانها، ولا تحتاج إلى طبخ أو أيّ تغييرات أُخرى، ذلك إشارة إلى غاية لطف الله بهذا الإنسان وكرمه.

حتّى أنّ ذلك الطعام الجاهز اللذيذ، يمكن تجميعه وتعليبه لكي يحفظ لمدّة طويلة بدون أن ينقص من قيمته الغذائية شيء، على خلاف الأغذية التي يصنعها الإنسان من المواد الطبيعية التي أعطاها الله له، فهي غالباً ما تكون سريعة التلف والفساد.

ويوجد تفسير آخر أيضاً لمعنى الآية، وهو جدير بالنظر، وذلك أنّ القرآن الكريم يريد الإشارة إلى الفواكه التي يمكن الإستفادة منها دون إدخال تغيير عليها، وكذلك إلى أنواع الأغذية المختلفة التي يمكن الحصول عليها من تلك الفواكه، بالقيام ببعض الأُمور (في التفسير الأوّل تكون (ما) في الجملة النافية، بينما في التفسير الثاني تكون موصولة).

وعلى كلّ حال، فالهدف هو تحريك حسّ تشخيص الحقّ، والشكر في الإنسان، لكي يضعوا أقدامهم على أوّل طريق معرفة الله عن طريق الشكر، لأنّ شكر النعم أوّل قدم في طريق معرفته.

الآية الأخيرة من الآيات موضع البحث، تتحدّث عن تسبيح الله وتنزيهه، وتشجب شرك المشركين الذي ذكرته الآيات السابقة، وتوضّح طريق التوحيد وعبادة الأحد الصمد للجميع فتقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

نعم، فالله الذي خلق كلّ هذه الأزواج في هذا العالم الواسع، لا حدّ لعلمه وقدرته ومنزّه عن كلّ نقص وعيب، لذا فلا شريك ولا شبيه له، وإن عدّ بعض الناس الحجر والخشب الجامد الميّت نظائر له، فإنّ تلك النسبة الباطلة لا تنقص من مقام كبريائه شيئاً.

---

(١) «سبحان» على قول جماعة من المفسّرين وعلماء الأدب هي «عَلَمٌ» للتسبيح، لأنّ العَلَم (الإسم الخاصّ) يكون أحياناً للأشخاص فيسمّى «عَلَمُ الشخص»، وأحياناً للجنس فيسمّى «عَلَمُ الجنس»، وأحياناً للمعنى فيسمّى «علم المعنى» بناءً على هذا فمفهوم «سبحان» هو تنزيه وتقديس الله من كلّ عيب ونقص، تنزيهاً يتناسب وعظمة الخالق، والعَلَمُ لا يُضاف إلّا في «علم المعنى». قال البعض أيضاً أنّ «سبحان» لها معنى مصدري، ومفعول مطلق لفعل مقدّر، وفي أيّ صورة فهي تبيّن التنزيه الإلهي بأوكد وجه.

بديهي أنّ الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يسبّحه أحد، إنّما ذلك تعليم للعباد ومنهاج عملي من أجل طي طريق التكامل.

أمّا المقصود من «أزواج» هنا، فللمفسّرين أقوال كثيرة.

ما هو مسلّم به أنّ «أزواج» جمع «زوج» عادةً، تطلق على الذكر والأنثى من أي نوع، سواء كان ذلك في عالم الحيوان أو في غيره، ثمّ شمل المعنى كلّ اثنين يقترنان مع بعضهما البعض أو حتّى إذا تضادّا، حتّى الغرفتين المتشابهتين في البيت يقال لهما زوج، ودفّتي الباب وهكذا، فالمتصوّر أنّ لكلّ مخلوق زوج.

على كلّ حال فليس من المستبعد أن يكون المعنى المقصود هنا هو المعنى الخاصّ، أي جنس المذكر والمؤنث، والقرآن الكريم يُخبر من خلال هذه الآية عن وجود ظاهرة الزوجية في جميع عوالم النبات والإنسان والموجودات الأُخرى التي لم يطّلع عليها البشر.

هذه الموجودات يمكن أن تكون النباتات التي لم تحدّد سعة دائرة الزوجية فيها حتّى الآن. أو إشارة إلى الحيوانات التي تعيش في أعماق البحار، وهذه الحقيقة لم تعرف سابقاً، وما عرف منها في العصر الحاضر إلّا جانب يسير.

أو أنّها إشارة إلى موجودات أُخرى تقطن كواكب أُخرى في هذا الكون المترامي. أو موجودات حيّة لا ترى بالعين المجرّدة، وإن كان العلماء في وقتنا الحاضر يشيرون إلى أنْ ليس في تلك الموجودات الحيّة ذكر وأُنثى، ولكن عالم هذه الموجودات الحيّة غامض ومعقّد إلى درجة أنّ العلم البشري حتّى الآن لم يلج في كلّ غوامضها ومكنوناتها.

وحتّى وجود الزوجية في عالم النبات ـ كما قلنا ـ لم يكن معلوماً منها في عصر نزول القرآن سوى بعض الحالات المحدودة كما في النخل وأمثاله، وقد كشف القرآن الكريم الستار عن ذلك كلّه، وقد ثبت أخيراً من البحوث العلمية أنّ الزوجية قضيّة عامّة وشاملة في عالم النبات.

كذلك احتمل أيضاً أن تكون قضيّة الزوجية هنا إشارة إلى وجود البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة في الذرّة التي تعتبر الأساس في

تشكيل كلّ الموجودات في عالم المادّة ولم يكن الإنسان مطّلعاً على هذه الحقيقة والزوجية قبل تفجير الذرّة، ولكن بعد ذلك ثبت علمياً وجود الأزواج السالبة والموجبة في نواة الذرّة والإلكترونات التي تدور حولها.

البعض اعتبر «الزوجية» هنا إشارة إلى تركيب الأشياء من «مادة» و«صورة» أو «جوهر» و«عرض»، والبعض الآخر قالوا: إنّها كناية عن «الأصناف والأنواع المختلفة» للنباتات والبشر والحيوانات وسائر موجودات العالم.

ولكن الواضح أنّه حينما نستطيع حمل هذه الألفاظ على المعنى الحقيقي (جنس المذكّر والمؤنّث) ولا نجد قرينة على خلاف ذلك، فلا داعي لأن نبحث بعد ذلك عن المعاني الكنائية، وكما لاحظنا فإنّ هناك عدّة تفاسير جميلة للزوجية بالمعنى الحقيقي لها.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه الآية واحدة من الآيات التي توضّح محدودية علم الإنسان، وتدلّل على أنّ هناك الكثير من الحقائق الخافية علينا وعن معلوماتنا حتّى الآن.

حركة الشمس والقمر في القرآن

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

التّفسير

هذ الآيات تتحدّث في قسم آخر من آثار عظمة الله في عالم الوجود، وحلقة أُخرى من حلقات التوحيد التي مرّ منها في الآيات السابقة ما يتعلّق بالمعاد وإحياء الأرض الميتة، ونمو النباتات والأشجار.

تقول الآية الكريمة الأُولى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

«نسلخ» من مادّة (سلخ) وتعني في الأصل نزع جلد الحيوان، والتعبير في الآية تعبير لطيف، فكأنّ نور النهار لباس أبيض ألبسه جسد الليل، يُنزع عنه إذا حلّ الغروب ليبدو لونه الذاتي، والتأمّل في هذا التعبير يوضّح هذه الحقيقة، وهي أنّ الظلام هو الطبيعة الأصل للكرة الأرضية، وأنّ النور والإضاءة صفة عارضة عليها تأتيها من مصدر آخر، فهو كاللباس الذي يرتدى، وحينما يُخلع ذلك الثوب، يظهر اللون الطبيعي للبدن[1].

---

(١) الراغب في «المفردات» يقول: السلخ نزع جلد الحيوان، يقال سلخته فانسلخ، وعنه استعير سلخت درعه نزعتها، وسلخ الشهر وانسلخ، ولكن بعض المفسّرين يقولون: إنّ ذلك في حالة تعدّي «سلخ» بحرف الجرّ «عن» وإذا تعدّى بالحرف «من» يكون بمعنى الإخراج، ولكن ليس من دليل واضح في كتب اللغة على هذا التفاوت ـ على ما نعلم ـ وإن كان «لسان العرب» يقول: «إنسلخ النهار من الليل خرج منه خروجاً» والظاهر أنّ هذا مأخوذ من المعنى الأوّل.

هنا يشير القرآن الكريم إلى ظلمة الليل، كأنّه يريد ـ بعد أن تعرّض إلى كيفية إحياء الأرض الميتة كآية من آيات الله في الآيات السابقة ـ أن يعرض نموذجاً عن الموت بعد الحياة من خلال مسألة تبديل النور بظلمة الليل.

على كلّ حال، فعندما يستغرق الإنسان في ظلمة الليل، ويتذكّر النور وبركاته ونشاطه ومنبعه يتعرّف ـ بتأمل يسير ـ على خالق النور والظلام.

الآية التي بعدها تتعرّض إلى النور والإضاءة وتذكر الشمس فتقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾[1].

هذه الآية تبيّن بوضوح حركة الشمس بشكل مستمر، أمّا ما هو المقصود من تلك الحركة؟ فللمفسّرين أقوال متعدّدة:

قال بعضهم: إنّ ذلك إشارة إلى حركة الشمس الظاهرية حول الأرض، تلك الحركة التي ستستمر إلى آخر عمر العالم الذي هو نهاية عمر الشمس ذاتها.

وقال آخرون: إنّه إشارة إلى ميل الشمس في الصيف والشتاء نحو الشمال والجنوب على التوالي، لأنّنا نعلم بأنّ الشمس تميل عن خطّ اعتدالها في بدء الربيع بطرف الشمال، لتدخل في مدار (٢٣) درجة شمالاً، وتعود مع بدء الصيف قليلاً قليلاً حتّى تنتهي إلى خطّ اعتدالها عند بداية الخريف وتستمر على خطّ اعتدالها حتّى تبلغ ذلك عند بدء الربيع. وبديهي أنّ جميع تلك الحركات في الواقع ناجمة عن حركة الأرض حول الشمس وانحرافها عن خطّ مدارها، وإن كانت ظاهراً تبدو وكأنّها حركة الشمس.

وآخرون اعتبروا الآية إشارة إلى حركة الشمس الموضعية بالدوران حول نفسها، حين أثبتت دراسات العلماء بشكل قطعي أنّ الشمس تدور حول نفسها[2].

وآخر وأحدث التفاسير التي ظهرت بخصوص هذه الآية، هو ما كشفه العلماء أخيراً من حركة الشمس مع منظومتها باتّجاه معيّن ضمن المجرة التي تكون المجموعة الشمسية جزءاً منها، وقيل إنّ حركتها باتّجاه نجم بعيد جدّاً أطلقوا عليه اسم «وجا».

---

(١) هذه الجملة لها إعرابان، فإمّا أن تكون معطوفة على «الليل» والتقدير «وآية لهم الشمس»، وإمّا أن تكون مبتدأ وخبر، فالشمس مبتدأ و(تجري) خبر، وقد اخترنا الإعراب الأوّل.

(٢) طبق هذا التفسير فإنّ (اللام) في «لمستقر لها» بمعنى «في» ويكون التقدير «في مستقر لها».

كلّ هذه المعاني المشار إليها لا تتضارب فيما بينها، ويمكن أن تكون جملة «تجري» إشارة إلى جميع تلك المعاني ومعاني أُخرى لم يصل العلم إلى كشفها، وسوف يتمّ كشفها في المستقبل.

وعلى كلّ حال، فإنّ حركة كوكب الشمس الذي يعادل مليون ومائتي ألف مرّة حجم الأرض، بحركة دقيقة ومنظمة في هذا الفضاء اللامتناهي، ليس مقدوراً لغير الله سبحانه الذي تفوق قدرته كلّ قدرة وبعلمه اللامتناهي، لذا فإنّ الآية تضيف في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

أمّا آخر ما قيل في تفسير هذه الآية فهو أنّ تعبير الآية يشير إلى نظام السنّة الشمسية الناشيء عن حركة الشمس عبر الأبراج المختلفة، ذلك النظام الذي يعطي لحياة الإنسان نظاماً وبرنامجاً معيّناً يؤدّي إلى تنظيم حياته من مختلف النواحي.

لذا فإنّ الآية التالية تتحدّث عن حركة القمر ومنازله التي تؤدّي إلى تنظيم أيّام الشهر، وذلك لأجل تكميل البحث السابق، فتقول الآية: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾.

المقصود بـ(المنازل) تلك المستويات الثمانية والعشرون التي يطويها القمر قبل الدخول في «المحاق» والظلام المطلق. لأنّ القمر يمكن رؤيته في السماء إلى اليوم الثامن والعشرين، ولكنّه يكون في ذلك اليوم هلالا ضعيفاً مائلاً لونه إلى الإصفرار، ويكون نوره قليلاً وشعاعه ضعيفاً جدّاً، وفي الليلتين الباقيتين من الثلاثين يوماً تنعدم رؤيته تماماً ويقال: إنّه في دور (المحاق)، ذلك إذا كان الشهر ثلاثين يوماً، أمّا إذا كان تسعة وعشرين يوماً، فإنّ نفس هذا الترتيب سيبدأ من الليلة السابعة والعشرين ليدخل بعدها القمر في (المحاق).

تلك المنازل محسوبة بدقّة كاملة، بحيث إنّ المنجّمين منذ مئات السنين يستطيعون أن يتوقّعوا تلك المنازل ضمن حساباتهم الدقيقة.

هذا النظام العجيب ينظّم حياة الإنسان من جهة، ومن جهة أُخرى فهو تقويم سماوي طبيعي لا يحتاج إلى تعلّم القراءة والكتابة لمتابعته. بحيث إنّ أيّ إنسان يستطيع بقليل من الدّقة والدراية في أوضاع القمر خلال الليالي المختلفة. . . يستطيع بنظرة واحدة أن يحدّد بدقّة أو بشكل تقريبي أيّ ليلة هو فيها.

ففي الليلة الأولى يظهر الهلال الضعيف وطرفاه إلى الأعلى، ويزداد حجمه ليلة بعد ليلة حتّى الليلة السابعة حيث تكتمل نصف دائرة القمر، ثمّ تستمر الزيادة حتّى تكتمل الدائرة الكاملة للقمر في الليلة الرابعة عشرة ويسمّى حينئذٍ «بدراً». ثمّ يبدأ بالتناقص تدريجياً حتّى الليلة الثامنة والعشرين حيث يصبح هلالاً باهتاً يشير طرفاه إلى الأسفل.

نعم، فإنّ النظم يشكّل اساس حياة الإنسان، والنظم بدون التعيين الدقيق للزمن ليس ممكناً، لذا فإنّ الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا هذا التقويم الدقيق للشهور والسنين في كبد السماء.

بعد استعراضنا لأشكال القمر ومنازله يتّضح تماماً معنى الجملة التالية: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(١).

وفي الحقيقة فإنّ الشبه بين العرجون والهلال من جوانب عديدة: من ناحية الشكل الهلالي، ومن ناحية اللون الأصفر، والذبول، وإشارة الأطراف إلى الأسفل، وكونه وسط دائرة مظلمة تكون في حالة العرجون منسوبة إلى سعف النخل الأخضر، وبالنسبة للهلال منسوبة إلى السماء المظلمة.

والوصف بـ(القديم) إشارة إلى كون العرجون عتيقاً، فكلّما مرّ عليه زمن وتقادم أكثر أصبح ضعيفاً وذابلاً واصفرّ لونه وأصبح يشبه الهلال كثيراً قبل دخوله المحاق.

وسبحان الله فقد تضمّن تعبير واحد قصير كلّ تلك الظرافة والجمال؟

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تتحدّث عن ثبات ودوام ذلك النظم في السنين والشهور، والنهار والليل، فقد وضع الله سبحانه وتعالى لها نظاماً وبرنامجاً لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو اختلال في وضعها وحركتها، وبهذا

---

(١) «عرجون» كما قال أغلب المفسّرين وأهل اللغة: من الإنعراج وهو الإعوجاج والإنعطاف، وعليه فالنون زائدة وهو على وزن فعلون، ويعتقد آخرون أنّه مأخوذ من «عرجن» فالنون ليست زائدة، وبمعنى: أصل عنقود الرطب المتّصل بالنخلة، وتوضيح ذلك أنّ الرطب يظهر على شكل عنقود من النخلة، وأصل ذلك العنقود يكون على شكل مقوّس أصفر اللون يبقى معلّقاً في النخلة، و«قديم» بمعنى العتيق الذي مضى زمنه.

ثبت تاريخ البشر وانتظم بشكل كامل، تقول الآية: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

من المعلوم أنّ الشمس تطوي في دورانها خلال العام الأبراج الإثني عشر، في حين أنّ القمر يطوي منازله خلال شهر واحد، وعليه فحركة القمر أسرع من حركة الشمس في مدارها إثنتي عشرة مرّة، لذا فإنّ الآية تقول بأنّ الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرك القمر في حركته فتقطع في شهر واحد ما تقطعه في سنة واحدة. وبهذا يختلّ النظام السنوي لها.

كما أنّ الليل لا يتقدّم على النهار، بحيث يدخل جزء منه في النهار، فيختلّ النظام الموجود، بل إنّهما ـ على مدى ملايين السنين ـ ثابتان على مسيرهما دون أدنى تغيير.

يتّضح ممّا قلنا أنّ المقصود من حركة الشمس في هذا البحث، هي الحركة بحسب حسّنا بها، والملفت للنظر هنا، هو أنّ هذا التعبير عن حركة الشمس ظلّ يستعمل حتّى بعد أن ثبت للجميع بأنّ الشمس هي المركز الثابت لحركة الأرض حولها، فمثلاً يقال: إنّ الشمس قد تحوّلت إلى برج الحمل، أو يقال: وصلت الشمس إلى دائرة نصف النهار، أو أنّ الشمس بلغت الميل الكامل (الميل الكامل هو بلوغ الشمس إلى أقصى نقطة إرتفاع لها في نصف الكرة الأرضية الشمالي في بداية الصيف أو بالعكس أدنى نقطة إنخفاض في بداية الشتاء).

هذه التعبيرات تدلّل دوماً على أنّه حتّى بعد أن تمّ الكشف عن دوران الأرض حول الشمس وثبات الأخيرة ظلّت تستخدم، لأنّ النظر الحسّي يستشعر حركة الشمس وثبات الأرض، ومن هنا تستعمل هذه التعبيرات، وعلى هذا أيضاً يكون قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

كذلك يحتمل أن يكون المقصود من (السباحة) هنا حركة الشمس في فلكها مع المنظومة الشمسية والمجرّة التي نحن فيها، حيث إنّ الثابت علمياً حالياً أنّ المنظومة الشمسية التي نعيش فيها جزء من مجرّة عظيمة هي بدورها في حالة دوران. إذ أنّ «فلك» كما يقول أرباب اللغة بمعنى: بروز واستدارة ثدي البنت، ثمّ أطلقت على القطعة المدوّرة من الأرض أو الأشياء المدوّرة الأخرى أيضاً، ومنه أطلق على مسير الكواكب الدوراني.

جملة ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ في اعتقاد الكثير من المفسّرين، إشارة إلى كلّ من الشمس والقمر والنجوم الأخرى التي تتّخذ لنفسها مسارات ومدارات، وإن لم يرد ذكر النجوم في الآية، ولكن بملاحظة ذكر «الليل» واقتران ذكر النجوم مع القمر والشمس، لا يستبعد المعنى المذكور، خاصّة وأنّ «يسبّحون» ورد بصيغة الجمع.

وكذلك يحتمل أن تكون الجملة إشارة إلى كلّ من الشمس والقمر والليل والنهار، لأنّ كلا من الليل والنهار له مدار خاص، ويدور حول الأرض بدقّة، فالظلام يغطّي نصف الكرة الأرضية دوماً، والنور يغطّي النصف الآخر منها، وهما يتبادلان المواضع خلال أربع وعشرين ساعة ويتمّان دورة كاملة حول الأرض.

«يسبحون» من مادة «سباحة» وهي كما يقول «الراغب» في المفردات: المرّ السريع في الماء والهواء. واستعير لحركة النجوم في الفلك والتسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المرّ السريع في عبادة الله! ولذا فإنّها في الآية إشارة إلى الحركة السريعة للأجرام السماوية، والآية تشبهها بالموجودات العاقلة المستمرة في دورانها، وقد ثبت حالياً أنّ الأجرام السماوية تنطلق بسرعة هائلة في الفضاء.

بحوث

١ ـ حركة الشمس (الدورانية) و(الجريانية):

«الدوران» لغةً يطلق على الحركة المغزلية، في حال أنّ «الجريان» يطلق على الحركة الطولية، والملفت للنظر أنّ الآيات أعلاه، نسبت الحركتين إلى الشمس، فقالت ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾... و﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

كانت المحافل العلمية أيّام نزول الآية متمسّكة بنظرية «بطليموس» التي كانت تقول بأنّ الأجرام السماوية ليس فيها حركة دورانية، بل إنّ باطن الأفلاك التي تتكوّن من أجسام بلّورية متراكمة على بعضها البعض كتراكم طبقات البصلة وثابتة، وحركتها تتبع حركة أفلاكها، وعليه فلم يكن في تلك الأيّام معنى لا لجريان الشمس ولا غيره.

أمّا بعد أن تداعت الأُسس التي تقوم عليها فرضية بطليموس في ضوء الاكتشافات الجديدة في القرون الأخيرة، وتحرّرت الأجرام السماوية من قيد الأفلاك البلورية، فقد قويت نظرية كون الشمس هي مركز المنظومة الشمسية، وهي ثابتة وجميع المنظومة الشمسية تدور حولها.

هنا أيضاً لم تكن تعبيرات الآيات أعلاه مفهومة فيما يتعلّق بحركة الشمس الطولية والدورانية حتّى أثبت العلم بتطوّره عدّة حركات للشمس في العقود الأخيرة وهي:

حركة الشمس الموضعية حول نفسها.

حركة الشمس الطولية مع المنظومة الشمسية باتّجاه نقطة محدّدة في السماء.

وحركتها الدورانية مع المجرّة التي تتبعها وبهذا ثبتت معجزة علمية أُخرى للقرآن.

قال في الأمثل: ولتوضيح هذه المسألة نورد ما ورد في إحدى دوائر المعارف حول حركة الشمس:

للشمس حركة ظاهرية وأُخرى واقعية، وتشترك الشمس في الحركة الظاهرية ـ اليومية ـ فهي تشرق من مشرق نصف الكرة الأرضية الذي نعيش فيه، وتمرّ في طرف الجنوب من نصف النهار ثمّ تغرب من المغرب، وعبورها من نصف النهار يشخّص الظهر الحقيقي ـ الزوال ـ.

وللشمس أيضاً حركة ظاهرية أُخرى ـ سنوية ـ حول الأرض بحيث إنّها تقترب من المشرق درجة واحدة كلّ يوم، وفي هذه الحركة تمرّ الشمس مقابل الأبراج مرّة واحدة كلّ عام، ومدار هذه الحركة يقع على صفحة «دائرة البروج» ولهذه الحركة أهمّية عظمى في علم الفلك، فظاهرة «الإعتدالين» و«الإنقلاب» و«الميل الكلي» كلّها مرتبطة بهذا العلم، وعلى أساس ذلك يحسب العام الشمسي.

علاوةً على هذه الحركات الظاهرية فإنّ للشمس حركة دورانية في المجرّة، فالشمس تنطلق بسرعة دورانية في الفضاء تعادل مليون ومائة وثلاثين ألف كيلومتر في الساعة!! وفي داخل المجرّة فهي ليست ثابتة أيضاً، بل إنّها تدور

بسرعة تقارب إثنين وسبعين ألف كليومتر في الساعة ضمن المجموعة النجمية المسمّاة «الجاثي على ركبتيه»[١].

وعدم علمنا بتلك الحركة السريعة للشمس هو بُعد الأجرام السماوية، والذي هو المانع من تشخيص تلك الحركة الموضعية أيضاً.

دورة الحركة الوضعية للشمس على محورها تستغرق حدود الخمسة وعشرين يوماً بلياليها[٢].

٢ ـ تعبير «تدرك» و«سابق»:

إنّ التعبيرات القرآنية استعملت بدقّة متناهية لا يمكن الإحاطة بجميع أبعادها. ففي الآيات أعلاه حينما تتحدّث عن الحركة الظاهرية للقمر والشمس خلال المسيرة الشهرية والسنوية تقول: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾. إذ أنّ القمر ينهي مسيرته في شهر واحد بينما الشمس في عام كامل.

أمّا حينما تحدّثت عن الليل والنهار قالت: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ لعدم وجود فاصلة بينهما ولتعاقبهما. فالتعابير غاية في الدقّة.

٣ ـ نظام النور والظلام في حياة البشر:

تعرّضت الآيات أعلاه إلى موضوعين من أهمّ المواضيع المتعلّقة بحياة البشر. على أنّهما آيتان من آيات الله وهما مسألة ظلمة الليل ومسألة الشمس ونورها.

قلنا سابقاً إنّ النور من ألطف وأكثر موجودات العالم المادّي بركة. وليس لإضاءتنا ومعيشتنا فقط فكلّ حركة ونشاط مرتبط بنور الشمس، نزول قطرات المطر، نمو النباتات، تفتّح البراعم، نضوج الثمار والفواكه، خرير الجداول،

---

(١) «الجاثي على ركبتيه»: مجموعة من النجوم التي تتشاكل فيما بينها لترسم صورة شخص جاث على ركبتيه، ومنه أخذت التسمية.

(٢) أي أنّ الشمس في كلّ خمس وعشرين يوماً من أيامنا تدور دورة واحدة حول نفسها، وقد شُخصت هذه المسألة من مراقبة العلماء للبقع الموجودة على سطح الشمس، فقد لوحظ أنّها تتبادل مواقعها ثمّ تعود كما كانت خلال هذه المدّة.

تلوين مائدة الطعام بأنواع المواد الغذائية، وحتّى حركة عجلة المصانع العظيمة، وتوليد الطاقة الكهربائية، وأنواع المنتجات الصناعية، كلّها تعود في أصلها إلى هذا المنبع العظيم للطاقة، أي نور الشمس.

وخلاصة القول، فإنّ جميع الطاقات على سطح الكرة الأرضية ـ عدا الطاقة الناجمة عن تفجير الذرّة ـ جميعها تستمدّ وجودها من نور الشمس، ولولا الأخير لخيّم الصمت والموت على كلّ مكان.

ظلمة الليل مع أنّها تذكر بالموت والفناء، فإنّها تعدّ من الأمور الحياتية الهامّة في حياة البشر، لأنّها تعدل نور الشمس وتؤثّر عميقاً في راحة جسم وروح الإنسان، والمنع من المخاطر الناجمة عن تسلّط أشعّة الشمس بشكل متواصل ومستمر، بحيث لو لم يكن الليل عقيب النهار لارتفعت درجة الحرارة على سطح الأرض إلى درجة أنّ الأشياء جميعاً تأخذ بالإشتعال والاحتراق، كذلك في القمر حين الليالي والأيّام طويلة (كلّ ليلة هناك تعادل حوالى خمسة عشر يوماً بلياليها على الأرض، كذلك الحال بالنسبة للنهار) فحرارة النهار قاتلة، وبرودة مجمّدة.

وعليه فإنّ كلا من «النور والظلام» آية إلهية عظيمة.

ناهيك عن أنّ النظام المتناهي الدقّة الذي يحكمهما، أدّى إلى تنظيم تأريخ حياة البشر، ذلك التاريخ الذي لولا وجوده لتفتتت الروابط الإجتماعية، وأصبحت الحياة بالنسبة إلى البشر أشبه بالمستحيل، وبذا فإنّ كلا من «النور والظلام» آيتان إلهيتان من هذه الناحية أيضاً.

والملفت للنظر هنا هو قول القرآن الكريم: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾. وهذا التعبير يدلّل على أنّ النهار خلق قبل الليل، والليل بعده تماماً، فلو أنّ أحداً نظر من خارج الكرة الأرضية فسيرى موجودين أسود وأبيض يدوران بشكل مرتّب حول الأرض، وفي مثل هذه الحركة الدائرية لا يمكن تصوّر القبل والبَعْد فيها. ولكن إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّ الأرض التي نعيش عليها كانت يوماً ما جزءاً من الشمس، وفي ذلك الوقت لم يكن سوى النهار، ولا وجود للّيل، ثمّ بعد أن انفصلت الكرة الأرضية عن الشمس وابتعدت تكون لها ظلّ

مخروطي الشكل من الجهة المخالفة للشمس فكأنّ الليل، الليل الذي أصبحت حركته بعد النهار، نعم، لو توجّهنا لكلّ ذلك لاتّضحت دقّة ولطافة هذا التعبير.

وكما قلنا سابقاً فليس الشمس والقمر وحدهما يسبحان في هذا الفضاء المترامي، بل إنّ الليل والنهار أيضاً يسبحان حول الكرة الأرضية، وكلّ منهما له مدار ومسير دائري.

وقد ورد في روايات متعدّدة عن أهل البيت عليهم السلام التصريح بأنّ الله سبحانه وتعالى خلق النهار قبل الليل، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال جواباً على سؤال في حديث طويل: «نعم خلق النهار قبل الليل، والشمس والقمر والأرض قبل السماء»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «فالنهار خلق قبل الليل وفي قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي قد سبقه النهار»[2].

وورد نفس المعنى عن الإمام الباقر عليه السلام حين قال: «إن الله عزّ وجلّ خلق الشمس قبل القمر، وخلق النور قبل الظلمة»[3].

(١) نور الثقلين، ج٤، ص٣٨٧، ح٥٥.
(٢) نور الثقلين.
(٣) نور الثقلين.

الفجر الجديد في القرآن

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر: ١-٥].

التّفسير

والفجر... !

بدأت السورة بخمسة أقسام:

الأوّل: ﴿وَالْفَجْرِ﴾... **والثاني:** ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

«الفجر»: في الأصل، بمعنى الشقّ الواسع، وقيل للصبح «الفجر» لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.

وكما هو معلوم فالفجر فجران، كاذب وصادق.

الفجر الكاذب: هو الخيط الأبيض الطويل الذي يظهر في السماء، ويشبّه بذنب الثعلب، تكون نقطة نهايته في الأفق، وقسمه العريض في وسط السماء.

الفجر الصادق: هو النور الذي يبدأ من الأفق فينتشر، وله نورانية وشفافية خاصة، كنهر من الماء الزلال يغطي أفق الشرق ثمّ ينتشر في السماء.

ويعلن الفجر الصادق عن انتهاء الليل وابتداء النهار، وعنده يمسك الصائمون، وتصلى فريضة الصبح.

وفُسّر «الفجر» في الآية بمعناه المطلق، أي: بياض الصبح.

ولا شك فهو من آيات عظمة الله سبحانه وتعالى، ويمثل انعطافاً في حركة حياة الموجودات الموجودة على سطح الأرض، ومنها الإنسان، ويمثل كذلك حاكمية النور على الظلام، وعند مجيئه تشرع الكائنات الحيّة بالحركة والعمل، ويعلن انتهاء فترة النوم والسكون.

وقد أقسم الله تعالى ببداية حياة اليوم الجديد.

وفسّره بعض، بفجر أوّل يوم من محرم وبداية السنة الجديدة.

وفسّره آخرون، بفجر يوم عيد الأضحى، لما فيه من مراسم الحج المهمّة ولاتصاله بالليالي العشر الأولى من ذي الحجة.

وقيل أيضاً: إنّه فجر أوّل شهر رمضان المبارك، أو فجر يوم الجمعة.

ولكنّ مفهوم الآية أوسع من أن تحدد بمصداق من مصاديقها، فهي تضم كلّ ما ذكر.

وذهب البعض إلى أوسع ممّا ذكر حينما قالوا: هو كلّ نور يشع وسط ظلام... وعليه، فبزوغ نور الإسلام ونور المصطفى ﷺ في ظلام عصر الجاهلية هو من مصاديق الفجر، وكذا بزوغ نور قيام المهدي (عج) في وسط ظلام العالم (كما جاء في بعض الرّوايات)[1].

ومن مصاديقه أيضاً، ثورة الحسين ﷺ في كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بني أميّة، وتعرية نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقي أمام الناس.

ويكون من مصاديقه، كلّ ثورة قامت أو تقوم على الكفر والجهل والظلم على مرّ التاريخ.

وحتى انقداح أوّل شرارة يقظة في قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة، فهو «فجر».

وممّا لا شك فيه أنّ المعاني هي توسعة لمفهوم الآية، أمّا ظاهرها فيدل على«الفجر» المعهود.

والمشهور عن «ليال عشر»: إنّهن ليالي أوّل ذي الحجّة، التي تشهد أكبر اجتماع عبادي سياسي لمسلمي العالم من كافة أقطار الأرض، (وورد هذا المعنى فيما رواه جابر بن عبدالله الأنصاري عن النبي ﷺ)[2].

وقيل: ليالي أوّل شهر محرم الحرام.

---

(١) راجع تفسير البرهان، ج٤، ص٤٥٧، الحديث: ١.

(٢) تفسير أبو الفتوح الرازي، ج١٢، ص٧٤.

وقيل أيضاً: ليالي آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر.

والجمع بين كلّ ما ذُكر ممكن جدّاً.

وذكر في بعض الرّوايات التي تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو «المهدي المنتظر» (عجل)... و«ليال عشر» هم الأئمة العشر قبله عليهم السلام... و«الشفع» ـ في الآية ـ هما عليّ وفاطمة عليهما السلام.

وعلى أيّ حال، فالقسم بهذه الليالي يدلّ على أهميّتها الإستثنائية نسبة لبقية الليالي، وهذا هو شأن القسم[1]، ولا مانع من الجمع بين كلّ ما ذكر من معان.

ويأتي القسم الثّالث والقسم الرّابع: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾.

للمفسّرين آراء كثيرة فيما أُريد بـ «الشفع والوتر» حتى ذكر بعضهم عشرين قولاً[2]، فيما ذهب آخرون لذكر (٣٦) قولاً في ذلك[3].

وأهم تلك الأقوال، ما يلي:

١ ـ مراد الآية العددان الزوجي والفردي، فيكون القسم بجميع الأعداد، تلك الأعداد التي تدور عليها وبها كلّ المحاسبات والأنظمة والمغطية لجميع عالم الوجود، وكأنّه سبحانه وتعالى يقول: قسماً بالنظم والحساب.

وحقيقة الحساب والنظم في عالم الوجود، تمثل الأُسس الواقعية التي تقوم عليها الحياة الإنسانية.

٢ ـ المراد بـ «الشفع» المخلوقات، لوجود قرين لكلّ منها، والمراد بـ «الوتر» الباري جلّ شأنه، لعدم وجود شبيه له ولا نظير.

إضافة إلى أنّ الممكنات تتركب من (ماهية) و(وجود)، وهو ما يعبّر عنه بالفلسفة بـ (الزوج التركيبي)، أمّا الوجود المطلق الخالي من الماهية فهو «الله» وحده، (وأشارت بعض الرّوايات المنقولة عن المعصومين عليهم السلام إلى ذلك)[4].

---

(١) جاءت «ليال عشر» بصيغة النكرة للدلالة على عظمتها وأهميتها، وإلّا فهي تنطبق على كلّ ما ذكر أعلاه.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج٣١، ص١٦٤.

(٣) نقل ذلك كلّ من: العلامة الطباطبائي في الميزان عن بعض المفسّرين في الجزء ٢٠، ص٤٠٥. وفي كتاب روح المعاني عن كتاب التحرير والتحبير، ج٣٠، ص١٢٠.

(٤) روى ذلك أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم راجع مجمع البيان، ج١٠، ص٤٨٥.

٣ ـ المراد بـ «الشفع والوتر» جميع المخلوقات، لأنّها من جهة بعضها زوج والبعض الآخر فرد.

٤ ـ المراد بـ «الشفع والوتر» الصلاة، لأنّ بعضها زوجي والبعض الآخر فردي، (وورد هذا المعنى في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام أيضاً). . . أو هما ركعتي الشفع وركعة الوتر في آخر صلاة الليل.

٥ ـ المراد بـ «الشفع» يوم التروية (الثامن من شهر ذي الحجة، حيث يستعد الحجاج للوقوف على جبل عرفات)، و«الوتر» يوم عرفة (حيث يكون حجاج بيت الله الحرام في عرفات. . . أو «الشفع هو يوم عيد الأضحى (العاشر من ذي الحجّة، و«الوتر» هو يوم عرفة).

ووردت الإشارة إلى هذا المعنى في روايات أهل البيت عليهم السلام أيضاً[1].

والمهم. . . إنّ الألف واللام في «الشفع والوتر» إن كانا للتعميم، فكلّ المعاني تجتمع فيهما، وكلّ معنى سيكون مصداقاً من مصاديق «الشفع والوتر»، ولا داعي والحال هذه إلى حصر التّفسير بإحدى المعاني المذكورة، بل كلّ منها تطبيق على مصداق بارز.

أمّا إذا كانا للتعريف، فستكون إشارتهما إلى زوج وفرج خاصين، وفي هذه الحال سيكون تفسيران من التفاسير المذكورة أكثر من غيرهما مناسبة وقرباً مع مراد الآية، وهما:

الأوّل: المراد بهما يومي العيد وعرفة، وهذا ما يناسب ذكر الليالي العشر الأولى من شهر ذي الحجّة، وفيهما تؤدى أهم فقرات مناسك الحج.

الثّاني: أنّهما يشيران إلى «الصلاة» بقرينة ذكر «الفجر»، وهو وقت السحر ووقت الدعاء والتضرع إلى الله عزّ وجلّ.

وقد ورد هذان التّفسيران في روايات عن أئمّة أهل البيت المعصومين عليهم السلام.

ونصل هنا، إلى القسم الخامس: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[2].

---

(١) روى ذلك أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم راجع مجمع البيان، ج١٠، ص٤٨٥.

(٢) «يسر» في الأصل (يسري) من (السري)، وحذفت الياء للتخفيف، ولمناسبة الآيات السابقة.

فما أدقّ هذا التعبير وأجمله؟! فقد نسب السير إلى الليل، وذلك لأنّ «يسر» من (سرى) وهو السير ليلاً على قول الراغب في مفرداته.

وكأنّ الوصف يقول: بأنّ الليل موجود حسي، له حس وحركة، وهو يخطو في ظلمته وصولاً لنور النهار.

نعم، قسماً بالظلام السائر نحو النور، قسماً بالظلام المتحرك، لا الثابت الذي يثير الخوف والرعب في الإنسان، والليل يكون ذا قيمة فيما لو كان سائراً نحو النور.

وقيل: هو ظلمة الليل التي تتحرك على سطح الكرة الأرضية، والليل نافع بحركته وتناوبه مع النهار على سطح الأرض، لينعم نصفها بالسبات والنوم، وينعم النصف الآخر بالحركة والعمل تحت نور الشمس الرائع.

اختلف المفسّرون في مراد الآية من «الليل»، هل هو مطلق الليل أم ليلة مخصوصة، فإن كانت الألف واللام للتعميم فجيمع الليالي، كآية من آيات الله ومظهر من مظاهر الحياة المهمّة.

وإن كانت الألف واللام للتعريف، فليلة عيد الأضحى، بلحاظ الآيات السابقة، حيث يتّجه حجاج بيت الله الحرام من (عرفات) إلى (المزدلفة) ـ المشعر الحرام ـ ويقضون ليلهم في ذلك الوادي المقدّس، وعند الصبح يتّجهون نحو (منى).

(وقد ورد في هذا روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام)[1].

والذين حضروا مثل تلك الليلة في عرفات ومشعر، قد رأوا كيف يتحرك أكثر من مليون مسلم وهم متجهون من عرفات إلى المشعر وكأن الليل بكلّه يتحرك وتشاطره في ذلك الأرض وكذا الزمان.

وهناك من يتلمّس الإنسان معنى ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ بكلّ دقائقه.

وعلى أيّ حال، فالليل سواء كان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آيات عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وهو من الضرورات الحياتية في عالم الوجود.

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٥٧١.

فالليل يُكيّف حرارة الجو، ويعم على جميع الكائنات الإستقرار والسكون بعد جهد الحركة والتنقل، وفوق هذا وذاك ففيه أفضل أوقات الدعاء والمناجاة مع الله جلّ وعلا.

وأمّا ليلة عيد الأضحى (ليلة الجمع) فهي من أعجب الليالي في ذلك الوادي المقدس (المشعر الحرام).

وتتجسّد تلك العلاقة الموجودة بين الأشياء الخمس التي أقسم بها (الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر) إذا ما اعتبرناها ضمن أيّام ذي الحجّة ومراسم الحج العظيمة.

وفي غير هذا فسيكون إشارة إلى مجموعة من حوادث عالم التكوين والتشريع المهمّة، والتي تبيّن جلال وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ثمّ تأتي الآية التالية لتقول: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾.

«الحجر» هنا بمعنى: العقل، وفي الأصل بمعنى (المنع)، كأن يقال: حجر القاضي فلاناً، أو كأن يطلق على الغرفة (حجرة) لأنّها محل محفوظ ويمنع دخوله من قبل الآخرين، وكذلك يقال للحضن (حجر) ـ على وزن فكر ـ لحفظه وإحاطته، وأطلق على العقل (حجر) لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئة، كما أنّ مصطلح (العقل) هو بمعنى (المنع) أيضاً، ومنه (العقال) الذي به تربط رجل البعير ليمنعه من الحركة.

ولكن.... أين جواب القسم؟

ثمّة احتمالان هما:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

الثّاني: جواب القسم محذوف وتدلّ عليه الآيات التالية، التي تتحدث عن عقاب الطغاة والتقدير: (قسماً بكلّ ما قلناه لنعذّبن الكافرين والطغاة) (الأمثل)..

تسبيح الله في القرآن

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى: ١-٥].

التّفسير

تسبيح الله:

تبدأ السورة بخلاصة دعوة الأنبياء عليهم السلام، حيث التسبيح والتقديس أبداً لله الواحد الأحد، فتخاطب النبيّ الأكرم ﷺ بالقول: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

يذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ المراد بالـ«اسم» هنا هو (المسمى)، في حين قال آخرون هو (اسم الله) سبحانه وتعالى.

وليس ثمّة فرق كبير بين القولين، فالإسم يدلّ على المسمى.

وعلى أيّ حال، فمراد الآية أن لا يوضع اسمه جلّ شأنه في مصاف أسماء الأصنام، ويجب تنزيه ذاته المقدسة من كلّ عيب ونقص، ومن كلّ صفات المخلوق وعوارض الجسم، أي أن لا يُحدُّ.

فينبغي على المؤمنين ألّا يتعاملوا مع اسمه الجليل كتعامل عبدة الأصنام، بأن يضعوا اسمه تعالى مع أسماء أصنامهم، ولا يفعلوا كما يفعل المجسمة، ممن وقعوا في خطأ كبير وفاحش حينما نسبوا إلى الباري جلّ جلاله الصفات الجسمية.

﴿ٱلْأَعْلَى﴾: أي الأعلى من كلّ: أحد، تصوّر، تخيّل، قياس، ظن، وهم، ومن أي شرك بشقيه الجلي والخفي.

﴿رَبِّكَ﴾: إشارة إلى أنّه غير ذلك الرب الذي يعتقد به عبدة الأصنام.

وبعد ذكر هاتين الصفتين (الربّ والأعلى)، تذكر الآيات التالية خمس صفات تبيّن ربوبية الله العليا... ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.

﴿فَسَوَّىٰ﴾: من (التسوية)، وهي الترتيب والتنظيم، ويضم هذا المفهوم بين جناحيه كلّ أنظمة الوجود، مثل: النظام السماوي بنجومه وكواكبه، والأنظمة الحاكمة على المخلوقات في الأرض، ولاسيما الإنسان من حيث الروح والبدن.

أمّا ما قيل، من كونها إشارة إلى نظام اليد أو العين أو اعتدال القامة، لهذا في واقعه لا يتعدى أن يكون إلّا بيان لمصداق محدود من مصاديق هذا المفهوم الواسع.

وعلى أيّ حال، فنظام عالم الخليقة، بدءاً من أبسط الأشياء، كبصمات الأصابع التي أشارت إليها الآية (٤) من سورة القيامة ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾، وانتهاءً بأكبر منظومة سماوية، كلها شواهد ناطقة على ربوبية الله سبحانه وتعالى، وأدلّة إثبات قاطعة على وجوده عزَّ وجلَّ.

وبعد ذكر موضوعي الخلق والتنظيم، تنقل بنا الآية التالية إلى حركة الموجودات نحو الكمال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

والمراد بـ(قدّر)، هو: وضع البرامج، وتقدير مقادير الأُمور اللازمة للحركة باتجاه الأهداف المرسومة التي ما خلقت الموجودات إلّا لأجلها.

والمراد بـ(هدى) هنا، هي: الهداية الكونية، على شكل غرائز وسنن طبيعية حاكمة على كل موجود، (ولا فرق في الغرائز والدوافع سواء كانت داخلية أم خارجية).

فمثلاً، إنّ الله خلق ثدي المرأة وجعل فيه اللبن لتغذية الطفل، وفي ذات الوقت جعل عاطفة الأُمومة شديدة عند المرأة، ومن الطرف الآخر جعل في الطفل ميلاً غريزياً نحو ثدي أُمّه، فكلّ هذه الإستعدادات والدوافع وشدّة العلاقة الموجودة بين الأم والإبن والثدي مقدّر بشكل دقيق، كي تكون عملية السير نحو الهدف المطلوب طبيعية وصحيحة.

وهذا التقدير الحكيم ما نشاهده بوضوح في جميع الكائنات.

وبنظرة ممعنة لبناء كلّ موجود، وما يطويه في فترة عمره من خطوات في مشوار الحياة، تظهر لنا بوضوح الحقيقة التالية: (ثمّة برنامج وتخطيط دقيق يحيط بكل موجود، وثمّة يد مقتدر تهديه وتعينه على السير على ضوء ما رسم له)، وهذه بحد ذاتها علامة جليّة لربوبية الله جلّ وعلا.

وقد اختص الإنسان بهداية تشريعية إضافة للهداية التكوينية يتلقاها عن طريق الوحي وإرسال الأنبياء ﷺ، لتكتمل أمامه معالم الطريق من كافة جوانبه.

وتوصلنا الآية (٤٩) من سورة طه لهذا المعنى، وذلك لمّا نقلت لنا سؤال فرعون إلى موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، فأجابه عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

وقد فُهم قول موسى عليه السلام بشكل مجمل في زمانه، وحتى في زمان نزول الآية المباركة في صدر الدعوة الإسلامية، ولكنّ... مع دوران عجلة الأيّام، وتقدم العلوم البشرية، توصل الإنسان إلى معارف كثيرة ومنها ما يختص بمعرفة أنواع أحوال الموجودات الحيّة، فتوضّح قول موسى عليه السلام أكثر فأكثر، حتى كتبت آلاف الكتب في موضوع (التقدير) و(الهداية التكوينية)، ومع ما توصل إليه العلماء من معلومات باهرة، إلّا إنّهم يؤكّدون على أنّ ما بقي خافي عليهم، هو أكثر بكثير ممّا توصلوا لمعرفته!

وتشير الآية التالية إلى النباتات، وما يخصّ غذاء الحيوانات منها: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾.

واستعمال كلمة ﴿أَخۡرَجَ﴾ فيه وصف جميل لعملية تكوّن النباتات، حيث إنّه يتضمّن وجودها داخل الأرض فأخرجها الباري منها.

وممّا لا شك فيه إنّ التغذية الحيوانية هي مقدمة لتغذية الإنسان، وبالنتيجة فإنّ فائدة عملية تغذية الحيوان تعود إلى الإنسان.

ثمّ: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾.

«الغثاء»: هو ما يطفح ويتفرق من النبات اليابس على سطح الماء الجاري، ويطلق أيضاً على ما يطفح على سطح القدر عند الطبخ، ويستعمل كناية عن: كلّ ضائع ومفقود، وجاء في الآية بمعنى: النبات اليابس المتراكم.

«أحوى»: من (الحوة) ـ على وزن قوّة ـ وهي شدّة الخضرة، أو شدّة السواد، وكلاهما من أصل واحد، لأنّ الخضرة لو اشتدّت قربت من السواد، وجاء في الآية بمعنى: تجمع النبات اليابس وتراكمه حتّى يتحول لونه تدريجياً إلى السواد.

ويمكن أن يكون اختيار هذا التعبير في مقام بيان النعم الإلهية، لأحد أسباب ثلاث:

الأوّل: إنّ حال هذه النباتات يشير بشكل غير مباشر إلى فناء الدنيا، لتكون دوماً درساً وعبرة للإنسان، فهي بعد أن تنمو وتخضر في الربيع، شيئاً فشيئاً ستيبس وتموت بعد مرور الأيّام عليها، حتى يتحول جمالها الزاهي في فصل الربيع إلى سواد قاتم، ولسان حالها يقول بعدم دوام الدنيا وانقضائها السريع.

الثّاني: إنّ النباتات اليابسة عندما تتراكم، فستتحول بمرور الوقت إلى سماد طبيعي، ليعطي الأرض القدرة اللازمة لإخراج نباتات جديدة أُخرى.

الثّالث: إنّ الآية تشير إلى تكوّن الفحم الحجري من النباتات والأشجار.

فكما هو معلوم، إنّ الفحم الحجري، والذي يعتبر من المصادر المهمّة للطاقة، قد تكوّن من النباتات والأشجار التي يبست منذ ملايين السنين، ودفنت في الأرض حتى تحجرت واسود لونها بمرور الزمان.

ويعتقد بعض العلماء، بأنّ مناجم الفحم الحجري قد تكوّنت من جراء النباتات اليابسة المدفونة في داخل الأرض من (٢٥٠) مليون سنة تقريباً.

ولو أخذنا بنظر الإعتبار مقدار الإستهلاك الفعلي للفحم الحجري في العالم، لوجدنا أنّها من احتياج النّاس لأكثر من (٤٠٠٠) سنة.

وتفسير الآية بالمعنى الأخير دون غيره بعيد حسب الظاهر، ولا يستبعد أن تكون الآية قد أرادت كل ما جاء في المعاني الثلاثة أعلاه.

وعلى أيّ حال، فللغثاء الأحوى منافع كثيرة... فهو غذاء جيد للحيوانات في الشتاء، ويستعمل كسماد طبيعي للأرض، وكذا يستعمله الإنسان كوقود.

فمما ذكرته الآيات من صفات: الربوبية، الأعلى، الخلق، التسوية،

التقدير، الهداية، وإخراج المرعى، توصلنا إلى الربوبية الحقّة لله جلَّ وعلا، وبقليل من التأمل يتمكن أيّ إنسان من إدراك هذا المعنى، ليصل نور الإيمان إلى قلبه، فيشكر المنعم على ما أعطى.

بحث

مسألة التقدير والهداية العامّة للموجودات، التي تناولتها الآيات الآنفة الذكر كمظهر من مظاهر ربوبية الله عزَّ وجلَّ، تعتبر من المسائل الحيوية والتي كلما تقدم الزمان وتوسعت مدارك وعلوم الإنسان، إزداد في الوصول إلى حقائق جديدة تضاف إلى معلوماته السابقة.

فالاكتشافات العلمية الجديدة في كلّ يوم تحيطنا عملاً لرؤية وجوه جديدة رائعة لتقدير الله مخلوقاته وهدايته لها.

ويزيّن المفسّرون تفاسيرهم ببعض النماذج من تلك الأسرار الرائعة في خصوص الهداية التكوينية لحركة الحيوانات، واعتمد البعض على ما ذكره العالم المعروف (كريسي موريسن) في كتابه (أسرار خلق الإنسان)، وإليكم مختصراً ممّا جاء فيه:

١ ـ تقطع الطيور المهاجرة ـ في بعض الأحيان ـ آلاف الكيلومترات في السنة، عابرة الصحارى والغابات والبحار، وعند عودتها تعرف طريق موطنها الأصل بكلّ دقّة، ولا تضل عنه أبداً.

ومن النحل ما يبتعد عن خليته لمسافات بعيدة جدّاً، ولكنّه يعود إلى خليته بكلّ سهولة ويسر، في حين نرى الإنسان في حال عودته إلى وطنه يحتاج إلى عناوين وعلامات دقيقة، حتى لا يضل الطريق!

٢ ـ الحشرات تتمتع بعيون مجهرية ذات دقّة فائقة حيّرت عقول العلماء، من حيث بنائها وقدرتها على النظر في حين أن عيون الصقر تلسكوبية تعينها على النظر لمسافات بعيدة جدّاً.

٣ ـ حينما يسير الإنسان بين عتمة الليل الداكنة، فلا بدّ له من إضاءة تعينه في مسيره، إلّا أنّ كثيراً من الطيور تصل أهدافها في حلكة الليل الدامس،

مستعينة بما لعيونها من قدرة على التحسس بالأشعة ما دون الحمراء! ولبعضها مراكز حسّاسة تشبه في علمها الرادارات المتطورة!

٤ ـ للكلاب حاسة شم مميزة، تستطيع من خلالها معرفة أيّ كائن حي يقع في طريقها، وهذا ما لا يتوفر عند الإنسان، بالرغم من التقدم التقني الذي وصل إليه.

٥ ـ حاسة السمع عند جميع الحيوانات أقوى وأدق من سمع الإنسان بدرجات، على الرغم من استعمال الإنسان للأجهزة العلمية المتطورة في سمعه، بحيث يستطيع أن يستمع إلى حركة أجنحة ذبابة على بُعد عدّة كيلومترات منه!

٦ ـ وثمّة حركة عجيبة عند بعض الأسماك الصغيرة، فهي تقضي السنين من عمرها في البحار، ولكن حين يحين وقت وضع البيض، فإنّها تترك البحار متجهة إلى تلك الأنهار التي فيها ولدت، فتسير بعكس التيار لمدّة طويلة حتى تصل إلى مسقط رأسها، المكان المناسب لتكاثرها!

٧ ـ والأعجب منها حياة بعض الأسماك وحيوانات الماء التي تسلك في حياتها عكس الصنف السابق.

التكوين في القرآن

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والآثار التكوينية هي: أمور تنبع من نفس الإنسان والحيوان كالجوع والعطش والألم والفرح والحزن والنوم واليقظة والتعب والراحة والحب والبغض... ومنها على سبيل المثال: العصمة لأهل البيت ﷺ فإنّها تكوينية أي مزروعة فيهم وليس تشريعية ولو كانت فيهم تشريعية لكانوا هم وسائر الناس سواء بدون أي تمييز، ومن الأمور التكوينية المودة بين الزوجين.

وفي المواضيع القادمة قريباً يأتي الكثير من الأمثلة التكوينية التي يتَّضح بها معنى التكوين أكثر.

وعرض الأمانة على السماوات... عرض تكويني فقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ يعني هذه المخلوقات العظيمة التي خَلْقُها أعظم من خلق الإنسان. كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وقوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ فإباؤها عن حملها وإشفاقها منها كل ذلك تكويني لعدم صلاحيتها على التلبس بها، وتجافيها عن قبولها وفي التعبير بالحمل إيماء إلى أنها ثقيلة ثقلاً لا يحتملها السماوات والأرض والجبال.

وإليك التّفسير الكامل لهذه الآية لأهميّتها.

التّفسير

حمل الأمانة الإلهية أعظم إفتخارات البشر:

تكمل هذه الآية المسائل المهمّة التي وردت في هذه السورة في مجالات الإيمان، والعمل الصالح، والجهاد، والإيثار، والعفّة والأدب والأخلاق، وتبيّن كيف أنّ الإنسان يحتل موقعاً سامياً جدّاً بحيث يستطيع أن يكون حامل رسالة الله العظيمة، وكيف أنّه إذا ما جهل قيمه الحياتية والوجودية سيظلم نفسه غاية الظلم، وينحدر إلى أسفل سافلين!

تبيّن الآية أوّلاً أعظم امتيازات الإنسان وأهمّها في كلّ عالم الخلقة، فتقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

ممّا لا شكّ فيه أنّ إباءها تحمل المسؤولية وامتناعها عن ذلك لم يكن استكباراً منها، كما كان ذلك من الشيطان، حيث تقول الآية (٣٤) من سورة البقرة: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾، بل إنّ إباءها كان مقترناً بالإشفاق، أي الخوف الممتزج بالتوجّه والخضوع.

إلّا أنّ الإنسان، أعجوبة عالم الخلقة، قد تقدّم ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

لقد تحدّث كبار مفسّري الإسلام حول هذه الآية كثيراً، وسعوا كثيراً من أجل الوصول إلى حقيقة معنى «الأمانة»، وأبدوا وجهات نظر مختلفة، نختار أفضلها بتقصّي القرائن الموجودة في طيّات الآية.

ويجب التأكد في هذه الآية العميقة المحتوى على خمس موارد:

١ ـ ما هو المراد من الأمانة؟

٢ ـ ما معنى عرضها على السماوات والأرض والجبال؟

٣ ـ لماذا وكيف أبت هذه الموجودات حمل هذه الأمانة؟

٤ ـ كيف حمل الإنسان ثقل الأمانة هذا؟

٥ ـ لماذا وكيف كان ظلوماً جهولاً؟

لقد ذُكرت تفاسير مختلفة للأمانة ومن جملتها:

إنّ المراد من الأمانة: هي الولاية الإلهية، وكمال صفة العبودية، والذي يحصل عن طريق المعرفة والعمل الصالح.

إنّ المراد: صفة الإختيار والحرية والإرادة التي تميّز الإنسان عن سائر الموجودات.

إنّ المراد: العقل الذي هو ملاك التكليف، ومناط الثواب والعقاب.

إنّ المراد: أعضاء جسم الإنسان، فالعين أمانة الله، ويجب الحفاظ عليها وعدم استعمالها في طريق المعصية، والأذن واليد والرجل واللسان كلّها أمانات يجب حفظها.

إنّ المراد: الأمانات التي يأخذها الناس بعضهم من بعض، والوفاء بالعهود.

إنّ المراد: معرفة الله سبحانه.

إنّ المراد: الواجبات والتكاليف الإلهيّة كالصلاة والصوم والحجّ.

لكن يتّضح من خلال أدنى دقّة أن هذه التفاسير لا تتناقض مع بعضها، بل يمكن إدغام بعضها في البعض الآخر، فبعضها أخذت جانباً من الموضوع، وبعضها الآخر كلّه.

ومن أجل الحصول على جواب جامع كاف، يجب أن نلقي نظرة على الإنسان لنرى أي شيء يمتلكه وتفتقده السماوات والأرضون والجبال؟

إنّ الإنسان موجود له استعدادات وقابليات يستطيع من خلال استغلالها أن يكون أتمّ مصداق لخليفة الله، ويستطيع أن يصل إلى قمّة العظمة والشرف باكتساب المعرفة وتهذيب النفس وتحصيل الكمالات، وأن يسمو حتّى على الملائكة.

إنّ هذا الإستعداد المقترن بالحرية والإرادة والإختيار يعني أنّ الإنسان يطوي هذا الطريق بإرادته واختياره، ويبدأ فيه من الصفر ويسير إلى ما لا نهاية.

إنّ السماء والأرض والجبال تمتلك نوعاً من المعرفة الإلهية، وهي تذكر الله سبحانه وتسبّحه، وتخضع لعظمته وتخشع لها وتسجد، إلّا أنّ كلّ ذلك

ذاتي وتكويني وإجباري، ولذلك ليس في تكامل ورقي، والموجود الوحيد الذي لا ينتهي منحنى صعوده ونزوله، وهو قادر على ارتقاء قمّة التكامل بصورة لا تعرف الحدود، ويقوم بكلّ هذه الأعمال بإرادته واختياره، هو الإنسان، وهذه هي «الأمانة الإلهيّة» التي امتنعت من حملها كلّ الموجودات، وحملها الإنسان! ولذلك نرى الآية التالية قسّمت البشر إلى ثلاث فئات «المؤمنين» و«الكفّار» و«المنافقين».

بناءً على هذا يجب القول في عبارة مختصرة أنّ الأمانة الإلهية هي قابلية التكامل غير المحدودة والممتزجة بالإرادة والإختيار، والوصول إلى مقام الإنسان الكامل، وعبودية الله الخاصّة وتقبّل ولاية الله.

لكن لماذا عُبّر عن هذا الأمر بالأمانة، مع أنّ كلّ وجودنا وكلّ ما لدينا أمانة الله؟

لقد عبّر بهذا التعبير لأهميّة امتياز البشر العظيم هذا، وإلّا فإنّ بقية المواهب أمانات الله أيضاً، غير أنّ أهميّتها تقلّ أمام هذا الإمتياز.

ويمكن أن نعبّر عن هذه الأمانة بتعبير آخر ونقول: إنّها التعهّد والإلتزام وقبول المسؤولية.

بناءً على هذا فإنّ أولئك الذين فسّروا الأمانة بصفة الإختيار والحرية في الإرادة، قد أشاروا إلى جانب من هذه الأمانة العظمى، كما أنّ أولئك الذين فسّروها بالعقل، أو أعضاء البدن، أو أمانات الناس لدى بعضهم البعض، أو الفرائض والواجبات، أو التكاليف بصورة عامّة، قد أشار كلّ منهم إلى غصن من أغصان هذه الشجرة العظيمة المثمرة، واقتطف منها ثمرة.

لكن ما هو المراد من عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض؟

هل المراد: أنّ الله سبحانه قد منح هذه الموجودات شيئاً من العقل والشعور ثمّ عرض عليها حمل هذه الأمانة؟

أو أنّ المراد من العرض هو المقارنة؟ أي أنّها عندما قارنت حجم هذه الأمانة مع ما لديها من القابليات والإستعدادات أعلنت عدم لياقتها واستعدادها عن تحمّل هذه الأمانة العظيمة.

طبعاً، يبدو أنّ المعنى الثّاني هو الأنسب، وبهذا فإنّ السماوات والأرض والجبال قد صرخت جيمعاً بأنّا لا طاقة لنا بحمل هذه الأمانة.

ومن هنا يتّضح جواب السؤال الثالث أيضاً، بأنّ هذه الموجودات لماذا وكيف رفضت وأبت حمل هذه الأمانة العظمى، وأظهرت إشفاقها من ذلك؟

ومن هنا تتّضح كيفية حمل الإنسان لهذه الأمانة الإلهية، لأنّ الإنسان كان قد خلق بشكل يستطيع معه تحمّل المسؤولية والقيام بها، وأن يتقبّل ولاية الله، ويسير في طريق العبودية والكمال ويتّجه نحو المعبود الدائم، وأن يطوي هذا الطريق بقدمه وإرادته، وبالإستعانة بربّه.

أمّا ما ورد في روايات عديدة وردت عن أهل البيت ﷺ من تفسير هذه الأمانة بقبول ولاية أمير المؤمنين علي ﷺ وولده، فمن أجل أنّ ولاية الأنبياء والأئمّة نور ساطع من تلك الولاية الإلهية الكليّة، والوصول إلى مقام العبودية، وطي طريق التكامل لا يمكن أن يتمّ من دون قبول ولاية أولياء الله.

جاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ أنّه سئل عن تفسير آية عرض الأمانة، فقال: «الأمانة الولاية، من ادّعاها بغير حقّ كفر»[١].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال عندما سئل عن تفسير هذه الآية: «الأمانة الولاية، والإنسان هو أبو الشرور المنافق»[٢].

والمسألة الأُخرى التي يلزم ذكرها هنا، هي أنّنا قلنا في ذيل الآية (١٧٢) من سورة الأعراف فيما يتعلّق بعالم الذرّة بأن أخذ ميثاق الله على التوحيد كان عن طريق الفطرة، والإستعداد وطبيعة الآدمي، وإنّ عالم الذرّ هو عالم الإستعداد والفطرة.

وفي مورد قبول الأمانة الإلهيّة يجب القول بأنّ هذا القبول لم يكن قبول اتّفاق وعقد، بل كان قبولاً تكوينياً حسب عالم الإستعداد.

السؤال الوحيد الذي يبقى هو مسألة كون الإنسان «ظلوماً جهولاً» فهل أنّ وصف الإنسان بهاتين الصفتين ـ وظاهرهما ذمّه وتوبيخه ـ كان نتيجة قبوله لهذه الأمانة؟

---

(١) تفسير البرهان، المجلّد ٣، صفحة٣٤١ ذيل الآية مورد البحث.

(٢) المصدر السابق.

من المسلّم أنّ النفي هو جواب هذا السؤال، لأنّ قبول هذه الأمانة أعظم فخر وميزة للإنسان، فكيف يمكن أن يُذمّ على قبوله مثل هذا المقام السامي؟

أم أنّ هذا الوصف بسبب نسيان غالب البشر وظلمهم أنفسهم، وعدم العلم بقدر الإنسان ومنزلته... وبسبب الفعل الذي بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قِبل قابيل وأتباعه، ولا يزال إلى اليوم.

إنّ الإنسان الذي ينادى من العرش، وبني آدم الذين وُضع على رؤوسهم تاج (كرّمنا بني آدم) والبشر الذين هم وكلاء الله في الأرض بمقتضى قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والإنسان الذي كان معلّماً للملائكة وسجدت له، كم يجب أن يكون ظلوماً جهولا لا لينسى كلّ هذه القيّم السامية الرفيعة، ويجعل نفسه أسيرة هذه الدنيا، وتابعاً لهذا التراب، ويكون في مصاف الشياطين، فينحدر إلى أسفل سافلين؟!

أجل... إنّ قبول هذا الخطّ المنحرف ـ والذي كان ولا يزال له أتباع وسالكون.

ومن الأمور التكوينية المتأصّلة في الإنسان الغرائز وهي ما يلي:

١ ـ غريزة حب الإستطلاع:

وهذه الغرائز هي التي دفعت الفكر الإنساني ـ منذ البداية ـ إلى البحث وإلى دراسة المسائل والمشاكل والسعي لاكتشاف المجهولات وفك الرموز واستكناه الحقائق... وهي الغريزة التي نشأت في ظلها العلوم والصناعات وتوسعت المعارف وتطورت وتقدمت... وهي الغريزة التي ساعدت المكتشفين والمخترعين منذ القدم وكانت معواناً ومشجعاً لهم على مواصلة البحث المضني لاكتشاف ألغاز الطبيعة وأسرار الحياة وكشف القناع عنها، وتحمل كل الصعوبات والمتاعب في ذلك الطريق الوعر.

٢ ـ غريزة حب الخير:

وهي منشأ ظهور الأخلاق، ومعتمد الفضائل والسجايا الإنسانية والصفات النفسانية المتعالية.

وهي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى أن يحب بني نوعه ويطلب العدل، والحق والسلام.

وهي التي توجد في امرىء نوعاً من الميل الفطري الباطني إلى الأخلاق النبيلة والسجايا الحميدة ونفوراً من الرذائل والصفات الذميمة.

٣ ـ غريزة حب الجمال:

وهي منشأ الفنون الجميلة قديماً وحديثاً وسبب ظهور الأعمال الفنية في شتى مجالات الحياة.

٤ ـ غريزة التدين:

وتعني بأن كل فرد من أبناء الإنسان يميل بنحو ذاتي وفطري، وبحكم غريزته إلى (الله) ويميل إلى التدين، وينجذب عفوياً إلى معرفة ما وراء الطبيعة والقوة الحاكمة على هذا الكون الذي يعيش ضمنه ويكون وجود الإنسان فرعاً من وجوده وجزء من أجزائه.

تلك القوة التي بيدها أمر العالم ويمكن أن (تنقذه) من البلايا، وتدفع عنه كل مكروه إن شاءت.

ولقد أوجد اكتشاف هذا الشعور وهذا البعد الأخير حركة عظيمة في الأوساط العلمية إذ حط هذا الكشف العلمي النفساني الهام من غرور ماديي القرن العشرين وكبريائهم.

فإذا كان إنكار ما وراء الحس «الميتافيزيقيا» دليلاً على الفهم والعلم والتحقيق ذات يوم فقد أصبح هذا الأمر ـ بعد اكتشاف البعد الرابع ـ علامة الجهل والتعصب والتحجر، والإنكار لأبده الحقائق الراهنة.

٥ ـ غريزة الجنس:

وهي من أعظم وأخطر الغرائز التكوينية في جسم الإنسان فإنّها تؤثر حتى على الأعصاب عند إلحاحها في بعض الأحيان.

التشريع في القرآن

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

التَّشرِيعُ: هو الحكم الصادر من الله تعالى لتنيظم حياة الإنسان وتوجيهه.

والحكم له أقسام كثيرة منها: الحُكْمُ التكليفي وهو: المتعلّق بأفعال الإنسان والمُوجِّه لسلوكه مباشرة في مختلف جوانب حياته الشخصية والعبادية والعائلية والإجتماعية التي عالجتها الشريعة، ونظَّمتها جميعاً كحرمة شرب الخمر، ووجوب الصلاة والعبادات المفروضة، ووجوب الإنفاق على بعض الأقارب، وإباحة إحياء الأرض، ووجوب العدل على الحاكم...

(شَرَعَ) من كلمة (شَرْع) وهي في الأصل تعني الطريق الواضح، حيث يقال: (الشَّريعة) للطريق المؤدي إلى النهر، ثم استخدمت هذه الكلمة بخصوص الأديان الإلهية، والشرائع السماوية لأن طريق السعادة الواضح يتمثل فيها، وهي طريق الوصول إلى الإيمان والتقوى والصلاح والعدالة.

وبما أنَّ الماء هو أساس النظافة والطهارة والحياة، لذا فإنّ لهذا المصطلح تناسب واضح مع الدين الإلهي الذي يؤدي نفس هذه الأعمال من الناحية المعنوية مع روح الإنسان والمجتمع البشري.

وإن عبارة (من الدِّين) تُبيِّن أن التنسيق بين جميع الشرائع السماوية لم يكن بخصوص التوحيد، أو أُصول العقائد فحسب، بل في كل مجموعة الدين الإلهي، فمن حيث الأساس، والجذور كانت واحدة بالرغم من أنَّ تكامل المجتمع الإنساني يقتضي أن تكون التشريعات والقوانين الفرعية متناسقة مع

تكامل الناس، وتسير نحو التكامل حتى تصل إلى الحدّ النهائي، وتختتم الأديان.

ومن الضروري أيضاً أن نشير إلى هذه الملاحظة، وهي أن القرآن يستخدم عبارة ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ بخصوص نبي الإسلام ﷺ، إلّا أنّه استخدم عبارة «وصينا» بالنسبة إلى الآخرين، وقد يكون هذا الإختلاف في التعبير بسبب أهمية الإسلام بالنسبة لسائر الأديان السماوية الأُخرى.

وردت عبارة (من يشاء) بالنسبة إلى كيفية انتخاب الأنبياء في نهاية الآية، والتي قد تكون إشارة مجملة للمؤهلات الذاتية للرسل الإلهيين.

أمّا بخصوص الأُمم فقد تم استخدام عبارة (من ينيب) «والتي تعني الرجوع إلى الخالق والتوبة عن الذنب» حتى يتّضح معيار الهداية الإلهية وشرائطها للجميع، ويعثروا على طريق الوصول إلى بحر رحمته.

وفي الميزان: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، يقال: شرع الطريق أي سواه طريقاً واضحاً بيّناً، قال الراغب: الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل مقترناً بوعظ من قولهم: أرض واصية متصلة النبات ويقال: أوصاه ووصاه انتهى. وفي معناه إشعار بالأهمية فما كل أمر يوصى به وإنما يختار لذلك ما يهتم به الموصي ويعتني بشأنه.

فقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أي بيّن لكم من الدين وهو سنة الحياة ما قدم وعهد إلى نوح مهتماً به، واللائح من السياق أن الخطاب للنبي ﷺ وأمته، وأن المراد مما وصى به نوحاً شريعة نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ظاهر المقابلة بينه وبين نوح عليه السلام أن المراد بما أوحى إليه ما اختصت به شريعته من المعارف والأحكام، وإنما عبر عن ذلك بالإتجاه دون التوصية لأن التوصية كما تقدم إنما تتعلق من الأُمور بما يهتم به ويعتنى بشأنه خاصة وهو أهم العقائد والأعمال، وشريعته ﷺ جامعة لكل ما جلّ ودقّ محتوية على الأهم وغيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهم المناسب لحال أممهم والموافق لمبلغ استعدادهم.

والإلتفات في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ من الغيبة إلى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة فإنّ العظماء يتكلمون عنهم وعن خدمهم وأتباعهم.

وقوله: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ عطف على قوله: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦ﴾ والمراد به ما شرع لكل واحد منهم ﷺ.

والترتيب الذي بينهم ﷺ في الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ﷺ، وإنما قدم ذكر النبي ﷺ للتشريف والتفضيل كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ [الأحزاب: ٧]، وإنما قدم نوحاً وبدأ به للدلالة على قدم هذه الشريعة وطول عهدها.

جاء في الحديث القدسي «من تقرب منّي شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

وقد ورد هذا الاحتمال أيضاً في تفسير الجملة الأخيرة، وهو أن (الإجتباء) لا يختص بالأنبياء فحسب، بل يشمل جميع العباد المخلصين الذين لهم المقام المحمود عند الخالق.

وبما أن أحد أركان دعوة الأنبياء أولي العزم هو عدم التفرق في الدين، فقد كانوا يدعون لذلك حتماً، لذا فقد يطرح هذا السؤال: ما هو أساس كلّ هذه الإختلافات المذهبية؟

وقد أجابت الآية الأخرى على هذا السؤال وذكرت أساس الإختلافات الدينية بأنّه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: ١٤]، فالإختلافات لم تحدث إلّا بسبب حب الدنيا والمنصب والظلم والحسد والعداوة.

نعم، فعبيد الدنيا الظَّلَمَةُ والحسودون الحاقدون وقفوا حيال أديان الأنبياء جميعاً، ودفعوا كلّ مجموعة باتجاه معين كيما يثبّتوا أركان زعامتهم ويؤمّنوا مصالحهم الدنيوية، ويكشفوا ـ علانيةً ـ حسدهم وعداوتهم للمؤمنين الحقيقيين دين الأنبياء، ولكن كلّ هذا حصل بعد إتمام الحجة.

وبهذا الترتيب فإنّ أساس التفرق في الدين لم يكن الجهل، بل كان الظلم والبغي والانحراف عن الحق، والأهواء والآراء الشخصية.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، المجلد٢٧، ص١٥٧ (نهاية الآيات التي نبحثها).

«فالعلماء الذين يطلبون الدنيا» و«والحاقدون من الناس والمتعصبون» اتحدوا معاً لزرع هذه الإختلافات.

وتعتبر هذه الآية ردّاً واضحاً على الذين يقولون بأنّ الدّين أوجد الإختلاف بين البشر، وأدى إلى إراقة دماء كثيرة على مدى التاريخ، فلو دققوا في الأمر لوجدوا أنّ الدين دائماً هو أساس للوحدة والإتحاد في المجتمع (كما حصل للإسلام وقبائل الحجاز وحتى الأقوام في خارج الجزيرة حيث انتهت الإختلافات وأصبحوا أمة واحدة).

إلّا أنّ السياسات الإستعمارية هي التي أوجدت الفرقة بين الناس، وحرَّضت على الإختلافات، وكانت أساساً لإراقة الدماء، ففرض سياساتها وأهوائها على الأديان السماوية كان عاملاً كبيراً آخر في إيجاد الفرقة وهذا بحد ذاته ينبع من البغي.

وقال تعالى في آية ثانية: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً . .﴾ [المائدة: ٤٨].

وكلمة «شرع» أو «شريعة» تعني الطريق الذي يؤدي إلى الماء وينتهي به، وإطلاق كلمة «الشريعة» على الدين، لأن الدين ينتهي بحقائق وتعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانية، وضمان الحياة السليمة للبشرية أما كلمة «النهج» أو «المنهاج» فتطلقان على الطريق الواضح.

نقل (الراغب) في كتابه (المفردات) عن ابن عباس قوله: بأن الفرق بين كلمتي «الشرعة» و«المنهاج» هو أن الأولى تطلق على كل ما ورد في القرآن، وأن «المنهاج» يطلق على ما ورد في سُنّة النبي محمد ﷺ (وهذا الفرق مع كونه جميلاً، إلّا أننا لا نملك دليلاً جازماً لتأييده).

ويعتقد البعض من كبار المفسّرين بوجود فرق بين «الدين» و«الشريعة» ويقولون: بأن الدين هو مبدأ التوحيد، والمبادىء الأخرى المشتركة بين جميع الديانات، لذلك يكون الدين واحداً في كل الأحوال والأزمنة والشريعة هي القوانين والأحكام والتعاليم التي تختلف أحياناً بين ديانة وأخرى لكنّنا لا نملك - أيضاً - دليلاً واضحاً يُؤيّد هذا القول، لأن هاتين الكلمتين استخدمتا في كثير من الموارد للدلالة على معنى واحد. (الأمثل).

وقال في مفاهيم القرآن: إذا وقفت على مضامين هذه الآيات وعرفت أن

الله تعالى لم يعط زمام التشريع لأحد من عباده، تقف على أن العدول عنه عدول عن جادة التوحيد وتورط في الشرك.

إن التقنين والتشريع من الأفعال الإلهية التي يقوم سبحانه بها حسب، فلو أن أحداً اعتقد بأن غير الله يملك هذا الحق إلى جانب الله وأن الحبر اليهودي أو الراهب النصراني مثلاً أو من يشاكلهما له الحق في أن يسن للناس القوانين ويعين من لدن نفسه لهم الحلال والحرام، فإنه اتخذ سوى الله رباً وبذلك نسب فعل الله إلى غيره، وتجاوز حد التوحيد بتعميم هذا الحق على غيره سبحانه، وكان بذلك مشركاً.

فلو اعتقد أحد بأن لغيره سبحانه حق التقنين وأن بيده زمام التحليل والتحريم ومصير العباد في حياتهم الإجتماعية والفردية فقد اتخذوه رباً أي مالكاً لما يرجع إلى عاجل العباد وآجلهم فلو خضع مع هذا الإعتقاد أمامه صار خضوعه عبادة، وعمله شركاً.

ولأجل هذا تجد القرآن يقول إن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً اذ معنى الربوبية في هذا المورد هو امتلاك الأمر، وامتلاك زمام الإختيار في التحليل والتحريم، في حين أن الله سبحانه لم يعط لأحد مثل هذا الإختيار.

سؤال وإجابة:

إذا ثبت أن زمام التشريع بيده سبحانه دونه سواه فكيف يفسر ما ورد في الأحاديث من:

١ ـ إن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين، ليكون المجموع عشر ركعات فأضاف رسول الله ﷺ إلى الركعتين ركعتين، وإلى المغرب ركعة.

٢ ـ إن الله فرض في السنة صوم شهر رمضان وسن رسول الله ﷺ صوم شعبان وثلاثة أيام من كل شهر.

٣ ـ إن الله حرّم الخمر بعينها وحرّم رسول الله ﷺ المسكر من كل شراب.

٤ ـ إن الله فرض الفرائض (في الإرث) ولم يقسم للجد شيئاً ولكن رسول الله ﷺ أطعمه السدس[1].

---

(١) أصول الكافي، ج١ ص٢٠٩ ـ ٢١٠.

ويمكن أن يقال أن الله سبحانه أدب رسوله فأحسن تأديبه وعلمه مصالح الأحكام ومفاسدها وأوقفه على ملاكاتها ومناطاتها ولما كانت الأحكام تابعة لمصالح ومفاسد كامنة في متعلقاتها وكان النبي بتعليم منه سبحانه واقفاً على المصالح والمفاسد على اختلاف درجاتها ومراتبها كان له أن ينص على أحكامه سبحانه من طريق الوقوف على عللها وملاكاتها ولا يكون الإهتداء إلى أحكامه سبحانه من طريق التعرف على عللها بأقصر من الطرق الأخر التي يقف بها النبي على حلاله وحرامه وإلى هذا يشير الإمام أمير المؤمنين ﷺ بقوله: «اعقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل»[1].

غير أن اهتداءه ﷺ إلى الأحكام وتنصيصه بها من هذا الطريق قليل جداً لا يتجاوز عما ذكرناه وبذلك يعلم حال الأئمة المعصومين ﷺ في هذا المورد.

وقد يجاب عنه أن عمل الرسول لم يكن في هاتيك الموارد سوى مجرد طلب وقد نفذ الله طلبه، لا أنه قام بنفسه بتشريع وتقنين، ويشير إلى ذلك قوله: «فأجاز الله عزَّ وجلَّ له ذلك».

ولو أن النّبي كان يمتلك زمام التشريع وكان قد فوض إليه أمر التقنين ـ على نحو ما تفيد كلمة التفويض[2] ـ إذاً لما احتاج إلى إذنه وإجازته المجددة، ولما كان للجملة المذكورة أي معنى.

قد تبين من هذا البحث الضافي أنه لا مكان للسلطة التشريعية بمفهومها الشائع في ظل النظام الإسلامي فليس لأحد ولا لجماعة حق في سن القانون غير أنه يبقى هناك سؤال وهو: ماذا يخلف هذه السلطة في الحكومة الإسلامية، نقول: يخلفها جهازان:

١ ـ فريق الإفتاء، وهم المجتهدون الذين يستنبطون الأحكام الشرعية عن الأدلة، وهؤلاء الجماعة يستكشفون الأحكام ببركة الأدلّة وليست لآرائهم وافكارهم من دون الإستناد إلى إحدى الأدلّة الشرعية.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٤ طبعة عبده.

(٢) أي أن الله فوض هذا الحق إلى رسول الله ﷺ واعتزل هو ليفعل النبي ما يشاء.

٢ ـ فريق الشورى، ووظيفته تخطيط شؤون البلاد في الإقتصاد والسياسة والعمران على ضوء القوانين الإسلامية.

الشيعة وفكرة حق التشريع للأئمة:

قال في مفاهيم القرآن: نشر الكاتب إبراهيم السليمان الجهمان مقالاً في مجلة «الدعوة» تحت عنوان «مزاعم طائفة الشيعة» جاء فيه بأكاذيب وافتراءات على هذه الطائفة هم براء منها ومما جاء فيه: إن الشيعة تزعم أن للأئمة حق التشريع والنسخ (أي نسخ الأحكام).

إن هذا افتراء وكذب ألصقه بهم هذا الكاتب غير المكترث بما يقول، ونحن نرشد ـ هنا ـ القارىء الكريم إلى عقيدة الشيعة في حق أئمتهم بنقل ما تواتر عن إمامهم الخامس أبي جعفر الباقر عليه السلام حيث قال مخاطباً لجابر: «يا جابر إنا لو كنا نحدثكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ولكنا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم».

وفي رواية أخرى: «ولكنا نفتيهم بآثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وأصول علم عندنا نتوارثها كابراً عن كابر».

وفي رواية محمد بن شريح عن الصادق عليه السلام: «والله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا ولا نقول إلا ما قال ربنا».

وفي رواية عنه عليه السلام: «مهما اجبتك فيه بشيء فهو عن رسول الله، لسنا نقول برأينا من شيء»[1].

إلى غير ذلك من الأحاديث المتضافرة عنهم وكلها تفيد أن علومهم وأحاديثهم مأخوذة عن نبيِّهم وجدهم الأطهر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

في هذه الآية ذكر الإسلام أصولاً وفروعاً بقوله:

١ ـ ديناً قيّماً.

٢ ـ ملّة إبراهيم.

---

(١) راجع جامع أحاديث الشيعة، المقدمة ج١ ص١٧.

وفي آية أخرى عبر عن أحكام الإسلام بلفظة الشريعة إذ يقول:
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

في هذه الآية يتراءى للقارىء أمران:

١ ـ أن النبي الأكرم أرسل مع شريعة لتربية الناس وهدايتهم، وإيصالهم إلى ذرى الكمال.

وحيث إن الشريعة تعني الطريقة، فلا بد للطريقة من هدف يقصد، ومقصود يراد، وغاية تطلب وما ذلك إلا الكمال الإنساني المنشود، اللائق بالإنسان أكرم المخلوقات.

٢ ـ إنّ اتّباع الأحكام غير الإلهية وغير المستمدة من الوحي الإلهي ـ مهما كانت الأدمغة التي صنعتها ـ ليس إلا اتباع للهوى.

ومن ذلك يتضح لنا موضوع (التوحيد في التقنين والتشريع) فإن حق التقنين مختص بالله سبحانه وتعالى ومسلوب من المجتمع البشري وعلى ذلك فلو أشركنا في هذا الحق أحداً غير الله لعدلنا عن جادة التوحيد.

ثم إن الآية التالية تؤكد مضمون هذا الصنف وتؤيده إذ تقول: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

والمنسك الوارد في الآية ليس إلا الشريعة الإلهية التي أنزلها الله تعالى على كل أمة حسب احتياجاتها وظروفها ثم كان يحدث فيها التغيير مع مرور الزمن وتقدم الأمم وتوسع نطاق حاجاتها وتكاملها، حتى أكملها الله وأتمها في نهاية المطاف، وإن كان كل شريعة منها كاملة بالنسبة إلى الظروف والأمم التي أرسلت إليها.

ما هي معاني: الدين، الشريعة، الملة؟

حيث ورد في الآية ١٦١ من سورة الأنعام لفظة الدين والملة ـ كما لاحظنا ـ يجدر بنا أن نوضح الفرق بين هاتين اللفظتين ولفظة الشريعة.

إن الدين حسب اصطلاح القرآن هو الطريقة الإلهية العامة التي تشمل كل أبناء البشر في كل زمان ومكان، ولا تقبل أي تغيير وتحويل مع مرور الزمن

وتطور الأجيال، ويجب على كل أبناء البشر اتباعها، وهي تعرض على البشرية في كل أدوار التاريخ بنحو واحد دونما تناقض وتباين.

ولأجل ذلك نجد القرآن لا يستعمل لفظة الدين بصيغة الجمع مطلقاً، فلا يقول: «الأديان» وإنما يذكره بصيغة المفرد، كما يقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

في حين أن «الشريعة» تعني مجموعة التعاليم الأخلاقية والإجتماعية التي يمكن أن ينالها التغيير مع مرور الزمن وتطور المجتمعات وتكامل الأمم ولذلك لا يضير استعمال هذه اللفظة في صورة الجمع فيقال: «شرائع» وقد صرح القرآن بتعدد الشريعة.

فهو رغم تصريحه بوحدة الدين ـ كما مر في الآية السابقة ـ يخبر عن وجود شريعة لكل أمة ويكشف بذلك عن تعدد الشريعة إذ يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وعلى هذا فإن البشرية دعيت في الحقيقة إلى دين واحد وهو الإسلام الذي كان متحد الأصول في كل الأدوار والأزمنة وكانت الشرائع في كل زمن وظرف طريقاً للوصول إلى الدين الواحد ولم تكن الشرائع إلا طرقاً للأمم والأقوام، لكل قوم حسب مقتضيات عصره ومدى احتياجه.

وأما الملة، فهي بمعنى السنن التي بها تقوم الحياة البشرية وتستقيم، تلك السنن التي أودع في مفهومها «الأخذ والإقتباس من الغير».

ولذلك يضيف القرآن الكريم هذه العبارة ـ لدى استعمالها ـ الى الرسل والأقوام إذ يقول ـ مثلاً ـ: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧].

وعلى هذا تكون الملة والشريعة متحدتين معنى ومفاداً مع فارق واحد هو أن الملة تضاف إلى غير الله فيقال «ملة محمد» وملة إبراهيم، ولا تضاف إلى الله تعالى فلا يقال ملة الله.

عالم الذرّ في القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٤].

التّفسير

الآيات المذكورة أعلاه، تشير إلى (التوحيد الفطري) ووجود الإيمان في أعماق روح الإنسان... ولذلك فإنّ هذه الآيات (على ما قيل) تكمل الأبحاث الواردة في الآيات المتقدمة من هذه السورة في شأن (التوحيد الإستدلالي)!

وبالرغم من كثرة الأقوال والكلام بين المفسّرين في شأن عالم الذّر، إلّا أنّنا نحاول أن نبيّن التّفسير الإجمالي لهذه الآيات الكريمة، ثمّ نختار الأهم من أبحاث المفسّرين، ونبيّن وجهة نظرنا بصورة استدلالية موجزة!

يقول الله سبحانه مخاطباً نبيّه في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ...﴾.

«الذريّة» كما يقول أهل اللغة وعلماؤها، معناها في الأصل الأبناء الصغار اليافعون، إلّا أنّها تطلق في الغالب على عموم الأبناء، وقد تستعمل هذه الكلمة في معنى المفرد، كما قد تستعمل في معنى الجمع، إلّا أنّها في الأصل تحمل معنى الجمع!

والجذر اللغوي لهذه الكلمة مُختَلفٌ فيه، إذ احتملوا له أوجهاً متعددة..

فقال بعضهم: إنّ جذر هذه الكلمة مأخوذ من «ذَرَأَ» على زنة «زَرَعَ» ومعناه الخلق، فعلى هذا الوجه يكون معنى الذرية مساوياً «للمخلوق».

وقال بعضهم: بل الجذر مأخوذ من «ذَرَّ» على وزن «شَرَّ» ويعني الموجودات الصغيرة جداً كذرّات الغبار مثلاً والنمل الصغير، ومن هنا فإنّ أبناء الإنسان تبدأ حياتهم من نطفة صغيرة جداً.

والاحتمال الثالث أنّه مأخوذ من مادة ذَرْو ومعناه النشر والتفريق والتنقية [ومنه ذَرْوُ الحنطة[1]] وإنما سمي أبناء الإنسان بالذرية لأنّهم يتفرقون في أنحاء الأرض بعد التكاثر!

ثمّ يشير الله سبحانه إلى الهدف النهائي من هذا السؤال والجواب، وأخذ العهد من ذرية آدم في مسألة التوحيد، فيقول: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾.

الآية التّالية تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، وهو أنّه إنّما أخذ ربّك هذا العهد من ذرية آدم لئلا تعتذروا: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أجَلْ... ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إيضاح لما ورد عن عَالَم الذَّرِ.

قال في الأمثل: رأينا أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن أخذ العهد من ذريّة آدم، لكن كيف أُخِذَ لم يرد في النص إيضاح في جزئيات هذا الموضوع، إلّا أنّ للمفسّرين آراء متعددة تعويلاً منهم على الرّوايات الإسلامية «الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ» ومن أهم هذه الآراء رأيان.

١ ـ حين خُلق آدم ظهر أبناؤه على صورة الذّر إلى آخر نسل له من البشر «وطبقاً لبعض الرّوايات ظَهَرَ هذا الذّر أو الذرّات من طينة آدم نفسه» وكان لهذا الذرّ عقلٌ وشعور كافٍ للإستماع والخطاب والجواب، فخاطب الله سبحانه الذرّ قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟!...

(١) يقال ذرا فلان الحنطة ذرواً أو ذرّاها تذرية، أي نقّاها من الشوائب.

فَأجاب الذرّ جميعا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.

ثمّ عاد هذا الذرّ «أو هذه الذرات» جميعاً إلى صُلب آدم «أو إلى طينته» ومن هنا فقد سُميَ هذا العالم بعالم الذرّ... وهذا العهدُ بعهد «ألست»؟

فبناءً على ذلك فإنّ هذا العهد المشار إليه آنفاً هو عهد تشريعي، ويقوم على أساس «الوعي الذاتي» بين الله والناس.

٢ - إنّ المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الإستعداد «والكفاءات» و«عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأمهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم الله الإستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السرّ الإلهي في ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلي.... كما أودعه في عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها.

فبناءً على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه الله من عهد منهم أو سؤاله إيّاهم: ألست بربكم؟ كان بلسان التكوين والخلق، وما أجابوه كان باللسان ذاته.

ومثل هذه التعابير غير قليلة في أحاديثنا اليوميّة، إذ نقول مثلاً: لون الوجه يُخبر عن سره الباطني «سيماهم في وجوههم»، أو نقول: إنّ عيني فلان المجتهدتين تنبئان أنّه لم ينم الليلة الماضية.

وقد رُوي عن بعض أُدباء العرب وخطبائهم أنّه قال في بعض كلامه: سَل الأرض من شق أنهارَكِ وغرس أشجارَكِ وأينع ثمارَكِ؟ فإن لم تُجبكَ حواراً أجابتك اعتباراً!...

كما ورد في القرآن الكريم التعبير على لسان الحال، كالآية (١١) من سورة فصلت، إذ جاء فيها ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

هذا باختصار هو خلاصة الرأيين أو النظرتين المعروفتين في تفسير الآيات آنفة الذكر، إلّا أنّ التفسير الأوّل فيه بعض الإشكالات ذكرها في (الأمثل ج٥، ص١٩٧ فراجع).

وقال في الميزان: والتدبر في الآيتين وقد عطفت إحدى الحُجّتين على الأخرى بأو الترديدية، وبنيت الحُجّتان جميعاً على العلم اللازم للإشهاد، ونُقلتا جميعاً عن بني آدم المأخوذِين المفرّقين يعطي أن الحجتين كل واحدة منهما مبنية على تقدير من تقديري عدم الإشهاد كذلك.

والمراد أنا أخذنا ذريتهم من ظهورهم وأشهدناهم على أنفسهم فاعترفوا بربوبيتنا فتمّت لنا الحجة عليهم يوم القيامة، ولو لم نفعل هذا ولم نشهد كل فرد منهم على نفسه بعد أخذه فإن كنا أهملنا الإشهاد من رأس لم يشهد أحد نفسه وأن الله ربه، ولم يعلم به لأقاموا جميعاً الحجة علينا يوم القيامة بأنهم كانوا غافلين في الدنيا عن ربوبيتنا، ولا تكليف على غافل ولا مؤاخذة، وهو قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾.

وإن كنا لم نهمل أمر الإشهاد من رأس، وأشهدنا بعضهم على أنفسهم دون بعض بأن أشهدنا الآباء على هذا الأمر الهام العظيم دون ذرياتهم ثم أشرك الجميع كان شرك الآباء شركاً عن علم بأن الله هو الرب لا رب غيره فكانت معصية منهم، وأما الذريّة فإنما كان شركهم بمجرد التقليد فيما لا سبيل لهم إلى العلم به لا إجمالاً ولا تفصيلاً، ومتابعة عملية محضة لأبنائهم فكان آباؤهم هم المشركون بالله العاصون في شركهم لعلمهم بحقيقة الأمر، وقد قادوا ذريته الضعاف في سبيل شركهم بتربيتهم عليه وتلقينهم ذلك، ولا سبيل لهم إلى العلم بحقيقة الأمر وإدراك ضلال آبائهم وإضلالهم إياهم، فكانت الحجة لهؤلاء الذريّة على الله يوم القيامة لأن الذين أشركوا وعصوا بذلك وأبطلوا الحق هم الآباء فهم المستحقين للمؤاخذة، والفعل فعلهم، وأما الذريّة فلم يعرفوا حقاً حتى يزمروا به فيعصوا بمخالفته فهم لم يعصوا شيئاً ولم يبطلوا حقاً، وحينئذٍ لم تتم حجة على الذريّة فلم تتم الحجة على جميع بني آدم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

فإن قلت: هنا بعض تقادير أُخر لا يفي به البيان السابق كما لو فرض إشهاد الذريّة على أنفسهم دون الآباء مثلاً أو إشهاد بعض الذريّة مثلاً كما أن تكامل النوع الإنساني في العلم والحضارة على هذه الوتيرة يرث كل جيل ما

تركه الجيل السابق ويزيد عليه بأشياء فيحصل للاحق ما لم يحصل للسابق.

قلت: على أحد التقديرين المذكورين تتم الحجة على الذريّة أو على بعضهم الذين أشهدوا. وأما الآباء الذين لم يشهدوا فليس عندهم إلّا الغفلة المحضة عن أمر الربوبية فلا يستقلون بشرك إذ لم يشهدوا، ولا يسع لهم التقليد إذ لم يسبق عليهم فيه سابق كما في صورة العكس فيدخلون تحت المحتجين بالحجة الأولى: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

وأما حديث تكامل الإنسان في العلم والحضارة تدريجاً فإنّما هو في العلوم النظرية الإكتسابية التي هي نتائج وفروع تحصل للإنسان شيئاً فشيئاً، وأما شهود الإنسان نفسه وأنه محتاج إلى رب يربه فهو من مواد العلم التي إنما تحصل قبل النتائج، وهو من العلوم الفطرية التي تنطبع في النفس انطباعاً أولياً ثم يتفرع عليها الفروع، وما هذا شأنه لا يتأخر عن غيره حصولاً، وكيف لا، ونوع الإنسان إنّما يندرج إلى معارفه وعلومه عن الحس الباطني بالحاجة كما قرر في محله.

فالمتحصل من الآيتين أنّ الله سبحانه فصل بين بني آدم بأخذ بعضهم من بعض ثم أشهدهم جميعاً على أنفسهم وأخذ منهم الميثاق بربوبيته فهم ليسوا بغافلين عن هذا المشهد وما أخذ منهم الميثاق حتى يحتج كلهم بأنهم كانوا غافلين عن ذلك لعدم معرفتهم بالربوبية أو يحتج بعضهم بأنّه إنّما أشرك وعصى آباؤهم وهم برآء.

ولذلك ذكر عدة من المفسّرين أنّ المراد بهذا الظرف المشار إليه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ هو الدنيا، والآيتان تشيران إلى سنة الخلقة الإلهية الجارية على الإنسان في الدنيا فإنّ الله سبحانه يخرج الذريّة الإنسانية من أصلاب آبائهم إلى أرحام أُمهاتهم ومنها إلى الدنيا، ويشهدهم في خلال حياتم على أنفسهم، ويريهم آثار صنعه وآيات وحدانيته، ووجوه احتياجاتهم المستغرقة لهم من كل جهة الدالة على وجوده ووحدانيته فكأنه يقول لهم عند ذلك: ألست بربكم، وهم يجيبونه بلسان حالهم: بلى شهدنا بذلك، أنت ربنا لا رب غيرك، وإنّما فعل الله سبحانه ذلك لئلا يحتجوا على الله يوم القيامة بأنّهم كانوا

غافلين عن المعرفة، أو يحتج الذريّة بأن آباؤهم هم الذين أشركوا، وأما الذريّة فلم يكونوا عارفين بها وإنما هم ذريّة من بعدهم نشأوا على شركهم من غير ذنب.

وقد طرح القوم عدة من الروايات تدل على أن الآيتين تدلان على عالم الذرّ، وأنّ الله أخرج ذريّة آدم من ظهره فخرجوا كالذرّ فأشهدهم على أنفسهم وعرفهم نفسه، وأخذ منهم الميثاق على ربوبيته فتمت بذلك الحجة عليهم يوم القيامة. (الميزان).

الإدراكات الفطرية في القرآن

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]،

التّفسير

قال في الأمثل: يعود القرآن الكريم مرّةً أُخرى بعرض جملة أُخرى من النِّعم الإلهية كدرس في التوحيد، ومعرفة الله، وأول ما يشير في هذه الآيات المباركات إلى نِعمة العلم والمعرفة، ووسائل تحصيله ويقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

فمن الطبيعي أنكم في ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شيء، ولكن عندما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، ولهذا فقد زوّدكم الباري سبحانه بوسائل إدراك الحقائق، ومعرفة الموجودات ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

وهنا نطرح الملاحظات التالية:

١ - بداية الإدراك عند الإنسان:

تصرّح الآية بوضوح بأنّ الإنسان حين يولد فإنّه لا يدرك من الأشياء شيئاً، وكل ما يدركه إنّما هو بعد الولادة وبواسطة الحواس التي منحه الله إيّاه.

ويواجهنا الإشكال التالي: إنّ الإنسان مُزوَّد بجملة من العلوم الفطرية كالتوحيد ومعرفة الله، بالإضافة إلى بعض البديهيات مثل (عدم اجتماع النقيضين، الكل أكبر من الجزء، حسن العدل، قبح الظلم... الخ)، وكل هذه المعلومات قد أودعت في قلوبنا وتولّدت معنا... فكيف يقول القرآن إنّ الإنسان حين يخرج من محيط الجنين ليس له من العلم شيئاً؟

وهل علمنا بوجودنا (والذي هو علم حضوري) لم يكن فينا وإنّما نكتسبه عن طريق السمع والبصر والفؤاد؟

وللإجابة على هذا الإشكال، نقول: إنّ العلوم البديهية والضرورية والفطرية لم تكن في الإنسان بصورة فعلية حين ولادته، وإنّما على شكل استعداد ووجود بالقوّة.

وبعبارة أُخرى: إنّنا عند الولادة نكون في غفلة عن كل شيء حتى عن أنفسنا التي بين جنبينا، إلّا أنّ مسألة إدراك الحقائق تكمن فينا بصورة القوّة لا الفعل، وبالتدريج تحصل لأعيننا قوّة النظر ولآذاننا قوّة السمع ولعقولنا القدرة على الإدراك والتجزئة والتحليل، فننعم بهذه العطايا الإلهية الثلاث التي بواسطتها نستطيع أن ندرك كثيراً من التصورات ونودعها في العقل لكي ننشىء منها مفاهيم كلية، ومن ثمّ نصل إلى الحقائق العقلية بطريق (التعميم) و(التجريد).

وتصل قدرتنا الفكرية إلى إدراك أنفسنا (باعتبارها علماً حضورياً) ومن ثمّ تتحرر العلوم التي أُودعت فينا قوّةً لتصبح علوماً بالفعل، ونجعل بعد ذلك من العلوم البديهية والضرورية سلّماً للوصول إلى العلوم النظرية وغير البديهية.

وعلى هذا... فالعموم والكلية التي نطقت بها الآية (من أنّنا لا نعلم شيئاً عند الولادة) ليس لها استثناء ولا تخصيص.

٢ ـ نعمة وسائل المعرفة:

ممّا لا شك فيه عدم إمكانية استيعاب ودخول العالم الخارجي في وجودنا، والحاصل الفعلي هو رسم صورة الشيء الخارجي المراد في الذهن، وبواسطة الوسائل المعينة لذلك، وعليه... فمعرفتنا بالعالم الخارجي تكون عن طريق أجهزة خاصّة منها السمع والبصر.

وتنتقل هذه الآلات والأجهزة كل ما تلتقطه من الخارج لتودعه في أذهاننا وعقولنا، ونقوم بواسطة العقل والفكر بعملية التجزئة والتحليل...

ولذلك بيّنت الآية مسألة عدم علم الإنسان المطلق حين الولادة، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ لكي تحصلوا على حقائق الوجود وتدركوها.

ونشاهد تقديم ذكر السمع على البصر في الآية مع ما للعين من عمل أوسع من السمع، ولعل ذلك لسبق الأذن في العمل على العين بعد الولادة، حيث إنّ العين كانت في ظلام دامس (في رحم الأم) ونتيجة لشدّة أشعة النّور (بعد الولادة) فإنّها لا تستطيع العمل مباشرة بسبب حساسيتها، وإنّما تتدرج في اعتيادها على مواجهة النّور حتى تصل للحالة الطبيعية المعتادة، ولذا نجد الوليد في بداية أيّامه الأولى مغلق العين، أمّا بخصوص الأذن. . . فثمة مَنْ يعتقد بأنّ لها القدرة على السماع (قليلاً أو كثيراً) وهي في عالم الأجنّة، وأنّها تسمع دقات قلب الأم وتعتاد عليها!

أضف إلى ذلك أنّ الإنسان إنّما يرى بعينه الأشياء الحسيّة فقط، في حين أن الأذن تعتبر وسيلة للتربية والتعليم في جميع المجالات، فالإنسان يصل بواسطة سماع الكلمات إلى معرفة جميع الحقائق سواء ما كان منها في دائرة الحس أو ما كان خالجها، وليس للعين هذه السعة، وصحيح أنّ الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطة القراءة، إلّا أنّ القراءة ليست عامّة لكل الناس وسماع الكلمات أمر عام.

أمّا سبب ورود «السمع» بصيغة المفرد و«الأبصار» بصيغة الجمع، فقد بيّناه عند تفسيرنا للآية (٧) من سورة البقرة. (الأمثل).

وثمّة ملاحظة أُخرى ينبغي ذكرها تتعلق بكلمة «الفؤاد» فقد جاءت هنا بمعنى القلب (العقل) الذي يعيش حالة التوقد، وبعبارة أُخرى: يعيش حالة التّفسير والتحليل والإبتكار.

يقول الراغب في مفرداته: (الفؤاد كالقلب، لكنّ يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي التوقد). ومن المسلّم به أن هذا الموضوع يحصل للإنسان بعد حصوله على تجارب كافية.

وعلى أي حال، فآلات المعرفة وإن لم تنحصر بهذه الأجهزة الثلاث، إلّا أنّها أفضل الأجهزة جميعاً، لأنّ علم الإنسان إمّا أن يكون عن طريق التجربة أو عن طريق الإستدلالات العقلية، ولا تجربة بدون السمع والبصر، ولا استدلالات عقلية من غير الفؤاد (العقل).

٣ ـ (لعلكم تشكرون):

تعتبر نعمة أجهزة تحصيل العلم من أفضل النعم التي وهبها الله للإنسان، فلا يقتصر دور العين والأذن (مثلاً) على النظر إلى آثار الله في خلقه، والإستماع إلى أحاديث أنبياء الله وأوليائه، وتفهم ذلك، وتدركه بالتحليل والإستنتاج، بل إنّ كل خطوة نحو التكامل والتقدم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه الوسائل الثلاثة.

وغاية إعطاء هذه الوسائل إنّما تستوجب شكر الواهب، لأنّه من خلالها يمكن الحصول على العلم والمعرفة اللذين بهما امتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات.

وممّا لا شك فيه أنّ الإنسان ليقف عاجزاً أمام حقّ شكر المولى وليس له إلّا الإعتذار.

وقال في مفاهيم القرآن: دلّت الأبحاث الماضية على أنّ للإنسان إدراكات فطرية، وهي تواكب جيمع مراحل حياته، وتتكامل بتكامل وجوده، وتتفتّح بتفتح مشاعره... ولكن، بما يتوهم أنّ هذا منقوض بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. فهذه الآية تُؤيِّد ما ذهب إليه علماء النفس من خلوّ صفحة النفس من المعلومات في بدء تكوّنها، بلا فرق بين العلوم الفطرية وغيرها.

والجواب عن هذا واضح بعد الوقوف على مقدّمة وهي: إنّ التصوُّرات والتصديقات إما كسبية أو بديهية، والكسبية إنّما يمكن تحصيلها بواسطة تركيب البديهيات، فلا بدَّ من سبق هذه العلوم البديهية...

وصفوة العقل: إن هناك في النفس البشرية سلسلة من المعلومات على صورة خمائر تتجلّى وتظهر، وتتفتَّح شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، ومع احتكاك الإنسان بالوقائع الخارجية، ولا يُسمّى هذا علماً فعليّاً وإدراكاً حاضراً.

وبالتالي فالآية ناظرة إلى ذلك... أي إنّ الإنسان منذ أن يخرج من بطن أمّه ليس فيه علم فعلي، ولا ينافي وجود ما يشبه خمائر العلوم التي تحتاج إلى أرضية للتفتُّح، والظهور.

تجلي الفطرة عند الشدائد في القرآن

تَجلِّي الفطرة عند الشدائد:

من المعلوم أن فطرية الإيمان بالله لا تعني بالضرورة أن يكون الإنسان متوجهاً إلى الله دائماً ملتفتاً إليه متذكراً إيّاه في جميع حالاته وآنات حياته اليومية، إذ رب عوامل تتسبب في إخفاء هذا الإحساس في خبايا النفس وحناياها وتمنع من تجليه، وظهوره على سطح الذهن، وفي مجال الوعي والشعور.

وأما عندما يرتفع ذلك الحجاب المانع عن الفطرة فإذا بالإنسان يسمع نداء فطرته بوضوح.

أجل... هذه حقيقة لا تنكر... فعندما يواجه المرء حوادث مخفية نجده يتوجه إلى الله، ويستنجد به بحكم فطرته طالباً منه تيسير عمله، وتسهيل أمره.

عندما تقع للإنسان حوادث خطيرة كهجوم الأمواج العاتية على السفينة التي يركبها في عرض البحر، أو حدوث عطل فني في الطائرة التي يمتطيها في الجو، أو انحراف السيارة التي يستقلها، أو يتعرض لهجوم سيل كاسح على قريته أو مدينته.

أقول عندما يواجه الإنسان أحد هذه المخاطر نراه يتوجه من فوره ـ وبصورة تلقائية فطرية ـ إلى الله، وتحدث لديه حالة عرفانية قلبية، يطلب فيها من الله سبحانه الخلاص والنجاة.

ففي هذه الحالة صار (الخوف) مذكراً إياه بنداء الفطرة وكاشفاً عنها لا موجداً للإيمان بالله.

فلا يصح لنا أن نستنتج من توجه البشر إلى الله في هذه الحالة وفي هذه اللحظات من حياته بأن الإيمان وليد الخوف والرهبة من الطبيعة الغاضبة كما يدعي الماركسيون ومن حذا حذوهم بل الخوف مجرد وسيلة تكشف الغطاء عن ذلكم (الإيمان) المغروس في أعماق البشر، المودوع في الفطرة بيد الخالق العظيم.

إن غريزة (حب الجمال) واكتناز الثروة وطلب العلم رغم أنها أمور مجبولة مع فطرتنا ومعجونة مع خلقتنا فهي لا تظهر ولا تنفتح ولا تبرز في كل الأوقات والظروف، ولا تتجلّى في عالم الذهن في كل الأزمنة والأحوال، ما لم تتهيأ الظروف المناسبة لها في وجودنا.

وكذلك تكون «غريزة التدين» وفطرة الإيمان بالله.

وها هو القرآن الكريم يُذكِّرنا بهذه الحقيقة فيخبرنا كيف أن فريقاً من البشر يذكرون الله سبحانه ويتوجَّهون إليه في مواقع الشدة والخطر... أي عندما تواجه سفنهم طغيان الأمواج ـ مثلاً ـ.

ففي هذا الموضوع ـ بالذات ـ يتذكرون الله وينسون ما سواه من العلل المادية حتى الأصنام التي كانوا يتصورون بأنّها مقربة لهم إلى الله، فيدعون الله ويطلبون منه بكل إخلاص أن ينجيهم مما هم فيه:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ [يونس: ٢٣].

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٣-٥٤].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

هذه الآيات كلها تفيد أن الإيمان بالله مزروع في فطرة الإنسان، غاية ما في الأمر أن الإنسان قد يغفل عن ذلك بعض الأحيان بسبب ما يعتريه من سهو ولهو ولذّات منسية سريعة الفوت، ولكنه سرعان ما يعود بحكم فطرته إلى الله ـ عندما يواجه الشدائد وتفقد الحياة رتابتها ـ فهنالك لا يرى سوى الله منقذاً ومُخلِّصاً، ولا يرى في غيره ولياً ولا نصيراً.

الخلق والتقدير الدقيق في القرآن

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

يعني ليس كمثل اعتقاد الثنويين الذين يعتقدون بأنّ قسماً من موجودات هذا العالم مخلوقات «الله» وإنّ قسماً منها مخلوقات «الشيطان» وبهذا الترتيب كانوا يقسّمون الخلق بين الله والشيطان ذلك لأنّهم كانوا يتوهمون الدنيا مجموعة من «الخير» و«الشر» والحال أنّه لا شيء في الوجود إلّا الخير من وجهة نظر المُوحِّد الحق، فإذا رأينا شرّاً، فإمّا أن يكون ذا جنبة «نسبية» أو «عدمية» أو أن يكون نتيجة لأعمالنا.

ما هو معنى الخالقية؟

ماذا يراد من أن الله سبحانه هو الخالق الوحيد وأن الذوات والأشياء وما يتبعها من الأفعال والآثار حتى الإنسان وما يصدر منه، مخلوقات لله سبحانه بلا مجاز ولا شائبة عناية؟

إن الوقوف على تلك الحقيقة القرآنية يتوقف على تحليل معنى الخلق لغةً واستعمالاً.

إن لفظة «الخلق» تارةً يراد منها «التقدير» وأخرى الإبداع والإيجاد، والميزان في ذلك هو أنه إذا قيل: خلق هذا من ذاك وذكرت معه المادة القابلة للصياغة والتصوير والنحت والتشكيل يراد منه التقدير، قال سبحانه حاكياً عن سيدنا المسيح ﷺ: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

يقال: خلقت الأديم للسقاء: إذا قدرته، ويقال أيضاً خلق العود: سواه[1].

---

(١) المقاييس لابن فارس ج٢ ص٢١٤، والقاموس المحيط مادة خلق.

وأما إذا تعلق الخلق بالشيء ونسب إليه من دون أن يقترن بمادة خاصة فيراد منه الإبداع والإيجاد من كتم العدم كقوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

نعم دلت البراهين الفلسفية على أن «الخلق» لا ينفك عن الإيجاد والإبداع حتى في القسم الأول فإن المادة وإن كانت موجودة لكن الصورة ـ لا شك ـ إنّها إبداعية قطعاً كقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

ولعله لذلك اكتفى ابن فارس في مقاييسه في توضيح معنى الخلق بالمورد الأول أي التقدير ولم يذكر المورد الثاني اعتماداً بأن التقدير لا ينفك عن الإيجاد والإبداع كما أن الإيجاد لا ينفك عن التقدير. كما صرح بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

ثم إنّه وقع النزاع في صحة استعمال لفظة الخلق في الأفعال، لغةً، وأنه هل يتعلق الخلق بالأفعال كتعلقه بالذوات، أو أنّه لا يتعلق إلّا بالذوات، وأما الأفعال والأحداث فيتعلق بها الإيجاد، والإنسان مُوجِدٌ لفعله لا خالق له، فيقال: أوجد فعله ولا يقال: خلقه.

وربما يستدل على صحة تعلقه بالفعل والعمل بقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٣-٩٦].

والشاهد هو قوله: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ هو الأصنام التي كانوا يعملونها وينحتونها بقرينة ما سبقها من الآيات أعني قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ والمقصود أن الله خلقكم وخلق الأصنام التي تصنعونها، ويكون وزان الآية وزان قوله.

وإليك هذا البحث العلمي الدقيق في تقدير الموجودات ليس نظام العالم الدقيق والمتقن (وحده) من الدلائل المحكمة على معرفة الله وتوحيده، فتقديراته الدقيقة أيضاً دليل واضح آخر، إننا لا يمكن أن نعتبر مقادير موجودات هذا العالم المختلفة، وكميّتها وكيفيتها المحسوبة، معلولة للصدفة التي لا تتوقف مع حساب الاحتمالات، وقد تقصّى العلماء الأمر في الصدد، وأزاحوا الستار عن أسراره المدهشة التي تذهل فكر الإنسان، وتترك لسانه يترنّم بتمجيد عظمة وقدرة الخالق بلا اختيار.

ونعرض لكم (هنا) جانباً من ذلك يقول العلماء: لو كانت قشرة الأرض أسمك ممّا هي عليه الآن بمقدار بضعة أقدام لما وجد غاز «الأوكسجين» الذي يعتبر المادة الأصلية للحياة ولو كان البحار أعمق من عمقها الفعلي عدّة أقدام لامتصت جميع ما في الجو من الكاربون والأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة لحيوان ونبات على سطح الأرض، ويحتمل أن تقوم قشرة الأرض والبحار بامتصاص كل الأوكسجين، وكان على الإنسان أن ينتظر نمو النباتات التي تلفظ الأوكسجين.

وطبقاً للحسابات الدقيقة في هذا المجال يتّضح أنّ للأوكسجين مصادر مختلفة، ولكن مهما كان مصدره فإنّ كميته مطابقة لاحتياجاتنا بالضبط.

ولو كانت طبقة الغلاف الجوي أرق ممّا هي عليه الآن، فإنّ بعض الشهب التي تحترق كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي، كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق. ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة، ولو تعرض الإنسان للإصطدام بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة لتحول إلى رماد لمجرّد حرارته.

الغلاف الجوي سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيماوي التي يحتاج إليها الزرع والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالإنسان، إلّا إذا عرّض نفسه لها مدة أطول من اللازم، وعلى الرغم من الإنبعاثات الغازية من أعماق الأرض طول الدهور، ومعظمها سام، فإنّ الهواء باق دون تلوث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.

إنّ الجهاز الذي يقوم بهذه الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء، أي البحار والمحيطات التي هي مصدر الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل، وأخيراً استمد الإنسان نفسه جميع تلك المقومات الحيوية منهما، فدع من يدرك ذلك يقف في روعة أمام عظمته تعالى، ويقرُّ بواجباته شاكراً!

إنّ التعادل العجيب بين الأوكسجين وثاني أُوكسيد الكاربون فيما يتعلق بالحياة الحيوانية، وعالم النبات كلّه، قد استرعت أنظار كل العالم المفكر،

غير أن أهمية ثاني أوكسيد الكاربون لم يدركها الجميع بعد، وثاني أوكسيد الكاربون هو الغاز المألوف في تعبئة ماء الصودا، وهو غاز ثقيل، ولحسن الحظ يعلق بالأرض، ولا يتمّ فصله إلى أوكسجين وكاربون إلّا بصعوبة كبيرة، وإذا أشعلت ناراً، فإنّ الخشب ـ الذي يتكون غالباً من الأوكسجين والكاربون والهيدروجين ـ يتحلل تحت تأثير الحرارة ويتحد الكاربون مع الأوكسجين بشدّة، وينتج من ذلك ثاني أوكسيد الكاربون، والهيدروجين الذي يطلق يتحد بمثل تلك الشدّة مع الأوكسجين فنحصل على بخار الماء. ومعظم الدخان هو كاربون خالص غير متحد مع غيره.

وحين يتنفس رجل فإنّه يستنشق الأوكسجين فيتلقاه الدم، ويقوم بتوزيعه إلى جميع أنحاء جسمه، ويقوم هذا الأوكسجين بحرق طعامه في كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة واطئة نسبياً، النتيجة هي ثاني أوكسيد الكاربون وبخار الماء.

وبذلك يتسلل ثاني أوكسيد الكاربون إلى رئتيه، ويعود إلى الجو مرّة أُخرى من خلال الزفير، وكلّ كائن حيواني حي يمتص الأوكسجين ويلفظ ثاني أوكسيد الكاربون.

ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذي منع أي حيوان ـ مهما يكن من وحشيته، أو ضخامته، أو مكره ـ من السيطرة على العالم غير أنّ الإنسان وحده بإمكانه قلب هذا التوازن الذي للطبيعة، بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر، وسرعان ما يلقى جزاءه القاسي على ذلك ماثلاً في تطورات آفات الحيوان والحشرات والنبات.

والواقعة الآتية مَثَلٌ بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان، فمنذ سنوات عديدة زُرِعَ نوع من الصبّار (الكاكتوس) في أستراليا كسياج وقائي. ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا، وزاحم أهالي المدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة، ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الانتشار، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش الزرع الصامت، يتقدم في سبيله دون عائق!

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلّا

على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو يعوقها في أستراليا. وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبّار، ثمّ تراجعت، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية، تكفي لصد الصبّار عن الانتشار إلى الأبد.

وهكذا توافرت الضوابط والموازين، وكانت دائماً مجدية.

ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريات على العالم وتقتل بذلك النوع البشري مع أنّ البعوض متوفر في جميع أنحاء العالم حتى في القطبين؟ ومثل ذلك يمكن أيضاً أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك.

ولماذا لم تتطور ذبابة «تسي تسي» «الذبابة المنومة» حتى تستطيع أن تعيش في غير مناطقها الحارّة، وتمحو الجنس البشري من الوجود؟ يكفي أن يذكر الإنسان الأوبئة والجراثيم الفتّاكة التي لم يكن منها وقاء حتى الأمس القريب، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ليعلم أن بقاء الجنس البشري معها يدعو حقاً إلى الدهشة[1].

وفي سورة القمر تقول الآية (٤٩): ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾. فهي تعني: التقدير والحساب في كل شيء وهذه الآية رغم إيجازها تشير إلى حقيقة مهمّة كامنة في جميع الكون، وحاكمة عليها وهي دقّة الخلق والتقدير في جميع الموجودات، ومهما تطوَّر العلم، فإنّ الإنسان يطّلع على مزيد من هذه الحسابات والتقديرات الإلهية الدقيقة في عالم الوجود، والتي تشمل الكائنات المجهرية، والأجرام السماوية العظيمة.

فمثلاً: نسمع عن روّاد الفضاء أنّهم طبقاً للحسابات العلمية الدقيقة التي أنجزت بواسطة مئات الأفراد المتخصّصين المستخدمين العقول الإلكترونية أنهم سيهبطون بسفنهم الفضائية بنفس النقطة المحدّدة لهم على سطح القمر، مع العلم أنّ كلّ شيء سيتغيّر في الفترة الزمنية التي تسير فيها السفينة الفضائية بين الأرض والقمر، حيث يدور القمر حول نفسه وكذلك حول الأرض ويتغيّر

(١) اقتباس من كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» تأليف كريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان (العلم يدعو للإيمان) من صفحات ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧١، ١٥٩، ١٦٠.

مكانه بصورة كليّة، وتدور الأرض حول نفسها، وكذلك حول الشمس وبسرعة فائقة بحيث لا تتخلّف عن هذه الأنظمة، يستطيع الفضائيون الهبوط في النقطة المحدّدة لهم على سطح القمر نتيجة تلك الحسابات والتقديرات الدقيقة.

ويستطيع المنجّمون كذلك من التنبّؤ بالخسوف والكسوف الجزئي والكلّي، وقبل عشرات السنين، وفي مختلف نقاط العالم، وتلك قرائن ودلائل على دقّة المقاييس في هذا الوجود العظيم.

وفي الكائنات الصغيرة والديدان الدقيقة نلاحظ دقّة المقاييس والحساب بصورة تدعو للظرافة والإعجاب والإنبهار عندما نشاهد طبيعة العروق والأعصاب والأجهزة المختلفة لهذه الكائنات.

وعندما نُدقّق في الكائنات المجهرية كالميكروبات والفيروسات والأميبيات يبلغ إعجابنا أوجه لما نلاحظه من الدقّة فيها، حيث إنّ الواحد على الألف من المليم وأصغر من ذلك يدخل في عالم الحساب، والأعجب من ذلك حينما ندخل عالم الذرّة حيث تصل الدقّة فيها إلى حدّ لا يصدق وخارج عن الحدود المألوفة.

إنّ هذه المقاييس ليست مختصّة بالمسائل الكميّة فقط، بل إنّ التركيبات الكيفية أيضاً تتمتّع بنفس الخصوصيات الحسابية، فالنظام المتحكّم على روح الإنسان وميوله وغرائزه، وكذلك المقاييس الدقيقة في مسير المتطلّبات الفردية والإجتماعية للإنسان إذا طرأ عليها أي تغيير فإنّ النظام الحياتي الفردي والإجتماعي يتعرّض للتغيّر والإنهيار.

وفي عالم الطبيعة هنالك موجودات يتغذّى بعضها على البعض الآخر، وكلّ منها يوقف حالة النمو والتكاثر لكلّ منها، فالطيور الجارحة تتغذّى على لحوم الطيور الصغيرة، وتمنع تزايدها بصورة أكثر من اللازم حتّى لا تضرّ المحاصيل الزراعية، ولذا فإنّ الطيور الجارحة معمّرة، وهذه الطيور المعمّرة قليلة البيض والفراخ، وعدد محدود من هذه الأفراخ يستطيع العيش، حيث يستدعي نموّها وبقاؤها ظروفاً خاصّة، ولو قدّر لهذه الطيور أن يكون لها فراخاً كثيرة وبهذا العمر الطويل لأدّى ذلك إلى انقراض الطيور الصغيرة.

الهدف من الخلق في القرآن

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٦-١٨].

التّفسير

خلق السّماء والأرض ليس لهواً:

لمّا كانت الآيات السابقة قد عكست هذه الحقيقة وهي: إنّ الظالمين الذين لا إيمان لهم لا يعتقدون بوجود هدف وغاية من خلقهم إلّا الأكل والشرب والملذّات، ويظنّون أنّ العالم بلا هدف، القرآن الكريم يقول في الآيات التي نبحثها من أجل إبطال هذا النوع من التفكير، وإثبات وجود هدف عال وسام من وراء خلق كلّ العالم، وخاصّة البشر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

إنّ هذه الأرض الواسعة، وهذه السّماء المترامية الأطراف، وكلّ هذه الموجودات المتنوعة البديعة التي توجد في ساحتها تبيّن أنّ هدفاً مهمّاً في خلقها... نعم، إنّ الهدف هو بيان قدرة الخالق الجليل، وإبراز جانب من عظمته من جهة، ومن جهة أُخرى ليكون دليلاً على المعاد، وإلّا فإنّ كلّ هذه الضجّة والغوغاء إن كانت لبضعة أيّام فلا معنى لها.

هل يمكن أن يبني الإنسان قصراً في وسط صحراء، ويجهّزه بكلّ الوسائل، وذلك من أجل أن يستريح فيه ساعة واحدة ـ طول عمره ـ عند مروره عليه؟

بعبارة موجزة: إذا نظرنا إلى هذا العالم العظيم من منظار الكفّار، فسنراه لا فائدة فيه ولا هدف منه، والإيمان بالمبدأ والمعاد هو الذي يجعل له معنًى وغاية.

ثمّ تقول الآية التالية: الآن وقد ثبت أنّ العالم له هدف فإنّه لا ريب في أنّ الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو الله سبحانه وتعالى عن ذلك، فإنّ هذا اللهو غير معقول، فـ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

«اللعب» يعني العمل غير الهادف، و«اللهو» إشارة إلى الأهداف غير المعقولة والملاهي.

هذه الآية تبيّن حقيقتين:

الأولى: إنّه بملاحظة كلمة (لو)، وهي في لغة العرب للإمتناع، فهي تشير إلى أنّ من المحال أن يكون هدف الله هو اللهو.

والأخرى: إنّه على فرض أنّ الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهواً مناسباً لذاته، كأن يكون من عالم المجردات وأمثال ذلك، لا من عالم المادّة المحدود[(١)].

ثمّ تقول بلهجة قاطعة من أجل إبطال أوهام الجاهلين الذين يظنّون عدم هدفيّة الدنيا، بل هي اللهو واللعب فقط: إنّ هذا العالم مجموعة من الحقّ والواقع، ولم يقم أساسه على الباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. وتقول في النهاية: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾. وتتحدثون عن عدم هدفية الخلق.

أي إنّنا نجعل الأدلّة العقليّة والإستدلالات الواضحة والمعجزات البيّنة إلى جانب ظنون وأوهام اللاهدفيين. لتتبخّر وتتلاشى هذه الأوهام في نظر العلماء وأصحاب الفكر والرأي.

إنّ أدلّة معرفة الله واضحة، وأدلّة وجود المعاد بيّنة، وبراهين أحقّية الأنبياء جليّة، والحقّ يمكن تمييزه عن الباطل تماماً إذا لم يكن الشخص من المعاندين.

---

(١) اعتبر بعض المفسّرين الآيات أعلاه إشارة إلى نفي عقائد المسيحيين، أي اعتقدوا أنّ اللهو بمعنى الزوج والزوجة والولد. وقالوا: إنّ الآية تجيب هؤلاء وتقول: إنّنا إذا كنّا نريد أن نختار الصاحبة والولد فلم نكن ننتخبهما من جنس البشر.
إلاّ أنّ هذا التفسير لا يبدو مناسباً من عدّة جهات، ومن جملتها أنّ ارتباط الآيات أعلاه بالآيات السابقة سيقطع. والأخرى أنّ كلمة «اللهو» وخاصة إذا كانت بعد كلمة اللعب، تعني التسلّي لا المرأة والولد.

وممّا يستحقّ الإنتباه أنّ جملة «نقذف» من مادة (قذف) بمعنى الإلقاء، وخاصّةً الإلقاء من طريق بعيد، ولمّا كان للقذف من بعيد سرعة وقوّة أكثر، فإنّ هذا التعبير يبيّن قدرة انتصار الحقّ على الباطل، وكلمة «على» أيضاً مؤيّدة لهذا المعنى.

وجملة «يدمغه» على قول الراغب كسر «الجمجمة والدماغ»، وتعتبر أكثر نقطة في بدن الإنسان حساسّية، وهو تعبير بليغ عن غلبة جند الحقّ غلبة واضحة قاطعة.

والتعبير بـ(إذا) توحي بأنّا حتّى في الموارد التي لا يُنتظر ولا يُتوقع إنتصار الحقّ فيها، فإنّنا سنجري هذه السنّة. والتعبير بـ«زاهق» والذي يعني الشيء المضمحل، تأكيد على هذا المقصود.

وأمّا أنّ جملتي (نقذف) و(يدمغ) قد جاءتا بصيغة الفعل المضارع، فهو دليل على استمرار هذه السنّة.

بحث

الهدف من الخلق:

في الوقت الذي لا يعترف الماديّون بهدف للخلق، لأنّهم يعتقدون أنّ الطبيعة الفاقدة للعقل والشعور والهدف هي التي ابتدأت الخلق، ولهذا فإنّهم يؤيّدون اللغوية وعدم الفائدة في مجموعة الوجود، فإنّ الفلاسفة الإلهيين وأتباع الأديان جميعاً يعتقدون بوجود هدف سام للمخلوقات، لأنّ المبدىء للخلق قادر وحكيم وعالم، فمن المستحيل أن يقوم بعمل لا فائدة فيه.

وهنا ينقدح هذا السؤال: ما هو الهدف:

قد نتوهّم أحياناً نتيجة قياس الله سبحانه على ذواتنا وأنفسنا ونتساءل: هل كان الله محتاجاً وينقصه شيء، وكان يريد بخلق الوجود، ومن جملته الإنسان، أن يسدّ ذلك النقص ويرفع تلك الحاجة؟

هل هو محتاج لعبادتنا ودعائنا ومناجاتنا؟ هل كان يريد أن يُعرف فخلق الخلق ليُعرف؟

إلّا أنّ هذا كما قلنا خطأ كبير ناشىء من المقارنة بين الله وخلقه، في حين أنّ هذه المقارنة والقياس غير الصحيح هو أكبر سدّ ومانع في بحث معرفة صفات الله، ولذلك فإنّ أوّل أصل في هذا البحث هو أن نعلم أنّ الله سبحانه لا يشبهنا في أي شيء.

فالإنسان موجود محدود من كلّ النواحي، ولذلك فإنّ كلّ مساعينا هي من أجل رفع نواقصنا واحتياجاتنا، ندرس لنتعلّم فنمحو نقص جهلنا، ونسعى للعمل والكسب لدفع الفقر ونكسب الثروة، نهيّىء الجيوش والقوى لنسدّ النقص في قوانا أمام العدوّ، وحتّى في الأمور المعنوية أو تهذيب النفس أو التكامل المعنوي والروحي، فإنّ السعي والجدّ في كلّ ذلك من أجل رفع النواقص.

ولكن، هل من المعقول أن يقوم الوجود المطلق غير المتناهي في كلّ الجهات (فعلمه وقدرته وقوّته غير محدودة، ولا يعاني أي نقص في الوجود) بعمل لرفع حاجته؟

يتّضح من هذا التحليل أنّ الخلق ليس عبثاً من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ الهدف من الخلق لا يعود إلى الخالق، وهنا يمكن أن نصل ببساطة إلى نتيجة، وهي: إنّ الهدف، حتماً ولا شكّ أمرٌ يرتبط بنا.

ومع ملاحظة هذه المقدّمة يمكن التوصّل إلى أنّ هدف الخلقة هو تكاملنا وارتقاؤنا ولا شيء سواه.

وبتعبير آخر فإنّ عالم الوجود بمثابة مدرسة لتكاملنا في مجال العلم.

ودار حضانة لتربية وتهذيب نفوسنا.

ومتجر لكسب الموارد المعنوية، وأرض زراعية غنيّة صالحة لإنتاج أنواع المحصولات الإنسانية.

أجل «الدنيا مزرعة الآخرة... الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها»[1].

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم١٣١.

فيقول في الجانب الأوّل: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧].

وفي الجانب الآخر، فإنّه جعل هدف الخلق في بعض الآيات عبودية الله وعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن البديهي أنّ العبادة منهج لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة... العبادة بمعناها الشمولي التي هي التسليم لأمر الله ستهب روح الإنسان تكاملاً في الأبعاد المختلفة، وقد بيّنا تفصيله في ذيل الآيات المرتبطة بالعبادات المختلفة.

ويقول أحياناً: إنّ الهدف من الخلقة هو إيقاظكم وتوعيتكم وتقوية إيمانكم واعتقادكم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢].

ويقول تارةً: إنّ الهدف من الخلق هو اختبار حسن عملكم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

إنّ الآيات الثلاث آنفة الذكر والتي يشير كلّ منها إلى بعد من أبعاد وجود الإنسان الثلاث ـ بعد الوعي والإيمان، وبعد الأخلاق، وبعد العمل ـ تبيّن هدف الخلق التكاملي الذي يعود على الإنسان نفسه.

ويجدر أن نشير إلى هذه «اللطيفة» وهي أنّه كانت آيات القرآن غير حاوية لكلمة التكامل، فإنّ بعضاً يتصوّر أنّها من الأفكار المستوردة؛ إلّا أنّ الردّ على مثل هذا التصوّر أو الإشكال واضح، لأنّنا لسنا في صدد الألفاظ الخاصّة، فمفهوم التكامل ومصاديقه جليّة في الآيات آنفة الذكر، تُرى ألم يكن العلم مصداقه الواضح... أم لم يكن الإرتقاء في العبودية وحسن العمل من مصاديقه!

فنحن نقرأ في الآية (١٧) من سورة محمّد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾، فهل يدلّ التعبير بالزيادة إلّا على التكامل؟

وهنا ينقدح سؤال، وهو: إذا كان الهدف هو التكامل، فلماذا لم يخلق الله الإنسان كاملاً منذ البداية حتّى لا يكون محتاجاً إلى طيّ مراحل التكامل؟

إنّ أساس هذا الإشكال هو الغفلة عن هذه النقطة، وهي أنّ العنصر الأصلي للتكامل هو التكامل الإختياري، وبتعبير آخر فإنّ التكامل يعني أن يطوي الإنسان الطريق بنفسه وإرادته وتصميمه، فإذا أخذوا بيده وأوصلوه بالقوّة والجبر فليس هذا افتخاراً ولا تكاملاً.

فمثلاً: لو أنفق الإنسان فلساً واحداً من ماله بإرادته وتصميمه، فقد طوى من طريق الكمال الأخلاقي بتلك النسبة، في حين أنّه لو أُجبر على إنفاق الملايين من ثروته، فإنّه لم يتقدّم خطوة واحدة في ذلك الطريق، ولذلك صرّح القرآن بهذه الحقيقة في الآيات المختلفة، وهي أنّ الله سبحانه لو شاء لأجبر الناس على أن يؤمنوا، إلّا أنّ هذا الإيمان لا نفع فيه لهؤلاء: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: ٩٩].

الربوبية في القرآن

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبا: ١٥].

يقول اللغوي العربي المعروف ابن فارس: «الرب، المالك، الخالق، الصاحب، والرب، يقال: رَبَّ فلان ضيعته إذا قام على إصلاحها والرب: المصلح للشيء، والله جلَّ ثناؤه الرب لأنه مصلح أحوال خلقه. والرب، الذي يقوم على أمر الربيب»[١].

ويكتب الفيروز آبادي قائلاً: «رب كلّ شيء: مالكه ومستحقه وصاحبه... رب الأمر: أصلحه»[٢].

وجاء في المنجد: «الرب: المالك، المصلح السيد»[٣].

وما يشابه هذا المعنى في كتب اللغة والقواميس الأخرى.

هل للرب معان مختلفة؟

إنّ وظيفة كتب اللغة والقواميس هي ضبط موارد استعمال اللفظة، سواء أكان المستعمل فيه هو الذي وضع عليه اللفظة أم لا، وأما تعيين الأوضاع وتمييز الحقائق عن المجازات فخارج عما ترتئيه كتب اللغة.

وهذا هو نقص ملحوظ ومشهود بوضوح في كتب اللغة ومعاجمها إذ ما أكثر ما يجد الإنسان عدة معاني متباينة ومتمايزة للفظة واحدة حتى أنّه ليتصور ـ في أول وهلة ـ أن الواضع العربي جعل هذه اللفظة على عشرة معان في

---

(١) مقاييس اللغة ج٢ ص٣٨١.

(٢) قاموس اللغة مادة الرب.

(٣) المنجد مادة ربب.

عشرة أوضاع ولكن بعد التحقيق والدراسة يتبين أنّه ليس لهذه اللفظة سوى معنى واحد لا غير وأما بقية المعاني المذكورة فهي من شعب المعنى الأصلي.

ومن الصدف أن لفظة «رب» تعاني من هذا المصير حتّى أنّ كاتباً كالمودودي تصور أنّ لهذه اللفظة خمسة معان ـ في الأصل ـ وذكر لكل معنى من المعاني الخمسة شواهد من القرآن الكريم.

ولا شك في أنّ لفظة «رب» استعملت في الكتاب العزيز واللغة في الموارد التالية التي لا تكون إلّا صورة موسعة ومصاديق متعددة لمعنى واحد لا أكثر، وإليك هذه الموارد والمصاديق:

١ ـ التربية مثل رب الولد، رباه.

٢ ـ الإصلاح والرعاية مثل رب الضيعة.

٣ ـ الحكومة والسياسة مثل قد رب قومه أي ساسهم وجعلهم ينقادون له.

٤ ـ المالك كما جاء في الخبر عن النبي ﷺ أرب غنم أم رب إبل.

٥ ـ الصاحب مثل قوله: رب الدار أو كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣].

لا ريب أنّ هذه اللفظة قد استعملت في هذه الموارد وما يشابهها ولكن جميعها يرجع إلى معنى واحد أصيل، وما هذه المعاني سوى مصاديق وصور مختلفة لذلك المعنى الأصيل، وسوى تطبيقات متنوعة لذلك المفهوم الحقيقي الواحد، أعني من فوض إليه أمر الشيء المربي من حيث الإصلاح والتدبير والتربية.

فإذا قيل لصاحب المزرعة أنّه ربها فالأجل أن إصلاح أُمور المزرعة مرتبطة به وفي قبضته.

وإذا أطلقنا على سائس القوم، صفة الرب فلان أمور ذلك القوم مفوض إليه فهو قائدهم، ومالك تدبيرهم ومنظم شؤونهم.

وإذا أطلقنا على صاحب الدار ومالكها اسم الرب فلأنّه فوّض إليه أمر تلك الدار وإدارتها والتصرف فيها بما يشاء.

والنتيجة من هذا البحث ما يلي:

١ - إنّ ربوبية الله عبارة عن مدبريته تعالى للعالم لا عن خالقيته.

٢ - دلّت الآيات المذكورة في هذا البحث على أنّ مسألة «التوحيد في التدبير» لم تكن موضع اتفاق بخلاف مسألة «التوحيد في الخالقية» وإنّه كان في التاريخ ثمة فريق يعتقد بمدبرية غير الله للكون كله أو بعضه، وكانوا يخضعون أمامها باعتقاد أنّها أرباب.

وبما أنّ الربوبية في التشريع غير الربوبية في التكوين فيمكن أن يكون بعض الفرق موحداً في الثاني، ومشركاً في القسم الأوّل، فاليهود والنصارى تورطوا في «الشرك الربوبي» التشريعي لأنّهم أعطوا زمام التقنين والتشريع إلى الأحبار والرهبان وجعلوهم أرباباً من هذه الجهة فكأنه فوض أمر التشريع إليهم!!!

فها هو القرآن يقول عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

في حين أنّ الشرك في الربوبية لدى فريق آخر ما كان ينحصر بهذه الدائرة بل تمثل في إسناداته ببر بعض جوانب الكون، وشؤون العالم إلى الملائكة والجن والأرواح المقدّسة او الأجرام السماوية...

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، هذه الجملة القصيرة تُصوِّر مجموعة النعم المادية والمعنوية بأجمل تعابير، فبلحاظ النعم المادية أرض طيّبة خالية من الأمراض المختلفة، من السراق والظَلَمَةِ، من الآفات والبلايا، من الجفاف والقحط، من الخوف والوحشة، وقيل خالية حتّى من الحشرات المؤذية.

هواء نقي، ونسيم يبعث على السرور، أرض معطاءة وأشجار وافرة الثمر.

وأمّا بلحاظ النعم المعنوية فمغفرة الله التي شملتهم، والتغاضي عن تقصيرهم، وصرف البلاء والعذاب عنهم وعن بلدتهم.

ولكن هؤلاء الجاحدين غير الشكورين، لم يقدّروا تلك النعمة حقّ قدرها. ولم يخرجوا من بوتقة الإمتحان بسلام، سلكوا طريق الإعراض والكفران، فقرّعهم الله أيّما تقريع!!

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ استهانوا بنعمة الله، توهموا بأنّ العمران والمدنية والأمن أشياء عادية، نسوا الله، وأسكرتهم النعمة، وتفاخر الأغنياء على الفقراء، وظنّوا أنّهم يزاحمونهم في أرزاقهم ـ كما سيرد في الآيات اللاحقة ـ .

وهنا مسّهم سوط الجزاء يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ فدمّر بيوتهم ومزارعهم وحوّلها إلى خرائب.

«العرم»: من «العرمة» وهي شراسة وصعوبة في الخلق تظهر بالفعل، ووصف «السيل» بالعرم إشارة إلى شدّته وقابليته على التدمير. وتعبير «سيل العرم» من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة.

وقيل: «العرم» الجرذان الصحراوية، وهي التي سبّبت إنهيار السدّ بنفوذها فيه (قصّة نفوذ الجرذان الصحراوية في السدّ، مع كونها ممكنة ـ كما سيرد شرحه فيما بعد ـ لكن تعبير الآية ليس فيه أدنى تناسب مع هذا المعنى).

في «لسان العرب» مادّة «عرم» وردت معان مختلفة من جملتها «السيل الذي لا يطاق» ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]، وقيل: أضافه إلى المسنّاة أو السدّ، وقيل: إلى الفأر[١].

ولكن أنسب التفاسير هو الأوّل، وهو الذي اعتمده ـ أيضاً ـ علي بن إبراهيم في تفسيره.

---

(١) لسان العرب مادّة «عرم» ج١٢، ص٣٩٦.

تدبير الأمر في القرآن

ينص القرآن الكريم - بمنتهى الصراحة - على أنّ الله سبحانه هو المدبر الوحيد للعالم، وينفي أي تدبير يكون مظهراً لربوبية غير الله.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

ففي هاتين الآيتين وما شابههما تستدعي الجمل التالية: التأمل أكثر من أي شيء:

١ - ثم استوى على العرش.

٢ - يدبر الأمر.

٣ - ما من شفيع إلا بإذنه.

فنقول توضيحاً لهذه الجمل: ينتقل القرآن الكريم في هاتين الآيتين - بعد ذكر مسألة خلق السماوات والأرض - إلى مسألة الإستيلاء على العرش، والهدف من ذلك هو الإشعار بأن زمام الكون - بعد خلقه - بيده تعالى، ولم يفوضه إلى غيره. . . فهو الآخذ بزمام العالم كما هو خالقه، دون إهمال أو إيكال أو تفويض.

إن الإستيلاء على العرش (والمعني به مطلق عالم الوجود) كناية عن السيطرة الكاملة والتسلط التام على كل أجزاء الكون، وتمام عالم الممكنات.

وفي هاتين الآيتين والآيات المشابهة لهما[1]، طرح القرآن - بعد موضوع

---

(١) مثل سورة الأعراف، الآية ٥٤، سورة السجدة الآية ٤، سورة الحديد الآية ٤.

الإستيلاء على العرش ـ موضوع تدبير العالم ليفيد بأن المدبر هو الله تعالى، وليس سواه من مدبر.

ثم إن النكتة في ذكر شفاعة الشفيع بإذنه سبحانه بعد مسألة حصر التدبير بالله سبحانه هو أن المراد منه ـ في المقام ـ هو الشفيع التكويني أعني نظام العلة والمعلول الحاكم على عالم الطبيعة فتشير الآية إلى أن تأثير أي علة في العوالم العلوية أو السفلية منوطة بالإذن الإلهي كما أسلفنا.

ولأجل ذلك صرّح بأنّه «ما من شفيع» أي وسيط مادياً كان أم مجرداً إلّا من بعد إذنه» لكي يفيد بأنّ مدبرية الله المطلقة لا تنافي الإعتقاد بنظام العلية في عالم الطبيعة إذ أن وجود هذا النظام العلي السببي نفسه مظهر من مظاهر تدبير الله، وناشيء عن إرادته العليا فالمدبر الأصيل والمستقل ليس إلّا هو وحده، ولا تدبير لسواه إلّا بأمره ومشيئته، وإنّما أطلق لفظ الشفيع على نظام العلية لأنّه من الشفع بمعنى الزوج فكأن نظام العلية يتسبب في إيجاد آثاره وظواهره بالإنضمام إلى إرادة الله ومشيئته، فكل علّة مشفوعة إلى إرادته وإذنه سبحانه تكون مؤثرة ولو أُريد من الشفيع الشفاعة التشريعية فهو أيضاً داخل في إطار تدبيره سبحانه فلا يشفع شفيع في الدنيا والآخرة في حق عباده إلا بإذنه سبحانه.

قال تعالى: ﴿. . . يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وربما يتصور البعض أن القرآن الكريم طرح مسألة «التوحيد في الربوبية» دون أن يقيم عليها أي برهان، في حين أن القرآن أثبت هذا المطلب بالبراهين الواضحة القاطعة.

وإليك فيما يلي بعض هذه الأدلة:

١ ـ التدبير لا ينفك عن الخلق:

إن النقطة الأساسية في خطأ المشركين تتمثل في أنّهم قاسوا تدبير عالم الكون بتدبير أمور عائلة أو مؤسسة وتصوروا أنهم من نوع واحد.

إنّ تدبيره سبحانه لهذا العالم ليس كتدبير حاكم البلد بالنسبة إلى مواطنيه أو رب البيت بالنسبة إلى أهله في حين أن ذاك التدبير يتم بإصدار الأوامر. وفي

حين أن التدبير الإلهي هو إدامة الخلق والإيجاد، وقد سبق أن الخالقية منحصرة بالله سبحانه.

فالفريق الذي يعتقد بأنّ الله تعالى هو الخالق الوحيد يجب عليه أيضاً أن يعتقد بأنه تعالى هو «المدبر الوحيد» لكون التدبير خلقاً بعد خلقٍ وهو فعل الله خاصة.

توضيح ذلك: إنّ النظام الإمكاني ـ بحكم كونه فقيراً ممكناً ـ فاقداً للوجود الذاتي، فإنّ فقره هذا ليس منحصراً في وجوده في بدء تحققه، وإنّما يستمر هذا الفقر معه في جميع الأزمنة والأمكنة، كما أنّ فقره ليس منحصراً في أصل وجوده فحسب، بل هو محتاج حتى في علاقاته وروابطه وتأثيراته مع الموجودات الأُخرى وانسجامه مع مجموع العالم.

وليس التدبير إلّا إفاضة الوجود وإعطاء «القدرة على التأثير» للشيء الممكن، ثم إن وجود النظام الإمكاني كما إنه مفاض عليه من جانب الله سبحانه فكذلك تدبيره وإدارة وجوده تقوم به سبحانه وليس هذا إلّا نوع من الخلق.

وإذ ليس هناك من خالق سواه سبحانه فليس هناك مدبر سواه أيضاً، بذلك يسلتزم الإعتراف بوحدة الخالق، الإعتراف بوحدة المدبر.

فإن «تدبير» الوردة ليس إلّا تقومها من المواد السكرية في الأرض ثم توليدها الأوكسجين في الهواء إلى غير ذلك من عشرات الأعمال الفيزوبائية والكيماوية في ذاتها، وليس هذا إلّا شعبة من الخلق.

ومثلها، الجنين منذ تكونه في رحم الأُم فهو لم يزل يمر بالتفاعلات حتى يخرج من بطن الأُم وليس هذه التفاعلات إلّا شعبة من عملية الخلق وفرع منه وإيجاد بعد إيجاد.

ويمكن تقرير هذا المطلب بصورة أُخرى بأن نقول: «إنّ التدبير مأخوذ من مادة دبر أي تابع وواصل وعقب، وحقيقة التدبير ليس إلّا لأن خالق العالم جعل الأسباب والعلل بحيث تأتي المعاليل والمسببات دبر الأسباب وعقيب العلل بحيث تأتي أجزاء الكون وراء بعضها تباعاً وبحيث يؤثر بعضها في

البعض الآخر حتى يصل كل موجود إلى كماله المناسب وهدفه المطلوب، فإذا كان المراد من «التدبير» هو هذا فهو بعينه عبارة عن مسألة الخلق، ومع هذا كيف يجوز أن نعتقد بأنّ التدبير مغاير للخلق ونعتبرهما أمرين مختلفين.

ولذا يذكر القرآن الكريم ـ بعد ذكر مسألة الخلق للسماوات والأرض ـ مسألة تسخير الشمس والقمر[1] الذي هو من التدبير ومن هذا الطريق يوقفنا القرآن الكريم على حقيقة التدبير الذي هو نوع من الخلق.

٢ ـ وحدة النظام دليل على وحدة المدبر:

في البحث السابق تحدثنا عن وحدة نظام الكون، وأثبتنا بوضوح أنّ مطالعة كل صفحة من صفحات هذا الكتاب التكويني العظيم تقودنا إلى نظام مُوحَّد وكأن أوراق الكتاب التكويني ـ على غرار التدويني ـ شد بعضها إلى بعض بيد واحدة، وأخرجت في صورة واحدة.

إنّ القوانين والسنن الحاكمة على الموجودات الطبيعية كلية وشاملة بحيث لو أُتيح لأحد أن يكتشف بالتجربة سنة في نقطة خاصة من نقاط الكون أمكنه أن يكتشف قانوناً كلياً وشاملاً، ويهتدي إلى سنة كونية عمومية وهذا من أفضل دليل على وحدة النظام الحاكم على العالم الطبيعي.

إنّ وحدة النظام الكوني و«عمومية» السنن والقوانين الطبيعية تقودنا إلى موضوعين:

١ ـ إنّه ليس للعالم إلّا خالق واحد، وتوضيح ذلك هو ما قرأته في الفصل السابق.

٢ ـ إنّه ليس للعالم إلّا مدبر واحد.

وبعبارة أُخرى، فإنّ وحدة النظام والسنن التكوينية لدليل واضح على صحة ما قاله القرآن الكريم:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

إنّ جملة: «له الخلق» إشارة إلى التوحيد في الخالقية.

(١) سورة الأعراف الآية ٥٤، سورة القمر الآية ٢.

وجملة: «والأمر» إشارة إلى التوحيد في التدبير، الذي هو نوع من الحاكمية على عالم الوجود.

وهنا ينطرح سؤال هو: كيف تدل «وحدة القوانين» وعموميتها على «وحدة المدبر».

وجواب ذلك واضح: إذ عندما يحكم على الكون نوعان من الرأي والحاكمية يكون من الطبيعي والحتمي عدم وجود أي أثر لهذا النظام الواحد، إنّ وحدة النظام لا تتحقق ولا تكون إلّا إذا كان الكون بأجمعه تحت نظر حاكم ومدبر واحد ولو خضع الكون لإرادة حاكمين ومنظمين ومدبرين لما كان للنظام المُوحّد أي أثر.

لأنّ تعدد المدبر والمنظم - بحكم اختلافهما في الذات أو بعض الجهات منها - يستلزم بالضرورة الإختلاف في التدبير والإدارة، ويستلزم تعدد التدبير - بالضرورة - فناء النظام المُوحّد وغيابه.

وبعبارة أُخرى: إنّ المدبرَين إن كانا متساوِيين من كل الجهات لم تصدق هنا إثنينية قهراً، وإن تعدّد المدبر يعني - بالضرورة - إختلاف المدبرين من جهة أو جهات، ومعلوم أن اختلافاً - كهذا - يؤثر لا محالة في تدبير المدبر.

ويمكن بيان هذا البرهان بصورتين:

١ - إن نلتفت - في بيان البرهان - إلى الجوانب الإيجابية فيه ونقول: إنّ ترابط أجزاء الكون وتأثيرها في بعضها يدل على خضوعها لحاكمية حاكم واحد على جميع العالم يقودها تحت نظام واحد وخطة واحدة.

وقد أكد - في أحاديث أئمة أهل البيت ﷺ على هذه النقطة أحياناً إذ يقول أحدهم: «فلما رأيت الخلق منتظماً، والفلك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر، دلّ على صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد»[1].

٢ - وربما أُشير إلى الجوانب السلبية في هذا البرهان وأن تعدد التدبير يوجب فساد النظام الكوني.

---

(١) توحيد الصدوق ص٢٤٤.

وقد استند القرآن الكريم على هذا الجانب إذ قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وربما ورد في بعض نصوص أهل بيت الرسالة الإشارة إلى كلا الجانبين في هذا البرهان إذ يقول أحدهم عليه السلام في جواب هشام الذي سأل عن دليل وحدانية الرب: «اتصال التدبير وتمام الصنع، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾»[1].

النتيجة:

١ ـ إنّ وحدة النظام ووحدة الكون وشمول السنن لجميع أجزاء هذا العالم وعمومية القوانين الطبيعية كل ذلك يمكن أن يكون أفضل دليل على وحدة الخالق، وكذا وحدة المدبر.

٢ ـ إنّ هذا البرهان يمكن أن يبين في صورتين، وكلا الصورتين اللتين هما ـ في الحقيقة ـ برهان واحد وردا في القرآن الكريم.

ما معنى المُدَبِرات في القرآن؟

فإذا كانت الظواهر الطبيعية وليدة عللها التي هي الموجدة والمدبرة لهذه الظواهر بنحو من الأنحاء فكيف ينسجم هذا مع حصر المدبرية المطلقة في الله تعالى؟!

فإنّ التدبير الطبيعي عبارة عن تكفل شيء لشيء آخر، فإنّ كل علة في هذا النظام الكوني متكفلة لوجود معلولها وسبب لاستمرار بقائه ودوامه، وبمقتضى ذلك تكون كل علة مدبراً وعند ذلك فكيف ينحصر التدبير في الله سبحانه؟!

مضافاً إلى أن القرآن الكريم يعترف بسلسلة من المدبرات ويقول: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

ولا شك أنّ هؤلاء الحفظة لو كانوا يراقبون البشر ويحفظونهم من الشرور والأخطار فإنّ من الحتمي أن يُعدُّوا مدبرين لهم بنحو ما؟؟

(١) توحيد الصدوق ص٢٥٠، وسيوافيك الإستدلال بهذه الآية بشكل آخر.

الجواب:

قال في مفاهيم القرآن: قد سبق منا ـ عند البحث عن التوحيد في الخلقية ـ أن التوحيد في الأفعال ليس بمعنى تعطيل فاعلية الأسباب والعلل وإحلال الله تعالى محلها للتأثير في الظواهر مباشرة لأنّ هذا عين ما اختارته الأشاعرة، الذي أبطلناه.

بل التوحيد في الأفعال ـ سواء أكان في الخالقية أم في التدبير ـ إنّما هو بمعنى أنّه لا يوجد في الكون مؤثر مستقل سواه، وإنّ تأثير العلل إنّما هو على وجه التبعية لإرادته سبحانه ومشيئته، والإعتراف بمثل هذه المدبرات لا يمنع من انحصار التدبير الإستقلالي في الله سبحانه ومن ليس له إلمام بألفباء المعارف، والمفاهيم القرآنية يُواجِه حيرة كبيرة تجاه طائفتين من الآيات، إذ كيف يمكن أن تنحصر بعض الشؤون والأفعال كالشفاعة، والمالكية، والرازقية، والعلم بالغيب والإحياء في بعض الآيات بالله سبحانه بينما تنسب هذ الأفعال في آيات أخرى إلى غير الله من عباده، فكيف ينسجم ذلك الإنحصار مع هذه النسبة.

وإليك نماذج هاتين الطائفتين من الآيات:

١ ـ يعد القرآن ـ في بعض آياته ـ قبض الأرواح فعلاً لله تعالى، ويصرّح بأنّ الله هو الذي يتوفى الأنفُس حين موتها إذ يقول: ـ مثلاً ـ : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

بينما نجده يقول في موضع آخر ناسباً التوفي إلى غيره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

٢ ـ يأمر القرآن ـ في سورة الحمد ـ بالإستعانة بالله وحده إذ يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

في حين نجده في آية أخرى يأمر بالإستعانة بالصبر والصلاة إذ يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

٣ ـ يعتبر القرآن الكريم الشفاعة حقاً مختصاً بالله وحده، إذ يقول: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

بينما يخبرنا ـ في آية أُخرى ـ عن وجود شفعاء غير الله كالملائكة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ [النجم: ٢٦].

٤ ـ يعتبر القرآن الاطلاع على الغيب والعلم به منحصراً في الله، حيث يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فيما يخبر الكتاب العزيز في آية أُخرى عن أنّ الله يختار بعض عباده لاطلاعهم على الغيب إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٥ ـ ينقل القرآن عن إبراهيم عليه السلام قوله بأنّ الله يشفيه إذا مرض حيث يقول: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وظاهر هذه الآية هو حصر الإشفاء من الأسقام في الله سبحانه، في حين أنّ الله يصف القرآن والعسل بأن فيهما الشفاء أيضاً، حيث يقول: ﴿فِيهِ [في العسل] شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

٦ ـ إنّ الله تعالى ـ في نظر القرآن ـ هو الرازق الوحيد حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

بينما نجد القرآن يأمر المتمكنين وذوي الطول بأن يرزقوا من يلوذ بهم من الضعفاء إذ يقول: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥].

٧ ـ الزارع الحقيقي ـ حسب نظر القرآن ـ هو الله كما يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

في حين أنّ القرآن الكريم ـ في آية أُخرى ـ يطلق صفة الزارع على الحارثين إذ يقول: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

٨ ـ إنّ الله هو الكاتب لأعمال عباده إذ يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

في حين يعتبر القرآن الملائكة ـ في آية أخرى ـ بأنهم المأمورون بكتابة أعمال العباد إذ يقول: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

٩ ـ وفي آية ينسب تزيين عمل الكافرين إلى نفسه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤]، وفي الوقت نفسه ينسبها إلى الشيطان ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وفي آية أخرى نسبها إلى آخرين وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

١٠ ـ مر في هذا البحث حصر التدبير في الله حتى إذا سئل من بعض المشركين عن المدبر لقالوا: هو الله، إذ يقول: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

بينما اعترف القرآن بصراحة في آيات أخرى بمدبرية غير الله حيث يقول: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

قال في مفاهيم القرآن: فمن لم يكن له إلمام بمعارف القرآن يتخيَّل لأول وهلة أنّ بين تلك الآيات تعارضاً غير أن الملمين بمعارف الكتاب العزيز يدركون أن حقيقة هذه الأمور (أعني الرازقية، والإشفاء و... و...) قائمة بالله على نحو لا يكون لله فيها أي شريك فهو تعالى يقوم بها بالأصالة وعلى وجه «الإستقلال»، في حين أن غيره محتاج إليه سبحانه في أصل وجوده وفعله، فما سواه تعالى يقوم بهذه الأفعال والشؤون على نحو «التبعية» وفي ظل القدرة الإلهية.

وبما أنّ هذا العالم هو عالم الأسباب والمسببات، وأنّ كل ظاهرة لابُدَّ أن تصدر وتتحقق من مجراها الخاص بها المقرر لها في عالم الوجود ينسب القرآن هذه الآثار إلى أسبابها الطبيعية دون أن تمنع خالقية الله من ذلك ولأجل ذلك يكون ما تقوم به هذه الموجودات فعلاً لله في حين كونها فعلاً لنفس الموجودات غاية ما في الأمر أنّ نسبة هذه الأمور إلى الموجود الطبيعي نفسه إشارة إلى الجانب «المباشري»، فيما يكون نسبتها إلى «الله» إشارة إلى الجانب «التسبيبي».

ويشير القرآن إلى كلا هاتين النسبتين في قوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

ففي حين يصف النبي الأعظم بالرمي، إذ يقول بصراحة «إذ رميت» نجده يصف الله بأنّه هو الرامي الحقيقي. وذلك لأنّ النبي إنّما قام بالقدرة التي منحها الله له، فيكون فعله فعلاً لله أيضاً، بل يمكن أن يقال: أن انتساب الفعل إلى الله (الذي منه وجود العبد وقوته وقدرته) أقوى بكثير من انتسابه إلى العبد بحيث ينبغي أن يعتبر الفعل فعلاً لله لا غير ولكن شدة الإنتساب هذه لا تكون سبباً لأن يكون الله مسؤولاً عن أفعال عباده، إذ صحيح أن المقدمات الأولية للظاهرة مرتبطة بالله وناشئة منه إلّا أنه لما كان الجزء الأخير من العلة التامة هو إرادة الإنسان ومشيئته بحيث لولاها لما تحققت الظاهرة يعد مسؤولاً عن الفعل.

أخبار الغيب في القرآن

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

«الغيب والشهادة» نقطتان متقابلتان، عالَم الشهود هو عالَم المحسوسات، وعالَم الغيب هو ما وراء الحس، لأنّ «الغيب» في الأصل يعني ما بطن وخفي. وقيل عن عالَم ما وراء المحسوسات «غيب» لخفائه عن حواسّنا، التقابل بين العالمين مذكور في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطة الفاصلة الأولى بين المؤمنين بالأديان السماوية، وبين منكري الخالق والوحي والقيامة، ومن هنا كان الإيمان بالغيب أول سمة ذكرت للمتقين.

المؤمنون خرقوا طوق العالم المادي، واجتازوا جدرانه، إنّهم بهذه الرؤية الواسعة مرتبطون بعالم كبير لا متناه. بينما يصرّ معارضوهم على جعل الإنسان مثل سائر الحيوانات، محصوراً في موقعه من العالم المادي. وهذه الرؤية المادية تقمّصت في عصرنا صفات العلمية والتقدمية والتطورية!

لو قارنّا بين فهم الفريقين ورؤيتهما، لعرفنا أن: «المؤمنين بالغيب» يعتقدون أن عالَم الوجود أكبر وأوسع بكثير من هذا العالم المحسوس، وخالق عالم الوجود غير متناه في العلم والقدرة والإدراك، وأنّه أزليّ وأبديّ. وأنّه صمّم هذا العالم وفق نظام دقيق مدروس. ويعتقدون أنّ الإنسان ـ بما يحمله من روح إنسانية ـ يسمو بكثير على سائر الحيوانات. وأنّ الموت ليس بمعنى العدم والفناء، بل هو مرحلة تكاملية في الإنسان، ونافذة تطل على عالم أوسع وأكبر.

بينما الإنسان المادي يعتقد أنّ عالم الوجود محدود بما نلمسه ونراه. وأنّ العالم وليد مجموعة من القوانين الطبيعية العمياء الخالية من أي هدف أو تخطيط أو عقل أو شعور. والإنسان جزء من الطبيعة ينتهي وجوده بموته، بتلاشي بدنه، وتندمج أجزاؤه مرّة أُخرى بالمواد الطبيعية. فلا بقاء للإنسان، وليس ثمّة فاصلة كبيرة بينه وبين سائر الحيوانات[1]!

ما أكبر الهوة التي تفصل بين هاتين الرؤيتين للكون والحياة! وما أعظم الفرق بين ما تفرزه كل رؤية، من حياة إجتماعية وسلوك ونظام!

الرؤية الأُولى تربّي صاحبها على أن ينشد الحق والعدل والخير ومساعدة الآخرين. والثانية، لا تقدّم لصاحبها أي مبرر على ممارسة الأُمور اللّهم إلّا ما عاد عليه بالفائدة في حياته المادية. من هنا يسود في حياة المؤمنين الحقيقيين التّفاهم والإخاء والطّهر والتعاون، بينما تهيمن على حياة الماديين روح الإستعمار والإستغلال وسفك الدماء والنهب والسلب. ولهذا السبب نرى القرآن يتخذ من «الإيمان بالغيب» نقطة البداية في التقوى.

يدور البحث في كتب التّفسير عن المقصود بالغيب، أهو إشارة إلى ذات الباري تعالى، أم أنّه يشمل ـ أيضاً ـ الوحي والقيامة وعالم الملائكة وكل ما هو وراء الحس؟ ونحن نعتقد أنّ الآية أرادت المعنى الشامل لكلمة الغيب، لأنّ الإيمان بعالم ما وراء الحس ـ كما ذكرنا ـ أول نقطة افتراق المؤمنين عن الكافرين، إضافة إلى ذلك، تعبير الآية مطلق ليس فيه قيد يحدده بمعنى خاص.

بعض الروايات المنقولة عن أهل البيت ﷺ تفسّر الغيب في الآية، بالمهدي الموعود المنتظر ﷺ والذي نعتقد بحياته وخفائه عن الأنظار، وهذا لا ينافي ما ذكرناه بشأن معنى الغيب، لأنّ الروايات الواردة في تفسير الآيات تبين غالباً مصاديق خاصة للآيات، دون أن تُحَدَّد الآيات بهذه المصاديق الخاصة، وسنرى في صفحات هذا التّفسير أمثلة كثيرة لذلك. والروايات المذكورة بشأن تفسير معنى الغيب، تستهدف في الواقع توسيع نطاق معنى

---

(١) نقلاً عن: «محمّد والقرآن».

الإيمان بالغيب، ليشمل حتى الإيمان بالمهدي المنتظر عليه السلام ويمكننا القول أنّ الغيب له معنى واسع قد نجد له بمرور الزمن مصاديق جديدة.

وقال في مفاهيم القرآن: أظنك أيها القارىء الكريم في غنى عن بيان معنى «الغيب» ومفاده، لغة وعرفاً، فإن للغيب «أصلاً صحيحاً يدل على تستر الشيء عن العيون، ثم يقاس. من ذلك الغيب: ما غاب، مما لا يعلمه إلّا الله».

«ويقال غابت الشمس تغيب غيبة وغيوباً وغيباً. وغاب الرجل عن بلده. وأغاب المرأة فهي مغيبة، إذا غاب بعلها، ووقعنا في غيبة وغيابة أي هبطة من الأرض يغاب فيها. قال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ والغَابَةُ: الأجمَّة والجمع: غابات وغاب. وسمِّيت الغابة لأنه يغاب فيها[1].

وقال الراغب «الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين يقال: غاب عن كذا، قال تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب قال: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، ويقال: للشيء غيب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فإنّه لا يغيب عنه شيء كما لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه والغيب في «يؤمنون بالغيب» ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام[2].

توضيحه: إنّ الغيب يقابل الشهود، فما غاب عن حواسنا وخرج عن حدودها، فهو غيب، سواء أكان أمراً مادياً، قابلاً للإدراك بالحواس، كالحوادث الواقعة في غابر الزمان، والمتكونة حالياً، الغائبة عن حواس المخبر، أو بُعد لأي من الدهر، أم كان مما يمتنع إدراكه بالحس أو وقوعه في أفقه، كذاته تعالى، وحقيقة البعث والنشور، والحساب، ونفخ في الصور، والميزان، وملائكة الله، وجنته، وناره، ولقائه، وحقيقة الحياة، في النشأة الأخرى، والوحي، والنبوة إلى آخر ما يجب الإيمان به وتصديقه، كما يدل

---

(١) مقاييس اللغة ج٤، ص٤٠٣.
(٢) مفردات الراغب ص٣٦٦ ـ ٣٦٧.

عليه قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ.... وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣-٤].

وقد أوضحه بعض الأعلام، بقوله: الغيب، في العرف العربي إسم لمعنى يقابل الحضور وضد الشهود، كما في القرآن ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وفي الحديث النبوي «ألا فليبلغن الشاهد الغائب» وفي كلام الإمام علي عليه السلام: «شهود كالغيب».

والشهود، كناية عن اتصال الحواس بالحاضر لديها وهو المراد من الحضور أيضاً فالغيب كالغائب، ما لا يتصل به الحس، وبه سمي المسافر غائباً، وخلاف حاضراً، فالنبأ الغيبي، بناء على ما عرفت، هو النبأ الذي لا يتصل بالمحسوس لديك فعلاً، وإن كان أصله محسوساً من قبل، ثم غاب كالمسافر أو بالعكس كالمولود الذي كان في غيابة الرحم، محجوباً عن الحواس ثم ولد بعد، فصار محسوساً بين الناس.

ورب أُمم دوخت الأفيال والأجيال في سالف الدهر، كجرهم وأباد، ثم بادت، وهم اليوم غيب، وأنباؤهم الخطيرة تعد في زوايا التاريخ من الغيوب، ورب جراثيم الأمراض كانت محجوبة، أو لا تزال محجوبة عن الحواس، ثم في مستقبل الأجيال، تقوى الآلات على استكشافها، فتصير محسوسة مشهودة، ورب طعام يقصر عن شمه حس الإنسان والحيوان، إلّا النمل الذي فاق حسه على غيره، فيهتدي إليه ولا يغيب عنه، أو كحبة خردل لا تغيب عن الغراب، لحدة بصره، بينما هي غائبة عن غيره، أو صوت متحرك في دياجير الظلام، لا يغيب عن إحساس الفرس، لقوة سمعه بينما يغيب عن غيره[1]...

وهذا البيان الإضافي يوقفنا على أن الغيب على قسمين: مطلق وإضافي، فالمطلق منه ما لا يقع في أفق الحس أبداً ويمتنع إدراكه بالآلات والأدوات المادية كذاته سبحانه وصفاته وغيرهما مما عددناه، والإضافي ما يتفاوت بحسب الظروف والاشخاص، فربما يكون غيباً في ظرف، فجرثومة السل كانت غيباً في غابر الزمان، قبل أن يقف عليها مكتشفوها، ويروها تحت

---

(١) المعجزة الخالدة ص٧١ ـ ٧٢.

المجهر إلى أن عادت أمراً محسوساً في هذه الظروف التي كثرت في الأدوات العلمية، وسهل الوقوف على صغار الموجودات التي لا يدركها الطرف مجرداً عن الآلات الحديثة. . .

وإلى ذلك يشير العلامة الطباطبائي بقوله: الأشياء المجهولة، أي غير الواقعة تحت الحواس، غيب، ومن الحري أن نسميها عندئذٍ غيباً نسبياً، لأن هذا الوصف الطارىء عليها، وصف نسبي يختلف بالنسب والإضافات، كما أنّ ما في الدار مثلاً، من الشهادة بالنسبة، إلى من فيها، ومن قبيل الغيب بالنسبة إلى من هو في خارجها، وكذا الأضواء والأكوان المحسوسة بحاسة البصر، من الشهادة بالنسبة إلى البصر، ومن الغيب بالنسبة إلى حاسة السمع، والمسموعات التي ينالها السمع، شهادة بالنسبة إليه، وغيب بالنسبة إلى البصر، ومحسوساتهما جميعاً من الشهادة بالنسبة إلى الإنسان الذي يملكهما في بدنه.

قال الله تعالى ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٢-٧].

سبب النزول

قال في الأمثل: يتّفق المفسّرون الكبار على أن الآيات الأُولى من هذه السورة نزلت في أعقاب الحرب التي دارت بين الروم والفُرس، وانتصر الفُرس على الروم، وكان النّبي حينئذٍ في مكّة، والمؤمنون يُمثّلون الأقلية.

فاعتبر المشركون هذا الإنتصار للفُرس فألاً حسناً، وعدّوه دليلاً على حقانية المشركين و«الشرك»، وقالوا: إنّ الفُرس مجوسٌ مشركون، وأمّا الروم فهم مسيحيون «نصارى» ومن أهل الكتاب. . . فكما أن الفُرس غلبُوا «الروم» فإنّ الغلبة النهائية للشرك أيضاً، وستنطوي صفحة الإسلام بسرعة ويكون النصر حليفنا.

وبالرغم من أن مثل هذا الإستنتاج عارٍ من أي أساس، إلّا أنّه لم يكن

خالياً من التأثير في ذلك الجوّ والمحيط للتبليغ بين الناس الجهلة، لذلك كان هذا الأمر عسيراً على المسلمين.

فنزلت الآيات الآنفة وقالت بشكل قاطع: لئن غلبت الفُرس الروم ليأتينّ النصر والغلبة للروم خلال فترة قصيرة. وقد حدّدت الفترة لانتصار الروم على الفُرس ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

وهذا الكلام السابق لأوانه، هو من جهة دليل على إعجاز القرآن، هذا الكتاب السماوي الذي يستند علمه إلى الخالق غير المحدود، ومن جهة أُخرى كان فألاً حسناً للمسلمين في مقابل فأل المشركين، حتى أن بعض المسلمين عقدوا مع المشركين رهاناً على هذه المسألة المهمّة، ولم يكن في ذلك الحين قد نزل الحكم بتحريم مثل هذا الشرط[١].

التّفسير

تنبؤ عجيب!

هذه السورة ضمن مجموع تسع وعشرين سورة تبدأ بالحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾.

قال في الأمثل: وقد بحثنا مراراً في تفسير هذه الحروف المقطعة «وخاصةً في بداية سورة البقرة وآل عمران والأعراف».

والفارق الوحيد الذي نلاحظه هنا عن بقية السور، ويلفت النظر، هو أنّه خلافاً لكثير من السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، التي يأتي الحديث بعدها على عظمة القرآن الكريم، بل بحثاً عن اندحار الروم وانتصارهم في المستقبل، ولكن مع التدقيق يتّضح أن هذا البحث يتحدث عن عظمة القرآن الكريم أيضاً.. لأنّ هذا الخبر الغيبي المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، وعظمة هذا الكتاب السماوي!

يقول القرآن بعد الحروف المقطعة ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ...﴾

---

(١) جاء سبب النّزول هذا في كتب التفاسير المختلفة بشيء من الإختلاف البسيط في التعابير، فراجع مجمع البيان والميزان ونور الثقلين وتفسير الفخر الرازي وأبو الفتوح الرازي، وتفسير الألوسي وفي ظلال القرآن والتفاسير الأخرى.

[الروم: ٢-٣] وهم قريب منكم يا أهل مكّة، إذ أنّهم في شمال جزيرة العرب، في أراضي الشام في منطقة بين «بصرى» و«أذعارات».

ومن هنا يعلم بأنّ المراد من الروم هنا هم الروم الشرقيون، لا الروم الغربيون.

ويرى بعض المفسّرين كالشيخ الطوسي في تفسير «التبيان» ـ أن من المحتمل أن يكون المراد بأدنى الأرض المكان القريب من بلاد فارس، أي إن المعركة وقعت في أقرب نقطة بين الفرس والروم[1].

وصحيحٌ أن التّفسير الأوّل معه الألف واللام للعهد ـ في «الأرض» مناسبٌ أكثر، ولكن ومن جهات متعددة ـ كما سنذكرها ـ يبدو أن التّفسير الثّاني أصحّ من الأوّل!

ويوجد هنا تفسير ثالث، ولعلّه لا يختلف من حيث النتيجة مع التّفسير الثاني، هو أنّ المراد من هذه الأرض ـ هي أرض الروم، أي إنّهم غُلِبُوا في أقرب حدودهم مع بلاد فارس، وهذا يشير إلى أهمية هذا الإندحار وعمقه، لأنّ الإندحار في المناطق البعيدة والحدود المترامية البعد ليس له أهمية بالغة، بل المهم أن تندحر دولة في أقرب نقاطها من حدودها مع العدو، إذ هي فيها أقوى وأشدّ من غيرها.

فعلى هذا سيكون ذكر جملة ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ . . .﴾ إشارة إلى أهمية هذا الإندحار.

وبالطبع فإنّ التنبؤ عن انتصار البلد المغلوب خلال بضع سنين في المستقبل، له أهميَّة أكبر، إذ لا يمكن التوقع له إلّا عن طريق الإعجاز.

ثمّ يضيف القرآن: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ وهم أيّ الروم. ومع أن جملة «سيغلبون» كافية لبيان المقصود، ولكن جاء التعبير ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ بشكل خاص لتتّضح أهميَّة هذا الإنتصار أكثر، لأنّه لا ينتظر أن تغلب جماعة مغلوبة وفي أقرب حدودها وأقواها في ظرف قصير، لكن القرآن يخبر بصراحة عن هذه الحادثة غير المتوقعة.

---

(١) تفسير التبيان، ج٨، ص٢٠٦.

ثمّ يبيّن الفترة القصيرة من هذه السنين بهذا التعبير: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[١] والمعلوم أن «بضع» ما يكون أقله ثلاث وأكثره تسع.

وإذا أخبر الله عن المستقبل، فلأنّه ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾.

وبديهيّ أن كون الأشياء جميعها بيد الله ـ وبأمره وإرادته ـ لا يمنع من اختيارنا في الإرادة وحريتنا وسعينا وجهادنا في مسير الأهداف المنظورة.

وبتعبير آخر: إنّ هذه العبارة لا تريد سلب الإختيار من الآخرين، بل تريد أن توضح هذه اللطيفة، وهي أن القادر بالذات والمالك على الإطلاق هو الله، وكل من لديه شيء فهو منه!

ثمّ يضيف القرآن، أنّه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنه ستغلب الروم ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أجل، يفرحون ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ولكن ما المراد من فرح المؤمنون؟!

قال جماعة: المراد منه فرحهم بانتصار الروم، وإن كانوا في صفوف الكفار أيضاً، إلّا أنّهم لكونهم لديهم كتاب سماوي فانتصارهم على المجوس يعدّ مرحلة من انتصار «التوحيد» على «الشرك».

وأضاف آخرون: إن المؤمنين إنّما فرحوا لأنّهم تفألوا من هذه الحادثة فألاً حسناً، وجعلوها دليلاً على انتصارهم على المشركين.

أو أن فرحهم كان لأنّ عظمة القرآن وصدق كلامه المسبق القاطع ـ بنفسه ـ انتصار معنوي للمسلمين وظهر في ذلك اليوم.

ولا يبعد هذا الاحتمال وهو أن انتصار الروم كان مقارناً مع بعض انتصارات المسلمين على المشركين، وخاصة أن بعض المفسّرين أشار إلى هذا الإنتصار كان مقارناً لانتصار بدر أو مقارناً لصلح الحديبية، وهو بنفسه يعدّ انتصاراً كبيراً، وخاصة أن التعبير بنصر الله أيضاً يناسب هذا المعنى.

---

(١) توجد احتمالات كثيرة في معنى «بضع» فقيل: إنّها تتراوح بين ثلاث وعشر، أو أنّها تتراوح بين واحدة وتسع، وقيل: أقلّها ست وأكثرها تسع. إلّا أن ما ذكرناه في المتن هو المشهور.

بحوث

١ ـ إعجاز القرآن من جهة «علم الغيب»:

إن واحداً من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، ومَثَلَهُ الواضح في هذه الآيات ـ محل البحث ـ ففي عدّة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن انتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين... ويَعِدُ ذلك وعداً إلهيّاً غير مكذوب ولا يتخلف أبداً.

فمن جهة يتحدث مخبراً عن أصل الإنتصار والغلب ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.

ومن جهة يتحدث عن خبر لانتصار آخر للمسلمين على الكفار مقترناً لزمان الإنتصار الذي يتحقق للروم ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾.

ومن جهة ثالثة يصرّح أنّ هذا الأمر سيقع خلال عدّة سنوات ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

ومن جهة رابعة يسجّل قطيعة هذا الوعد الإلهي بتأكيدين بالوعد ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

ويحدثنا التاريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان... فقد انتصر الروم في حربهم الجديدة على الفرس، واقترن زمان هذا الإنتصار بـ«صلح الحديبية» وطبقاً لرواية أخرى أنه كان مقارناً لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون انتصاراً ملحوظاً على الكفار.

والآن ينقدح هذا السؤال، وهو: هل يستطيع إنسان أن يخبر بعلم عادي بسيط، عن مثل هذه الحادثة المهمة بضرس قاطع؟... حتى لو فرضنا أن الأمر كان مع تكهّن سياسي ـ ولم يكن ـ فينبغي أن يذكر هذا الأمر بقيد «الاحتياط» والاحتمال، لا بمثل هذه الصراحة والقطع، إذ لو ظهر خلافه لكان أحسن دليل وسند على إبطال دعوة النبوة بيد الأعداء!

والحقيقة هي أنّ مسائل من قبيل توقّع انتصار دولة كبيرة كالروم، أو مسألة المباهلة، تدل بصورة جيدة على أنّ نبيّ الإسلام ﷺ كان قلبه متعلقاً بمكان

آخر، وكان له سند قوي، وإلّا فلا يمكن لأي أحد - في مثل هذه الظروف - أن يجرؤ على مثل هذا الأمر!

وخاصة، إنّ مطالعة سيرة النبيّ ﷺ تكشف أنّه لم يكن إنساناً يتصيد بالماء العكر، بل كانت أعماله محسوبة... فمثل هذا الإدعاء من مثل هذا الشخص يدل على أنّه كان يعتمد على ما وراء الطبيعة، وعلى وحي الله وعلمه المطلق.

وسنتحدث عن تطبيق هذا التنبؤ التاريخي في القريب العاجل إن شاء الله.

٢ - السطحيّون «أصحاب الظاهر»:

تختلف نظرة الإنسان المؤمن الإلهي أساساً مع نظرة الفرد المادي المشرك، إختلافاً كبيراً.

فالأوّل طبقاً لعقيدة التوحيد - يرى أن العالم مخلوق لربّ عليم حكيم، وجميع أفعاله وفق حساب وخطة مدروسة، وعلى هذا فهو يعتقد أن العالم مجموعة أسرار ورموز دقيقة، ولا شيء في هذا العالم بسيط واعتيادي، وجميع كلمات هذا الكتاب «التكويني» ذات محتوى ومعنى كبير.

هذه النظرة التوحيدية تقول لصاحبها: لا تمرّ على أي حادثة وأي موضوع ببساطة، إذ يمكن أن يكون أبسط المسائل أعقدها... فهو ينظر دائماً إلى عمق هذا العالم، ولا يقنع بظواهره، قرأ الدرس في مدرسة التوحيد، ويرى للعالَم هدفاً كبيراً، وما من شيء إلّا يراه في دائرة هذا الهدف غير خارج عنها.

في حين أن الإنسان المادي غير المؤمن يعدّ الدنيا مجموعة من الحوادث العُمي والصمّ التي لا هدف لها، ولا يفكر بغير ظاهرها، ولا يرى لها باطناً وعمقاً أساساً.

ترى هل يعقل أن يكون لكتاب رسم طفل على صفحاته خطوطاً عشوائية، أهمية تذكر؟! وكما يقول بعض العلماء الكبار في علوم الطبيعة: إن جميع علماء البشر من أي فئة كانوا وأي طبقة، حين نهضوا للتفكير في نظام هذا العالم، كانوا ينطلقون من تفكير ديني «فتأملوا بدقّة».

«أنشتاين» العالم المعاصر يقول: من الصعب العثور بين المفكرين في العالَم شخص لا يحس بدين خاص... وهذا الدين يختلف مع دين الإنسان

العامي، إنّه يدعو هذا العالَم إلى التحيّر من هذا النظام العجيب والدقيق للكائنات، إذ تكشف عن وجهها أسراراً لا تقاس مع جميع تلك الجهود والأفكار المنظمة للبشر[1]!

ويقول في مكان آخر: إن الشيء الذي دعا العلماء والمفكرين والمكتشفين - في جميع القرون والأعصار - أن يفكروا في أسرار العالم الدقيقة، هو اعتقادهم الديني[2].

ومن جهة أخرى كيف يمكن أن يساوى بين من يعتبر هذه الدنيا مرحلة نهائية وهدفاً أصلياً، ومن يعدّها مزرعة وميداناً للإمتحان للحياة الخالدة التي تعقب هذه الحياة الدنيا، فالأوّل لا يرى أكثر من ظاهر هذه الحياة، والآخر يفكر في أعماقها!

وهذا الإختلاف في النظر يؤثر في حياتهم بأجمعها، فالذي يعيش حياة سطحية وظاهرية يعتبر الإنفاق سبباً للخسران والضرر، في حين أن هذا «الموحّد» يعدّها تجارة رابحة لن تبور.

وذلك المادي يعتبر «أكل الربا» سبباً للزيادة ووفرة للمال. وأمّا المُوحّد فيعده وبالاً وشقاءً وضرراً.

وذلك يعتبر الجهاد ضنًى وشقاءً ويعتبر الشهادة فناءً وانعداماً، وأمّا المُوحّد فيعدُّ الجهاد رمزاً للرفعة، والشهادة حياة خالدة!

أجل، إن غير المؤمنين لا يعرفون إلّا الظواهر من الدنيا، وهم في غفلة عن الحياة الأخرى ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

٣ ـ المطابقة التاريخية:

لكي نعرف المقطع التاريخي الذي حدثت فيه المعارك بين الروم والفرس، يكفي أن نعرف من ذلك التاريخ أن حرباً طويلة حدثت في عهد «خسرو برويز» ملك الفرس مع الروم استمرت زهاء أربع وعشرين سنة، حيث دامت من سنة «٦٠٤ ميلادية إلى سنة ٦٢٨».

وفي حدود سنة ٦١٦ ميلادية هجم قائدان عسكريان في الجيش الفارسي

---

(١) نقلاً عن كتاب «الدنيا التي أراها».

(٢) المصدر السابق.

هما (شهربراز) و(شاهين) على الحدود الشرقية للروم، فهزما الروم هزيمة نكراء، وسيطرا على منطقة الشامات في مصر وآسيا الصُغرى، فواجهت الروم الشرقية بسبب هذه الهزيمة حالة الإنقراض تقريباً، واستولى الفرس على جميع ما كان تحت يد الروم من آسيا ومصر.

وكان ذلك في حدود السنة السابعة للبعثة!

غير أنّ ملك الروم «هرقل» بدأ هجومه على بلاد فارس سنة ٦٢٢ ميلادية وألحق هزائم متتابعة بالجيش الفارسي، واستمرت هذه المعارك حتى سنة ٦٢٨ لصالح الروم، وغُلِبَ خسرو برويز، وانكسر إنكساراً مريراً، فخلعه الفرس عن السلطنة وأجلسوا مكانه ابنه «شيرويه».

وبملاحظة أنّ مولد النبي ﷺ كان سنة ٥٧١ ميلادية وكانت بعثته سنة ٦١٠ ميلادية، فإن هزيمة الروم وقعت في السنة السابعة للبعثة، وكان انتصارهم بين سنتي خمس وست للهجرة النبوية، ومن المعلوم أن السنة الخامسة حدثت فيها معركة الخندق، وتم في السنة السادسة صلح الحديبية، وبطبيعة الحال فإنّ تنقّل الأخبار عن حرب فارس والروم إلى منطقة الحجاز ومكّة كانت تستوعب عادة فترة من الزمان، وبهذا ينطبق هذا الخبر القرآني على هذه الفترة التاريخية بوضوح «فلاحظوا بدقّة». (مفاهيم القرآن).

صيانة النبي عن أذى الناس

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وفي هذه الآية أخبر عن صيانة النبي ﷺ من أذى الناس قال في مفاهيم القرآن: أصفقت صحاح السنّة[1] وأحاديث الشيعة المتواترة[2] على أن الآية نزلت يوم الغدير، حين ما أمره سبحانه أن ينصّبَ علياً عليه السلام إماماً للناس، وكان النّبي على حذر من الناس في تنصيب علي للخلافة، فأخبره الله سبحانه بأنّه

---

(١) راجع الغدير، ج١، ص١٩٤ ـ ٢١٧.
(٢) راجع غاية المرام، ص٣٣٥.

يعصمه من أذى الناس وشرهم، ولا يصلون إليه بقتل ولا يتمكنون من اغتيال شخصه الشريف وتحققت نبوءة القرآن وصدق الخبر.

ولو رفضنا صحاح القوم ولم نعتقد بما أثبته المتواتر من الروايات، وقلنا إن المراد من الناس هم المشركون وأعداء الإسلام، الذين أضمروا في أنفسهم عداء لقائده، فالآية متضمنة للتنبؤ بالغيب أيضاً، إذ لم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم، وكانوا يتربصون به الدوائر، ويتحينون الفرص، للإيقاع به، والقضاء عليه، وعلى دعوته وهو أضعف منهم استعداداً وأقل جنوداً، فمن الذي يملك هذا الوعد إذاً، إلا الله الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ.

وقال سبحانه ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر: ٩٤-٩٦].

أخبر سبحانه عن أنه يكفيه عن أذى المستهزئين ومؤامرتهم، وقد كفاه الله أشرف كفاية، لم تكن تتعلق بها الآمال بحسب العادة، وقد بان للمشركين وعلموا ما في قوله سبحانه في آخر الآية ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

روى البزار والطبراني عن أنس بن مالك أنها نزلت عند مرور النبي ﷺ على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه، ويقولون هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبرائيل[١] فأخبرت الآية عن ظهور دعوة النبي، وانتصاره على أعدائه، وخذلانه للمشركين الذين ناووه واستهزأوا بنبوَّته واستخفوا بأمره، وكان هذا الإخبار في زمان لم يخطر فيه على بال أحد من الناس، اندحار قريش، وانكسار شوكتهم وظهور النبي عليهم.

وقال الطبرسي: أي كفيناك شرَّ المستهزئين، واستهزاءهم: بأن أهلكناهم، وكانوا خمسة نفر من قريش أو ستة، ثم ذكر أسماءهم وكيفية هلاكهم.

وقال في الأمثل: ثم يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ أي لا تخف من ضوضاء المشركين والمجرمين، ولا تضعف أو تتردَّد أو تسكت، بل أُدعهم إلى رسالتك جهراً.

---

(١) لباب العقول، ص١٣٣.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولا تعتن بهم.

«فاصدع» من مادة (صَدَعَ) وهي لُغة بمعنى (الشَّق) بشكل مطلق، أو شق الأجسام المحكمة بما يكشف عمّا في داخلها، ويقال أيضاً لألم الرأس الشديد (صداع)، وكأنه من شدّته يريد أن يشق الرأس! ومن هنا... بمعنى الإظهار والإعلان والإفشاء.

وعلى أي حال... فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال، أو ترك مجاهدتهم وحربهم، لأن المسلمين في ذلك الوقت لم تصل قدراتهم (بعد) لمستوى المواجهة مع الأعداء وحربهم.

ثم يطمئن الله تعالى نبيَّه ﷺ تقوية لقلبه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾. إنّ مجيء الفعل بصيغة الماضي في هذه الآية مع أن المراد المستقبل يشير إلى حتميَّة الرِّعاية الرَّبانيَّة، أي سندفع عنك شرَّ المستهزئين حتماً مقضياً. وقد ذكر المفسِّرون رواية تتحدَّث عن ست جماعات (أو أقل) كان كل منهم يمارس نوعاً من الإستهزاء تجاه النبي ﷺ فكلَّما صدع النبي ﷺ بالدَّعوة قاموا بالإستهزاء تفريقاً للناس من حوله ﷺ إلّا أن الله تعالى ابتلى كلّاً منهم بنوع من البلاء، حتى شغلهم عن النبي ﷺ، (وقد ورد تفصيل تلك الإبتلاءات في بعض التفاسير).

التنبؤ عن المنافقين والمخلّفين في القرآن

يقول سبحانه: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

فأخبر عن قعودهم، وعدم خروجهم مع النبي، فقوله سبحانه: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ لن يكون لكم شرف صحبة الإيمان، بالخروج معي إلى الجهاد في سبيل الله، ولا إلى غيره من النسك أبداً ما بقيتُ ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ من الأعداء لا بالخروج والسفر إليهم، ولا بغير ذلك.

ويتلوه ما جاء فيه من التنبؤ بما يحلف به المنافقون كقوله سبحانه ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

فأخبر عن حلفهم في المستقبل القريب، وعن كذبهم في حلفهم هذا. قال: الطبرسي وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا إذ أخبر أنهم سيحلفون قبل وقوعه وحلفوا وكان خبره على ما أخبر به[١].

ومثله قوله سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥]. وفي هذه السورة شيء كثير من هذا الضرب من التنبؤ، فتدبر في آياتها ومضامينها تجدها مملوءة من الإخبارات الغيبية وقد نزلت في حق المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك.

ونظير تلكم الآيات ما ورد في سورة الفتح من التنبؤ حول الأعراب الذين تخلفوا عن النبي في الخروج إلى الحديبية ودونك بعض الآيات ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

وقوله سبحانه ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

وفي هاتين الآيتين إخبارات غيبية عن كثير مما تَفوَّه به المخلَّفون وعن ما يضمرون في أنفسهم، وما يصيبهم في المستقبل، يظهر ذلك لكل من أمعن النظر في مفاد الآيتين ودونك تفسيرهما:

لما أراد النّبي المسير إلى مكة عام «الحديبية» معتمراً وكان في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، استنفر من حول المدينة إلى الخروج معه، وهم «غفار» و«اسلم» و«مزينة» و«جهينة» و«اشجع» و«الدئل»، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو بصد وهو أحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، فتخلفوا عنه، إعتلّوا بالشغل، فأخبر سبحانه عن العذيرة التي سوف يتشبثون بها، عند رجوع النبي وأصحابه عن الحديبية بقوله: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾، كما أخبر عن أنهم سوف يطلبون

---

(١) مجمع البيان، ج٣، ص٣٣.

من النبي أن يستغفر لهم والحال أنهم كاذبون في معذرتهم التي تمسكوا بها، وفي ما يطلبون من النبي الأكرم ﷺ من الإستغفار لهم، وهم لا يبالون استغفر لهم النبي أم لم يستغفر.

ثم أخبر سبحانه عن أن النبي بعد منصرفه عن الحديبية بالصلح، سوف يتوجه إلى «خيبر» ويأخذ من أهلها مغانم، وأن هؤلاء المتخلفين يطلبون من النبي أن يتبعوه حتى يشاركوا المسلمين في ما يأخذون من المغانم، وأن النبي يجيبهم بأنكم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ ولأجل ذلك خصّ النبي مغانم «خيبر» لمن شهد الحديبية.

ويظهر من قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ﴾، إن الله سبحانه كان قد أخبر نبيه عن تخلفهم في الحديبية، أيضاً كما أخبره عن تخلفهم في غزوة خيبر.

ونظير ما سبق قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

فأخبر المتخلفين عن غزوة الحديبية بأنهم سَيُدْعَوْنَ إلى معركة عنيفة تدور بينهم وبين قوم أُولي بأس شديد فدعاهم النبي بعد سنتين إلى المقاتلة مع قبائل هوازن وحنين وثقيف، وكانوا أقواماً ذوي نجدة وشدة حسب ما نقرأه في السير والتاريخ ثم أخبر سبحانه عن أنهم يأخذون مغانم كثيرة بقوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: ١٩-٢٠].

فقد أخذوا بعد غنائم خيبر التي أشار إليها بقوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ غنائم كثيرة في محاربة قبائل حنين وهوازن.

ثم إنه أخبر عما أضمره المنافقون وأسرّوه من الكفر والعصيان وأنهم ليعدون وعداً ثم يخالفونه قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ

مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١١-١٢].

وحاصل الآيات أنه سبحانه يخاطب النبي ويقول: ألم تر يا محمد إلى الذين نافقوا فأبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ـ يعني يهود بني النضير ـ لئن أخرجتم من دياركم وبلادكم لنخرجن معكم مساعدين لكم ولا نطيع في قتالكم وفي مخاصمتكم أحداً أبداً ـ أي محمداً وأصحابه ـ بل وعَدُوهم النصر بقولهم: وإن قوتلتم لننصرنكم ثم كَذَّبهم الله في ذلك بقوله: والله يشهد أنهم لكاذبون فإنه لو خرج أهل الكتاب لا يخرج المنافقون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم هؤلاء المنافقون ولئن نصروهم لَيُولُّنَّ الأدبار وينهزمون.

وقد نقل المفسرون أن الآية نزلت قبل إخراج بني النضير وأُخرجوا بعد ذلك فلم يخرج معهم منافق ولم ينصروهم[1].

وقال سبحانه في بني النضير من اليهود ومن مال إليهم من المنافقين: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

أخبر سبحانه عن أحوال المنافقين مخاطباً للمؤمنين، بأنهم لا يقاتلونكم إلا في قرى محصنة لا يبرزون لحربكم وإنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى أو من وراء جدر.

الإخبار عن القضاء على العدو قبل المعركة:

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ

(١) مجمع البيان، ج٥، ص٢٦٣.

أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٧-١٢].

الآية نزلت في وقعة «بدر»، وقد وعد الله فيها المؤمنين بالنصر على عدوهم ويقطع دابرهم والمؤمنون على ما هم عليه من قلة العدد والعدة حتى أن الفارس فيهم كان المقداد أو هو الزبير بن العوام والكافرون هم الكثيرون الشديدون في القوة وقد وصفتهم الآية بأنهم ذوو شوكة وأن المؤمنين أشفقوا من قتالهم، ولكن الله يريد أن يحق الحق بكلماته، وقد وفى للمؤمنين بوعده، فنصرهم على أعدائهم وقطع دابر الكافرين.

وقال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله فإن الله عزَّ وجلَّ قد وعدني «إحدى الطائفتين» ولن يخلف الله وعده، والله لكأني أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان، وأمر سول الله بالرحيل وخرج إلى بدر»[١].

فأخبر سبحانه بقوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عن هزيمة المشركين وقتل أعوانهم واستئصال شأفتهم ومحق قوتهم، فإن دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم ولن يصل إليه الهلاك إلا بهلاك من قبله من الجيش وهكذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر لما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة[٢].

وليس تنبؤ القرآن بالقضاء على مشركي قريش في معركة بدر منحصراً بهذه الآية بل تنبأ بذلك في آية أخرى وهي قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٤-٤٥]. فأخبر عن انهزام جمع الكفار وتفرقهم وقمع شوكتهم، وقد وقع هذا في يوم «بدر» أيضاً حين ضرب

---

(١) مجمع البيان، ج٤ ص٥٢٢.

(٢) المنار ج٩ ص٦٠١، والناظر الدقيق المتأمل في مفاد هذه الآيات يجد فيها تنبؤات كثيرة تحققت كلها في غزوة بدر فاقرأ سيرة النبي الأكرم ولاحظ مفاد هذه الآيات.

أبو جهل فرسه وتقدم نحو الصف الأول قائلاً: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فأباده الله وجَمْعَهُ وأنار الحق ورفع مناره، وأعلى كلمته فانهزم الكافرون وظفر المسلمون عليهم حينما لم يكن يتوهم أحد بأن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ليس لهم عدة يظفرون فيها بجمع كبير تام العدة وافر العدد وكيف يستفحل أمر أولئك النفر القليل على هذا العدد الكثير، حتى تذهب شوكته كرماد اشتدت به الريح[1].

التنبؤ بصيانة القرآن عن التحريف:

تنبأ القرآن بأنه سيبقى مصوناً عن التحريف بعامة معانيه.

قال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣]. ويقرب منهما ما ورد في سورة الصف، باختلاف يسير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨-٩]. فأظهره على الدين كله أعز إظهار، أرغمت به آناف المشركين، وقُبِضَ ولحق بالرفيق الأعلى ولم يبق في الجزيرة العربية وثن ولا وثني ولأعلام التفسير حول الآية كلمات تفسر الآية بغير ما ذكرناه.

قال صاحب المنار بعد ما حقّق وفصّل أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لأن يكون عالمياً، ويظهر على الدين كله، وأنه صح عن النبي ﷺ «أن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلك أمتي ما زوى لي منها».

قال: ومن العلماء من يقول: إن بعض البشارات هذه لا يتم إلى في آخر الزمان عند ظهور المهدي عليه السلام وما يتلوه من نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء وإمامته لدين الإسلام[2].

---

(١) البيان ص٥٢ ـ ٥٣.

(٢) المنار، ج١ ص٤٦٠.

ملاحظات

١ ـ شُبِّه (دين الله) في هذه الآية وفي القرآن وتعاليم الإسلام بالنور، ونحن نعرف أن النور هو أساس الحياة والحركة والنمو والعمران على الأرض، منشأ كل جمال، والإسلام دين يُحرّك كل مجتمع إنساني نحو التكامل وهو أساس كل خير وبركة.

كما شُبّه اجتهاد الكافرين بالنفخ بالأفواه وكم هو مثير للضحك أن يحاول الإنسان إطفاء نور عظيم كنور الشمس بنفخة؟ ولا تعبير أبلغ من تعبير القرآن لتجسيد هذه المحاولات اليائسة، وفي الواقع فإنّ محاولات مخلوق ضعيف إزاء قدرة الله التي لا نهاية لها، لا تكون أحسن حالاً ممّا ذكرته الآية.

٢ ـ ورد في موضوع محاولة إطفاء نور الله في القرآن في موردين: أحدهما في الآية محل البحث، والآخر في الآية (٨) من سورة الصف، وفي الآيتين انتقاد للكفار ومحاولات أعداء الله اليائسة، إلّا أن بين تعبيري الآيتين تفاوتاً يسيراً، إذ جاء التعبير في الآية محل البحث ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾ إلّا أن الآية (٨) من سورة الصف جاء فيها التعبير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾.

وممّا لا شك فيه أن هذا التفاوت أو الإختلاف اليسير في التعبير القرآني لغاية بلاغية.

يقول الراغب في مفرداته موضحاً الفرق بين ﴿أَن يُطْفِئُوا﴾ و﴿لِيُطْفِئُوا﴾: إنّ الآية الأولى تشير إلى محاولة إطفائه بالتوسل بالاسباب والمقدمات، فالقرآن يريد أن يقول: سواء توسّلوا بالأسباب أم لم يتوسلوا فلن يفلحوا أبداً، وعاقبتهم الهزيمة والخسران.

٣ ـ كلمة «يأبى» مأخوذة من الإباء، ومعناه شدة الإمتناع وعدم المطاوعة، وهذا التعبير يثبت إرادة الله ومشيئته الحتمية لإكمال دينه وازدهاره، كما أنّ التعبير مدعاة لإطمئنان جميع المسلمين، إن كانوا مسلمين حقّاً! إنّ مستقبل دينهم لا بأس عليه، بل هو مُؤيَّد بأمر الله.

المستقبل للإسلام:

الآية الأخيرة من الآيات ـ محل البحث ـ في نهاية المطاف تزف البُشرى

للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، وتكمل ما أشارت إليه ـ آنفاً ـ أن أعداء الإسلام لن يفلحوا في محاولاتهم ومناوآتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

والمقصود من الهُدى هو الدلائل الواضحة، والبراهين اللائحة الجلّية التي وُجِدَتْ في الدين الإسلامي.

وأمّا المراد من دين الحق، فهو هذا الدين الذي أُصوله حقّة وفروعه حقّة أيضاً، وكل ما فيه من تاريخ وبراهين ونتائج حق، ولا شك أن الدِّين الذي محتواه حق، ودلائله وبراهينه حقّة، وتأريخه حق جليّ، لا بدّ أن يظهر على جميع الأديان.

وبمرور الزمان وتقدم العلم وسهولة الإرتباطات، فإن الواقع سيكشف وجهه ويطلعه من وراء سُدُلِ الإعلام المُضَلّلة، وستزول كل العقبات والموانع والسدود التي وُضِعَت في طريق انتشار الإسلام.

وهكذا فإنّ دين الحق سيستوعب كل مكان، ولا يحول بينه وبين تقدُّمه شيء أبداً لأنّ الحركات المضادة للإسلام حركات مخالفة لسير التاريخ وسنن الخلق.

بحوث

١ ـ المراد «الهدى ودين الحقّ»:

هذا التعبير الوارد في الآية محل البحث: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ بمثابة الدليل على انتصار الإسلام وظهور على جميع الأديان، لأنّه لمّا كان محتوى دعوة النّبي الهداية، والعقل يدل على ذلك في كل موطن، ولما كانت أُصوله وفروعه موافقة للحق، ومع الحق، وتسير في مسير الحق، ولأجل الحق. فهذا الدين سينتصر على جميع الأديان طبعاً.

وقد جاء عن أحد علماء الهند أنّه سبر فكره في مطالعة مختلف الأديان فترة من الزمن، وانتهى أمره إلى اختيار الدين الإسلامي من بين جميع أديان

العالم، ثمّ نشر كتاباً بالإنجليزية اسمه «لِمَ أسلمتُ؟» وبيّن فيه مزايا الدين الإسلامي على غيره من الأديان.

ومن أهم المسائل التي أثارت انتباهه ـ كما يقول ـ أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي له تأريخ ثابت محفوظ ويتعجّبُ كيف اختارت أوروبا لها ديناً ترى أنّ من جاء به أجَلّ من الإنسان وتعدّه ربّها، مع أن هذا الدين ليس له تاريخ دقيق[1].

إنّ مطالعة آراء الذين اعتنقوا الإسلام ديناً جديداً وعزفوا عن دينهم السابق، تكشف أنّهم كانوا في منتهى البساطة والغفلة والتضليل، بينما دلّتهم أصول الإسلام وفروعه ذات الأدلّة المحكمة إلى الدين الإلهي البعيد عن الخرافات كلّها، والذي يتجلّى في نور الحق والهداية.

٢ ـ انتصار المنطق أم انتصار القوّة؟

هناك كلام بين المفسّرين في كيفية ظهور الدين الإسلامي على سائر الأديان، وهذا الظهور أو الإنتصار في أيّ شكل هو؟

قال بعض المفسّرين: هذا الإنتصار انتصار منطقي استدلالي فحسب، ويقولون بأن هذا الموضوع حاصل فعلاً، لأنّ الإسلام من حيث منطقه ودلائله لا يقاس به دين آخر.

غير أنّ التحقيق في موارد استعمال مادة «الإظهار» في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾. يكشف أنّ هذه المادة غالباً ما تستعمل في القدرة الظاهرية والغلبة المادية، كما جاء في قصّة أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ [الكهف: ٢٠] وكما نقرأ في شأن المشركين ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨].

فمن البديهي أنّ الغلبة في مثل هذه الموارد ليست غلبة منطقية، بل هي غلبة عينية وفعلية، وعلى كل حال فمن الأفضل والأكثر صحة أن نعتقد بأنّ هذا الظهور والغلب ظهور مطلق ـ من جميع الجوانب ـ لأنّه ينسجم ومفهوم الآية التي هي مطلقة من جميع الجهات أيضاً، فيكون المعنى أنّه سيأتي يوم ينتصر فيه الإسلام

---

(١) المنار، ج١٠، ص٣٨٩.

انتصاراً منطقياً وانتصاراً ظاهرياً، في امتداد سيطرته ونفوذه المطلق، وحكومته العامّة على جميع الأديان، وسيجعل جميع الأديان تحت شعاعه.

وفسّر الطبرسي «الظّهور» بالغلبة بالحجة والقهر معاً، وقال أي ليظهر دين الإسلام على جميع الأديان بالحجة والغلبة والقهر لها حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلا مغلوباً، ولا يغلب أحد الإسلام بالحجة وأهل الإسلام يغلبون أهل سائر الأديان بالحجة وأما الظهور بالغلبة فهو إن كل طائفة من المسلمين قد غَلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك ولحقهم قهر من جهتها.

وقيل أراد عند نزول عيسى ابن مريم فإنه لا يبقى أهل دين إلا أسلم أو أدّى الجزية وقال أبو جعفر عليه السلام إن ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد ﷺ، وقال المقداد بن الأسود سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز وإما بذل ذليل...[١]، وقال في موضع آخر، وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ لأنّه سبحانه قد أشهر دينه على جميع الأديان بالإستعلاء والقهر وإعلاء الشأن كما وعده ذلك في حال الضعف وقلة الأعوان روى عباية: أنه سمع أمير المؤمنين يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] «أظهر بعد ذلك قالوا نعم قال كلا فوالذي نفسي بيده حتى لا تبقى قرية إلا وينادى فيها شهادة أن لا إله إلا الله بكرة وعشيا»[٢].

نعم يمكن أن يقال: المراد من ظهور معناه الجامع العام أي الظهور والغلبة أعم من الغلبة بالبرهان والحجة والغلبة بالقدرة والسيطرة، ثم الظهور أعم من الظهور على الشرك والوثنية السائدة في الجزيرة العربية يوم نزول الآية، والظهور على الشرائع كلها، في مشارق الأرض ومغاربها، فللظهور مراتب ودرجات تحقق بعضها في عصر الرسول والبعض الآخر بعده ﷺ والدرجة العليا منها إنما تتحقق بظهور المهدي من آل محمد (عجل الله تعالى فرجه).

---

(١) مجمع البيان ج١، ص٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٨٠.

على أن هنا آيات تنبأت بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحاً باهرا مثل قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فتنبأ بأن الإسلام يخلد ويبقى، وأن الباطل والوثنية سيذهب جفاء، أخبر بذلك في الوقت الذي كان فيه المسلمون في مكة مضطهدين مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس وقريب منه قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]. فالمراد من الكلمة الطيبة، هي كلمة التوحيد وما يتفرع عنها من أحكام وفروع، فالإعتقاد بالله سبحانه ووحدانيته هو الأصل الثابت والمحفوظ من كل تغير وزوال، ومن طروء أي بطلان عليه، وتتفرع عنها أحكام ونسك وأخلاق زاكية وأعمال صالحة يحيا بها الإنسان، ويعمر بها المجتمع، وتعطي أكلها وثمارها التي هي عبارة عن صلاح المجتمع الإنساني وتكامله كل حين.

فالآية تشير إلى أن العقائد الحقة وما يتفرع عنها من الأحكام، كشجرة طيبة فكما هي تضرب عروقها في الأرض وتعلو أغصانها إلى السماء، ويتظلل بها الناس ويستفيد من ثمارها القريب والبعيد، فهكذا الدين الحق والكلمة الطيبة التي هي كلمة التوحيد والإسلام، سوف يستقر في قلوب الناس، وتضرب عروقها في ضمائرهم وقلوبهم، وترفع أغصانها في مظاهر حياتهم، يتظلل بها العرب والعجم ويستفيد من آثارها الداني والقاصي وبها يستقر السلام العام وتأمن سعادة الناس، وبها يتكامل المجتمع البشري في مراحل الحياة ومظاهرها، فتبقى دائمة على مر الليالي والأيام.

فهذه الآية تنبيء عن مستقبل الإسلام ونجاحه نجاحاً باهراً في وقت لم يكن من بواسم الآمال ما يلقي ضوءاً على نجاح هذا الدين، ولم يكن عند النبي من العوامل ما يجعله يثق بهذا النجاح، وليس النبي بشهادة تاريخ حياته ورجاحة عقله واتزانه ودقته، من الذين يُلقُون القول على عواهنه غير متريثين بما يقولون بل كان يتثبت في كلامه، ويتحرى في مقاله حتى اشتهر بالصدق والأمانة ومع ذلك فقد أخبر بلغة الواثق فيما يقول، عن نجاح دينه في

المستقبل وأنه سوف يضرب بجرانه خارج مكة بل خارج الجزيرة العربية إلى أقاصي الدنيا.

واعطف على ذلك تنبؤ القرآن بكل وعود تدل على نجاح الرسل والمؤمنين في ميادين الحياة ومعارك التنازع، كقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥][1].

فهذه الوعود المؤكدة الكريمة وإن وردت بصورة عامة، لكنها تعم النبي الأكرم والذين آمنوا به، فقد نصر النبي وجنده وغلبهم على مخالفيهم وأعدائهم ومكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في أرضه واستخلفهم فيها، وبدَّل خوفهم أمنا حتى استطاعوا أن يعبدوه آمنين غير خائفين إلى يومنا هذا.

«إن الإسلام لقي من ضروب العنت مراراً وتكراراً في أزمان متطاولة وعهود مختلفة، ما كان بعضه كافياً في محوه وزواله ولكنه على رغم أنف هذه الأعاصير العاتية بقي ثابتاً، يسامي الجبال شامخاً يطاول السماء على حين أن سجلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها، ما يشيب الولد من ألوان الإضطهاد والأذى الذي أصاب الرسول وأتباعه في مكة والمدينة وقد رمتهم العرب بقوس واحدة، عندما نزلوا المدينة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه وقد وعدهم بالنصر والغلبة وهم يضطهدون، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي، رغم هذه الأحوال، المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم، واستخلفهم في أقطار الأرض وأورثهم ملك كسرى وقيصر ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم بعد خوفهم أمنا، يا لها من نبوءة تأبى

---

(١) راجع ما اسلفناه حول الآيات المتقدمة من عمومية المعنى وأوسعيته وكونه ذا مراتب فلا ينافي تأويله بخروج الإمام المنتظر.

عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها ويخرق إن شاء عادات الكون ونواميسه من أجلها، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]»[1].

كيف وهو لم يكتف بهذا بل تنبأ في الوقت الذي لم يكن فيه من بواسم الآمال، ما يوجب اطمئنانه بنجاحه ونجاح دينه بأنه سيعود إلى معاده وموطنه في حين أن المسلمين كانوا بمكة في أذى وغلبة من أهلها وكان هو بالجحفة أثناء هجرته إلى المدينة وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥] فأخبر عن رجوعه إلى معاده من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقاً للخبر[2].

وإنك لتجد في سبرك الذكر الحكيم آيات أُخرى غير ما ذكرناه تبشر بنجاح الإسلام والمسلمين، وتعبر عن غلبتهم على أعدائهم وهذه الآيات الكثيرة الواردة في هذا القسم من المغيبات، قد تحققت كلها ولم تتخلف منها واحدة ولوتخلفت منها واحدة لَزمَّرتْ وطَبَّلَتْ على تلك السقطة أعداؤه، وطفقوا يرقصون فرحاً بالخلاف الذي وجدوه في كتابه الذي به تحداهم فهدم كيانهم وسفه أحلامهم.

ولا بأس بذكر بعض ما يناسب المقام من الآيات التي تنبأت بانتصار الرسول والمسلمين على أعدائهم وأنهم سوف يدخلون مكة بل يفتحونها.

قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]. روى أصحاب السير والتاريخ «إن الله تعالى أرى نبيه في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية، أن المسلمين دخلوا المسجد الحرام فأخبر بذلك أصحابه وأنهم سوف يدخلون مكة فلما خرجوا من المدينة وبلغوا الحديبية خرج منها رسول الله ﷺ في عدد من أصحابه حتى إذا كانوا بذي الحليفة بعث النبي ﷺ عيناً، وجاء فأخبره بأن

(١) مناهل الفرقان ج٢، ص٢١ ـ بتصرف.
(٢) مجمع البيان، ج٤، ص٢٦٩.

كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش طليعة، وبعد محادثات جرت بين المسلمين وقريش اصطلحوا على أن يضعوا الحرب عشر سنين وأن يرجع رسول الله ومن معه من أصحابه في عامه هذا فلا يدخل مكة إلّا من العام القابل.

فيقيم بها ثلاثاً ومعه سلاح الراكب والسيوف في القرب ولا يدخلها بغيره، فلما انصرف رسول الله ومن معه من أصحابه قال المنافقون ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام فأنزل الله هذه الآية وأخبر أنه أرى رسوله الصدق في منامه، لا الباطل، وأنهم يدخلونه وأقسم على ذلك وقال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي العام القابل وكان بين نزول الآية والدخول مدة سنة ولعل التقييد بالمشيئة لعلمه سبحانه بأن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها فأدخل الإستثناء لئلا يقع في الخبر خلف[1].

قال في مفاهيم القرآن: ونختم هذا القسم بتنبؤين:

١ ـ تنبؤ القرآن بانتصاره على أعدائه من قريش وفتحه عاصمة الوثنيين ودخول الناس في دين الإسلام فوجاً بعد فوج قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣]. فأظفر الله على أعدائه وفتح مكة ودخل الناس في دين الإسلام زمرة بعد زمرة ولأجل ذاك النصر العظيم أمره سبحانه بتنزيه الله عما لا يليق به، وليست هذه هي المرة الوحيدة التي تنبأ فيها القرآن الكريم بفتح مكة، بل تنبأ بفتح مكة مرة أخرى وهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] فقد روي أن المسلمين رجعوا عن غزوة الحديبية وقد حيل بينهم وبين نسكهم فهم بين الحزن والكآبة إذ أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فأدرك الرسول السرور والفرح، ما شاء الله، ففتحت مكة بعد عامين، من نزول السورة ومعنى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ إنا قضينا لك بالفتح.

وقال سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢، غزوة الحديبية، ص٣٠٨ ـ ٣٢٢، مجمع البيان ج٥، ص١٢٦.

والمراد من «فتح قريب» إما فتح مكة أو فتح بلاد الفرس والروم[١].

٢ ـ تنبؤ القرآن بأنه لا يضر ارتداد من ارتدَّ ممن آمن به فإن الله يأتي بقوم رحماء على المؤمنين أشداء على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، حيث قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

ورُويَ أن النبي ﷺ سئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق سلمان فقال: هذا وذووه... ثم قال: لو كان الدين معلقاً في الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس، ونقلت في هدف الآية أقوال أخر[٢].

التنبؤ بأحداث جزئية:

ومن غرائب التنبوءات الإخبار عن أحداث جزئية، تحقق بعد الإخبار كما أخبر، فأخبر بأن أبا لهب وامرأته يموتان على الكفر، ولا يحظيان بسعادة الإسلام، الذي يُكفِّر عنهما آثام الشرك، ويحط أوزارهما، فماتا على الكفر، كما أخبر به إخباراً حتمياً وذلك في قوله سبحانه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ١-٥]. فأخبر بأنه يدخل ناراً عنيفة الإشتعال تلتهب عليه، وهي نار جهنم وجاء المخبر كما أخبر.

كما أخبر عن الوليد بن المغيرة ومصير أمره وعاقبة حياته، وأنه يموت على الكفر، وأنه سبحانه يدخله في عذاب لا راحة فيه، وذلك عندما اتهم النبي بأنه ساحر فأنزل الله فيه سبحانه الآيات التالية: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا

---

(١) مجمع البيان، ج٥، ص١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ٢٨٢.

(٢) مجمع البيان، ج٢ ص٢٠٨.

سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ١١-٣٠].

روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة فقال الوليد لهم إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام، وإن العرب يأتونكم، فتنطلقون من عندكم على أمر مختلف، فاجمعوا أمركم على شيء واحد ما تقولون في هذا الرجل، قالوا إنه شاعر فعبس، وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر، فقالوا: إنه كاهن، قال: إذاً تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة، قالوا: إنه لمجنون، فقال: إذاً تأتونه فلا تجدونه مجنوناً، قالوا: إنه ساحر، قال: وما الساحر، فقالوا: بشر يحبب بين المتباغضين ويبغض بين المتحابين، قال: فهو ساحر فكان لا يلاقي أحد منهم النبي إلا قال: يا ساحر واشتد ذلك فأنزل إليه هذه الآيات[1].

وهذا التنبؤ صدر عنه ﷺ في مكة وكان في وسع الرجل أن يقلب حاله ويصلح باله ولكنه بقي على ما كان عليه من كفره وعدائه للنبي والإسلام.

وقد تنبأ القرآن به بصورة أُخرى وهو أنه سيجعل له علامة على أنفه يعرف بها، حين قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٠-١٦] وقد حضر الرجل في معركة بدر الكبرى خطم أنفه بالسيف، وبقي أثر هذه الضربة سمة وعلامة له كما هو أحد الوجوه في تفسير قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[2].

ولا ينحصر تنبؤ القرآن بعدم إيمان عمه أو الوليد بل تنبأ في آية أُخرى عن عدم إيمان ثلة كبيرة من الكافرين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وقال سبحانه: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يس: ١٠]. وليس المراد عموم الكافرين لبطلانه بالضرورة لدخول كثير منهم في الإسلام

(١) مجمع البيان، ج١ ص٣٨٧.
(٢) الكشاف، ج٤ ص٥٨٩، مجمع البيان، ج١ ص٣٣٥.

بل المراد الذين كانوا يظاهرون بعدوانه، قال الطبرسي: تدل الآية على أنه يجوز أن يخاطب الله تعالى بالعام والمراد به الخاص لأنا نعلم أن في الكفار من آمن وانتفع بالإنذار.

ومثله تنبؤ القرآن بأن عدو النبي ﷺ (العاص بن وائل السهمي هو الأبتر) وأن الله سبحانه سيرزق نبيه ذرية كثيرة حتي يصير أكثر من كل نسب، قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: ١-٣].

قال في تفسير الفخر الرازي: إن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم الأولاد فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالم ممتلىء منهم ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم.

كل ذلك دليل علي أنه لا مصدر لهذه التنبوءات والإخبارات الغيبية إلّا الله سبحانه علام الغيوب.

معجزة القرآن الخالدة

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

التّفسير

قال في الأمثل: ظاهرة الكفر والنفاق، التي دارت حولها موضوعات الآيات السابقة، تنشأ أحياناً عن عدم فهم محتوى النّبوة ومعجزة الرّسول ﷺ. والآيات التي نحن بصددها تعالج هذه المسألة، وتركز على المعجزة القرآنية الخالدة كي تزيل كل شك وترديد في رسالة نبي الإسلام ﷺ. تقول الآية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[1].

وبهذا الشكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله، كي يكون عجزهم دليلاً واضحاً على أصالة هذا الوحي السماوي وعلى الجانب الإلهي للرسالة والدعوة.

ولأجل أن يؤكد هذا التحدي دعاهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين، بل ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

كلمة «شهداء» تشير إلى الفئة التي كانت تساعدهم في رفض رسالة

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في (مثله) يعود على النّبي كما يعود الضمير في (عبدنا) عليه أيضاً. ويصبح المعنى حينئذٍ: لو كنتم في شك من الوحي فأتوا بشخص أمّي مثل محمّد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن. لكن هذا الإحتمال بعيد، إذ ورد في موضوع آخر: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]، وفي موضع آخر أيضاً ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وهذه دلالة على أن الضمير في (مثله) يعود على القرآن.

النّبي ﷺ، وعبارة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى عجز جميع البشر عن الإتيان بسورة قرآنية ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإلى قدرة الله وحده على ذلك.

وعبارة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تستهدف حثّهم على قبول هذا التحدي، ومفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليل كذبكم، فانهضوا إذاً لإثبات ادعائكم.

طبيعة التحدي تقتضي أن يكون صارخاً إلى أبعد حدّ ممكن، وأن يكون محفّزاً للعدو مهما أمكن، وبعبارة أُخرى أن يثير الحميّة فيه، كي يجنّد كل طاقاته لعملية المجابهة، حتى إذا فشل وأيقن بعجزه علم أنه أمام ظاهرة إلهية لا بشرية.

من هنا فسياق الآيات التالية، يركز على عنصر الإثارة ويقول: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ وهذه النار ليست حديث مستقبل، بل هي واقع قائم: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

جمع من المفسرين قالوا: إن المقصود بالحجارة: الأصنام الحجرية، واستشهدوا لذلك بالآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[الأنبياء:٩٨].

جمع آخر قالوا: (الحجارة) إشارة إلى صخور معدنية كبريتية تفوق حرارتها حرارة الصخور الأُخرى.

وهناك من المفسرين من يعتقد أن المقصود من هذا التعبير إلفات النظر إلى شدة حرارة جهنم، أي إن حرارة جهنّم وحريقها يبلغ درجة تشتعل فيها الصخور والأجساد كما يشتعل الوقود.

ويبدو من ظاهر الآيات المذكورة، أن نار جهنم تستعر من داخل النّاس والحجارة، ولا يصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أن العلم الحديث أثبت أن كل أجسام العالم تنطوي في أعماقها على نار عظيمة (أو بعبارة أُخرى على طاقة قابلة للتبديل إلى نار)، ولا يلزم أن نتصور نار جهنم شبيهة بالنار المشهودة في هذا العالم.

في موضع آخر يقول تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: ٦-٧]. خلافاً لنيران هذا العالم التي تنفذ من الخارج إلى الداخل.

بحوث

١ ـ لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزة؟

نعلم أن منصب النّبوة أعظم منصب منحه الله لخاصة أوليائه. فكل المناصب عادة تمنح صاحبها القدرة للحكم على أبدان الأفراد، إلّا منصب النّبوة، فالنّبي يحكم على الأجسام والقلوب في مجتمعه. من هنا كان مقام النّبوة لا يبلغه مقام في سموّه، ومن هنا أيضاً كان أدعياء النبوّات الكاذبة أحطّ النّاس وأشدّهم انحرافاً.

والنّاس هنا أمام أمرين: إمّا أن يؤمنوا بدعوات النّبوة جميعاً، أو يرفضوها جميعاً، لو قبلوها جملة لتحولت ساحة الأديان إلى فوضى وهرج ومرج، ولو رفضوها جملة لكان عاقبة ذلك الضلال والضياع.

فالدليل على مبدأ البعثة ذاته يفرض إذاً أن يكون الأنبياء الصادقين مجهزين بالدليل على نبوتهم كي يتميز الصادقون من الكاذبين. أي أن يكونوا مجهزين بالمعجزة الدّالة على صدق ادعائهم.

و«المعجزة» ـ كما هو واضح من لفظها ـ عمل خارق للعادة يأتي به النّبي ويعجز عن الإتيان به الآخرون.

على النّبي صاحب المعجزة أن يتحدى النّاس بمعجزته، وأن يعلن لهم أن معجزته دليل على صدق دعواه.

٢ ـ القرآن معجزة نبي الإسلام الخالدة:

القرآن كتاب يسمُو على أفكار البشر، ولم يستطع أحد حتى اليوم أن يأتي بمثله، وهو معجزة سماوية كبرى.

هذا الكتاب الكريم يعتبر ـ بين معاجز النّبي ﷺ ـ أقوى سند حيّ على نبوّة الرّسول الخاتم، لأنه معجزة «ناطقة» و«خالدة» و«عالمية» و«معنوية».

أمّا أنّه معجزة «ناطقة» فإنّ معاجز الأنبياء السابقين لم تكن كذلك، أي أنها كانت بحاجة إلى وجود النّبي لكي يتحدث للناس عن معجزته ويتحداهم بها، ومعاجز النّبي الخاتم ـ عدا القرآن ـ هي من هذا اللون. أما القرآن فمعجزة

ناطقة. لا يحتاج إلى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين ويدينهم ويخرج منتصراً من ساحة التحدي. وهو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم في عصر الرسالة. إنه دين ومعجزة، إنه قانون، ووثيقة تثبت إلهية القانون.

أما الخلود والعالمية: فإنّ القرآن حطم سدود «الزمان والمكان» وتعالى عليهما، لأن معاجز الأنبياء السابقين ـ وحتى معاجز النّبي الخاتم غير القرآن ـ مسجلة على شريط معين من الزمان، وواقعه في مساحة معينة من المكان، وأمام جمع معدود من النّاس، مثل معاجز عيسى عليه السلام كحديثه في المهد وإحيائه الموتى. وواضح أن الأحداث المقيّدة بزمان ومكان معينين تمسي صورتها باهتة كلما ابتعدنا عن ظروفها الزمانية والمكانية. وهذا من خصائص الأمور الزمنية.

لكن القرآن لا يرتبط بالزمان والمكان، فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، بل إن مرور الزمن زاد البشرية قدرة في العلم والإمكانات لتستفيد منه أكثر من ذي قبل، وما لا يرتبط بزمان أو مكان فإنّه يحوي عناصر الدوام والخلود وسعة دائرية العالمية، وبديهي أن الدين العالمي الخالد بحاجة إلى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أمّا الصّفة «المعنوية» للقرآن فنفهمها حين ننظر إلى معاجز الأنبياء السابقين، ونرى أنّها كانت غالباً «جسمية» مثل: شفاء الأمراض الجسمية المستعصية، وتَحدُّث الطفل في المهد... وكانت تتجه نحو تسخير الأعضاء البدنية. أما القرآن، فيُسخِّر القلوب والنفوس، ويبعث فيها الإعجاب والإكبار. إنه يتعامل مع الأرواح والأفكار والعقول البشرية، وواضح إمتياز مثل هذه المعجزة على المعاجز الجسمية.

٣ ـ هل تحدى القرآن؟

القرآن تحدى البشرية في مواضع عديدة من سوره، منها:

١ ـ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)﴾ [هود: ١٣-١٤].

٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

٤ ـ الآية الثالثة والعشرون من سورة البقرة التي يدور حولها بحثنا.

القرآن تحدى بصراحة وقوة في هذه الآيات جميع البشرية، وفي هذه الصراحة والقوّة دلالة حيّة على حقّانيته. ولم يكتف في تحدّيه بدعوة النّاس إلى أن يأتوا بمثله، بل حفّزهم وشجعهم على ذلك، وعبارات التحفيز نجدها في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ....﴾ ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ....﴾ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ...﴾ ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ....﴾ ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ....﴾ ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ....﴾ ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ....﴾ ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾.

هذا التحفيز والحثّ والإثارة لم يصدر ضمن إطار معركة أدبية أو عقائدية، بل في إطار معركة «سياسية» «إقتصادية» «إجتماعية»، ضمن إطار معركة حياة أو موت، يرتبط بمصيرها وجود هذا الكيان الجديد. وعجز المعارضين أمام هذا التحدّي الحياتي الصارخ، يبيّن بشكل أوضح أبعاد المعجزة القرآنية.

جدير بالذّكر أن تحدي القرآن لا ينحصر بزمان أو مكان، بل إن هذا التحدّي قائم حتى يومنا هذا.

٤ ـ هل جيء بمثله؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظرة على الظروف والملابسات التي عاصرت نزول القرآن، وعلى تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابة ما يشبه القرآن.

غير خفيّ أن الرسالة في عصر النّزول وما بعده، واجهت خصوماً ألدّاء من المشركين واليهود والنصارى المنافقين. وهؤلاء توسّلوا بكل ما لديهم من قوّة وحيلة للوقوف بوجه الدعوة. (حتى إن بعض المنافقين مثل (أبو عامر) الراهب ومن وافقه من المنافقين اتّصلوا بامبراطور الرّوم للتآمر على الإسلام، وبلغ

الأمر بهؤلاء المتآمرين أن شيّدوا «مسجد ضرار» في المدينة، وحدثت على أثر ذلك وقائع عجيبة أشار إليها القرآن في سورة التوبة).

من الطبيعي أن هؤلاء الأعداء الألدّاء من المنافقين وغيرهم كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتحينون كل فرصة للإضرار بالمسلمين. ولو كان هؤلاء قد حصلوا على كتاب يجيب على تحدي القرآن، لتهافتوا عليه ونشروه وطبّلوا له وزمّروا، أو لسعوا في حفظه على الأقل.

ولذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحتمل احتمالاً ضعيفاً أنهم عارضوا القرآن، مثل: «عبد الله بن المقفع» فقد قيل إنه عارض القرآن بكتابه «الدرّة اليتيمة» بينما لا نعثر في هذا الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم على إشارة إلى هذه المعارضة، ولا نعرف لماذا وجهت التهمة إلى ابن المقفع بهذا الكتاب.

والمتنبي، أحمد بن الحسين الكوفي الشاعر، ذكر في زمرة المعارضين وأصحاب النبوءات، بينما تؤكد حياة المتنبي وأدبه، أنه كان ينطلق في شعره غالباً من روح الخيبة في بلوغ المناصب الرفيعة، ومن الحرمان العائلي.

وأبو العلاء المعرّي، اتهم بهذا أيضاً، ونقلت عنه أشعار تنم عن رفضه لبعض مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوماً بمعارضة القرآن، بل نقلت عنه عبارات في عظمة كتاب الله العزيز سنشير إليها فيما بعد.

أما مسيلمة الكذّاب من أهل اليمامة فقد عارض القرآن، وأتى بآيات!! أقرب إلى الهزل منها إلى الجد، ومن ذلك.

١ ـ ما قاله معارضاً سورة «الذاريات»: و«المبذرات بذراً. والحاصدات حصداً. والذاريات قمحاً. والطاحنات طحناً. والعاجنات عجناً. والخابزات خبزاً. والثاردات ثرداً. واللاقمات لقماً. أهالة وسمناً»[١].

٢ ـ من النماذج الأخرى لآياته: «يا ضفدع نقّي فإنّك نعم ما تنقين، لا وارداً تنفرين، ولا ماءً تكدرين»[٢].

---

(١) إعجاز القرآن، الرافعي.

(٢) نقلاً عن كتاب «إعجاز القرآن» للخطيب، ج١ ص٤٨٣.

٥ ـ شهادات حول القرآن:

يجدر بنا أن ننقل جملاً من أقوال المشاهير بشأن القرآن بمن فيهم أولئك الذين اتهموا بمعارضة القرآن.

١ ـ أبو العلاء المعري (المتهم بمعارضة القرآن) يقول: «وأجمع ملحد ومهتد أن هذا الكتاب الذي جاء به محمّد كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالإرجاز، ما حذا على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، . . . ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة، وجاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، وأن الآية منه أو بعض الآية لتعرض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق، والظهرة البادية في جدوب»[١].

٢ ـ الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو رجل عرف بين عرب الجاهلية بكياسته وحسن تدبيره، ولذلك سُميَ «ريحانة قريش»، سمع آيات من سورة «غافر» فرجع إلى قوم من بني مخزوم فقال لهم: «والله لقد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه»[٢].

٣ ـ العالم المؤرخ البريطاني «كارليل» يقول حول القرآن: «لو ألقينا نظرة على هذا الكتاب المقدس لرأينا الحقائق الكبيرة، وخصائص أسرار الوجود، مطروحة بشكل ناضج في مضامينه، ممّا يبين بوضوح عظمة القرآن. وهذه الميزة الكبرى خاصة بالقرآن، ولا توجد في أي كتاب علميّ وسياسي واقتصادي آخر. نعم، قراءة بعض الكتب تترك تأثيراً عميقاً في ذهن الإنسان، ولكن هذا التأثير لا يمكن مقارنته بتأثير القرآن. من هنا ينبغي أن نقول: المزايا الأساسية للقرآن، ترتبط بما فيه من حقائق وعواطف طاهرة، ومسائل كبيرة، ومضامين هامّة لا يعتريها شك وترديد. وينطوي هذا الكتاب على كل الفضائل اللازمة لتحقيق تكامل البشرية وسعادتها»[٣].

---

(١) رسالة الغفران، ص٢٦٣.

(٢) مجمع البيان، ج١٠، سورة المدثر.

(٣) من مقدمة كتاب «التنظيمات الحضارية في الإمبراطورية الإسلامية».

٤ ـ جان ديفن بوت مؤلف كتاب: «الإعتذار إلى محمّد والقرآن» يقول: «القرآن بعيد للغاية عن كل نقص، بحيث لا يحتاج إلى أدنى إصلاح أو تصحيح، وقد يقرؤه شخص من أوّله إلى آخره دون أن يحسّ بأي ملل»[١].

ويقول: «لا خلاف في أن القرآن نزل بأبلغ لسان وأفصحه، وبلهجة قريش أكثر العرب أصالة وأدباً... ومليء بأبلغ التشبيهات وأروعها»[٢].

٥ ـ غورة الشاعر الألماني يقول: «قد يحسّ قرّاء القرآن للوهلة الأولى بثقل في العبارات القرآنية، لكنه ما أن يتدرج حتى يشعر بانجذاب نحو القرآن، ثم إذا توغّل فيه ينجذب ـ دون اختيار ـ إلى جماله الساحر»[٣].

وفي موضع آخر يقول: «لسنين طويلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمة النّبي محمّد، ولكن كلما خطونا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حُجُب الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم ويصبح محور أفكار البشرية»!

ويقول كذلك: «كنا معرضين عن القرآن، ولكن هذا الكتاب ألفت أنظارنا، وحيّرنا، حتى جعلنا نخضع لما قدمه من مبادىء وقوانين علمية كبرى»!

٦ ـ «ويل ديورانت» المؤرخ المعروف يقول: «القرآن أوجد في المسلمين عزّة نفس وعدالة وتقوى لا نرى لها نظيراً في أي بقعة من بقاع العالم».

٧ ـ المفكر الفرنسي «جول لابوم» في كتاب «تفصيل الآيات» يقول: «العلم انتشر في العالم على يد المسلمين، والمسلمون أخذوا العلوم من (القرآن) وهو بحر العلوم، وفرّغوا منها أنهاراً جرت مياهها في العالم...».

٨ ـ المستشرق البريطاني ينورت يقول: «يجب أن نعترف أنّ العلوم الطبيعية والفلكية والفلسفة والرياضيّات التي شاعت في أوروبا، هي بشكل عام من بركات التعاليم القرآنية، ونحن فيها مدينون للمسلمين، بل إن أوروبا من هذه الناحية من بلاد الإسلام»[٤]

---

(١) من مقدمة كتاب «التنظيمات الحضارية في الامبراطورية الإسلامية» ص١١١.
(٢) المصدر السابق، ص٩١.
(٣) عن كتاب «الإعتذر إلى محمّد والقرآن».
(٤) المعجزة الخالدة.

٩ ـ الدكتورة لورا واكسيا واغليري أستاذة جامعة نابولي في كتاب «تقدم الإسلام السريع» تقول: «كتاب الإسلام السماوي نموذج الإعجاز... (القرآن) كتاب لا يمكن تقليده وأسلوبه لا نظير له في الآداب، والتأثير الذي يتركه هذا الأسلوب في روح الإنسان ناشىء عن امتيازاته وسموّه... كيف يمكن لهذا الكتاب الإعجازي أن يكون من صنع محمّد، وهو رجلٌ أُمّي؟!... نحن نرى في هذا الكتاب كنوزاً من العلوم تفوق كفاءة أكثر الناس ذكاءً وأكبر الفلاسفة، وأقوى رجال السياسة والقانون. من هنا لا يمكن اعتبار القرآن عمل إنسان متعلّم» تقدُّم الإسلام السريع، «نقلاً عن محمّد والقرآن...». (الأمثل).

التّفسير

قال في الأمثل: بعد أن استَعْرَضَتْ الآيات السابقة تَحجُّج الكفار واستهزاءهم بالنّبي ﷺ والقرآن، تأتي هذه الآية المباركة لتواسي قلب النّبي ﷺ من جهة ولتطمئن قلوب المؤمنين المخلصين من جهة أُخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغة لحياة الرسالة، ألا وهي... حفظ القرآن من أيادي التلاعب والتحريف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فبناء هذا القرآن مستحكم وشمس وجوده لا يغطيها غبار الضلال، ومصباح هديه أبدي الإنارة، ولو اتحد أعتى جبابرة التاريخ وطغاته وحكامه الظلمة، محفوفين بعلماء السوء ومزودين بأقوى الجيوش عدّة وعتاداً، على أن يخمدوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأنّ الحكيم الجبار سبحانه تعهد بحفظه وصيانته...

وقد اختلف المفسّرون في دلالة (حفظ القرآن) في هذه الآية المباركة:

١ ـ قال بعضهم: الحفظ من التحريف والتغيير، والزيادة والنقصان.

٢ ـ وقال البعض الآخر: حفظ القرآن من الضياع والفناء إلى يوم قيام الساعة.

٣ ـ وقال غيرهم: حفظه أمام المعتقدات المضلة المخالفة له.

بما أنّه لا يوجد أي تضاد بين هذه التفاسير وتدخل ضمن المفهوم العام لعبارة: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلا داعي لحصر مصاديقها في بُعد واحد، خصوصاً وإن «الحافظون» ذُكرت بصيغة مُطلقة وليس هناك ما يخصصها.

والصحيح، وفقاً لظاهر الآية المذكورة، أنّ الله تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحي: من التحريف، من التلف والضياع، ومن سفسطات الأعداء المزاجية ووساوسهم الشيطانية.

أمّا ما احتمله بعض قدماء المفسّرين بأنّه الحفظ على شخص النّبي ﷺ باعتبار أن ضمير «له» في الآية يعود إلى النّبي ﷺ بدلالة إطلاق لفظ «الذكر» على شخص النّبي ﷺ في بعض الآيات، فهو احتمال يتعارض مع سياق الآيات السابقة التي عنت بـ«الذكر» «القرآن» بالإضافة إلى إشارة الآية المقبلة لهذا المعنى.

بحث في عدم تحريف القرآن:

المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين شيعة وسنة، أنّ القرآن لم يتعرض لأي نوع من التحريف، وأن الذي بين أيدينا هو عين القرآن الذي نزل على صدر الحبيب محمّد النّبي ﷺ. فلا زيادة أو نقصان. حتى ولو بكلمة واحدة، أو أقل بحرف واحد.

قال في الأمثل: ومن جملة مَنْ صرح بهذا من العلماء الأعلام الشيعة (من المتقدمين والمتأخرين) تغمّدهم الله برحمته.

١ ـ الشيخ الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (٤٦٠هـ ق)، وله بحث صريح وقاطع بهذا الشأن في أوّل تفسيره المعروف بـ«التبيان».

٢ ـ الشريف المرتضى، ويعتبر من كبار علماء الإمامية في القرن الرّابع الهجري.

٣ ـ الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه المعروف برئيس المحدثين، حيث يقول في بيان عقائد الإمامية: (إنّ اعتقادنا بالقرآن أنّه سالم من أي تحريف).

٤ ـ المفسّر الكبير الشيخ الطبرسي، وله في مقدمة تفسيره بحث مفصل بهذا الشأن.

٥ ـ المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، من كبار العلماء المتأخرين.

٦ ـ المرحوم المحقق اليزدي، وقد نقل في كتابه (العروة الوثقى) مسألة عدم تحريف القرآن عن جمهور مجتهدي الشيعة.

٧ ـ بالإضافة إلى جمع من العلماء الآخرين، أمثال: الشيخ المفيد، الشيخ البهائي، القاضي نور الله مع سائر محققي الشيعة.

وقد نحا هذا المنحى علماء ومحققو أهل السنة.

وقد نُقل عن بعض مُحدِّثي الشيعة وبعض أهل السنة، اعتقادهم بوقوع التحريف في القرآن. إلّا أن كبار علماء الفريقين بأدلتهم القاطعة قد أبطلوا زعم هؤلاء وأدخلوه في حيز النسيان.

وأفاد العلّامة الشريف المرتضى في جواب (المسائل الطرابلسيات) «إن صحة نقل القرآن واضحة وبيّنة كمعرفتنا لعواصم العالم والحوادث المهمّة في التاريخ والكتب الشهيرة».

فهل هناك مَنْ يشك في وجود مدن كمكّة والمدينة أو لندن وباريس وإن لم يزرها؟! أو هل هناك مَنْ ينكر وقوع الهجوم المغولي على الشرق، الثورة الفرنسية، الحرب العالمية الأولى أو الثّانية؟!

فإن لم يكن هناك من يشك أو ينكر، بسبب تواتر ذكر وجودها، فكذلك آيات القرآن الكريم، وهذا ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وإذا كان بعض المغرضين قد نسبوا للشيعة اعتقادهم بتحريف القرآن، فغايتهم إشعال فتيل التفرقة والفتنة بين الشيعة والسنة، وقد فندت كتب كبار علماء الشيعة هذه الأباطيل الفاقدة لأي دليل منطقي.

ولا نستغرب من الفخر الرازي قوله في ذيل الآية مورد البحث: (إنّ الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ دليل على بطلان قول الشيعة في حصول التغيير والزيادة والنقصان في القرآن)، ممّا نعلمه عن هذا الرجل من حساسية وتعصب تجاه الشيعة.

وهنا... لا بدّ من كلمة: إن كان يقصد بالشيعة كبار علمائهم ومحققيهم، فليس هناك مَنْ يعتقد بذلك.

وإن كان يقصد بوجود قول ضعيف بهذا الشأن بين أوساط الشيعة، فإنَّ نظيره موجود في أوساط السنة أيضاً، وهو ما لم يُعتَن به من قبل الطرفين.

وقد تطرق لذلك بوضوح المحقق الشيخ جعفر المعروف بكاشف الغطاء في كتابه (كشف الغطاء) بقوله: «لا ريب أنّه (أيْ القرآن) محفوظ من النقصان بحفظ المَلك الديّان، كما دل عليه صريح القرآن، وإجماع العلماء في كل زمان، ولا عبرة بنادر»[١].

إنّ التاريخ الإسلامي مزدحم بالتهم الباطلة المتغذية من ثدي العصبية المقيتة، مع علمنا القاطع بأنّ أعداء الإسلام يقفون وراء حياكة ونشر هذه التهم لإيقاع البغضاء بين أبناء الدين الواحد، وأنّ غاية ما يسعون إليه أن يروا المسلمين أمّةً مفككة غير قادرة على القيام بمهامها الوحدوية التوحيدية.

ترى كتاباً معروفاً (من أهل الحجاز) في عرض ذمّه للشيعة من خلال كتابه (الصراع) يقول: «والشيعة هم أبداً أعداء المساجد»[٢].

والحال لو أجرينا إحصاءً لعدد المساجد في شوارع وأسواق وأزقة المدن الشيعية لأخذ منّا الوقت الطويل لكثرتها، لدرجة أنّ بعضاً من الشيعة بات يُشكِل على كثرة المساجد في المنطقة الواحدة ويرى لو يلتفت المحسنون لدور الأيتام والمستشفيات الخيرية وما شاكلها، بدلاً من بناية المساجد لكفاية الموجود ومع هذا ترى كاتباً معروفاً يتحدث بصراحة عن أمر يدعو إلى الضحك.

وعليه فلا ينبغي الإستغراب لما افتراه الفخر الرازي.

أدلّة عدم تحريف القرآن:

١ ـ أدلّة عدم تحريف القرآن كثيرة ـ فبالإضافة إلى الآية محل البحث وآيات أخر ـ كيفية تعامل الناس مع هذا الكتاب السماوي العظيم عبر التاريخ.

وقبل البداء ينبغي التنويه بأنّ من احتمل التحريف في القرآن، إنّما أراد بذلك حصول النقص فيه، ولم نر مَنْ احتمل الزيادة في القرآن.

ونظرة فاحصة إلى تاريخ حياة المسلمين نرى من خلالها أنّهم كانوا

---

(١) تفسير آلاء الرحمن، ٣٥.

(٢) الصراع، لعبد الله علي القصيمي، ج٢، ص٢٢، على ما نقل عنه العلاّمة الأميني في الغدير، ج٣، ص٣٠٠.

يعايشون القرآن في كافة مرافق حياتهم، فهو القانون والدستور الحاكم، ونظام الدولة، وهو الكتاب المقدس السماوي ورمز العبادة... وبعد هذا كله هل يحتمل أن تطرأ عليه الزيادة أو النقصان؟!

يحدثنا التاريخ بأنّ القرآن ما كان ليفارق الإنسان المسلم في: صلاته، المسجد، البيت، ميدان الحرب عند مواجهة الأعداء، بل إنّ المسلمين كانوا يجعلون تعليم القرآن مهوراً للنساء، فكان للقرآن الحضور الفاعل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون المسلمين، حتى أن الطفل ينمو على هديه.

ومرّة أُخرى نقول: أوَيعقل أن يصاب هذا الكتاب السماوي المقدس بسهام التحريف والتغيير وهو محفوظ في قلوب وسلوك المسلمين على مرّ التاريخ؟!

لقد تمّ جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ، واهتمّ به المسلمون الأوائل أقصى درجات الإهتمام، في مجال تعلم أحكامه وحفظه، لدرجة أصبح عدد حفاظ القرآن من الكثرة بحيث إنّه في إحدى المعارك قتل فيها أربعة آلاف منهم[1].

وكذلك الحال في عهد رسول الله ﷺ حينما استشهد سبعون رجلاً من الصحابة الذين حفظوا القرآن في معركة بئر معونة ـ وهي إحدى المناطق المجاورة للمدينة[2].

من هذين المثالين (وأمثالهما كثير) يتّضح لنا أن حفظة وقرّاء ومعلمي القرآن الكريم من الكثرة بحيث يستشهد منهم في معركة واحدة ذلك العدد الضخم.

وهذا طبيعي جداً إذا ما نظرنا إلى طريقة تعامل المسلمين مع القرآن، باعتباره القانون الحاكم النافذ، والكتاب المقدس الذي لا يوجد سواه.

لم يكن القرآن الكريم كتاباً مهملاً في زوايا البيوت والمساجد يعلوه غبار النسيان حتى تسنح الفرصة لمن يريد أن يزيد أو ينقص، بل إنّ مسألة حفظه كانت وما زالت عبادة عظيمة وسنّة متبعة تمتد جذورها في عمق التاريخ الإسلامي.

---

(١) منتخب كنز العمال، كما نقل عنه (البيان في تفسير القرآن)، ص٢٦٠.

(٢) سفينة البحار، ج١، ص٥٧.

وبعد أن ظهرت الطباعة كان القرآن الكريم أكثر الكتب من حيث الطبع والانتشار بين صفوف المسلمين في كافة بلدانهم، ولا تخلو مدينة إسلامية من حفاظ للقرآن. والأمثلة أكثر من أن يقال، ففي البلدان الإسلامية هناك مدارس خاصة لقراءة وحفظ القرآن وذكر أحد المطلعين: أنّه يوجد في بعض البلاد الإسلامية ما يقرب من مليون ونصف المليون حافظ للقرآن.

وبناءً على ما ذكره فريد وجدي في كتابه (دائرة المعارف): إن من شروط امتحان القبول في كلية الأزهر في مصر، هو حفظ القرآن الكريم كاملاً ودرجة النجاح في ذلك(٢٠) من (٤٠) كحد أدنى.

خلاصة القول: إنّ حفظ القرآن منذ عصر ظهور الإسلام أصبح سنّة حية في حياة المسلمين، من خلال ما أمر وأكّد عليه النبي ﷺ (وهو ما تعضده الرّوايات الكثيرة)، وإلى هنا نعاود طرح السؤال: هل هناك مجال لاحتمال وجود التحريف في القرآن؟!

٢ ـ بالإضافة إلى ما تقدم تواجهنا مسألة (كتّاب الوحي) وهم الأشخاص الذين أوكل إليهم النّبي ﷺ مهمّة تسجيل الآيات القرآنية بعد نزولها، ويذكر أن عددهم كان بين ١٤ ـ ٤٣ رجلاً.

يقول أبو عبدالله الزنجاني في كتابه القيم (تأريخ القرآن): (كان للنبي كتّاب يكتبون الوحي وهم ثلاثة وأربعون، أشهرهم الخلفاء الأربعة، وكان ألزمهم للنّبي زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب عليه السلام) فكيف لكتاب له كل هؤلاء الكتّاب أن تمتد إليه يد التحريف؟!

٣ ـ دعوة الأئمّة المعصومين عليهم السلام للعمل بالقرآن الموجود بين أيدينا، ولو تفحصنا كلامهم عليهم السلام لوجدنا أنّهم قد دعوا الناس لتلاوة ودراسة القرآن والعمل على هديه منذ صدر الإسلام وعلى امتداد وجودهم المبارك بين الناس، وهذا دليل على أن الأيادي المفسدة ما استطاعت النيل من هذا الكتاب السماوي.

وخطب الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة خير شاهد ينطلق بهذا الإدعاء: فنقرأ في الخطبة (١٣٣): «وكتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه».

ويقول في الخطبة (١٧٦): «واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، الهادي الذي لا يضل...».

ونطالع قوله عليه السلام في نفس الخطبة المذكورة: «وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى».

ونتابع ذات الخطبة حتى نصل لقوله عليه السلام: «وإنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين، وسببه الأمين».

ونقرأ في الخطبة (١٩٨): «ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده،...، ومنهاجاً لا يضل نهجه،...، وفرقاناً لا يخمد برهانه» وأمثال ذلك كثير في كلام علي والأئمة عليهم السلام.

ولو فرضنا أنّ يد التحريف قد طالت كتاب السماء، فهل من الممكن أن يدعوا إليه الأئمّة عليهم السلام بهذه القوّة؟ ويصفونه بأنّه: صراط هداية، وسيلة التفريق بين الحق والباطل، النّور الذي لا يطفأ أبداً، مصباح هداية لا يخبو، حبل الله المتين والعروة الوثقى.

٤ ـ وإذا ما سلمنا بـ(خاتمية) النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الدين الإسلامي هو خاتم الأديان الإلهية، وإنّ رسالة القرآن باقية إلى يوم القيامة.

فهل يصدق أنّ الله سبحانه سوف لا يحفظ دليل دينه وحجّة نبيّه الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهل يجتمع تحريف القرآن مع بقاء الإسلام عبر آلاف السنين ودوامه حتى نهاية العالم؟!

٥ ـ وهناك دليل آخر على أصالة القرآن وحفظه من أي شائبة نتلمسه في روايات الثقلين المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطرق متعددة معتبرة.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»[1].

فهل يصح هذا التعبير عن كتاب تطاله يد التحريف؟!

---

(١) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة، رواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمع من الصحابة أبو سعيد الخدري، زيد بن أرقم، زيد بن ثابت، أبو هريرة، حذيفة بن أسيد، جابر بن عبد الله الإنصاري، عبد الله حنطب، عبد بن حميد، جبير بن مطعم، ضمرّة الأسلمي، أبو ذر الغفاري، أبو رافع، أم سلمة وغيرهم.

٦ ـ بالإضافة إلى كل ذلك فالقرآن طُرح على المسلمين باعتباره الحد الفاصل المأمون الجانب في تمييز الأحاديث الصادقة من الكاذبة، وتشير كثير من الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى أن صدق أو كذب أي حديث يتبيّن من خلال عرضه على القرآن، فما وافق القرآن فهو حق وما خالفه فهو باطل.

فلو افترضنا أنّ تحريفاً قد طرأ على القرآن (ولو بصورة نقصان) فهل يمكن اعتباره فاصلاً بين الحق والباطل، أو معياراً دقيقاً لتمييز الحديث الصحيح من السقيم؟!

روايات التّحريف:

يستند القائلون بتحريف القرآن مرّة على روايات قد أُسيء فهمها نتيجة عدم الوصول لما كانت ترمز إليه من معنى، وأُخرى على روايات ضعيفة السند ويمكن تقسيم روايات التحريف إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الرّوايات القائلة: إنّ علياً عليه السلام شرع بجمع القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وعندما تمّ جمعه عرضه على جمع من الصحابة ممن تربعوا في مقام الخلافة فلم يقبلوه منه، فقال علي عليه السلام: إنّكم لن تروه بعد الآن أبداً.

وبنظرة فاحصة إلى تلك الرّوايات نصل إلى أن القرآن الذي كان عند علي عليه السلام لا يختلف مع بقية النسخ من حيث المضمون، سوى إختلافه من حيث العرض والترتيب في ثلاثة أُمور:

الأوّل: إن آياته وسوره كانت مرتبة حسب تأريخ النّزول.

الثّاني: تثبيت سبب النّزول لكل آية وسورة.

الثّالث: تَضمُّن تفسير النّبي صلى الله عليه وآله للآيات بالإضافة إلى ذكر الناسخ والمنسوخ.

فالقرآن الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام ليس إلّا عين القرآن الموجود سوى أنّه أضاف إليه: (التّفسير) و(التأويل) و(سبب النزول) و(تبيان الناسخ والمنسوخ) وما شابه ذلك. وبعبارة أُخرى، كان قرآناً مع تفسيره الأصيل.

كما أنّه ورد في كتاب سُليم بن قيس: (إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما رأى غدر

الصحابة وقلّة وفائهم لزم بيته، وأقبل على القرآن، فلما جمعه كله، وكتبه بيده، وتأويله الناسخ والمنسوخ، بعث إليه أن أخرج فبايع، فبعث إليه إني مشغول فقد آليت على نفسي لا أرتدي بردائي إلا لصلاة حتى أؤلف القرآن وأجمعه)[١].

١ ـ الرّوايات المشيرة إلى «التحريف المعنوي» للقرآن.

إنّ التحريف ـ كما نعلم ـ على ثلاثة ضروب: لفظي، معنوي، وعملي.

فالتحريف اللفظي: هو تغيير ألفاظ وعبارات القرآن وحصول الزيادة والنقصان فيها. (وهذا ما نرفضه بشدة ـ وجميع محققي الإسلام ـ وننكره إنكاراً قاطعاً).

والتحريف المعنوي: هو تفسير الآية خلافاً لمفهومها ومعناها الحقيقي.

أمّا التحريف العملي: فهو العمل على خلاف المقتضى.

ففي تفسير علي بن إبراهيم عن أبي ذر (رض) أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال رسول الله ﷺ: «ترد عليّ أُمتي يوم القيامة على خمس رايات، فراية مع عجل هذه الأمة، فأسألهم: ماذا فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فحرّفناه ونبذناه وراء ظهورنا...»[٢].

وواضح أن التحريف هنا يقصد به التحريف المعنوي للقرآن ونبذه وراء الظهور.

٢ ـ الرّوايات المختلفة:

فقد سعى أعداء الدين والمنحرفون عن الصراط المستقيم، وتبعهم الجهلة، في اختلاف بعض الرّوايات للحطّ من شرف القرآن وقدسيته، ومنها الرّوايات التي رواها أحمد بن محمّد بن السياري والبالغة (١٨٨) رواية[٣]، وقد استدل العلّامة الشيخ النّوري بكثير من هذه الروايات في كتابه (فصل الخطاب).

والسياري هذا مطعون عند كثير من علماء (علم الرجال) ويقولون عليه كان: فاسد المذهب، لا يعتمد عليه، وضعيف الحديث.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٢، ص٤١.
(٢) تفسير البرهان، ذيل الآية (١٠٦) من سورة آل عمران.
(٣) أورد هذا الإحصاء مؤلف كتاب (البرهان المبين).

وعلى قول بعضهم: إنّه من أهل الغلو، منحرف، معروف بالتقول بالتناسخ، وكذّاب، ويقول عنه الكشي (صاحب كتاب الرجال المعروف): إنّ الإمام الجواد ﷺ وصف إدعاءات السياري في رسالته بأنّها باطلة.

مع أنّ روايات التحريف غير مقتصرة على السياري، إلّا أنّ أكثرها وأهمها تعود إليه.

وبين هذه الروايات المزيفة ما تضحك الثكلى، وينكره كل ذي لب لبيب، وعلى سبيل المثال ما جاء في إحداها بخصوص الآية الثالثة من سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أنه: قد سقط بين شرطها وجزاءها ثلث القرآن!!!

وقد ذكرنا في تفسير الآية المذكورة، أن الشرط والجزاء في الآية مرتبطان ارتباطاً تاماً، ولم يسقط من بينهما ولو كلمة واحدة.

أضف إلى ذلك، أن ثلث القرآن ما يعادل أربعة عشر جزء منه تقريباً، فكيف يدعي هذا المدعي مع ما للقرآن من كتّاب وحي وحفّاظ وقُرّاء منذ عهد النبي ﷺ، وهل يعقل أن يحصل ذلك دون أن يلتفت إليه أحد؟!

وكأنّ هؤلاء لم يعيشوا ويعايشوا التاريخ بواقعيته وجلاءه، ألم يثبت التاريخ بأنّ الشيء الأساسي في حياة المسلمين هو القرآن؟ أوَلَمْ يكن القرآن يُتلى في آناء الليل وأطراف النهار في جميع البيوت والمساجد؟ إذاً... فكيف يحتمل إسقاط كلمة واحدة دون أن يلتفت إليه أحد، فضلاً عن كون السقط ثلث القرآن؟!

لا يسعنا القول إلّا أن نقول: إنّ كلمة بهذه المواصفات لدليل جلي على سذاجة واضعي مثل هذه الأحاديث.

وقد اعتمد الكثير من المتذرعين في إثبات تحريف القرآن على كتاب (فصل الخطاب) المشار إليه آنفاً.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى غرض وغاية هذا الكتاب من خلال ما كتبه تلميذ المؤلف العلّامة الشيخ آغا بزرك الطهراني في الجزء الأوّل من كتاب (مستدرك الوسائل)، حيث يذكر أنّه سمع من أُستاذه مراراً: إنّ ما في كتاب فصل

الخطاب لا يمثل عقيدتي الشخصية، إنّما ألفته للبحث والمناقشة، وأشرت فيه إلى عقيدتي في عدم تحريف القرآن دون أنْ أُصرح، وكان من الأفضل أنْ أُسمّيه (فصل الخطاب في عدم تحريف الكتاب).

ثمّ يقول المحدث الطهراني: هذا ما سمعناه من قول شيخنا نفسه، وأمّا عمله فقد رأيناه يقيم وزناً لما ورد في مضامين الأخبار، ويراها أخبار آحاد لا بدّ أن تُضرب عرض الحائط، ولا أحد يستطيع نسبة التحريف إلى أُستاذنا إلّا مَنْ هو غير عارف بعقيدته ومرامه.

وأخيراً... فالأيادي المغلولة لا يسعها في هذا المجال إلّا أن تبذل كل جهودها للنيل من أصالة وعظمة كتاب السماء عند المسلمين عن طريق بث الخرافات والأباطيل.

وطالعنا الصحف من مدّة ليست بالبعيدة بأنّ أياد إسرائيلية صهيونية قامت بطبع نسخة جديدة للقرآن غيروا فيها كثيراً من الآيات القرآنية، وكما هو معهود فقد انتبه علماء المسلمين بسرعة لهذه الدسيسة الخبيثة وجمعوا تلك النسخ، فباءت محاولتهم بالفشل والخذلان.

وفات هؤلاء الأعداء من أصحاب القلوب الداكنة، أن نقطة واحدة لو غُيّرَتْ في القرآن فسيعيدها إلى نصابها المفسّرون والحفاظ وقراء هذا الكتاب العظيم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1] [التوبة: ٣٢].

---

(١) الأمثل ج٨، ابتداء من ص١٥.

علم الله بالمغيبات في القرآن

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

التّفسير

اسرار الغيب:

في هذه الآيات يدور الكلام حول علم الله وقدرته وسعة حكمه وأمره، وهي تشرح ما أجملته الآيات السابقة.

تشرع الآية في الكلام على علم الله فتقول: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾.

«مفاتيح» جمع «مفتح» (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح، أمّا إذا كانت بفتح الميم فهي بمعنى الخزانة التي تختزن فيها الأشياء.

وعلى الأوّل يكون المعنى: إنّ جميع مفاتيح الغيب بيد الله.

وعلى الثّاني يكون المعنى: إنّ جميع خزان الغيب بيد الله.

ويحتمل أن يكون المعنيان قد اجتمعا في عبارة واحدة، وكما هو ثابت في علم الأصول، فإن استعمال لفظة واحدة لعدة معان لا مانع منه، وعلى كل حال، فهاتان الكلمتان متلازمتان، لأنّه حيثما كانت الخزانة كان المفتاح.

وأغلب الظن أنّ «مفاتح» بمعنى «مفاتيح» لا بمعنى «خزائن» لأنّ الهدف هو بيان علم الله، فتكون المفاتيح وسائل لمعرفة مختلف الذخائر وهو أنسب بالآية، وفي موضعين آخرين في القرآن ترد كلمة «مفاتح» بمعنى «المفاتيح»[1].

---

(١) ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]. ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١].

ثمّ لتوكيد ذلك أكثر يقول: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

«البرّ» كل مكان واسع فسيح، وتطلق على اليابسة، و«البحر» كذلك تعني المحل الواسع الذي يتجمع فيه الماء، وتطلق على البحار والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحياناً.

فالقول بأنّ الله يعلم ما في البر والبحر، كناية عن إحاطته بكل شيء، وهذه الإحاطة بما في البرّ والبحر إنّما تمثل في الحقيقة جانباً من علمه الأوسع.

فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحية، الكبيرة والصغيرة، في أعماق البحار.

وهو عالم بارتعاش أوراق الأشجار في كل غابة وجبل.

وهو عالم بمسيرة كل برعمة وتفتح أوراقها.

وهو عالم بجريان النسيم في البوادي ومنعطفات الوديان.

وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه.

وهو عالم بكل الحركات الغامضة في الإلكترونات في قلب الذرّة.

وهو عالم بكل الأفكار التي تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى في أعماق أرواحنا... نعم إنّه عالم بكل ذلك على حدّ سواء.

لذلك فإنّه يؤكّد مرّة أخرى فيقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾

أي أنّه يعلم عدد الأوراق ولحظة انفصال كل ورقة عن غصنها وطيرانها في الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلي أمام علم الله.

كذلك لا تختفي حبّة بين طيات التراب إلّا ويعلمها الله ويعلم كل تفاصيلها: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾.

التركيز هنا ـ في الحقيقة ـ على نقطتين حساستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى ولو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقي سلم الكمال في صنع أجهزته وأدواته المدهشة.

ترى من ذا الذي يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها في هبوبها على مختلف أصقاع الأرض في الليل والنهار، من أنواع البذور المنفصلة عن

نباتاتها؟ وإلى أين تحملها وتنشرها، أو تدسها في التراب حيث تبقى سنوات مختفية، حتى يتهيأ لها الماء فتنبت وتنمو؟

من ذا الذي يعلم كم من هذه البذور في كل أنحاء الدنيا تحمل عن طريق الإنسان أو الحشرات في كل ساعة من نقطة إلى نقطة أُخرى؟

أي دماغ إلكتروني هذا الذي يستطيع أن يحصي عدد أوراق الشجر التي تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات في الخريف، وخاصّة بعد مطر شديد أو ريح عاصفة، وتطلع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذٍ تتكشف لك هذه الحقيقة، وهي أنّ علوماً من هذا القبيل لن تكون يوماً في متناول يد الإنسان.

إن سقوط الورقة ـ في الحقيقة ـ هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة في مكمنها من الأرض هو لحظة بدء حياتها، وما من أحد غير الله يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة، وحتى أنّ كل خطوة تخطوها البذرة نحو حياتها وانبعاثها وتكاملها خلال اللحظات والساعات، جلية في علم الله.

إنّ لهذا الموضوع أثراً «فلسفياً» وآخر «تربوياً».

أمّا أثره الفلسفي، فينفي رأي الذين يحصرون علم الله بالكليات، ويعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئاً، وفي الآية هنا تأكيد على أنّ الله يعلم الكليات والجزئيات كلها.

أمّا أثره التربوي فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع لله يقول للإنسان: إنّ جميع أسرار وجودك، وأعمالك، وأقوالك، ونياتك، وأفكارك كلّها بيّنة أمام الله، فإذا آمن الإنسان حقّاً بهذا فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله ونياته!

وفي ختام الآية يقول تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

تبيّن هذه العبارة القصيرة سعة علم الله اللامحدود وإحاطته بكل الكائنات بدون أي استثناء، إذ أن «الرطب» و«اليابس» لا يقصد بهما المعنى اللغوي، بل هما كناية عن الشمول والعمومية.

وللمفسّرين آراء متعددة في معنى: «كتاب مبين» ولكنّ الأقوى أنّه كناية عن علم الله الواسع، أي أنّ كل الموجودات مسجلة في علم الله اللامحدود، كما

أنّه تُفَسَّرُ بكونه «اللوح المحفوظ» نفسه، إذ لا يستبعد أن يكون اللوح المحفوظ هو صفحة علم الله.

وثمّة احتمال آخر عن معنى «كتاب مبين» وهو أنّه عالم الخلق وسلسلة العلل والمعلولات التي كتب فيها كل شيء.

جاء فيما روي عن أهل البيت عليهم السلام أنّ «الورقة» الساقطة بمعنى الجنين الساقط، و«الحبّة» بمعنى الإبن، و«ظلمات الأرض» بمعنى رحم الأم، و«رطب» ما بقي حياً من النطفة، و«يابس» ما تلاشى من النطفة[1].

لا شك أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع الجمود على المعاني اللغوية للآية، إذ إنّ معنى «الورقة» و«الحبّة» و«ظلمات الأرض» و«الرّطب» و«اليابس» معروف، ولكنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام بهذا التفسير أرادوا أن يوسعوا من آفاق نظرة المسلمين إلى القرآن، وأن لا ينحصر في إطار الألفاظ، بل يتوسّعوا في نظرتهم حين توجد قرائن على هذا التوسُّع. الرواية أعلاه تُشير إلى أنّ معنى «الحبة» لا ينحصر في بذور النباتات، بل يشمل أيضاً بذور النطف الإنسانية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذه العلوم الخمسة مختّصة بالله:

إنّ أسلوب الآية أعلاه يحكي أنّ العلم بالقيامة، ونزول المطر، ووضعيّة الجنين في رحم الأم، والأمور التي سيقوم بها الإنسان في المستقبل، ومحلّ موته منحصر بالله، ولا سبيل للآخرين إلى العلم بذلك، إضافةً إلى هذا فإنّ الرّوايات الورادة في تفسير هذه الآية تؤكّد هذه الحقيقة، ومن جملتها ما ورد في حديث: «إنّ مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلّا الله، وقرأ هذه الآية»[2].

وجاء في رواية أخرى وردت في نهج البلاغة: إنّ عليّاً عليه السلام كان يوماً يخبر

---

(١) تفسير البرهان، ج١، ص٥٢٨.

(٢) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

بحوادث المستقبل، فقال له أحد أصحابه: يا أمير المؤمنين، أتتحدّث عن الغيب وتعلم به؟

فتبسّم الإمام، وقال له: «يا أخا كليب (لأنّ الرجل كان من بني كليب)، ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلّم من ذي علم، وإنّما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام، من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل، وسخيّ أو بخيل، وشقيّ أو سعيد، ومن يكون في النار حطباً، وفي الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلّا الله، وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه فعلّمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطّم عليه جوانحي»[1].

ويظهر من هذه الروايات جليّاً أنّ المراد من عدم علم الناس بهذه الأمور، جهلهم بكلّ خصوصياتها وجزئياتها، فمثلاً: إذا وضعت تحت تصرّف الإنسان يوماً ما وسائل معيَّنة ـ ولم يحلّ ذلك اليوم إلى الآن ـ بحيث يطّلع تماماً على كون الجنين ذكراً أو أُنثى، فإنّ هذا الأمر برغم كونه تطوّراً علمياً هامّاً لا يُعدّ شيئاً، لأنّ الإطّلاع على الجنين والعلمُ به يعني أن نعلم كلّ خصائصه الجسمية، القبح والجمال، الصحّة والمرض، الإستعدادات الداخلية، الذوق العلمي والفلسفي والأدبي، وسائر الصفات والكيفيات الروحية، وهذا الأمر لا يتمّ لغير الله سبحانه.

وكذلك ما يتعلّق بالمطر، فمتى ينزل؟ وأيّ منطقة يصيب ويهطل عليها؟ وأيّ مقدار ـ على وجه الدقّة ـ سينزل في البحر؟ وما مقدار ما ينزل في الصحراء والمنحدرات والجبال؟ لا يعلم بذلك إلّا الله تعالى.

وكذلك شأن حوادث الغد، والأيّام التالية، وخصوصياتها وجزئيّاتها.

ومن هنا يتضح جيّداً جواب السؤال الذي يطرح هنا غالباً، حيث يقولون: إنّنا نقرأ في التواريخ والروايات المتعدّدة أنّ أئمّة أهل البيت ﷺ، بل وحتّى بعض أولياء الله من غير الأئمّة، قد أخبروا بموتهم، أو بيّنوا وحدّدوا مكان دفنهم، ومن جملتها الحوادث المتعلقة بكربلاء، فقد قرأنا مراراً في الروايات

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

أنّ النّبي ﷺ، أو أمير المؤمنين عليه السلام والأنبياء السابقين قد أخبروا بشهادة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه بكربلاء.

وفي كتاب أُصول الكافي يلاحظ باب في علم الأئمّة بزمان وفاتهم[١].

والجواب هو: إنّ العلم بجزء من هذه الأُمور، علماً إجمالياً ـ وهذا العلم أيضاً عن طريق التعليم الإلهي ـ لا ينافي مطلقاً إختصاص العلم التفصيلي بها بذات الله المقدّسة.

ثمّ إنّ هذا الإجمال أيضاً ـ وكما قلنا ـ ليس ذاتياً ومستقلاً، بل هو عرضي وحصل بالتعليم الإلهي، بالمقدار الذي يريده الله ويرى فيه الصلاح، ولذلك نرى في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ أحد أصحابه سأله: هل يعلم الإمام الغيب؟ قال: «لا، ولكن إذا أراد الله أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك»[٢].

وقد وردت في باب علم الغيب، وكيفيّة علم الأنبياء والأئمّة به روايات كثيرة، إلّا أنّ من المُسلّم أنّ هناك علوماً لم يطّلع عليها ولا يعلم بها أحد إلّا الله عزّ وجلّ[٣].

أللهمَّ نوّر قلوبنا بنور العلم، وهب لنا من علمك اللامتناهي.

أللهمَّ اعصمنا زخارف هذه الدنيا، ولا يغرّنا الشيطان وهوى أنفسنا.

إلهنا إجعلنا منتبهين دائماً إلى إحاطة علمك، وجنّبنا أن نعمل بين يديك ما يخالف رضاك ويجلب سخطك.

قال في مفاهيم القرآن:

هل استأثر الله بعلم هذه الأُمور؟

قد اشتهر بين المفسّرين أن هناك أُموراً خمسة استأثر الله بعلمها وحده، لا يجليها لغيره واستندوا في ذلك على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

---

(١) أُصول الكافي، المجلّد الأوّل، ص٢٠٢ باب أنّ الأئمّة يعلمون متى يموتون.

(٢) أُصول الكافي، المجلّد الثّاني، ص٢٠١، باب نادر فيه ذكر الغيب.

(٣) لدينا في كتاب الكافي روايات عديدة في أنّ لله علماً لا يعلمه إلّا هو، وعلماً علّمه الملائكة والأنبياء والأئمّة، المجلّد الأوّل، صفحة ١٩٩ باب أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة.

وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤] ويؤيده ما روي من اختصاص العلم بهذه الأمور الخمسة بالله تعالى وأن غيره لا يطلع عليها أبداً وقد جرت مشيئة الله على كتمان العلم بهذه الأمور عن خلقه.

ولقائل أن يقول: لا محيص عن صحة ما ذكروه في الأربعة التالية: علم الساعة، العلم بما في الأرحام، العلم بما يكسبه الإنسان في مستقبل أيامه، وعلمه بالأرض التي يموت فيها الإنسان، وأما اختصاص العلم بوقت نزول الغيث به سبحانه فلا تفيده الآية إذ أنه تعالى يقول: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، ولم يقل: وعنده علم نزول الغيث.

ويدفع بأن العلم بوقت نزول الغيث لو لم يكن مثل الأربعة الباقية لكان الإتيان به عندئذٍ إقتصادياً بلا جهة وعطفاً بلا مناسبة فلأي وجه أوردوه في هذه الآية في عداد الأمور التي سلمنا إختصاص علمها به سبحانه وليس هو منها، فلأجل الإلتزام بوجود المناسبة بين المتعاطفات لا مفر من القول باختصاص علمه به سبحانه أيضاً.

دفع شبهة:

ربما يتخيل بل يقال: كيف استأثر الله بعلم هذه الأمور، والنشرات الجوية لدوائر الأنواء الجوية تعين أوقات نزول الغيث والوفر والإختيارات الطبية تبين وضع الجنين وإنه ذكر أو أنثى. ولكنها مدفوعة بما يلي:

١ ـ إنّ الله سبحانه واقف على وضع الجنين من بدء تكونه في رحم أمه، حينما يكون خلية فيها، ليس لها من الصور المعثورة عليه شيء، إلى أن تضعه أمه، فهو سبحانه يعلم حين ما هو خلية في رحمها، أنّه ذكر أو أنثى، وليس ذلك مقدوراً للبشر وإن أطل بنظره عليها بأشعة قوية كهربائية أو باختبارات طبية، فالعلم بذكورة الجنين أو أنوثته، من بدء وجوده إلى ختامه، مخصوص به سبحانه، ولا يشاركه في هذا الحد الوسيع أحد من البشر.

٢ ـ إن تخصيص قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ بأحد الوصفين المذكورين (الذكورة والأنوثة) مخالف لإطلاق كلامه، فإنّ الظاهر منه أنه سبحانه يعلم جميع حالات ما في الأرحام، وأنّه ذكر أو أنثى، قبيح أو

جميل، سخيّ أو بخيل، شجاع أو جبان، سعيد أو شقيّ، مرافق النبيين في الجنان أو حطب لنار جهنم، إلى غير ذلك من الصفات الروحيات التي لا يتمكن البشر من الوقوف عليها عندما كان صاحب الصفات جنيناً في رحم أمه، وهذا التعميم وشمول الآية للصفات الظاهرية والباطنية صريح كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة[1].

وأما النشرات الجوية التي تصدرها إدارة الأنواء الجوية الدارجة في الحضارة الفعلية، فهي أنباء ظنية على أصول وتجارب واستطلاع على أوضاع تكتسبها دائرة الأنواء الجويّة من مختلف البلدان قريبها وبعيدها ـ ومع ذلك ـ فلا تخرج عن دائرة الحدس والظن، وليست مصونة عن الخطأ كما هو الشاهد لكل من يصغي إليها ثم يرجع إلى فسيح الكون ويطبقها عليه.

توضيحه: إن لكل من الأمم عَبْرَ الأجيال والقرون، تجارب في هذا الباب كانوا يستكشفون بها على سبيل الظن والتخرص، مواقع نزول المطر والثلج، حتى أن القرويين والبدو، كانوا يستطيعون التنبؤ بحالة الطقس المقبلة من صحو أو مطر، وما أشبه ذلك من بعض الظواهر الجويّة كاتجاه الريح مثلاً، بل كانوا يستكشفون بغير ذلك من نزول الكلب من سطح البيت إلى داخله وقد حكى أن نصير الدين الطوسي (ذلك الفلكي العظيم) نزل في بعض أسفاره على طحان له طاحونة خارج بعض البلاد فلما دخل المنزل صعد السطح لحرارة الهواء فقال له صاحب البيت إنزل ونم في داخل البيت لأجل نزول المطر، فنظر «نصير الدين» إلى الأوضاع الفلكية، فلم يرَ شيئاً يورث الظن بنزول المطر، فقال له الطحان: إنّ لي كلباً ينزل كل ليلة يحس بأنّ المطر سينزل فيها، إلى البيت، فلم يقبل ذلك منه المحقق، وبات فوق السطح فأدركه المطر أثناء الليل وتعجب المحقق الطوسي[2].

نعم الأدوات الحديثة لتعيين الحرارة في الجو وارتباط مختلف البلدان بعضها ببعض، بواسطة أجهزة البرق السلكية واللاسلكية، وتبادل المعلومات فيما بينها

(١) راجع نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.
(٢) مكاسب الشيخ الأنصاري، ص٢٥.

عن الحالة الجوية ساعة فساعة، هذه الأدوات - احتلت مكان التجارب السالفة وساعدت على إمكان التنبؤ بتقلبات الطقس بالإستنتاج والتخمين.

ومع ذلك فإن استنتاجات دائرة الأنواء الجوية لا تكون صائبة دائماً فكثيراً ما تخطىء في تخمينها، ولا تخبر عما تخبر إلّا بالظن والترديد، بل على نحو الإجمال في جانب والإهمال في جانب آخر، ولا تستطيع أن تحدد وقت نزول المطر ومحال نزوله دقيقاً، وإنّه في أي ساعة أو على أي مكان من الأرض العظيمة ينزل.

وأعجب منه أنه إذا شوهد منها التخلف حتى في مجمل ما أخبرته تراها تتمسك بأعذار كاشفة عن قصور باعها وعدم إحاطتها بما في الجو الفسيح من الأحوال والأوضاع.

وأما الإختبارات الطبية، فاعطف نظرك إلى بعض ما ذكره بعض الأخصائيين في المقام لتقف على أنّ تحديد نوع المولود يرجع في جوهره إلى الصدفة، أو إلى الاحتمالات التي يعجز العلم عن التنبؤ بها قال[١]: توجد في كل فرد غدتان تناسليتان وتختلف الغدد الذكرية عن الغدد الأنثوية في مكانها التشريحي بالجسم، وفي وظائفها الأولية والثانوية وفي تأثيرها على شخصية الفرد.

وتؤثر هذه الغدد بهرموناتها المختلفة في التفرقة بين الذكر والأنثى ولهذه الفروق الجنسية اثر قوي في سرعة النمو، وفي تباين واختلاف مظاهره.

هذا وتنشأ الإختلافات الجنسية منذ اللحظة الأولى التي تتكون فيها البويضة المخصبة أي عندما تلتقي الصبغيات الذكرية بالصبغيات الأنثوية في نواة البويضة وتتميز البويضة بأنّها تحتوي على صبغي خاص بالجنس، يوجد دائماً بصورة واحدة نرمز لها بالرمز (س) ويتميز الحيوان المنوي بوجود صبغي خاص بالجنس يوجد أحياناً بصورة تماثل صورة الصبغي الأنثوي ولذلك يرمز له بالرمز (س) أيضاً ويوجد أحياناً بصورة أخرى يرمز لها بالرمز (ص) فإذا احتوت البويضة المخصبة على الصبغيين (س س) كان الجنين أنثى، وإذا احتوت على الصبغيين (س ص) كان الجنين ذكراً، وهكذا يتحدد الجنس منذ اللحظة الأولى في تكوين البويضة المخصبة، وبذلك يسيطر الحيوان المنوي على نوع الجنس، أي أن

---

(١) الأسس النفسية للنمو، تأليف الدكتور فؤاد البهي مدرس علم النفس بجامعة عين شمس.

الجنس ذكراً كان أم أنثى، يرجع في جوهره إلى الرجل لا إلى المرأة وإذا عرفنا أن عدد الحيوانات المنوية الذكرية في كل نُطفة يربو على ٢٠٠/٠٠٠/٠٠٠ حيوان ذكري عرفنا بعد ذلك أن تحديد نوع المولود يرجع في جوهره إلى الصدفة أو الاحتمالات التي يعجز العلم عن التنبُّؤ بها.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى...﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وبالرغم من أن «الساعة» تعني زمان نهاية الدنيا إلّا أنها في الغالب (أو دائماً كما ذهب البعض) تأتي بمعنى القيامة في القرآن الكريم، وخاصّة من بعض القرائن التي تكتنف الآية ـ محل البحث ـ إذ تؤكّد هذا الموضوع كجملة: متى تقوم الساعة؟ الواردة في شأن نزول الآية:

وكلمة «أيّان» تساوي «متى» وهما للسّؤال عن الزمان، والمرسى مصدر ميمي من الإرساء، وهما بمعنى واحد، وهو ثبات الشيء أو وقوعه، لذلك يطلق على الجبل وصف «الراسي» فيقال: جبال راسيات، فبناءً على ذلك فإنّ «أيّان مرساها» تعني: في أي وقت تقع القيامة وتكون ثابتةً؟!

ثمّ تضيف الآية مخاطبة النّبي أن يردهم بصراحة قائلة: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

إلّا أنّ الآية تذكر علامتين مجملتين، فتقول أوّلاً: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي حادثة يمكن أن تكون أثقل من هذه، إذ تضطرب لهولها جميع الأجرام السماوية «قبيل القيامة» فتخمد الشمس ويُظلم القمر، وتندثر النجوم، ويتكون من بقاياها عالم جديد بثوب آخر[1]!

ثمّ إنّ قيام الساعة يكون على حين غرّة، وبدون مقدمات تدريجية، بل على شكل مفاجىء وانقلاب سريع.

ثمّ تقول الآية مرة أخرى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾[2].

---

(١) قال بعض المفسّرين إنّ المراد من هذه الجملة هو أن معرفة القيامة أو علمها ثقيل على أهل الأرض والسماوات، إلّا أنّ الحقّ هو التّفسير المذكور آنفاً «في المتن» لأنّ القول بحذف كلمتي العلم الأهل خلاف ظاهر الآية.

(٢) الحفي في الأصل هو: من يسأل عن الشيء بتتابع وإصرار، ولما كان الإصرار في السؤال باعثاً على زيادة العلم، فقد تستعمل هذه اللفظة على العالم كما هي هنا أيضاً.

وتضيف الآية مخاطبة النبي الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وربّما يسأل ـ أو يتساءل ـ بعض الناس: لِمَ كان علم الساعة خاصّاً بالله وبذاته المقدسة، ولا يعلم بها حتى الأنبياء؟!

والجواب على ذلك: إن عدم معرفة الناس بوقوع يوم القيامة وزمانها «بضميمة كون القيامة لا تأتي إلّا بغتة» ومع الإلتفات إلى هول يوم القيامة وعظمتها، هذا الأمر يبعث على أن يتوقّع الناس وقوع يوم القيامة في أي وقت، ويترقبوها باستمرار ويكونون على أهبة الإستعداد والتهيُّؤ، لكي ينجوا من أهوالها. فعدم المعرفة هذا له أثر مثبت جلي في تربية النفوس والإلتفات إلى المسؤولية، واتّقاء الذنوب.

تنبؤ القرآن في مكّة بما سيصيب كفار قريش:

قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ٩-١٦]

قال في مفاهيم القرآن: تنبّأ القرآن بالمستقبل الأسود الذي كان ينتظر قريشاً، وذلك عندما دعا النّبي ﷺ على قومه لمّا كذّبوه بقوله: «أللّهمّ اجعلها عليهم سنيناً كسني يوسف»، فأجدبت الأرض فأصابت قريشاً المجاعة وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان، وأكلوا الميتة والعظام ثم جاؤوا إلى النّبي وقالوا: يا محمّد جئت تأمر بصلة الرحم، وقومك قد هلكوا فاسأل الله تعالى لهم بالخصب والسعة، فكشف عنهم، ثم عادوا إلى الكفر[1].

فقد تنبأ في هذه الآيات الثمان عن عدة مغيّبات هي:

١ ـ الإخبار عن القحط الذي يقع بهم، وشدة الجوع الذي يغشاهم، إلى حد يتصور الرجل السماء كالدخان، لما به من شدة الجوع، حيث قال سبحانه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) مجمع البيان، ج١ ص٤٣.

٢ ـ الإخبار بابتهالهم وتضرعهم إلى الله سبحانه، عندما تلم بهم هذه الأزمة ويحل بهم الجوع والغلاء، قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

٣ ـ الإخبار برفع العذاب وكشفه عنهم قليلاً قال سبحانه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾.

٤ ـ الإخبار بعودهم إلى ما كانوا عليه من الكفر والإنكار قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾.

٥ ـ الإخبار بأنّ الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى، وهو يوم بدر الكبرى حيث انتقم منهم وقتل صناديد قريش، سبعون رجلاً وأسر منهم مثله وتولى الآخرون.

وهذه الكثرة الوافرة من الأنباء الغيبية لم تتخلف واحدة منها، بل تحققت كما أخبر بها، ولو لم يتحقق، لنقل لِتَوَفُّر الدواعي في نقله وتواتره.

نعم قيل: إن الدخان الوارد في الآية من اشراط الساعة[1]، وهو بعد لم يأت وإنما يأتي قبل يوم الساعة، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصائص ويستمر ذلك أربعين يوماً، ولا يخفى أن المعنى الأول أظهر وأنسب لقوله سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾. فإنّ كثيراً من المحشورين في يوم القيامة، ليسوا من أُمة نبينا «محمّد» ولم يتولوا عنه ولم يتهموه بأنّه معلم مجنون.

ثمّ إنّ القرآن كما تنبأ في مكّة بما يصيب كفار قريش لم يزل يتنبأ أيضاً بعدما هبط النبي في المدينة وأخذ يتنبأ بما سيصيب الكفار من المشركين واليهود ويخبر عن مؤامرتهم ضد الإسلام فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، فالآية إما نازلة في حق اليهود أو في مشركي مكّة، وعلى كل حال، فالآية صادقة في حق كلتا الطائفتين[2] وسيوافيك بيانها.

ومثل الآية قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن

(١) مجمع البيان، ج٥، ص٦٢.
(٢) مجمع البيان، ج١ ص٤١٣.

سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، والآية تُخبر عن مؤامرة المشركين وإنفاق أموالهم في معصية الله، ثم ينكشف لهم من ذلك الإنفاق ما يكون حسرة عليهم من حيث أنهم لا ينتفعون بذلك الإنفاق، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يكون وبالاً عليهم ثم يغلبون في الحرب، فقد رُويَ أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب الذي استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي، سوى من استأجرهم من العرب.

ورُوي أيضاً غير ذلك[1].

التّفسير

الدُخان القاتل:

قال في الأمثل: لما كان الكلام في الآيات السابقة في أنّ هؤلاء إن كانوا طلّاب يقين، فإنّ سُبل تحصيله كثيرة، وتُضيف الآية أوّل آية من هذه الآيات: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ فإنّ شك هؤلاء في حقانية هذا الكتاب السماوي وفي نبوّتك، ليس نابعاً من كون المسألة معقدة صعبة، بل من عدم جديتهم في التعامل معها، فهم يتعاملون معها بهزل، فيستهزئون ويسخرون تارة، ويصفون أنفسهم بعدم الاطلاع والإلمام وبالجهل تارة أُخرى، ويشغلون أنفسهم كل يوم بأسلوب لعب جديد.

«يلعبون» من مادة اللعاب ـ على قول الراغب ـ وهو البزاق السائل، ولما لم يكن للإنسان هدف مهم من اللعب، فقد شبه بالبزاق الذي يبصقه الفرد لا إرادياً.

ومهما كان، فإنّ الحقيقة هي أن التعامل الجدي مع المسائل يعين الإنسان في معرفة الحقائق، أمّا التعامل الهازل الفارغ فإنّه يلقي الحجب عليها ويمنعه من الوصول إليها.

ثمّ انتقلت الآية التالية إلى تهديد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين،

---

(١) مجمع البيان، ج٢، ص٥٤١.

في الوقت الذي وجهت الخطاب إلى النبي ﷺ فقالت: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

عند ذلك سيعم الخوف والإضطراب كل وجودهم، وتزول الحُجب من أمام أعينهم، فيقفون على خطئهم الكبير، ويتجهون إلى الله تعالى بالقول: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

إلّا انّ الله عزّ وجلّ يرفض طلب هؤلاء ويقول: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ رسول كان واضحاً في نفسه وتعليماته وبرامجه وآياته ومعجزاته، ومبيناً لها جميعاً.

غير أنّ هؤلاء بدل أن يذعنوا له، ويؤمنوا بالله الواحد الأحد، ويتقبلوا أوامره بكل وجودهم، أعرضوا عن النّبي ﷺ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

فكانوا يقولون تارةً: إنّ غلاماً رومياً سمع قصص الأنبياء وأخبارهم يعلمه إيّاها، وهذه الآيات من اختراعه وإملائه على النّبي ﷺ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ويقولون تارةً أخرى: إنّه مصاب بالإختلال الفكري والعقلي، وهذه الكلمات وليدة فقدانه التوازن الفكري.

ثمّ تضيف الآية التالية: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، ومن هنا يتّضح أنّهم عندما يقعون في قبضة العذاب، يندمون على ما بدر منهم من أفعال، ويصممون على تعديل سلوكهم وإصلاحهم، إلّا أن هذا الموقف الجديد مؤقت وسريع الزوال، فما أن تهدأ عاصفة الأحداث حتى يعودوا لما كانوا عليه من قبل.

ويقول سبحانه في آخر آية من هذه الآيات ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[1].

---

(١) احتمل المفسّرون في تركيب هذه الجملة احتمالات كثيرة، وأكثرها قبولاً من قبل المفسّرين، وهو المناسب أيضاً لسياق الآية: إن (يوم) متعلق بفعل (ننتقم) الذي يفهم من جملة (إنا منتقمون) وعلى هذا يكون التقدير: ننتقم منهم يوم نبطش البطشة الكُبرى إنا منتقمون.

«البطش» هو تناول الشيء بصولة، وهنا بمعنى الأخذ للإنتقام الشديد، ووصف البطشة الكُبرى إشارة إلى العقوبة الشديدة التي تنتظر هذه الفئة.

والخلاصة: إنّه على فرض تخفيف العقوبات المؤقتة في حق هؤلاء، فإنّ العقوبات النهائية العسيرة تنتظرهم، ولا مفرّ لهم منها.

«منتقمون» من مادة الإنتقام، وكما قلنا سابقاً فإنّها تعني العقوبة والجزاء، وإن كانت كلمة الإنتقام تعطي معنى آخر في محادثاتنا اليومية في عصرنا الحاضر، حيث تعني العقوبة المقترنة بإخماد نار الغضب وتفريغ ما في القلب من انفعال وحب الإنتقام، إلّا أن هذا الأمر لا وجود له في المعنى اللغوي للكلمة.

ملاحظة

ما المراد من الدُخان المبين؟

هناك أقوال بين المفسّرين حول المراد من الدُخان الذي ذكر في هذه الآيات كتعبير عن العذاب الإلهي، وتوجد هنا نظريتان أساسيتان:

١ ـ إنّه إشارة إلى العقاب والعذاب الذي ابتلي به كفار قريش في عصر النّبي ﷺ لأنّه لعنهم ودعا عليهم قال: «اللّهمَّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف». وبعد ذلك أصاب مكّة قحط شديد، حتّى أنّهم كانوا يرون كأن بين السماء والأرض عموداً من الدُخان من شدة الجوع والعطش، وعسر الأمر عليهم حتى أكلوا الميتة وعظام الحيوانات الميتة.

فأتوا إلى النّبي ﷺ وقالوا: يا محمّد، تأمرنا بصلة الرحم وقد هلك قومك! لئن رفع عنا العذاب لنؤمنن. فدعا النّبي ﷺ فارتفع العذاب وعم الخير والنعمة الوفيرة، لكنّهم لم يعتبروا بذلك، بل عادوا إلى الكفر مرة أُخرى[1].

طبقاً لهذا التّفسير فقد اعتبرت غزة بدر هي البطشة الكُبرى ـ أي العقوبة الشديدة ـ لأن المشركين تلقوا من المسلمين في بدر ضربات مهلكة ماحقة.

---

(١) مجمع البيان، المجلد٩، صفحة ٦٢، ذيل الآيات مورد البحث.

وطبقاً لهذا التّفسير لم يكن للدُخان وجود في الحقيقة، بل إن السماء قد بدت للناس العطاشى الجائعين كعمود الدخان، وعلى هذا فذكر الدخان هنا من باب المجاز، هو يشير إلى تلك الحالة الصعبة المؤلمة.

وقال البعض: إنّ الدخان يستعمل عادة في كلام العرب كناية عن الشر والبلاء الذي يعم ويغلب[١].

ويعتقد بعض آخر أنّه حين القحط وقلّة المطر تغطي السماء عادة أعمدة الغبار، وقد عُبر هنا عن هذه الحالة بالدخان، لأنّ المطر يُنزل بالغبار إلى الأرض فيصفو الأفق[٢].

ومع كل هذه الصفات، فإنّ استعمال كلمة الدُخان هنا مجازاً طبقاً لهذا التّفسير.

٢ ـ إن المراد من «الدُخان المبين» هو ذلك الدُخان الغليظ الذي سيغطي السماء في نهاية العالم، وعلى أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدُنيا، وبداية عذاب الله أليم للظالمين والمفسدين.

عند ذلك سينتبه هؤلاء الظالمون من نوم غفلتهم، ويطلبون رفع العذاب والرجوع إلى الحياة الدنيوية العادية، لكن أيديهم ترد في أفواههم.

وطبقاً لهذا التّفسير فإنّ الدُخان معناه الحقيقي، ويكون مضمون هذه الآيات هو نفس ما ورد في آيات القرآن الأُخرى، وهو أنّ المجرمين والكافرين يرجون وهم على أعتاب القيامة أو فيها ـ رفع العذاب عنهم، والرجوع إلى الدنيا، لكن ذلك لا يقبل منهم ولا يُحقّق رجاءهم.

الإشكال الوحيد الذي يرد على هذا التّفسير أنّه لا ينسجم مع جملة ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ لأنّ العذاب الإلهي لا يخفف عند انتهاء الدنيا أو في القيامة ليعود الناس إلى حالة الكفر والمعصية.

أما إذا اعتبرنا هذه الجملة قضية شرطية ـ وإن كان ذلك يخالف الظاهر ـ فسيرتفع الإشكال حينئذٍ، لأنّ معنى الآية يصبح: كلما كشفنا عنهم قليلاً من

---

(١) يقول الفخر الرازي: إنّ العرب يسمون الشر الغالب بالدخان، المجلد ٢٧، صفحة ٢٤٢.
(٢) روح المعاني، المجلد ٢٥، صفحة ١٠٧.

العذاب فإنّهم يعودون إلى طريقتهم الأولى، وهذا في الواقع شبيه بالآية (٢٨) من سورة الأنعام ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

إضافةً إلى أنّ تفسير «البطشة الكُبرى» بأحداث يوم بدر، يبدو بعيداً عن الصواب، لكن تفسيرها بعقوبات القيامة[١] مع الآية تماماً.

والشاهد الآخر للتفسير الثّاني هو الروايات الواردة عن النّبي الأكرم ﷺ والتي تفسّر الدُخان بالدّخان الذي سيملأ العالم على أعتاب يوم القيامة، كالرواية التي يرويها حُذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ بأنّه ذكر أربع علامات لاقتراب القيامة: الأولى ظهور الدجال، والأخرى نزول عيسى عليه السلام، والثالثة النّار التي تظهر من أرض عدن، والدّخان.

فسأل حُذيفة: يا رسول الله، وما الدّخان؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمّا المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر فبمنزلة السكران يخرج من منخريه وأُذنيه ودبره[٢].

وجاء في حديث آخر عن أبي مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ: «إنّ ربّكم أنذركم ثلاثاً: الدّخان يأخذ منه المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال».

وجاء في حديث رابع عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «عشر قبل الساعة لا بُدَّ منها: السفياني والدجال والدخان والدابة وخروج القائم، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عليه السلام، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»[٣].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ

---

(١) يقول الراغب في المفردات: البطش: هو تناول الشيء بصولة، وهو مقدمة العقوبة عادة.

(٢) تفسير الدر المنثور، الجزء ٦، صفحة ٢٩.

(٣) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٢٠٩.

أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: ٦٠-٦٤].

التّفسير

لقاء موسى والخضر ﷺ:

ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآيات أنَّ مجموعة من قريش جاؤوا إلى النّبي ﷺ وسألوه عن عالم كان موسى ﷺ مأموراً باتباعه، وفي الجواب على ذلك نزلت هذه الآيات.

لقد ذكرت في سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة وهذه القصص هي: قصّة أصحاب الكهف؛ وقصّة موسى والخضر ﷺ؛ وقصّة ذي القرنين.

هذه القصص الثلاث تخرجنا من الأُفق المحدود في حياتنا وما تعودنا عليه والفناء، وتبيّن لنا أن حدود العالم لا تنحصر في نطاق ما نرى ونُشاهد، وأنّ شكل العالم للحوادث والأحداث ليس هو ما نفهمهُ من خلال النظرة الأُولى.

وإذا كانت قصّة أصحاب الكهف تتحدث عن فتية تركوا كلّ شيء من أجل أن يحافظوا على إيمانهم، وقد أدى بهم ذلك إلى حوادث عظيمة ذات أبعاد تربوية لجميع الناس، فإنّ قصّة موسى والخضر لها أبعاد عجيبة أُخرى. ففي القصّة يُواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبيّاً من أُولي العزم بكل وعيه ومكانته في زمانه يعيش محدودية في علمه ومعرفته من بعض النواحي، وهو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلم على يديه، ونرى أنّ المعلم يقوم بتعليمه دروساً يكون الواحد منها أعجب من الآخر. ثمّ إنّ هذه القصّة تنطوي ـ كما سنرى ـ على ملاحظات مهمّة جدّاً.

في أوّل آية نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾.

إنّ المعني بالآية هو بلا شك موسى بن عمران النّبي المعروف من أُولي العزم، بالرغم ممّا احتمله بعض المفسّرين من أنّ موسى المذكور في الآية هو

غير موسى بن عمران ﷺ، وسوف نرى ـ فيما بعد ـ أنّ اعتماد هذا الرأي كان بسبب عدم استطاعتهم حل بعض الإشكالات الواردة في القصّة، في حين أنّه كلما ورد إسم (موسى) في القرآن فالمراد به موسى بن عمران.

أمّا المعنى من (فتاه) فهو كما يقول أكثر المفسّرين؛ كما تُشير إلى ذلك العديد من الرّوايات: يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن من بني إسرائيل. واستخدام كلمة (فتى) في وصفه قد يكون بسبب هذه الصفات البارزة، أو بسبب خدمته لموسى ﷺ ومرافقته له.

(مجمع البحرين) بمعنى محل التقاء البحرين، وهناك كلام كثير بين المفسّرين عن اسم هذين البحرين، ولكن ـ بشكل عام ـ يمكن إجمال الحديث بثلاثة احتمالات هي:

أوّلاً: المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليج العقبة» مع «خليج السويس» (إذاً المعروف أنّ البحر الأحمر يتفرع شمالاً إلى فرعين: فرع نحو الشمال الشرقي حيث يشكّل خليج العقبة، والثّاني نحو الشمال الغربي ويُسمى خليج السويس، وهذان الخليجان يرتبطان جنوباً ويتصلان بالبحر الأحمر).

ثانياً: المقصود بمجمع البحرين هو محل إتصال المحيط الهندي بالبحر الأحمر في منطقة «باب المندب».

ثالثاً: محل إتصال البحر المتوسط (الذي يُسمّى ـ أيضاً ـ ببحر الروم والبحر الأبيض)، مع المحيط الأطلسي، يعني نفس المكان الذي يُطلق عليه اسم (مضيق جبل طارق) قرب مدينة «طنجة».

الاحتمال الثّالث مُستبعد بحكم بُعد مكان موسى ﷺ عن جبل طارق الذي يبعد عنه مسافة كبيرة جدّاً، قد تصل فترة وصوله ﷺ إلى عدّة أشهر إذا انتقل بالوسائل العادية.

أمّا الاحتمال الثّاني، فمع أنّ المسافة ما بينه وبين مكان موسى ﷺ أقرب، إلّا أنّه مستبعد ـ أيضاً ـ بحكم الفاصل الكبير بين الشام وجنوب اليمن.

يبقى الاحتمال الأوّل هو الأقرب من حيث قربه إلى مكان موسى ﷺ.
وما يرجح هذا الرأي هو ما نستفيده من الآيات ـ بشكل عام ـ من أنّ

موسى عليه السلام لم يسلك طريقاً طويلاً بالرغم من أنّه كان مستعداً للسفر إلى أي مكان لأجل الوصول إلى مقصوده (فدقق في ذلك).

وفي بعض الرّوايات إشارة إلى هذا المعنى أيضاً:

كلمة «حقب» تعني المدّة الطويلة والتي فسَّرها البعض بثمانين عاماً، وغرض موسى عليه السلام من هذه الكلمة، هو أنّني سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور على ما ضيعتهُ ولو أدّى ذلك أن أسير عدّة سنين.

ومن مجموع ما ذكرنا أعلاه يتبيّن لنا أن موسى عليه السلام كان يبحث عن شيء مهم وقد أقام عزمه ورسّخ تصميمه للعثور على مقصوده وعدم التهاون في ذلك إطلاقاً.

إنّ الشيء الذي كان موسى عليه السلام مأموراً بالبحث عنه له أثرٌ كبير في مستقبله، وبالعثور عليه سوف يفتتح فصلٌ جديدٌ في حياته.

نعم، إنّه عليه السلام كان يبحث عن عالم يزيل الحجب من أمام عينيه ويُريه حقائق جديدة، ويفتح أبواب العلوم أمامه، وسنعرف سريعاً أنّ موسى ـ كان يملك علامة للعثور على محل هذا العالم الكبير، وكان عليه السلام يتحرك باتجاه تلك العلامة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي السّمكة التي كانت معهما، أمّا العجيب في الأمر فإنّ الحوت: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾[1].

وهناك كلام كثير بين المفسّرين عن نوعية السمك الذي كان معداً للغذاء ظاهراً هل كانت سمكة مشوية، أو مملّحة أو سمكة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل إعجازي وقفزت إلى الماء وغاصت فيه، هناك كلام كثير بين المفسّرين.

وفي بعض كتب التّفسير نرى أنّ هناك حديثاً عن عين تهب الحياة، وأنّ السمكة عندما أصابها مقدار من ماء تلك العين عادت إليها الحياة.

---

(١) (سَرَب) على وزن (جَرَب) كما يقول الراغب في مفرداته، وهي تعني السير في الطريق المنحدر، و(سرب) على وزن (حرب) تعني الطريق المنحدر.

وهناك احتمال آخر وهو: إنّ السّمكة كانت حيّة، بمعنى أنّها لم تكن قد ماتت بالكامل، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجه مِن الماء، ويعود إلى الحياة الكاملة إذا أُعيد في هذه الفترة إلى الماء.

وفي تتمة القصّة، نقرأ أنّ موسى وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفي هذه الأثناء تذكّر موسى عليه السلام أنّه قد جلب معه طعاماً، عند ذلك قال لصاحبه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

(غداء) يقال للطعام الذي يتمّ تناوله في أوّل اليوم أو في منتصفه. ولكنّا نستفيد من التعابير الواردة في كُتب اللغة أنّهم في الأزمنة السابقة يطلقون كلمة (غداء) على الطعام الذي يتمّ تناوله أوّل اليوم (لأنّها مأخوذة من كلمة «غدوة» والتي تعني بداية اليوم)، في حين أنّ كلمة «غداء» و«تغدّى» تُطلق اليوم على تناول الطعام في وقت الظهيرة.

على أيّ حال، إنّ هذه الجملة تُظهر أنّ موسى ويوشع قد سَلَكا طريقاً يُمكن أن نُسميه بالسفر، إلّا أنّ نفس هذه التعابير تفيد أنّ هذا السفر لم يكن طويلاً.

وفي هذه الأثناء قال لهُ صاحبهُ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾[1].

ولأنّ هذا الحادث والموضوع ـ بشكل عام ـ كان علامة لموسى عليه السلام، لكي يصل من خلاله إلى موقع (العالم) الذي خرج يبحث عنه، لذا فقد قال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

وهنا رجعا في نفس الطريق: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

وهنا قد يُطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبي مثل موسى عليه السلام أن يُصاب

(١) إن جملة ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ جملة اعتراضية تقع في وسط الكلام، ولأنّ هذه الجملة تذكر ـ في الواقع ـ سبب النسيان، لذا فقد وقعت في وسط الكلام، وهذا الأسلوب شائع خصوصاً للأشخاص الذين يكونون موضع عتاب شخص أكبر، حيث إنّهم يذكرون العلة الأصلية ضمن الكلام بشكل اعتراضي، حتى يكون الإعتراض عليه أقل.

بالنسيان حيث يقول القرآن ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ ثمّ لماذا نَسَبَ صاحب موسى عليه السلام نسيانه إلى الشيطان؟

في الجواب نقول: إنّه لا يوجد ثمّة مانع من الإصابة بالنسيان في المسائل والموارد التي لا ترتبط بالأحكام الإلهية والأمور التبليغية، أي في مسائل الحياة العادية (خاصّة في المواقع التي لها طابع اختبار، كما هو الحال في موسى هنا، وسوف نشرح ذلك فيما بعد).

أمّا ربط نسيان صاحبه بالشيطان، فيمكن أن يكون ذلك بسبب أن قضية السمكة ترتبط بالعثور على ذلك الرجل العالم، وبما أنّ الشيطان يقوم بالغواية، لذا فإنّه أراد من خلال هذا العمل (النسيان) أن يصلا مُتأخرين إلى ذلك العالم، وقد تكون مقدمات النسيان قد بدأت من (يوشع) نفسه حيث إنّه لم يُدقق ويهتم بالأمر كثيراً.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٦٥-٧٠].

التّفسير

رؤية المُعلّم الكبير:

عندما رجع موسى عليه السلام وصاحبه إلى المكان الأوّل، أي قرب الصخرة وقرب (مجمع البحرين)، فجأة: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

إنّ استخدام كلمة «وجدا» تُفيد أنّهما كانا يبحثان عن نفس هذا الرجل العالم، وقد وجداه أخيراً.

أمّا استخدام عبارة ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فهي تبيّن أن أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عبداً حقيقياً للخالق جلّ وعلا، وإنّ مقام العبودية هذا يكون سبباً في شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، وفتح أبواب المعرفة والعلم في قلبه.

كما أنَّ استخدام عبارة ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ تبيّن أنّ علم ذلك العالم لم يكن علماً عادياً، بل كان يعرف جزءاً من أسرار هذا العالم، وأسرار الحوادث التي لا يعلمها سوى الله تعالى.

أمّا استخدام (علماً) بصيغة النكرة فهو للتعظيم، ويتبيّن من ذلك أنّ ذلك الرجل العالم قد حصل من علمه على فوائد عظيمة.

أمّا ما هو المقصود من عبارة ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فقد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة، فقال بعضهم: إنّها إشارة إلى مقام النبوة، والبعض الآخر اعتبرها إشارة للعمر الطويل. ولكن يُحتمل أن يكون المقصود هو الإستعداد الكبير والروح الواسعة، وسعة الصدر التي وهبها الله تعالى لهذا الرجل كي يكون قادراً على استقبال العلم الإلهي.

أمّا ما ذُكر من أنّ هذا الرجل اسمُه (الخضر) وفيما إذا كان نبيّاً أم لا، فسوف نبحث كل ذلك في البحوث القادمة.

في هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام وبأدب كبير: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ونستفيد من عبارة «رشداً» أنّ العلم ليس هدفاً، بل هو وسيلة للعثور على طريق الخير والهداية والصلاح، وأنّ هذا العلم يجب أن يُتعلّم، وأن يفتخر به.

في معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم مع كامل العجب لموسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

ثمّ بيّن سبب ذلك مباشرةً وقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾.

وكما سنرى فيما بعد، فإنّ هذا الرجل العالم كان يُحيط بأبواب من العلوم التي تخص أسرار وبواطن الأحداث، في حين أنَّ موسى عليه السلام لم يكن مأموراً بمعرفة البواطن، وبالتالي لم يكن يعرف عنها الكثير، وفي مثل هذه الموارد يحدث كثيراً أن يكون ظاهر الحوادث يختلف تمام الإختلاف عن باطنها، فقد يكون الظاهر قبيحاً أو غير هادف في حين أنَّ الباطن مفيد ومقدّس وهادف لأقصى غاية.

في مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذي ينظر إلى الظاهر صبره وتماسُكه فيقوم بالإعتراض وحتى بالتشاجر.

ولكن الأستاذ العالم والخبير بالأسرار بقي ينظر إلى بواطن الأعمال، واستمر بعمله ببرود، ولم يعر أي أهمية إلى اعتراضات موسى وصيحاته، بل كان في انتظار الفرصة المناسبة ليكشف عن حقيقة الأمر، إلّا أنّ التلميذ كان مستمراً في الإلحاح، ولكنّه ندمَ حين توضحت وانكشفت الأسرار.

وقد يكون موسى عليه السلام اضطرب عندما سمعَ هذا الكلام وخشي أن يُحرم من فيض هذا العالِم الكبير، لذا فقد تعهد بأن يصبر على جميع الحوادث وقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾.

مرّةً أُخرى كشف موسى عليه السلام عن قمة أدبه في هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّي صابر، بل قال: إن شاء الله ستجدني صابراً.

ولأنّ الصبر على حوداث غريبة وسيئة في الظاهر والتي لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السلام أن يتعهد لهُ مرّةً أخرى، وحذّره: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾[1]. وقد أعطى موسى العهد مجدداً وانطلق مع العالم الأستاذ.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) إنّ عبارة ﴿أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ يكون مفهومها بعد الأخذ بنظر الإعتبار كلمة (أحدث) هو: إنّي أنا الذي أبدأ بالكلام وأكشف للمرّة الأولى، أمّا أنت فلا تتكلم.

التّفسير

المُعلّم الإلهي والأفعال المتكررة!!

نعم، لقد ذهب موسى وصاحبُه وركبا السفينة ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾.

من الآن فصاعداً نرى القرآن يستخدم ضمير المثنى في جميع الموارد، والضمير إشارة إلى موسى والعالم الرّباني، وهذه إشارة إلى انتهاء مهمّة صاحب موسى عليه السلام (يوشع) ورجوعه، أو أنّه لم يكن معنياً بالحوادث بالرغم من أنّه قد حضرها جميعاً. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأقوى.

عندما ركبا السفينة قام العالِم بثقبها: «خرقها».

«خرق» كما يقول الراغب في المفردات: الخرق، قطع الشيء على سبيل الإفساد بلا تدبّر ولا تفكر حين كان ظاهر الرجل العالم على هذا المنوال.

وبحكم كون موسى عليه السلام نبيّاً إلهياً كبيراً فقد كان من جانب يرى أن من واجبه الحفاظ على أرواح وأموال الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن جانب آخر كان وجدانه الإنساني يضغط عليه ولا يدعهُ يسكت أمام أعمال الرجل العالم التي يبدو ظاهرها سيئاً قبيحاً، لذا فقد نسيَ العهد الذي قطعهُ للخضر (العالم) فاعترض وقال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

لا ريب أنّ هدف العالم (الخضر) لم يكن إغراق مَن في السفينة، ولكنّ النتيجة النهائية لخرق السفينة لم يكن سوى غرق مَن في السفينة، لذا فقد استخدم موسى عليه السلام (اللام الغائية) لبيان الهدف.

مثل ذلك ما نقوله للشخص الذي يأكل كثيراً، عندما نقول لهُ: أتريد أن تقتل نفسك؟!

بالطبع مثل هذا لا يريد قتل نفسه بكثرة الطعام، إلّا أنّ نتيجة عمله قد تكون هكذا.

«إمر» على وزن «شمر» وتطلق على العمل المهم العجيب أو القبيح للغاية.

وحقاً، لقد كان ظاهر عمل الرجل العالم عجيباً وسيئاً للغاية، فهل هُناك عمل أخطر من أن يثقب شخص سفينة تحمل عدداً من المسافرين!

وفي بعض الرّوايات نقرأ أنّ أهل السفينة انتبهوا إلى الخطر بسرعة وقاموا بإصلاح الثقب (الخرق) مؤقتاً، ولكن السفينة أصبحت بعد ذلك معيبة وغير سالمة.

وفي هذه الأثناء نظر الرجل العالم إلى موسى عليه السلام نظرة خاصّة وخاطبه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. أمّا موسى الذي ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذي قطعه لهذا العالم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلاً: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. يعني لقد أخطأت ونسيت الوعد فلا تؤاخذني بهذا الإشتباه.

«لا ترهقني» مُشتقّة من «إرهاق» وتعني تغطية شيء ما بالقهر والغلبة، وتأتي في بعض الأحيان بمعنى التكليف، وفي الآية ـ أعلاه ـ يكون معناها: لا تصعّب الأمور عليّ، ولا تقطع فيضك عنّي بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحرية وترجلوا من السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾، وقد تمّ ذلك بدون أي مقدمات!

وهنا ثار موسى عليه السلام مرّة أخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفل بريء بدون أي سبب، وظهرت آثار الغضب على وجهه وملأ الحزن وعدم الرضا عينيه ونسي وعده مرّةً أخرى، فقام للإعتراض، وكان اعتراضه هذه المرّة أشد من اعتراضه في المرّة الأولى، لأنّ الحادثة هذه المرّة كانت موحشة أكثر من الأولى، فقال عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. أي إنك قتلت إنساناً بريئاً من دون أن يرتكب جريمة قتل، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

كلمة «غلام» تعني الفتى الحدث، أي الصبي سواء كان بالغاً أو غير بالغ. وبين المفسّرين ثمّة كلام كثير عن الغلام المقتول، وفيما إذا كان بالغاً أم لا، فالبعض استدل بعبارة ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ على أنّ الفتى لم يكن بالغاً. والبعض الآخر اعتبر عبارة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ دليلاً على أنّ الفتى كان بالغاً، ذلك لأنّ القصاص يجوز بحق البالغ فقط، ولكن لا يمكن القطع في هذا المجال بالنسبة لنفس الآية.

«نكر» تعني القبيح والمنكر، وأثرها أقوى من كلمة «إمر» التي وردت في حادثة ثقب السفينة، والسبب في ذلك واضح، فالأمر الأوّل قد أوجد الخطر لمجموعة من الناس، إلّا أنّهم تداركوه بسرعة، لكن ظاهر العمل الثّاني يدل على ارتكاب جريمة.

ومرّة أُخرى كرَّر العالم الكبير جملته السابقة التي اتسمت ببرود خاص، حيث قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

والإختلاف الوحيد مع الجملة السابقة هو إضافة كلمة «لك» التي تفيد التأكيد الأكثر؛ يعني: إنّني قلت هذا الكلام لشخصك!

تذكر موسى تعهده فانتبه إلى ذلك وهو خجل، حين أخلَّ بالعهد مرَّتين - ولو بسبب النسيان - وبدأ تدريجياً يشعر بصدق عبارة الأُستاذ في أنَّ موسى لا يستطيع تحمّل أعماله، لذا فلا يطيق رفقته كما قالَ لهُ عندما عرض عليه موسى الرفقة، لذا فقد بادر إلى الإعتذار وقال: إذا اعترضت عليك مرّة أُخرى فلا تصاحبني وأنت في حل منّي: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾. صيغة العذر هنا تدل على إنصاف موسى عليه السلام ورؤيته البعيدة للأمور، وتبيّن أنّهُ عليه السلام كان يستسلم للحقائق ولو كانت مُرّة؛ بعبارة أُخرى: إنّ الجملة توضع وبعد ثلاث مراحل للإختبار أنّ مهمّة هذين الرجلين كانت مُختلفة.

بعد هذا الكلام والعهد الجديد: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

لا ريب أنّ موسى وصاحبه لم يكونا ممّن يلقي بكلّه على الناس ولكن يتّضح أنّ زادهم وأموالهم قد نفدت في تلك السفرة، لذا فقد رغبا أن يضيفهما أهل تلك المدينة (ويحتمل أنَّ الرجل العالم تعمد طرح هذا الإقتراح كي يعطي موسى درساً بليغاً آخر).

ويجب أن نلتفت إلى أنّ (قرية) في لغة القرآن تنطوي على مفهوم عام، وتشمل المناطق السكنية في الريف والمدينة، أمّا المقصود منها في الآية فهو المدينة لا القرية، كما تصرح بعد ذلك الآيات اللاحقة.

وذكر المفسّرون نقلاً عن ابن عباس أنّ المقصود بهذه المدينة، هو (أنطاكية)[١].

وذكر آخرون: إنّ المقصود منها هو مدينة (أَيْلَة) التي تُسمى اليوم ميناء (أيلات) المعروف والذي يقع على البحر الأحمر قرب خليج العقبة. أمّا البعض الثّالث فيرى بأنّها مدينة (الناصرة) الواقعة شمال فلسطين، وهي محل ولادة السيّد المسيح عليه السلام. وقد نقل العلّامة الطبرسي حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يدعم صحة هذا الاحتمال.

ورجوعاً إلى ما قلناه في المقصود من (مجمع البحرين) إذ قلنا: إنّه كناية عن محل التقاء خليج العقبة وخليج السويس، يتّضح أن مدينة (الناصرة) أو ميناء (أيلة) أقرب إلى هذا المكان من أنطاكية.

المهم في الأمر، أنّنا نستنتج من خلال ما جرى لموسى عليه السلام وصاحبه من أهل هذه المدينة أنّهم كانوا لئاماً دنيئي الهمّة، لذا نقرأ في رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله في وصف أهل هذه المدينة: «كانوا أهل قرية لئام»[٢].

ثمّ يضيف القرآن: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾[٣] وقد كان موسى عليه السلام يشعر بالتعب والجوع، والأهم من ذلك أنّه كان يشعر بأنّ كرامته وكرامة أُستاذه قد أُهينت من أهل هذه القرية التي أبت أن تضيفهما؛ ومن جانب آخر شاهد كيف أنَّ الخضر قام بترميم الجدار بالرغم من سلوك أهل القرية القبيح إزاءهما، وكأنّه بذلك أراد أن يجازي أهل القرية بفعالهم السيئة؛ وكان موسى يعتقد بأنّ على صاحبه أن يُطالب بالأجر على هذا العمل حتى يستطيعا أن يُعدّا طعاماً لهما.

لذا فقد نسي موسى عليه السلام عهده مرّة أُخرى وبدأ بالإعتراض، إلّا أن

---

(١) أنطاكية من المدن السورية القديمة التي تقع على بُعد (٩٦) كلم من حلب، و(٥٩)كلم عن الإسكندرية، تشتهر المدينة بالحبوب الغذائية، والحبوب الدهنية، فيها ميناء يُسمى «سويدية» ويبعد عن مركزها (٢٧)كلم. (يراجع في ذلك دائرة فريد وجدي، ج١، ص٨٣٥).

(٢) مجمع البيان في تفسير الآية.

(٣) إنّ نسبة (الإرادة) إلى الجدار هو استخدام مجازي، ومفهوم ذلك أنّ الجدار كان ضعيفاً للغاية وهو على مشارف الإنهيار.

اعتراضه هذه المرّة بدا خفيفاً فقال: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وفي الواقع فإنّ موسى يعتقد بأنّ قيام الإنسان بالتضحية في سبيل أُناس سيئين عمل مجاف لروح العدالة؛ بعبارة أُخرى: إنّ الجميل جيّد وحسن، بشرط أن يكون في محلّه.

صحيح أنّ الجزاء الجميل في مقابل العمل القبيح هو من صفات الناس الإلهيين، إلّا أنّ ذلك ينبغي أن لا يكون سبباً في دفع المسيئين للقيام بالمزيد من الأعمال السيئة.

وهنا قال الرجل العالم كلامه الأخير لموسى، بأنّك ومن خلال حوادث مُختلفة، لا تستطيع معي صبراً، لذلك قرّر العالم قراره الأخير: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

موسى عليه السلام لم يعترض على القرار - طبعاً - لأنّه هو الذي كان قد اقترحهُ عند وقوع الحادثة السابقة، وهكذا ثبت لموسى أنّه لا يستطيع الإستمرار مع هذا الرجل العالم. ولكن برغم كل ذلك، فإنّ خبر الفراق قد نزل بوقع شديد على قلب موسى عليه السلام، إذ يعني فراق أُستاذ قلبه مملوء بالأسرار، ومفارقة صُحبة مليئة بالبركة، إذ كان كلام الأُستاذ درساً، وتعاملهُ يتّسم بالإلهام؛ نور الله يشع من جبينه، وقلبه مخزن للعلم الإلهي.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمرٌ صعب للغاية، لكن على موسى عليه السلام أن ينصاع لهذه الحقيقة المُرَّة.

المفسّر المعروف أبو الفتوح الرازي يقول: ورد في الخبر أنّ موسى عليه السلام عندما سُئل عن أصعب ما لاقى من مُشكلات في طول حياته، أجاب قائلاً: «لقد واجهت الكثير من المشاكل والصعوبات (إشارة إلى ما لاقاه عليه السلام من فرعون، وما عاناه من بني إسرائيل) ولكن لم يكن أيّاً منها أصعب وأكثر ألماً على قلبي من قرار الخضر في فراقي إيّاه»[1].

«تأويل» مَن «أول» على وزن «قول» وتعني الإجماع، لذا فإنّ أي عمل أو

---

(١) أبو الفتوح الرازي في (روح الجنان)، ج٣، أثناء تفسير الآية.

كلام يُرجعنا إلى الهدف الأصلي يُسمّى «تأويل» كما أنّ رفع الحجب عن أسرار شيء هو نوع من التأويل.

إطلاق كلمة (التأويل) على تفسير الأحلام يعود لهذا السبب بالذات، كما ورد في سورة يوسف ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢].

التّفسير

الأسرار الداخلية لهذه الحوادث:

بعد أن أصبح الفراق بين موسى والخضر عليهما السلام أمراً حتمياً، كان من اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهي بتوضيح أسرار أعماله التي لم يستطع موسى أن يصبر عليها، وفي الواقع فإنّ استفادة موسى من صُحبته تتمثل في معرفة أسرار هذه الحوادث الثلاثة العجيبة، والتي يمكن أن تكون مفتاحاً للعديد من المسائل، وجواباً لكثير من الأسئلة.

ففي البداية ذكر قصّة السفينة ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

وبهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيِّر وراء ثقب السفينة الذي بدا في حينه عملاً مشيناً سيئاً، والهدف هو نجاتهم من قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها، إذاً خلاصة المقصود في الحادثة الأولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

كلمة «وراء» لا تعني هُنا الجانب المكاني، وإنّما هي كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، وبما أنّ الإنسان لا يحيط

بالحوادث التي سوف تصيبهُ لاحقاً، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

إضافةً إلى ذلك فإنّ الإنسان عندما يخضع لضغط فرد أو مجموعة فإنّهُ يستخدم تعبير (وراء) كقوله مثلاً: الدّيانون ورائي ولا يتركوني؛ وفي الآية (١٦) من سورة إبراهيم نقرأ قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾، وكأنّ جهنّم تلاحق وتتبع المذنبين، لذا فقد استخدمت كلمة وراء[١].

ويفيد استخدام كلمة (مسكين) أنّ «المسكين» ليس هو الشخص الذي لا يملك شيئاً مطلقاً، بل هي وصف يُطلق على الأشخاص الذين يملكون أموالاً وثروة لكنّها لا تفي بحاجاتهم.

ويحتمل أيضاً أن يكون السبب في إطلاق وصف (المساكين) عليهم ليس بسبب الفقر المالي، بل بسبب افتقارهم للقوّة والقدرة، وهذا التعبير يستخدم في لغة العرب، يتلاءم مع الجذور الأصلية لمعنى مسكين لغوياً، والذي يعني السكون والضعف.

وفي نهج البلاغة نقرأ قول أمير المؤمنين عليه السلام: «مسكين ابن آدم... تؤلمهُ البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنهُ العرقة»[٢].

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثّانية التي قتل فيها الفتى فيقول: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

تحتمل مجموعة من المفسّرين أنّ المقصود من الآية ليس ما يتبيّن من ظاهرها من أنّ الفتى الكافر والعاصي قد يكون سبباً في انحراف أبويه، وإنّما المقصود أنّه بسبب من طغيانه وكفره يؤذي أبويه كثيراً[٣]؛ ولكن التّفسير الأوّل أقرب للصحة.

---

(١) في معنى (وراء) يمكن مراجعة البحث الوارد في ذيل الآية (١٦) من سورة إبراهيم في تفسيرنا هذا (يعني الأمثل).

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار الجملة رقم ٤١٩.

(٣) وفق التّفسير الأوّل يكون الفعل «يرهق» مُتعدياً إلى مفعولين: الأوّل (هما)، والمفعول الثّاني (طغياناً)، أمّا وفق التفسير الثّاني فإنّ (طغياناً) و(كفراً) يكونان مفعولاً لأجله.

في كل الأحوال، فإنّ الرجل العالم قام بقتل هذا الفتى، واعتبر سبب ذلك ما سوف يقع للأب والأم المؤمنين في حال بقاء الإبن على قيد الحياة.

كلمة (خشينا) تستبطن معنًى كبيراً، فهذا التعبير يوضح أنّ هذا الرجل العالم كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن مستقبل الناس، ولم يكن مستعداً لأن تصاب أم أو أب مؤمنان بسوء بسبب انحراف ابنهم.

كما إنّ تعبير (خشينا) جاء هُنا بمعنى: لم نكن نرغب، وإلّا لا معنى للخوف في هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى من العلم والوعي والقدرة.

وبعبارة أُخرى، فإنّ الهدف هو الإتقاء من حادث سيّىء نرغب أن نقي الأبوين منه على أساس المودّة لهما.

ويحتمل أن يكون التعبير بمعنى (علمنا) كما ينقل عن ابن عباس، يعني أنّنا كُنّا نعلم أنّ الفتى ـ في حال بقائه ـ سوف يكون سبباً لأحداث أليمة تقع لأبيه وأمه في المستقبل.

أمّا لماذا استخدم ضمير المُتكّلم في حالة الجمع، بينما كان المُتكّلم فرداً واحداً، فإنّ سبب ذلك واضح، حين أنّها ليست المرّة الأولى التي يستخدم القرآن هذه الصيغة، ففي كلام العرب عندما يتحدث الأشخاص الكبار عن أنفسهم فإنّهم يستخدمون ضمير الجمع. والسبب في ذلك أنّ هؤلاء الأشخاص يملكون أشخاصاً تحت أيديهم ويعطونهم الأوامر لتنفيذ الأعمال، فالله يعطي الأوامر للملائكة، والإنسان يعطي الأوامر للذين هم تحت يديه.

ثمّ تحكي الآيات على لسان العالم قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

إنّ تعبير (أردنا) و(ربّهما) يطوي معاني كبيرة سوف نقف عليها بعد قليل.

(زكاة) هنا بمعنى الطهارة والنظافة، ولها مفهوم واسع حيث تشمل الإيمان والعمل الصالح، وتتسع للأمور الدينية والمادية، وقد يكون في هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السلام الذي قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً. . . .﴾ فقال لهُ العالم في الجواب: إنَّ هذه النفس ليست زكية، وأردنا أن يُبدلهما ربّهما إبناً طاهراً بدلاً عن ذلك.

وفي روايات عديدة نقرأ «أبدلهما الله به جارية ولدت سبعين نبيّاً»[١].

وفي آخر آية من الآيات التي نبحثها، كشف الرجل العالم عن السر الثّالث الذي دعاه إلى بناء الجدار فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

وأنا كنتُ مأموراً ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوي هذين اليتيمين، كي لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرّضاً للخطر.

وفي خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفي أي شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السلام، ولكي يكون على يقين بأنّ هذه الأعمال كانت طبقاً لمخطط وتوجيه أعلى خاص، قال العالم: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ بل أمر من الله.

وذلك سر ما لم يستطع موسى عليه السلام صبراً، إذ قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

بحوث

١ ـ هل كانت مدينة الخضر في إطار النظام التشريعي أم التكويني؟

إنّ هذه الحوادث الثّلاث شغلت عقول العلماء الكبار، وأثارت بينهم الكثير من الكلام والإستفهامات.

والسؤال الأوّل هو: هل يمكن إتلاف جزء من أموال شخص بدون إجازته بذريعة أنّ هُناك غاصباً يريد أن يُصادرها؟

وهل يمكن معاقبة فتى بذريعة الأعمال التي سيقوم بها في المستقبل؟

ثمّ هل هُناك ضرورة للعمل المجاني بهدف الحفاظ على أموال شخص معين؟

قال في الأمثل: لقد رأينا من سياق القصّة القرآنية أنّ موسى اعترض على الرجل العالم، ولكنّهُ بعد أن استمع للتوضيحات وأحاط ببواطن الأمور عاد واقتنع.

---

(١) نور الثقلين، ج٣، ص٢٨٦ و٢٨٧.

أمّا نحن فأمامنا طريقان للإجابة على الأسئلة، نعرضها بالتفصيل الآتي:

الطريق الأوّل: إن تطابق الحوادث وتصرفات الرجل العالم مع الموازين الفقهية، وقوانين الشرع، وقد قامت مجموعة من المفسّرين بسلوك هذا الطريق.

فالحادثة الأولى: اعتبروها مُنطبقة مع قانون الأهم والمهم؛ وقالوا بأنّ حفظ مجموع السفينة عمل أهم حتمياً من الضرر الجزئي الذي لحقها بالخرق؛ وبعبارة أُخرى، فإنّ الخضر قام هُنا (بدفع الأفسد بالفاسد) خاصّة وأنّه كان يمكن تقدير الرضا الباطني لأهل السفينة فيما إذا علموا بهذه الحادثة. (أي أنّ الخضر قد حصل من وجهة الاحكام والقواعد الشرعية على إذن الفحوى).

وفيما يتعلق بالغلام فقد أصرَّ المفسّرون ممن سلك هذا الطريق، على أنّ الفتى كان بالغاً وأنّه كان مرتداً أو مفسداً، وبسبب أعماله الفعلية فإنّه من الجائز أن يُقتل.

وأمّا حديث الخضر عن جرائم الغلام المستقبلية، فإنّه بذلك أراد أن يقول بأنّ جرائم الغلام لا تقتصر على إفساده الراهن وجرائمه الحالية، بل سيقوم بالمستقبل بجرائم أكبر، لذا فإنّ قتله طبقاً للموازين الشرعية وبسبب ما اقترفه من جرائم فعلية يكون جائزاً.

أمّا ما يخص الحادثة الثّالثة: فلا أحد يستطيع أن يعترض على الآخرين فيما لو قاموا بالتضحية والإيثار من أجل الآخرين، ومن أجل أن لا تضيع أموالهم دون أن يتقاضوا أجراً على أعمالهم، وهو بالضبط ما قام به الخضر، وقد لا تصل هذه الأفعال إلى حدّ الوجوب، إلّا أنّها تعتبر ـ حتماً ـ من السلوك الحسن.

بل قد يُقال من الوجهة الفقهية أن الإيثار والتضحية في بعض الموارد من الأمور الواجبة، مثل أن تكون أموال كثيرة لطفل يتيم معرضة للتلف، ويمكن المحافظة عليها بجهد قليل فلا يستبعد وجوب بذل الجهد.

الطريق الثّاني: تتمّ فيه مناقشة بعض عناصر الإستدلال الفقهية التي وردت في الطريق الأوّل، فإذا كانت التوضيحات الآنفة مُقنعة فيما يخص الكنز والحائط، إلّا أنّها في قضية قتل الغلام لا تتلاءم مع ظاهر الآية، الذي اعتبر علّة قتل الغلام هو ما سيقوم به من أعمال في المستقبل، وليس أعماله الفعلية.

أمّا الدليل الوارد حول خرق السفينة، فهو أيضاً لا يخلو من تأمل فهل نستطيع مثلاً ـ ومن الوجهة الفقهية ـ أن نتلف جزءاً من أموال أو بيت شخص معين بدون علمه لإنقاذها من خطر ما، حتى لو علمنا وتيقنا بأنّه سيتمّ غصب تلك الأموال في المستقبل. . . . تُرى هل يسمح الفقهاء بمثل هذا الحكم؟!

وعلى هذا الأساس يجب علينا أن نسلك طريقاً آخر:

الطريق الثّالث: إنّ في هذا العالم ثمّة نظامان هما: «النظام التكويني، والنظام التشريعي»، وبالرغم من أنّ هذين النظامين مُتناسقين فيما بينهما في الأصول الكلية، ولكنهما قد ينفصلان ويفترقان في الجزئيات.

على سبيل المثال: يقوم الله سبحانه وتعالى من أجل اختبار العباد، بابتلائهم بالخوف ونقص في الأموال والثمرات وموت الأعزّة وفقدانهم حتى يتبيّن الصابر من غيره تجاه هذه الحوادث والبلاءات.

والسؤال هنا هو: هل يستطيع أي فقيه أو حتى نبي أن يقوم بهذا العمل، أي ابتلاء العباد بنقص الأموال والثمرات وفقدان الأعزة، وفقدان الأمن والإستقرار بهدف اختبار الناس وابتلائهم؟

ونرى أنّ الله سبحانه وتعالى يقوم بتحذير وتربية بعض أنبيائه وعباده الصالحين، وذلك بابتلائهم بمصائب بسبب تركهم للأولى، مثل ما ابتلى به يعقوب عليه السلام بسبب قلّة توجهه إلى المساكين، أو ما ابتلى به يونس عليه السلام بسبب تركه الأولى من بعض الأمور ولو لفترة قصيرة. . . فهل يا ترى يحق لأحد أن يقوم بهذه الأعمال بعنوان الجزاء والعقاب لهؤلاء الرسل الكرام والعباد الصالحين؟

ونرى أنّ الله سبحانه وتعالى يقوم في بعض الأحيان، بسلب النعمة من الإنسان بسبب عدم شكره، كأن تغرق أمواله في البحر ـ مثلاً ـ يخسر هذه الأموال، أو يُصاب بالمرض بسبب عدم شكره لربّه على نعمة السلامة. . .

والسؤال هنا: هل يستطيع أحد من الناحية الفقهية والتشريعية أن يسلب النعمة من الآخرين، أو ينزل الضرر بسلامتهم وصحتهم بسبب عدم شكرهم وبدعوى ابتلائهم؟

إنّ أمثال هذه الأُمور كثيرٌ للغاية، وهي تُظهر ـ بشكل عام ـ أنّ عالَم الوجود، وخصوصاً خلق الإنسان، قد قام على النظام الأحسن، حيث وضع الله تعالى مجموعة من القوانين والمقررات التكوينية حتى يسلك الإنسان طريق التكامل، وعندما يتخلف عنها فسيُصاب بردود فعل مُختلفة.

ولكنّا من وُجهة قوانين الشرع وضوابط الأحكام لا نستطيع أن نصنّف الأمور في إطار هذه القوانين التكوينية.

على سبيل المثال نرى أنّ الطبيب يستطيع أن يقطع إصبع شخص معين بحجّة عدم سراية السم إلى قلبه، ولكن هل يستطيع أي شخص أن يقطع إصبع شخص آخر بحجّة تربيته على الصبر أو عقاباً له على كفرانه للنعم؟ (بالطبع الخالق يستطيع القيام بذلك حتماً لأنّه يُلائم النظام الأحسن).

والآن بعد أن ثبت وتوضَّح أنّ في العالم نظامان (تكويني وتشريعي)، وأنّ الله هو الحاكم والمسيطر على هذين النظامين، لذا فلا مانع في أن يأمر تعالى مجموعة بأن تطبّق النظام التشريعي، بينما يأمر مجموعة من الملائكة أو بعض البشر (كالخضر مثلاً) بأن يطبقوا النظام التكويني.

ومن جهة النظام التكويني لا يوجد أي مانع من أن يبتلي الله طفلاً غير بالغ بحادثة معينة، ثمّ يموت ذلك الطفل بسبب هذه الحادثة، وذلك لعلم الله تعالى بأنّ أخطاراً كبيرة كامنة لهذا الطفل في المستقبل كما أنّ وجود مثل هؤلاء الأشخاص وبقاءهم يتمّ لمصلحة معينة كالإمتحان والإبتلاء وغير ذلك.

وأيضاً لا مانع في أن يبتليني الله اليوم بمرض صعب يقعدني الفراش لعلمه تعالى بأنّ خروجي من البيت لو تمّ فسأتعرض لحادثة خطيرة لا أستحقها، لذا فهو تعالى يمنعني منها.

بعبارة أُخرى: إنّ مجموعة من أوليائه وعباده مكلّفون في هذا العالم بالبواطن، بينما المجموعة الأُخرى مكلّفون بالظواهر. والمكلّفون بالبواطن لهم ضوابط وأُصول وبرامج خاصّة بهم، مثلما للمكلّفين بالظواهر ضوابطهم وأُصولهم الخاصّة بهم أيضاً.

صحيح أنّ الخط العام لهذين البرنامجين يوصل الإنسان إلى الكمال؛

وصحيح أنّ البرنامجين متناسقين من حيث القواعد الكلية، إلّا أنّهما يفترقان في التفاصيل والجزئيات كما لاحظنا ذلك في الأمثلة.

بالطبع لا يستطيع أحد أن يعمل كما يحلو له ضمن هذين الخطين، بل يجب أن يحصل على إجازة المالك القادر الحكيم الخالق جلَّ وعلا، لذا رأينا الخضر (العالم الكبير) يوضح هذه الحقيقة بصراحة قائلاً، (ما فعلتُه عن أمري) بل إنّي خطوت الخطوات وفقاً للبرنامج الإلهي والضوابط التي كانت موضوعة لي.

وهكذا سيزول التعارض والتضاد وتنتفي الأسئلة والمشكلات المثارة حول مواقف الخضر في الحوادث الثلاث.

وسبب عدم تحمّل موسى عليه السلام لأعمال الخضر يعود إلى مهمّة موسى التي كانت تختلف عن مهمّة الخضر في العالم، لذا فقد كان موسى عليه السلام يبادر إلى الإعتراض على مواقف الخضر المخالفة لضوابط الشريعة بينما كان الخضر مستمراً في طريقه ببرود، لأنّ وظيفة كل من هذين المبعوثين الإلهيين تختلف عن وظيفة الآخر ودوره المرسوم لهُ إلهياً، لذلك لم يستطيعا العيش سوية، لذا قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

٢ ـ من هو الخضر؟

لقد رأينا القرآن الكريم يتحدَّث عن العالِم من دون أن يُسميه بالخضر وقد عبَّر عن مُعلِّم موسى عليه السلام بقوله: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

والآية توضح المقام الخاص للعبودية والعلم والمعرفة، لذا فإنّنا غالباً ما نصفه بالرجل العالِم.

أمّا الرّوايات الإسلامية وفي مختلف مصادرها عرَّفت هذا الرجل باسم (الخضر) ومن بعض هذه الرّوايات نستفيد بأنّ اسمه الحقيقي كان (بليا بن ملكان) أمّا الخضر فهو لقب له، حين أنّه كان يطأ الأرض فإنّ الأرض كانت تخضر تحت قدميه.

قال في الأمثل: لقد واجهتنا ـ أعلاه ، ولعدّة مرّات ـ قضية نسيان

موسى عليه السلام، فمرّةً في قضية تلك السمكة المعدَّة لطعامهم؛ وثلاث مرّات أُخرى خلال الحوادث الثلاث التي وقعت عند مُرافقته للخضر، حينما نسي تعهده!

إذاً، نحن أمام هذا السؤال: هل يقع النسيان بالنسبة للأنبياء؟

البعض يعتقد بصدور ووقوع مثل هذا النسيان بالنسبة للأنبياء، لأنّه لا يرتبط بأساس دعوة النّبوة ولا بفروعها ولا بتبليغ الدعوة، بل يقع في قضية عادية تخص الحياة اليومية، فالمسلّم به أنّ النّبي صلى الله عليه وآله لا يُصاب بالنسيان في أصل دعوة النّبوة، ولا يخطىء أو يشتبه في التبليغ، حين أن عناية الله تعصمهُ في مثل هذه الأُمور.

ولكن ما المانع أن ينسى موسى عليه السلام طعامه، خصوصاً وأن هذا النسيان أمر طبيعي عندما يكون موسى مُتوجهاً بحواسه في البحث عن الرجل العالم؟

ثمّ ما المانع من أن يُصاب بالهيجان بحيث ينسى تعهده الذي قطعه مع صاحبه العالم، وذلك عندما شاهد هذه الحوادث العظيمة التي مرَّت به كقتل الفتى وخرق السفينة وبناء الجدار في مدينة البخلاء؟

إنّ موارد النسيان هذه لا تتعارض مع مقام العصمة، ولا هي مستبعدة عن أي نبي.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون النسيان هنا بمعنى مجازي، ويعني الترك، لأنّ الإنسان عندما يترك شيئاً فهو كمن قد نسيه؛ أمّا لماذا ترك موسى طعامه، فقد يعود ذلك إلى عدم اهتمامه بمثل هذا الأمر. وفيما يتعلق بتعهده اتجاه صاحبه العالم، فذاك منه لأنّه كان ينظر إلى ظواهر الأُمور، إذ من غير المألوف أن يعرّض أحد أرواح وأموال الناس إلى الضرر، فضلاً عن أن يكون ذلك الشخص هو العالم الكبير، لذا فإنّ موسى عليه السلام كان يعتبر نفسه مكلفاً بالإعتراض، وكان يعتقد بأنّ هذا الأمر لا يُقيَّد بالتعهد.

لكن من الواضح أنّ هذه التفاسير والآراء لا تتسق مع ظواهر الآيات.

٣ ـ لماذا ذهب موسى لرؤية الخضر؟

في حديث عن ابن عباس قال: أخبرني أُبيّ بن كعب قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «إنّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ قال أنا.

فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال موسى: يا ربّ فكيف لي به؟

قال: تأخذ معك حوتاً...»[1] إلخ الرّواية حيث أرشد تعالى نبيّه موسى للوصول إلى الرجل العالم.

كما روي ما يشابه هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام[2].

إنّ مفاد هذه الواقعة هو تحذير لموسى عليه السلام حتى لا يعتبر نفسه ـ برغم علمه ومعرفته ـ أفضل الأشخاص.

ولكن هنا يثار هذا السؤال: ألا يجب أن يكون النّبي ـ وهو هنا من أُولي العزم وصاحب رسالة ـ أعلم أهل زمانه؟

في معرض الجواب نقول: نعم، ينبغي أن يكون أعلم فيما يتعلق بمهمّته، يعني الأعلم بالنظام التشريعي، وموسى عليه السلام كان كذلك، أمّا الرجل العالم (الخضر) فهو كما قلنا سابقاً، كانت له مهمّة تختلف عن مهمّة موسى عليه السلام ولا ترتبط بعالَم التشريع. بعبارة أُخرى: إنّ الرجل العالم كان يعرف من الأسرار ما لا تعتمد عليه دعوة النّبوة.

وفي حديث جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «كان موسى أعلم من الخضر»[3]. أي أعلم منه في علم الشرع.

وهنا نلاحظ أنّ هذه الشبهة وقضية نسيان موسى عليه السلام هما اللتان دفعتا البعض إلى القول أنّ موسى المذكور في القصّة ليس هو موسى بن عمران، بل هو شخص آخر. لكن مع حل هاتين المشكلتين لا يبقى مجال لهذا الكلام.

وفي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام نرى إشارة صريحة إلى أن مهمّة ووظيفة كلّ من موسى والخضر كانت تختلف عن الآخر، فقد كتب أحدهم إلى الإمام الرضا عليه السلام يسأله عن العالِم الذي أتاه موسى، أيّهما كان أعلم؟ فكان

---

(١) مجمع البيان، ج٣، ص٤٨١.
(٢) مجمع البيان، ج١٣، ص٣٥٦.
(٣) نور الثقلين، ج٣، ص٢٧٥.

ممّا أجاب به الإمام قوله عليه السلام: «أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر إمّا جالساً وإمّا مُتكئاً فسلّم عليه موسى، فأنكر السلام، إذ كانت الأرض ليس بها سلام. قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قال: أنت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليماً؟ قال: نعم، قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني ممّا عملت رشداً. قال: إنّي وُكّلتُ بأمر لا تطيقه، ووُكّلتُ بأمر لا أطيقه»[1].

ومن المناسب هنا أن نختم هذه الفقرة بما رواه صاحب «الدر المنثور» عن «الحاكم» النيسابوري من أنّ النبي ﷺ قال: «لما لقي موسى الخضر، جاء طير فألقى منقاره في الماء، فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطائر؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلّا كما أخذ منقاري من الماء»[2].

٤ ـ ماذا كان الكنز؟

من الأسئلة التي تُثار حول هذه القصّة، هي عن ماهية الكنز الوارد في الآية، ماذا كان؟ ولماذا كان صاحب موسى يصر على إخفائه؟ ولماذا قام الرجل المؤمن، يعني أبا الأيتام بتجميع هذا الكنز وإخفائه؟

يرى بعض المفسّرين أن الكنز يرمز إلى شيء معنوي، قبل أن يكون له مفهوم مادي.

إذ أنّ هذا الكنز ـ طبقاً لروايات عديدة تُنقل من طرق السنة والشيعة ـ لم يكن سوى لوح منقوش عليه مجموعة من الحكم.

أمّا ما هي هذه الحكم؟ فثمة كلام كثير للمفسّرين في ذلك.

ففي كتاب الكافي نقلاً عن الإمام حيث قال في جوابه على سؤال يتعلق بماهية الكنز: «أمّا إنّه ما كان ذهباً ولا فضة، وإنّما كان أربع كلمات: لا إله إلّا الله، من أيقن بالموت لم يضحك، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومن أيقن بالقدر لم يخش إلّا الله»[3].

---

(١) مجمع البيان، ج٦، ص٤٨٠، والميزان، ج١٣، ص٣٥٦.
(٢) الدر المنثور ومصادر أخرى طبقاً لما نقله صاحب الميزان في ج١٣، ص٣٥٦.
(٣) نور اليقين، ج٣، ص٢٨٧.

وفي روايات أُخرى، ورد أنّ اللوح كان من ذهب. الظاهر أنّه ليس هناك تعارض بين الإثنين، لأنّ هدف الرّواية الأولى أن تبيّن أنّ الكنز لم يكن دراهم ودنانير.

ولو فرضنا أنّنا التزمنا المعنى الظاهر لكلمة كنز، وفسرناه على أنّه كمية من الذهب، فإنّنا لا نواجه مشكلة أيضاً، لأنّ الكنز المحرم شرعاً هو أن يقوم الإنسان بتجميع وادخار أموال وثروة كبيرة لمدّة طويلة في حين أن المجتمع بحاجة إليها، ولكن لو قام أحد الأشخاص بدفن ماله ليوم أو عدّة أيام (كما هو المتعارف في الأزمنة السابقة بسبب عدم الأمن) ثمّ توفي هذا الشخص بسبب حادثة، فلا يوجد أي إشكال في مثل هذا الكنز.

٥ ـ دروس هذه القصّة:

هناك جملة دروس يمكن أن نستفيدها من القصّة، ويمكن لنا أن ندرجها كما يلي:

أ): أهمية العثور على قائد عالم والإستفادة من علمه، بحيث رأينا أنّ نبيّاً من أُولي العزم مثل موسى عليه السلام يسلك هذا الطريق الطويل، وقد بذل ما بذل لتحقيقه. وهذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم وفي أي عمر كانوا.

ب): جوهرة العلم الإلهي تنبع من العبودية لله تعالى، كما قرأنا في الآيات أعلاه في قوله تعالى: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

ج): يجب تعلم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السلام لصاحبه ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾. أي علمني عملاً يقربني من هدفي ومقصدي، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د): يجب عدم الإستعجال في الأعمال، إذ العديد من الأُمور تحتاج إلى الفرص المناسبة (الأُمور مرهونة بأوقاتها) خاصّة في القضايا المهمّة، ولهذا السبب، فإنّ الرجل العالم قد ذكر سرّ أعماله لموسى في الفرصة المناسبة.

هـ): الظاهر والباطن من المسائل المهمة الأُخرى التي نتعلمها من القصة، إذ يجب علينا أن لا نصدر أحكاماً سريعة تجاه الحوادث التي تقع في مجرى حياتنا

مما قد لا يعجبنا. إذ ما أكثر الحوادث التي نكرهها، ولكن يتّضح بعد مُدَّة أنّ هذه الحوادث لم تكن سوى نوع من الألطاف الخفية الإلهية. والقرآن يصرّح بمضمون هذه الحقيقة في قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

إنّ المستفاد من هذه القضية أن لا يُصاب الإنسان باليأس عندما تهجم عليه الحوادث، وفي هذا الصدد نقرأ في حديث طريف ينقله عبد الله بن المحدّث والفقيه المعروف زرارة بن أعين، ويقول فيه عبد الله: قال أبو عبد الله عليه السلام: «اقرأ مني على والدك السلام، وقل له: إنّي إنّما أعيبك دفاعاً منّي عنك، فإنّ الناس والعدوّ يُسارعون إلى كلّ من قرَّبناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى في مَن نحبه ونقرّبه، ويرمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منّا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله ويحمدون كل مَن عبناه نحن، فإنّما أعيبك لأنّك رجلٌ اشتهرت منّا، وبميلك إليها، وأنت في ذلك مذموم عند الناس غير محمود الأثر بمودّتك لنا ولميلك إلينا، فأحببت أن أُعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منّا دافع شرّهم عنك، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ هذا التنزيل من عند الله، صالحة، لا والله ما عابها إلّا لكي تسلم من الملك، ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة ليس للعيب فيها مساغ والحمد لله، فافهم المثل يرحمك الله، فإنك والله أحبّ الناس إليّ، وأحبّ أصحاب أبي حياً وميتاً، فإنّك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، وإن من ورائك ملكاً ظلوماً غصوباً يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد بحر الهدى ليأخذها غصباً، ثمّ يغصبها وأهلها ورحمة الله عليك حيّاً ورحمته ورضوانه عليك ميتاً»(١).

و): من دروس القصّة الإعتراف بالحقائق واتخاذ المواقف المطابقة لها، فعندما يختلف موسى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنّه لا يستطيع الإستمرار معه في الصحبة، وبالرغم من أنّ فراق هذا الأُستاذ كان أمراً صعباً على موسى عليه السلام، إلّا أنه عليه السلام لم يُكابر وأنصف العالم بإعطائه

(١) معجم رجال الحديث، ج٧، ص ٢٢٦.

الحق، وفارقه عن إخلاص بعد أن حصل على حقائق عظيمة وكنوز معنوية كبيرة من هذه الصحبة القصيرة.

يجب على الإنسان أن لا يستمر إلى آخر عمره في اختبار نفسه، بحيث تتحوَّل حياته إلى مُختبر للأمور المستقبلية التي قد لا تحصل أبداً، إذ عليه عندما يختبر موضوعاً ما عدّة مرّات، أن يلتزم العمل بنتائج الإختبار وأن يقتنع به.

ز): تأثير إيمان الآباء على الأبناء: لقد تحمّل الخضر مسؤولية حماية الأبناء في المقدار الذي كان يستطيعه، وذلك بسبب الأب الصالح المُلتزم. بمعنى أنّ الإبن يستطيع أن يسعد في ظل الإيمان وأمانه، والتزام الأب، وإنّ نتيجة العمل الصالح الذي يلتزمه الأب تعود على الإبن أيضاً.

وفي بعض الرّوايات نقرأ أنّ ذلك الرجل الصالح لم يكن الأب المباشر لليتامى، بل هو من أجدادهم البعيدين جداً. (وهكذا يكون للعمل الصالح تأثيره)[1]. وإنّ من علائم صلاح هذا الأب هو ما تركهُ من الكنوز المعنوية ومن الحِكَم لأبنائه.

ح): قصر العمر بسبب إيذاء الوالدين: عندما يطال الموت الإبن بسبب ما يلحقه من أذى بوالديه في مستقبل حياته، وبسبب ما يرهقهما به من أذى وطغيان وكفر، قد يحرفهم به عن الطريق الإلهي، كما رأينا ذلك في القصّة التي بين أيدينا، فإنّ الرّوايات الإسلامية تربط بين قصر العمر وترك صلة الرحم (وبالأخص أذية الوالدين وعقوقهما).

وينبغي هنا أن نستوعب الدرس على صعيد هذا الجانب من القصّة، إذ كان الولد يُقتل لما يحلقه بأبويه من ضرر وأذى في مستقبل حياته، تُرى فما حال الذي يمارس الأذى فعلاً بحق والديه ويرهقهما بالعقوق؟

ط): الناس أعداء ما جهلوا: قد يحدث أن يقوم شخص بالإحسان إلينا، إلّا أنّنا نتصوره عدوّاً لنا، لأنّنا لا نعرف بواطن الأمور، ونتسرع ونفقد الصبر، خصوصاً إزاء الأحداث والأمور التي نجهلها ولا نحيط بأسبابها علماً. من الطبيعي أن يفقد الإنسان صبره إزاء ما لا يحيط به علماً من الأحداث

(١) نور الثقلين، ج٣، ص٢٨٩.

والقضايا، إلّا أنّ الدرس المستفاد من القصّة هو أن لا نتسرع في إصدار الأحكام على مثل هذه القضايا حتى تكتمل لدينا الرؤية التي نحيط من خلالها بجوانب وزوايا الموضوع المختلفة.

ففي حديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نقرأ قوله ﷺ: «الناس أعداء ما جهلوا»[1]، لذا فإنّ كُلّما يرتفع الوعي لدى الإنسان فإنّ تعامله يكون أكثر منطقية، وبعبارة أُخرى إنّ أساس الصبر هو الوعي.

وكان لانزعاج موسى ﷺ ـ بالطبع ـ ما يبرره، إذ كان يرى تجاوزاً عن حدود الشرع في الأحداث التي وقعت على يد صاحبه بحيث تعرض القسم الأعظم للشريعة إلى الخطر، ففي الحادثة الأولى تعرضت مصونية أموال الناس إلى الخطر؛ وفي الثّانية تعرضت أرواحهم إلى خطر، أمّا في الثّالثة، فكان اعتراضه ينصب على ضرورة التعامل المنطقي مع حقوق الناس، لذلك فقد اعترض ونسي عهده الذي قطعه لصاحبه العالم، ولكن ما إن اطلّع على بواطن الأُمور هدأ وكفّ عن الإعتراض. وهذا الأمر يدل على أنّ عدم الاطلاع هو أمرٌ مقلق بحدّ ذاته.

ي): أدب التلميذ والأُستاذ: ثمّة ملاحظات لطيفة حول أدب التلميذ والأُستاذ ظهرت في مقاطع الحديث بين موسى ﷺ والرجل الرّباني العالم، فمن ذلك مثلاً:

١ ـ اعتبار موسى ﷺ لنفسه تابعاً للخضر قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾.

٢ ـ لقد أعلن موسى ﷺ هذا الإتباع على شكل استئذان فقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

٣ ـ إقراره ﷺ بعلم أُستاذه وبحاجته للتعلّم فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾.

٤ ـ وللتواضع فقد اعتبر علم أُستاذه كثيراً، وهو يطلب جانباً من هذا العلم، فقال: ﴿مِمَّا﴾.

٥ ـ يصف علم أُستاذه بأنّه علم إلهي فيقول: ﴿عُلِّمْتَ﴾.

٦ ـ يطلب من أُستاذه الهداية والرشاد فقال ﷺ: ﴿رُشْدًا﴾.

(١) نهج البلاغة، الحكمة رقم ٤٣٨.

٧ ـ يقول لأستاذه بشكل لطيف خفي، بأنّ الله قد تلطّف عليك وعلّمك، فتلطّف أنت عليّ، وحيث قال عليه السلام: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.

٨ ـ إنّ جملة ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ تكشف حقيقة أن يكون التلميذ في طلب أستاذه، وفي اتباعه، إذ ليس من وظيفة الأستاذ اتباع التلميذ إلّا في حالات وموارد خاصّة.

٩ ـ برغم ما كان يتمتع به موسى عليه السلام بمنصب كبير (حيث كان نبيّاً من أولي العزم وصاحب رسالة وكتاب) إلّا أنّه تواضع، وهذا يعني أنّك ومهما كنتَ وفي أي مقام أصبحت، يجب عليك أن تتواضع في مقام طلب العلم والمعرفة.

١٠ ـ إنّ موسى عليه السلام لم يذكر عبارة جازمة في معرض تعهده لأستاذه، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ وهذه الصيغة في التعبير مملوءة أدباً إزاء الخالق جلّ وعلا، وانجاه الأستاذ أيضاً، حتى إذا تخلّف عنها لا يكون ثمّة نوع من هتك الحرمة إزاء الأستاذ.

أخبار الغيب في الروايات

تنبؤات نبوية:

١ ـ تنبأ الرسول بغلبة المسلمين على كسرى وفتح كنوزه واستقرار السلام العام في مناطقهم وبيئاتهم. قال عُدي بن حاتم: بينا أنا عند النبي إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال يا عدي: هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلّا الله... ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله... قال عدي رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلّا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى[١]. رواه البخاري.

٢ ـ قد شكا خباب بن الأرت إلى النبي وكان هو يوسد بردة له في ظل الكعبة فقال له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا، فقال النبي مشيراً إلى ألوان التعذيب التي كانت تحل بالمؤمنين في الأمم السابقة، «والله لَيَتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من «صنعاء» إلى «حضرموت» لا يخاف إلّا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري وأبو داود في الجهاد وبهذا المضمون أحاديث كثيرة[٢].

٣ ـ تنبأ النبي بالمستقبل المظلم الذي يواجهه الخويصرة رئيس الخوارج والمارقين وهو الذي قال لرسول الله «اعدل» فقال رسول الله ويلك من يعدل إن لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أعدل فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله أتأذن لي فيه أضرب عنقه قال دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع

---

(١) راجع التاج، ج٣، ص٢٥٦.
(٢) راجع التاج، ج ٣، ص٢٥٧.

صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء[١] وللحديث صور أخرى نقلها في التاج[٢].

٤ ـ وقد تنبأ ﷺ بكذّاب ثقيف وقتال الروم وفتح القسطنطينية وغيره من علامات خروج المهدي وقد جمعها صاحب التاج في كتاب الفتن فراجع الجزء الخامس صفحة: ٢٩٦ ـ ٣٢٦، تجد فيها من التنبوءات ما لا يُحصى.

٥ ـ تنبأ رسول الله بقتل علي بسيف أشقى الأولين والآخرين وهو يبكي، فقال علي: يا رسول الله ما يبكيك فقال: يا علي ابكي لما يستحل منك في هذا الشهر كأني بك وأنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين شبقيّ عاقر ثمود فضربك ضربة على قرنك فخضّب منها لحيتك[٣] وهو أخبر في كلامه هذا عن عدة مغيبات من أنّ علياً لا يموت بحتف أنفه، بل يقتل في شهر رمضان، في حال الصلاة، بالسيف، ويصيب السيف بقرنه، وتخضب منها لحيته، وإنّ قاتله شقيق عاقر ثمود في الشقاء.

٦ ـ أخبر في غزوة تبوك عن موت أبي ذر وحده بفلاة من الأرض وذلك عندما أبطأ على أبي ذر بعيره فتركه وأخذ متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً ونزل رسول الله في بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال يا رسول الله إنّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر فقال رسول الله ﷺ رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

ولما سير عثمان أبا ذر إلى الربذة مات هناك ولم يكن معه إلّا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني، وكفناني ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق وقام إليهم الغلام فأخبرهم

---

(١) المصدر السابق، ج٥، ص٢٨٦، كتاب الفتن.

(٢) المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٥.

(٣) عيون أخبار الرضا، ج١، ص٢٩٧. تاريخ بغداد، ج١، ص١٣٥، الكامل للمبرد، ج٢، ص١٣٢، نهج البلاغة محمد عبده، الخطبة ١٥١.

بما أمر فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول صدق رسول الله تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال رسول الله في مسيره إلى تبوك[١].

٧ ـ وقد خاطب ﷺ عائشة بقوله: يا حميراء كأني بك تنبحك كلاب الحوأب تقاتلين علياً وأنت ظالمة، يا حميراء إيّاك أن تكوني أنت[٢].

٨ ـ كان رسول الله يحث أصحابه على نصرة أمير المؤمنين في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وقال أمير المؤمنين: أمرني رسول الله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين[٣].

٩ ـ تنبأ النبي بما يجري على الأمة من بني أُمية وقال: كما قال أبو ذر لعثمان سمعت رسول الله يقول إذا كملت بنو أُمية ثلاثين رجلاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دغلاً، فارتج الخليفة بسماعه فبعث إلى علي بن أبي طالب فأتاه فقال: يا أبا الحسن أسمعت رسول الله يقول ما حكاه أبو ذر وقص عليه الخبر فقال علي: نعم[٤].

يحدثنا التاريخ عن سيرة الخليفة في الغنائم والأموال وعن اقتناء جماعة من أصحاب الفتن الثورات من آل العاص وبني أُمية ضياعاً عامرة ودوراً فخمة وقصوراً شاهقة، وثروة طائلة، وأسس الخليفة حكومة أُموية قاهرة في الحواضر الإسلامية وسَلَّطهم على رقاب الناس وأولي الأمر، في المراكز الحساسة على أغلمة بني أُمية وشبابهم وأشياخهم ووطد لهم السُبُل وكسح عن مسيرهم العراقيل إلى غير ذلك من أحداث موبقة جرَّت الويلات على الأمة الإسلامية في أمصارها إلى أن قُتل من جرائها.

وإلى ذلك يشير النبي بقوله: سيكون أُمراء بعدي يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٥٢٣.
(٢) العقد الفريد، ج٢، ص٢٨٣، مستدرك الحاكم، ج٣، ص١٩٤.
(٣) تاريخ الخطيب، ج٨، ص٣٤٠ وغيره.
(٤) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٦٢، طبعة النجف وغيره من المصادر الوافرة.
(٥) مسند أحمد، ج١، ص٤٥٦.

١٠ ـ ما أخبر به عمار إذ دخل عليه وقد أثقلوه باللُّبن فقال يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون بقوله: ويح ابن سُمية ليسوا بالذين يقتلوك إنّما تقتلك الفئة الباغية، وأن آخر رزقك من الدنيا ضياح من لَبَن أو مذقة من لبن وقد طلب عمار شربة فأتي بشربة لبن، فقال إن رسول الله ﷺ قال: آخر شربة تشربها في الدنيا شربة لبن وشربها ثم قاتل حتى قتل(١).

١١ ـ تبنأ النبي بقتال الزبير مع أمير المؤمنين وقد برز عليّ، قبل وقوع الحرب يوم الجمل وأراد أن يستفتيه إلى طاعته، وقال ليبرز إليّ الزبير فبرز إليه مدججاً فقيل لعائشة قد برز الزبير إلى علي عليه السلام فصاحت وازبيراه فقيل لها لا بأس عليه منه، إنه حاسر، والزبير دارع، فقال له عليّ بعد كلام دار بينه وبين الزبير: ناشدتك الله أتذكر يوماً مررت بي ورسول الله ﷺ متكىء على يدك وهو جاء من بني عمرو بن عوف فسلم عليَّ وضحك في وجهي فضحكت إليه لم أزده على ذلك فقلت لا يترك ابن أبي طالب يا رسول الله زهوه فقال لك: مه إنه ليس بذي زهو أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم فاسترجع الزبير وقال لقد كان ذلك ولكن الدهر انسانيه...(٢).

١٢ ـ تنبأ النبي بقتال عليّ عليه السلام على تأويل القرآن، روى أبو سعيد قال كنا مع رسول الله ﷺ فانقطعت نعله فتخلف عليّ يخصفها «فمشى قليلاً ثم قال إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر قال أبو بكر يعني علياً فأتيناه فبشرناه فلم يرجع به رأسه كأنه قد سمعه من رسول الله ﷺ(٣).

١٣ ـ أخبر النبي بقتل كسرى وإنّ الله سلط ابنه «شيرويه» عليه، فقتله في شهر كذا وليلة كذا، وذلك عندما كتب كسرى إلى «باذان» وهو باليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فبعث باذان «بابويه» وكان كاتباً حاسباً ورجلاً آخر من الفرس فأعلما النبي بما قدما له فقال لهما رسول

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص٤٩٧، أسد الغابة، ج٤، ص٤٦.
(٢) مستدرك الحاكم، ج٣، ص٣٦٦.
(٣) مستدرك الحاكم، ج٣، ص٢٣.

الله إرجعا حتى تأتيا غداً فلما أتيا تنبأ بقتل كسرى وأمر بهما أن يقولا، لباذان «ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر»[١].

١٤ ـ تنبأ النبي بأنه لا ينقضي حتى يمضي فيهم إثنا عشر خليفة وقد روى حصين عن أبيه جابر بن مسرة قال: دخلت مع أبي على النبي سمعته يقول إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم إثنا عشر خليفة، قال ثم تكلم بكلام خفي عليَّ فقلت لأبي ما قال؟ قال: كلهم من قريش[٢].

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، مما يقف عليه المتتبع في مسانيد الحديث وصحاحه وجوامع التاريخ أتينا بها، ليكون القارىء على بصيرة من الأمر ولا يُصغي لدعوة العناصر المعاندة من رماة القول على عواهنه.

وأنت أيها القارىء الكريم، إذا درست حقيقة النبوة وما أكرم الله سبحانه به أنبيائه من نفسيات وملكات كالعصمة والقداسة الروحية والنزاهة النفسية، والعلم الذي لا يضلون معه في شيء، إلى كثير من كرائم وفضائل، حتى جعلهم أكمل البشر خُلقاً وخَلقاً، وأصدقهم قولاً، وأحاطهم بالرعاية، وشملهم بالعناية، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه الأكرم: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، لوقفت أن التنبؤ بالغيب والاخبار عن غابر الحوادث وطارئها ليس أمراً عجيباً في جنب ما منح الله لهم من عظائم المواهب، وكرائم الفضائل.

فعند ذاك فلا غرو فيما أخبروا عن غابر الأمور وطارئها مما نقلناه وما لم نقله فإنّ النبوة منصب إلهي خطير لا يستحقه إلى الأمثل فالأمثل من الناس وأفضلهم وأجمعهم للكمالات وأعلمهم بالحقائق والأمور، ممن شملته العناية الإلهية وتعلم منه ما لم يكن يعلمه هو ولا قومه كما قال ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

وقال سبحانه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] فعند ذاك فلا عجب إذا

---

(١) الطبقات الكُبرى، ج١، ص٢٦٠، وتاريخ الكامل، ج٢، ص١٤٦، السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٧٨.
(٢) صحيح مسلم، ج٢، ص١٩١، ورواه غيره بصورة متقاربة.

أخبروا بغابر الأمور وطارئها، أو بكل ما كان وما يكون من الحوادث بإذن من الله سبحانه فـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

تنبؤات علوية:

هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صنو النبي، وباب علمه، ووارثه قد تنبأ بملاحم أحداث وفتن في حياته وأيام إمارته أخذها من منهلها العذب ونميرها الصافي، فصدق الخبر الخبر، فتحقق بعضها بعد مئات السنين، ولم يكن تنبؤ الوصي عن تكهن وتخرص ولا عن فراسة ومحاسبات عادية، وشتان بين تخرص متخرص، أو كهانة متكهن، أو تفرس متفرس، وما تنبأ به الوصي على صهوات المنابر في الحواضر الإسلامية وميادين الحروب الطاحنة وأندية الوعظ والتبليغ معلناً بأنّ ما ذكره وِراثة عن رسول الله ﷺ وعلم وصل إليه منه، ودونك نماذج مما وقفنا عليه:

قام خطيباً في البصرة مخاطباً أهلها الناكثين عندما وضعت الحرب أوزارها وقال:

١ ـ كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها[١].

وقد وقع المخبر به، فإن البصرة غرقت مرتين في أيام القادر بالله، ومرة في أيام القائم بأمر الله، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع، بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر ـ حسب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام فقد جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها، وغرق كل ما في ضمنها، وهلك كثير من أهلها[٢].

٢ ـ قوله: وكأني وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم، ولا حمحمة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم، كأنّها أقدام النعام[٣].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١، ص٢٥٣.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٤، قال الشريف الرضي: يومي بذلك إلى صاحب الزنج، وقد ذكر أخباره الطبري في تاريخه، ج٣، ص١٧٤٣، طبع أوروبا، والمسعودي في مروج الذهب، ج٤، ص١٩٤، ونقله الشارح المعتزلي في شرح نهج البلاغة، ج٨، ص١٢٦ ـ ٢١٤.

٣ ـ قوله: وكأني أراهم قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة، يلبسون السرق والديباج، يعتقبون الخيل العتاق، ويكون هناك استحرار قتل، حتى يمشي المجروح على المقتول، ويكون المفلت، أقل من المأسور[١].

يومي به إلى فتنة التتار وجيشه العرمرم الذي أعده رئيسها لغزو المسلمين وهدم بلادهم ونهب أموالهم وقتل صغيرهم وكبيرهم، وقد ذكر ابن الأثير، هذه الحادثة المؤلمة في تاريخه(في حوادث سنة ٦١٧ وما بعدها ج٩، ص٣٢٩ ـ ٣٨٧).

وقال في أولها: ولقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً، وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه، أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ من ذا الذي يهون عليه ذكره، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسيا، إلا أنه حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً.

وقد نقل الشارح الحديدي ج٨، ص٢١٨ ـ ٢٤١، إجمال هذه الملحمة أيضاً فراجع.

٤ ـ ومثل أخباره عما يجري بعد وفاته على الأمة وتعرفهم على شخصيته البارزة بعد ما كانت مجهولة كقوله: «غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيره مقامي»[٢].

٥ ـ ومثل أخباره عن ملك بني أمية وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم في الأرض حيث قال: «فأقسم ثم أقسم لَتَنْخَمَنَّهَا[٣] أمية من بعدي كما تلفظ النخامة ثم لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ما كرَّ الجديدان»[٤].

٦ ـ وقوله مخبراً عن تسلط معاوية على العراق وإلزامه الناس بسبّ عليّ عليه السلام والبراءة منه كما يقول: «أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٤.

(٢) نهج البلاغة، طبعة محمد عبده، الخطبة ١٤٥.

(٣) نخم ـ كفرح ـ أخرج النخامة من صدره فألقاها، والنخامة بالضم ما يلفظه الصدر أو الدماغ من المواد المُخاطية.

(٤) نهج البلاغة، طبعة محمد عبده، الخطبة ١٥٣.

البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه، ألا وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني، أما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة وأما البراءة فلا تتبرأوا مني فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة»[١].

قال الشارح الحديدي: وكثير من الناس يذهب إلى أنه ﷺ عنى زياداً وكثير منهم يقول أنه عنى الحجاج وقال قوم إنه عنى المغيرة بن شعبة والأشبه عندي معاوية لأنه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل وكان بطيناً يقعد بطنه إذا جلس على فخذيه ـ إلى أن قال: ـ وتظافرت الأخبار بأن رسول الله ﷺ دعا على معاوية لما بعث إليه يستدعيه فوجده يأكل ثم بعث فوجده يأكل فقال اللَّهم لا تشبع بطنه وقال الشاعر:

وصاحب لي بطنه كالهاويه كأن في أحشائه معاويه[٢]

٧ ـ ما يومي إلى سلطة الحجاج: لو تعلمون ما أعلم مما طوى عنكم غيبه إذاً لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم وتندمون على أنفسكم، إلى أن قال: أما والله ليسلطن عليكم غلام ثقيف الذيال الميال، يأكل خضركم ويذيب شحمتكم إيه أبا وذحة[٣].

٨ ـ تنبأ بما ستلقى الأمة من مروان وولده بقوله: «لما أخذ مروان أسيراً يوم الجمل»، «أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه»[٤]، وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر[٥]، وفسروا الأكبش الأربعة بولد عبد الملك بن مروان وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام الذين سودوا تاريخ الخلافة بل تاريخ الإنسانية بجناياتهم الموبقة وخزاياتهم المهلكة.

٩ ـ هذا «عرفة» الأزدي وهو من أصحاب النبي و«الصفة» وقد دعا له النبي

---

(١) نهج البلاغة، طبعة محمد عبده، الخطبة ٥٥.

(٢) الشرح الحديدي، ج٤، ص٥٤ ـ ٥٥.

(٣) نهج البلاغة، طبعة محمد عبده، الخطبة ١١٢، الوذح ما يتعلق بذنب الشاة من البعار فيجف، والمراد هنا الخنفساء وقد لسعت يد الحجاج فورمت يده وأخذته حمى من اللسعة فأهلكته ولا يخفى أن في هذا الكلام القصير تنبوءات.

(٤) تصوير عن تقصر مدتها، وكانت تسعة أشهر، وهذا تنبؤ آخر.

(٥) نهج البلاغة، طبعة محمد عبده، ص٧٠.

أن يبارك له في صفقته يقول: دخلني شك في شأن علي عليه السلام فخرجت معه على شاطىء الفرات، فعدل عن الطريق ووقف ووقفنا حوله فقال مشيراً بيده هذا موضع رواحلهم، ومناخ ركابهم، ومهراق دمائهم بأبي من لا ناصر له في الأرض ولا في السماء إلّا الله، فلما قتل الحسين، خرجت حتى أتيت المكان الذي قتلوا فيه، فإذا هو الحال ما أخطأ شيئاً قال: فاستغفرت الله مما كان من الشك وعلمت أن علياً عليه السلام كان على حق لم يقدم إلّا بما عهد إليه منه[1].

١٠ ـ ما تنبأ به عليه السلام عندما عزم على حرب الخوارج، قيل له: إن القوم قد عبروا جسر النهروان قال: مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة.

قال الرضي: معنى النطفة ماء النهر وهي أفصح كناية عن الماء وقال الشارح الحديدي: هذا الخبر من الأخبار التي تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس كافة له وهو من معجزاته وأخباره المفصلة عن الغيوب.

والأخبار على قسمين:

أحدهما: الأخبار المجملة لا إعجاز فيها: نحو أن يقول الرجل لأصحابه: إنكم ستنصرون على هذه الفئة التي تلقونها غداً، فإن نصر، جعل ذلك حجة له عند أصحابه وسماها معجزة، وإن لم ينصره قال: تغيرت نياتكم وشككتم في قولي، فمنعكم الله نصره ونحو ذلك من القول، ولأنه قد جرت العادة على أن الملوك والرؤساء يعدون أصحابهم بالظفر والنصر، ويمنونهم الدول، فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على اخبار عن غيب يتضمن إعجازاً.

والقسم الثاني: في الأخبار المفصلة عن الغيوب، مثل هذا الخبر، فإنه لا يحتمل التلبيس، لتقييده بالعدد المعين في أصحابه وفي الخوارج ووقوع الأمر بعد الحرب بموجبه، من غير زيادة ولا نقصان وذلك أمر إلهي عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جهة الله سبحانه، والقوة البشرية تقصر عن إدراك مثل هذا، ولقد كان له من هذا الباب ما لم يكن لغيره.

وبمقتضى ما شاهد الناس من معجزاته، وأحواله المنافية لقوى البشر غلا

---

(١) أسد الغابة، ج٤، ص١٦٩.

فيه من غلا، حتى نسب إلى أن الجوهر الإلهي حل في بدنه كما قالت النصارى في عيسى عليه السلام وقد أخبره النبي ﷺ بذلك فقال: «يهلك فيك رجلان محب غال ومبغض قال».

وقال له تارة أُخرى: «والذي نفسي بيده لولا أني أشفق أن تقول طوائف من أُمتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمر بملإ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة»[١].

ثم قال: «واعلم أنَّا ننكر أن يكون في نوع من البشر أشخاص يخبرون عن الغيوب ولكن كل ذلك مستند إلى الباري سبحانه بأقداره وتمكينه وتهيئة أسبابه فإن كان المُخبِرُ عن الغيوب ممن يدعي النبوة، لم يجز أن يكون ذلك إلا بإذن الله سبحانه، وتمكينه، وأن يريد به تعالى استدلال المكلفين على صدق مدعي النبوة.

وأما إذا لم يكن المُخبر عن الغيوب مدعياً للنبوة نظر في حاله، فإن كان ذلك من الصالحين الأتقياء نسب ذلك إلى أنه كرامة أظهرها الله تعالى على يده إبانة له وتميزاً عن غيره، كما في حق علي عليه السلام وإن لم يكن كذلك أمكن أن يكون ساحراً أو كاهناً، أو نحو ذلك.

وبالجملة فصاحب هذه الخاصية أفضل وأشرف ممن لا يكون فيه من حيث اختصاصه بها فإن كان للإنسان العاري منها مزية أُخرى يختص بها توازيها أو تزيد عليها فنرجع إلى التمثيل والترجيح بينهما وإلا فالمختص بهذه الخاصية أرجح وأعظم من الخالي منها على جميع الأحوال[٢].

١١ ـ لما قَتَلَ الخوارج وقيل له: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم فأجابهم: «كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء[٣] كلما نجم منهم قرن، قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً سلَّابين»[٤].

قوله عليه السلام: «كلما نَجَمَ منهم قرن قطع»، استعارة حسنة، يريد: كلما ظهر منهم قوم استؤصلوا فعبَّر عن ذلك بلفظة «قرن» كما يقطع قرن الشاة إذا نجم وقد

---

(١) شرح النهج ابن أبي الحديد، ج٥، ص٤.
(٢) شرح النهج ابن أبي الحديد، ج ٥ ص١٢ ـ ١٣.
(٣) قرارات النساء، كناية عن الأرحام.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٥٩.

صح إخباره ﷺ أنهم لم يهكلوا بأجمعهم في وقعة النهروان، وإنها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد، وهكذا وقع وصح إخباره ﷺ أيضاً أنه سيكون آخرهم لصوصاً سلابين فإن دعوة الخوارج اضمحلت ورجالها فنيت حتى أفضى الأمر إلى أن صار خلفهم قُطّاع طريق متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض.

وممن انتهى أمره منهم إلى ذلك الوليد بن طريف الشيباني في أيام الرشيد بن المهدي فأشخص إليه يزيد بن مزيد الشيباني فقتله وحمل رأسه إلى الرشيد.

ثم خرج في أيام المتوكل، ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة فقطع الطريق وأخاف السبيل، وتسمى بالخلافة، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي.

وقد خرجت بعد هذين جماعة من الخوارج، وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم وإنما وكدهم وقصدهم إخافة السبيل والفساد في الأرض واكتساب الأموال من غير حلها[1].

١٢ ـ وقد أماط الإمام الستر عن وجه الحقيقة وعن كمية علمه وكيفيته في بعض خطبه وأقسم فيه بالله الذي نفسه بيده، أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلا أخبرهم به وأنه ما صح من طائفة من الناس، يهتدي بها مائة وتضل بها مائة إلّا وهو مخبر لهم إن سألوه برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت منها موتاً حيث قال بعد أن فرغ من قتال الخوارج: «أيها الناس فإني فَقأْتُ عين الفتنة ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها، واشتد كلبها.

فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده، لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة، وتضل مائة، إلّا أنبأتكم[2] بناعقها وقائدها، وسائقها، ومناخ ركابها، ومحط رجالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً، ومن يموت موتاً.

ولو قد فقدتموني ونزل بكم كرائه الأمور، وحوازب الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين، وذلك إذا قلصت حربكم،

---

(١) الشرح الحديدي، ج٥، ص٧٣ ـ ٧٧.
(٢) مخطوطة النهج، «نبأتكم».

وشمرت عن ساق، وكانت الدنيا عليكم ضيقاً تستطيلون أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم.

إن الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت، ينكرن مقبلات، ويعرفن مدبرات، يحمن حول الرياح، يصبن بلداً، يخطئن بلداً.

ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم، فتنة بني أُمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة! عمت خطتها، وخصت بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها.

وأيم الله لتجدن بني أُمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس، تعذم بفيها، وتخبط بيدها، وتزبن برجلها، وتمنع درها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم، إلا نافعاً لهم، أو غير ضائر بهم.

ولا يُزال بلاؤهم عنكم، حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه، والصاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية، وقطعاً جاهلية، ليس فيها منها منار هدى ولا علم يُرى.

نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة، ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم، بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عنفاً. ويسقيهم بكأس مصبرة لا يعطيهم إلا السيف، ولا يجلسهم إلا الخوف، فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزور، لا قبل منهم ما أطلب اليوم بعضه، فلا يعطونيه»[1]

قال ابن أبي الحديد: ولقد امتحنا أخباره فوجدناها موافقة، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كإخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه ﷺ، وما قاله في كربلاء حيث مرَّ بها، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده وإخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٨٩، قال الشارح الحديدي: وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير، وهي متداولة مستفيضة، خطب بها عليّ ﷺ بعد انقضاء أمر النهروان وفيه ألفاظ لم يوردها الرضي من ذلك قوله: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإني ميت عن قريب أو مقتول، بل قتلا، ما ينتظر أشقاها، أن يخضب هذه بدم» وضرب بيده إلى لحيته. لاحظ شرح نهج البلاغة ج٧، ص٥٧.

شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزبير وقوله فيه: «خب ضب، يروم أمراً ولا يدركه، ينصب حبالة الدين لاصطياده الدنيا وهو بعد مصلوب قريش».

وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة أخرى بالزنج وهو الذي صحفه قوم فقالوا: بالريح، وكإخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق، (بتقديم المهملة) وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده إسحاق بن إبراهيم وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية وكإخباره عن الأئمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي وغيرهما في قوله عليه السلام: «وإن لآل محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله» وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة[1]: «يقتل بعد أن يظهر، ويقهر بعد أن يقهر» وقوله أيضاً: «يأتيه سهم غَرب[2] يكون فيه منيته فيا بؤساً للرامي شلت يده ووهن عضده» وإخباره عن قتلى «وج» وقوله فيهم: «هو خير أهل الأرض».

وكإخباره عن المملكة العلوية بالغرب، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الداعي المعلم وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي: وهو أولهم ثم يظهر صاحب القيروان الغض البض، ذو النسب المحض، المنتجب من سلالة ذي البداء، المسجى بالرداء، وكان عبيد الله المهدي أبيض مترفاً مشرباً بحمرة رخص البدن، تار[3] الأطراف، وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام وهو المسجى بالرداء لأن أباه أبا عبد الله جعفر أسجاه بردائه لما مات، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبه في أمره.

وكإخباره عن بني بويه وقوله فيهم: «ويخرج من ديلمان بنو الصياد» إشارة إليهم وكان أبوهم صياد السمك، يصيد منه بيده ما يتقوت هو وعياله بثمنه،

---

(١) قال في مفاهيم القرآن: كذا في النسخة وكتب البنا المحقق الشيخ محمد تقي التستري أن الصحيح «بباخمرى».

(٢) سهم غبر، أي لا يدري راميه.

(٣) التار: الممتلىء جسمه وعظمه رياً.

فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة، ونشر ذريتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم، وكقوله ﷺ فيهم: «ثم يستشري أمرهم حتى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء» فقال له قائل: فكم مدتهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: «مائة أو تزيد قليلاً»، وكقوله فيهم: والمترف ابن الأجذم، يقتله ابن عمه على دجلة وهو إشارة إلى عز الدولة بختيار بن معز الدولة أبي الحسين، وكان معز الدولة أقطع اليد، قطعت يده للنكوص في الحرب، وكان ابنه عز الدولة بختيار، مترفاً صاحب لهو وشرب، وقتله عضد الدولة فنا خسرو، ابن عمه، بقصر الجص على دجلة في الحرب، وسلبه ملكه: فأما خلعهم للخلفاء فإن معز الدولة خلع المستكفي ورتب عوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة، خلع الطائع ورتب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما أخبر ﷺ.

وكإخباره ﷺ لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى، عن انتقال الأمر إلى أولاده فإنَّ علي بن عبد الله لما ولد، أخرجه أبوه «عبد الله» إلى علي ﷺ فأخذه وتفل في فيه وحنكه بتمرة، قد لاكها،ودفعه إليه وقال: خذ إليك أبا الأملاك، هكذا الرواية الصحيحة وهي التي ذكرها أبو العباس المبرد في «كتاب الكامل»[1] وليس الرواية التي يذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه.

وكم له من الأخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى، مما لو أردنا استقصاءه لكرسنا له كراريس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة[2].

١٣ ـ قوله ﷺ في خطبة تُسمى القاصعة... ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست نبي ولكنك وزير[3].

---

(١) الكامل٢: ٢١٧.

(٢) شرح النهج، ج٧، ص٤٨ ـ ٥٠.

(٣) نهج البلاغة، طبعة محمد عبده، ج٢، ص١٨٢ ـ ١٨٣.

قال الشارح الحديدي: روي عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: كان علي عليه السلام يرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الأصوات وقال له صلى الله عليه وآله «لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة، فإن لا تكن نبياً فإنك وصيّ نبي ووارثه بل أنت سيد الأوصياء وإمام الأتقياء»[1].

ولا دليل على حمل قوله: «إنك تسمع ما أسمع» على سماع خصوص رنة الشيطان بل هو ظاهر في العموم حسب ما يظهر من الإمام الصادق عليه السلام.

١٤ ـ مثل إخباره عن فتنة صاحب الزنج، وهو علي بن محمد بن عبد الرحيم من بني عبد القيس حيث جمع الزنوج الذين كانوا يسكنون السباخ في نواحي البصرة وخرج منهم على المهتدي العباسي في سنة خمس وخمسين ومائتين واستفحل أمره وانتشر أصحابه في أطراف البلاد للسلب والنهب، إلى أن قتله الموفق أخو الخليفة المعتمد سنة سبعين ومائتين.

«فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزمومة مرحولة يحفزها قائدها ويجهدها راكبها أهلها قوم شديد كلبهم قليل سلبهم يجاهدهم في سبيل الله قوم أذلة عند المتكبرين، في الأرض مجهولون وفي السماء معروفون فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حس وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر»[2].

قال الشارح الحديدي فسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزنج وهو بعيد لأن جيشه كان ذا حس ورهج، ولأنّه إنذار البصرة بهذا الجيش ألا تراه قال: «فويل لك يا بصرة» ولم يكن قبل خروج صاحب الزنج فتن شديدة على الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام[3].

هذه أربعة عشر خبراً غيبياً من روائع نصوص الإمام علي وقوفه على ما غاب عن الحس بإذن من الله سبحانه. وقد نقل الشارح الحديدي كثيراً من أخباره الغيبية في أجزاء كتابه، وقد نقلنا بعضها فيما تقدم فلاحظ بعضها في

---

(١) الشرح الحديدي، ج١٣، ص٢١٠.
(٢) نهج البلاغة، طبعة محمد عبده، الخطبة ٩٨.
(٣) شرح النهج، ج٧، ص١٠٤.

الجزء الثاني من شرحه ص٢٨٦ ـ ٢٩٥ ترى فيه أخباراً غيبية كثيرة كيف وقد روي عنه ﷺ إخبارات غيبية مبشوشة في كتب الحديث والتاريخ بحيث لو جمعها جامع لخرج بسفر جليل وضخم وفيما نقلناه كفاية للقارىء الكريم. (مفاهيم القرآن).

عثرة لا تقال:

قال في مفاهيم القرآن: هذا هو الحق الذي أحق أن يتبع، وقد صدقه كتاب الله العزيز وأيدته النصوص المستفيضة وأطبقت عليه الأعلام في العصور الحديثة.

غير أن هذه المسألة قد أثارت في عصرنا قلقاً واضطراباً في الأوساط الدينية فحامت حولها الشُبهات، واكتنفتها أجواء تثير السخط والإستياء، من أناس ابتلوا بعقدة النقص أو جنون العظمة، مع أن كتاب الله بين ظهرانيهم والنصوص المتضافرة بين أيديهم، فلو رجعوا إلى ذينك المصدرين، بقلب سليم وفكر مستقيم لعرفوا الحق واتبعوه، والحق أحق أن يتبع.

وقد وقفت بعدما كتبت هذا الفصل على «كتيب» لبعض من يضمر لأئمة أهل البيت حقداً وعداءً، ويحارب كل فضيلة تثبتها النصوص لهم، ويمتلىء صدره بالتعصب المقيت وقد أعاد فيه ما ذكره ابن تيمية ونظراؤه من الذين أكل عليهم الدهر وشرب حيث أنكر علم النبي وأوصياءه بالغيب على وجه الإطلاق وعزاه إلى جمهور الإمامية وفطاحلهم، قائلاً بأن فكرة علمهم بالغيب، أسطورة حدثت في الآونة الأخيرة بيد الغلاة. واستشهد على ذلك بما ذكره أمين الإسلام في كتابه، حيث قال في تفسير قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وذكر الحاكم أبو سعيد في تفسيره: إنها تدل على بطلان قول الإمامية: إن الأئمة يعلمون الغيب وأقول إن هذا القول ظلم منهم لهؤلاء القوم، فإنا لا نعلم أحداً منهم بل أحداً من أهل الإسلام يصف أحداً من الناس بعلم الغيب ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين، والشيعة الإمامية برآء من هذا القول ومن نسبهم إلى ذلك فالله ما بينه وبينهم[١].

---

(١) مجمع البيان، ج٢، ص٢٦١ طبعة صيدا.

غير أنه عزب عن هذا المسكين أن ما ذكره «أمين الإسلام» لا يمثل رأي الشيعة الإمامية في الموضوع، وإنما هو رأي واحد منهم ولا يمثل رأي الجميع ولا يؤخذ الجميع بفعل الواحد ورأيه.

أضف إلى ذلك أن ما ذكره أمين الإسلام لا يهدف إلا إلى ما ذكرناه وأن الممنوع توصيفهم باطلاعهم على الغيب على غرار علمه سبحانه بشهادة قوله: «ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين» إذ أي صلة بين مفارقة الدين والقول بأن الله سبحانه أظهر غيبه لأحد أوليائه، واطلع هو على الغيب من تلك الناحية وتعرف بتعليم منه سبحانه.

ولو رجع الكاتب إلى موضع آخر من كتابه ولم يقصر نظره على موضع واحد منه، لوقف على مغزى ما رامه فإنه قدس الله سره قد حقق المسألة في موضع آخر من كتابه.

قال في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]. ما هذا لفظه: وجدت بعض المشايخ ممن يتسم بالعدوان والتشنيع، قد ظلم الشيعة الإمامية في هذا الموضع من تفسيره، فقال: «هذا يدل على أن الله سبحانه يختص بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرافضة: إن الأئمة يعلمون الغيب» ولا شك أنه عنى بذلك من يقول بإمامة الإثني عشر ويدين بأنهم أفضل الأنام بعد النبي ﷺ فإن هذا دأبه وديدنه فيهم، يشنع في مواضع كثيرة من كتابه عليهم، وينسب الفضائح والقبائح إليهم، ولا نعلم أحداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق، فإنما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد، وهذه صفة القديم سبحانه، العالم لذاته لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين، ومن اعتقد غير الله سبحانه يشاركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملة الإسلام.

فأما ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ورواه عنه الخاص والعام من الاخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها مثل قوله وهو يومي به إلى صاحب الزنج: كأني يا أحنف وقد سار بالجيش الذي ليس له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم، ولا حمحمة خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام.

وقوله يشير إلى مروان أما أن له إمرة كلعقة الكلب أنفه وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقى الأمة منه ومن ولده موتاً أحمر وما نقل من هذا الفن عن أئمة الهدى ﷺ من أولاده مثل ما قاله أبو عبد الله ﷺ لعبد الله بن الحسن وقد اجتمع هو وجماعة من العلوية والعباسية ليبايعوا ابنه محمداً والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ولكنها لهم وأشار إلى العباسيين وان ابنيك لمقتولان ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال له أرأيت صاحب الرداء الأصفر يعني أبا جعفر المنصور قال نعم فقال: أنا والله نجده يقتله فكان كما قال.

ومثل قول الرضا ﷺ بورك قبر طوس وقبران ببغداد فقيل له قد عرفنا واحداً فما الآخر، قال: ستعرفونه ثم قال: قبري وقبر هارون هكذا وضم اصبعيه[١].

وقوله في القصة المشهورة لأبي حبيب النباحي وقد ناوله قبضة من التمر لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك وقوله من حديث علي بن أحمد الوشاء حين قدم مرو من الكوفة «معك حلة في السفط الفلاني دفعتها إليك ابنتك وقالت اشتر لي بثمنها فيروزجاً» والحديث مشهور إلى غير ذلك مما روي عنهم ﷺ. فإن ذلك متلقى عن النبي ﷺ مما أطلعه الله عليه فلا معنى لنسبة من روى عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنه يعتقد كونهم عالمين بالغيب وهل هذا إلا سبٌّ قبيح وتضليل لهم بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذاهب خبير والله يحكم بينه وبينهم وإليه المصير»[٢].

(١) نظير قوله لموسى بن مهران في مسجد المدينة عندما كان هارون يخطب: أترونني وإياه ندفن في بيت واحد. عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٢٢٦.

(٢) مجمع البيان، ج٣، ص٢٠٥.

مواهب الخالق في القرآن

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

التّفسير

أمع كلّ هذه الأدلّة ما تزالون مشركين؟!

في آخر آية من آيات البحث السابق، وبعد ذكر جوانب مثيرة من حياة خمسة أنبياء عظام، أُلقي هذا السؤال الوجيز المتين ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]؟!

أمّا في الآيات محل البحث فتفصّل السؤال... وتُوجّهُ للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشركين وتحاكمهم، وتكشف دلائل التوحيد في الآيات الخمس في إثني عشر مثلاً!

فالآية الأُولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السموات والأرض، ونزول الماء من السماء والبركات الناشئة عنه، فتقول: هل أنَّ معبوداتكم

أفضل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[1][2].

«الحدائق» جمع «الحديقة»، وهي كما يقول كثير من المفسّرين: البستان الذي يحيطه أو الحائط، ومحفوظ من جميع الجهات، ومنها سُمّيت حدقة العين لأنّها محفوظة في الجفنين والهدب، أمّا الراغب فيقول في المفردات: إنّ الحديقة تطلق في الأصل على الأرض المجتمع فيها الماء، كما أنّ حدقة العين فيها الماء دائماً.

ويستفاد من مجموع هذين الرأيين أن الحديقة بستان له جدار وماء كاف.

و«البهجة» على وزن (لَهْجَة) معناها الجمال وحسن الظاهر الذي يسر الناظرين.

ويتوجه الخطاب نحو العباد في ختام الآية فيقول: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾.

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور وتسقوا الأرض، لكن الذي جعل الحياة في قلب البذرة، وأمر الشمس أن تشرق على الأرض، والماء ينزل من السماء حتى تنبت البذرة فتكون شجراً، هو الله فحسب.

فهذه الحدائق لا يمكن إنكارها، ولا أن تنسب لغير الله... فهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي أنزل الغيث من السماء، وهو مبدأ هذه البهجة والحسن والجمال في عالم الحياة!

إنّ مجرّد التأمل في لون الزهرة الجميلة، وأوراقها اللطيفة المنظمة التي تشكل حلقةً رائعة... كاف أن يجعل الإنسان عارفاً بعظمة الخالق وقدرته وحكمته... فهذه الأمور تهز قلب الإنسان وتدعوه إلى الله.

---

(١) كلمة (ذات) في «ذات بهجة» جاءت مفردة، مع أن حدائق جمع وهي موصولة، وذلك لأنّ الحدائق جمع تكسير، وجمع التكسير قد يأتي أحياناً بمعنى الجماعة، وهي ـ أي لفظة الجماعة ـ مفردة وصفتها مفردة أيضاً...

(٢) هذه الآية في الحقيقة فيها حذف وتقديره: ما يشركون خير أم خلق السموات والأرض؟ وفي الحقيقة إنّ السؤال في الآية السابقة كان هكذا: الله خير أم الشركاء؟ وهنا يبدأ السؤال بالعكس: ما يشركون خير أم مَنْ خلق السموات والأرض.

وبتعبير آخر فإنّ التوحيد في الخلق يؤدي إلى «توحيد الخالق»، والتوحيد في الربوبيّة «توحيد مدبّر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة»!

ولذلك فالقرآن يقول في نهاية الآية: ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ ولكن هؤلاء جهلة عدلوا عن الله وعبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1].

قال في الميزان: معنى الآية: «بل أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم أي لنفعكم من السماء (وهي جهة العلو) ماء وهو المطر، فأنبتنا به (أي بذلك الماء) بساتين ذات بهجة ونضارة ما كان لكم (أي لا تملكون، وليس بقدرتكم) أن تنبتوا شجرها أإله آخر مع الله سبحانه) وهو إنكار وتوبيخ».

والسؤال الثّاني بحث عن موهبة استقرار الأرض وثباتها، وأنّها مقر الإنسان في هذا العالم، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾[2] كما تحافظ على القشرة الأرضية من الزلازل، كما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ ومانعاً من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

وهكذا ورد في هذه الآية ذكر أربع موهبات عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض فتقول:

إنّ استقرار الأرض في الوقت الذي تتحرك بسرعة وتدور حول نفسها وحول الشمس، وتتحرك في المنظومة الشمسية حركة هادئة وفي وتيرة واحدة، إلى درجة أنّ سكّانها لا يحسّون بحركتها أبدا... فكأنّها أوتدت في مكان واحد! وبقيت ثابتة فلا يُرى فيها أقلّ حركة.

والموهبة الأُخرى وجود الجبال، التي قلنا عنها سابقاً أنّها تُحيط بالأرض، وجذورها متصلة بعضها ببعض كالحاجز القوي الذي يقاوم الضغوط الداخلية للأرض، وحركات الجزر والمدّ اللّذين يحصلان بسبب جاذبية القمر، كما أنّها تعتبر مانعاً أمام الأعاصير والسيول من أن تُدمّر الأرض بطغيانها!

والموهبة الأُخرى الحجاب الحاجز بين البحرين، والحائل الطبيعي الذي

---

(١) قد يكون (يعدلون) من مادة (العدول) أي الإنحراف والرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنه مادة (عِدْل) على وزن (قِشر) ومعناه المعادل والنظير... ففي الصورة الأولى مفهوم الآية أنّهم ينحرفون عن الله الواحد إلى غيره، وفي الصورة الثّانية مفهوماً أنّهم يجعلون له عديلاً.

(٢) «الخلال» في الأصل معناه الشق بين الشيئين، و«الرواسي» جمع «راسية»، وهي الثابتة.

يحول بين الماء المالح والماء العذب، وهذا الحجاب ـ غير المرئي ـ هو الإختلاف في درجة الغلظة بين الماء العذب والماء المالح، أو كما يصطلح عليه اختلاف «الوزن النوعي» الخاص الذي يسبب عدم انحلال مياه الأنهار العظيمة العذبة التي تنصب في البحار المالحة لمدّة طويلة، وعند حالة «المدّ» تتمدد هذه المياه العذبة على السواحل الصالحة للزراعة فتسقيها.

وفي الوقت ذاته جعل الله خلال أجزاء الأرض المختلفة أنهاراً تسقي المزارع والأحياء... فتخضرّ البساتين وتثمّر الأشجار وبعض مصادر هذه المياه تكمن في قمم الجبال... وبعضها بين الطبقات الأرضيّة!

وفي الميزان: والمعنى: «بل أمَّن جعل الأرض مستقرة لا تميد بكم، وجعل في فرجها التي في جوفها أنهاراً، وجعل لها جبالاً ثابتة، وجعل بين البحرين مانعاً من اختلاطهما وامتزاجهما هو خير أم ما يشركون؟».

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد وُلد عن طريق الصدفة العمياء الصمّاء، والمبدأ الفاقد للعقل والحكمة؟! وهل للأصنام تأثير في هذا النظام البديع المثير للدهشة؟!

حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الدعاء! لذلك يكرر القرآن في ختام الآية هذا السؤال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟! حاش لله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

السؤال الثّالث من هذه الأسئلة الخمسة التي تحكي عن محاورة ومحاكمة معنوية يتحدث عن حلّ المشكلات، وفتح الطرق الموصدة، وإجابة الدعاء، إذ تقول الآية التالية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

أجَلْ... عندما تُغلق جميع أبواب عالَم الأسباب بوجه الإنسان، ويبلغ النصل إلى العظم، ويغدو مضطراً حيراناً لا حيلة له، فإنّ الذي يحلّ المعضلة، ويفتح الأقفال، ويزيل السدود عن الطرق، وينثر في القلوب نور الأمل، ويفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو الله لا غير!

وحيث إنّ الناس يدركون هذه الحقيقة بالفطرة في أعماق نفوسهم جميعاً، فإنّ المشركين حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمة ينسون جميع معبوديهم ويتوجهون نحو لطف الله، كما يقول القرآن: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

لذلك تضيف الآية قائلة: إنّه لا ينقذكم من هذه المآزق والشدائد فحسب، بل: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ ولكنكم لا تتعظون بهذه الدلائل... ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وفي الميزان «المراد بإجابة المضطرّ إذا دعاه: استجابة دعاء الداعين وقضاء حوائجهم، وإنما أخذ وصف الاضطرار ليتحقّق بذلك من الداعي حقيقة الدعاء والمسألة ما لم يقع الإنسان في مضيقة الإضطرار، وكان في مندوحة من المطلوب لم يتمحَّض منه الطلب وهو ظاهر. ثم قيّده بقوله «إذا دعاه» للدلالة على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه، وإنما يكون ذلك عندما ينقطع الداعي عن عامة الأسباب الظاهرية، ويتعلّق قلبه بربّه وحده، وأمّا من تعلق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط، أو بالمجموع من ربه ومنها، فليس يدعو ربَّه، وإنما يدعو غيره. وإذا صدق في الدعاء، وكان مدعوُّه ربّه وحده، فإنه تعالى يجيب ويكشف السوء الذي اضطره إلى المسألة كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠] فلم يشترط للإجابة إلّا أن يكون هناك دعاء حقيقة وأن يكون ذلك الدعاء متعلّقاً به وحده...».

والمراد من ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾ لعله بمعنى «سكنة الأرض» وأصحابها... لأنّ الله جعل الإنسان حاكماً على هذه الأرض، مبسوط اليد فيها بما أولاه من النعم وأسباب الرفاه والدعة والإطمئنان!

ولاسيما حين يقع الإنسان في شدّة، فيغدو مضطراً ويتجه نحو خالقه الكريم ـ فيرفع بكرمه البلايا والموانع ـ فتستحكم أُسس هذه الخلافة وهنا تتجلى العلاقة بين شطري الآية.

كما قد يكون المراد بهذا المعنى، وهو أنّ الله جعل ناموس الحياة أن يخلفَ قوم قوماً على الدوام، بحيث لو لم يكن هذا التناوب لم تغدُ الصورة متكاملة[2].

---

(١) (ما) في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ زائدة ظاهراً، ونعرف أن الحروف الزائدة في كثير من المواطن للتأكيد، و(قليلاً) صفة لمصدر محذوف وتقديره: تتذكرون تذكراً قليلاً.

(٢) فبناءً على هذا المعنى يكون (خلفاء الأرض) بمعنى: خلفاء في الأرض.

ويثير القرآن في السؤال الرّابع مسألة الهداية فيقول: هل أن الأصنام أفضل، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بواسطة النجوم ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؟!!

فالرياح التي تدل على نزول الغيث، وكأنّها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث، إنّها في الحقيقة تهدي الناس إلى الغيث أيضاً.

والتعبير بـ ﴿بُشْرًا﴾ في شأن الرياح، والتعبير بـ ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ في شأن الغيث، كلاهما تعبيران طريفان لأنّ الرياح هي التي تحمل الرطوبة في الجو وتنقل أبخرة الماء من على وجه المحيطات بشكل قطعات من السحب على متونها، إلى النقاط اليابسة، وتخبر عن قدوم الغيث!

وكذلك الغيث الذي ينشد نغمة الحياة على وجه البسيطة، وحيثما نزل حلت البركة والرحمة[1].

قال في الأمثل: (ذكرنا شرحاً مفصلاً في تأثير الرياح في نزول الغيث في ذيل الآية ٥٧ من سورة الأعراف).

ويخاطب القرآن في ختام الآية المشركين مرّة أُخرى فيقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!

ثمّ يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلاً: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي الميزان: «المراد بظلمات البر والبحر: ظلمات الليالي في البر والبحر، ففيه مجاز عقلي، والمراد بإرسال الرياح بُشراً: إرسالها مُبشّرات بالمطر قُبيل نزوله، والرحمة: المطر والباقي ظاهر».

أمّا في آخر آية من الآيات محل البحث، فيثير القرآن السؤال الخامس في شأن المبدأ والمعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾... فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير الله ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟!

---

(١) «بُشرا» على وزن «عُسْر» ـ كما ذكرنا آنفاً ـ مخفف بُشر على وزن «كتب»، وهي جمع «بشور» على وزن «قبول» ومعناه المبشر.

وفي الواقع فإنّ الآيات المتقدمة كلها كانت تتكلم على المبدأ، وآيات عظمة الله في عالم الخلق والوجود، ومواهبه ونعمه، إلّا أنّه في الآية الأخيرة ينتقل البحث من معبر ظريف إلى مسألة المعاد، لأنّ بداية الخلق نفسها دليل على تحققها، والقدرة على بداية الخلق تعد دليلاً واضحاً على المعاد.

ومن هنا يتّضح الجواب على السؤال الذي يثيره كثير من المفسّرين، وهو أنّ المشركين المخاطبين بهذه الآيات أغلبهم لم يعتقدوا بالمعاد «المعاد الجسماني» فكيف يمكن أن يوجه إليهم هذا السؤال مع هذه الحال ويطلب منهم الإقرار.

قال في الأمثل: فالجواب عليه أن هذا السؤال مقرون بدليل يسوق الطرف الآخر للإقرار، لأنّه باعترافهم أن بداية الخلق من الله، وهذه المواهب والنعم كلّها منه، لكي تقبل عقولهم إمكان المعاد والرجوع إلى الحياة في يوم القيامة مرّة أُخرى.

والمراد من (الرزق السماوي) هو الغيث ونور الشمس وأمثال ذلك، أمّا (الرزق الأرضي) فالنباتات والمواد الغذائية المختلفة التي تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام والمعادن والمواد المختلفة التي يتمتع بها الإنسان في حياته!

وفي الميزان: بِدْءُ الخلق إيجاده ابتداءً لأول مرّة، وإعادته: إرجاعه إليه بالبعث وتبكيت المشركين بالبدء والإدعاء مع إنكارهم البعث.

بحوث

١ ـ مَنْ المضطر الذي يُجاب إذا دعاه؟

مع أنّ الله ـ يجيب دعاء الجميع عند تحقق شروط الدعاء، إلّا أنّ في الآيات آنفة الذكر اهتماماً بالمضطر، وذلك لأنّ من شروط إجابة الدعاء أن يغمض الإنسان عينيه عن عالم الأسباب كليّاً، وأن يجعل قلبه وروحه بين يدي رحمة الله، وأن يرى كل شيء منه وله! وإنّ حلّ كل معضلة بيده، وهذه النظرة وهذا الإدراك إنّما يتحققان في حال الإضطرار.

وصحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب والمسببات، والمؤمن يبذل منتهى سعيه وجهده في هذا الشأن... إلّا أنّه لا يضيع في عالم الأسباب أبداً... ويرى كل شيء من بركات ذاته المقدسة، ويرى من وراء الحجاب ببصره النافذ «مُسبب الأسباب» فيطلب منه ما شاء!

أجل، إذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة، فإنّه يوفّر لنفسه أهم شرط لإجابة الدعاء.

الطريف أنّه قد ورد في بعض الرّوايات تفسير هذه الآية بقيام المهدي صلوات الله وسلامه عليه.

ففي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «والله لكأنّي أنظر إلى القائم وقد أسند ظهره إلى الحجر ثمّ ينشد الله حقّه... قال والله هو المضطر في كتاب الله في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾!

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «نزلت في القائم من آل محمد عليهم السلام هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا الله عزّ وجلّ فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض»[1].

ولا شك أن هذا التّفسير ـ كما رأينا نظائره الكثيرة ـ لا يحصر المراد من هذه الآية بالمهدي عليه السلام، بل مفهوم الآية واسع، والمهدي عليه السلام واحد من مصاديقها الجليّة... إذ الأبواب في زمانه موصدة، والفساد عمّ البسيطة، والبشرية في طريق مسدود، وحالة الإضطرار ظاهرة في جميع العالم... فعندئذٍ يظهر الإمام في أقدس بقعة... فيطلب كشف السوء، فيلبي الله دعوته، ويجعله بداية «الظهور» المبارك في العالم، ويستخلفه في الأرض هو وأصحابه، فيكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾.

«كان لنا بحث في شروط إجابة الدعاء وأهميته، وفي سبب عدم الإجابة، فصّلناه في ذيل الآية (١٨٦) من سورة البقرة». (الأمثل)

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٩٤.

٢ ـ الإستدلال المنطقي في كلّ مكان:

نقرأ في آيات القرآن ـ مراراً ـ أنّه يطالب المخالفين بالدليل، وخاصة بقوله: ﴿هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ﴾وقد جاء هذا النص في أربعة مواضع: البقرة: الآية ١١٥، الأنبياء: الآية ٢٤، النمل: الآية ٦٤، والقصص: الآية ٧٥، كما أنّه أكّد في مواضع أخرى على البرهان خاصة «والمراد من البرهان. أصدق دليل».

وهذا المنطق (المطالبة بالبرهان) للإسلام يحكي عن محتواه الغني والقوي، لأنّه يسعى لأن يواجه مخالفيه مواجهة منطقية، فكيف يطالب الآخرين بالبرهان وهو لا يكترث به؟! فآيات القرآن المجيدة مملوءة بالإستدلالات المنطقية... والبراهين العلمية في المسائل المتعددة!

وهذا الأمر على خلاف ما حرفته المسيحية اليوم ـ وعوّلت عليه، وترى أن الدين هو ما يوحيه القلب!! وتفصل العقل عنه إذ تراه أجنبياً عنه... حتى أنّها تؤمن بالتناقضات العقلية كالتوحيد في التثليث، ومن هنا سمحت للخرافات أن تدخل في الدين، مع أن الدين لو خلا من العقل والإستدلال العقلي فسوف لا يقوم دليل عليه، ويكون ذلك الدين وما يضادّه سواء!

وتبرز عظمة هذا المنهج (وهو الإهتمام بالبرهان ودعوة المخالفين إلى الإستدلال المنطقي) حين نلتفت إلى أن الإسلام ظهر في محيط يعيش الخرافات التي لا أساس لها والمسائل غير المنطقية في جميع مفاصل منظومته الفكرية والمعرفية!!

٣ ـ خلاصة عامّة ومرور على الآيات السابقة:

في الآيات السابقة كان اهتمام القرآن منصباً لإثبات «توحيد المعبود» على «توحيد الخالق»، و«توحيد الرب» أي (توحيد الخلق وتوحيد التدبير) وتحدّث عن اثنتي عشرة آية وعلامة لله العظيم في عالم الوجود:

١ ـ السماء والأرض.

٢ ـ نزول الغيث.

٣ ـ بركاته في الحياة.

٤ ـ قرار الأرض.

٥ ـ الأنهار.

٦ ـ الجبال الرواسي.

٧ ـ الحاجز بين البحرين (العذب والمالح).

٨ ـ إجابة دعوة العباد.

٩ ـ هدايتهم في ظلمات البر والبحر.

١٠ ـ إرسال الرياح بشراً بين يدي رحمته.

١١ ـ بدء الخلق وإعادته.

١٢ ـ رزق الإنسان و«سائر الخلق» من السماء والأرض.

هذه المواهب و«النعم» الإثنا عشرة بيّنتْ في خمس آيات وضمن خمسة أسئلة! وكانت تعالج الأمور الخمسة التالية على التوالي:

١ ـ الخلق.

٢ ـ والإستقرار.

٣ ـ كشف الضرّ.

٤ ـ الهداية.

٥ ـ إعادة الحياة (بعد الموت).

نعمة النجوم في القرآن

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

التّفسير

بعد شرح نظام دوران الشمس والقمر في الآية السابقة، تشير هذه الآية إلى نعمة أخرى من نعم الله على البشر، فجعل النجوم ليهتدي بها الإنسان في ليالي البر والبحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

وتختتم الآية بالقول بأنّ الله قد بين آياته لأهل الفكر والفهم والإدراك: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

منذ آلاف السنين والإنسان يعرف النجوم في السماء ونظامها، وعلى الرغم من تقدم البشر في هذا المضمار تقدماً كبيراً، فإنّه ما يزال يتابع وضع النجوم قليلاً أو كثيراً، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الإتجاه في الأسفار البرية والبحرية، وعلى الأخص في المحيطات الواسعة التي كانت تخلو من كل إمارة تشير إلى الإتجاه قبل إختراع الإسطرلاب.

إنّ النجوم هي التي هدت ملايين البشر وأنقذتهم من الغرق وأوصلتهم إلى بر السلامة.

لو تطلعنا إلى السماء عدّة ليال متوالية لانكشف لنا أنّ مواضع النجوم في السماء متناسقة في كل مكان، وكأنّها حبات لؤلؤ خيطت على قماش أسود، وإنّ هذا القماش يسحب باستمرار من الشرق إلى الغرب، وكلها تتحرك معه وتدور حول

محور الأرض دون أن تتغير الفواصل بينها، إنّ الإستثناء الوحيد في هذا النظام هو عدد من الكواكب التي تُسمى بالكواكب السيارة لها حركات مستقلة وخاصّة، وعددها ثمانية: خمسة منها ترى بالعين المجرّدة، وهي (عطارد والزهرة، وزحل، والمريخ والمشتري)، وثلاثة لا تُرى إلّا بالتلسكوب وهي: (أورانوس ونبتون وبلوتو) بالإضافة إلى كوكب الأرض التي تجعل المجموع تسعة.

ولعل إنسان ما قبل التاريخ كان يعرف شيئاً عن «الثوابت» و«السيارات» لأنّه لم يكن هناك ما يمكن أن يجلب انتباهه أكثر من السماء المرصعة بالنجوم في ليلة ظلماء، فلا يستبعد ان يكون هو أيضاً قد استخدم النجوم في الإستهداء ومعرفة الإتجاه.

يستفاد من بعض روايات أهل البيت ﷺ أنّ لهذه الآية تفسيراً آخر، وهو أنّ المقصود بالنجوم القادة الإلهيين والهداة إلى طريق السعادة، أي الأئمّة الذين يهتدي بهم الناس في ظلام الحياة فينجون من الضياع، وسبق أن قلنا أنّ هذه التفاسير المعنوية لا تتنافى مع التفاسير الظاهرية، ومن الممكن أن تقصد الآية كلا التّفسيرين[١].

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٩٤.

علم النجوم في القرآن

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

يعتقد الكثير من المفسّرين أن (لا) التي جاءت هنا ليست بمعنى النفي حيث إنّها زائدة وللتأكيد، كما جاء نفس هذا التعبير في الآيات القرآنية الأخرى حول القسم بيوم القيامة والنفس اللوامة وربّ المشارق والمغارب والشفق، وما إلى ذلك.

في الوقت الذي اعتبر البعض الآخر أنّ (لا) هنا جاءت للنفي، حيث قالوا: إنّ المطلب (مورد القسم) أهمّ من أن يقسم به، كما نقول في تعبيراتنا اليوميّة: نحن لا نقسم بالموضوع الفلاني، أي نفي القسم وأنّ (لا) هنا جاءت إشارة لذلك.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، لأنّه قد ورد في القرآن الكريم القسم بالله صراحة، فهل أنّ النجوم أفضل من الذات الإلهيّة حتّى لا يقسم بها؟

وحول (مواقع النجوم) فقد ذكر المفسّرون تفسيرات عديدة لها:

الأوّل: هو المعنى المتعارف عليه من حيث مداراتها وأبراجها ومسيرها.

والآخر: هو أنّ المقصود بذلك مواقع طلوعها وغروبها.

والثّالث: هو سقوط النجوم في الحشر والقيامة.

وفسّرها آخرون: بأنّ معناه هو غروب النجوم فقط.

واعتبرها آخرون إشارة وانسجاماً مع قسم من الرّوايات حول نزول آيات وسور القرآن الكريم في فواصل زمنية مختلفة، وذلك لأنّ «النجوم» جمع نجمة تستعمل للأعمال التي تنجز بصورة تدريجيّة.

وبالرغم من أنّ المعاني لا تتنافى حيث يمكن جمعها في الآية أعلاه، إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، وذلك لأنّ أكثر الناس كانوا لا يعلمون أهميّة هذا القَسَم عند نزول الآيات، بعكس الحالة اليوم، والتي توضّح لنا أنّ لكلّ نجمة من النجوم مكانها المخصّص ومدارها ومسارها المحدّد لها بدقّة وحساب، وذلك طبقاً لقانون الجاذبية، وإنّ سرعة السير لكلّ منها محدّدة أيضاً، وفق قانون معيّن وثابت.

وهذه المسألة بالرغم من أنّها غير قابلة للحساب بصورة دقيقة في الأجرام السماوية البعيدة، إلّا أنّ المجاميع الموجودة في المنظومة الشمسية التي تشكّل النجوم القريبة لنا، قد دُرِسَتْ بدقّة وتبيّن أنّ نظام مداراتها دقيق إلى حدّ مدهش.

وعندما يلاحظ الإنسان ـ طبقاً لتصريحات العلماء ـ أنّ في (مجرّتنا) فقط ألف مليون نجمة، وتوجد في الكون مجرّات كثيرة، وكلّ واحدة منها لها مسار خاصّ، عندئذٍ ستتوضّح لنا أهميّة هذا القَسَم القرآني.

ونقرأ في كتاب (الله والعلم الحديث) ما يلي:

«يعتقد العلماء الفلكيون أنّ هذه النجوم التي تتجاوز الملياردات، والتي نرى قسماً منها بالعين المجرّدة، والقسم الكثير منها لا يمكن رؤيته إلّا بالتلسكوبات بل إنّ قسماً منها لا نستطيع مشاهدته حتّى بالتلسكوبات، اللّهمّ إلّا بوسائل خاصّة نستطيع أن نصوّرها بها.

كلّ من هذه النجوم تدور في مدارها الخاصّ، ولا يوجد أي احتمال أنّ واحدة منها تكون في حقل الجاذبية لنجمة أُخرى. أو أنّ بعضها يصطدم بالبعض الآخر، وفي الواقع إنّ حالة التصادم المفترضة مثل ما لو افترضنا أنّ سفينة في المحيط الهادي تصطدم مع سفينة أُخرى تجري في البحر الأبيض المتوسّط وكلّ منها سائرة بموازاة الأخرى وبسرعة واحدة... إنّ هذا الأمر إن لم يكن محالاً فهو بعيد جدّاً. كذلك الأمر بالنسبة للنجوم حيث إنّ كلاً منها لها مدارها الخاصّ بها ولن تصطدم بالأُخرى رغم السرعة الهائلة لكلّ منها»[1].

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٧٥٠.

وبالنظر إلى هذه الاكتشافات العلمية عن وضع النجوم، تتوضّح أهميّة القسم أعلاه، ولهذا السبب فإنّه تعالى يضيف في الآية اللاحقة: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

التعبير بـ ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾يوضّح وبشكل جليّ أنّ معرفة البشر في ذلك الزمان لم تدرك هذه الحقيقة بصورة كاملة، وهذه بحدّ ذاتها تعتبر إعجازاً علمياً للقرآن الكريم، حيث في الوقت الذي كانت تعتبر النجوم عبارة عن مسامير فضائية رصّعت السماء بها فإنّ مثل هذا البيان القرآن الرائع في ظلّ ظروف وأوضاع يخيّم عليها الجهل، محال أن يصدر من بشر عادي.

نعمة الإستقامة في القرآن

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٦-١٧].

التّفسير

الفتنة بإغداق النعمة:

هذه الآيات تشير ظاهراً إلى استمرار الجن في حديثهم مع قومهم: (وإن كان بعض المفسّرين يعتبرون هذه الآية معترضة بين كلام الجن) ولكن اعتراضها خلاف الظاهر، وسياق هذه الآيات يشابه السابقة والذي كان من كلام الجن، ولذا يستبعد أن يكون هذا الكلام هو لغير الجن[١].

على كل حال فإنّ سياق هذه الآيات السابقة يشير إلى ثواب المؤمنين في يوم القيامة، وفي هذه الآيات يتحدث عن ثوابهم الدّنيوي فيقول: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

ننزل عليهم مطر رحمتنا، ونذلل لهم منابع وعيون الماء الذي يهب الحياة وبوجود الماء يوجد كل شيء وعلى هذا فإنّنا نشملهم بأنواع النعم.

«غَدَقَ» على وزن «شَفَقَ»، وتعني الماء الكثير.

---

(١) من الملاحظ أنّ السبب الوحيد الذي دعا المفسّرين إلى أن يعتبروا هذا الكلام من كلام الله تعالى وأنّها جملة إعتراضية هو ضمائر (المتكلم مع الغير) ففي موضع يقول: لأسقيناهم ماءً غدقا، وفي موضع آخر يقول: لنفتنهم فيه، ولكن لا ضير عندما نعتبر هذه التعابير من باب النقل، كما لو تحدث شخص عن صاحبه فيقول: إنّ فلاناً يعتقد بأنّي شخص حسن، (بالطبع هو لم يستعمل كلمة (أنا) وإنّما استعمل كلمة (هو) ولكن القائل يختار مثل هذا التعبير.

القرآن المجيد أكّد ولعدّة مرات على أنّ الإيمان والتقوى ليست فقط منبعاً للبركات المعنوية، بل تؤدّي إلى زيادة الأرزاق والنعم والعمران، أي (البركة والمادية).

قال في الأمثل: (لنا بحث مفصل في هذا الباب في نفس المجلد في تفسير سورة نوح عليه السلام ذيل الآية ١٢، تحت عنوان: الرابطة بين الإيمان والتقوى والعمران).

الملاحظ حسب هذا البيان أنّ سبب زيادة النعمة هو الإستقامة على الإيمان، وليس أصل الإيمان، لأنّ الإيمان المؤقت لا يستطيع أن يظهر هذه البركات، فالمهم هو الإستقامة والإستمرار على الإيمان والتقوى، ولكن هناك الكثير مما تزلُّ أقدامهم في هذا الطريق.

والآية الأُخرى أشارت إلى حقيقة أُخرى بنفس الشأن، فيضيف: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ هل أنّ كثرة النعم تتسبب في غرورهم وغفلتهم؟ أم أنّها تجعلهم يفيقون ويشكرون ويتوجهون أكثر من ذي قبل إلى الله؟

ومن هنا يتّضح أن وفور النعمة من إحدى الأسباب المهمّة في الإمتحان الإلهي، وما يُتفق عليه هو أنّ الإختبار بالنعمة أكثر صعوبة وتعقيداً من الإختبار بالعذاب، لأنّ طبيعة إزدياد النعم هو الإنحلال والكسل والغفلة، والغرق في الملذات والشهوات، وهذا ما يُبعد الإنسان عن الله تعالى ويُهيّىء الأجواء لمكائد الشيطان، والذين يستطيعون أن يتخلصوا من شراك النعم الوافرة هم الذاكرون لله على كلّ حال، غير الناسين له تعالى، حيث يحفظون قلوبهم بالذكر من نفوذ الشياطين[1].

ولذا يضيف تعقيباً على ذلك: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

«صعد»: على وزن (سفر) وتعني الصعود إلى الأعلى، وأحياناً الشعب

---

(١) احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من «الطريقة» هو سبيل الكفر وزيادة النعم الحاصلة نتيجة للإستقامة في هذه الطريقة، في الحقيقة هي مقدمة العقوبات ومصداق الإستدراج في النعم، ولكن هذا التفسير لا يتناسب أبداً مع سياق الآيات السابقة واللاحقة.

المتعرجة في الجبل، وبما أنّ الصعود من الشعاب المتعرجة عمل شاق، فإنّ هذه اللفظة تستعمل بمعنى الأمور الشّاقة، وفسّرها الكثير بمعنى العذاب الشّاق، وهو مماثل لما جاء في الآية (١٧) من سورة المدّثر حول بعض المشركين: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.

ولكن، إنّه مع أنّ التعبير أعلاه يبيّن كون هذا العذاب شاقاً شديداً فإنه يحتمل أن يشير إلى اليوم الطويل، وعلى هذا الأساس فإنّه يبيّن في الآيات أعلاه رابطة الإيمان والتقوى بكثرة النعم من جهة، ورابطة كثرة النعم بالإختبارات الإلهية من جهة أخرى، ورابطة الإعراض عن ذكر الله تعالى بالعذاب الشاق الطويل من جهة ثالثة، وهذه حقائق أشير إليها في الآيات القرآنية الأخرى كما نقرأ في الآية (١٢٤) من سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

وكذا في الآية (٤٠) من سورة النمل عن لسان سليمان ﷺ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

وفي الميزان المراد بـ(الطريقة) «طريقة الإسلام والإستقامة عليها. والإستقامة عليها: لزومها والثبات على ما تقتضيه من الإيمان بالله وآياته.

والمعنى: وأنه لو استقاموا أي الجنُّ والإنس على طريقة الإسلام لله لرزقناهم رزقاً كثيراً لنمتحنهم في رزقهم».

نعمة الشمس والقمر في القرآن

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝﴾ [يونس: ٥-٦].

التّفسير

جانب من آيات عظمة الله:

لقد مرّت في الآيات السابقة إشارة عابرة إلى مسألة المبدأ والمعاد، إلّا أنّ هذه الآيات وما بعدها تبحث بصورة مفصّلة هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبياء، وبتعبير آخر فإنّ الآيات اللاحقة بالنسبة للسابقة بمثابة التفصيل للإجمال.

ولقد أشارت الآية الأولى التي نبحثها إلى جوانب من آيات عظمة الله سبحانه في عالم الخلقة فقالت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾.

إنّ الشمس التي تعم العالم بنورها لا تعطي النور والحرارة للموجودات فحسب، بل هي العامل الأساس في نمو النباتات وتربية الحيوانات، وإذا دقّقنا النظر رأينا أنّ كلّ حركة على وجه الكرة الأرضية، حتى حركة الرياح وأمواج البحار وجريان الأنهار والشلالات، هي من بركات نور الشمس، وإذا ما انقطعت هذه الأشعة الحياتية عن كرتنا الأرضية يوماً فإنّ السكون والظلمة والموت سيخيّم على كل شيء في فاصلة زمنية قصيرة.

والقمر بنوره الجميل هو مصباح ليالينا المظلمة، ولا تقتصر مهمّته على هداية المسافرين ليلاً وإرشادهم إلى مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء والنشاط لكل سكان الأرض.

ثمّ أشارت الآية إلى فائدة أخرى لوجود القمر فقالت: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ أي إنّكم لو نظرتم إلى القمر، وأنّه في أوّل ليلة هلال رفيع، ثمّ يكبر حتى يكون بدراً في ليلة النصف من الشهر، وبعدها يبدأ بالنقصان التدريجي حتى اليوم أو اليومين الأخيرين حيث يغيب في المحاق، ثمّ يظهر على شكل هلال من جديد ويدور إلى تلك المنازل السابقة، لعلمتم أنّ هذا الإختلاف ليس عبثاً، بل إنّه تقويم طبيعي دقيق جدّاً يستطيع الجاهل والعالم قراءته، ويقرأ فيه تاريخ أعماله وأمور حياته[(١)].

ثمّ تُضيف الآية: إنّ هذا الخلق والدوران ليس عملاً غير هادف، أو هو من باب اللعب، بل ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

وفي النهاية تؤكّد الآية: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ إلّا أنّ هؤلاء الغافلين وفاقدي البصيرة بالرغم من أنهم يمرون كثيراً على هذه الآيات والدلائل، إلّا أنّهم لا يدركون أدنى شيء منها.

وتتطرق الآية الثانية إلى قسم آخر من العلامات والدلائل السماوية والأرضية الدالّة على وجوده سبحانه، فتقول: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ فليست السماء والأرض بذاتهما من آيات الله وحسب، بل إنّ كل واحدة من الموجودات التي توجد فيهما تعتبر آية بحد ذاتها، إلّا أنّ الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سَمَتْ أرواحهم وَصَفَتْ نتيجة لتقواهم وبعدهم عن المعاصي، وهم الذين يقدرون على رؤية وجه الحقيقة وجمال المعشوق.

ملاحظات

وهنا ملاحظات ينبغي الإنتباه لها:

١ ـ هناك نقاش طويل بين المفسّرين في الفرق بين كلمتي الضياء والنور، فالبعض منهم اعتبرهما مترادفتين وأنّ معناهما واحداً، والبعض الآخر قالوا:

(١) قال في الأمثل: لقد بحثنا في المجلّد الثّاني حول كون القمر تقويماً طبيعياً يمكن من خلال حالاته المختلفة تعيين أيّام الشهر بدقّة (راجع تفسير الآية ١٨٩ من سورة البقرة).

إنّ الضياء استعمل في ضوء الشمس فالمراد به النور القوي، أمّا كلمة النور التي استعملت في ضوء القمر فإنّها تدل على النور الأضعف.

الرأي الثالث في هذا الموضوع هو أنّ الضياء بمعنى النور الذاتي، أمّا النور فإنّه أعم من الضياء ويشمل الذاتي والعرضي، وعلى هذا فإنّ اختلاف تعبير الآية يشير إلى هذه النقطة. وهي أنّ الله سبحانه قد جعل الشمس منبعاً فوّاراً للنور، في الوقت الذي جعل للقمر صفة الإكتساب، فهو يكتسب نوره من الشمس.

والذي يبدو أنّ هذا التفاوت مع ملاحظة آيات القرآن، هو الأصح، لأنا نقرأ في الآية (١٦) من سورة نوح: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾. وفي الآية (٦١) من سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾. فإذا لاحظنا أنّ نور السراج ينبع من ذاته، وهو منبع وعين النور، وأن الشمس قد شُبهت في الآيتين بالسراج، سيتّضح أنّ هذا التفاوت مناسب جداً في الآيات مورد البحث.

٢ ـ هناك اختلاف بين أهل الكتاب وكتّاب اللغة في أنّ (ضياء) جمع أم مفرد)، فالبعض، كصاحب كتاب «القاموس»، اعتبرها مفرداً، إلّا انّ البعض الآخر كالزجّاج إعتبر الضياء جمعاً للضوء، وقد قبل هذا المعنى صاحب تفسير «المنار» وتفسير «القرطبي»، وخاصّة صاحب المنار، حيث استفاد على أساس هذا المعنى استفادة خاصّة من الآية، فهو يقول: إنّ ذكر الضياء بصيغة الجمع في شأن نور الشمس إشارة إلى الشيء الذي أثبته العلم اليوم بعد قرون، وهو أنّ نور الشمس مكون من سبعة أنوار، وبتعبير آخر سبعة ألوان، هي الألوان التي تظهر في قوس قزح، وتلاحظ عند مرور النور عبر المناشير البلورية.

ولكن يبقى هنا سؤال، وهو: هل أن نور القمر، رغم أنّه أضعف، غير متكون من الألوان المختلفة؟

٣ ـ هناك بحث ونقاش بين المفسّرين في أنّ ضمير ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ يعود إلى القمر فقط، أم يرجع إلى الشمس والقمر؟ فالبعض يعتقد أنّ الضمير وإن كان مفرداً، إلّا أنّه يعود إلى الإثنين معاً، ونظير ذلك في الأدب العربي غير قليل.

اختيار هذا الرأي من أجل أن القمر ليس الوحيد الذي له منازل، بل إنّ للشمس أيضاً منازل، في كل وقت تكون في برج خاص، والإختلاف في الأبراج هذا هو مبدأ التاريخ والأشهر الشمسية.

والحق أنّ ظاهر الآية يوحي بأنّ هذا الضمير المفرد يعود للقمر فقط، لقربه منه، وهذا بنفسه يحتوي على نكتة، ذلك:

أوّلاً: إنّ الأشهر التي عرفت في الإسلام والقرآن رسمياً هي الأشهر القمرية.

ثانياً: إنّ القمر كرة متحركة ولها منازل، أمّا الشمس فإنّها تقع في وسط المنظومة الشمسية، وليس لها حركة ضمن مجموع هذه المنظومة، وإنّ اختلاف الأبراج ومسير الشمس في المدار الفلكي ذي الإثني عشر برجاً، والذي يبدأ من الحمل وينتهي بالحوت، ليس بسبب حركة الشمس، بل بسبب حركة الأرض حول الشمس، ودوران الأرض هذا هو السبب في أن نرى الشمس تقابل كل شهر واحداً من البروج الفلكية الإثني عشر، وعلة هذا فليس للشمس منازل مختلفة خلافاً للقمر. (دققوا جيداً).

إنّ هذه الآية في الحقيقة تشير إلى إحدى المسائل العلمية المرتبطة بالأجرام السماوية كانت خافية على البشر في ذلك الزمان حيث ما يدركوا هذا الفرق بين حركة الشمس والقمر.

٤ ـ لقد عدت الآيات أعلاه اختلاف الليل والنهار من آيات الله سبحانه، وذلك لأنّ نور الشمس إذا استمر في إشعاعه على الأرض، فإنّ من المسلّم أن درجة الحرارة سترتفع إلى الحد الذي تستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

وكذلك الليل إذا استمر فإنّ كل شيء سيتجمد لشدّة البرودة.

إلّا أنّ الله سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئة أسباب الحياة والمعيشة على وجه الكرة الأرضية.

إنّ أثر العدد والحساب والتاريخ والسنة والشهر في نظام حياة البشر والروابط الإجتماعية والمكاسب والأعمال لا يُخفى على أحد.

٥ ـ إنّ مسألة العدد والحساب التي أُشير إليها في الآيات أعلاه، هي في الواقع واحدة من أهم مسائل حياة البشر في جميع النواحي والمجالات.

نعلم أنّ أهمية أيّ نعمة تتّضح أكثر عندما نلاحظ الحياة بدون تلك النعمة، وعلى هذا فلو أنّ حساب التاريخ وامتياز الأيّام والأشهر والسنين رفع من حياة البشر، مثلاً لا توجد أيام واضحة ومحددة للأسبوع، ولا أيّام الشهر، ولا عدد الشهور والسنين، ففي هذه الحالة ستتعرض كل المسائل التجارية والإقتصادية والسياسية وكل الإتفاقيات والبرامج الزمنية المعدة للخلل وعندها سوف لا يثبت حجر على حجر، وستنفرط عقدة النظم في الأعمال، وحتى وضع الزراعة وتربية الحيوانات والصناعات الإنتاجية ستعمها الفوضى والإضطراب.

لكن لما كان الله سبحانه قد خلق الإنسان ليحيا حياة سعيدة مقرونة بالنظام، فإنّه قد وضع وسائلها تحت تصرفه.

صحيح أنّ الإنسان يمكنه تنظيم أعماله إلى حدّ ما بالأمور الإعتبارية، إلّا أنّه إذا لم يستند إلى الميزان الطبيعي فإنّ مقياسه الجعلي لا يكون عاماً وشاملاً، وليس قابلاً للإعتماد.

إنّ دوران الشمس والقمر ـ وبتعبير أصح دوران الأرض حول الشمس ـ والمنازل التي لهما، يشكل تقويماً طبيعياً واضح الأساس ويستفيد منه الجميع في كل مكان، ويعتمدون عليه، فكما أن مقدار اليوم والليلة يعتبر مقياساً تاريخياً صغيراً ينشأ نتيجة عالم طبيعي، أي حركة الأرض حول نفسها، فإنّ الشهر والسنة يجب أن تستند إلى دوران طبيعي، وعلى هذا المنوال فإنّ حركة القمر حول الأرض يُشكّل مقياساً أكبر، فإنّ الشهر يساوي ثلاثين يوماً تقريباً، وحركة الأرض حول الشمس ينتج منها مقياس أعظم، وهو السنة.

قلنا: إنّ التقويم الإسلامي يستند إلى التقويم القمري ودوران القمر، ورغم أنّ دوران الشمس في الأبراج الإثني عشر طريقة جيدة لتعيين الأشهر الشمسية، إنّ هذا التقويم مع أنّه طبيعي، إلّا أنّه لا ينفع الجميع، وإنّما يستطيع علماء النجوم فقط عبر رصد النجوم من تحديد كون الشمس في البرج الفلاني، ولهذا السبب فإنّ الآخرين مجبورون على مراجعة التقاويم التي نظمت من قبل هؤلاء المنجمين. إن دوران القمر المنتظم حول الأرض يعطي تقويماً واضحاً يستطيع قراءة خطوطه وخرائطه حتى الأميون وسكّان البوادي.

وتوضيح ذلك إن هيئة القمر تختلف في كل ليلة في السماء عن الليلة السابقة واللاحقة، بحيث لا توجد ليلتان في طول الشهر تتحدد فيها هيئة القمر في السماء، وإذا دققنا قليلاً في وضع القمر كل ليلة فإنّنا سنعتاد رويداً رويداً على تعيين تلك الليلة من ليالي الشهر.

وقد يتصور البعض أن نصف الشهر الثّاني تتكرر في صور النصف الأوّل بعينها، وأنّ صورة القمر في ليلة الإحدى والعشرين مثلاً هي بعينها صورته في الليلة السابقة، إلّا أن هذا اشتباه كبير، لأنّ جانب النقص في القمر في النصف الأوّل هو الطرف الأعلى، في حين أنّ جانب نقصه في النصف الثّاني من الطرف الأسفل، وبتعبير آخر فإنّ أطراف الهلال الدقيقة تكون إلى الشرق في البداية، بينما هي في الجانب الغربي عند أواخر الشهر، إضافةً إلى أنّ القمر يرى في الغرب أوائل الشهر، أمّا في أواخره فإنّه يرى في الشرق، ويتأخر كثيراً في طلوعه. وعلى هذا فإنّه يمكن الإستفادة من شكل القمر مع تغييراته التدريجية كعداد يومي، ولتحديد أيّام الشهر بدقة من خلال شكل القمر.

على كل حال، فإنّنا في هذه الموهبة التي نسميها «النظام التاريخي»، مدينون لهذا الخلق الإلهي، ولولا حركات القمر والشمس و(الأرض) لكان لنا وضع مضطرب وفوضوي في الحياة لم يكن في الحسبان تصوره.

إنّ السجناء في الزنزانات الإنفرادية المظلمة، والذين أضاعوا الزمان والأوقات ولم يهتدوا إليها، قد أحسوا بهذه الحيرة وعدم الهدفية والتكليف.

نعم الله في القرآن

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

التّفسير

عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن:

تعقيباً للآيات السابقة في الحديث عن برنامج المشركين والذين كفروا بأنعم الله وكون مصيرهم إلى دار البوار، تتحدّث هذه الآيات عن برنامج عباد الله المخلصين والنعم النازلة عليهم، بقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: ٣١]. قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لا يستطيع فيه الإنسان من التخلّص من العذاب بشراء السعادة والنعيم الخالد، ولا تنفع الصداقة حينئذٍ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ثمّ تتطرّق الآية إلى معرفة الله عن طريق نعمه، معرفة تؤدّي إلى إحياء ذكره في القلوب، وتحثّ الإنسان على تعظيمه في مقابل لطفه وقدرته، لأنّ من الأمور الفطرية أن يشعر الإنسان في قلبه بالحبّ والودّ لمن أعانه وأحسن إليه.

ويبيّن هذا الموضوع من خلال عدّة آيات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ سواء من جهة موادّها الأوّلية المتوفرة في الطبيعة،

أو من جهة القوّة المحرّكة لها وهي الرياح التي تهب على البحار والمحيطات بصورة منتظمة لتسيير هذه السفن فتنقل الإنسان وما يحتاج إليه من منطقة إلى أخرى بيسر وسهولة: ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ كي تسقوا من مائها زروعكم، وتشربوا أنتم وأنعامكم، وفي كثير من الأحيان تكون طريقاً للسفن والقوارب، وتستفيدون منها في صيد الأسماك.

وليست موجودات الأرض ـ فقط ـ مسخّرة لكم، بل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾[1].

وليست مخلوقات العالم بذاتها فقط، بل حتّى الحالات العرضية لها في خدمتكم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ من احتياجاتكم البدنيّة والإجتماعية وجميع وسائل السعادة والرفاه ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لأنّ النعم المادية والمعنوية للخالق شملت جميع وجودكم وهي غير قابلة للإحصاء، وعلاوةً على ذلك فإنّ ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلونه كقطرة في مقابل البحر.

وعلى الرغم من كلّ هذه الألطاف والنعم فـ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

فلو كان الإنسان يستفيد من هذه النعم بشكلها الصحيح لاستطاع أن يجعل الدنيا حديقة غنّاء ولنفّذ مشروع المدينة الفاضلة، ولكن بسبب عدم الإستفادة الصحيحة لها أصبحت حياته مظلمة، وأهدافه غير سامية، فتراكمت عليه المشاكل والصعاب وقيّدته بالسلاسل والأغلال.

بحوث

١ ـ كلّ الموجودات تحت إمرة الإنسان!

نواجه في هذه الآيات مرّةً أخرى تسخير مختلف الموجودات في الأرض والسّماء للإنسان، وقد قسمت إلى ستّة أقسام: تسخير الفلك، والأنهار، والشمس،

---

(١) «دائبين» من مادة «الدؤوب» بمعنى إدامة العمل طبقاً للسنّة الثابتة، وبما أنّ الشمس والقمر مستمرّان بشكل ثابت من ملايين السنين، وما لها من فوائد عظيمة للكائنات، لا نجد هناك عبارة لهما أفضل من دائبين.

والقمر، والليل، والنهار، ونرى أنّ قسماً من هذه المسخّرات من السّماء، وقسماً آخر من الأرض، وقسماً ثالثاً من الظواهر بين الإثنين (الليل والنهار).

وقلنا سابقاً، ونكرّر هنا للتذكرة: إنّ الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة بحيث سخّر الله له جميع ما في الوجود، إمّا أن يكون زمام أمورها بيده أو تتحرّك ضمن منافعه، وعلى أيّ حال فهذه العظمة جعلته من أشرف الموجودات.

«فالشمس»: تسطع له بالنّور، وتعطيه الحرارة، وتساعد على نمو النباتات له، وتطهّر محيطه من الأمراض، وتخلق له البهجة والسرور، وتعلّمه الحياة.

وأمّا «القمر»: فمصباح في ليله المظلم، ومفكرة طبيعيّة دائمة، ومن آثاره تتكوّن ظاهرة الجزر والمدّ لتحلّ كثيراً من مشاكله، فتسقي الأشجار (بسبب إرتفاع منسوب المياه في الأنهار المجاورة للبحار) وتتحرّك مياه البحار الراكدة كي لا تتعفّن، وليدخل الأوكسجين فيها بسبب الأمواج ليكون تحت تصرّف الكائنات الحيّة.

«الرياح»: تؤدّي إلى حركة السفن في المحيطات حيث تشكّل أكبر واسطة نقل في أوسع طريق للإنسان، بحيث تستطيع ـ أحياناً ـ أن تدفع سفينة بحجم مدينة صغيرة بكامل أفرادها وتنقلها في المحيطات.

«الأنهار»: تجري في خدمة الإنسان، تسقي زرعه، وتروي مواشيه، وتجعل محيطه ذا طراوة، وتربّي له الأسماك لتغذيته.

«ظلام الليل»: حيث هو سكن للإنسان، ويمنحه الطمأنينة والراحة، ويخفّف من حرارة الجو الملتهبة في النهار.

وأخيراً «ضياء النهار»: يدعوه إلى الحركة والسعي، ويخلق له الدفء والحرارة.

والخلاصة: إنّ كلّ ما على الأرض وحولها لنفع الإنسان، وبيان هذه النعم وشرحها يمنح الإنسان شخصية جديدة، وتفهمه عظمة مقامه وتبعث فيه الإحساس بالشكر أكثر.

ونستفيد أيضاً من هذا البيان أنّ للتسخير في لغة القرآن معنيان:

الأوّل: التسخير لخدمة الإنسان وتحقيق منافعه ومصالحه (كتسخير الشمس والقمر).

والثّاني: التسخير الذي يكون زمام أموره بيد الإنسان (كتسخير الفلك والبحار).

وأمّا ما اعتقده البعض من أنّ هذه الآيات إشارة إلى تسخير الإنسان للقمر وغيره في عصرنا الحاضر فإنّنا لا نراه صحيحاً، لأنّ هناك بعض الآيات تقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى جميع الكرات السّماوية بتاتاً.

نعم هناك بعض الآيات قد تشير إلى هذا النوع من التسخير، وسوف نبحث هذا الموضوع بإذن الله في تفسير سورة الرحمٰن (وسبق لنا بحث في تسخير الموجودات للإنسان في ذيل الآية (٢) من سورة الرعد).

٢ ـ دائبين:

قلنا إنّ «دائب» من مادّة «الدؤوب» بمعنى استمرار العمل طبقاً للعادة والسنّة، فالشمس لا تدور حول الأرض، بل الأرض تدور حول الشمس، ونحن نظنّ أنّ الشمس تدور حولنا، وهذه الحركة ليست المقصودة في معنى «دائب» بل الإستمرار في إنجاز العمل يدخل في مفهوم الدؤوب، ونحن نعلم أنّ الشمس والقمر لهما برنامج في انبعاث النّور وما يتبعه من توقّف الحياة على الأرض عليه بشكل مستمر وفي غاية من الدقّة (وهناك حركات أُخرى للشمس كما يقوله العلماء، منها الحركة حول نفسها، وحركتها مع المجموعة الشمسية).

٣ ـ هل يُعطينا الله كلّ ما نطلب منه؟

قرأنا في الآيات أعلاه أنّ الله عزَّ وجلَّ لطف بكم وأعطاكم من كلّ ما سألتموه («من» في الآية تبعيضيّة) وذلك بسبب أنّ كثيراً ممّا يطلبه الإنسان من ربّه قد يعود عليه بالضرر والهلاك، ولكنّ الله حكيم وعالم ورحيم، فلا يستجيب لمثل هذه الطلبات وفي المقابل نرى في أكثر الأحيان أنّ الإنسان لا يطلب شيئاً بلسانه، ولكن يتمناه بفطرته، ووجدانه، فيستجيب الله له، وليس هناك مانع من أن يكون السؤال في جملة «ما سألتموه» شاملاً للسؤال باللسان والسؤال بالفطرة والوجدان.

٤ ـ لماذا لا تُحصى نعماؤه؟

نعم الله ـ في الحقيقة ـ تعمّ كلّ وجودنا، وإذا ما طالعنا الكتب المختلفة في العلوم الطبيعيّة والإنسانية والنفسيّة وأمثالها فسوف نرى إلى أي مدى تتّسع أطراف هذه النعم، وفي الحقيقة إنّ لكلّ نَفَس يتنفّسه الإنسان نعمتان، ولكلّ نعمة شكر واجب.

وأكثر من ذلك فنحن نعلم بأنّ متوسّط عدد الخلايا الحيّة في جسم الإنسان نحو العشرة ملايين مليارد، وكلّ مجموعة تشكّل قسماً فعّالاً في الجسم، وهذا العدد كبير جدّاً بحيث لو أردنا إحصاءه نحتاج إلى مئات السنين!

فهذا قسم من نعمه علينا، ولذلك ـ حقّاً ـ لا نستطيع عدّ نعمه، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

ويوجد في دم الإنسان مجموعتان من الكريات (وهي خلايا صغيرة سابحة في الدم ولها وظائف حياتية مهمّة) ملايين من «الكريات الحمراء» وظيفتها إيصال الأوكسجين لأجل الاحتراق وصنع خلايا الجسم، وملايين من «الكريات البيض» وظيفتها حفظ سلامة الإنسان مقابل هجوم المكروبات، والعجيب أنّ هذه الكريات في حالة حركة مستمرة لخدمة الإنسان.

فهل نستطيع في هذه الأحوال أن نحصي نعمه تعالى غير المتناهية؟!

٥ ـ أسفاً... إنّ الإنسان ظلومٌ وكفّار:

توصّلنا في البحوث السابقة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الله سخّر للإنسان جميع الموجودات، وهيّأ له كلّ هذه النعم بحيث سدّ جميع احتياجاته، ولكن الإنسان بسبب ابتعاده عن نور الإيمان والتربية، نراه يخطو في طريق الظلم والطغيان ويكفُر بالنعم.

ويسعى المحتكرون في احتكار النعم الإلهيّة الواسعة والسيطرة على منابعها الحياتية، مع أنّهم لا يستهلكون إلّا الشيء القليل ويحرمون الآخرين منها، ويظهر هذا الظلم بأشكال مختلفة من السيطرة على الشعوب الضعيفة واستعمارها والتجاوز على حقوق الآخرين فيُعرِّض الإنسان حياته الهادئة إلى الهلاك، يخلق الحروب، ويسفك الدماء، ويقضي على الأموال والأنفس، وفي الحقيقة فإنّ القرآن الكريم يناديه: أيّها الإنسان كل شيء بالقدر الكافي تحت تصرُّفك، بشرط أن لا تكون ظلوماً كفّاراً عليك أن تقنع بحقّك، ولا تتجاوز على حقوق الآخرين.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمٰن: ١-٦].

التّفسير

بداية النعم الإلهية:

لمّا كانت هذه السورة ـ كما قلنا ـ تبيّن أنواع النعم والهبات الإلهيّة العظيمة، فإنّها تبدأ بإسم (الرحمن) والذي يرمز إلى الرحمة الواسعة، ولو لم تكن (الرحمانية) من صفاته لم ينعم بهذا الخير العميم على عباده الصالحين والعاصين، لذلك يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[1].

﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ وبهذا فإنّ أوّل وأهمّ نعمة تفضّل بها الله سبحانه، هي نعمة «تعليم القرآن»، وما أروعه من تعبير! حيث إنّنا إذا تأمّلنا جيّداً فإنّنا ندرك أنّ هذا الكتاب العظيم هو مصدر كلّ الخير والنعم والعطايا الإلهيّة العظيمة، كما أنّه وسيلة للوصول إلى السعادة والخيرات المادية والمعنوية.

والطريف هنا أنّ بيان نعمة (تعليم القرآن) ذُكرت قبل ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ و ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ في الوقت الذي يفترض فيه أن تكون الإشارة أوّلاً إلى مسألة خلق الإنسان، ومن ثمّ نعمة تعليم البيان، ثمّ نعمة تعليم القرآن، وذلك استناداً للترتيب الطبيعي، إلّا أنّ عظمة القرآن الكريم أوجبت أن نعمل خلافاً للترتيب المفترض.

وقد جاءت هذه الآية جواباً لمشركي العرب حينما طلب منهم الرسول ﷺ السجود للرحمن، فسألوه «وما الرحمن»؟ (الفرقان) فأجابهم بتوضيح ذلك حيث يقول سبحانه «الرحمن هو الذي علم القرآن وخلق الإنسان وعلّمه البيان».

وعلى كلّ حال، فإنّ لإسم «الرحمن» أوسع المفاهيم بين أسماء الباري عزّ وجلّ بعد إسم الجلالة (الله) لأنّنا نعلم أنّ لله رحمتين: (الرحمة العامّة) و(الرحمة الخاصّة) واسم «الرحمن» يشير إلى رحمة الله العامّة التي تشمل الجميع، كما أنّ إسم «الرحيم» يشير إلى «الرحمة الخاصّة» بأهل الإيمان

---

(١) الرحمن: مبتدأ وخبرها (علّم القرآن)، و(خلق الإنسان) خبر بعد خبر. كما توجد إحتمالات أخرى أيضاً لإعراب هذه الجملة لم تذكر هنا لعدم أهميّتها.

والطاعة، ولعلّه لهذا السبب لا يطلق إسم الرحمن على غير الله سبحانه، (إلا إذا كانت كلمة عبد قبله)، أمّا وصف «الرحيم» فيقال لغير الله أيضاً، وذلك لأنّه لا أحد لديه الرحمة العامّة سوى الله تعالى، أمّا الرحمة الخاصّة فإنّها موجودة في المخلوقات وإن كانت بصورة محدودة.

وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام نقرأ ما يلي: «الرحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، والرحيم إسم عام بصفة خاصّة». (يعني أنّه إسم مخصوص لله، ورحمته تشمل جميع خلقه)، لكن الرحيم اسم عام لصفة خاصّة (يعني أنّه وصف يستعمل لله وللخلق)، وكما عرّف القرآن المجيد الرّسول الأكرم ﷺ بأنّه (رؤوف رحيم) حيث يقول سبحانه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهنا يطرح التساؤل التالي: من الذي علّمه الله سبحانه القرآن الكريم.

ذكر المفسّرون في ذلك تفسيرات عديدة، فبعضهم قال: إنّ الله علّم القرآن لجبرائيل والملائكة، وقال آخرون: إنّ الله سبحانه علّمه للرسول، وذكر ثالث: أنّه عُلّمَ للإنس والجنّ.

ولكون هذه السورة تبيّن الرحمة الإلهيّة للإنس والجنّ ولذا أكّد سبحانه إقرارهم بالنعمة إحدى وثلاثين مرّة، وذلك بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٣] لهذا فإنّ التّفسير الأخير هو الأنسب، أي إنّ الله علّم القرآن للإنس والجنّ بواسطة نبيّه الكريم محمّد ﷺ[1].

وبعد ذكره سبحانه لنعمة القرآن التي لا مثيل لها ينتقل إلى أهمّ نعمة في الترتيب المذكور ويقول: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

من الطبيعي أنّ المقصود هنا هو نوع الإنسان وليس آدم عليه السلام فقط، حيث سيتحدّث عنه سبحانه في الآيات اللاحقة بصورة مستقلّة، كما أنّه ليس المقصود بذلك النّبي محمّد ﷺ مع العلم أنّ الرّسول محمّد ﷺ هو أفضل وأعلى مصداق للإنسان.

---

(١) إختلف المفسّرون حول أنّ المفعول الأوّل لـ (علّم) هو المحذوف، أو أنّ المحذوف هو المفعول الثاني، والأنسب أنّ المفعول الأوّل هو المحذوف حيث في التقدير يكون: (علّم الإنس والجنّ القرآن). كما يحتمل البعض أنّ (علّم) لم تأخذ أكثر من مفعول واحد بمعنى موضع العلاقة وهذا مستبعد جدّاً.

وإطلاق كلمة (البيان) التي تأتي بعد خلق الإنسان دليل آخر على عمومية كلمة الإنسان، وبناءً على هذا فإنّ التفاسير الأُخرى التي ذكرت لم تكن صحيحة.

والحقيقة أنّ خلق الإنسان هذا الكائن الذي تتجمّع فيه كلّ عجائب الوجود، هذا الموجود الذي هو خلاصة الموجودات الأُخرى، هذا العالَم الصغير الذي اندرج فيه العالَم الكبير، لهو نهمة منقطعة النظير حيث إنّ كلّ بعد من أبعاد وجوده المختلفة نعمة كبيرة.

وبالرغم من أنّ بداية الإنسان ليست أكثر من نطفة لا قيمة لها، بل الأصحّ أنّ بدايته عبارة عن موجود مجهري يسبح في نطفة لا وزن لها، إلّا أنّه في ظلّ الرعاية الإلهيّة يسير في مراحل التكامل بصورة يرتقي فيها إلى مقام أشرف موجود في عالم الخلق.

إنّ ذكر إسم «الإنسان» بعد «القرآن» هو الآخر يستوجب التأمل، ذلك لأنّ القرآن الكريم يمثّل مجموعة أسرار الكون بصورة مدوّنة «الكتاب التدويني»، والإنسان هو خلاصة هذه الأسرار بصورة تكوينية «الكتاب التكويني»، وكما أنّ كلّ واحدة منها هو صورة من هذا العالم الكبير.

وتشير الآية اللاحقة إلى أهمّ النعم بعد نعمة خلق الإنسان حيث يقول الباري عزَّ وجلَّ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

كلمة (البيان) لها معنى لغوي واسع، حيث تقال لكلّ شيء يوضّح ويبيّن شيئاً معيناً، وبناءً على هذا فإنّها لا تشمل النطق والكلام فحسب، بل تجمع الكتابة والخطّ وأنواع الإستدلالات العقليّة والمنطقية التي تبيّن المسائل المختلفة والمعقّدة أيضاً رغم أنّ معالم هذه المجموعة هي التكلّم والنطق.

ونظراً لتعوّدنا ممارسة الكلام، فقد نتصوّر أنّه أمر بسيط وسهل، والحقيقة أنّ التكلّم من أعقد وأظرف أعمال الإنسان، ويمكننا القول بعدم وجود عمل على شاكله من ناحية التعقيد والظرافة.

فمن جهة نجد أنّ الأجهزة المختصّة لإصدار الصوت تتساعد وتتعاون مع بعضها لإيجاد الأصوات المختلفة. فالرئة تجمع الهواء لتخرجه من الحنجرة تدريجيّاً، والأوتار الصوتية تهتزّ لتولّد أصواتاً مختلفة تماماً، بعضها تعبّر عن حالة الرضى، والأُخرى عن الغضب، والثالثة تعبّر عن النجدة والإستغاثة

وطلب العون، والرابعة عن المحبّة أو العداوة وهكذا. ثمّ إنّ هذه الأصوات ـ بمساعدة اللسان والشفتين والأسنان والحلق ـ تصنع الحروف الأبجدية بسرعة وظرافة خاصّة، وبتعبير آخر: إنّ الصوت الممتدّ والمتساوي الذي يخرج من الحنجرة يقطّع إلى أشكال وقياسات مختلفة حيث تتشكّل منه الحروف.

ومن جهة أخرى فهناك مسألة اللغات، حيث إنّ الإنسان يبتدع لغات مختلفة حسب احتياجاته المادّية والمعنوية، وذلك إثر تطوّره وتقدّمه الفكري. والعجب هنا عدم وجود أي محدودية في وضع اللغات، حيث نلاحظ تعدّد الألسن في عالمنا هذا بصورة يصعب إحصاؤها بصورة دقيقة، كما أنّنا نلاحظ أيضاً نشوء لغات جديدة وألسن جديدة بصورة تدريجيّة مع مرور الزمن. ويعتقد البعض أنّ عدد اللغات الموجودة في عالمنا اليوم يصل إلى ثلاثة آلاف لغة، يذهب آخرون إلى أكثر من ذلك[1].

والظاهر أنّ ذلك يتعلّق باللغات والألسن الأصليّة، أمّا إذا أخذت اللهجات المحليّة بنظر الإعتبار فإنّها ستصبح أكثر من ذلك بكثير قطعاً، حيث لاحظ المتبعون لأمور اللهجات أنّ قريتين متجاورتين تتحدّثان بلسانين مختلفين أحياناً.

ومن جهة ثالثة هناك مسألة ترتيب الجمل والإستدلال وبيان العواطف عن طريق العقل والفكر، لأنّها تمثّل روح البيان والنطق... ولهذا الأمر فإنّ التكلّم أمر خاصّ بالإنسان فقط.

صحيح أنّ الكثير من الحيوانات تحدث أصواتاً مختلفة كي تعبّر عن احتياجاتها، إلّا أنّ عدد هذه الأصوات محدود جدّاً ومبهم وغير معلوم، في حين أنّ البيان وضع في اختيار الإنسان بصورة واسعة وغير محدودة، لأنّ الله تعالى قد أعطاه القدرة الفكرية اللازمة للتكلّم.

وإذا تجاوزنا كلّ ذلك وأخذنا دور البيان في تكامل وتقدّم الحياة الإنسانية، فمن الواضح أنّ الإنسان لم يكن بمقدوره وإمكانه أن ينقل تجاربه وعلومه من جيل إلى آخر بهذه السهولة وبالتالي أدّى إلى التقدّم والعلم والدين والأخلاق... وإذا ما سلبت هذه النعمة العظيمة من الإنسان ليوم واحد فإنّ

(١) دائرة المعارف، لفريد وجدي، ج٨، ص٣٦٤ مادة: (لغة).

المجتمع الإنساني سوف يأخذ طريقه نحو التقهقر بسرعة، ولو أخذنا «البيان» بمعناه الواسع الذي يشمل الخطّ والكتابة والفنون المختلفة، فإنّه سيتّضح لدينا بصورة أكثر دوره الهامّ في الحياة الإنسانية.

ومن هنا ندرك لماذا جاءت عبارة (تعليم البيان) بعد نعمة خلق الإنسان في سورة الرحمن التي هي مجموعة من هبات الله تعالى.

وتطرّق بعد ذلك إلى النعمة الإلهيّة الرابعة والتي هي هبة من هبات الله العظيمة أيضاً، حيث يقول تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[1].

إنّ أصل وجود الشمس من أكبر النعم الإلهيّة للإنسان، لأنّ العيش في المنظومة الشمسية بدون نور وحرارة الشمس أمر غير ممكن، وكما بيّنا سابقاً فإنّ كلّ حركة في الكرة الأرضية مصدره حرارة الشمس، حيث إنّ نمو ونضج النبات والمواد الغذائية أجمع، بالإضافة إلى سقوط الأمطار وهبوب الرياح، كلّها ببركة هذه الهبة الإلهيّة.

كما أنّ للقمر دوراً هامّاً في حياة الإنسان، فبالإضافة إلى أنّه يضيء الليالي المعتمة، فإنّ جاذبيته هي علّة المدّ والجزر في البحار والمحيطات، وهي عامل لبقاء الحياة في البحار، كما أنّها تقوم بدورها في إرواء كثير من المناطق القريبة للسواحل والتي تصبّ الأنهار بالقرب منها.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ ثبات الإنتظام لهاتين الحركتين (حركة القمر حول الأرض، حركة الأرض حول الشمس) هو السبب في الظهور المنتظم لليل والنهار والسنين والشهور والفصول المختلفة، وبالتالي فإنّه سبب أساسي لانتظام الحياة الإنسانية وبرمجة الأمور التجارية والصناعية والزراعية، وإن فقد الإنتظام فيها فسوف تضطرب الحياة البشرية وتختلّ الكثير من مرتكزاتها.

وليس لحركة هذين الكوكبين نظام دقيق جدّاً فحسب، بل إنّ مقدار كثافة وجاذبية ومسافة كلّ منها عن الأرض هي الأخرى محسوبة بدقّة وحساب (وحسبان).

---

(١) «حسبان» على وزن (غفران) وهي مصدر بمعنى الحساب والنظم والترتيب، وللآية محذوف تقديره (والشمس والقمر تجريان بحسبان).

ومن المؤكّد أنّ اختلال كلّ واحدة من هذه الأمور سيولّد اختلالات عظيمة في المنظومة الشمسية، ومن ثمّ في النظام الحياتي للبشر.

والعجيب هنا أنّ هذه الأجزاء عندما انفصلت من الشمس كانت في حالة الإضطراب والفوضى، إلّا أنّها ثبتت واستقرّت أخيراً بالشكل الحالي، حيث يقول في هذا المجال أحد علماء العلوم الطبيعيّة.

«وجدت منظومتنا الشمسية ـ في الظاهر ـ من مخلوط من مواد متنوّعة وعناصر مختلفة إنفصلت عن الشمس بدرجة حرارية عالية تبلغ (١٢/٠٠٠) درجة وبسرعة فائقة تناثرت في الفضاء الواسع.

وبالرغم من هذا الإضطراب الظاهري فقد لوحظ الإنتظام الدقيق والترتيب المنسّق بحيث إنّنا نستطيع أن نتنبّأ بالحوادث المستقبلية حتّى بالدقائق واللحظات، ونتيجة لهذا النظام والترتيب نلاحظ أنّ الأوضاع الفلكية هذه باقية على هذا الحال مدّة ألف مليون سنة»[١].

والجدير بالذكر أنّ الشمس بالرغم من أنّها في وسط المنظومة الشمسية وتبدو ساكنة وثابتة، إلّا أنّها مع جميع كواكبها وأقمارها تسير في وسط المجرّة المتعلّقة بها إلى نقطة معيّنة (تسمّى هذه النقطة بنجمة فيكا) وهذه الحركة لها أيضاً نظام وسرعة معينة.

ثمّ يتحوّل بنا الله إلى نعمة عظيمة أُخرى هي الخامسة في مسلسل ما ذكره سبحانه من النعم في هذه السورة المباركة، حيث يوجّه النظر إلى ألطافه في الأرض حيث يقول: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

«النجم» يأتي أحياناً بمعنى كوكب، ويأتي أُخرى بمعنى النبات الذي لا ساق له، ولمّا جاءت الكلمة هنا بقرينة «الشجر» فيكون المقصود هو المعنى الثاني، أي النباتات بدون سيقان[٢].

وهذا المصطلح معناها في الأصل (الطلوع) وإذا أُطلق على النباتات (نجم) فلأنّها تخرج من الأرض، وإذا أُطلق على النجمة فلأنّها تطلع؟

(١) سرّ خلق الإنسان، ص٢٨.

(٢) الراغب في مفرداته حيث يقول: «النجم ما لا ساق له من النبات».

ومن الواضح أنّ النبات مصدر لجميع المواد الغذائية للإنسان، حيث يستهلك قسماً مباشراً منه، والقسم الآخر تستهلكه الحيوانات الأخرى التي هي جزء أساسي من غذاء الإنسان، ومن هنا فإنّ النبات هو مصدر غذاء الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وهذا المعنى يصدق أيضا في عالم الحيوانات البحرية، لأنّها تتغذّى على نباتات صغيرة جدّاً تنبت في البحر وتوجد بكثرة هائلة تقدّر بملايين البليارات، وهي المصدر الغذائي لهذه الحيوانات البحرية. وتنمو هذه النباتات الصغيرة في البحر بتأثير الضوء (أشعة الشمس) التي تتحرّك بين الأمواج.

وبهذا فإنّ «النجم» أنواع من النباتات الصغيرة الزاحفة (مثل اليقطين والخيار وأمثاله). أمّا (الشجر) فإنّه النوع الآخر من النباتات التي لها سيقان وتشمل أشجار الفاكهة ونباتات الغلّات وغير ذلك.

وتعبير (يسجدان) إشارة إلى التسليم والخضوع أمام القدرة الإلهيّة وقوانين الخلقة والإبداع الإلهي لأجل نفع الإنسان، هذا المسير الذي عيّنه الله لهم يسيرون فيه بدون أي تخلّف من عظمة وقدرة الله سبحانه[١].

كما يحتمل أن يكون المقصود من «النجم» في الآية المذكورة هي «النجوم»، ولكن المعنى الأوّل هو طبقاً للقرائن الموجودة في الآية الكريمة هو الأنسب.

ملاحظة

تأملات في الرّوايات:

نقلت المصادر الإسلامية في هامش الآيات أعلاه روايات من قبيل التّفسير بالمصداق واضح، حيث إنّ كلّ واحدة منها تلقي الضوء على قسم من الآيات الكريمة.

ففي حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسير ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ يقول: «البيان الإسم الأعظم الذي به علم كلّ شيء»[٢].

---

(١) قال في الأمثل: بحثنا تفصيلاً حول معنى (سجود الموجودات المختلفة في عالم الوجود) في هامش الآية رقم (١٨) من سورة الحج. وكذلك في هامش الآية (٤٤) من سورة الإسراء.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٩٧.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمٰن: ٧-١٣]

التّفسير

السماء رفعها ووضع الميزان:

هذه الآيات هي استمرار لبيان النعم الإلهية التي جاء ذكر خمس منها في الآيات السابقة، حيث تحدّثت عن أهمّ الهبات التي منحها الله سبحانه.

وفي الآية مورد البحث يتحدّث سبحانه عن النعمة السادسة، ألا وهي نعمة خلق السماء حيث يقول:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾.

(السماء) في هذه الآية سواء كانت بمعنى جهة العلو، أو الكواكب السماوية، أو جو الأرض (والذي يعني الطبقة العظيمة من الهواء والتي تحيط بالأرض كدرع يقيها من الأشعّة الضّارة والصخور السماوية وحرارة الشمس، والرطوبة المتصاعدة من مياه البحار لتتكوّن الغيوم وتنزل الأمطار)... إنّ كلّ واحدة من هذه المعاني هبة عظيمة ونعمة لا مثيل لها، وبدونها تستحيل الحياة أو تصبح ناقصة.

نعم إنّ النور يمنحنا الدفء والحرارة والهداية والحياة والحركة يأتينا من السماء وكذلك الأمطار، والوحي أيضاً، وبذلك فإنّ للسماء مفهوماً عامّاً، ماديّاً ومعنوياً).

وإذا تجاوزنا كلّ هذه الأمور، فإنّ هذه السماء الواسعة مع كلّ عوالمها هي آية عظيمة من آيات الله، وهي أفضل وسيلة لمعرفة الله سبحانه، وعندما يتفكّر أولو الألباب في عظمتها فسوف يقولون دون اختيار ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

ثمّ يستعرض سبحانه النعمة السابعة حيث يقول الله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

«الميزان» كلّ وسيلة تستعمل للقياس، سواء كان قياس الحقّ من الباطل، أو العدل من الظلم والجور، أو قياس القيم وقياس حقوق الإنسان في المراحل الإجتماعية المختلفة.

و(الميزان) يشمل كذلك كلّ نظام تكويني ودستور إجتماعي، لأنّه وسيلة لقياس جميع الأشياء.

و«الميزان» لغة: (المقياس) وهو وسيلة لوزن الأجسام الماديّة المختلفة، إلّا أنّ المقصود في هذه الآية ـ والذي ذكر بعد خلق السماء ـ أنّ لها مفهوماً واسعاً يشمل كلّ وسيلة للقياس بما في ذلك القوانين التشريعيّة والتكوينية، وليس وسيلة منحصرة بقياس الأوزان الماديّة فقط.

ومن هنا فلا يمكن أن تكون الأنظمة الدقيقة لهذا العالم، والتي تحكم ملايين الأجرام السماوية بدون ميزان وقوانين محسوبة.

وعندما نرى في بعض العبارات أنّ المقصود بالميزان هو «القرآن الكريم»، أو «العدل» أو «الشريعة»، أو «المقياس». ففي الحقيقة إنّ كلّ واحدة من هذه المعاني مصداق لهذا المفهوم الواسع الشامل.

ونستنتج من الآية اللاحقة استنتاجاً رائعاً حول هذا الموضوع حيث يضيف بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

حيث يوجّه الخطاب لبني الإنسان الذين يشكّلون جزءاً من هذا العالم العظيم ويلفت إنتباههم إلى أنّهم لا يستطيعون العيش بشكل طبيعي في هذا العالم، إلّا إذا كان له نظم وموازين، ولذلك فلا بدّ أن تكون للبشر نظم وموازين أيضاً حتى يتلاءموا في العيش مع هذا الوجود الكبير الذي تحكمه النواميس والقوانين الإلهيّة، خاصّة أنّ هذا العالم لو زالت عنه القوانين التي تسيّره فإنّه سوف يفنى، ولذا فإنّ حياتكم إذا فقدت النظم والموازين فإنّكم ستتجهون إلى طريق الفناء لا محالة. يا له من تعبير رائع حيث يعتبر القوانين الحاكمة في هذا العالم الكبير منسجمة مع القوانين الحاكمة على حياة الإنسان (العالم الصغير) وبالتالي ينقلنا إلى حقيقة التوحيد حيث مصدر جميع القوانين والموازين الحاكمة على العالم هي واحدة في جميع المفردات وفي كل مكان.

ويستفاد من بعض الروايات أنّ «الميزان»: قد فسّر بوجود (الإمام) وذلك لكون الوجود المبارك للإمام المعصوم هو وسيلة لقياس الحق من الباطل ومعيار لتشخيص الحقائق وعامل مؤثّر في الهداية[١]. وهكذا في تفسير «الميزان» بالقرآن الكريم ناظر إلى هذا المعنى.

ونظراً إلى أنّ هذه الآيات تتحدّث عن النعم الإلهيّة، فإنّ وجود الميزان سواء في نظم العالم أجمع أو المجتمع الإنساني أو الروابط الإجتماعية أو مجال العمل التجاري... فإنّها جميعاً نِعَم من قبل الله سبحانه.

ثمّ ينتقل سبحانه من السماء إلى الأرض فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

«الأنام» فسّرها البعض بمعنى (الناس)، وفسّرها آخرون بمعنى (الإنس والجنّ)، وفسّروها أيضاً بأنّها تشمل كلّ موجود (ذي روح).

إلّا أنّ قسماً من أئمّة اللغة فسّرها بمطلق (الخلق) ولكن القرائن الموجودة في السورة وطبيعة النداءات الموجّهة للإنس والجنّ تدلّل على أنّ المقصود هنا (الجنّ والإنس).

نعم، إنّ الكرة الأرضية التي ذكرت هنا بعنوان هبة إلهيّة مهمّة، وفي آيات أُخرى ذكرت بعنوان (مهاد) مأوى ومستقرّ للإنسان الذي لا يدرك قدرها غالباً في الحالات الإعتيادية، إلّا أنه في حالة حدوث تغيّر بسيط كزلزال مدمّر أو بركان بإمكانه أن يدفن مدينة بأكملها تحت المواد المذابة وعتمة الدخان ولهيب النار، هنا ندرك كم أنّ هدوء الأرض نعمة عظيمة، خصوصاً إذا وضعنا الأرقام التي توصّل إليها العلماء أمامنا فيما يتعلّق بسرعة حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس[٢]، عند ذلك يتبيّن لنا أهميّة هذا الهدوء الكامن في أعماق هذه الحركة السريعة جدّاً والتي هي ليست نوعاً واحداً، بل أنواع مختلفة.

(١) رُوي هذا الحديث في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والحديث مفصّل وقد ذكر مضمونه هنا فقط (تفسير علي بن إبراهيم، ج٢، ص٣٤٣).

(٢) سرعة الأرض حول الشمس (الحركة الإنتقالية) ٣٥ كلم في الثانية، وسرعة سيرها حول نفسها بحدود(١٦٠٠) كلم في الساعة، (في المناطق الإستوائية).

التعبير بـ (وَضَعَ) عن الأرض في مقابل (رَفَعَ) عن السماء، إضافةً إلى الروعة البلاغية في هذا التقابل فهو إشارة إلى تسخير الأرض ومنابعها للإنسان حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.

وبهذا الترتيب فقد ذكر لنا سبحانه النعمة العظيمة الثامنة في هذه السلسلة.

وفي الآية اللاحقة يستعرض ذكر النعمتين التاسعة والعاشرة من النعم الإلهيّة، والتي تتضمّن قسماً من المواد الغذائية التي وهبها الله سبحانه للإنسان حيث يقول تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾.

«الفاكهة» تشمل كلّ نوع من الفاكهة كما يقول الراغب في المفردات، وفسّرها البعض بأنّها تشمل جميع أنواع الفاكهة باستثناء التمر، حيث ذكر «النخيل» في هذه السورة بصورة مستقلّة، ويمكن أن يكون ذكر النخيل بسبب أهميّة النخل والتمر لا استثناءً من عموم لفظ الفاكهة.

«أكمام» جمع (كِم) على وزن (جِن) تطلق على الغلاف الذي يغطي الفاكهة. و(كُمّ) على وزن (قُمْ) القسم الخاصّ باليدين من الثوب، و(كمة) على وزن (قبة) بمعنى القبعة التي تُغطّي الرأس[1].

إنّ اختيار هذا الوصف لفاكهة شجرة النخل - والتي تكون في البداية مختفية في غلاف ثمّ ينشقّ الغلاف عن ثمر منضود وبشكل جميل وجذّاب - يمكن أن يكون لهذا الجمال الأخّاذ أو للمنافع الجمّة الكامنة في هذا الغلاف، فهو بالإضافة إلى كونه يقوم بمهمّة حفظ الثمرة من الآفات لحين النمو المناسب والقدرة الملائمة ويكون دوره كرحم الأمّ الذي يحافظ على الجنين فترة زمنية مناسبة قبل خروجه إلى عالم الدنيا... فإنّه كذلك يحوي عصارة (الاسانس) الخاصّة والتي تتميّز بالمنافع الطبيّة والغذائية.

كما أنّ الروعة تكمن في الوضع الخاصّ لفاكهة هذه الشجرة أيضاً، حيث تتجمّع في كميّات كبيرة منها بصورة عناقيد لتسهّل عملية قطف ثمارها، ولو افترضنا أنّ ثمار هذه الشجرة متناثرة كما في شجرة التفاح فإنّ عملية قطف الثمار ستكون صعبة للغاية قياساً لطول شجرة النخل.

(١) لنا بحث مفصّل في هذا الموضوع في تفسيرنا هذا، ذيل الآية (٤٧) من سورة فصّلت.

ثمّ يتحدّث سبحانه عن النعمة الحادية عشرة والثانية عشرة حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

الحبوب مصدر أساسي لغذاء الإنسان، وأوراقها الطازجة واليابسة هي غذاء للحيوانات التي هي لخدمة الإنسان، حيث يستفيد من حليبها ولحومها وجلودها وأصوافها، وبهذا الترتيب فلا يوجد شيء فيها غير ذي فائدة.

ومن جهة أُخرى، فإنّ الله تعالى خلق الأزاهير المعطّرة والورود التي تعطّر مسام الجسم والروح وتبعث الإطمئنان والنشاط، ولذا فإنّ الله سبحانه قد أتمّ نعمه على الإنسان.

(الحبّ) يقال لكلّ نوع من أنواع الحبوب.

(عَصْف) على وزن «حَرْب» بمعنى الأوراق والأجزاء التي تنفصل عن النبات وينشرها الهواء في جهات مختلفة، ويقال لها التِّبْن أيضاً.

وذكروا أنّ «للريحان» معاني عديدة من جملتها النباتات المعطّرة، وكذلك كلّ رزق والمعنى الأوّل هو الأنسب هنا.

وبعد ذكر هذه النعم العظيمة (المادية والمعنوية) ينقلنا في آخر آية من البحث مخاطباً الجنّ والإنس بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيث يلفت نظرهم إلى كلّ هذه النعم الكبيرة التي شملت كلّ مجالات الحياة وكلّ واحدة منها أثمن وأعظم من الأخرى . . . ألا يدلّ كلّ هذا على لطف وحنان الخالق. . . فكيف يمكن التكذيب بها إذاً؟

إنّ هذا الإستفهام استفهام تقريري جيء به في مقام أخذ الإقرار، وهناك رواية تؤكّد على ضرورة تعقيبنا بهذه العبارة (لا شيء من آلائك ربّي أكذّب) بعد كلّ مرّة نتلو فيها الآية الكريمة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وبالرغم من أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن الإنسان فقط، ولم يأت حديث عن طائفة (الجنّ) إلّا أنّ الآيات اللاحقة تبيّن أنّ المخاطب في ضمير التثنية هم (الجنّ) كما سنرى ذلك.

وعلى كلّ حال، فإنّ الله تعالى يضع (الإنس والجنّ) في هذه الآية مقابل الحقيقة التالية: وهي ضرورة التفكّر في النعم الإلهيّة السابقة التي منحها الله

لكم وتسألون أنفسكم وعقولكم هذا السؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن لم تكذّبوا بهذه النعم، فلماذا تتنكّرون لوليّ نعمتكم؟ ولماذا لا تجعلون شكره وسيلة لمعرفته؟ ولماذا لا تعظّمون شأنه؟

إنّ التعبير بـ(أي) إشارة إلى أنّ كلّ واحدة من هذه النعم دليل على مقام ربوبية الله ولطفه وإحسانه، فكيف بها إذا كانت هذه النعم مجتمعة؟

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرحمٰن: ١٩-٢٥].

التّفسير

البحار وذخائرها الثمينة:

إستمراراً لشرح النعم الإلهيّة يأتي الحديث هنا عن البحار، ولكن ليس عن خصوصيات البحار بصورة عامّة، بل عن كيفية خاصّة ومقاطع معيّنة منها تمثّل ظواهر استفادة البشرية.

يقول تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ولكن بين هذين البحرين المتلاقيين فاصل يمنع من طغيان وغلبة أحدهما على الآخر: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾.

المقصود من البحرين هما الماء العذب والماء المالح، وذلك بالإستدلال بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

والتساؤل هنا عن مكان هذين البحرين اللذين لا يمتزجان مع بعضهما، وما هو البرزخ الموجود بينهما؟ هناك كلام كثير بين المفسّرين حول هذه المسألة، إلّا أنّ بعض التفسيرات تدلّل على عدم اطّلاعهم على أوضاع البحار في ذلك الزمان، منها أنّهم ذكروا أنّ المقصود من البحرين هما (بحر فارس وبحر الروم) في الوقت الذي نعلم أنّ ماء هذين البحرين مالح، ولا يوجد بينهما برزخ.

أو قولهم: إنّ المقصود بذلك هو بحر السماء وبحر الأرض، والذي يكون

الأوّل عذباً والثاني مالحاً، في الوقت الذي نعلم أيضاً بعدم وجود بحر في السماء باستثناء الغيوم والبخار التي تتبخّر من المحيطات.

وقالوا أيضاً: إنّ المقصود من البحر العذب هو المياه التي تحت الأرض والتي لا تختلط مع مياه البحار، والبرزخ الموجود بينهما هو جدران هذه الآبار.

في الوقت الذي نعلم أيضاً أنّ الماء الموجود تحت الأرض أقلّ من أن يشكل بحراً.

نعم إنّ جزئيات الماء المخفية بين طبقات التراب والرمل تتجمّع تدريجياً، وتخرج عندما يحفر بئر في نقطة معيّنة. وهي كميّة محدودة بالإضافة إلى عدم وجود اللؤلؤ والمرجان فيها.

إذاً ما هو المقصود من هذين البحرين؟

قال في الأمثل: لقد أشرنا إلى هذه الحقيقة في تفسير سورة الفرقان، وهي أنّ الأنهار العظيمة ذات المياه العذبة عندما تصبّ في البحار والمحيطات فإنّها تشكّل بحراً من الماء الحلو إلى جنب الساحل وتطرد الماء المالح إلى الخلف، والعجيب أنّ هذين الماءين لا يمتزجان مع بعضهما لمدّة طويلة بسبب إختلاف درجة الكثافة. وتلاحظ هذه المناظر بوضوح عند السفر بالطائرة في المناطق التي تكون فيها هذه الظاهرة، حيث المياه العذبة تمثّل بحراً منفصلاً في داخل البحر المالح ومنفصلة عنها، وعندما تمتزج أطراف هذين البحرين فإنّ المياه العذبة الجديدة تأخذ مكانها بحيث إنّ هذين البحرين منفصلان على الدوام بشكل ملفت للنظر.

والظريف هنا ما يحصل في حالة (مدّ البحر) فبارتفاع سطح المحيط إلى الأعلى، فإنّ المياه العذبة ترجع إلى الداخل دون أن تختلط مع المياه المالحة - باستثناء سنوات الجدب التي تنعدم فيها الأمطار ويشحّ الماء - وتغطّي قسماً من اليابسة، لذلك فكثيراً ما تستمر هذه الحالة بإيجاد أنهار وقنوات في المناطق الساحلية حيث تسقي بهذه الطريقة الكثير من الأراضي الزراعية.

إنّ هذه الأنهر توجد ببركة وحركة (المدّ والجزر) الساحليتين وتأثيرهما

على مياه هذه الأنهار التي تمتلىء وتفرغ مرّتين في كلّ يوم بالماء العذب، ممّا يتيح فرصة طيّبة لسقي مناطق واسعة من الأراضي الزراعية.

ويوجد تفسير رائع آخر لهذين البحرين، حيث قالوا: إنّ المقصود منهما يحتمل أن يكون ظاهرة (كلف استريم) والذي سيأتي شرحها في آخر هذه الآيات إن شاء الله.

ومرّة أخرى يخاطب الله تعالى عباده في معرض حديثه عن هذه النعم حيث يسألهم سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

واستمراراً لهذا الحديث يقول عزّ وجلّ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

اللؤلؤ والمرجان: وسيلتان للتجميل والزينة، ويستفاد منهما أيضاً في معالجة بعض الأمراض، كما أنّهما ثروة تجارية أيضاً ووسيلة جيّدة للربح الوفير، ولهذه الموارد أشير إليهما كنعمتين إلهيتين للعباد.

أمّا «اللؤلؤ» فهو حبّة شفّافة ثمينة تنمو في داخل الصدف في أعماق البحار، وكلّما كبر حجمها زاد ثمنها، ولها استعمالات واسعة في الطبّ، حيث كان الأطباء سابقاً يستحضرون منها بعض الأدوية التي تفيد في تقوية القلب والأعصاب، وعلاج أنواع الخفقان وتقوية الكبد وعلاج اليرقان، ومعالجة الخوف والوحشة، ورفع الرائحة النتنة من الفمّ، وكذلك الحصى في الكلية والمثانة، ويستفاد منهما أيضاً في علاج بعض أمراض العين.

«المرجان» فسّر البعض المرجان بأنّه اللؤلؤ الصغير، إلّا أنّه في الحقيقة شيء آخر، فهو كائن حيّ يشبه الغصن الصغير للشجرة، وينشأ في أعماق البحار، وكان العلماء يتصوّرون لفترة زمنية أنّ هذه الشجرة نوع من أنواع النباتات، إلّا أنّه اتّضح فيما بعد أنّه نوع من الحيوانات، بالرغم من أنّه يلتصق بالصخور الموجودة في أعماق البحر ويغطّي مساحات واسعة أحياناً وينمو تدريجيّاً بحيث يشكّل جزراً تعرف بالجزر المرجانية، وينمو المرجان غالباً في المياه الراكدة، ويصطاده الصيادون من سواحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وفي مناطق أخرى.

وأفضل أنواع المرجان الذي يستعمل للزينة هو المرجان ذو اللون الأحمر،

وكلّما كان احمراره أشدّ كانت قيمته أغلى وأثمن، وهو مادّة خصبة لتشبيهات الشعراء، كما أنّ أردأ أنواع المرجان هو المرجان الأبيض ويوجد بكثرة، وما بين النوعين هو المرجان الأسود.

وإضافة إلى استعمال المرجان كحليّ وزينة، فإنّ له استعمالات طبيّة حيث ذكروا له خواصاً كثيرة منها أنّه يصنع منه بعض الأدوية الخاصّة بتقوية القلب، وكذلك دفع سمّ الأفعى، وتقوية الأعصاب، ومعالجة الإسهال، ونزيف الرحم، وعلاج الصرع[1].

والنقطة الأخرى التي يجدر بنا ذكرها هنا أنّ بعض المفسّرين صرّحوا بأنّ اللؤلؤ والمرجان ينشآن فقط في المياه المالحة، ممّا أوقعهم في إشكال تفسير الآية: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فذهبوا إلى أنّ المقصود هو أحدهما كما في الآية (٣١) من سورة الزخرف.

إلّا أنّ مثل هذا التّفسير لا يدعمه دليل، حيث صرّح البعض بأنّ اللؤلؤ والمرجان يعيشان في الماء العذب والمالح على السواء.

واستمراراً لهذا القسم من النعم الإلهيّة يشير سبحانه إلى موضوع (السفن) التي هي في الحقيقة أكبر وأهمّ وسيلة لنقل البشر وحمل الأمتعة في الماضي والحاضر، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾.

«جوار»: جمع جارية، وهي وصف للسفن، وحذفت للإختصار لأنّ التركيز الأكثر كان على سير وحركة السفن، لذا اعتمد هذا الوصف.

كما تطلق جارية على (الأمة)، وذلك بسبب حركتها وسعيها في إنجاز الأعمال والخدمات، وتطلق أيضاً على الفتيات الشابّات وذلك لجريان النشاط فيهنّ.

«منشآت» جمع (منشأ) وهو إسم مفعول من (إنشاء) بمعنى إيجاد، والظريف هنا أنّه في الوقت الذي يعبّر عن «منشآت» والتي تحكي أنّها مصنوعة بواسطة الإنسان، يقول سبحانه (وله) أي لله تعالى وهو إشارة إلى أنّ جميع الخواص التي يستفاد منها في صناعة السفن، والتي منحها الله للبشر

(١) دائرة المعارف فريد وجدي، وكتب أخرى.

المخترعين لهذه الصناعة هي لله، وكذلك فإنّه هو الذي أعطى خاصية السيولة لمياه البحر والقوّة للرياح، وأنّ الله تعالى هو الذي أوجد هذه الخواص في المواد المتعلّقة بالسفينة، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بالتسخير أيضاً، حيث يقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وفسّر البعض «منشأ» من مادّة (إنشاء) بمعنى إرتفاع الشيء، واعتبروها إشارة إلى أشرعة السفن التي تستخدم كقوّة في حركة السفينة، وذلك بسبب دفع الرياح لها.

«أعلام» جمع (علم) على وزن (قلم)، بمعنى (جبل) بالرغم من أنها في الأصل بمعنى (علامة وأثر) والذي يخبر عن شيء معيّن، ولأنّ الجبال تكون واضحة من بُعد فإنّه يعبّر عنها بـ(العلم) كما أنّ لفظة(عَلَم) تطلق أيضاً على «الراية».

وبهذا فإنّ القرآن الكريم نوّه هنا بالسفن الكبيرة التي تتحرّك على سطح المحيطات والبحار، وعلى خلاف ما يتصوّر البعض فإنّ السفن الكبيرة لا تختّص بعصر الماكنة والبخار، بل لقد استفاد اليونانيون وغيرهم من السفن الكبيرة في نقل قواتهم وجيوشهم.

ومرّة أُخرى يكرّر سبحانه هذا السؤال العميق المغزى بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بحوث

١ ـ البحر مركز النعم الإلهيّة:

لاحظنا في هذا القسم من الآيات إشارة إلى البحر وأهميّته في الحياة البشرية، وكما نعلم فإنّ مياه البحار والمحيطات تشكّل ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية، وهي منبع عظيم للمواد الغذائية، والطبية، وأدوات الزينة، ووسيلة مهمّة لنقل البشر وحمل البضائع، والأهمّ من ذلك فإنّ نزول الأمطار واعتدال الهواء، وحتّى قسم من هبوب الرياح هي من بركات البحار، فإذا كان سطح البحار أقلّ أو أكثر ممّا هو عليه، فإنّ الكرة الأرضية إمّا أن تصبح يابسة أو رطبة لدرجة لا يمكن العيش فيها.

لذلك نرى أنّ القرآن الكريم قد ذكّر الإنسان ـ لعدّة مرّات وبتعبيرات

مختلفة بهذه النعمة العظيمة، ودعاه للتفكير بها، حيث يقول سبحانه: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [الجاثية: ١٢].

ويقول مرّة أخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥].

وإذا تجاوزنا كلّ ذلك فإنّ البحر هو دار العجائب حيث فيه أصغر النباتات المجهرية، وكذلك أطول أشجار العالم، وفيه أيضاً أصغر الحيوانات وكذلك أعظمها وأضخمها.

كما أنّ الحياة في أعماق البحار حيث لا ضوء ولا غذاء عجيبة إلى درجة أنّ الشخص لا يملّ من مطالعتها والاطلاع عليها، وكلّما تعرف الإنسان على شيء منها ازداد شغفاً بها، والعجيب أيضاً أنّ قسماً من الحيوانات هنالك تشعّ أضواءً وتُصنع مادّتها الغذائية على سطح البحر ومن ثمّ تترسّب، كما أنّ أطرافها محكمة ومقاومة إلى درجة أنّها تتحمّل ضغط الماء العظيم الذي إذا وضع الإنسان في حالته الطبيعية هناك فإنّ عظامه تتحوّل إلى طحين.

٢ ـ الأنهار البحرية العظيمة والكلف استيرين:

من العجائب الموجودة في محيطات العالم هو وجود أنهار عظيمة وتيارات بحرية كبيرة، وأقوى هذه الأنهار يسمّى (كَلف استيرين). إنّ هذا النهر العظيم يتحرّك من سواحل أمريكا المركزية ويسير في جميع المحيط الأطلسي حتّى يصل إلى سواحل أوروبا الشمالية.

والمعروف أنّ مياهه التي تسير من مناطق قريبة من خطّ الإستواء تكون حارة بل حتّى أنّ لونها يختلف عن لون المياه المجاورة، والعجيب أنّ عرض هذا النهر البحري العظيم (الكلف استيرين) بحدود (١٥٠) كلم، كما أنّ أعمق نقطة فيه تبلغ مئات الأمتار، وسرعته في بعض المناطق شديدة بحيث تبلغ في اليوم الواحد بـ ١٦٠ كلم.

إنّ اختلاف درجة حرارة هذا النهر مع المياه المجاورة بحدود ١٠ ـ ١٥ درجة مئوية، لذا فإنّ ساحله الغربي يسمّى بالجدار البارد.

والكلف استيرين يسبّب رياحاً حارّة ويدفع قسماً كبيراً من حرارته باتّجاه

مدن أوروبا الشمالية، حيث يؤثّر على مناخ تلك البلدان بحيث يكون معتدلاً للغاية، ويحتمل أن يكون العيش صعباً للغاية في هذه المناطق لو لم يوجد هذا المجرى العظيم.

ونكرّر مرّةً أُخرى أنّ (الكلف استيربن) هو أحد الأنهار في المحيطات، وهناك أنهار أُخرى كثيرة في بحار ومحيطات العالم.

إنّ السبب الأساس في تكوين هذه الأنهار البحرية هو اختلاف حرارة المنطقة الإستوائية والمناطق القطبية والتي توجد هذه الحركة في مياه البحار.

ويمكن استيعاب هذا الموضوع بتجربة بسيطة:

فإذا كان لدينا ماء في وعاء كبير، ووضعنا في جانب منه قطعة ثلجية، وفي الجهة الأُخرى قطعة حديدية حارّة ووضعنا على سطح الماء قليلاً من التبن، فإنّنا سنلاحظ ظهور حركة على سطح الماء حيث يتحرّك الماء ببطء من المنطقة الحارّة باتّجاه المنطقة الباردة.

إنّ مثل هذه الحالة تحصل في كلّ بحار العالم، وهي مصدر ظهور هذه الأنهار البحرية.

والعجيب أنّ هذه الأنهار العظيمة لا تمتزج مع المياه حولها إلّا قليلاً، وتسير آلاف الكيلومترات على هذه الصورة، وبذلك تعبّر عن مصداقية الآية الكريمة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

والملفت للنظر أنّ في نقطة التقاء هذه المياه الحارّة مع المياه الباردة، تحدث ظاهرة مفيدة جدّاً للإنسان، وهي حدوث حالة من الإغماء أو الموت الجماعي للحيوانات المجهرية المعلّقة في الماء وذلك في نقطة التماس والإلتقاء بين المياه الحارّة والمياه الباردة وبهذا تتوفّر في هذه المناطق مواد غذائية كثيرة لا حصر لها وتكون سبباً في جذب قطعان الأسماك الكبيرة، حيث يقصد الصيادون هذه المناطق للإستفادة من صيد هذه الحيوانات، وتعتبر هذه المنطقة من أفضل المناطق في العالم لصيد الأسماك[1].

(١) دائرة المعارف (الثقافية) ج١٢، ص١٢٢٨، وكذلك مجلة الميناء والبحر عدد ٤ ص١٠٠، بالإضافة إلى مصادر أُخرى.

وهذا يمثّل أحد التفاسير للآيات أعلاه، وهو لا يتنافى مع التفاسير الأُخرى، ولذا يمكن الجمع بينهما.

٣ ـ تفسير من أعماق الآيات:

نقل في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أنّه قال: «وعلي وفاطمة عليهما السلام بحران عميقان لا يبغي أحدهما على صاحبه. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قال الحسن والحسين»[١].

ونقل هذا المعنى عن بعض أصحاب الرّسول صلى الله عليه وآله في تفسير الدرّ المنثور[٢].

ونقله العلّامة الطبرسي في مجمع البيان مع اختلاف يسير.

ومن هنا نعلم أنّ القرآن الكريم له بطون، وأنّ آية واحدة يمكن أن تكون لها معان متعدّدة بل عشرات المعاني. والتّفسير الأخير هو من بطون القرآن، ولا يتنافى مع المعاني الظاهرية له.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٣-٨].

التّفسير

الحيوان ذلك المخلوق المعطاء:

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن نفي الشرك، جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل، وتوجه الإنسان نحو خالقه بطريقين:

الأوّل: عن طريق الأدلّة العقلية من خلال فهم ومحاولة استيعاب ما في الخلائق من نظام عجيب.

---

(١) تفسير القمّي، ج٢، ص٣٤٤.

(٢) الدرّ المنثور، ج٦، ص١٤٢.

الثاني: عن طريق العاطفة ببيان نعم الله الواسعة على الإنسان، عسى أن يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وتتّضح حقانيّة السماوات والأرض من نظامها المحكم وخلقها المنظم وكذلك من هدف خلقها وما فيها من منافع.

ثمّ يضيف: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده الله؟!

بل هل تستطيع أن تخلق بعوضة صغيرة أو ذرة تراب؟!

فكيف إذاً جعلوها شريكة لله سبحانه!!..

والمضحك المبكي في حال المشركين أنّهم يعتبرون الله هو الخالق عن علم وقدرة لهذا النظام العجيب والخلق البديع... ومع ذلك فهم يسجدون للأصنام!

وبعد الإشارة إلى خلق السماوات والأرض وما فيها من أسرار لا متناهية يعرّج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

«النطفة» (في الأصل) بمعنى: الماء القليل، أو الماء الصافي، ثمّ أطلقت على قطرات الماء التي تكون سبباً لوجود الإنسان بعد تلقيحها.

وحقيقة التعبير يراد به تبيان عظمة وقدرة الله عزَّ وجلَّ، حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطرة ماء حقيرة مع ما له من قيمة وتكريم وشرف بين باقي المخلوقات وعند الله أيضاً.

هذا إذا ما اعتبرنا «الخصيم» بمعنى الدافع والمعبر عمّا في نفسه، كما تخبرنا الآية (١٠٥) من سورة النساء بذلك: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ كما ذهب إليه جمع من المفسّرين.

وهناك من يذهب إلى تفسير آخر، خلاصته: بقدرة الله التامة خُلق الإنسان من نطفة حقيرة، ولكنّ هذا المخلوق غير الشكور يقف في كثير من المواضع مجادلاً خصيماً أمام خالقه، واعتبروا الآية السابعة والسبعين من سورة يس شاهداً على ما ذهبوا إليه.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل ـ كما يبدو ـ أقرب من الثّاني، لأنّ الآيات أعلاه في مقام بيان عظمة الله وقدرته، وتتبيّن عظمته بشكل جلي حين يخلق كائناً شريفاً جداً من مادة ليست بذي شأن في ظاهرها.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم: (خلقه من قطرة من ماء منتن فيكون خصيماً متكلماً بليغاً)[1].

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى نعمة خلق الحيوانات وما تدر من فوائد كثيرة للإنسان فيقول: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

فخلق الأنعام الدال على علم وقدرة الباري سبحانه، فيها من الفوائد الكثيرة للإنسان، وقد أشارت الآية إلى ثلاث فوائد:

أوّلاً: «الدفء» ويشمل كل ما يتغطى به (بالإستفادة من وبرها وجلودها) كاللباس والأغطية والأحذية والأخبية.

ثانياً: «المنافع» إشارة إلى اللبن ومشتقاته.

ثالثاً: «منها تأكلون» أيّ، اللحم.

ويلاحظ تقديم الملابس والأغطية والمسكن، في عرض منافع الأنعام دون المنافع الأخرى، وهذا دليل على أهميتها وضروريتها في الحياة.

ويلاحظ أيضاً مجيء كلمة «الدفء» قبل «المنافع» إشارة إلى أنّ ما تدفع به الضرر مقدم على ما يجلب لك فيه المنفعة.

ويمكن للبعض ممن يخالفون أكل اللحوم أن يستدلوا بظاهر هذه الآية، حيث لم يعتبر الباري جلَّ شأنه مسألة أكل لحومها ضمن منافعها، ولهذا نرى قد جاءت ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بعد ذكر كلمة «المنافع»، وأقل ما يستنتج من الآية اعتبارها لأهمية الألبان أكثر بكثير من اللحوم.

ولم يكتف بذكر منافعها المادية، بل أشار إلى المنافع النفسية والمعنوية كذلك حين قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

«تريحون»: (من مادة الإراحة) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل استراحتها، ولهذا يطلق على ذلك المحل إسم (المراح).

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٣٩.

و«تسرحون»: (من مادة السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحاً إلى مراعيها.

عبّر القرآن بكلمة «جمال» عن تلك الحركة الجماعية للأنعام حين تسرع إلى مراعيها وتعود إلى مراحها، لما لها من جمال ورونق خاص يغبط الإنسان، والمعبر عن حقيقة راسخة في عمق المجتمع.

فحركة الإبل إضافة إلى روعتها فإنّها تطمئن المجتمع بأنّ ما تحتاجه من مستلزمات حياتك ها هو يسير بين عينيك، فتمتع به وخذ منه ما تحتاجه، ولا داعي لأن ترتبط بهذا أو ذاك فتضعف، وكأنّها تخاطبه: فأنت مكتف ذاتياً بواسطتي.

فـ«الجمال» جمال استغناء واكتفاء ذاتي، وجمال إنتاج وتأمين متطلبات أمّة كاملة، وبعبارة أوضح: جمال الإستقلال الإقتصادي وقطع كل تبعية للغير!

والحقيقة التي يدركها القرويون وأبناء الريف أكثر من غيرهم، هي ما تعطيه حركة تلك الأنعام من راحة نفسية للإنسان، راحة الإحساس بعدم الحاجة والإستغناء، راحة تأدية إحدى الوظائف الإجتماعية الهامة.

ومن لطيف الإشارة أن بدأت الآية أعلاه بذكر عودة الأنعام إلى مراحها حيث الملاحظ عليها في هذه الحال أثديتها ملأى باللبن. بطونها ممتلئة، يشاهد على وجوهها علائم الرضا والإرتياح ولا يُرى فيها ذلك الحرص والولع والعجلة التي تظهر عليها حين خروجها في الصباح، بل تسير هادئة مطمئنة نحو محل استراحتها، ويكفيك الشعور بالغنى من خلال رؤية أثدائها.

ثمّ يشير تعالى في الآية التي تليها إلى إحدى المنافع المهمّة الأخرى فيقول: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله عزّ وجلّ ورأفته حيث سخر لنا هذه الحيوانات مع ما تملك من قدرة وقوّة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

«الشق»: (من مادة المشقة)، ولكنّ بعض المفسّرين احتمل أنّها بمعنى الشق والقطع، أي أنّكم لا تستطيعون حمل هذه الأثقال وإيصالها إلى مقاصدكم إلّا بعد أن تخسروا نصف قوتكم.

ويبدو أنّ التفسير الأوّل أقرب من الثّاني.

فالأنعام إذاً: تعطي للإنسان ما يلبسه ويدفع عنه الحر والبرد. وكذلك

تعطيه الألبان واللحوم ليتقوت بها. وتترك في نفس الإنسان آثاراً نفسية طيبة. وأخيراً تحمل أثقاله.

وبالرغم ممّا وصل إليه التقدم التقني في مدنية الإنسان وتهيئة وسائل النقل الحديثة، إلّا أن سلوك كثير من الطرق لا زال منحصراً بالدواب.

ثمّ يعرج على نوع آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها في تنقلاته، فيقول: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

و«زينة» هنا ليست كلمة زائدة أو عابرة بقدر ما تعبر عن واقع الزينة في مفهومها الصحيح، وما لها من أثر على ظاهر الحياة الإجتماعية.

ولأجل الإيضاح بشكل أقرب نقول: لو قطع شخص طريقاً صحراوياً طويلاً مشياً على الأقدام، فكيف سيصل مقصده؟ سيصله وهو متعب خائر القوى، ولا يقوى على القيام بأي نشاط.

أمّا إذا ما استعمل وسيلة مريحة سريعة في سفره، فإنّه ـ والحال هذه ـ سيصل إلى مقصده وقد كسب الوقت، ولم يهدر طاقاته، وحافظ على النشاط والقدرة على قضاء حوائجه... بعد كل هذا، أوليس ذلك زينة؟!

وتأتي الإشارة في ذيل الآية إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان في الحصول على الوسائط النقلية المدنية من غير الحيوانات، فيقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المراكب ووسائل النقل.

وبعض قدماء المفسّرين اعتبر هذا المقطع من الآية إشارة إلى حيوانات ستخلق في المستقبل ليستعملها الإنسان في تنقلاته.

وورد في تفسير (المراغي) وتفسير (في ظلال القرآن) أنّ درك مفهوم هذه الجملة أسهل لنا ونحن نعيش في عصر السيارة ووسائل النقل السريعة الأخرى.

وعندما تعبّر الآية بكلمة «الحق» فذلك لأنّ الإنسان في اختراعه لتلك الوسائل ليس هو الخالق لها، بل إنّ المواد الأولية اللازمة للإختراعات، مخلوقة وموجودة بين أيدينا وما على الإنسان إلّا أن يستعمل ما وهبه الله من قدرة على الإختراع لما أودع فيه من استعداد وقابلية بتشكيل وتركيب تلك المواد على هيئة يمكن من خلالها أن تعطي شيئاً آخر يفيد الإنسان.

أهمية الزراعة والثروة الحيوانية:

على الرغم من انتشار الآلات الإنتاجية في جميع مرافق الحياة، كما هو حاصل في يومنا، إلّا أن الزراعة وتربية الحيوانات تبقى متصدرة لقائمة المنتوجات من حيث الأهمية في حياة الإنسان، لأنّهما مصدر الغذاء، ولا حياة بدونه.

حتى أنّ الإكتفاء الذاتي في مجالي الزراعة والثروة الحيوانية يعتبر الدعامة الرئيسية لضمان الإستقلالين الإقتصادي والسياسي إلى حدّ كبير.

ولذلك نرى شعوب العالم تسعى جاهدة لإيصال زراعتها وثروتها الحيوانية لأعلى المستويات مستفيدة من التقدم الحاصل.

والحاجة لأي من هذين الإنتاجين الأساسيين من الخطورة والأهمية البالغة ما يجعل دولة عظمى كروسيا تمد يد العوز وتعطي بعض التنازلات السياسية لدول متباينة معها في الخط السياسي العقائدي لاضطرارها لتأمين احتياجاتها!

وأعطت التعاليم الإسلامية أهمية خاصّة للإنتاج الحيواني والزراعة بالحث والترغيب لغور غمار هذه العملية المعطاءة.

فقد رأينا كيف عرضت الآيات السابقة وبلحن مشوق حركة الأنعام ومنافعها للترغيب فيها.

وسيأتي الحديث إن شاء الله في الآيات القادمة عن أهمية الزراعة ومنافع الثمار المختلفة.

ونورد هنا (ومن مصادر مختلفة) بعض الرّوايات التي تخص موضوعنا وما جاءت به من تعبيرات جميلة.

١ ـ عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمته: ما يمنعك من أن تتخذي في بيتك بركة؟

فقالت: يا رسول الله ما البركة؟

فقال: شاة تحلب، فإنّه مَنْ كانت في داره شاة تحلب أو نعجة أو بقرة فبركات كلّهن»[١].

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٣٠. ورد ذكر النعجة (في هذا الحديث) إضافة إلى الشاة والبقرة، وهي في اللغة: البقر الوحشي والأغنام الجبلية وأنثى الغنم.

٢ ـ وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال في الغنم: «نعم المال الشاة»[١].

٣ ـ وفي تفسير نور الثقلين، في تفسير الآيات مورد البحث، روي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «أفضل ما يتخذه الرجل في منزله لعياله الشاة، فمن كان في منزله شاة قدست عليه الملائكة مرّتين في كل يوم».

ولا ينبغي الغفلة عن أنّ الكثير من بيوت المدن غير صالحة لتربية الأغنام، والهدف الأصلي من إشارة الرّوايات هو إنتاج ما يحتاج إليه الناس على الدوام ـ فتأمل.

٤ ـ ويكفينا ما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في أهمية الزّراعة: «مَنْ وجد ماءً وتراباً ثمّ افتقر فأبعده الله»[٢].

وبديهي انطباق هذا الحديث على الفرد والأُمة معاً، فالشعب الذي لديه مستلزمات الزراعة بشكل كاف ومع ذلك يمد يده لطلب المساعدة إلى الآخرين، فهو مُبْعَدٌ عن رحمة الله بلا إشكال.

٥ ـ روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «عليكم بالغنم والحرث فإنّهما يروحان بخير ويغدوان بخير»[٣].

٦ ـ وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما في الأعمال شيء أحبّ إلى الله من الزراعة»[٤].

٧ ـ وأخيراً نقرأ في حديث روي عن الإمام الصادق عليه السلام ما يلي: «الزارعون كنوز الأنام يزرعون طيباً أخرجه الله عزَّ وجلَّ، وهم يوم القيامة أحسن الناس مقاماً وأقربهم منزلة، يدعون المباركين»[٥].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ

(١) بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٢٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٢٣، ص١٩.
(٣) بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٠٤.
(٤) بحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٠.
(٥) وسائل الشيعة، ج١٣، ص١٩٤.

ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ٩-١٣].

التّفسير

كل شيء في خدمة الإنسان!

بعد ذكر مختلف النعم في الآيات السابقة، تشير هذه الآيات إلى نعم أخرى. . . فتشير أوّلاً إلى نعمة معنوية عالية في مرماها: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي عليه سبحانه سلامة الصراط المستقيم وهو الحافظ له من كل انحراف، وقد وضعه في متناول الإنسان.

«القصد»: بمعنى صفاء واستواء الطريق، فيكون معنى «قصد السبيل» الصراط المستقيم الذي ليس فيه ضلال ولا انحراف[1].

ولكن أي النحوَيْن من الصراط المستقيم هو المراد، التكويني أم التشريعي؟

اختلف المفسّرون في ذلك، إلّا أنّه لا مانع من قصد الجانبين معاً.

توضيح:

جهّز الله الإنسان بقوى متنوعة وأعطاه من القوى والقابليات المختلفة ما يعينه على سلوكه نحو الكمال الذي هو الهدف من خلقه.

وكما أنّ بقية المخلوقات قد أُودعت فيها قوّى وغرائز توصلها إلى هدفها، إلّا أنّ الإنسان يمتاز عليها بالإرادة وبحرية الإختيار فيما يريده، ولهذا فلا قياس بين الخط التصاعدي لتكامل الإنسان وبقية الأحياء الأُخرى.

فقد هدى الله الإنسان بالعقل والقدرة وبقية القوى التكوينية التي تعينه للسير على الصراط المستقيم.

---

(١) ذكر بعض كبار المفسّرين كالعلّامة الطباطبائي في الميزان أن «القصد» بمعنى (القاصد) في قبال «الجائر» أي المنحرف عن الحق.

كما أرسل له الأنبياء والوحي السماوي وأعطاه التعليمات الكافية والقوانين اللازمة للمضي بهدي التشريع الرّباني في تكملة مشوار المسيرة، وترك باقي السبل المنحرفة.

ومن لطيف الأسلوب القرآني جعل الأمر المذكور في الآية فريضةً عليه جلّ شأنه فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، وكثيراً ما نجد مثل هذه الصيغة في الآيات القرآنية، كما في الآية (١٢) من سورة الليل ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]، ولو دققنا النظر في سعة مدلول ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما أُودع في الإنسان من هدي تكويني وتشريعي لأجل ذلك لأدركنا عظمة هذه النعمة وما لها من الفضل على بقية النعم.

ثمّ يحذر الباري جلّ شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفة كثيرة: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾[1].

وبما أنّ نعمة الإرادة وحرية الإختيار في الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليه الآية بجملة قصيرة: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولا تستطيعون عندها غير ما يريد الله.

إلّا أنّه سبحانه لم يفعل ذلك، لأنّ الهداية الجبرية لا تسمو بالإنسان إلى درجات التكامل والفخر، فأعطاه حرية الإختيار ليسير في الطريق بنفسه كي يصل لأعلى ما يمكن الوصول إليه من درجات الرفعة والكمال.

كما تشير الآية إلى حقيقة أخرى مفادها أنّ سلوك البعض للطريق الجائر والصراط المنحرف ينبغي أن لا يوجد عند البعض توهماً أنّ الله مغلوب (سبحانه وتعالى) أمام هؤلاء، بل إنّ مشيئته جلّ اسمه ومقتضى حكمته دعت لأن يكون الإنسان حراً في اختياره ما يريد من السبل.

وفي الآية التالية يعود إلى الجانب المادي بما يثير حسّ الشكر للمنهم عند الناس، ويوقد نار عشق الله في قلوبهم بدعوتهم للتقرب أكثر وأكثر لمعرفة المنعم الحق، فيقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ماء فيه سبب الحياة،

---

(١) ضمير «منها» يعود إلى السبيل. والسبيل مؤنث مجازي.

وزلالاً شفافاً خال من أيّ تلوّث ﴿لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، وتخرج منه النباتات والأشجار فترعى أنعامكم، ﴿شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

«تسيمون»: (من مادة الإسامة) بمعنى رعي الحيوانات، وكما هو معلوم فإنّ الحيوانات تستفيد من النباتات الأرضية وورق الأشجار، و«الشجر» لغةً: ذو معنى يشمل إطلاقه الأشجار وغيرها من النباتات.

وممّا لا شك فيه أيضاً أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان وإرواءه النباتات، بل ومن فوائده أيضاً: تطهير الأرض، تصفية الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان وتنفسه براحة، وما شابه ذلك... فالمذكور من فوائده في هذه الآية لا حصراً وإنّما من باب الأهم.

فيكمل الموضوع بقوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ولا شك أنّ خلق الثمار المتنوعة وكل ما هو موجود من المحاصيل الزراعية لآية للمتفكرين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

«الزرع»: يشمل كل مزروع و«الزيتون» اسم لشجرة معروفة واسم لثمرها أيضاً.

إلّا أنّ بعض المفسّرين يذهبون إلى أنّ «الزيتون» هو اسم الشجرة فقط، واسم ثمرتها «زيتونة». في حين أنّ الآية الخامسة والثلاثين من سورة النّور تطلق كلمة «الزيتونة» على الشجرة.

و«النخيل» تستعمل للمفرد والجمع... و«الأعناب» جمع أعنبة، وهي ثمرة معروفة.

وهنا يرد سؤال وهو: لماذا اختار القرآن ذكر هذه الثمار دون غيرها «الزيتون، التمر، العنب»؟ ستقرأ توضيح ذلك في البحوث التّفسيرية لهذه الآيات إن شاء الله.

ثمّ يشير إلى نعمة تسخير الموجودات المختلفة في العالم للإنسان بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ على عظمة وقدرة الله وعظمة ما خلق.

قلنا في تفسيرنا لآيات سورتي الرعد وإبراهيم، أنّ المفهوم الواقعي لتسخير

الموجودات للإنسان أن تكون في منفعته، ويكون ذلك من شأنها ووظيفتها مع تمكين الإنسان من الإستفادة منها.

فكل من الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم له نوع وأثر خاص في حياة الإنسان، وما أجمل عبارة (تسخير الموجودات للإنسان بأمر الله) فبالإضافة لما تظهره من شرف ورفعة شخصية للإنسان بنظر الإسلام والقرآن، وإعطائه من الجلال ما يجعله مؤهلاً لمقام خليفة الله، فهي تذكرة للإنسان بأن لا يغفل عمّا أنعم الله عليه، وباعثة فيه شعور لزوم الشكر لله تعالى من خلال ما يلمس ويرى، عسى أن يتقرب لخالقه فينال حسن مآبه.

ولهذا يقول تعالى في ذيل الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

راجع تفسيرنا للآيتين (٣٢ و٣٣) من سورة إبراهيم للإستزادة في معرفة أسرار التسخير المذكور.

وإضافة لكل ما تقدم ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ من مخلوقات سخرها لكم ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ من الأغطية والملابس والأغذية والزوجات العفيفات ووسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن وكنوز الأرض وسائر النعم الأخرى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

البحوث

١ ـ النعم المادية والمعنوية:

احتوت الآيات مورد البحث على ذكر النعم المادية والمعنوية بشكل مترابط لا يقبل الفصل، إلّا أنّ أسلوب ولحن التعبير يختلف بين النعم المادية والمعنوية، فبالنسبة للنعم المادية لا يوجد مورداً يقول فيه القرآن الكريم: إنّ على الله رزقكم، لكنّه في مورد الهداية يقول: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ فيعطيكم كل ما تحتاجوه تكوينياً وتشريعياً للسير باقتدار في الطريق الإلهي.

وحينما يتحدث عن خلق الأشجار والفواكه وعن تسخير الشمس والقمر نراه سبحانه يضعها في مسير هدف معنوي... ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وذلك لأنّ الأسلوب القرآني ـ كما هو معروف ـ لا يتخذ بُعداً واحداً في خطابه للناس.

٢ ـ لماذا الزّيتون والنخيل والأعناب دون غيرها؟!

يمكننا للوهلة الأولى أن نتصور أنّ ذكر القرآن للزيتون والتمر والعنب، في الآيات مورد البحث، لوجودها في المنطقة التي نزل فيها القرآن... ولكنْ بملاحظة الجانب العالمي لرسالة القرآن ومع الإعتقاد ببقائها واستمرارها بالإضافة إلى التوجه لعمق التعبير القرآني... يتّضح لنا خطأ ذلك التصور.

يقول العلماء المتخصصون بالأغذية (ممن صرفوا السنين الطوال في البحث عن فوائد وخواص الأغذية): إنّ القليل من الفواكه التي تنفع بدن الإنسان من الناحية الغذائية هي بمستوى هذه الثمار الثلاث.

ويقولون: إنّ (زيت الزيتون) له قيمة عالية جدّاً لتأمين السعرات الحرارية اللازمة للبدن، ولذلك يعتبر من الأغذية المقوية للبدن، وعلى الذين يريدون حفظ سلامتهم أن يواظبوا على تناول هذا الإكسير.

إنّ زيت الزيتون ملائم لكبد الإنسان، مؤثر فعّال في رفع عوارض الكُلى، والقولنج الكُلوِيْ والكِبدي واليبوسة.

ولهذا نجد له مدحاً كثيراً في الرّوايات، ففي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال عن الزيتون: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، ويذهب البلغم، ويصفي اللون، ويشد العصب، ويذهب بالوصب، ويطفيء الغضب»[١].

والأهم من ذلك كله تسمية القرآن لشجرة الزيتون بـ«الشجرة المباركة».

وللتمر حديث أيضاً حيث ثبتت الأهميتين العلاجية والغذائية له من خلال ما بيّنه علماء الطب والأغذية... فقد اتّضح وجود الكالسيوم فيه الذي يعتبر العامل الأساسي لبناء وتقوية العظام، وكذا الفوسفور الذي يعتبر من العناصر الأساسية في تكوّن الدماغ، بالإضافة إلى أن التمر يمنع ضعف الأعصاب ومزيل للتعب، كما أنّ له دوراً في حدة البصر.

وفيه البوتاسيوم الذي له الأهمية البالغة في بناء خلايا الجسم، علاوة على أن فقدانه يسبب قرحة المعدة.

---

(١) البحار: ج ٦٦ ص ١٨٣.

كما بات من المعروف عند المتخصصين في علم الأغذية أن التمر له الدور الفعّال في عدم الإصابة بمرض السرطان.

وأظهرت الإحصائيات أنّ المناطق التي يكثر فيها تناول التمر هي أقل المناطق إصابة بهذا المرض الفتاك. ولهذا نجد أن البدو في الصحارى العربية مع ما يعانونه من فقر غذائي إلّا أنّهم لا يصابون بمرض السرطان. ويعزي سبب ذلك إلى وجود المغنيسيوم في التمر غذائهم الأول.

أمّا السكر الموجود في التمر فيعتبر من أفضل أنواع السكريات، حتى أنّه لا يسبب ضرراً لكثير من المصابين بمرض السكر عند تناوله.

وقد اكتشف العلماء لحدّ الآن ثلاث عشرة مادة حياتية وخمسة أنواع من الفيتامينات في التمر، تجعله مصدراً غذائياً وذا قيمة عالية جدّاً[١].

ولهذا ورد تأكيد واسع على أهمية هذه المادة الغذائية في الرّوايات، وممّا روي عن علي عليه السلام أنّه قال: «كل التمر فإنّ فيه شفاء من الأدواء».

وقد روي أيضاً أنّ طعام أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما كان الخبز والتمر.

وفي رواية أخرى: «بيت لا تمر فيه جياع أهله»[٢].

وفي سورة مريم أنّ الله أطعم مريم عندما ولدت عيسى عليه السلام، الرطب، وهو إشارة إلى أن أفضل غذاء للمرأة حديثة الولادة التمر، وعليه كان تأكيد الرّوايات بخصوص تفسير هذه الآية... إنّ أفضل طعام لها هو التمر[٣].

أمّا العنب... فيقول عنه علماء الأغذية: إنّ ما فيه من الفوائد تدعونا إلى القول بأنّه صيدلية طبيعية متكاملة.

إضافةً إلى أنّ خواص العنب شبيهة جدّاً بخواص حليب الأم (أي أنّه غذاء كامل)، علاجي قطعي في تصفية الدم والوقاية من الروماتيزم والنقرس، ويزيد في الدم، وينظف المعدة والأمعاء، وهو: منشط، مزيل للتعب، مقو للأعصاب، وتعطي الفيتامينات المختلفة التي يحتويها قوة للإنسان.

---

(١) أول جامعة وآخر نبي، الجزء السابع، ويختص هذا الجزء بشرح الخواص الغذائية والصحية والعلاجية للتمر والعنب ويطلع الإنسان من خلاله على أهمية هذين الغذاءين.

(٢) سفينة البحار، ج١، ص١٢٤.

(٣) سفينة البحار، ج١، ص١٢٤. كذلك.

وإضافةً لكونه مادة غذائية مهمّة فله القدرة على مكافحة الميكروبات بدرجة ملحوظة، حتى اعتبر من العوامل المهمّة في مكافحة مرض السرطان والوقاية منه[١].

وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «خير طعامكم الخبز، وخير فاكهتكم العنب»[٢].

ولو أردنا ذكر كل ما أورده علماء التغذية بخصوص الفواكه الثلاث وضمّناها ما جاء بصددها من روايات لخرجنا عن طبيعة التّفسير، وإنّما كان القصد من هذه الإطالة بيان السبب العلمي الدقيق وراء ذكر هذه الفواكه في الآية المشار إليها، ولعل أكثر ما ذكر من فوائد كان خافياً على أهل زمان نزول الآية.

٣ ـ التفكر والتعقل والتذكر:

رأينا في الآيات المبحوثة أنّ القرآن دعا الناس بعد ذكر ثلاثة أقسام من النعم الإلهية إلى التأمل في ذلك، فقال في المورد الأوّل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي المورد الثّاني: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وفي الثّالث: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

إنّ الإختلاف الوارد ليس للتصوير الفني في عبارات القرآن، لأنّ المعروف عن الأسلوب القرآني إشارته لكل معنى برمز خاص.

ولعل المقصود من ذلك أنّ النعم الإلهية الموجودة في الأرض من الوضوح ما يكفي معها التذكر.

أمّا فيما يخص الزراعة والزيتون والنخيل والأعناب والفاكهة فتحتاج إلى تركيز الفكر لمعرفة خواصها الغذائية والعلاجية، ولهذا ورد التعبير بالتفكر فيها.

وأمّا تسخير الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم فيحتاج إلى تفكير أشد وأعمق من الحالة الأولى، فورد التعبير بالتعقل.

وعلى أي حال، فالقرآن ـ دوماً ـ يخاطب العلماء والمفكرين والعقلاء، بالرغم من أنّ المحيط الذي نزل فيه كان متخوماً بالجهل، ومن هنا تتضح لنا عظمة عبارات القرآن بشكل جليّ.

---

(١) أول جامعة وآخر نبي، الجزء السابع.

(٢) الإسلام طبيب بلا دواء.

والقرآن بما يحمله يمثل ضربة قاصمة لضَيِّقي الأفق من الذين رفضوا الأديان كلها لأنّهم اصطدموا بوجود أديان خرافية، وعلى أساسها الهش بنوا بنيانهم المهزوز على اعتبار أنّ الدين مُعطّل للعقل والعلم وأنّ الإيمان بالله عزَّ وجلَّ ناتج عن جهل الإنسان وضعفه!!

ومن هذه النداءات الرّبانية ما نجده في جميع السور القرآنية تقريباً، التي تتحدث بكل وضوح عن أنّ الدين الحق هو وليد التعقل والتفكر وليس وليد الخيال السارح والجهل الدامس.

وخطاب الإسلام موجه باستمرار إلى العلماء وأولي الألباب وليس إلى الجهلة وذوي الخرافات الباطلة أو إلى أدعياء الثقافة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل: ١٤-١٩].

التّفسير

نعمة الجبال والبحار والنجوم:

تبيّن هذه الآيات قسماً آخر من النعم الإلهية غير المحدودة التي تفضل بها الله عزَّ وجلَّ على الإنسان، فيبدأ القرآن بذكر البحار، المنبع الحيوي للحياة، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾.

وكما هو معلوم أنّ البحار تشكل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، وأن الماء أساس الحياة، ولا زالت البحار باعتبارها المنبع المهم في إدامة الحياة البشرية وحياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الأرضية.

فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار في خدمة الإنسان...

ثمّ يشير الباري سبحانه إلى ثلاثة أنواع من منافع البحر: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ

﴿لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾. فقد جعل الله في البحار لحماً ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد في تربيته، بل أوجدته ونمّته القدرة الإلهية، وقد خصه بالطراوة، فمع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ اللحوم غير الطازجة متوفرة في ذلك الزمان وفي هذا الزمان على السّواء ندرك جيداً أهمية هذه النعمة، وفي ذلك إشارة أيضاً إلى أهمية اللحوم الطازجة.

ومع ما شهدته الحياة البشرية من التقدم والتمدن المدني في كافّة أصعدة الحياة لا زال البحر أحد المصادر الرئيسية للتغذية، ويصاد سنوياً مئات الآلاف من الأطنان من الأسماك الطرية التي أوجدتها ورعتها يد اللطف الإلهية لأجل الإنسان.

ونجد أنظار العلماء متجهة صوب البحار في قبال ما سيهدد البشرية من خطر نقص المواد الغذائية في المستقبل جراء الزيادة السكانية الهائلة، آملين خيراً بأنّ البحار ستسد مقداراً ملحوظاً من ذلك النقص، بواسطة تربية وتكثير أنواع الأسماك.

ومن جهة أُخرى وضعوا عدّة مقررات لمنع تلوّث مياه البحار للحد من تلف نسل الحيوانات البحرية، وكل ذلك يوضح ما في الآية المذكورة من مسائل علمية طرحت على البشرية قبل أربعة عشر قرناً.

ومن فوائد البحار أيضاً تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾.

الحس الجمالي من الأُمور الفطرية التي فطر الإنسان عليها وهو الباعث على إثارة الشعر والفن الأصيل وما شاكلها عنده.

وبلا شك، يلعب هذا البعد دوراً مهمّاً في حياة البشر، وينبغي العمل على إشباعه بشكل صحيح وسالم بعيداً عن أي نوع من الإفراط والتفريط...

فلا فرق بالنتيجة بين مَنْ غرق في عبادة التجميل والزينة، وبين مَنْ أهملها وعاش حالة الجفاف الجمالي، لأنّ الأول مارس الإفراط الباعث على تلف رأسماله وبات سبباً في إيجاد الفواصل الطبقية المصاحب لقتل كل ما يمت للمعنويات بصلة، والثّاني مارس التفريط الباعث على الخمود والركود. فالإثنان معاً عملا لما لا ينبغي أن يعمله أيُّ إنسان ذو فطرة سليمة بكافة أبعادها.

ولهذا أوصى الإسلام كثيراً بالتزين المعقول الخالي من أيِّ إسراف مثل: لبس اللباس الجيد، التطيب بالعطور، استعمال الأحجار الكريمة... الخ.

ثمّ يتطرق القرآن إلى الفائدة الثّالثة في البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمّة لتنقل الإنسان ونقل ما يحتاجه، فيقول: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾، وما أجمل ما تقع عليه أنظار راكبي السفينة حين حركتها على سطح البحار والمحيطات.

وأعطاكم الله هذه النعمة لتستفيدوا منها في التجارة أيضاً: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾[1].

وبعد ذكر هذه النعم التي تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتي في ذيل الآية: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

«الفلك»: أيْ السفينة، وتأتي بصيغتي المفرد والجمع.

«مواخر» جمع «ماخرة» (من مادة مخر) على وزن (فخر) بمعنى شق الماء يميناً وشمالاً، وتطلق على صوت الرياح الشديد أيضاً، وباعتبار السفن عند حركتها تشق الماء بمقدمتها فيطلق عليها اسم (الماخر) أو الماخرة.

ونتساءل: مَنْ الذي أعطى المواد التي تصنع منها السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟

فالسفينة بما تحمل أثقل من الماء بكثير، ولو لم تكن تلك القوّة الدافعة للماء، هل بإمكاننا العوم على سطح المياه؟

ومَنْ الذي يحرك الرياح على سطح البحر؟

بل مَنْ أعطى البخار القوّة لتحريك السفينة في مسيرها على سطح الماء؟

أوَليس ذلك كله من نعم الله تعالى؟

وممّا يكشف عن عظم نعمة البحار أنّها: أوسع بكثير من الطرق البرية، أقلّ كلفة، أكثر أهليةً للحركة، أعظم وسيلة نقلية للبشر، وذلك بملاحظة كبر السفن المستخدمة في النقل وضخامة ما تحمله.

---

(١) ابتدأت عبارة: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بواو العطف بما يستوجب تقدم المعطوف وهو هنا مقدراً، تقديره «لتنتفعوا بها ولتبتغوا من فضله».

ثمّ يأتي الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[(١)].

كما قلنا سابقاً فإنّ الجبال متصلة من جذورها وتقوم بتثبيت الأرض ممّا يجعلها مانعاً حصيناً من الزلازل الأرضية الشديدة الناشئة من الغازات الكامنة في باطن الأرض والمهددة بالخروج في أي لحظة على شكل زلزال.

إضافةً لخاصية الجبال في مد القشرة الأرضية بالمقاومة اللازمة أمام جاذبية القمر (التي تسبب ظاهرة المد والجزر) ويقلل من أثرها إلى حد كبير.

وللجبال من جانب ثالث القدرة على تقليل شدة حركة الرياح وتوجيه حركتها، ولو لم تكن الجبال لكان سطح الأرض عرضة للعواصف الشديدة المستمرة.

ثمّ يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمة الأنهار، لما بين الجبال والأنهار من علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: ﴿وَأَنْهَارًا﴾.

ثمّ يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أن الجبال حاجز بين ارتباط الأراضي فيما بينها بالإضافة لكونها مانعاً رهيباً أما حركة النقل، فيقول: ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٢)].

وهذه المسألة ملفتة للنظر حقاً، حيث نجد طرق عبور يستطيع أن يتخذها الإنسان سبيلاً لتنقلاته بين أكبر السلاسل الجبلية وعورة في العالم، وقليلاً ما يكون هناك قطع كامل بين المناطق بسبب الجبال.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ لأنّ الطريق لوحدها لا يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة ومميزات شاخصة يستهدي بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، ولذا ذكر هذه النعمة.

ومن تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الإرتفاع والإنخفاض، لون الأرض والجبال وحتى طبيعة حركة الهواء.

ولمعرفة ما لوجود هذه العلامات من أهمية، يكفينا أن نلقي نظرة إلى حال

---

(١) ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ على تقدير (لئلا تميد بكم) أو (كراهة أنْ تميد بكم).

(٢) تعتبر هذه الآية إحدى المعجزات العلمية للقرآن الكريم، حيث ذكرت هذا الأمر وبما يحمل من ظواهر علمية في زمن لم يصل الإنسان لاكتشافه بعد.

الصحارى الواسعة ذات الصفة الواحدة الموجودة في بعض مناطق العالم، حيث عملية التنقل فيها أمر صعب مستصعب إلى حد كبير، إضافة لخطورته الكبيرة، وكم هناك من مسافر دخل فيها ولم يعد...

فلو كان سطح الأرض كله على شاكلة الصحارى، كأن تكون الجبال كلها بشكل وحجم واحد، وحقولها بلون واحد، وأوديتها متشابهة تماماً... فهل كان من اليسير على الإنسان أن يسير عليها؟!

وأمّا في حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل في أيّ من سفر البر أو البحر، فقد جعل الله تعالى علامات في السماء تعوض عن علامات الأرض في تلك الحال: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

بطبيعة الحال فهذه إحدى الفوائد الجمّة للنجوم، ولو لم يكن لها سوى هذه الفائدة لكان كافياً لوجودها، خصوصاً في زمن لا أسطرلاب فيه ولا مؤشرات قطبية تعين السفن في تحديد مسيرها وفق خرائط أعدت لذلك الغرض، وقديماً كانت الرحلات تتوقف إذا ما غطيت السماء بالسُّحب وتلبدت بالغيوم، ومَنْ يجرؤ على تكملة السفر فسيواجه خطر الموت.

وكما هو معلوم اليوم، فإنّ النجوم التي تبدو لنا متحركة في السماء عبارة عن خمسة كواكب، ويطلق عليها اسم السيارات، والسيارات أكثر من خمسة، إلّا أنّ البقية لا يمكن تشخيصها بالعين المجرّدة بسهولة، أمّا بقية النجوم فإنّها تحتفظ بمكانها النسبي، وكأنّها لآلىء خيطت على قطعة قماش أسود، وهذه القطعة كأنّها تسحب من إحدى جهاتها فتتحرك بكاملها.

وبعبارة أخرى: إنّ حركة النجوم الثوابت جمعية، وحركة السيارات إنفرادية، حيث تتغير المسافات بينها وبين الثوابت باستمرار.

إضافة لذلك، فالنجوم الثوابت تشكل فيما بينها أشكالاً معينة تعرف بـ(الصور الفلكية) ولها الأثر الكبير في معرفة الإتجاهات الأربعة (الشمال، الجنوب، الشرق، والغرب).

وبعد أن بيّن القرآن كل هذه النعم الجليلة والألطاف الإلهية الخفية، راح يدعو الوجدان الإنساني للحكم في ذلك: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟!

وكما اعتدنا عليه من القرآن في أسلوبه التربوي الهادف المؤثر، فقد طرح مسألة المحاججة بصيغة سؤال يترك الجواب عنه في عهدة الوجدان الحي للإنسان، مستعيناً بتحريك الإحساس الباطني ليجيب من أعماق روحه، ولينشد عشقاً بخالقه.

والثابت في الواقع النفسي للإنسان، أنَّ التعليم والتربية السليمة يستلزمان بذل أقصى سعي ممكن لإقناع المقابل بقبول ما يُوجَّه إليه من قناعة ذاتيّة، أي ينبغي إشعاره بأن ما يعطى إليه ما هو في حقيقته إلّا انبعاث من داخله وليس فرضاً عليه من الخارج ليتقبلها بكل وجوده ويتبناها ويدافع عنها.

ونجد من الضرورة إعادة ما قلناه سابقاً من أن المشركين الذين كانوا يسجدون للأصنام كانوا يعتقدون أنّ الله عزَّ وجلَّ هو الخالق، ولهذا يتساءل القرآن الكريم... مَنْ أحقُّ بالسجود... خالق كل شيء أم المخلوق؟!

وفي نهاية المطاف، يفند الباري سبحانه مسألة حصر النعم الإلهية بما ذكر، بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾.

إنّكم غارقون في النعم الإلهية وفي كل نَفَسٍ يصعد وينزل آلاف النعم (ولكل نعمة شكر واجب).

إنّ كل دقيقة تمر من عمرنا نكون فيها مدينين لفعاليات ملايين الموجودات الحيّة في داخل بدننا وملايين الموجودات الحية وغير الحية في خارجه، والتي لا يمكننا أن نحيا ولو للحظة واحدة بدونها.

ولكنّ ضبابية الغفلة حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجمّة التي كلّما خطا العلم الحديث خطوة إلى الأمام اتّضحت لنا أبعاد واسعة وانفتحت لنا آفاق جديدة في معرفة النعم الإلهية، وكل ما ندركه في هذا المجال قليلاً جدّاً ممّا قدّره الباري لنا، فهل بإمكان المحدود أن يَعدَّ ما أعطاه المطلق؟!

ونواجه في هذا المقام سؤالاً واستفساراً: كيف إذاً نؤدي حق الشكر لله؟ و... ألسنا مع ما نحن فيه زمرة الجاحدين؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ خير جواب لما واجهنا به.

نعم، فهو سبحانه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الإستطاعة في أداء أتمّ الشكر على نعمه.

ويكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين في حال اعتذرنا له واعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

ولكن هذا لا يمنع من أن نتتبع ونحصي النعم الرّبانية بقدر المستطاع، لأنّ ذلك يزيدنا معرفة لله، وعلماً بعالم الخليقة، وآفاق التوحيد الرحبة، كما يزيد من حرارة عشقه سبحانه في أعماق قلوبنا، وكذا يحرك فينا الشعور المتحسس بضرورة ووجوب شكر المنعم جلَّ وعلا.

ولهذا نجد أنّ الأئمّة ﷺ يتطرقون في أقوالهم وأدعيتهم ومناجاتهم إلى النعم الإلهية ويعدون جوانب منها، عبادةً لله وتذكيراً ودرساً للآخرين.

قال في الأمثل: (وقد تناولنا مسألة شكر النعمة وعدم قدرة الإنسان على إحصاء النعم الإلهية عند بحث الآية الرابعة والثلاثين من سورة إبراهيم).

بحث

الطريق، العلامة، القائد:

تحدثت الآيات أعلاه عن الطرق الأرضية بكونها إحدى النعم الإلهية باعتبارها من أهم وسائل الإرتباط في طريق التمدن الإنساني.

ولهذا عند وضع الخطط العمرانية لا بد معها من رسم وبناء خطوط الطرق المناسبة للمكان المقصود، وإلّا لا يمكن أن يقام عمران.

ومع هذا، فلا يمكننا حصر البيان القرآني بهذا الجانب فحسب، بل يمكننا القول بأنّه يشمل حتى جوانب الحياة المعنوية للبشرية أيضاً، لأنّ الوصول إلى هدف مقدس يستلزم سلوك الطريق الصحيح لذلك الهدف.

بالإضافة إلى الأهمية الحيوية لوجود العلامات في تشخيص السبيل من بين كثرة السبل وتشابكها، فإضاعة السبيل الأصلي ممكن في حال عدم وجود ما يدل عليه من «علامات».

وخصوصاً، ورود تسمية المؤمنين في الآيات القرآنية بالمتوسمين للتأكيد على ضرورة الإنتباه إلى هذه العلامات.

فلكي يستطيعوا تشخيص الحق من الباطل لا بد من معرفة المذاهب والسنن والدعوات المختلفة، بل حتى الأشخاص، وذلك من خلال (العلامات).

وأمّا مسألة وجود القائد فلا تحتاج لتوضيح وبيان (المُوضّح لا يُوضّح).

وقد فسرت «النجم» برسول الله ﷺ و«العلامات» بالأئمة عليهم السلام في روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السلام... وفي بعضها فسّر «النعم» و«العلامات» كلاهما بالأئمة عليهم السلام، ونشير هنا إلى نماذج من الرّوايات.

١ ـ في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «النجم رسول الله، والعلامات الأئمّة عليهم السلام»[1] وورد مثله عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

٢ ـ وروي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية أعلاه أنّه قال: «نحن النجم»[2].

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [النحل: ٦٥-٦٧].

التّفسير

المياه، الثمار، الأنعام:

مرّة أُخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم والعطايا الإلهية الكثيرة، تأكيداً لمسألة التوحيد ومعرفة الله، وإشارة إلى مسألة المعاد، وتحريكاً لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، ومن خلال هذا التوجيه الرّباني تتّضح علاقة الربط بين هذه الآيات وما سبقها من آيات.

فالآية الأخيرة من الآيات السابقة تناولت مسألة نزول القرآن ما فيه من حياة لروح الإنسان، وبنفس السياق تأتي الآية الأولى من الآيات مورد البحث لتتناول نزول الأمطار وما فيها من حياة لجسم الإنسان: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

لقد تناولت آيات قرآنية كثيرة مسألة إحياء الأرض بواسطة نزول الأمطار

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٤٥.
(٢) المصدر نفسه.

من السماء، فكم من أرض يابسة أو ميتة أحياناً أو أصابها الجفاف فأخرجها عن مجال الإستفادة من قبل الإنسان، ونتيجة لما وصلت إليه من وضع قد يخيل للإنسان أنها أرض غير منبتة أصلاً، ولا يصدّق بأنّها ستكون أرض معطاء مستقبلاً ـ ولكن، بتوالي سقوط المطر عليها وما يبث عليها من أشعة الشمس، ترى وكأنّها ميت قد تحرك حينما تدب فيه الروح من جديد، فتسري في عروقها دماء المطر وتعاد إليها الحياة، فتعمل بحيوية ونشاط وتقدم أنواع الورود والنباتات، ومن ثمّ تتجه إليها الحشرات والطيور وأنواع الحيوانات الأخرى من كل جانب، وبذلك. . . . تبدأ عجلة الحياة على ظهرها بالدوران من جديد.

وخلاصة المقال أنّه سيبقى الإنسان مبهوتاً أمام تحول الأرض الميتة إلى مسرح جديد للحياة، وهذا بحق من أعظم عجائب الخلقة.

وهذا المظهر من مظاهر قدرة وعظمة الخالق عزَّ وجلَّ يدلل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد، وما ارتداء الأموات لباس الحياة الجديد إلّا أمر خاضع لقدرته سبحانه.

وإنّ نعمة الأمطار (التي لا يتحمل الإنسان أي قسط من أمر إيجادها) دليل آخر على قدرة وعظمة الخالق سبحانه.

وبعد ذكر نعمة الماء (الذي يعتبر الخطوة الأولى على طريق الحياة) يشير القرآن الكريم إلى نعمة وجود الأنعام، وبخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كمادة غذائية كثيرة الفائدة، فيقول: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾.

وأي عبرة أكثر من أنْ: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

«الفرث» لغةً: بمعنى الأغذية المهضومة في المعدة والتي بمجرّد وصولها إلى الأمعاء تزود البدن بمادتها الحياتية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج. . . فما يهضم غذاء داخل المعدة يسمّى «فرثاً» وما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثاً).

ونعلم بأنّ جدار المعدة لا يمتص إلّا مقداراً قليلاً من الغذاء (كبعض المواد السكرية) والقسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كي يمتص الدم ما يحتاجه منه.

وكما نعلم أيضاً بأنّ اللبن يترشح من غدد خاصّة داخل ثدي الإناث، ومادته الأصلية تؤخذ من الدم والغدد الدهنية.

فهذه المادة الناصعة البياض ذات القوّة الغذائية العالية تنتج من الأغذية المهضومة المخلوطة بالفضلات، ومن الدم.

والعجب يكمن في استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوثة!

وبعد حديثه عن الأنعام وألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتية، فيقول: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

«السكر» لغةً، له معاني مختلفة، إلّا أنّه هنا بمعنى: المسكرات والمشروبات الكحولية (وهو المعنى المشهور من تلك المعاني).

وممّا لا يقبل الشك أنّ القرآن لا يجيز في هذه الآية صنع المسكرات من التمر والعنب أبداً، وإنّما جاء ذكر المسكرات هنا لمقابلته بـ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وكإشارة صغيرة لتحريم الخمر ونبذه. وعلى هذا... فلا حاجة للقول بأنّ هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر أو أنّها تشير إلى تحليله، بل حقيقة التعبير القرآني يشير إلى التحريم، ولعل الآية كانت تمثل الإنذار الأوّل للتحريم.

وقد تبدو العبارة وكأنّها جملة اعتراضية بين قوسين داخل الآية القرآنية.

بحوث

١ ـ كيف يتكوّن اللبن؟

يقول القرآن الكريم في ذلك كما في الآيات أعلاه: إنّه يخرج من بين «فرث» ـ الأغذية المهضومة داخل المعدة ـ و«دم».

وقد أثبت ذلك فيزيولوجياً: حيث إنّه عندما يتمّ هضم الغذاء داخل المعدة ويكون جاهزاً للإمتصاص ينتشر داخل المعدة والأمعاء بشكل واسع وأمام الملايين من العروق الشعيرية، فتمتص منه العناصر المفيدة المطلوبة لتوصلها إلى تلك الشجرة ذات الجذور التي تنتهي عروقها عند عروق الثدي.

عندما تتناول المرأة الحامل الغذاء تنتقل عصارته إلى الدم الذي يجري في عروقها حتى يصل نهاية العروق المجاورة لعروق الجنين ليتغذى بهذه الطريقة

ما دام في بطن أمه، وعندما ينفصل عن أُمّه يتحول عن طريق تغذيته إلى الثدي. . . وهنا لا تستطيع الأم أن تصل دمها إلى دم ولدها، ولذلك ينبغي تصفية الغذاء وتغيير حالته بما ينسجم والوضع الجديد للطفل، وهنا. . . يتكون اللبن من بين فرث ودم، أيْ: من بين ما تتناوله الأم الذي يتحول إلى فرث وما ينتقل من مواده إلى الدم ليتكون منه اللبن.

فاللبن في حقيقة. . . شيء وسط بين الفرث والدم، فلا هو دم مصفى ولا هو غذاء مهضوم، وهو أعلى من الثاني ودون الأوّل!

علماً بأنّ الثدي يستفيد من الحوامض الأمينية المخزونة في البدن فقط في صناعة المواد البروتينية للبن.

وثمّة مكونات أخرى للبن لا توجد في الدم وإنّما تنتجها غدد خاصّة في الثدي (كالكازوئين).

والبعض الآخر من المكونات يأتي من ترشح بلازما الدم مباشرة: ويدخل في تكوين اللبن من دون أي تغيير(كالفيتامينات وملح الطعام والفوسفات).

أمّا سكر اللاكتوز الموجود في اللبن فيؤخذ من السكر الموجود في الدم بعد أن تجري عليه الغدد الخاصّة في الثدي التغييرات اللازمة لتحويله إلى نوع جديد من السكر.

ومع أنّ إنتاج اللبن يكون عن طريق جذب المواد الغذائية بواسطة الدم، ومن خلال الإرتباط المباشر بين الدم وغدد الثدي، إلّا أنّنا لا نلاحظ أيّ أثر لرائحة الفرث أو لون الدم فيه، بل يبدأ اللبن بالترشح من ثدي الأم بلون جديد ورائحة خاصّة به.

ومن لطيف ما ينقل عن العلماء المتخصصين أنّ إنتاج لتر واحد من اللبن في الثدي يحتاج بما لا يقل عن عبور (٥٠٠) لتر من الدم خلال الثدي ليستطيع من امتصاص المواد اللازمة لإنتاج اللبن، كما يلزم لإنتاج لتر واحد من الدم عبور مواد غذائية كثيرة من الأمعاء. . . وبهذا يتّضح لنا معنى ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ كاملاً[1].

(١) مقتبس من كتابي: الكيمياء الحياتية والطبية، وأوّل جامعة وآخر نبي، الجزء السادس.

٢ ـ أهم ما في اللبن من مواد غذائية:

اللبن مليء بالمواد الغذائية المختلفة التي تشكل مع بعضها مجموعة غذائية كاملة.

فالمواد المعدنية في اللبن، عبارة عن: الصوديوم، البوتاسيوم، الكالسيوم، المغنيسيوم، النحاس، قليل من الحديد بالإضافة إلى الفوسفور والكلور وغيرها.

ويوجد في اللبن كذلك غاز الأوكسجين وحامض الكاربونيك.

أمّا المواد السكرية فموجودة بكمية كافية على شكل (لاكتوز).

والفيتامينات المحلولة في اللبن عبارة عن: فيتامين ب، پ، آ، د.

وقد أثبت العلم الحديث أنّ الحيوان الذي يتغذى بشكل جيد يكون لبنه حاوياً لكافة أنواع الفيتامينات، وأصبح بديهياً أنّ اللبن الطازج يعتبر غذاءً كاملاً. ولا يمكن لنا تفصيل ذلك في هذا البحث المختصر.

ولعل ما روي عن النّبي ﷺ من قوله: «ليس يجزي مكان الطعام والشراب إلّا اللبن» إشارة لهذا السبب.

ونقرأ في روايات أُخرى عن اللبن أنّه يزيد في عقل الإنسان، ويحد النظر، ويرفع النسيان، ويقوي القلب والظهر (كما أصبح معلوماً أنّ هذه الآثار لها إرتباط وثيق بما في اللبن من مواد حياتية)[1].

٣ ـ اللبن... غذاء خالص وسهل الهضم:

لقد أكّدت الآيات أعلاه على ميزتين مهمتين للبن ـ كونه «خالصاً»، و«سائغاً» أي لذيذاً وسريع الهضم ـ وكما هو المعروف عن اللبن من كونه غذاءً كثير الفائدة على الرغم من قلّة حجمه. و«خالص» أي خال من المواد الزائدة وبذات الوقت فهو سهل الهضم بالشكل الذي جُعِلَ ملائماً لأي إنسان وعلى مختلف الأعمار ـ منذ الطفولة حتى الشيخوخة ـ ولهذا يعتمده المرضى كغذاء ملائم ومفيد ومقبول، وبالخصوص ما له من أثر فعال بالنسبة لنمو العظام، ولهذا يوصي بالإكثار من تناوله في حالات كسور العظام وما شابهها.

---

(١) لزيادة التفصيل، يراجع كتاب أول جامعة وآخر نبي ـ الجزء السادس.

ومن جملة معاني الخلوص هو (الربط)، ولعل البعض اعتمد على هذا المعنى فيما جاء في التعبير القرآني «خالصاً»، واعتبارهم من كون «خالصاً» إشارة إلى تأثير اللبن الخالص في بناء وربط العظام.

وكذا نجد في الأحكام الإسلامية الواردة حول الرضاعة ما يشير إلى هذا المعنى بوضوح.

ويقول الفقهاء: إنّ الطفل لو رضع من غير أُمّه حتى اشتدت عظامه وزاد لحمه فإنّ مرضعته ستحرم عليه (وما يتبع ذلك في مَنْ يعود إليه النسب).

ويقولون أيضاً: إنّ (١٥) رضاعة متوالية، أو رضاعة يوم وليلة متصلة، يؤدي إلى هذه الحرمة أيضاً.

ولو جمعنا القولين، ألا ينتج أنّ التغذية باللبن يوم وليلة لها أثر في تقوية العظام وزيادة اللحم!؟

وينبغي الإلتفات إلى أن التوجهات الإسلامية أكّدت كثيراً على لبن «اللباء» هو أو ما ينزل من اللبن بعد الولادة، حتى لتقول بعض كتب الفقه إنّ حياة الطفل مرهونة به، ولهذا اعتبر إعطاء الطفل من حليب اللباء واجباً[١].

ولعل ما في الآية (٧) من سورة القصص حول موسى يتعلق بهذا الموضوع أيضاً ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن

(١) شرح اللمعة، كتاب النكاح، أحكام الأولاد ومنها الرضاع.

تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٧٨-٨٣].

التّفسير

أنواع النعم المادية والمعنوية:

يعود القرآن الكريم مرّة أخرى بعرض جملة أخرى من النعم الإلهية كدرس في التوحيد ومعرفة الله، وأوّل ما يشير في هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم والمعرفة ووسائل تحصيله... ويقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

فمن الطبيعي أنّكم في ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شيء، ولكنْ عندما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، ولهذا فقد زودكم الباري سبحانه بوسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾. لكي يتحرك حس الشكر للمنعم في اعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الرّبانية الجليلة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ملاحظات

وهنا نطرح الملاحظات التالية:

١ ـ بداية الإدراك عند الإنسان:

تصرّح الآية بوضوح بأنّ الإنسان حين يولد فإنّه لا يدرك من الأشياء شيئاً، وكلما يدركه إنّما هو بعد الولادة وبواسطة الحواس التي منحه الله إيّاه.

ويواجهنا الإشكال التالي: إنّ الإنسان مزود بجملة من العلوم الفطرية كالتوحيد ومعرفة الله، بالإضافة إلى بعض البديهيات مثل (عدم إجتماع النقيضين، الكل أكبر من الجزء، حسن العدل، قبح الظلم... الخ) وكل هذه العلوم قد أودعت في قلوبنا وتولدت معنا... فكيف يقول القرآن إنّ الإنسان حين يخرج من محيط الجنين ليس له من العلم شيئاً؟

وهل علمنا بوجودنا (والذي هو علم حضوري) لم يكن فينا وإنّما نكتسبه عن طريق السمع والبصر والفؤاد؟

وللإجابة على هذا الإشكال، نقول: إنّ العلوم البديهية والضرورية والفطرية لم تكن في الإنسان بصورة فعلية حين ولادته، وإنّما على شكل استعداد ووجود بالقوّة.

وبعبارة أخرى: إنّنا عند الولادة نكون في غفلة عن كل شيء، حتى عن أنفسنا التي بين جنبينا، إلّا أن مسألة إدراك الحقائق تكمن فينا بصورة القوّة لا الفعل، وبالتدرج تحصل لأعيننا قوّة النظر ولآذاننا قوة السمع ولعقولنا القدرة على الإدراك والتجزئة والتحليل، فننعم بهذه العطايا الإلهية الثلاث التي بواسطتها نستطيع أن ندرك كثيراً من التصورات ونودعها في العقل لكي ننشيء منها مفاهيم كلية، ومن ثمّ نصل إلى الحقائق العقلية بطريق (التعميم) و(التجريد).

وتصل قدرتنا الفكرية إلى إدراك أنفسنا (باعتبارها علماً حضورياً) ومن ثمّ تتحرر العلوم التي أُودعت فينا قوةً لتصبح علوماً بالفعل، ونجعل بعد ذلك من العلوم البديهية والضرورية سلّماً للوصول إلى العلوم النظرية وغير البديهية.

وعلى هذا... فالعموم والكلية التي نطقت بها الآية (من أنّنا لا نعلم شيئاً عند الولادة) ليس لها استثناء ولا تخصيص.

٢ ـ نعمة وسائل المعرفة:

ممّا لا شك فيه عدم إمكانية استيعاب ودخول العالم الخارجي في وجودنا، والحاصل الفعلي هو رسم صورة الشيء الخارجي المراد في الذهن وبواسطة الوسائل المعينة لذلك، وعليه... فمعرفتنا بالعالم الخارجي تكون عن طريق أجهزة خاصّة منها السمع والبصر.

وتنقل هذه الآلات والأجهزة كل ما تلتقطه من الخارج لتودعه في أذهاننا وعقولنا، ونقوم بواسطة العقل والفكر بعملية التجزئة والتحليل.

ولذلك بيّنت الآية مسألة عدم علم الإنسان المطلق حين الولادة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لكي تحصلوا على حقائق الوجود وتدركوها.

ونشاهد تقديم ذكر السمع على البصر في الآية مع ما للعين من عمل أوسع من السمع، ولعل ذلك لسبق الأذن في العمل على العين بعد الولادة، حيث إنّ العين كانت في ظلام دامس (في رحم الأم) ونتيجة لشدّة أشعة النّور (بعد

الولادة) فإنّها لا تستطيع العمل مباشرة بسبب حساسيتها، وإنّما تتدرج في اعتيادها على مواجهة النّور حين تصل للحالة الطبيعية المعتادة، ولذا نجد الوليد في بداية أيّامه الأولى مغلق العين. أمّا بخصوص الأذن... فثمة مَنْ يعتقد بأنّ لها القدرة على السماع (قليلاً أو كثيراً) وهي في عالم الأجنّة وأنّها تسمع دقات قلب الأم وتعتاد عليها!

أضف إلى ذلك أنّ الإنسان إنّما يرى بعينه الأشياء الحسيّة فقط، في حين أن الأذن تعتبر وسيلة للتربية والتعليم في جميع المجالات، فالإنسان يصل بواسطة سماع الكلمات إلى معرفة جميع الحقائق سواء ما كان منها في دائرة الحس أو ما كان خارجها، وليس للعين هذه السعة، وصحيح أنّ الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطة القراءة، إلّا أنّ القراءة ليست عامّة لكل الناس وسماع الكلمات أمر عام.

وثمّة ملاحظة أُخرى ينبغي ذكرها تتعلق بكلمة «الفؤاد»، فقد جاءت هنا بمعنى القلب (العقل) الذي يعيش حالة التوقد، وبعبارة أُخرى: يعيش حالة التفسير والتحليل والإنكار.

يقول الراغب في مفرداته: (الفؤاد كالقلب، لكنْ يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي التوقد). ومن المسلّم به أن هذا الموضوع يحصل للإنسان بعد حصوله على تجارب كافية.

وعلى أي حال، فآلات المعرفة وإن لم تنحصر بهذه الأجهزة الثلاث، إلّا أنّها أفضل الأجهزة جميعاً، لأنّ علم الإنسان إمّا أن يكون عن طريق التجربة أو عن طريق الإستدلالات العقلية، ولا تجربة بدون السمع والبصر، ولا استدلالات عقلية من غير الفؤاد (العقل).

٣ ـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

تعتبر نعمة أجهزة تحصيل العلم من أفضل النعم التي وهبها الله للإنسان فلا يقتصر دور العين والأذن (مثلاً) على النظر إلى آثار الله في خلقه، والإستماع إلى أحاديث أنبياء الله وأوليائه، وتفهم ذلك وتدركه بالتحليل والإستنتاج، بل إنّ كل خطوة نحو التكامل والتقدم مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بهذه الوسائل الثلاثة.

وغاية إعطاء هذه الوسائل إنّما تستوجب شكر الواهب، لأنّه من خلالها يمكن الحصول على العلم والمعرفة اللذين امتاز بهما الإنسان عن غيره من الحيوانات.

وممّا لا شك فيه أنّ الإنسان ليقف عاجزاً أمام حق شكر المولى وليس له إلّا الإعتذار.

وتستمر الآية التالية في بيان أسرار عظمة الله عزّ وجلّ في علم الوجود، وتقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾.

«الجو» لغةً: هو الهواء (كما ذكره الراغب في مفرداته)، أو ذلك الجزء من الهواء البعيد عن الأرض (كما ورد في تفسير مجمع البيان وتفسير الميزان وكذلك تفسير الآلوسي).

وبما أنّ الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعياً فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور في الهواء بالتسخير، أي: إنّ الباري سبحانه قد جعل في أجنحة الطيور قوّة، وفي الهواء خاصية، تمكنان الطيور من الطيران في الجو على رغم قانون الجاذبية.

ويضيف قائلاً: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

صحيح أنّ ثمّة أُمور مجتمعة تعطي للطيور إمكانية التحليق والطيران، مثل: الخاصية الطبيعية للأجنحة، قدرة عضلات الطيور، هيكل الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمة... ولكنْ، مَنْ الذي خلق هذه الهيئة وتلك الخواص؟

ومَنْ الذي أقرّ هذا النظام الدقيق؟

فهل من الطبيعة العمياء، أم مَنْ يعلم بجميع الخواص الفيزيائية للأجسام وأحاط علمه المطلق بكل هذه الأُمور؟؟

فإذا ما رأينا نسبة هذه الأُمور إلى الله، لأنّ منبع وجودها منه تعالى، وأمثال هذا التعبير في نسبة الأسباب والعلل إلى الله كثيرة في القرآن الكريم.

وفي نهاية الآية، يأتي قوله عزّ مَنْ قائل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنّهم ينظرون إلى هذه الأُمور بعين باصرة وأُذن سميعة ويتفكرون فيما يرون ويسمعون، وبذلك يقوى إيمانهم ويرسخ أكثر فأكثر.

بحوث

١ ـ أسرار تحليق الطيور في السماء:

إنّنا لا نشعر بأهمية الكثير من عجائب عالم الوجود لاعتيادنا على كثرة مشاهدتها ولعدم انشغالنا بالتدقيق العلمي عند المشاهدة، حتى باتت هذه العادة كحجاب يغطي تلك العظمة، ولو استطاع أيٌّ منّا رفع ذلك الحجاب عن ذهنه لرأى العجائب الكثيرة من حوله.

وتحليق الطيور في السماء لا تبتعد عن هذه الحقيقة، فحركة جسم ثقيل بخلاف قانون الجاذبية من دون أي صعوبة، وارتفاعه بسرعة ليغيب عن أعيننا في لحظات لأمر يدعو إلى التأمل والدراسة.

ولو دققنا النظر في بناء جسم الطائر لوجدنا ذلك الترابط الدقيق بين كل صفاته وحالاته التي تساعده على الطيران، فهيكله العام مدبب ليقلل من مقاومة الهواء على بدنه لأقصى حد ممكن، وريشه خفيف مجوف، وصدره مسطح يمكنه من ركوب أمواج الهواء، وطبيعة أجنحته الخاصّة تمنحه القوة الرافعة[١] التي تساعده على الإرتفاع، وكذلك الطبيعة الخاصّة لذيل الطائر التي تعينه على تغيير اتجاه طيرانه وسعة التحوّل يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل (كذيل الطائرة)، وذلك التناسق الموجود بين النظر وبقية الحواس التي تشترك جميعاً في عملية الطيران... وكل ذلك يعطي للطائر إمكانية الطيران السريع.

ثمّ إنّ طريقة تناسل الطير (وضع البيض)، وعملية تربية الجنين ونموه تجري خارج رحم الأُم ممّا يرفع عنها حالة الحمل والتي تعيق (بلا شك) عملية الطيران... وثمّة أُمور كثيرة تعتبر من العوامل المؤثرة فيزيائياً في علمية الطيران.

---

(١) «القوة الرافعة» اصطلاح فيزيائي حديث يستعمل في حقل الطائرات، وخلاصته: إنّ الجسم إذا كان له سطحين متفاوتين بالإستواء (كجناح الطائرة حيث سطحه الأسفل مستوياً والأعلى محدباً) وتحرك أُفقياً فستولد فيه قوة خاصّة ترفعه إلى الأعلى، تنشأ من ضغط الهواء على سطحه الأسفل والذي يكون أكثر منه على السطح الأعلى، لأنّ الأسفل مساحته أصغر، والسطح العلوي أوسع مساحة، وهذا ما تعتمد عليه حركة الطائرات... وإذا ما دققنا النظر في أجنحة الطيور فسترى هذه الظاهرة بوضوح ـ فتأمل.
وعموماً، ينبغي القول: ما بناء الطائرات إلّا تقليداً لأجسام الطيور في جوانب مختلفة.

وكل ما ذكر يكشف عن وجود علم وقدرة فائقين لخالق ومنظم بناء وحركة هذه الكائنات الحية، وكما يقول القرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

إنّ عجائب الطيور لأكثر من أنْ تُسطر في كتاب أو عدّة كتب، فهناك مثلاً الطيور المهاجرة وما يكتنف رحلاتها من عجائب، وحياة هذه الطيور مبنية على التنقل بين أرجاء المعمورة المختلفة حتى أنّها لتقطع المسافة ما بين القطبين الشمالي والجنوبي على طولها، وتعتمد في تعيين اتجاهات رحلاتها على إشارات رمزية تمكنها من عبور الجبال والأودية والبحار، ولا يعيق تحركها رداءة الجو أو حلكة الظلام في الليالي التي يتيه فيها حتى الإنسان وبما يملك.

ومن غريب ما يحدث في رحلاتها أنّها: قد تنام أحياناً بين عباب السماء وهي طائرة! وقد تستغرق بعض رحلاتها عدّة أسابيع دون توقف ليل نهار وبدون أن يتخلل تلك المدّة أي فترة لتناول الطعام! حيث إنّها تناولت الطعام الكافي قبل بدئها حركة الرحيل (بإلهام داخلي) ويتحول ذلك الطعام إلى دهون تدخرها في أطراف بدنها!

وثمّة أسرار كثيرة تتعلق في: بناء الطير لعشه، تربية أفراخه، كيفية التحصن من الأعداء، كيفية تحصيل الغذاء اللازم، تعاون الطيور فيما بينها بل ومع غير جنسها أيضاً... إلخ، ولكل ممّا ذكر قصّة طويلة.

نعم، وكما تقول الآية المباركة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢ ـ ترابط الآيات:

لا شك أنّ هناك ترابطاً بين الآية أعلاه والتي تتحدث عن كيفية طيران الطيور وما قبلها من الآيات يتمثل في الحديث عن نعم الله عزَّ وجلَّ في عالم الخليقة، وعن أبعاد عظمته وقدرته سبحانه وتعالى، ولكن لا يبعد أن يكون ذكر تحليق الطيور بعد ذكر آلات المعرفة يحمل بين طياته إشارة لطيفة في تشبيه تحليق هذه الطيور في العالم المحسوس بتحليق الأفكار في العالم غير المحسوس، فكلٌّ منها يحلق في فضائه الخاص وبما لديه من آلات.

يقول الإمام عليّ عليه السلام في خطبته الشقشقية: «ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليّ الطير».

وكذا في كلماته عليه السلام القصار في بيان فضيلة مالك الأشتر رحمه الله، ذلك القائد الشجاع، «لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر»[١].

وعدّ في هذه السورة خمسين نعمة كلها تدعو إلى معرفة الله جلّ وعلا وتدفع إلى شكره، ولذلك ذهب البعض لتسميتها بـ(سورة النِّعَم).

وتستمر الآيات في الإشارة إلى النعم الإلهية حتى نصل إلى الآية الثالثة (مورد البحث) لتقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.

وحقّاً إنّ هذه النعمة المباركة من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذة من (البيتوتة): وهي في الأصل بمعنى التوقف ليلاً، وأطلقت كلمة (بيت) على الحجرة أو الدار لحصول الإستفادة منهما للسكن ليلاً.

ويلزمنا هنا التنويه بالملاحظة التالية: إنّ القرآن الكريم لم يقل: إنّ الله جعل بيوتكم سكناً لكم، وإنّما ذكر كلمة (مِنْ) التبعضية أوّلاً وقال: ﴿مِّنْ بُيُوتِكُمْ﴾ وذلك لدقة كلام الله التامة في التعبير، حيث إنّ الدار أو الحجرة الواحدة تلحقها مرافق أخرى كالمخزن والحمام وغيرها.

وبعد أنْ تطرق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابتة عرّج على ذكر البيوت المتنقلة فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾[٢].

وهي في الخفة بحيث ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ـ أي رحيلكم ـ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾.

بل وجعل لكم: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وكما هو معلوم فإنّ الشَّعَر الذي يحمله بدن الحيوان بعضه خشن تماماً كشعر الماعز ويطلق عليه (شَعَرٌ)، وجمعه (أشعار)، وبعضه الآخر أقل خشونة بقليل وهو (الصوف) وجمعه (أصواف)، و(الوَبَرُ) أقل نعومة من الصوف وجمعه (أوْبار)، وبديهي أنّ الإختلاف الحاصل في طبيعته وخشونته يؤدي إلى

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم٤٤٣.

(٢) إنّ صناعة الخيام من الجلود قليلة في عصرنا المعاش، ولكنّ الآية المباركة أرادت أن تظهر أن هذا النوع من الخيام كان من أفضل الأنواع في تلك الأزمان، واختص بالذكر بقية الأنواع ربما لكونها أكثر مأمناً أمام عواصف الصحراء الحارقة في الحجاز.

تنوع الإستفادة منها، فمن بعضها تصنع الخيام، ومن البعض الآخر يصنع اللباس، ومن الثّالث الفرش وهكذا . . .

أمّا المقصود بـ «الأثاث» و«المتاع» في الآية فقد ذكر المفسّرون لذلك جملة احتمالات.

قال بعضهم: «الأثاث» بمعنى الوسائل المنزلية، وهي في الأصل من (أثّ) بمعنى الكثرة والتجمع، وأطلقت على الوسائل والأدوات المنزلية لكثرتها عادة.

ويطلق «المتاع» على كل ما يتمتع به الإنسان ويستفيد منه (فالمصطلحان إشارة إلى شيء واحد من جهتين مختلفتين).

ومع ملاحظة ما ذكر فاستعمال المصطلحين على التوالي يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنّكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائل بيتية كثيرة تتمتعون بها.

واحتمل البعض ومنهم «الفخر الرازي»: «الأثاث» بمعنى الأغطية والملابس، و«المتاع» بمعنى الفرش، إلّا أنّه لم يذكر أيّ دليل لتفسيره.

واحتمل «الآلوسي» في (روح المعاني): «الأثاث» إشارة إلى الوسائل المنزلية، و«المتاع» إشارة إلى الوسائل المستخدمة في التجارة.

ويبدو أنّ ما قلناه أوّلاً أقرب من الجمع.

وذكرت وجوه عديدة في تفسير ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ولكنّ الظاهر من مقصودها هو: استفيدوا من هذه الوسائل في هذا العالم حتى نهاية الحياة فيه، وهو إشارة إلى عدم خلود الحياة في هذا العالم وما فيه من وسائل ولوازم وأنّ كلما فيه محدود.

٣ ـ الظلال، المساكن، الأغطية:

ويشير القرآن الكريم إلى نعمة أخرى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾.

«الأكنان»: جمع (كِنّ) بمعنى وسائل التغطية والحفظ، ولهذا فقد أطلقت على المغارات وأماكن الإختفاء وفي الجبال.

ونرى إطلاق كلمة «الظلال» في الآية لتشمل كل الظلال، سواء كانت ظلال الأشجار أو المغارات الجبلية أو ظل أي شيء آخر، باعتبارها إحدى النعم الإلهية

(وحقيقة الأمر كذلك)، فكما يحتاج الإنسان إلى النّور في حياته فكثيراً ما يحتاج إلى الظل كذلك، لأنّ النّور إذا ما استمر في إشراقه فسوف تكون الحياة مستحيلة، ويكفينا أن نلمس ما لظل الكرة الأرضية (والمسمى بالليل) على حياتنا، وكذلك دور الظلال الأخرى خلال النهار في مختلف الأمكنة والحالات.

وكأن ذكر نعمة «الظلال» و«أكنان الجبال» بعد ذكر «المسكن» و«الخيام» في الآية السابقة، للإشارة إلى أنّ طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة... واحدة تعيش في المدن والقرى وتستفيد من بناء البيوت لسكناها، وأخرى تعيش الترحال والتنقل فتحمل معها الخيام، وثالثة أولئك الذين يسافرون وليس معهم مستلزمات المأوى... ولم يترك الباري جلّ شأنه المجموعة الثّالثة تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل في طريقهم الظلال والمغارات لتقيهم.

وقد لا يدرك سكنة المدن ما لوجود المغارات الجبلية من أهمية، ولكنّ عابري الصحارى والمسافرين العزل والرعاة وكل مَنْ حرم من نعمة البيوت الثابتة أو السيارة (مؤقتاً أو دائماً) عندما يكونون تحت سطوة حرارة الصيف اللاهبة أو تحت وطأة زمهرير الشتاء القارص، سيعرفون عندها أهمية تلك المغارات، وخصوصاً كونها باردة في الصيف ودافئة في الشتاء، وهي ملاذ ينجي من موت قريب ـ في بعض الأحيان ـ للإنسان أو الحيوانات.

وبعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية والصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، وثمّة ألبسة أخرى تستعمل لحفظ أبدانكم في الحروب ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

«السرابيل»: جمع «سربال» (على وزن مثقال)، بمعنى الثوب من أيّ جنس كان (على ما يقول الراغب في مفرداته)، ويؤيده في ذلك أكثر المفسّرين، ولكنّ البعض منهم قد اعتبر معنى السربال هو: لباس وغطاء لبدن الإنسان، إلّا أنّ المشهور هو المعنى الأوّل.

وكما هو معلوم، فإنّ فائدة الألبسة لا تنحصر في حفظ الإنسان من الحر والبرد، بل تُلبِس الإنسان ثوب الكرامة وتقي بدنه من الأخطار الموجهة إليه، فلو تعرى الإنسان لكان أكثر عرضة للجراحات وما شابهها، واستناد الآية المباركة على الخاصية الأولى دون غيرها لأهميتها المميزة.

ولعل ذكر خصوص الحر في الآية جاء تماشياً مع ما شاع في لغة العرب من ذكر أحد المتضادين اختصاراً، فيكون الثّاني واضحاً بقرينة وجود الأوّل، أو لأنّ المنطقة التي نزل فيها القرآن الكريم كان دفع الحرّ فيها ذا أهمية بالغة عند أهلها.

وثمّة احتمال آخر: أنْ يكون ذلك بلحاظ خطورة الإصابة بمرض ضربة الشمس المعروفة، وبتعبير آخر: إنّ تحمل الإنسان لحر أشعة الشمس الشديدة أقل من تحمله ومقاومته للبرد، لأنّ حرارة البدن الداخلية يمكن لها أن تعين الإنسان على تحمل البرودة لحد ما.

وفي ذيل الآية... يقول القرآن مذكّراً: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تطيعون أمره.

وطبيعي جدّاً أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصاً عند تنبّهه للنعم المختلفة التي تحيط بوجوده، وأنّ ضميره سيستيقظ ويتجه نحو المنعم قاصداً زيادة معرفته به إذا ما امتلك أدنى درجات حسن الشكر.

ومع أنّ بعض المفسّرين قد حصروا لكلمة «النعمة» في الآية ببعض النعم: كنعمة الخلق، وتكامل العقل، أو التوحيد، أو نعمة وجود النبي ﷺ إلّا أنّ معنى الكلمة أوسع من ذلك، ليشمل كل النعم (المذكور منها وغير المذكور)، وما التخصيص في حقيقته إلّا من قبيل التّفسير بالمصداق الواضح.

وبعد ذكر هذه النعم الجليلة... يقول عزَّ وجلَّ أنّهم لو أعرضوا ولم يسلموا للحق فلا تحزن ولا تقلق، لأنّ وظيفتك إبلاغهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

ومع كل ما يمتلكه المتكلم من منطق سليم ومدعمٌ بالإستدلال الحق والجاذبية، إلّا أنّه لا يؤثر في المخاطب ما لم يكن مستعداً لاستماع وقبول كلام المتكلم، وبعبارة أخرى: إنّ(قابلية المحل) شرط في حصول التأثر.

وعلى هذا، فإنْ لم يسلم لك أصحاب القلوب العمياء ومَنْ امتاز بالتعصب والعناد، فذلك ليس بالأمر الجديد، وما عليك إلّا أن تصدع ببلاغ مبين وأنْ لا تقصر في ذلك والمراد من هذا المقطع القرآني هو مواساة النّبي ﷺ وتسليته.

وتكميلاً للحديث... يضيف القرآن الكريم القول: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

فعلّة كفرهم ليست في عدم معرفتهم بالنعم الإلهية وإنّما بحملهم تلك

الصفات القبيحة التي تمنعهم من الإيمان كالتعصب الأعمى والعناد في معاداة الحق، وتقديم منافعهم المادية على كل شيء، وتلوّثهم بمختلف الشهوات، بالإضافة إلى مرض التكبّر والغرور.

ولعل ما جاء في آخر الآية: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ إشارة لهذه الأسباب المذكورة.

وقد جذبت كلمة «أكثرهم» انتباه واهتمام المفسّرين وراحوا يبحثون في سبب ذكرها... حتى توصل المفسّرون إلى أسباب كثيرة كلٌّ حسب زاوية اهتمامه في البحث، ولكنّ ما ذكرناه يبدو أقرب من كلٌّ ما ذكروه، وخلاصته: إنّ أكثرية الكفار هم من أهل التعصب والعناد، والذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم فهم القلّة قياساً إلى أولئك.

ويشاهد في القرآن الكريم مقاطع قرآنية تطلق على الكفر على ذلك النوع الناشيء من التكبر والعناد، ومنها ما يتحدث عن الشيطان كما جاء في الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

واحتمل البعض: أنّ المقصودين بـ«أكثرهم» مَنْ تمّت عليهم الحجّة في قبال أقلية لم تتم عليهم الحجّة بعد، وهذا المعنى يمكن أن يعود إلى المعنى الأوّل.

بحثان

١ ـ كلمات المفسّرين:

ما نطالعه من كلمات المفسّرين المتعددة بخصوص تفسير ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ في الآية لا يعدو غالباً من قبيل التّفسير بالمصداق، في حين أنّ مفهوم «نعمة الله» من السعة بحيث يشمل جميع النعم المادية والمعنوية، حتى أنّ النبي ﷺ يعتبر أحد المصاديق الحيّة لنعمه سبحانه وتعالى.

وروايات أهل البيت عليهم السلام تؤكّد على أنّ المقصود بـ«نعمة الله» هو وجود الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «نحن نعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا فازَ مَنْ فاز»[1].

---

(١) نور الثقلين، ج٣، ص٧٢.

فواضحٌ أنّ السعادة والنجاح لا يمكن إدراكهما إلّا عن طريق قادة الحق وهم الأئمّة عليهم السلام فوجودهم إذاً من أوضح وأفضل النعم الإلهية (وقد ذكر هنا لأنّه أحد المصاديق الجلية لنعم الله سبحانه).

٢ ـ صراع الحقّ مع الباطل:

لقد توقف بعض المفسّرين عند كلمة «ثمّ» من قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، لأنّ استعمالها عادةً كأداة عطف مع وجود فاصلة بين أمرين، ولذلك فثمّة فاصلة بين معرفتهم لنعم الله وبين إنكارهم للنعم، فقالوا: إنّ الهدف من هذا التعبير تبيان ما ينبغي عليهم من الإعتراف بالتوحيد بعد معرفتهم بنعمة الله، وكان عليهم أن يذعنوا لذلك الإعتراف، إلّا أنّهم ساروا في طريق الباطل! فاستبعد القرآن عملهم وعبر عن ذلك بكلمة «ثمّ».

ونحتمل أنّ «ثمّ» هنا إشارة إلى معنى خفي، خلاصته: أنّ دعوة الحقّ عندما تتوغل إلى دواخل الروح الإنسانية عن طريق أُصولها المنطقية السليمة، فإنّها ستصطدم مع عوامل السلب والإنكار الموجود فيه أحياناً، فيستغرق ذلك الجدال أو الصراع الداخلي مدّة تتناسب مع حجم قوّة وضعف تلك العوامل، فإنْ كانت عوامل النهي والإنكار أقوى فإنّها ستغلبها بعد مدّة... وعبّر القرآن عن تلك الحالة بكلمة «ثمّ».

والآيتان (٦٤و٦٥)، من سورة الأنبياء ضمن عرضهما لقصة إبراهيم عليه السلام تتحدثان عن قوّة احتجاج نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بعد أن حطم أصنامهم جميعها إلّا كبيرها ممّا تركهم في الوهلة الأولى يغوصون في تفكير عميق، ممّا حدا بهم لأنّ يلوموا أنفسهم وكادوا أن يهتدوا إلى الحقّ لولا وجود تلك الرواسب من العوامل السلبية في نفوسهم (التعصب، الكبر، العناد)، التي أمالت كفة انحرافهم على قبول دعوة الحق، فعادوا من جديد إلى ما كانوا عليه، ولوصف تلك الحالة نرى القرآن قد استعمل كلمة «ثمّ» أيضاً: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء: ٦٤-٦٥].

وعلى هذا فمعنى «الكافرون» يتوضح بشكل أدق عند وجود كلمة «ثمّ».

نعم الجنة في القرآن

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [النبأ: ٣١-٣٧].

قال في الأمثل: كان الحديث في الآيات السابقة منصباً حول خاتمة المجرمين والطغاة وما يلاقونه من أليم العذاب وموجباته، وينتقل الحديث في الآيات أعلاه لتفصيل بعض ما وعد الله المؤمنين والمتقين من النعم الخالدة والثواب الجزيل عسى أن يرعوي الإنسان ويتّبع طريق الحق من خلال مقايسته لما يعيشه كلٌّ من الفريقين على ضوء تفكيره بمصيره الأبدي.

وكذا هو الحال في الأسلوب القرآني، كما في بقية السور الأخرى، فهو يضع متضادات الحالات والأحوال في طبق واحد، ليتمكن الإنسان بسهولة من اكتشاف خصائص وشؤون أيّاً منها.

فيقول: مبتدئاً الحديث: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.

«المفاز»: اسم مكان، أو مصدر ميمي من(الفوز) بمعنى الوصول إلى الخير بسلام، ويأتي بمعنى النجاة أيضاً وهو من لوازم المعنى الأوّل.

وقد جاءت «مفازاً» بصيغة النكرة للإشارة إلى الفتح العظيم والوصول إلى الخير وسعادة لا يعلم قدرها إلا الله عزَّ وجلَّ.

ومن مفردات الفوز والسعادة: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا﴾[1].

«الحدائق»: جمع «حديقة»، وهي قطعة أرض مزروعة بالورود والأشجار

---

(١) «الحدائق» بدل «مفازة» أو عطف بيان.

ومحاطة بسور لحفظها، ويقول الراغب في مفرداته: «الحديقة» قطعة من الأرض ذات ماء، سُمّيت تشبيهاً بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها.

أمّا ذكر «العنب» دون بقية الفواكه فلما له من مزايا تفضله على بقية الفواكه، ويقول علماء التغذية في هذا المجال: إضافة لكون العنب غذاءً كاملاً من حيث الخاصية الغذائية الموجودة فيه والتي تشبه حليب الأم في كونه ثري بالمواد الغذائية اللازمة للإنسان، إضافة لكل هذا، فهو يعطي للبدن ضعف ما يعطيه اللحم من سعرات حرارية، حتى وصف بصيدلية متكاملة لما يحويه من مواد مفيدة.

ومن خواص وفوائد العنب، أنّه: مقاوم للسموم، مفيد لتصفية الدم، يقي من الروماتيزم والنقرس، مضاد فعّال ضد زيادة السموم الحاصلة في الدم، مقو للأعصاب ومنشط ويعطي للإنسان القوّة والقدرة الكافية لما فيه من كميات مناسبة لأنواع (الفيتامينات).

وقد روي عن النبي ﷺ في خصوص العنب أنّه قال: «خير فواكهكم العنب».

ويتطرق القرآن إلى نعمة أُخرى ممّا وعد الله به المتقين في الجنّة، فيقول: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾.

«الكواعب»: جمع «كاعب»، وهي البنت حديثة الثدي، للإشارة إلى شباب زوجات المتقين في الجنّة.

«الأتراب»: جمع «ترب»، ويطلق على مجموعة الأفراد المتساوين في العمر، واستعماله في الإناث أكثر، قيل: إنّها من «الترائب» وهي: أضلاع الصدر، وذلك لما بينهما من شبه من حيث التساوي والتماثل.

ويحتمل أن يكون المراد من «أتراب» التساوي بين نساء أهل الجنّة في العمر، فيكون شابات متساويات في القد والقامة والجمال، أو تساوي العمر بينهن وبين أزواجهن من المؤمنين، لأنّ للتساوي في العمر له أثره النفسي على إدراك مشاعر الطرف الآخر... إلّا أن المعنى الأوّل أكثر تناسباً.

وتأتي النعمة الرابعة: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾.

شراب ليس كأي شراب، فلا يُذهب بالعقول ولا يحدر الإنسان إلى دركات الحيوانية، بل هو مُذكٍّ للعقل، منشط للروح ومنعش للقلب.

«الكأس»: هو القدح المملوء بالشراب، وقد يطلق على القدح دون الشراب، أو على شراب القدح.

«دهاقاً»: بمعنى الإمتلاء، عند أكثر المفسّرين وأهل اللغة، لكنّ (ابن منظور) قد ذكر معنيين آخرين هما: التتابع على شاربيها، صافية.

وعليه... فيمكن حمل معنى الآية، على ضوء ما ذكر من معان، على أنّ لأهل الجنّة أقداح مملوءة بشراب زلال طاهر.

ودفعاً لما يتبادر إلى الأذهان من تبعات شراب الدنيا الشيطاني، يقول القرآن: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾.

إنّ شراب الدنيا... يُذهب العقل، يفقد الإحساس، يوقع شاربه بالهذيان واللغو... وأمّا شراب الآخرة فنفحاته الطاهرة تضفي على العقل والروح نوراً وصفاءً.

وثمّة احتمالات بخصوص ضمير «فيها».

الأوّل: إنّه يعود إلى الجنّة.

الثّاني: إنّه يعود إلى الكأس.

فعلى الاحتمال الأوّل، يكون معنى الآية إنّ أهل الجنّة لا يسمعون فيها لغواً، كما جاء في الآيتين (١٠و١١) من سورة الغاشية: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾.

وعلى الاحتمال الثّاني، يكون معنى الآية: إنّه سوف لا يصدر اللغو والهذيان والكذب من أهل الجنّة بعد شرابهم ما في كأس الجنّة من شراب، كما جاء في الآية (٢٣) من سورة الطور: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

وعلى أيّ حال، فالجنّة خالية من: الأكاذيب، الهذيان، التهم، الإفتراءات، تبرير الباطل، بل وكلّ ما كان يؤذي قلوب المتقين في الحياة الدنيا... إنّها الجنّة! وخير تصوير لها ما جاء في الآية (٦٢) من سورة مريم: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾.

وفي آخر المطاف يذكر القرآن الكريم تلك النعمة المعنوية التي تفوق كلّ النعم علوّاً: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[١].

وأيّ بشارة ونعمة أسمى وأجل، من أن أكون وأنا العبد الضعيف، موضع ألطاف وإكرام الله جلَّ وعلا، فيطعمني ويكسوني ويغرف عليّ بنعمه التي لا تحصى عدداً ولا تضاهى حبّاً وكرماً، وطوبى للمؤمنين في دار الخلد وهم منعمون بكل ما لذّ وطاب.

والتعبير بكلمة «ربّ» مع ضمير المخاطب، وكلمة «عطاء»، لتبيان ما أُودع من لطف خاص في النعم التي وُعِدَ بها أهل التقوى.

«حساباً»: يعتقد الكثير من المفسّرين إن معناها هنا (كافياً): من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي[٢].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم ثمّ أعطاهم بكل واحدة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾»[٣].

ونستفيد من الرواية المذكورة أنّ نعم الله في الآخرة وإن كانت بصفة الفضل. واللطف والزيادة، إلّا أن مقدمتها الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان في حياته الدنيا، وعليه... فيمكن تفسير «حساباً» في الآية بمعنى (الحساب)، ولا مانع من إرادة كلا المعنيين ـ فتأمل.

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة، يضيف: ﴿رَّبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ﴾.

نعم: إنّه مالك العالم، ومدبّر ما فيه، وموجه كلّ حركاته وسكناته، إنّه الرحمن الذي شملت رحمته كلّ شيء، وهو واهب الصالحين ما وعدهم به القرآن الكريم.

---

(١) «جزاء»: حال لإعطاء النعم التي ذكرت في الآيات السابقة، فيكون التقدير: أعطاهم جميع ذلك جزاء من ربّك، واحتمل البعض: إنّه مفعول مطلق لفعل محذوف، واعتبره آخرون: إنّه مفعول لأجله، لكنّ التفسير الأوّل أقرب.

(٢) تفسير البيضاوي في ذيل الآية المبحوثة.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٩٥، ح٢٩.

وبما أنّ صفة «الرحمن» تشمل رحمة الله العامّة لكلّ خلقه، فيمكن حمل إشارة الآية إلى أنّ الله تبارك وتعالى يشمل برحمته أهل السماوات والأرض في الحياة الدنيا، إضافة لما وعد به المؤمنين من عطاء دائم في الجنّة.

وذيل الآية، يقول: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

ويمكن شمول «لا يملكون» جميع أهل السماوات والأرض، أو جميع المتقين والعاصين الذين يجمعون في عرصة المحشر للحساب والجزاء.

وعلى أيّ القولين: فالآية تشير إلى عدم القدرة على الإعتراض أو الردّ من قبل كلّ المخلوقات أمام محكمة العدل الإلهي، لأنّ حسابه جلّ اسمه من الدقّة والعدل واللطف ما لا يفسح المجال أمام أي اعتراض.

بل ولا يسمح في ذلك اليوم بالتشفع لأيٍّ كان إلّا بإذن خاص منه جلّت عظمته، وهو ما تشير إليه الآية (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

بحثان

١ ـ ثواب المتقين وعقاب العاصين:

يلاحظ ثمّة مقايسة بين الآيات المبحوثة وما سبقها من آيات... فقد تحدثت الآيات السابقة عن نوعين من الجزاء لكلّ من المجرمين والمؤمنين، فالآيات محل البحث تحدثت عن بعض ما للمؤمنين من ثواب ونعيم، وفيما تقدمها من آيات تحدثت عن بعض ما للمجرمين من عقوبات.

فهنا تحدثت عن «المفاز» وهناك عن «المرصاد»...

وهنا تحدثت عن «حدائق وأعناباً» وهناك عن التخبط بالعذاب إلى مدّة لا متناهية «أحقاباً»...

وهنا كان الحديث عن «الشراب الطهور» وهناك عن الماء الحارق «حميماً وغساقاً»...

وهنا تحدثت الآيات عن عطايا ومواهب «الرحمان»، وهناك عن الجزاء العادل «جزاءً وفاقاً»...

وهنا الحديث عن زيادة «النعمة» وهناك زيادة «العذاب». . .

والخلاصة: إنّ هذين الفريقين يقعان في قطبين متنافرين من كلّ الجهات نتيجة لما كانا يعيشانه في الحياة الدنيا من تنافر وتباعد من حيث الإيمان والعمل.

٢ ـ أشربة الجنّة:

أوردت الآيات الشريفة أوصافاً لأشربة الجنّة، ويظهر أنّ لشاربيها من اللّذة الروحية المعنوية ما لا يمكن وصفه أو خطّه بقلم.

فالآية (٢١) من سورة الدهر، تصفه بالطهور: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

والآيات (٤٥ ـ ٤٧) من سورة الصافات، تصفه بالزلال واللّذة والصفاء، وأنّه لا يؤدي لأذى ولا يذهب بالعقول: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝﴾.

والآية (٥) من سورة الدهر، تصفه بأنّه مخلوط بمادة باردة ملطفة (الكافور): ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

والآية (١٧) من سورة الدهر، تقول عنه بأنّه مخلوط بالزنجبيل: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

وجاء في الآيات المبحوثة: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾. أي زلالاً صافياً.

وفوق كلّ هذا وذاك، فمن هو الساقي. . . إنّه الله تعالى!! يسقيهم بيد قدرته وعلى بساط رحمته، تقول الآية (٢١) من سورة الدهر: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

اللّهمّ! اشملنا بعفوك، واسقنا من فيض شربك يا أرحم الراحمين. . .

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝﴾ [الواقعة: ١٠-١٤].

و«السابقون» ليسوا الذين سبقوا غيرهم بالإيمان فحسب، بل في أعمال الخير والأخلاق والإخلاص، فهم أسوة وقدوة وقادة للناس، ولهذا السبب فهم من المقرّبين إلى الحضرة الإلهية. وبناءً على هذا فما نرى من تفسير أسبقية السابقين بالسبق في طاعة الله، أو أداء الصلوات الخمس، أو الجهاد

والهجرة، فإن كل واحد من هذه التفاسير يُمثّل جانباً من هذا المفهوم الواسع، وإلّا فإنّ هذه الكلمة «السابقون» تشمل جميع هذه الأعمال، والطاعات وغيرها.

وإذا فسّرت (السابقون) كما في بعض الرّوايات الإسلامية بأنّها تعني الأشخاص الأربعة وهم: «هابيل»، و«مؤمن آل فرعون»، و«حبيب النجّار» الذين تميّز كلّ منهم بأسبقيته في قومه، وكذلك «أمير المؤمنين» عليه السلام الذي هو أوّل من دخل الإسلام من الرجال، فإنّ هذا التّفسير في الحقيقة هو بيان للمصاديق الواضحة، وليس تحديداً لمفهوم الآية[١].

وجاء في حديث آخر أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظلّ الله في يوم القيامة؟ فقال أصحابه: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: (الذين إذا أعطوا الحقّ قبلوه، وإذا سألوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم)»[٢].

وجاء في بعض الرّوايات أيضاً أنّ المقصود بـ(السابقون) هم الأنبياء المرسلون وغير المرسلين[٣].

ونقرأ في حديث لابن عباس أنّه قال: «سألت رسول الله ﷺ حول هذه الآية فقال: «هكذا أخبرني جبرائيل، ذلك عليّ وشيعته هم السابقون إلى الجنّة، المقرّبون من الله لكرامته لهم»[٤].

وكما تقدّم إنّه بيان للمصاديق الواضحة من المفهوم الذي ذكر أعلاه، الذي يشمل جميع (السابقين) في كلّ الأمم والشعوب.

ثمّ يوضّح ـ في جملة قصيرة ـ المقام العالي للمقرّبين حيث يقول سبحانه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٥].

---

(١) نقل هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام في مجمع البيان، ج٩، ص٢١٥.

(٢) تفسير المراغي، ج٢٧، ص١٣٤.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٠٦.

(٤) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٠٩.

(٥) الجار والمجرور الموجود في الآية (جنّات النعيم) ممكن أن يكون متعلّق بما قبله يعني (المقرّبين)، أو مرتبطة بحال محذوف جاء للمقرّبين وتقديره (كائنين في جنّات النعيم)، أو يكون خبراً بعد خبر.

التعبير بـ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يشمل أنواع المادية والمعنوية، ويمكن اعتبار هذا التعبير إشارة إلى أنّ بساتين الجنّة هي وحدها مركز النعمة والراحة في مقابل بساتين الدنيا التي تحتاج إلى الجهد والتعب، كما أنّ حالة المقربين في الدنيا تختلف عن حالة المقرّبين في الآخرة، حيث إنّ مقامهم العالي في الدنيا كان توأماً مع المسؤوليات والطاعات في حين أنّ مقامهم في الآخرة سبب للنعمة فقط.

ومن البديهي أنّ المقصود من «القرب» ليس «القرب المكاني» لأنّ الله ليس له مكان، وهو أقرب إلينا من أنفسنا، والمقصود هنا هو «القرب المقامي».

ويشير في الآية اللاحقة إلى الحالة العددية في الأُمم السابقة وفي هذه الأمة أيضاً حيث يقول سبحانه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي أنّهم جماعة كثيرة في الأُمم السالفة والأقوام الأُولى.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾. (ثلّة) كما يقول الراغب في مفرداته تعني في الأصل قطعة مجتمعة من الصوف، ثمّ تحوّلت إلى مجموعة من الأشخاص.

وأخذها البعض أيضاً من (ثلّ عرشه) بمعنى سقط وانهار، يقال (سقط عرشه وانقلعت حكومته) واعتبرها البعض (قطعة)، وذلك بقرينة المقابلة بـ(قليل من الآخرين) يكون المعنى القطعة العظيمة.

وطبقاً لهاتين الآيتين فإنّ قسماً كبيراً من المقرّبين هم من الأُمم السابقة، وقسم قليل منهم فقط هم من أُمة محمّد ﷺ.

ويثار سؤال هنا وهو: كيف يتناسب العدد القليل من مقرّبي أُمّة محمّد مع الأهميّة البالغة لهذه الأُمّة التي وصفها القرآن الكريم بأنّها من أفضل الأمم؟ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وللجواب على هذا السؤال يجدر الإلتفات إلى نقطتين:

الأولى: إنّ المقصود من المقرّبين هم السابقون في الإيمان، ومن المسلّم أنّ السابقين لقبول الإسلام في الصدر الأوّل منه كانوا قلّة، أوّلهم من الرجال الإمام عليّ عليه السلام، ومن النساء خديجة (رض)، وفي الوقت الذي نعلم أنّ كثرة الأنبياء السابقين وتعدّد أُممهم، ووجود السابقين في كلّ أُمّة يؤدّي إلى زيادتهم من الناحية العددية.

والنقطة الثانية: إنّ الكثرة العددية ليست دليلاً على الكثرة النوعية؛ حيث يمكن أن يكون عدد السابقين في هذه الأُمّة قليلاً، إلّا أنّ مقامهم أفضل كثيراً، كما هو المعروف بين الأنبياء أنفسهم، إذ يختلفون باختلاف درجاتهم: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وممّا يلزم ذكره أنّ قسماً من المؤمنين لم يندرجوا في زمرة السابقين في الإيمان، مع توفّر الصفات والخصوصيات فيهم والتي تجعلهم بنفس درجة السابقين من حيث الأجر والجزاء، لذلك فقد نقل في بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «نحن السابقون السابقون ونحن الآخرون»[١].

وجاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه خاطب مجموعة من أصحابه فقال لهم: «أنتم السابقون الأوّلون والسابقون الآخرون، والسابقون في الدنيا إلى ولايتنا، وفي الآخرة إلى الجنّة»[٢].

ومن الجدير بالملاحظة أنّ بعض المفسّرين فسّر «الأوَّلين والآخرين» بـ(الأوّلين في الأُمّة الإسلامية والآخرين فيها) وانسجاماً مع هذا الرأي فإنّ جميع المقرّبين هم من الأُمّة الإسلامية.

إلّا أنّ هذا التّفسير لا يتناسب مع ظاهر الآيات والرّوايات التي وردت في ذيل هذه الآيات، حيث إنّها عرّفت أشخاصاً من الأُمم السابقة بالخصوص بعنوان أنّهم من السابقين الأولين.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا (٢٦)﴾ [الواقعة: ١٥-٢٦].

---

(١) تفسير الصافي، نهاية الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الصافي، نهاية الآية مورد البحث.

التّفسير

الجنّة بانتظار المقرّبين:

هذه الآيات تتحدّث عن أنواع نعم الجنّة التي أعدّها الله سبحانه للقسم الثالث من عباده المقرّبين، والتي كلّ واحدة منها أعظم من أختها وأكرم. . .

وقد لُخّصت هذه النعم بسبعة أقسام:

يقول تعالى في البداية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦﴾.

«سرر» جمع سرير من مادّة (سرور) بمعنى التخت الذي يجلس عليه المنعّمون في مجالس الأنس والسرور[1].

(موضون) من مادّة (وضن) على وزن (وزن) وهي في الأصل بمعنى نسج الدرع، ثمّ أُطلقت على كلّ منسوج محكم الخيوط والنسيج. والمقصود هنا هي الأسرة الموضوعة جنباً إلى جنب بصورة متراصّة. أو أنّ لهذه الأسرة حياكة مخصوصة من اللؤلؤ والياقوت وما إلى ذلك، كما قال بعض المفسّرين.

وعلى كلّ حال، فإنّ بناء هذه الأسرة وكيفية وضعها، ومجلس الأنس الذي يتشكّل عليها، وأجواء السرور والفرح التي تغمرها، لا نستطيع وصفه بأي بيان.

ونلاحظ استمرار الأوصاف الرائعة في القرآن الكريم لسرر الجنّة، ومجالس أهلها، ومنتديات أحبّتها ممّا يدلّ على أنّ من أهم نعم وملذّات هؤلاء هي جلسة الأنس هذه. . .

أمّا أحاديثهم وما يدور في حفلاتهم فليس هنالك أحد يعلم حقيقتها، فهل هي عن أسرار الخلق وعجائب الكون؟ أو عن أصول المعرفة وأسماء الله وصفاته الحُسنى؟ أو عن الحوادث التي حدثت في هذا العالم؟ أو عن الراحة التي هم عليها بعد التعب والعناء؟ أو عن أمور أخرى لا نستطيع إدراكها. . .؟ هذا هو سرّ لا يعلمه إلّا الله.

ثمّ يتحدث سبحانه عن نعمة أُخرى لهم حيث يقول: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

(١) مفردات الراغب، مادّة (سر).

التعبير بـ«يطوف» من مادّة (طواف) إشارة إلى استمرار خدمة هؤلاء (الطوافين) لضيوفهم.

والتعبير بـ«مخلّدون» إشارة إلى خلود شبابهم ونشاطهم وجمالهم وطراوتهم، والأصل أنّ جميع أهل الجنّة مخلّدون وباقون.

أمّا من هم هؤلاء الولدان؟

قال البعض: إنّهم أبناء البشر من هذه الدنيا الذين توفّوا قبل البلوغ، وصحيفة أعمالهم بيضاء لم تدنّس بعد، فقد بلغوا هذه المرتبة بلطف الله سبحانه، وخدمتهم للمقرّبين تقترن بارتياح عظيم ورغبة عميقة ولذّة من أفضل اللذّات، لأنّهم في خدمة المقرّبين من الحضرة الإلهية.

وقد ورد في هذا المعنى حديث للإمام عليّ عليه السلام.

إلّا أنّنا نقرأ في تفسير آخر أنّهم أطفال المشركين ولأنّهم لم يرتكبوا ذنباً فقد حصلوا على هذه المرتبة؛ وأطفال المؤمنين يلتحقون بآبائهم وأمّهاتهم.

ونقرأ في تفسير ثالث أنّهم خدّام الجنّة، حيث إنّ الله سبحانه قد أعدّهم لهذه المهمّة بشكل خاصّ.

ويضيف القرآن أنّ هؤلاء الولدان يقدّمون لأصحاب الجنّة أقداح الخمر وكؤوس الشراب المأخوذ من أنهار الجنّة ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[1] وشرابهم هذا ليس من النوع الذي يأخذ لباب العقل والفكر، حيث يقول تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾[2].

إنّ الحالة التي تنتابهم من النشوة الروحية حين تناولهم لهذا الشراب لا يمكن أن توصف، إذ تغمر كلّ وجودهم بلذّة ليس لها مثيل.

---

(١) أكواب جمع كوب بمعنى القدح أو الإناء الذي لا عروة له، وأباريق جمع إبريق وهي في الأصل أخذت من الفارسية (ابريز) بمعنى الأواني ذات اليد من جهة، ومن الأخرى ذات أنبوب لصبّ السائل، وكلمة كأس تقال للإناء المملوء بالسائل لدرجة يفيض من جوانبه، ومعين من مادّة (معن) على وزن (صحن) بمعنى الجاري.

(٢) (يصدّعون) من مادّة (صداع) على وزن (حساب)، بمعنى وجع الرأس، وهذا المصطلح في الأصل (صدع) بمعنى (الإنفلاق) لأنّ الإنسان عندما يصاب بوجع رأس شديد فكأنّ رأسه يريد أن ينفلق من شدّة الألم، لذا فإنّ هذه الكلمة قد استعملت في هذا المعنى (وينزفون) من أصل (نزف) على وزن (حذف) بمعنى سحب جميع مياه البئر بصورة تدريجيّة، وتستعمل أيضاً حول (السُكْر) وفقدان العقل.

ثمّ يشير سبحانه إلى رابع وخامس قسم من النعم المادية التي وهبها الله للمقرّبين في الجنّة، حيث يقول سبحانه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ[1] ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

إنّ تقديم الفاكهة على اللحم بلحاظ كون الفاكهة أفضل من الناحية الغذائية بالإضافة إلى نكهتها الخاصّة عند أكلها قبل الطعام.

والذي يستفاد من بعض الرّوايات أنّ غصون أشجار الجنّة تكون في متناول أيدي أهل الجنّة، بحيث يستطيعون بكلّ سهولة أن يتناولوا أي نوع من الفاكهة مباشرة، وهكذا الحال بالنسبة لبقيّة الأغذية الموجودة في الجنّة. إلّا أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ تقديم الغذاء من قبل (الولدان المخلّدين) له صفاء خاصّ ولطف متميّز حيث إنّ تقديم الطعام يعبّر عن مزيد من الاحترام والإكرام لأهل الجنّة، وتضفي رونقاً وبهاءً أكثر على مجالس أنسهم. ومن المتعارف عليه إجتماعياً بيننا أن تقديم الفاكهة وتقريبها من الضيوف من قبل المضيف نفسه يعبّر عن التقدير والمحبّة والاحترام.

وخصّت لحوم الطيور بالذكر هنا لفضلها على بقيّة أنواع اللحوم، لذا فقد تكرّر ذكرها.

إنّ استعمال تعبير «يتخيّرون» بالنسبة لـ(الفاكهة) ويشتهون بالنسبة لـ(اللحوم) لا يدلّل على وجود إختلاف بين التعبيرين كما ذهب إليه بعض المفسّرين، بل هما بمعنى واحد بعبارتين مختلفتين، والمقصود بهما أنّ أي غذاء يشتهيه أهل الجنّة يوضع باختيارهم من قبل (الولدان المخلّدين).

ثمّ يشير سبحانه إلى سادس نعمة وهي الزوجات الطاهرات الجميلات حيث يقول سبحانه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ[2] ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) (فاكهة ولحم) كلاهما معطوف على أكواب وهذه الأشياء تهدى من قبل (الولدان المخلّدون) إلى المقرّبين.

(٢) بالرغم من تصوّر البعض أنّ (حور عين) عطف على (الولدان المخلّدون) وعلى هذا الرأي فإنّ (حور عين) يطفن أيضاً حول أصحاب الجنّة، ونظراً لعدم تناسب هذا المعنى خصوصاً في المجالس الجماعية لأهل الجنّة، لذا فالظاهر أنّه مبتدأ لخبر محذوف، والتقدير هكذا (ولهم حور عين).

«حور» كما قلنا سابقاً جمع حوراء وأحور، ويقال للشخص الذي يكون سواد عينه شديداً وبياضها شفافاً، و(عين) جمع (عيناء) وأعين، بمعنى العين الواسعة، لأنّ أكثر جمال الإنسان في عيونه، فقد ذكر هذا الوصف خصوصاً.

وقال البعض: إنّ «حور» أُخذت من مادّة (حيرة) يعني أنهنّ جميلات إلى حدّ تصاب العيون بالحيرة عند رؤيتهنّ[١].

«مكنون» بمعنى مستور، والمقصود هنا الإستتار في الصدف، لأنّ اللؤلؤ عندما يكون مختفياً في الصدف وبعيداً عن لمس الأيدي يكون شفّافاً وناصعاً أكثر من أي وقت. وبالإضافة إلى ذلك قد يكون المقصود أنهنّ مستورات عن أعين الآخرين بصورة تامّة، لا يد تصل إليهنّ ولا عين تقع عليهنّ.

وبعد الحديث عن هذه المنح، والعطايا المادية الستّة، يضيف سبحانه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ كي لا يتصوّر أحد أنّ هذه النعم تعطى جزافاً، بل إنّ الإيمان والعمل الصالح هو السبيل لنيلها والحصول عليها، حيث يلزم الإنسان العمل المستمرّ الخالص حتّى تكون هذه الألطاف الإلهيّة من نصيبه.

«ويلاحظ بأنّ (يعملون) فعل مضارع يعطي معنى الإستمرار».

ويتحدّث القرآن الكريم عن سابع نعمة من نعم أهل الجنّة، وهي التي تتّسم بالطابع الروحي المعنوي حيث يقول تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾.

فالجوّ هناك جوّ نزيه خالص بعيد عن الدنس، فلا كذب، ولا تهم، ولا افتراءات، ولا استهزاء ولا غيبة ولا ألفاظ نابية وعبارات لاذعة... وليس هنالك لغو ولا كلام فارغ... بل الموجود هناك هو اللطف والصفاء والجمال والمتعة والأدب والطهارة، وكم هو طاهر ذلك المحيط البعيد عن الأحاديث المدنّسة التي هي السبب في أكثر انزعاجنا وعدم ارتياحنا في هذه الدنيا، حيث اللغو والثرثرة والكلام اللامسؤول والتعبيرات الجارحة!

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[٢].

---

(١) أبو الفتوح الرازي، ج١١ نهاية الآية مورد البحث.

(٢) سلاماً مفعول به لـ(قيلا) والذي هو مصدر، والمقصود أنّ كلامهم هنالك هو (السلام) ويحتمل أن تكون (سلاماً) صفة لـ(قيلا) أو مفعول به (أو مفعول مطلق) لفعل محذوف تقديره: (يسلّمون سلاماً) إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأرجح، وسلاماً (الثانية) للتأكيد.

ويسأل هنا: هل أنّ هذا السلام من قبل الله تعالى؟ أو أنّه من قبل الملائكة؟ أو هو سلام متبادل بين أهل الجنّة، أو كلّ هذه الأمور؟

الظاهر أنّ الرأي الأخير هو الأنسب، كما أشارت الآيات القرآنية الأخرى إلى ذلك[١].

نعم إنّهم لا يسمعون شيئاً إلا السلام، سلام وتحيّة من الله، ومن الملائكة المقرّبين، وسلامهم وتحيّتهم لبعضهم البعض في تلك المجالس العامرة المملوءة بالصفاء والتي تفيض بالودّ والأُخوّة والصدق.

إن محيطهم وأجواءهم المغمورة بالسلام والسلامة تسيطر على وجودهم، وإنّ أحاديثهم وحواراتهم المختلفة تنتهي إلى السلام والأُخوة والصفاء، وأساساً فإنّ الجنّة هي دار السّلام وبيت السلامة، والأمن والأمان، كما نقرأ في قوله تعالى ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧][٢].

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٧-٤٠].

التّفسير

أصحاب اليمين وهباتهم:

بعد بيان الهبات والنعم الماديّة والمعنويّة (للمقرّبين) يأتي الدور في الحديث عن (أصحاب اليمين) تلك الجماعة السعيدة التي تستلم صفحة أعمالها في (اليد اليمنى) إشارة لنيل الفوز والنجاح في الإمتحان الربّاني.

ويشير سبحانه إلى نعم ستّ، ممّا أنعم به عليهم تمثّل مرحلة أدنى في مقابل سبع نِعم منحها سبحانه إلى المقرّبين من عباده.

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٨، سورة الرعد، الآية: ٢٤، سورة يونس، الآية: ١٠.

(٢) يجب الإنتباه إلى أنّ الإستثناء في الآية: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ هو استثناء منقطع ويفيد للتأكيد.

تبدأ الآيات في الحديث عنهم أوّلاً من حيث مقامهم العالي، حيث يقول عزَّ وجلّ: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾[١].

إنّ هذا الوصف هو أروع وصف لهؤلاء، لأنّ هذا التعبير يستعمل في موارد لا تستطيع الألفاظ التعبير عنه، وهو تعبير عن المقام العالي لأصحاب اليمين.

وتشير الآية اللاحقة إلى أوّل نعمة منحت لهذه الجماعة حيث تقول: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾[٢]. وفي الحقيقة أنّ هذا أنسب وأليق وصف توصف به أشجار الجنّة في دائرة ألفاظنا الدنيوية، لأنّ (السدر) كما يقول أئمة اللغة: شجر قوي معمّر يصل طوله إلى أربعين متراً أحياناً وعمره يقرب من ألفي سنة، ولها ظلّ ظليل ولطيف، والسلبية الموجودة في هذا الشجر أنّه ذو شوك إلّا أنّ وصفه بـ(مخضود) من مادّة (خضد) ـ على وزن (مجد) ـ بمعنى (إزالة الشوك) تنهي آثار هذه السلبية في شجر سدر الجنّة.

وجاء في حديث: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنّ الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوماً، فقال: يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة السدر مؤذية وما كنت أرى أنّ في الجنّة شجرة تؤذي صاحبها؟

فقال رسول الله ﷺ: «وما هي» قال: السدر، فإنّ لها شوكاً.

قال رسول الله ﷺ «أليس يقول الله: في سدر مخضود، يخضده الله من شوكه فيجعل مكان كلّ شوكة ثمرة، إنّها تنبت ثمراً يفتق الثمر منها عن إثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر»[٣].

ثمّ يأتي الحديث عن ثاني هبة لهم حيث يقول سبحانه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾.

و«منضود»: من مادّة (نضد) بمعنى متراكم.

وممكن أن يشير هذا التعبير إلى تراكم الأوراق أو تراكم الفاكهة أو

---

(١) إنّ الحديث عن تركيب هذه الجملة جاء في نهاية الآية (٨) من نفس السورة.

(٢) الجار والمجرور متعلّق بعامل مقدّر والخلاصة أنّها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هم في سدر مخضود).

(٣) روح المعاني، ج٢٧، ص١٢٠. والدرّ المنثور، ج٦، ص١٥٦.

كليهما، حتّى أنّ البعض قال: إنّ هذه الأشجار مليئة بالفاكهة إلى حدّ أنّها تغطّي سيقان وأوراق الأشجار.

وقال بعض المفسّرين: بالنظر إلى أنّ أوراق شجر السدر صغيرة جدّاً، وأوراق شجر الموز كبيرة جدّاً، فإنّ ذكر هاتين الشجرتين إشارة جميلة إلى جميع أشجار الجنّة التي تكون صفاتها بين صفات هاتين الشجرتين[1].

ثمّ يستعرض سبحانه ذكر النعمة الثالثة من نعم أهل اليمين بقوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.

فسّر البعض هذا (الظلّ الواسع) بحالة شبيهة للظلّ الذي يكون بين الطلوعين من حيث انتشاره في كلّ مكان، وقد نقل حديث للرسول ﷺ بهذا المعنى في روضة الكافي[2].

والمقصود هنا أن لا حَرَّ في الجنّة، وأنّ أهلها في ظلال لطيفة واسعة تلطّف الروح.

وينتقل الحديث إلى مياه الجنّة حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾.

«مسكوب» من مادّة (سكب) على وزن «حرب» وتعني في الأصل الصبّ، ولأنّ صبّ الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيّار أو شلّال فإنّه بذلك يصوّر لنا مشهداً رائعاً حيث إنّ خرير المياه ينعش الروح. ويبهر العيون، وهذه إحدى الهبات التي منحها الله لأهل الجنّة، ومن الطبيعي أنّ هذه الجنّة المليئة بالأشجار العظيمة، والمياه الجارية، لا بدّ أن تكون فيها فواكه كثيرة، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة، حيث يقول سبحانه في ذكر خامس نعمة: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

نعم، ليست كفواكه الدنيا من حيث محدوديتها في فصول معيّنة من أسابيع أو شهور، أو يصعب قطفها بلحاظ الأشواك، أو العلو مثل النخيل، أو مانع ذاتي في نفس الإنسان، أو أنّ المضيف الأصلي الذي هو الله والملائكة

---

(١) الفخر الرازي في التفسير الكبير نهاية الآية مورد البحث، ج٢٩، ص١٦٢.

(٢) روضة الكافي، مطابق نقل نور الثقلين، ج٥، ص٢١٦.

الموكّلين بخدمة أهل الجنّة يبخلون عليهم... كلّا، لا يوجد شيء من هذا القبيل، فالمقتضى موجود بشكل كامل، والمانع بكلّ أشكاله مفقود.

ثمّ يشير سبحانه إلى نعمة أخرى حيث يقول: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي الزوجات الرفيعات القدر والشأن.

«فرش»: جمع فراش وتعني في الأصل كلّ فراش يفرش ولهذا التناسب فإنّها تستعمل في بعض الأحيان كناية عن الزوج (سواء كان رجلاً أو امرأة) لذا جاء في الحديث عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

وفسّر البعض الفرش بمعناها الحقيقي وليس كناية، واعتبرها إشارة إلى الفرش الثمينة والتي لها قيمة عظيمة في الجنّة ولكن إذا فسّرت بهذه الصورة، فسيقطع إرتباط هذه الآية مع الآيات اللاحقة التي تتحدّث عن حوريات وزوجات الجنّة.

ويصف القرآن الكريم زوجات الجنّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾.

وهذه الآية لعلّها تشير إلى الزوجات المؤمنات في هذه الدنيا حيث يمنحهنّ الله سبحانه خلقاً جديداً في يوم القيامة، ويدخلن الجنّة وهنّ في قمّة الحيوية والشباب والجمال والكمال الظاهر والباطن، وبشكل يتناسب مع كمال الجنّة وخلوّها من كلّ نقص وعيب.

وإذا كان المقصود بذلك (الحوريات) فإنّ الله تعالى خلقهنّ بصورة لا يعتريهنَّ فيها غبار العجز والضعف، ويمكن أن يكون التعبير بالإنشاء إشارة إلى المعنيين أيضاً.

ثم يضيف تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

واحتمال أن يكون الوصف مستمراً، كما صرّح كثير من المفسّرين بذلك، وأشير له في الرّوايات الإسلامية أيضاً، حيث الزواج لا يغيّر وضعهنّ ويبقين أبكاراً[1].

---

(١) روح المعاني، ج٢٧، ص١٢٣، وبالضمن يجدر الإنتباه إلى أنّ هذه الحالة، مع فاء التفريع عطفت على الآية السابقة.

ويضيف في وصفهنّ بوصف آخر فيقول تعالى: ﴿عُرُبًا﴾.

(عُرُباً) جمع (عروبة) على وزن (ضرورة) بمعنى المرأة التي يحكي وضعها حالها عن مقام عفّتها وطهارتها، وعمّا تكنّه من المحبّة لزوجها، (إعراب): على وزن (إظهار) معناه هو نفس مدلول الإظهار، ويأتي هذا المصطلح أيضاً بمعنى الفصاحة ولطافة الكلام، ويمكن جمع المعنيين في هذه الآية.

والوصف الآخر لهن ﴿أَتْرَابًا﴾ أي أنّهن متماثلات في الجمال وأتراب في الظاهر والباطن، ومتماثلات في العمر مع أزواجهنّ.

(أتراب) جمع (ترب) على وزن (ذهن) بمعنى المثل والشبيه، وقال البعض: إنّ هذا المعنى أخذ من الترائب وهي عظام قفص الصدر، لأنّها تتشابه الواحدة مع الأخرى.

إنّ هذا الشبه والتماثل يمكن أن يكون في أعمار الزوجات بالنسبة لأزواجهنّ، كي يدركن إحساسات ومشاعر أزواجهنّ كاملة، وبذلك تصبح الحياة أكثر سعادة وانسجاماً، بالرغم من أنّ السعادة تحصل مع اختلاف العمر أحياناً إلّا أنّ الغالب ليس كذلك. كما يمكن أن يكون المقصود بالتشابه والتساوي في الصفات الجمالية والنفسية وحسن الظاهر والباطن.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

وهذا تأكيد جديد على اختصاص هذه الصفات والنعم الإلهيّة بهم.

ويحتمل أيضاً أن تكون هذه الجملة مكمّلة لجملة ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾[1].

وفي نهاية هذا العرض يقول سبحانه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٨٨-٩١].

و«أصحاب اليمين» هم الأشخاص الذين يعطون صحيفة أعمالهم بأيديهم اليمين وهم الذين عبّرت عنهم الآية السابقة رقم (٨) ـ من نفس السورة ـ

---

(١) في الصورة الأولى عبارة (أصحاب اليمين) خبر لمبتدأ محذوف، وفي التقدير تصبح هكذا: (هذه كلّها لأصحاب اليمين)، وفي الصورة الثانية جار ومجرور متعلّق بأنشأناهنّ، والتفسير الأوّل أصحّ.

بـ(أصحاب الميمنة)، وهو رمز لأهل النجاة، ودليل الأمان للمؤمنين والصالحين في يوم القيامة.

وقال في الأمثل: إن كلمة «ميمنة من مادة (يُمْن) التي أُخذت من معنى السعادة وعلى هذا التّفسير، فإنّ القسم الأوّل يعني (أصحاب الميمنة) هم طائفة السعداء، وأهل الحبور والسرور و«روح»: على وزن (قول) ـ كما ذكر ذلك أئمّة اللغة ـ في الأصل بمعنى التنفّس.

«الريحان»: بمعنى النبات أو الشيء ذي العطر، ثمّ اصطلح على كلّ شيء باعث للحياة والراحة، كما أنّ الريحان يطلق على كلّ نعمة ورزق كريم.

وبناءً على هذا فإنّ الروح والريحان الإلهيين يشملان كلّ وسائل الراحة والطمأنينة للإنسان، وكلّ نعمة وبركة إلهيّة.

وبتعبير آخر: يمكن القول أنّ الروح إشارة إلى كلّ الأُمور التي تخلّص الإنسان من الصعوبات ليتنفّس براحة، وأمّا الريحان فإنّه إشارة إلى الهبات والنعم التي تعود إلى الإنسان بعد إزالة العوائق.

وقد ذكر المفسّرون الإسلاميون تفاسير متعدّدة لهذين المصطلحين قد تصل إلى عشرة تفاسير:

فقالوا: «الروح» بمعنى الرحمة، و«الريحان» يشمل كلّ فضيلة وشرف.

وقالوا: إنّ الروح هي النجاة من نار جهنّم، والريحان دخول الجنّة.

وذكروا أيضاً: إنّ الروح بمعنى الهدوء في القبر، والريحان دخول الجنّة.

وفسّر آخرون: الروح بمعنى النظر إلى وجه الله سبحانه، والريحان الإستماع إلى كلام الله. وما إلى ذلك.

ويمكن القول أنّ جميع هذه التفاسير مصاديق لهذين المفهومين الكلّي والجامع، والذي ذكر في تفسير الآية أعلاه.

والجدير بالملاحظة أنّ الحديث عن «جنّة النعيم» جاء بعد ذكر الروح والريحان وقد يستفاد من هذا أنّ الروح والريحان يكون من نصيب المؤمنين في الاحتضار والقبر والبرزخ، وأمّا الجنّة ففي الآخرة، كما نقرأ في حديث للإمام

الصادق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية حيث قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ يعني في قبره (وجنّة نعيم) يعني في الآخرة[١][٢].

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم تلك الثلّة الصالحة من الرجال والنساء الذين يستلمون صحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى كعلامة للفوز والنصر والنجاح ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

وبهذا الترتيب فإنّ ملائكة الله المختصّين بقبض الروح في لحظات الإنتقال من هذه الدنيا يوصلون سلام أصحاب اليمين إلى المحتضر. كما قال تعالى في وصف أهل الجنّة وكلامهم: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

ويوجد احتمال آخر أيضاً في تفسير هذه الآية هو أنّ السلام يكون من قبل الملائكة حين يقولون له: سلام عليك أيّها العبد الصالح، يا من هو من أصحاب اليمين، أي يكفيك من الإفتخار والوصف أن تكون في صف هؤلاء[٣].

وتبيّن بعض الآيات القرآنية الأُخرى أيضاً أنّ المؤمنين وهم في حالة الاحتضار يتلقّون سلاماً من الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وعلى كلّ حال، فإنّ تعبير (سلام) تعبير ذو معنى، سواء كان من الملائكة أو من أصحاب اليمين، فالسلام يعبّر عن الروح والريحان وكلّ أنواع الهدوء والنعمة والسلامة[٤].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٢٨، حديث ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) «روح»: من الممكن أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره (فجزاؤه روح)، أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره (فله روح)، وجملة (فروح وريحان وجنّة نعيم) تكون جزاء (أمّا) وإنّ الشرطية مع وجود هذا الجزاء مستغنية من الجزاء الآخر(يرجى الإنتباه).

(٣) وبناءً على هذا فللآية تقديران: الأوّل بلحاظ أنّ (من) بيانية، وعندئذٍ تكون الصورة كما يلي: يقال له: سلام لك من أصحاب اليمين. أمّا الصورة الثانية فبلحاظ أنّ (من) إبتدائية فتكون بالشكل التالي: سلام لك إنّك كنت من أصحاب اليمين. إلّا أنّه بملاحظة التفسير الأوّل فإنّ له تقديراً واحداً وهو: (يقال له...).

(٤) قال في الأمثل: حول التحيّات التي تقدّم لأصحاب الجنّة، جاء بحث مفصّل عنها في نهاية الآية (٥٨) من سورة يونس.

وينبغي الإنتباه إلى أنّ التعبير بـ «أصحاب اليمين» سببه أنّ الإنسان في الغالب يتصدّى لإنجاز أعماله الأساسية والمهمّة بيده اليمنى، لذلك فإنّ اليد اليمنى دلالة القدرة، والمهارة والقابلية والنجاح.

ونقرأ في حديث للإمام الباقر عليه السلام في تعقيبه على نهاية هذه الآية أنّه قال: «هم شيعتنا ومحبّونا»[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

هذه الآيات تذكر المواهب والنعم المعدّة لأهل الجنّة وقد لخصت هذه المواهب في سبعة أقسام:

الأولى: هي ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[2] على هذا فلا يصيبهم أي إزعاج أو خوف، بل هم في أمن كامل من الآفات والبلايا، من الغم والأحزان، ومن الشياطين والطواغيت.

ثمّ تطرقت الآيات إلى النعمة الثانية فقال: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

إنّ التعبير بالجنات يمكن أن يكون إشارة إلى تعدد الحدائق والبساتين التي يتمتع بها كلّ فرد من أهل الجنّة، فهي تحت تصرفه، أو تكون إشارة إلى مقاماتهم المختلفة ودرجاتهم المتفاوتة، لأنّ حدائق الجنّة وبساتينها غير متساوية، بل تختلف باختلاف درجات أصحاب الجنّة.

وتشير الثالثة: إلى ملابسهم الجميلة، فتقول: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

«السندس» يقال للأقمشة الحريرية الناعمة الرقيقة، وأضاف البعض قيد كونها مذهّبة.

---

(١) تفسير البرهان، ج٤، ص٢٨٥.

(٢) ممّا يستحق الإنتباه أنّ (أمين) قد ذكر وصفاً للمقام، فكأن مقام أهل الجنّة أمين بنفسه ولا يخون أهل الجنّة مطلقاً، ومثل هذه التعبيرات تأتي عادة للتأكيد والمبالغة.

و«الإستبرق» هي الأقمشة الحريرية السميكة، ويعتقد بعض المفسّرين وأهل اللغة أنّها معربة من الكلمة الفارسية (أستبر) أو (ستبر) أي السميك، ويحتمل أن يكون أصلها عربياً مأخوذاً من البرق أي اللؤلؤ، حيث إنّ لهذه الأقمشة بريقاً خاصّاً.

طبعاً، ليس في الجنّة حرّ شديد أو برد قارص ليتوقاه أهل الجنّة بارتداء هذه الملابس، بل هذه إشارة إلى الالبسة المتنوعة المعدة لهم.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ كلماتنا وألفاظنا ـ هذه التي وضعت لرفع حاجات الحياة اليومية في دنيانا ـ عاجزة عن وصف مسائل ذلك العالم الكامل العظيم، بل هي قادرة على الإشارة إليها وحسب.

واعتقد البعض أنّ اختلاف هذه الألبسة إشارة إلى تفاوت مقامات القرب بين أصحاب النعيم.

ثمّ إنّ كون أهل الجنّة متقابلين مع بعضهم البعض، وزوال أي تفاوت وتكبر لأحد على آخر، إشارة إلى روح الأنس والأخوة التي تسود مجالسهم، تلك المجالس والحلقات التي لا يرى فيها إلّا الصفاء والمودّة وتسامي الروح.

وتصل النوبة في النعمة الرابعة إلى أزواجهم، فتقول: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

«الحور» جمع حوراء وأحور، وتقال لمن اشتد سواد عينه، واشتد بياض بياضها. و«العين» جمع أعين وعيناء، أي أوسع العين، ولما كان أكثر جمال الإنسان في عينيه، فإنّ الآية تصف عيون الحور العين الجميلة الساحرة. وقد ذكرت محاسنهن الأخرى بأسلوب رائع في آيات أخرى من القرآن.

ثمّ تناولت الآية الأخرى النعمة الخامسة لأصحاب الجنّة فقالت: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ فلا توجد في الجنّة تلك المشكلات والصعوبات التي كانوا يعانونها في تناول فاكهة الدنيا، فإنّها قريبة منهم وفي متناولهم، وعلى هذا فليس هناك بذل جهد لاقتطاف الأثمار من الأشجار العالية، إذ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣].

وإليهم يرجع اختيار الفاكهة التي يشتهونها: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠].

ولا أثر هنا للأمراض والإضطرابات التي قد تحدث في هذه الدنيا على أثر

تناول الفواكه، وكذلك لا خوف من فسادها وقلتها، فهم في راحة وأمن واطمئنان من الجهات.

وعلى أي حال، فإذا كان الزقوم طعام أهل النّار الذي يغلي في بطونهم كغلي الحميم، فإنّ طعام الجنّة هي الفواكه اللذيذة الخالية من كلّ أذى وإزعاج.

خلود الجنّة ونعمها هي النعمة السادسة من نعم الله سبحانه على المتقين، لأنّ الذي يقلق فكر الإنسان عند الوصال واللقاء هو خوف الفراق، ولذلك تقول الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

والطريف أنّ القرآن الكريم قد بيّن كون نعم الجنّة خالدة بتعابير مختلفة، فيقول تارةً: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[1] ويقول أُخرى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

أمّا لماذا عُبر بـ ﴿ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ فسيأتي بيانه في التأملات، إن شاء الله تعالى.

أخيراً يبيّن القرآن الكريم السابع من النعم وآخرها، فيقول: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فإنّ كمال هذه النعم إنما يتم عندما يخلو فكر أصحاب الجنّة من احتمال العذاب، وعدم انشغالهم به، لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذٍ.

وهذا التعبير يشير إلى أنّ المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإنّ الله سبحانه سيعفو عنهم بلطفه وكرمه، ويطمئنهم بأنّ لا يَدَعُوا للخوف إلى أنفسهم سبيلاً. وبتعبير آخر، فإنّ غير المعصومين مبتلون بالهفوات شاؤوا أم أبوا، وهم في خوف وقلق منها ما داموا غير مطمئنين بشمول العفو الإلهي لهم، وهذه الآية تمنحهم الإطمئنان والراحة والأمان من هذه الجهة.

وهنا يطرح سؤال، وهو: إنّ بعض المؤمنين يقضون مدّة في الجحيم بذنوب اقترفوها، ليتطهروا منها، ثمّ يدخلون الجنّة، فهل تشملهم الآية المذكورة؟

ويمكن القول في معرض الإجابة عن هذا السؤال، بأنّ الآية تتحدث عن المتقين ذوي الدرجات السامية، والذين يردون الجنّة من أوّل وهلة، أما الفئة الأُخرى فهي ساكتة عنهم.

---

(١) ورد هذا التعبير في آيات كثيرة من القرآن، ومن جملتها: سورة آل عمران: ١٥، ١٣٦، سورة النساء: ١٣، ١٢٢، سورة المائدة: ٨٥، وغيرها.

ويحتمل أيضاً أنّ هؤلاء عندما يدخلون الجنّة فلن يخشوا بعد ذلك العودة إلى النّار، بل يبقون في الأمن الدائم، وهذا يعني أنّ الآية أعلاه ترسم صورة هؤلاء وحالهم بعد دخولهم الجنّة.

وأشارت آخر آية ـ من هذه الآيات ـ إلى جميع النعم السبعة، وكنتيجة لما مر تقول: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

صحيح، إنّ المتقين قد عملوا الكثير من الصالحات والحسنات، إلّا أنّ من المسلّم أن تلك الأعمال جميعاً لا تستحق كلّ هذه النعم الخالدة، بل هي فضل من الله سبحانه، إذ جعل كلّ هذه النعم والعطايا تحت تصرفهم ووهبهم إيّاها.

هذا إضافة إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا قادرين على كسب كلّ هذه الحسنات ولا على فعل الحسنات لو لم يشملهم فضل الله وتوفيقه ولطفه، فهو الذي منحهم العقل والعلم، وهو الذي أرسل الأنبياء والكتب السماوية، وهو الذي غمرهم بتوفيق الهداية والعمل.

نعم، إنّ استغلال هذه المنح العظمى، والوصول إلى كلّ تلك العطايا والثواب، إنّما تمّ بفضله سبحانه إذ وهبهم إيّاها، ولم يكن هذا الفوز العظيم ليحصل إلّا في ظل لطفه وكرمه.

بحث

ما هي الموتة الأُولى؟

قرأنا في الآيات المذكورة أعلاه أنّ أصحاب الجنّة لا يذوقون إلّا الموتة الأُولى، وهنا تطرح أسئلة ثلاثة:

الأول: ما المراد من الموتة الأُولى؟ فإن كان المراد الموت الذي تنتهي به الحياة الدنيا، فلما تقول الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ في حين أنّهم قد ذاقوها، وعليه يجب أن يأتي الفعل بصيغة الماضي لا المضارع؟

---

(١) احتملت عدّة احتمالات في إعراب (فضلاً): أحدها: إنّها مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير فضلهم فضلاً، والآخر: أنّه مفعول لأجله، أو أنّها حال.

وللإجابة عن هذا السؤال اعتبر البعض (إلّا) في جملة ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ بمعنى (بعد)، وقالوا: إنّ معنى الآية هو أنّهم لا يذوقون موتاً بعد موتتهم الأولى.

وقدّر البعض الآخر تقديراً في الكلام فقالوا: إنّ التقدير هو: إلّا الموتة الأولى التي ذاقوها[١].

الثاني هو: لماذا ورد الكلام عن الموتة الأولى فقط، في حين أننا نعلم أنّ الإنسان يذوق الموت مرّتين: مرّة عند انتهاء حياته، وأخرى بعد حياة البرزخ؟

وقد ذكروا للإجابة على هذا السؤال عدة إجابات كلها غير مرضية، فآثرنا عدم ذكرها لعدم استحقاقها الذكر.

والأفضل أن يقال: إنّ الحياة والموت في البرزخ لا يشبهان أبداً الحياة والموت العاديين، بل إنّ حياة القيامة تشبه الحياة الدنيا من وجوه عديدة بمقتضى المعاد الجسماني، غاية ما هناك أنّها في مستوى أعلى وأسمى، ولذلك يقال لأصحاب الجنّة: لا موتة بعد الموتة الأولى التي ذقتموها، ولما كانت الحياة والموت في البرزخ لا شباهة لهما بحياة الدنيا وموتها لذا لم يرد الكلام حولهما.

السؤال الثالث هو: إنّ عدم وجود الموت في القيامة لا ينحصر بأصحاب الجنّة، بل أصحاب النّار لا يموتون أيضاً، فلماذا أكّدت الآية على أصحاب الجنّة؟

للمرحوم الطبرسي جواب رائع عن ذلك، فهو يقول: إنّ ذلك بشارة لأهل الجنّة، بأن لهم حياة خالدة هنيئة، أما أصحاب النّار الذين يعتبر كلّ لحظة من لحظات حياتهم موتاً، وكأنّهم يحيون ويموتون دائماً، فلا معنى لهذا الكلام في حقهم.

وعلى أي حال، فإنّ التعبير هنا بـ ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ إشارة إلى أنّ أصحاب الجنّة لا يرون ولا يعانون أدنى أثر من آثار الموت.

---

(١) بناءً على هذا فإنّ الإستثناء اعلاه منقطع أيضاً لأنّ أصحاب الجنّة لا يذوقون مثل هذا الموت، بل ذاقوه من قبل (فتأمل)!.

وجميلٌ أن نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الله تعالى يقول لبعض أهل الجنّة: «وعزّتي وجلالي، وعلوي وارتفاع مكاني لأنحلنّ لهم اليوم خمسة أشياء: ألا إنّهم شباب لا يهرمون، وأصحاء لا يسقمون، وأغنياء لا يفتقرون، وفرحون لا يحزنون، وأحياء لا يموتون» ثمّ تلا هذه الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[1].

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

التّفسير

وصف آخر للجنّة:

إنّ هذه الآية وصف لمصير كلّ من المؤمنين والكافرين، فالفئة الأولى الذين يعملون الصالحات، والثانية زيّن لهم سوء أعمالهم.

وقد رفعت هذه الآية الغطاء عن ستة أنواع من نعم أهل النعيم، وعن نوعين من أنواع العذاب الأليم لأصحاب الجحيم، وهي تحدد عاقبة كلا الفريقين وتوضحها.

تتحدث الآية عن أربعة أنهار في الجنّة، لكلّ منها سائله ومحتواه الخاص، ثمّ تتحدث عن فواكه الجنّة، وأخيراً عن بعض المواهب المعنوية.

تقول الآية أوّلاً: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[2].

«الآسن» يعني النتن، وبناءً على هذا، فإنّ ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ تعني الماء الذي لا يتغيّر طعمه ورائحته لطول بقائه وغَيْرُهُ ذلك، وهذا أوّل نهر من أنهار الجنّة، وفيه ماء زلال جار طيب الطعم والرائحة.

ثمّ تضيف: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ وذلك أنّ الجنّة مكان لا يعتريه

---

(١) أصول الكافي، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، صفحة ٦٣٤.

(٢) للمفسّرين بحوث كثيرة حول تركيب هذه الآية الشريفة، والأنسب منها جميعاً أن يقال: (مثل الجنّة) مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: مثل الجنّة التي وعد المتقون جنّة فيها أنهار، وهذه الآية تشبه ـ في الحقيقة ـ الآية (٣٥) من سورة الرعد التي تقول: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

الفساد، ولا تتغيّر أطعمة الجنّة بمرور الزمن، وإنّما تتغيّر الأطعمة في هذه الحياة الدنيا، لوجود أنواع الميكروبات التي تفسد المواد الغذائية بسرعة.

ثمّ تطرّقت إلى ثالث نهر من أنهار الجنّة، فقالت: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

وأخيراً تبيّن الآية رابع أنهار الجنّة بأنّه: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

وعلاوة على هذه الأنهار المختلفة التي خلق كلّ منها لغرض، فقد تحدّثت الآية عن فواكه الجنّة في الموهبة الخامسة، فقالت الآية: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[1] فستوضع بين أيديهم وتحت تصرفهم كلّ الثمرات والفواكه المتنوّعة الطعم والرائحة، سواء التي يمكن تصوّرها، أو التي لا يمكن أن تخطر على أذهاننا اليوم ويصعب تصوّرها.

وأخيراً تتحدث عن الموهبة السادسة التي تختلف عن المواهب المادية السابقة، إذ أنّ هذه الهبة معنوية روحية، فتقول: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ إذ ستمحو رحمته الواسعة كل هفواتهم وسقطاتهم، وسيمنحهم الله الإطمئنان والهدوء والرضى، ويجعلهم من المرضيين عنده والمحبّبين إليه، وسيكونون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وبذلك فإنّ المؤمنين الطاهرين الصالحين يتمتّعون بأنواع المواهب المادية والمعنوية في الجنان الخالدة، وفي جوار رحمة الله.

ولنرَ الآن ماذا سيكون مصير الفريق المقابل للمؤمنين، أي الكفار؟

تقول الآية متابعة لحديثها: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[2].

«الأمعاء» جمع «معي» ـ على وزن سعي ـ و«مِعا» ـ على وزن غنا ـ وتطلق أحياناً على كلّ ما في البطن، وتقطيعها إشارة إلى شدّة حرارة هذا الشراب الجهنّمي المرعب، وقوّة إحراقه.

---

(١) للجملة محذوف، وللتقدير: لهم فيها أنواع كل من الثمرات.

(٢) لقد وردت أبحاث كثيرة في تركيب هذه الآية أيضاً، والأنسب منها جميعاً أنّ للآية تقديراً هو: أفمن هو خالد في الجنّة التي هذه صفاتها كمن هو خالد في النّار؟

ملاحظات

١ ـ أنهار الجنّة الأربعة:

قال في الأمثل: يستفاد من آيات القرآن المجيد جيداً أنّ في الجنّة أنهاراً وعيوناً مختلفة، ولكلّ منها فائدة ولذّة خاصّة، وقد ورد ذكر أربعة نماذج منها في الآية المذكورة، وستأتي نماذج أُخرى في سورة الدهر، وسنذكرها في تفسيرها، إن شاء الله تعالى.

إنّ التعبير بـ«الأنهار» في شأن هذه الأنواع الأربعة، يوحي بأنّ كلاً منها ليس نهراً واحداً، بل أنهار عديدة.

لقد قلنا مراراً: إنّ نعم الجنّة لسيت بالشيء الذي يمكن التحدّث عنه بألفاظ محادثاتنا اليومية في حياتنا الدنيا، فإنّ هذه الألفاظ قاصرة عن أن تجسدها تماماً، أو أن تعبر عنها بما يعكس حقيقتها، وكلّ ما تقدر عليه هو أن ترسم في الأذهان شبحاً باهت اللون عن تلك الحقائق العظيمة.

لقد أشارت الآية ـ مورد البحث ـ إلى أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، إذ يمكن أن يكون الأوّل لرفع العطش، وأمّا الثّاني كغذاء، والثّالث يبعث النشاط والحيوية، الرابع يوجد القوّة واللذّة.

والطريف أنّه يستفاد من آيات القرآن الأُخرى أنّ كلّ أصحاب الجنّة لا يشربون من كل هذه الأشربة، بل أنّ لها مراتب يشرب أصحاب كلّ مرتبة من الأشربة الموجودة في درجتهم، فنقرأ في الآية (٢٨) من سورة المطففين: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨].

٢ ـ الشراب الطهور:

لا يخفى أنّ خمر الجنّة وشرابها لا علاقة له بخمر الدنيا الملّوث مطلقاً، بل هو كما يصفه القرآن في موضع آخر: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، وليس فيه إلّا العقل والنشاط واللذّة الروحية.

٣ ـ اشربة لا يعتريها الفساد:

جاء في وصف أنهار الجنّة مرة أنّ ماءها ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، وأخرى ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ

طَعْمُهُ﴾، وهو يوحي بأنّ أشربة الجنّة وأطعمتها تبقى على طراوتها وجدتها، ولِمَ لا تكون كذلك؟ وإنّما تتغيّر الأطعمة وتفسد بفعل الميكروبات المفسدة، ولولاها فإنّ أطعمة الدنيا تبقى هي الأخرى على حالتها الأولى، ولما لم يكن للموجودات المفسدة مكان في الجنّة، فإنّ كلّ أشيائها صافية ونظيفة وطرية طازجة دائماً.

٤ ـ لماذا الفواكه؟

لقد أكّدت الآية مورد البحث، وكثير من آيات القرآن الأُخرى على الفواكه من بين الأطعمة، الفواكه المتنوّعة المذاق، وهذا يبيّن أنّ الفاكهة أهم أغذية الجنّة، وحتى في هذه الدنيا، فإنّ الفاكهة أفضل وأسلم غذاء للإنسان.

٥ ـ جملة ﴿وَسُقُوا﴾ بصيغة الفعل المبني للمجهول، توضح أنّ أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوّة، لا بإرادتهم، وبدل الإرتواء في تلك النّار المحرقة فإنّه يقطع أمعاءهم وكما هي طبيعة الجحيم فإنّها يرجعون إلى حالتهم الأُولى حيث لا موت هناك.

بعض الفواكه في القرآن

قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: ١-٨].

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ ثمرتان معروفتان، واختلف المفسّرون في المقصود بالتين وبالزيتون، هل هما الفاكهتان المعروفتان أم شيء آخر.

بعضهم ذهب إلى أنهما الفاكهتان بما لهما من خواص غذائية وعلاجية كبيرة، وبعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان في مدينتي «دمشق» و«بيت المقدس» لأنّ المكانين منبَثَق كثير من الرسل والأنبياء... وبذلك ينسجم هذان القَسمان مع ما يليهما من قَسمين بأراض مقدّسة.

وقال آخرون: إنّ تسمية الجبلين بالتين والزيتون يعود إلى وجود أشجار التين على أحدهما والزيتون على الآخر.

وقال بعضهم: إنّ التين إشارة إلى عهد آدم، إذ أنّ آدم وحواء طفقا يضعان على عوراتهما من ورق التين في الجنّة، والزيتون إشارة إلى عهد نوح لأنّه أطلق في آخر مراحل الطوفان حمامة فعادت وهي تحمل غصن الزيتون، ففهم نوح عليه السلام أن الأرض بدأت تبتلع ماءها وظهرت اليابسة. (لذلك اتخذ غصن الزيتون رمزاً للسلام).

وقيل: إنّ التين إشارة إلى مسجد نوح الذي بني فوق جبل الجودي، والزيتون إشارة إلى بيت المقدّس.

ظاهر الآية يدلّ على أنّ المقصود هو الفاكهتان المعروفتان، ولكن القَسمين التاليين يجعلان تفسير التين والزيتون بالجبلين أو المركزين المقدسين أنسب.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قيل هو: طور سيناء، وهو الجبل المعروف في صحراء سيناء حيث أشجار الزيتون المثمرة، وحيث ذهب موسى لمناجاة ربّه، و«سيناء» تعني المبارك، أو كثير الأشجار، أو الجميل.

وقيل: إنّه جبل قرب الكوفة في أرض النجف.

وقيل: إنّ سنين وسيناء بمعنى واحد وهو كثير البركة.

وقال في روح المعاني: قيل: إنّ «سينين» جمع «سينة» وهي شجرة ولما كان «طور» إسم جبل، فيكون القَسم بالجبل المغطّى بالأشجار.

وقيل: إنّ «سينين» إسم الأرض التي يرسو عليها ذلك الجبل.

وقيل: إنّه يعني كثير الخير والبركة، وجميل، بلسان أهل الحبشة[1].

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[2]، والبلد الأمين مكّة، الأرض التي كانت في عصر الجاهلية أيضاً بلداً آمناً وحرماً إلهياً، ولا يحق لأحد فيها أن يتعرض لأحد، المجرمون والقتلة كانوا في أمان إن وصلوا إليها أيضاً.

هذه الأرض لها في الإسلام أهمية عُظمى، الحيوانات والنباتات والطيور فيها آمنة فما بالك بالإنسان.

ويذكر أنّ كلمة «التين» وردت في هذا الموضع من القرآن فقط، بينما كلمة الزيتون تكررت في ستة مواضع باللفظ وفي موضع بالإشارة حيث يقول سبحانه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وهي شجرة الزيتون.

إذا حملنا كلمتي «التين» و«الزيتون» على معناهما الظاهر الإبتدائي، فالقسم بها ذو دلالة عميقة أيضاً.

---

(١) روح المعاني، ج٣٠، ص١٧٣.
(٢) «الأمين» على وزن فعيل، بمعنى فاعل أي «ذو الأمانة» أو بمعنى مفعول أي الأرض المأمونة لسكنتها.

«التين» فاكهة ذات مواد غذائية ثرّة، ولقمة مغذية ومقوية لمختلف الأعمار، وخالية من القشر والنواة والزوائد.

علماء الأغذية يقولون: يمكن الإستفادة من التين كسكّر طبيعي للأطفال ويمكن للرياضيين ولمن يعانون ضعف الشيخوخة أن يستفيدوا من التين للتغذية.

يقال إنّ أفلاطون كان يحبّ التين إلى درجة أطلق بعضهم على هذه الفاكهة اسم محبوب الفلاسفة، وسقراط كان يرى في التين عاملاً على جذب المواد النافعة ورفع المواد الضارة.

جالينوس كان قد وضع نظام تغذية خاص للأبطال من التين، وكان الرومان واليونان القدماء يغذون أبطالهم بالتين.

علماء التغذية يقولون: التين مليء بالفيتامينات المختلفة والسكر، ويمكن الإستفادة منه لعلاج كثير من الأمراض، وحين تخلط نسب متساوية من التين والعسل يكون الخليط مفيداً لقرحة المعدة، وتناول التين اليابس يقوي الفكر، وبإيجاز، التين لما فيه من عناصر معدنية تؤدي إلى تعادل قوى البدن والدم، يعتبر غذاء لمختلف الأعمار والظروف.

وروي عن الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ قال: «التين يذهب بالبخر ويشدّ الفم والعظم، وينبت الشعر، ويذهب بالداء، ولا يحتاج معه إلى دواء».

وقال ﷺ: «التين أشبه شيء بنبات الجنّة»[1].

وحول الزيتون، فإنّ العلماء الذين قضوا عمرهم في دراسة خواص النباتات يعيرون أهمية بالغة للزيتون وزيته، ويعتقدون أنّ الفرد إن أراد أن يعيش في سلامة دائمة فلا بدّ له أن يستفيد من هذا الأكسير الحياتي.

زيت الزيتون صديق حميم لكبد الإنسان، وله تأثير فعّال في معالجة عوارض الكلى، وحصى الصفراء، والتشنجات الكليوية والكبدية، وإزالة الإمساك.

---

(١) الكافي، ج٦، ص٣٥٨، وأورده العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج٦٦، ص١٨٤، روايات متعددة في حقل خواص التين، والمعلومات العلمية عن هذه الفاكهة منقولة عن كتاب «أوّل جامعة وآخر رسول» (فارسي)، ج٩، ص٩٠ وما بعدها.

ولذلك ورد ذكر شجرة الزيتون في القرآن الكريم بعبارة ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

وزيت الزيتون مفعم أيضاً بأنواع الفيتامينات وفيه الفوسفور والكبريت والكالسيوم والحديد والبوتاسيوم والمنغنيز.

الضمادات التي تحضّر من زيت الزيتون والثوم مفيدة لأنواع الآلام الروماتيزمية، وحصى كيس الصفراء تزول بتناول زيت الزيتون[١].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ما أفقر بيت يأتدمون بالخل والزيت وذلك أدام الأنبياء»[٢]، والزيت هو زيت الزيتون.

وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «نِعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، ويذهب بالبلغم، ويصفي اللون، ويشدّ العصب، ويذهب بالوصب (المرض والألم والضعف) ويطفىء الغضب»[٣].

ومسك الختام حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المجال قال: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنّه من شجرة مباركة»[٤].

ثم يأتي جواب القسم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

«تقويم» يعني تسوية الشيء بصورة مناسبة، ونظام معتدل وكيفية لائقة، وسعة مفهوم الآية يشير إلى أنّ الله سبحانه خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كلّ الجهات، الجسمية والروحية والعقلية، إذ جعل فيه ألوان الكفاءات، وأعدّه لتسلق سلّم السمّو، وهو ـ وإن كان جرماً صغيراً ـ وضع فيه العالم الأكبر، ومنحه من الكفاءات والطاقات ما جعله لائقاً لوسام: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذا الإنسان هو الذي يقول فيه الله سبحانه بعد ذكر انتهاء خلقته: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

---

(١) أول جامعة وآخر رسول، ج٩، ص١٣٠ وما بعدها.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٦، ص١٨٠، حديث ٦.
(٣) المصدر السابق، ص١٨٣، حديث ٢٢.
(٤) المصدر السابق، ج١٨٢، حديث ١٦.

وهذا الإنسان بكل ما فيه من امتيازات، يهبط حين ينحرف عن مسيرة الله إلى «أسفل سافلين».

لذلك تقول الآية التالية: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

يقال إن قمم الجبال الشمّاء إلى جانبها دائماً وديان عميقة، وإزاء منحنيات الصعود في التكامل الإنساني توجد منحنيات نزول فظيعة، ولِمَ لا يكون كذلك وهو الموجود المليء بالكفاءات الثرّة التي إن سخرها على طريق الصلاح يبلغ أسمى قمم الفخر وإن استعملها على طريق الفساد يخلق أكبر مفسدة، وينزلق طبعاً إلى «أسفل سافلين».

ولكن الآية التالية تقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

«ممنون»: من «المن» وتعني هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غير مقطوع ولا منقوص، وقيل: إنّه خال من المنّة، لكن المعنى الأوّل أنسب.

قيل: إنّ قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ تعني ضعف الجسم والذاكرة في شيخوخة الإنسان، ولكن هذا التّفسير لا ينسجم مع الإستثناء المذكور في الآية التالية، ولذلك نختار التّفسير الأوّل.

الآية التالية تخاطب هذا الإنسان الكافر بأنعم ربّه والمعرض عن دلائل المعاد وتقول له: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾.

تركيب وجودك من جهة، وبنيان هذا العالم الواسع من جهة أخرى، يؤكّدان أن هذه الحياة الخاطفة لا يمكن أن تكون الهدف النهائي من خلقتك وخلقة هذا العالم الكبير.

هذه كلّها مقدمات لعالم أوسع وأكمل، وبالتعبير القرآني، هذه «النشأة الأولى» تنبىء عن «النشأة الأخرى»، فلِمَ لا يتذكر الإنسان؟! ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [الواقعة: ٦٢].

عالم النباتات كلّ عام يجسّد مشهد الموت والبعث أمام عين الإنسان،

---

(١) راجع أدلة المعاد في تفسير سورة الواقعة.

وتطور الجنين خلقاً بعد خلق، إنّما هو في كلّ خلق معاد وحياة جديدة، فكيف - مع كلّ هذا - ينكر يوم الجزاء؟!

ممّا تقدم يتّضح أنّ المخاطب في الآية هذا النوع من الأفراد.

وقيل: إنّ المخاطب شخص النبي، والمقصود من الآية هو: مع وجود أدلّة المعاد، أي شخص أو شيء يستطيع تكذيبك، وهذا التّفسير يبدو بعيداً.

واتضح أيضاً أنّ المقصود من «الدين» ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، الآية التالية تؤيد ذلك.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

هذا سؤال يستهدف حثّ الإنسان على الإعتراف بأنّه سبحانه أحكم الحاكمين في صنائعه وأفعاله، فكيف يترك هذه الخلائق فلا يجازيهم.

وروي عن الرّسول ﷺ أنّه حين كان يقرأ سورة التين، ويتلو قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يقول: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»[1].

يا ربّ! لقد خلقتنا في أحسن تقويم، فوفقنا لأن تكون أعمالنا وأخلاقنا في أحسن وجه.

إلهنا! يسّر لنا طريق الإيمان والصلاح بلطفك ورحمتك.

آمين يا ربّ العالمين.

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٥١٢.

أعضاء الإنسان في القرآن

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨-١٠].

التّفسير

نعمة العين واللسان والهداية:

استتباعاً للآيات السابقة وما دار فيها من حديث عن الغرور والغفلة في الطاغين، تذكر هذه الآيات الكريمة جانباً من أهم ما أنعم الله به على الإنسان من نعم مادية ومعنوية... كي تكسر روح الغرور، وتدفع الى التفكير في خالق هذه النعم، ولكي تحرّك روح الشكر في نفس الكائن البشري ومن ثمّ تسوقه إلى معرفة الخالق:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه العبارات القصيرة إشارة إلى ثلاث نعم مادية هامّة ونعمة معنوية كبرى هي بمجموعها من أعظم النعم الإلهية: نعمة العين واللسان والشفة من جانب، ونعمة الهداية ومعرفة الخير والشرّ من جانب آخر.

«النجد» في الأصل يعني المكان المرتفع، ويقابلها «تهامة» وهي الأرض المنخفضة، وهنا كناية عن الخير والشرّ وعن سير السعادة والشقاء[١].

ويكفي أن نذكر في النعم السابقة أنّ: «العين»: أهم وسيلة لارتباط الإنسان بالعالم الخارجي، عجائب العين تدفع الإنسان حقّاً إلى الخضوع أمام

---

(١) روي عن أمير المؤمنين عليّ ﷺ أنه قال: «إنّ أناساً يقولون في قوله (وهديناه النجدين) أنّهما الثديان (أي ثديا الأم) فقال: «لا، هما الخير والشرّ» مجمع البيان ذيل الآيات المذكورة، وضمناً التعبير بـ «نجد» على الخير من أجل عظمته وفي مورد الشرّ من باب التغليب.

خالقه، الطبقات السبع للعين وهي المسماة بالقرنية، والمشيمية، والعنبية، والجلدية، والزلالية، والزجاجية، والشبكية، لكلّ منها تركيب عجيب دقيق مدهش، روعيت فيها القوانين الفيزيائية والكمياوية المتعلقة بالنور وانعكاساته على أدق وجه، حتى إن أعقد أجهزة التصوير تعتبر تافهة مقارنة بهذا العضو.

لو لم يكن في الكون سوى الإنسان، ولم يكن من وجود الإنسان سوى العين، لكانت مطالعة هذا العضو كافية وحدها لمعرفة عمل الله الواسع وقدرته الجبّارة جلّ وعلا.

وأمّا «اللسان»، فهو أهم وسائل ارتباط الإنسان بغيره من أبناء جلدته، ونقل المعلومات وتبادلها بين أبناء البشر في الجيل الواحد وفي الأجيال المتعاقبة، وبدون هذه الوسيلة الهامّة من وسائل الإرتباط ما كان بإمكان الإنسان إطلاقاً أن يرتقي إلى ما ارتقى إليه في العلم والمعرفة.

و«الشفتان»: تلعبان أوّلاً دوراً هامّا في النطق، إذ أن الشفتين مخرج لكثير من الحروف، والشفتان تقومان بدور أيضاً في هضم الطعام والمحافظة على رطوبة الفم، وشرب الماء، ترى لو انعدمت الشفتان فماذا كان وضع الإنسان في أكله وشربه ونطقه والمحافظة على ماء فمه وحتى جمال وجهه وشكله؟!

إنّ إدراك الحقائق يتمّ أوّلاً بالعين واللسان... ولذلك تقدم ذكرهما في السياق... ثمّ تبع ذلك ذكر الهداية، الهداية العقلية والفطرية ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، ويشمل التعبير أيضاً «الهداية التشريعية» التي ينهض بمسؤوليتها الأنبياء والأولياء.

نعم... لقد أنعم الله على الإنسان بالبصر والبصيرة، وأنعم عليه بهداية الإرشاد إلى الطريق والتحذير من مغبة الانحراف عنه، كي تكتمل الحجّة على الإنسان.

ومع كلّ هذه النعم، نعم الهداية، لو انحرف الإنسان عن جادة الحقّ، فلا يلومنّ إلّا نفسه.

عبارة ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ إضافة لما لها من مدلول على مسألة الإختيار وحرية الإنسان، تدلّ أيضاً على ما يتطلبه طريق الخير من جهد وعناء، لأنّ

«النجد» مكان مرتفع وتسلق المكان المرتفع يتطلب كداً وسعياً وجهداً، غير أن طريق الشرّ له مشاكله ومصاعبه أيضاً، فأولى بالإنسان أن يبذل الجهد والسعي على طريق الخير.

مع ذلك، فانتخاب الطريق بيد الإنسان... الإنسان هو الذي يتحكم في عينه ولسانه فيم يستعملها... في الحلال أو الحرام، وهو الذي يختار إحدى الجادتين «الخير» أو «الشر».

وفي الحديث القدسي أنّ الله سبحانه يخاطب أبناء آدم يقول: «يا بن آدم إنْ نازعك لسانك فيما حرَّمْتُ عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرَّمتُ عليك فقد أعنتك بطبقتين فأطبق...»[1].

فالله سبحانه منح هذه النعم، ومنح وسائل السيطرة عليها، وتلك من الألطاف الإلهية الكبرى.

والملفت للنظر أنّ الآيات التي نحن بصددها أشارت إلى الشفتين بعد اللسان، ولكن لم تشر إلى الجفنين بعد ذكر العين، ولعل ذلك يعود إلى أهمية الشفتين في الكلام والطعام وغيرها من الأمور أهمية تفوق بكثير أهمية الجفنين، وقد يعود أيضاً إلى أن السيطرة على اللسان أهم وأخطر بكثير من السيطرة على العين.

بحوث

١ ـ عجائب العين:

العين يشبهونها عادة بآلة التصوير (الكاميرا)، فهي تلتقط الصور من عدستها الدقيقة، بدلاً من أن تعكسها على اللوح الحساس (الفيلم) كما تفعل الكاميرا، تعكس الصور على شبكة العين، ومن ثمّ تنتقل عن طريق الأعصاب البصرية إلى الدماغ.

آلة التصوير الدقيقة الظريفة هذه قد تلتقط يومياً ملايين الصور، غير أنّها من جهات مختلفة لا يمكن مقارنتها حتى بأعقد وأحدث أجهزة التصوير، لأنّه:

---

(١) نور الثقلين، ج٥، ص٥٨١.

١ ـ فتحة تنظيم النور (ديافراغم) في جهاز العين، هو بؤبؤ العين، يعمل بشكل تلقائي أما تغيير النور، فيتقلص أمام النور القوي، ويتسع أما النور الضعيف، بينما أجهزة التصوير بحاجة إلى تنظيم بيد المصور.

٢ ـ عدسة العين خلافاً لأنواع عدسات أجهزة التصوير تتغير بتغير بعد الصورة عنها، فيكون قطرها حيناً ١,٥ملم، ويصل أحياناً إلى ٨ ملم، وهذا التغيير يتمّ بواسطة عضلات تتقلص وتنبسط حسب بُعد الصورة المرئية، فعدسة العين تستطيع أن تعمل ما تعمله مئات العدسات الزجاجية.

٣ ـ العين تستطيع أن تتحرك في الجهات الأربع بمساعدة العضلات وتلتقط الصور في الأنحاء المختلفة.

٤ ـ والمهم، أن أجهزة التصوير بحاجة إلى تبديل أفلامها، فإذا انتهت حلقة فيلم، فلا بدّ من فيلم آخر. لكن عين الإنسان تلتقط الصور طوال عمر الإنسان بدون أن تحتاج إلى تعويض شيء، ويعود السبب إلى أن الشبكية التي تنعكس عليها الصور تحتوي على نوعين من الخلايا «المخروطية»، و«الإسطوانية» فيها مادة حساسة للغاية تجاه النور تتحلل بأقل شعاع من نور في الشبكية وتتحول إلى أمواج تنتقل إلى الدماغ، ثمّ يزول الأثر وتستعد الشبكية لالتقاط صور جديدة.

٥ ـ أجهزة التصوير مصنعة من مواد قويّة جدّاً، لكن جهاز العين لطيف وظريف إلى درجة كبيرة، لذلك وضع في محفظة عظيمة مستحكمة، والعين مع ظرافتها ولطافتها أكثر دواماً بكثير من الحديد والفولاذ.

٦ ـ مسألة تنظيم النور ذات أهمية فائقة للمصورين، وقد يطول الزمن بالمصور كي يستطيع تنظيم إضاءة الصورة، بينما تستطيع العين في جميع ظروف النور القوي والمتوسط والضعيف بل حتى في الظلام شريطة وجود بصيص من النور أن تلتقط الصور، وهذا من عجائب العين.

٧ ـ حين ننتقل فجأة من النور إلى الظلمة، أو حين تنطفىء مصابيح الغرفة في الليل، لا تستطيع أعيننا في البرهة الأولى أن ترى شيئاً، ثمّ بالتدريج تعتاد العين على الظرف الجديد فترى ما حولها، وهذا التعوّد هو تعبير بسيط عن

التحول المعقد الذي يحدث في العين، ويؤدي خلال لحظات بسيطة إلى الإنسجام بين العين والظروف الجديدة.

وعكس ذلك يحدث عندما تنتقل من الظلام إلى النور، فالعين في البداية لا تتحمل النور القوي، ولكن بعد لحظات تتوءام مع الظرف الجديد، ومثل هذه الخصائص لا توجد إطلاقاً في أجهزة التصوير.

٨ ـ أجهزة التصوير تستطيع أن تصور زاوية محدودة ممّا يقع أمامها، بينما عين الإنسان تستطيع أن تلتقط كلّ ما في نصف الدائرة الأفقية أمامها بزاوية مقدارها ١٨٠ درجة تقريباً.

٩ ـ من عجائب العينين أنّهما تلتقطان الصورة لتعكساها معاً في نقطة واحدة، وإذا اختل هذا التنظيم تصاب العين بالحول ويرى الفرد الشيء الواحد شيئين.

١٠ ـ ومن الطريف أن صورة الأجسام تنعكس على الشبكية مقلوبة، بينما لا نرى نحن الأشياء مقلوبة.

١١ ـ سطح العين يجب أن يبقى رطباً دائماً، وإذا جفّ أضرّ بالعين كثيراً وهذه الرطوبة تفرزها الغدد الدمعيّة، فتدخل العين من جانب وتخرج عن طريق قنوات دقيقة تقع في جانب من العين إلى الأنف، فترطب الأنف أيضاً.

وإذا جفت الغدد الدمعية، تتعرض العين للخطر، وتتعذر حركة الأجفان، وإن زاد نشاط هذه الغدد أكثر من المطلوب يسيل الدمع باستمرار على الوجه، وإذا انسدّ طريق القنوات التي تدفع الدمع من العين إلى الأنف، فلا بدّ للفرد أن ينشغل دائماً بتجفيف الماء المتصبب على وجهه.

١٢ ـ تركيب الدمع معقد فيه أكثر من عشرة عناصر تشكل معاً أفضل سائل للحفاظ على العين.

بعبارة موجزة عجائب العين من الكثرة بحيث تنطلب كتابة المجلدات الضخام، وليست هي أكثر من شحمة صغيرة، وحقّاً ما قاله أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس من خرم»[1].

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم٨.

٢ ـ عجائب اللسان:

اللسان بدوره من الأعضاء الهامة في بدن الإنسان، وينهض بأعباء هامّة فهو عامل مهم في مضغ الطعام وبلعه، يدفع باللقمة إلى الأسنان ويلتقطها دون أن يتعرض هو للقطع.

وقد يحدث نادراً أن يقع اللسان في مصيدة الأسنان أثناء الأكل، فنستغيث من الألم، ونفهم عندئذٍ مدى مهارة اللسان في تجنب الإنزلاق تحت الأسنان مع أنّه ملاصق لها!!

واللسان بعد ذلك ينظف جوف الفم والأسنان من بقايا الطعام.

وأهم من ذلك، دور اللسان في الكلام بتحركه السريع المتواصل المنظم في الجهات الست، وهو دور عجيب، والإمعان فيه يثير الدهشة والحيرة فقد يسّر الله تعالى للإنسان وسيلة سهلة للتكلم وفي متناول الجميع فلا يصيبها تعب ولا نصب ولاملل ولا تكلّف الإنسان خرجاً!!

وأعجب من ذلك موضوع استعداد الإنسان للكلام، وهذا الإستعداد أودعه الله في الإنسان ليستطيع من خلال تكوين الجمل بأشكال لا تعدّ ولا تحصى أن يبيّن ما لا نهاية له من الغايات.

وأهم من ذلك أيضاً تنوّع اللغات وقابلية الإنسان على وضع لغات مختلفة، وتتّضح هذه الأهمية من خلال مطالعة مفردات آلاف اللغات المنتشرة في العالم... حقّاً «العظمة لله الواحد القهّار!».

٣ ـ هداية النجدين:

«النجد» كما ذكرنا الإرتفاع أو الأرض المرتفعة، و«النجدين» هنا طريق الخير وطريق الشرّ، وورد في الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «يا أيّها النّاس! هما نجدان: نجد الخير ونجد الشرّ، فما جعل نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير»[1].

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٤٩٤؛ وتفسير القرطبي، ج١٠، ص٧١٥٥.

تَحَمُّلُ «التكليف» والمسؤولية غير ممكن دون شك، بغير المعرفة والوعي وحسب هذه الآية فإنّ الله سبحانه منح الإنسان هذه المعرفة.

وهذه المعرفة يحصل عليها الإنسان من ثلاثة طرق: من الإدراكات العقلية والإستدلال، ومن طريق الفطرة والوجدان دون الحاجة إلى الإستدلال، ومن طريق الوحي وتعاليم الأنبياء والأوصياء ﷺ، وكل ما يحتاجه البشر ليطوي مسيرة تكامله قد بيّنه الله سبحانه له بواحد من هذه الطرق أو في كثير من الحالات بالطرق الثلاثة معاً.

ويلاحظ أن الحديث المذكور يصرّح بأن نَجْدَ الشرّ ليس أحبّ إلى طبع الإنسان من نجد الخير، وهذا يردّ على القائلين بأنّ الإنسان مطبوع على الشرّ وإن سلوك طريق الشرّ أيسر له وأسهل.

ومن المؤكّد أن البيئة الإجتماعية لو خَلَتْ من التربية الخاطئة والانحرافات لوفرت الأجواء لرغبة متزايدة في الإنسان نحو الخير، ولعل تعبير «النَّجْد» وهي الأرض المرتفعة لطريق الخير يعود إلى أن الأرض المرتفعة ذات هواء أنقى وجوٍّ أبهج وإنّما أُطلق (النجد) للشرور أيضاً من باب التغليب كما يقال للشمس والقمر: قمران.

وقيل أيضاً: إنّ التعبير بالنجدَين إشارة إلى ظهور طريقي الخير والشر وبروزهما كبروز وظهور الأرض المرتفعة.

أرزاق المخلوقات في القرآن

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

قال في الأمثل: الآية السابقة أشارت إلى سعة علم الله وإحاطته بالسر وما يخفون وما يعلنون، والآية محل البحث تُعدُّ دليلاً على تلك الآية المتقدمة فإنّها تتحدَّث عن الرزق لجميع الموجودات. ولا يمكن أن يتمَّ ذلك إلّا بالإحاطة الكاملة بجميع العالم وما فيه... تقول الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ويعلم تقلُّبها وتنقلها من مكان لآخر، وحيثما كانت فإنّ الرزق يصل إليها منه، وهذه الحقائق مع جميع حدودها ثابتة في كتاب مبين ولوح محفوظ في علم الله ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ملاحظات

١ ـ بالرغم من أنّ كلمة «دابّة» مشتقة من مادة «دبيب» التي تعني السير ببطء وبخطى قصيرة، ولكنّها من الناحية اللغوية تشمل كل حيوان يتحرك في سيره ببطء أو بسرعة، فنرى كلمة الدابة تطلق على الفرس وعلى كل حيوان يركب عليه، وواضح أنّ الكلمة في هذه الآية ـ محل البحث ـ تشمل جميع الحيوانات الموجودة على سطح الأرض بما فيها الحيوانات التي تدبّ في سيرها...

٢ ـ «الرزق»: هو العطاء المستمر، ومن هنا كان عطاء الله المستمر للموجودات رزقاً. وينبغي الإلتفات إلى أن مفهوم الرزق غير منحصر في الحاجات المادية، بل يشمل كل عطاء ماديّ أو معنوي. ولذلك نقول مثلاً: «اللّهم ارزقني علماً كاملاً» أو نقول: «اللّهم ارزقني الشهادة في سبيلك».

والظاهر أنّ المراد من الرزق في هذه الآية الرزق المادي، ولكن إرادة المفهوم العام الذي يندرج تحته الرزق المعنوي غير بعيد..

٣ ـ «المُستَقَرُّ» ـ في الأصل ـ تعني المقرّ، لأن جذر هذه الكلمة في اللغة مأخوذ من «قرّ» على وزن «حرّ» وتعني كلمة القرّ البرد الشديد الذي يجعل الإنسان والموجودات الأُخرى يركنون إلى بيوتهم، ومن هنا جاءت بمعنى التوقف والسكون أيضاً.

و«المستودع» و«الوديعة» من مادة واحدة، وهاتان الكلمتان في الأصل تعنيان «إطلاق الشيء وتركه» ولذلك تطلق على الأُمور غير الثابتة التي ترجع إلى حالتها الطبيعية، فيُطلق على كل أمر غير ثابت «مستودع» وبسبب رجوع الشيء إلى صاحبه الأصلي وتركه محله الذي هو فيه يسمى ذلك الشيء «وديعة» أيضاً.

فالآية آنفة الذكر تقول: لا ينبغي التصور أن الله سبحانه يرزق الدواب التي تستقر في أماكنها فحسب، بل هي حين ما كانت وفي أي ظرف من الظروف تكون فإنّه تعالى يوصل إليها أرزاقها، لأنه يعلم أماكن استقرارها، وكذلك يعلم جميع المناطق التي تنتقل إليها وترحل عنها من حيوانات بحرية مهولة الحجم، إلى أصغر الكائنات المجهرية، فإنّه تعالى يرزق كلا منها بحسب حاجته وحاله.

وهذا الرزق ملحوظ بحيث يناسب حال الموجودات من حيث الكمية والكيفية، وهو مطابق تماماً لمقدار الحاجة والرغبة، حتى غذاء الجنين الذي في رحم أمّه يتفاوت كل شهر عن الشهر السابق في النوعية والكمية، بل كل يوم عن اليوم السابق، بالرغم ممّا يبدو أن الدم نوع واحد لا أكثر، وكذلك الطفل في مرحلة الرضاعة حيث يبدو أن غذاءه من نوع واحد، لكن تركيب هذا الغذاء أو اللبن يختلف من يوم لآخر.

٤ ـ «الكتاب المبين» معناه المكتوب الواضح البيّن، ويشير إلى علم الله الواسع، وقد يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ أيضاً.

ويحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّه لا ينبغي لأحد أن يهتم لرزقه

أقلّ اهتمام، أو يحتمل سقوط اسمه وسهمه من القلم، لأنّ أسماء الجميع مثبتة في ﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كتاب أحصى الجميع بجلاء ووضوح!

تقسيم الأرزاق والسعي من أجل الحياة!

هناك أبحاث مهمّة في مسألة «الرزق»، ونأخذ بنظر الإعتبار ـ هنا ـ قسماً منها:

١ ـ «الرزق» ـ كما قلنا آنفاً ـ يعني في اللغة العطاء المستمر والدائم، وهو أعم من أن يكون رزقاً ماديّاً أو معنوياً... فعلى هذا كل ما يكون فيه نصيب للعباد من قبل الله وينتفعون منه ـ من مواد غذائية ومسكن وملبس أو علم وعقل وفهم وإيمان وإخلاص ـ يسمّى رزقاً، ومن ظنّ أن مفهوم الرزق خاص بالجوانب الماديّة لم يلتفت إلى موارد استعماله في القرآن الكريم بدقة... فالقرآن يتحدث عن الشهداء في سبيل الله بأنّهم... ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وواضح أن رزق الشهداء ـ في عالم البرزخ ـ ليس نعماً مادية، بل هو عبارة عن المواهب المعنوية التي يصعب علينا تصوّرها في هذه الحياة المادية.

٢ ـ مسألة تأمين الحاجات بالنسبة للموجودات الحية ـ وبتعبير آخر تأمين رزقها ـ من المسائل المثيرة التي تنكشف أسرارها بمرور الزمان وتَقدُّم العلم... وتظهر كل يوم ميادين جديدة تدعو للتعجب والدهشة.

كان العلماء في الماضي يتساءلون فيما لو كان في أعماق البحار موجودات حيّة، فمن أين يتم تأمين غذائها؟! إذ أنّ أصل الغذاء يعود إلى النباتات والحشائش، وهي تحتاج إلى نور الشمس، ولكن على عمق ٧٠٠ متر فصاعداً لا وجود لنور الشمس أبداً، بل ليل أبدي مظلم يلقي ظلاله ويبسط أسداله هناك.

ولكن اتّضح بتقدم العلم أن نور الشمس يُغذّي النباتات المجهرية في سطح الماء وبين الأمواج، وحين تبلغ مرحلة النضج تهبط إلى أعماق البحر كالفاكهة الناضجة، وتنظم إلى الأرزاق الإلهية للأحياء في تلك الأعماق، مائدة نعمة الله للموجودات الحية تحت الماء!

ومن جهة أخرى فهناك طيور كثيرة تتغذى من أسماك البحر، منها طيور تطير في الليل وتهبط في البحر كالغواص الماهر وعن طريق أمواج رادارية خاصّة تخرج من آنافها تعرف صيدها وتصطاد بمنقارها.

ورزق بعض أنواع الطيور يكون مُدّخراً بين ثنايا أسنان حيوانات بحرية كبيرة هذا النوع من الحيوانات بعد أن يتغذى من حيوانات البحر، تحتاج أسنانه إلى «منظف طبيعي» فيأتي إلى ساحل البحر ويفتح فمه الواسع فتدخل هذه الطيور التي أدخر رزقها في فم هذا الحيوان الكبير، فتملأ بطونها من جهة، وتريح الحيوان الذي تزدحم بين أسنانه «هذه الفضلات» من جهة أخرى... وحين تخرج الطيور وتطير في الفضاء يطبق هذا الحيوان البحري فمه بكل هدوء ويعود إلى أعماق البحر.

طريقة إيصال الرزق من الله تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة ومحيِّرة حقّاً. من الجنين الذي يعيش في بطن أمّه ولا يعلم أحد من أسراره شيئاً، إلى الحشرات المختلفة التي تعيش في طيّات الارض، وفي الأشجار وعلى قمم الجبال أو في أعماق البحر، وفي الأصداف... جميع هذه المجودات يتكفل الله برزقها ولا تخفى على علمه، وكما يقول القرآن: ﴿...عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

الطريف في الآيات آنفة الذكر أنّها تُعَبِّرُ عن الموجودات التي تطلب الرزق بـ«الدّابّة» وفيها إشارة لطيفة إلى العلاقة بين موضوع «الطاقة» و«الحركة». ونعلم أنّه حيثما تكن حركة فلا بدّ لها من طاقة، أيْ ما يكون منشأً للحركة، والقرآن الكريم يبيّن ـ في الآيات محل البحث ـ أنّ الله يرزق جميع الموجودات المتحركة، وإذا ما توسعنا في معنى الحركة فإنّ النباتات تندرج في هذا الأمر أيضاً، لأنّ للنباتات حركة دقيقة وظريفة في نموها، ولهذا عدّوا في الفلسفة الإسلامية موضوع «النمو» واحداً من أقسام الحركة...

٣ ـ هل أنّ رزق كلّ أحد مقدر ومعين من أوّل عمره إلى آخره، وهل أنّه يصل إليه شاء أم أبى؟! أم أنّ عليه أن يسعى في طلبه؟

يظنّ بعض الأفراد السذّج استناداً إلى الآية آنفة الذكر، وإلى بعض

الرّوايات التي تذكر أنّ الرزق مقدر معين، أنّه لا داعي للسعي من أجل الرزق والمعاش، فإنّه لا بدّ من وصول الرزق، ويقول بكل بساطة: إنّ مَنْ خلق الأشداق قدّر لها الأرزاق.

إنّ سلوك مثل هؤلاء الأفراد الذين لا حظّ لهم من المعرفة الدينية يعطي ذريعة إلى الأعداء حيث يدّعون أنّ الدين أحد عوامل الركود الإقتصادي وتَقَبُّلُ الحرمان وإماتة النشاطات الإيجابيّة في الحياة، فيقول مثلاً: إذا لم تكن الموهبة الفلانية من نصيبي فإنّها لم تكن من رزقي قطعاً... فلو كانت من نصيبي لوصلتني حتماً من دون تكلف عناء الكسب. وبهذا يستغل المستعمرون هذه الفرصة ليحرموا الكثير من الخلق التمتع بأسباب الحياة... في حين أن أقل معرفة بالقرآن والأحاديث الإسلامية تكفي في بيان أن الإسلام يعدّ أساس أي استفادة مادية ومعنوية للإنسان هو السعي والجد والمثابرة، حتى أنّنا نجد في القرآن جملة بمثابة الشعار لهذا الموضوع، وهي الآية الكريمة ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

وكان أئمّة المسلمين ـ ومن أجل أن يسنّوا للآخرين نهجاً يسيرون عليه ـ يعملون في كثير من المواقع أعمالاً صعبة ومجهدة.

والأنبياء السابقون ـ أيضاً ـ لم يُستثنوا من هذا القانون، فكانوا يعملون على الإكتساب، من رعي الأغنام إلى الخياطة إلى نسج الدروع إلى الزراعة. فإذا كان مفهوم الرزق من الله أن نجلس في البيت وننتظر الرزق، فما كان ينبغي للأنبياء والأئمّة ـ الذين هم أعرف بالمفاهيم الدينية ـ أن يسعوا هذا السعي إلى الرزق!

وعلى هذا نقول: إنّ رزق كل واحد مقدّر وثابت، إلّا أنّه مشروط بالسعي والجد، وإذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط. وهذا كما نقول: إن لكلّ فرد أجلاً ومدة من العمر. لكن من المسلم والطبيعيّ أن مفهوم هذا الكلام لا يعني أنّ الإنسان حتى لو أقدم على الإنتحار أو أضرب عن الطعام فإنّه سيبقى حيّاً إلى أجل معيّن!! إنّما مفهوم هذا الكلام أن للبدن استعداداً للبقاء إلى مدّة معينة ولكن بشرط أن يراعي الظروف الصحيّة وأن يَتبعَّد عن الأخطار، وأن يجنّب نفسه عمّا يكون سبباً في تعجيل الموت.

المسألة المهمّة في هذا المجال أنّ الآيات والرّوايات المتعلقة بتقدير الرزق ـ في الواقع ـ بمثابة الكابح للأشخاص الحريصين وعبّاد الدنيا الذين يلجون كل باب، ويرتكبون أنواع الظلم والجنايات، ويتصورون أنّهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمنوا حياتهم!

إنّ آيات القرآن والأحاديث الإسلامية تحذر هذا النمط من الناس ألّا يمدّوا أيديهم وأرجلهم عبثاً، وألّا يطلبوا الرزق من طرق غير مشروعة ولا معقولة، بل يكفي أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، والله سبحانه يضمن لهم الرزق فالله الذي لم ينسهم في ظلمة الرحم.

الله الذي تكفّل رزقهم أيّام الطفولة حيث هيأ لهم أثداء الأمّهات.

الله الذي جعل الأب يسعى من الصباح إلى الليل ليهيّىء لهم الغذاء بكل عطف وشفقة ـ بعد أن أنهوا مرحلة الرضاعة ـ وهو مسرور بالتعب من أجلهم...

أجل، هذا الرّب الرحيم كيف يمكن أن ينسى الإنسان إذا ما كبر ووجد القدرة على العمل والكسب.

تُرى هل يجيز الإيمان والعقل أن يلجأ الإنسان إلى الظلم والإثم والتجاوز على حقوق الآخرين ويحرص على غصب حقوق المستضعفين بمجرّد أنّه يظن عدم توفر رزقه؟

وبالطبع لا يمكن أن ننكر أن بعض الأرزاق تصل إلى الإنسان سعى لها أم لم يسع. فهل يمكن أن ننكر أن نور الشمس يضيء في بيتنا من دون سعينا، وأن المطر والهواء يصلان إلينا دون سعي منّا؟

وهل يمكن أن ننكر أنّ العقل والفكر والإستعداد المذخور فينا من أوّل يوم وجودنا لم يكن بسعينا؟!

ولكن من المواهب التي تنقلها إلينا الريح ـ كما يقال ـ أو بتعبير أصحّ هذه المواهب التي وصلتنا بلطف الله ومن دون سعينا، إذا لم نحافظ عليها بالجد والسعي بطريقة صحيحة فستضيع من أيدينا، أو أنّها ستبقى بلا أثر!

هناك كلام معروف منقول عن الإمام عليّ ﷺ في شأن الرزق فيقول:

«واعلم يا بني أن الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزق يطلبك»[1] وفي هذا الكلام إشارة إلى هذه الحقيقة.

كما لا ينكر أن بعض موارد الرزق لا يأتي تبعاً لشيء ظاهر وملموس، بل يصلنا على أثر سلسلة من الإتفاقات والمصادفات، هذه الحوادث وإن كانت في نظرنا مصادفات، إلّا أنها في الواقع وفي نظام الخلق قائمة على حساب دقيق. ولا شك أن حساب هذا النوع من الرزق منفصل عن الأرزاق التي تأتي تبعاً للجد والسعي، والكلام آنف الذكر يمكن أن يشير إلى هذا المطلب أيضاً.

ولكن على كل حال، فإنّ النقطة الأساسية هنا أنّ جميع التعاليم الإسلامية تأمرنا أن نسعى أكثر فأكثر لتأمين نواحي الحياة المادية والمعنوية، وأن الفرار من العمل ـ بزعم أن الرزق مقسوم وأنّه آت لا محالة ـ غير صحيح!..

٤ ـ في الآيات المتقدمة ـ التي هي محل البحث ـ إشارة إلى «الرزق» فحسب، وبعدها ببضعة آيات يأتي التعبير عن التائبين والمؤمنين ويشار فيها إلى «المتاع الحسن».

وبالموازنة والمقارنة بين هذين الأمرين يدلنا هذا الموضوع على أن الرزق معدّ لكل دابة من إنس وحشرات وحيوانات مفترسة.... الخ، وللمحسنين والمسيئين جميعاً!... إلّا أن «المتاع الحسن» والمواهب الجديرة والثمينة خاصّة بالمؤمنين الذين يطهرون أنفسهم من كل ذنب وتلوّث بماء التوبة، ويتمتعون بنعم الله في مسير طاعته، لا في طريق الهوى والهوس!

(١) نهج البلاغة، من وصية الإمام عليّ عليه السلام لولده الحسن عليه السلام.

سبب اختلاف الأرزاق في القرآن

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧٠-٧٢].

التّفسير

سبب اختلاف الأرزاق:

بيّنت الآيات السابقة قسماً من النعم الإلهية المجعولة في عالمي النبات والحيوان، لتكون دليلاً حسيّاً لمعرفته جلّ شأنه، وتواصل هذه الآيات إثبات الخالق جلّ وعلا بأسلوب آخر، وذلك بأن تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، وذلك كاشف بقليل من الدقة والتأمل على وجود المقدّر لذلك.

فيبتدأ القول بـ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾.

فمنه الممات كما كانت الحياة منه، ولتعلموا بأنكم لستم خالقين لأي من الطرفين (الحياة والموت).

ومقدار عمركم ليس باختياركم أيضاً، فمنكم مَنْ يموت في شبابه أو في كهولته ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾[1].

---

(١) أرذل العمر من (رذل) بمعنى الحقارة وعدم المرغوبية، والمقصود من «أرذل العمر»: السنين المتقدمة جدّاً من عمر الإنسان حيث الضعف والنسيان، ولا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، ولهذا سماها القرآن بأرذل العمر، وقد اعتبر بعض المفسّرين أنّها تبدأ من عمر (٧٥) عاماً، وبعض آخر من (٩٠) وآخرون اعتبروها من (٩٥)... والحق أنّها لا تحدد بعمر، وإنّما تختلف من شخص لآخر.

ونتيجة هذا العمر الموغل في سني الحياة ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[1].

فيكون كما كان في مرحلة الطفولة من الغفلة والنسيان وعدم الفهم... نعم فـ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فكل القدرات بيده جلّ وعلا، وعطاءه بما يوافق الحكمة والمصلحة، وكذا أخذه لا يكون إلّا عندما يَلْزَم ذلك.

ويواصل القرآن الكريم استدلاله في الآية التالية من خلال بيان أنَّ مسألة الرزق ليست بيد الإنسان وإنّما... ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فأصحاب الثروة والطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها ومشاركتهم فيها خوفاً أن يكونوا معهم على قدم المساواة: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ز

واحتمل بعض المفسّرين أنّ الآية تشير إلى بعض أعمال المشركين الناتجة عن حماقتهم، حينما كانوا يجعلون لآلهتهم من الأصنام سهماً من مواشيهم ومحاصيلهم الزراعية، وبالرغم من عدم وجود أيّ أثر لتلك الأحجار والأخشاب على حياتهم! بل كان الأولى بهم لو التفتوا إلى خدمهم وعبيدهم ليعطوهم شيئاً جزاءَ ما يقدمونه لهم من خدمات ليل نهار!...

هل التفاضل في الرّزق من العدالة؟...

وهنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: هل أنّ إيجاد التفاوت والإختلاف في الأرزاق بين الناس، ينسجم مع عدالة الله عزَّ وجلَّ ومساواته بين خلقه، التي ينبغي أن تحكم نظام المجتمع البشري؟

لأجل الإجابة، ينبغي الإلتفات إلى الملاحظتين التاليتين:

١ ـ إنّ الإختلاف الموجود بين البشر في جانب الموارد المادية يرتبط بالتباين الناشىء بين الناس جراء اختلاف استعداداتهم وقابليتهم من واحد لآخر.

---

(١) عبارة: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ يمكن أن تكون غاية ونتيجة للسنين المتقدمة من حياة الإنسان، فيكون مفهومها أنّ دماغ الإنسان وأعصابه في هذه السنين تفقد القدرة على التركيز والحفظ فيسيطر على الإنسان النسيان والغفلة، ويمكن أن يكون معناها العلّة، أيّ أنّ الله تعالى يوصل الإنسان إلى هذا العمر لكي يصاب بالنسيان، فيفهم الناس بأنّهم لا يملكون شيئاً من أنفسهم.

والتفاوت في الإستعدادَيْن الجسمي والروحي يستلزم الإختلاف في مقدار ونوعية الفعالية الإقتصادية للأفراد، ممّا يؤدي إلى زيادة وارد بعض وقلّة وارد البعض الآخر.

ولا شك أنّ بعض الحوادث والإتفاقات لها دخل في إثراء بعض الناس، إلّا أنّه لا يمكن أن نُعوّل عليها عند البحث لأنّها ليست أكثر من استثناء، أمّا الضابط في أكثر الحالات فهو التفاوت الموجود في كمية وكيفية السعي (ومن الطبيعي أن بحثنا يتناول المجتمع السليم والبعيد عن الظلم والإستغلال، ولا نقصد به تلك المجتمعات المنحرفة التي تركت قوانين التكوين والنظام الإنساني جانباً وانزلقت في طريق الظلم والإستغلال).

وقد يساورنا التعجب حينما نجد بعض الفاقدين لأي مؤهل أو استعداد يتمتعون برزق وافر وجيد، ولكننا عندما نتجرّد عن الحكم من خلال الظواهر ونتوغل في أعماق مميزات ذلك البعض جسمياً ونفسياً وأخلاقياً، نجد أنّهم يتمتعون بنقاط قوّة أوصلتهم إلى ذلك (ونكرر القول بأنّ بحثنا ضمن إطار مجتمع سليم خال من الإستغلال).

وعلى أي حال... فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالإستعدادات، وهو من المواهب والنعم الإلهية أيضاً، وإنْ أمكن أنْ يكون بعض ذلك اكتسابياً، فالبعض الآخر غير اكتسابي قطعاً. فإذاً وجود التفاوت في الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحية الإقتصادية، ويتمّ ذلك حتى داخل المجتمعات السليمة... إلّا إذا افترضنا وجود مجموعة أفراد كلهم في هيئة واحدة من حيث: الشكل، اللون، الإستعداد ولا يعتريهم أيّ اختلاف! وإذا ما افترضنا حدوث ذلك فإنّه بداية المشاكل والويلات!

٢ ـ لو نظرنا إلى بدن إنسان ما، أو إلى هيكل شجرة أو باقة ورد، فهل سنجد التساوي بين أجزاء كل منها ومن جميع الجهات؟

وهل أنّ قدرة ومقاومة واستعداد جذور الشجرة مساوية لقدرة ومقاومة واستعداد أوراق الوردة الظريفة؟ هل أن عظم قدم الإنسان لا يختلف عن شبكية عينه؟

وَهل من الصواب أن نعتبر كل ذلك شيئاً واحداً؟!

ولو تركنا الشعارات الكاذبة والفارغة من أيّ معنى، وافترضنا تساوي الناس من جميع النواحي، فنملأ الأرض بخمسة مليارات من الأفراد ذوي الشكل الواحد، الذوق الواحد، الفكر الواحد، بل والمتحدين في كل شيء كعلبة السجائر... فهل نستطيع أن نضمن أنّ حياة هؤلاء ستكون جيدة؟ ستكون الإجابة بالنفي قطعاً، وسيحرق الجميع بنار التشابه المفرط والرتيب الكئيب، لأنّ الكل يتحرك في جهة واحدة، والكل يريد شيئاً واحداً، ويحبون غذاءً واحداً، ولا يرغبون إلّا بعمل واحد!

وبديهياً ستكون حياة كهذه سريعة الإنقراض، ولو افترض لها الدوام، فإنّها ستكون متعبة ورتيبة وفاقدة لكل روح. وبعبارة أشمل سوف لا يبعدها عن الموت بون شاسع.

وعلى هذا فحكمة وجود التفاوت في الإستعدادات المستتبعة لهذا التفاوت قد ألزمتها ضرورة حفظ النظام الإجتماعي، وليكون التفاوت في الإستعدادات دافعاً لتربية وإنماء الإستعدادات المختلفة للأفراد. ولا يمكن للشعارات الكاذبة أن تقف في وجه هذه الحقيقة التي يفرضها الواضع الموضوعي أبداً.

ولا ينبغي أن نفهم من هذا الكلام أنّنا نريد منه إيجاد مجتمع طبقي أو نظام استغلالي واستعماري، لا. أبداً... وإنّما نقصد بالإختلافات التفاوت الطبيعي بين الأفراد (وليس المصطنع) الذي يعاضد بعضه الآخر ويكمله (وليس الذي يكون حجر عثرة في طريق تقدم الأفراد ويدعو إلى التجاوز والتعدي على الحقوق).

إنّ الإختلاف الطبقي (والمقصود من الطبقات هنا: ذلك المفهوم الإصطلاحي الذي يعني وجود طبقة مستغِلة) لا ينسجم مع نظام الخليقة أبداً، ولكنّ الموافق لنظام الخليقة هو ذلك التفاوت في الإستعدادات والسعي وبذل الجهد، والفرق بين الأمرين كالفرق بين السماء والأرض - فتأمل.

وبعبارة أخرى، إنّ الإختلاف في الإستعدادات ينبغي أن يوظف لخدمة مسيرة البناء، كما في اختلاف طبيعة أعضاء بدن الإنسان أو أجزاء الوردة، فمع تفاوتها إلّا أنّها ليست متزاحمة، بل إنّ البعض يعاضد البعض الآخر وصولاً للعمل التام على أكمل وجه.

وخلاصة القول: ينبغي أن لا يكون وجود التفاوت والإختلاف في الإستعدادات وفي الدخل اليومي للأفراد دافعاً لسوء الإستفادة وذلك بتشكيل مجتمع طبقي[١].

ولهذا يقول القرآن الكريم في ذيل الآية مورد البحث: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وذلك إشارة إلى أنّ هذه الإختلافات في حالتها الطبيعية (وليس الظالمة المصطنعة) إنّما هي من النعم الإلهية التي أوجدها لحفظ النظام الإجتماعي البشري.

وتبدأ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث بلفظ الجلالة «الله» كما كان في الآيتين السابقتين، ولتتحدث عن النعم الإلهية في إيجاد القوى البشرية، ولتتحدث عن الأرزاق الطيبة أيضاً تكميلاً للحلقات الثلاث من النعم المذكورة في آخر ثلاث آيات، حيث استهلت البحث بنظام الحياة والموت، ثمّ التفاوت في الأرزاق والإستعدادات الكاشف لنظام (تنوع الحياة) لتنتهي بالآية مورد البحث، حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشري و... الأرزاق الطيبة.

وتقول الآية: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتكون سكناً لأرواحكم وأجسادكم وسبباً لبقاء النسل البشري.

ولهذا تقول وبلا فاصلة: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

«الحَفَدَةُ» بمعنى (حافد) وهي في الأصل بمعنى الإنسان الذي يعمل بسرعة ونشاط دون انتظار أجر وجزاء، أمّا في هذه الآية ـ كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسّرين ـ فالمقصود منها أولاد الأولاد، واعتبرها بعض المفسّرين بأنّها خاصّة بالإناث دون الذكور من الأولاد.

ويعتقد قسم آخر من المفسّرين: أن «بنون» تطلق على الأولاد الصغار، و«الحفدة» تطلق على الأولاد الكبار الذين يستطيعون إعانة ومساعدة آبائهم.

واعتبر بعض المفسّرين أنّها شاملة لكل معين ومساعد، من الأبناء كان أم من غيرهم[٢].

---

(١) قال في الأمثل: لقد بحثنا بشكل مفصل موضوع فلسفة الإختلاف في الإستعدادات والفوائد الناتجة عن ذلك في ذيل الآية (٣٢) من سورة النساء ـ فراجع.

(٢) وفي هذه الحال يجب أن لا تكون «حفدة» معطوفة على «بنين» بل على «أزواجاً» ولكنّ هذا العطف خلاف الظاهر الذي يشير إلى عطفها على «بنين» ـ فتأمل.

ويبدو أن المعنى الأوّل (أولاد الأولاد) أقرب من غيره، بالرغم ممّا تقدم من سعة مفهوم «حفدة» في الأصل.

وعلى أي حال، فوجود القوى الإنسانية من الأبناء والأحفاد والأزواج للإنسان من النعم الإلهية الكبيرة التي أنعمها جلَّ اسمه على الإنسان، لأنّهم يعينون مادياً ومعنوياً في حياته الدنيا.

ثمّ يقول القرآن الكريم: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾.

«الطيبات» هنا لها من سعة المفهوم بحيث تشمل كل رزق طاهر نظيف، سواء كان مادياً أو معنوياً، فردياً أو اجتماعياً.

وبعد كل العرض القرآني لآثار وعظمة قدرة الله، ومع كل ما أفاض على البشرية من نعم، نرى المشركين بالرغم من مشاهدتهم لكل ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام ويتركون السبيل التي توصلهم إلى جادة الحق ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

فما أعجب هذا الزيغ! وأي حال باتوا عليها! عجباً لهم وتعساً لنسيانهم مسبب الأسباب، وذهابهم لما لا ينفع ولا يضر ليقدسوه معبوداً!!!

بحثان

أسباب الرزق:

على الرغم ممّا ذكر بخصوص التفاوت من حيث الإستعداد والمواهب عند الناس، إلّا أنّ أساس النجاح يمكن من السعي والمثابرة والجد، فالأكثر سعياً أكثر نجاحاً في الحياة والعكس صحيح.

ولهذا جعل القرآن الكريم ارتباطاً بين ما حصل عليه الإنسان وبين سعيه، فقال بوضوح: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

ومن الأُمور المهمّة والمؤثرة في مسألة استحصال الرزق والإلتزام بالمبادىء من قبيل: التقوى، الأمانة، إطاعة القوانين الإلهية والإلتزام بأصول العدل، كما أشارت إلى ذلك الآية (٩٦) من سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وكما في الآيتين (٢و٣) من سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۝٣﴾.

وكما أشارت الآية (١٧) من سورة التغابن بخصوص أثر الإنفاق في سعة الرزق: ﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾.

ولعلنا لا حاجة لنا بالتذكير أن فقدان فرد أو جمع من الناس يضر بالمجتمع ولهذا فحفظ سلامة الأفراد وإعانتهم يعود بالنفع على كل الناس (بغض النظر عن الجوانب الإنسانية والروحية لذلك).

وخلاصة القول إنّ اقتصاد المجتمع إن بُني على أُسس التقوى والصلاح والتعاون والإنفاق فالنتيجة أن ذلك المجتمع سيكون قوياً مرفوع الرأس، أمّا لو بُني على الإستغلال والظلم والإعتداء وعدم الإهتمام بالآخرين، فسيكون المجتمع متخلفاً اقتصادياً وتتلاشى فيه أواصر الحياة الإجتماعية.

ولذلك فقد أعطت الأحاديث والرّوايات أهمية استثنائية للسعي في طلب الرزق المصحوب بالتقوى، وحتى روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تكسلوا في طلب معايشكم، فإنّ أباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها»[1].

وروي عنه أيضاً: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[2].

وحتى أنّ الأمر قد وجّه إلى المسلمين بالتبكير في الخروج لطلب الرزق[3] وذكر أنّ من جملة مَنْ لا يستجاب لهم الدعاء أُولئك الذين تركوا طلب الرزق على ما لهم من استطاعة، انزووا في زوايا بيوتهم يدعون الله أن يرزقهم!

وهنا يتبادر إلى الذهن تساؤل عن الآيات القرآنية والرّوايات التي تؤكد على أنّ الرزق بيد الله، وذم السعي فيه، فيكف يتمّ تفسير ذلك؟!

وللإجابة نذكر الملاحظتين التاليتين:

١ ـ دقة النظر والتحقق في المصادر الإسلامية يوضح أنّ الآيات أو

---

(١) الوسائل، ج١٢، ص٤٨.

(٢) الوسائل، ج١٢، ص٥٠.

(٣) الوسائل، ج١٢، ص٤٣.

الرّوايات التي يبدو التضاد في ظاهر ألفاظها ـ سواء في هذا الموضوع أو غيره ـ إنّما ينتج من النظرة البسيطة السطحية، لأنّ حقيقة تناولها لموضوع ما إنّما يشمل جوانب متعددة من الموضوع، فكل آية أو رواية إنّما تنظر إلى بعد معين من أبعاد الموضوع، فتوهم غير المتابع بوجود التضاد.

فحيث يسعى الناس بولع وحرص نحو الدنيا وزخرف الحياة المادية، ويقومون بارتكاب كل منكر للوصول إلى ما يريدونه، تأتي الآيات والرّوايات لتوضح لهم تفاهة الدنيا وعدم أهمية المال.

وإذا ما ترك الناس السعي في طلب الرزق بحجة الزهد، تأتيهم الآيات والرّوايات لتبيّن لهم أهمية السعي وضرورته.

فالقائد الناجح والمرشد الرشيد هو الذي يتمكن من منع انتشار حالتي الإفراط والتفريط في مجتمعه.

فغاية الآيات والرّوايات التي تؤكّد على أنّ الرزق بيد الله هي غلق أبواب الحرص والشره وحبّ الدنيا والسعي بلا ضوابط شرعية، وليس هدفها إطفاء شعلة الحيوية والنشاط في الأعمال والإكتساب وصولاً لحياة كريمة ومستقلة.

وبهذا يتّضح تفسير الرّوايات التي تقول: إنّ كثيراً من الأرزاق إن لم تطلبوها تطلبكم.

٢ ـ إنّ كل شيء من الناحية العقائدية تنتهي نسبته إلى الله عزَّ وجلَّ، وكل مُوحِّد يعتقد أن منبع وأصل كل شيء منه سبحانه وتعالى، ويردد ما تقول الآية (٢٦) من سورة آل عمران: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وينبغي عدم الغفلة عن هذه الحقيقة وهي أنّ كل شيء من سعي ونشاط وفكر وأخلاقية الإنسان إنّما هي في حقيقتها من الله عزَّ وجلَّ.

ولو توقف لطف الله (فرضاً) عن الإنسان ـ ولو للحظة واحدة ـ لما كان ثمّة شيء إسمه الإنسان.

ويقول الإنسان المُوحِّد حينما يركب وسيلة: «سبحان الذي سخر لنا هذا».

وعندما يحصل على نعمة ما، يقول: «وما بنا من نعمة فمنك»[1].

---

(١) من أدعية التعقيبات لصلاة العصر، كما في كتب الدعاء.

ويقول عندما يخطو في سبيل الإصلاح ـ كما هو حال الأنبياء في طريق هدايتهم للناس ـ : ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وإلى جانب كل ما ذكر فالسعي والعمل الصحيح البعيد عن أي إفراط أو تفريط، هو أساس كسب الرزق، وما يوصل إلى الإنسان من رزق بغير سعي وعمل إنّما هو ثانوي فرعي وليس بأساسي، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته القصار في تقديم ذكر الرزق الذي يطلبه الإنسان على الرزق الذي يطلب الإنسان، حيث قال: «يا بن آدم، الرزق رزقان، رزق تطلبه، ورزق يطلبك»[1].

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٣٧٩.

منافع الأنعام المختلفة في القرآن

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: ٧٩-٨١].

التّفسير

منافع الأنعام المختلفة:

تعود الآيات التي بين أيدينا للحديث مرّة أُخرى عن علائم قدرة الخالق جلّ وعلا ومواهبه العظيمة لبني البشر، وتشرح جانباً منها كي تزيد من وعي الإنسان ومعرفته بالله تعالى، ولينّدفع نحو الثناء والشكر فيزداد معرفة بخالقه.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

فبعضها يختص بالغذاء كالأغنام، وبعضها للركوب والغذاء كالجمال التي تعتبر بحق سُفن الصحارى.

«أنعام» جمع «نعم» على وزن «قلم» وتطلق في الأصل على الجمال، لكنّها توسعت فيما بعد لتشمل الجمال والبقر والأغنام، والمصطلح مشتق من «النعمة» بسبب أنّ أحد أكبر النعم على الإنسان هي هذه الأنعام، وفي يومنا هذا ـ بالرغم من تقدم التكنولوجيا في مجال النقل البري والجوي ـ إلّا أنّ الإنسان ما زال يستفيد من الأنعام، خصوصاً في الأماكن الصحراوية الرملية، التي يصعب فيها استخدام وسائل النقل الأُخرى، ويتمّ استخدام الأنعام والحيوانات في بعض المضائق والمناطق الجبلية، حيث يتعذر استخدام غيرها من وسائل النقل الحديث.

لقد خلق الله الأنعام بأشكال مختلفة، وبروح تستسلم للإنسان وتنصاع إليه وتخضع لأوامره وتلبي له احتياجاته، في حين أنّ بعضها أقوى من أقوى الناس، وهذا الإنصياع في حدّ ذاته دليل من أدلّة الخالق العظيم الذي سخّر لعباده هذه الأنعام.

إنّ من الحيوانات الصغيرة ما يكون خطره مميتاً للإنسان، في حين أن قافلة من الجمال يكفي صبي واحد لقيادتها!

إضافة لما سبق تقول الآية التي بعدها: إنّ هناك منافع أخرى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾.

الإنسان يستفيد من لبنها وصوفها وجلدها وسائر أجزائها الأخرى، بل يستفيد حتى من فضلاتها في تسميد الأرض وإخصاب الزرع. وخلاصة القول: إنّه لا يوجد شيء غير نافع في وجود هذه الأنعام، فكل جزء منها مفيد ونافع، حتى أنّ الإنسان بدأ يستخلص بعض الأدوية من أمصال هذه الحيوانات، والملفت أن «منافع» جاءت نكرة في الآية لتبيّن أهمية ذلك.

ثم تضيف الآية: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.

احتمل بعض المفسّرين أن معنى الآية ينصرف إلى حمل الأثقال الذي يتمّ بواسطة الأنعام، لكن يحتمل أن يكون المقصود بقوله تعالى: ﴿حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ الإشارة إلى بعض المقاصد والأهداف والرغبات الشخصية، إذ يستفاد من الأنعام في الترفيه والهجرة والسياحة والتسابق والتفاخر، وما إلى ذلك من رغبات تنطوي عليها نفس الإنسان.

ولأنّ الأنعام تعتبر وسيلة سفر على اليابسة، لذلك تقول الآية في نهايتها: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ هناك بحث عن منافع الحيوانات يمكن مراجعته أثناء الحديث عن الآية الخامسة من سورة النحل. (الأمثل)

لقد جاء التعبير القرآني «عليها» (أي الأنعام) بالرغم من الإشارة المباشرة إليها سابقاً، ليكون مقدمة لذكر (الفلك). والمعنى أنّ الله جلّ وعلا سخّر لكم الوسائل في البر والبحر للإنتقال ولحمل الأثقال كي تستطيعوا أن تبلغوا مقاصدكم بسهولة.

لقد جعلت للسفينة صفة خاصة بحيث تستطيع أن تبقى على سطح الماء بالرغم من الأثقال والأوزان الكبيرة التي عليها، وجعل الله تعالى الحركة في الريح بحيث تستطيع الفلك الإستفادة منها لتحديد وجهة سفر الإنسان ومقصده.

الآية الأخيرة هي قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ هل تستطيعون إنكار آياته في الآفاق وفي أنفسكم، أم هل تنكرون آياته في خلقكم من تراب وتحويلكم عبر مراحل الخلق إلى ما أنتم عليه، أم أنكم تنكرون آياته في الحياة والموت والمبدأ والمعاد؟ وهل يمكنكم إنكار آياته في خلق السماء والأرض أو الليل والنهار، أو خلقه لأمور تساعد في استمرار حياتكم كالأنعام وغيرها؟

أينما تنظر وتمد البصر فثمّة آيات الله وآثار العظمة في خلقه سبحانه وتعالى: «عميت عين لا تراك».

يقول المفسّر الكبير العلّامة «الطبرسي» في تفسيره «مجمع البيان» في جوابه على هذا السؤال: ما هو سبب مثل هذا الإنكار مع وضوح الدلائل والعلامات؟

يقول: إنّ ذلك يمكن أن يعود إلى ثلاثة أسباب: ١ ـ عبادة الأهواء والإنقياد إليها، لأنّ ذلك يؤدي إلى حجب الإنسان عن رؤية الحق، (وينساق وراء غرائزه، لأنّ الحق يحدّد هذه الغرائز من خلال فرض التكاليف والوظائف الربانية. لذلك يعمد هؤلاء إلى إنكار الحق برغم دلائله الواضحة).

٢ ـ التقليد الأعمى للآخرين ـ خصوصاً السابقين ـ وهذا أمر يحجب الإنسان عن الحق.

٣ ـ الأحكام والإعتقادات الباطلة المترسخة في وعي الإنسان، فيذعن لها وتحجبه عن دراسة الحق والإنفتاح على آيات الله تبارك وتعالى.

عقاب الآخرة في القرآن

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٧٤-٨٠].

التّفسير

نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب:

لقد فصّلت هذه الآيات القول في مصير المجرمين والكافرين في القيامة، ليتّضح الفرق بينه وبين مصير المؤمنين ـ المطيعين لأمر الله ـ المشرف السعيد من خلال المقارنة بين المصيرين.

تقول الآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

«المجرم» من مادة جرم، وهو في الأصل بمعنى القطع الذي يستعمل في قطع الثمار من الشجرة ـ أي القطف ـ وكذلك في قطع نفس الشجرة، إلّا أنّه استعمل فيما بعد في القيام بكل عمل سيّىء، وربّما كان سبب هذا الإستعمال هو أنّ هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربّه وعن القيم الإنسانية، وتبعده عنهما.

لكن من المسلم هنا أنّه لا يريد كل المجرمين، وإنّما المراد هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلاً لهم، بقرينة ذكر مسألة الخلود والعذاب الخالد، وبقرينة المقارنة بالمؤمنين الذي مرّ الكلام عنهم في الآيات السابقة. ويبدو بعيداً ما قاله بعض المفسّرين من أنها تشمل كل المجرمين.

ولما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائمي بمرور الزمان، وتقل شدته

تدريجياً، فإنّ الآية التالية تضيف: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، وعلى هذا فإنّ عذاب هؤلاء دائم من ناحيتي الزمان والشدّة، لأنّ الفتور يعني السكون بعد الحدة، واللين بعد الشدّة، والضعف بعد القوّة، كما يقول الراغب في مفرداته.

«مبلس» من مادة «إبلاس»، وهي في الأصل الحزن الذي يصيب الإنسان من شدّة التأثر والإنزعاج، ولما كان هذا الهم والحزن يدعو الإنسان إلى السكوت، فقد استعملت مادة الإبلاس بمعنى السكوت والإمتناع عن الجواب أيضاً. ولما كان الإنسان ييأس من خلاص نفسه ونجاته في الشدائد المصيبة، فقد استعملت هذه المادة في مورد اليأس أيضاً، ولهذا المعنى سمي «إبليسُ» «إبليسَ» إذ أنّه أيس من رحمة الله.

على أي حال، فإنّ هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل: مسألة الخلود، وعدم تخفيف العذاب، والحزن واليأس المطلق. وما أشد العذاب الذي تمتزج فيه هذه الأمور الثلاثة وتجتمع.

وتنبه الآية التالية إلى أنّ هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم، واشتروه بأعمالهم وبظلمهم لأنفسهم، فتقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾.

فكما أنّ الآيات السابقة قد بينت أن منبع كل تلك النعم اللامتناهية هي أعمال المؤمنين المتقين، فإنّ هذه الآيات تعد أعمال هؤلاء الظالمين سبب هذا العذاب الخالد ومنبعه. وأي ظلم أكبر من أن يكذّب الإنسان بآيات الله سبحانه، ويضرب جذور سعادته بمعول الكفر والإفتراء: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [الصف: ٧].

نعم، إنّ القرآن يرى إرادة الإنسان وأعماله السبب الأساسي لكل سعادة أو شقاء، لا المسائل الظنية والوهمية التي اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثمّ تطرقت الآية إلى بيان جانب من مذلة هؤلاء ومسكنتهم، فقالت: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فمع أنّ كل امرىء يهرب من الموت ويريد استمرار الحياة وبقاءها، إلّا أنّه عندما تتوالى عليه المصائب أحياناً ويضيق عليه الخناق يتمنى على الله الموت، وإذا كانت هذه الأمنية قد تحدث أحياناً لبعض الناس في الدنيا، فإنّها تعمّ جميع المجرمين هناك، فكلهم يتمنى الموت.

ولكن حيث لا فائدة من ذلك، فإنّ مالك النّار وخازنها يجيبهم: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[١].

والعجب أنّ خازن النّار يجيبهم بعد ألف سنة ـ برأي بعض المفسّرين ـ وبكل احتقار وعدم اهتمام، فما أشد إيلام هذا الاحتقار[٢].

قد يقال: كيف يطلب هؤلاء مثل هذا الطلب مع يقينهم أنّ لا موت هناك؟ غير أن مثل هذا الطلب طبيعي من إنسان أحاطت به المصائب والآلام، وقطع أمله من كل شيء.

أجل، إنّ هؤلاء عندما يرون كل سبل النجاة مغلقة في وجوههم، سيطلقون هذه الصرخة من أعماق قلوبهم، ولكن حق القول عليهم بالعذاب، فلا فائدة من صراخهم، ولا صريخ لهم.

أمّا لماذا لا يطلب هؤلاء الموت من الله مباشرة، بل يقولون لمالك: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾؟ فلأنّهم في ذلك اليوم محجوبون عن ربّهم، كما نقرأ ذلك في الآية (١٥) من سورة المطففين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾. ولذلك يطلبون طلبتهم هذه من ملك العذاب. أو بسبب أن مالكاً ملك مقرب عند الله سبحانه.

وتقول الآية الأُخرى، والتي هي في الحقيقة علة لخلود هؤلاء في نار جهنم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

وللمفسّرين رأيان مختلفان في أنّ هذا الكلام هل هو من قبل مالك خازن النّار، وأن ضمير الجمع يعود على الملائكة ومنهم مالك، أم أنّه كلام الله تعالى؟

السياق يوجب أن يكون الكلام كلام مالك، لأنّه أتى بعد كلامه السابق، إلّا أنّ محتوى نفس الآية ينسجم مع كونه كلام الله تعالى، والشاهد الآخر لهذا الكلام الآية (٧١) من سورة الزمر: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

---

(١) «ماكثون» من مادة (مكث)، وهو في الأصل التوقف المقترن بالإنتظار، وربّما كان هذا التعبير من مالك استهزاءً، كما نقول ـ أحياناً ـ لمن يطلب شيئاً لا يستحقه انتظر!

(٢) مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث وقال البعض: إنّ المسافة بين السؤال والجواب مائة سنة، وآخرون: أربعون سنة، ومهما تكن فإنّها دليل على الاحتقار وعدم الإهتمام.

﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾. فهنا يعدُّ الملائكة الرسل هم الذين جاؤوا بالحق، لا هم.

وللتعبير «بالحق» معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيرية، وإن كانت مسألة التوحيد والمعاد والقرآن تأتي في الدرجة الأولى.

وهذا التعبير يشير - في الحقيقة - إلى أنكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، وإنّما خالفتم الحق في الواقع، وهذه المخالفة هي التي ساقتكم إلى العذاب الخالد الأبدي.

وتعكس الآية التالية جانباً من كراهية هؤلاء للحق واشمئزازهم منه، وكذلك مناصرتهم للباطل والتمسك به، فتقول: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾[1] فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس ودبروا المؤامرات لإطفاء نور الإسلام، وقتل النّبي ﷺ ولم يتورعوا في إنزال الضربات بالإسلام والمسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وفي المقابل أردنا أن نجازي هؤلاء في هذه الحياة الدنيا، وفي الآخرة بأشد العذاب.

ويرى بعض المفسّرين أن سبب نزول هذه الآية هو قضية مؤامرة قتل النبي ﷺ قبل الهجرة، والتي أُشير إليها في الآية (٣٠) من سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾[2].

والظاهر أنّ هذا من قبيل التطبيق، لا أنه سبب النّزول...

والآية الأُخرى بيان لإحدى علل التآمر، فتقول: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾؟ فإنّ الأمر ليس كذلك، إذ نحن نسمع ورسلنا: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

«السر» هو ما يضمره الإنسان في قلبه، أو ما يودعه من أسراره لدى إخوانه وأصدقائه، و«النجوى» هي الهمس في الأُذن.

نعم، فإنّ الله سبحانه لا يسمع نجواهم وهمسهم فيما بينهم فحسب، بل يعلم ما يضمرونه في أنفسهم أيضاً، فإنّ السر والعلن لديه سواء.

---

(١) «أم» في الآية منقطعة، وهي بمعنى (بل) والإبرام بمعنى الاحكام.

(٢) الفخر الرازي، ذيل الآية مورد البحث.

والملائكة المكلفون بتسجيل أعمال البشر وأقوالهم يكتبون هذه الكلمات في صحائف أعمالهم دائماً، وإن كانت الحقائق بدون ذلك واضحة أيضاً، ليروا جزاء أعمالهم وأقوالهم ومؤامراتهم في الدنيا والآخرة.

قال تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠].

التّفسير

شجرة الزقوم!

تصف هذه الآيات أنواعاً من عذاب الجحيم وصفاً مرعباً يهز الأعماق، وهي تكمل البحث الذي مرّ في الآيات السابقة حول يوم الفصل والقيامة، فتقول: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، فهؤلاء المجرمون هم الذين يأكلون هذا النبات المر القاتل، والخبيث الطعم النتن الرائحة.

«الزقوم» على قول المفسّرين وأهل اللغة، اسم شجرة لها أوراق صغيرة وثمرة مرّة خشنة اللمس منتنة الرائحة، تنبت في أرض تهامة من جزيرة العرب، كان المشركون يعرفونها، وهي شجرة عصيرها مرّ، وإذا أصابت البدن تورّم[1].

ويعتقد البعض أنّ الزقوم في الأصل يعني الإبتلاع[2]، ويقول البعض: إنّها كلّ طعام خبيث في النّار[3].

وجاء في حديث أنّ هذه الكلمة لما نزلت في القرآن قال كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة، فأيّكم يعرف الزقوم؟ وكان هناك رجل من أفريقية قال: هي عندنا التمر والزبد ـ وربّما قال ذلك استهزاء ـ فلما سمع أبو جهل ذلك

---

(١) مجمع البيان، تفسير روح البيان، تفسير روح المعاني.
(٢) لسان العرب، مادة «زقم».
(٣) مفردات الراغب مادة (زقم).

قال مستهزئاً: يا جارية زقمينا، فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمّد[١].

وينبغي الإلتفات إلى أنّ «الشجرة» تأتي في لغة العرب والإستعمالات القرآنية بمعنى الشجرة أحياناً، وبمعنى مطلق النبات أحياناً.

و«الأثيم» من مادة إثم، وهو المقيم على الذنب، والمراد هنا الكفار المعاندون المعتدون، المصرون على الذنوب والمعاصي المكثرون منها.

ثمّ تضيف الآية: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦﴾.

«المهل» ـ على قول كثير من المفسّرين وأرباب اللغة ـ الفلز المذاب، وعلى قول آخرين ـ كالراغب في المفردات ـ هو دُرْدِيُّ الزيت، وهو ما يترسب في الإناء، وهو شيء مرغوب فيه جداً، لكن يبدو أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

و«الحميم» هو الماء الحار المغلي، وتطلق أحياناً على الصديق الوثيق العلاقة والصداقة، والمراد هنا هو المعنى الأول.

على أي حال، فعندما يدخل الزقوم بطون هؤلاء، فإنّه يُولّدُ حرارة عالية لا تطاق، ويغلي كما يغلي الماء، وبدل أن يمنحهم هذا الغذاء القوة والطاقة فإنّه يهبهم الشقاء والعذاب والألم والمشقة.

ثمّ يخاطب سبحانه خزنة النّار، فيقول: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾.

«فاعتلوه» من مادة العَتْل، وهي الأخذ والسحب والإلقاء، وهو ما يفعله حماة القانون والشرطة مع المجرمين المتمردين، الذي لا يخضعون لأي قانون ولا يطبقونه.

«سواء» بمعنى الوسط، لأنّ المسافة إلى جميع الأطراف متساوية، وأخذ أمثال هؤلاء الأشخاص وإلقاؤهم في وسط جهنم باعتبار أنّ الحرارة أقوى ما تكون في الوسط، والنّار تحيط بهم من كلّ جانب.

ثمّ تشير الآية التالية إلى نوع آخر من أنواع العقاب الأليم الذي يناله هؤلاء، فتقول: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾[٢] وبهذا فإنّهم

---

(١) تفسير القرطبي، المجلد ٨ صفحة ٥٥٢٩، ذيل الآية (٦٢) من سورة الصافات.

(٢) عذاب الحميم من قبيل الإضافة البيانية، أي إنّ هذا الماء المحرق عذاب يصب على هؤلاء.

يحترقون من الداخل، وتحيط النّار بكلّ وجودهم من الخارج، وإضافة إلى ذلك يصب على رؤوسهم الماء المغلي في وسط الجحيم.

وقد ورد نظير هذا المعنى في الآية (١٩) من سورة الحج حيث تقول: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾.

وبعد كلّ أنواع العذاب الجسمي هذه تبدأ العقوبات الروحية والنفسية، فيقال لهذا المجرم المتمرد العاصي الكافر: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ فأنت الذي كنت قد قيدت البؤساء فباتوا في قبضتك تظلمهم كيف شئت، وتعذبهم حسبما تشتهي وكنت تظن أنّك قوي لا تقهر، وعزيز لا يمكن أن تُهان ويجب على الجميع احترامك وتقديرك.

نعم، أنت الذي ركبك الغرور فلم تدع ذنباً لم ترتكبه، ولا موبقة لم تأتها، فذق الآن نتيجة أعمالك التي تجسدت أمامك، وكما أحرقت أجسام الناس وآلمت أرواحهم، فليحترق الآن داخلك وخارجك بنار غضب الله والماء المغلي الذي يصهر ما في بطونهم والجلود.

وجاء في حديث أنّ النّبي ﷺ أخذ يوماً بيد أبي جهل وقال: «أولى لك فأولى» فغضب أبو جهل وجرَّ يده وقال: بأي شيء تهددني؟ ما تستطيع أنت وصاحبك أن تفعلا بي شيئاً، إنّي لمن أعز هذا الوادي وأكرمه.

والآية ناظرة إلى هذا المعنى، فتقول: عندما يلقونه في جهنم يقولون له: ذق يا عزيز مكّة وكريمها[١].

ويضيف القرآن الكريم في آخر آية من الآيات ـ مورد البحث ـ مخاطباً إيّاهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ فكم ذكّرناكم بحقّانية هذا اليوم وحقيقته في مختلف آيات القرآن وبمختلف الأدلة؟!

ألم نقل لكم: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾؟ [ق: ١١].

ألم نقل: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؟ [فاطر: ٩].

---

(١) تفسير المراغي، المجلد ١٥، صفحة ١٣٥ ذيل الآيات مورد البحث، وتفسير روح المعاني، والتفسير الكبير للفخر الرازي.

ألم نقل: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؟ [التغابن: ٧].

ألم نقل: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾؟ [ق: ١٥].

وخلاصة القول: قد قلنا لكم الحقيقة وأوضحناها بطرق مختلفة، لكن لم تكن لكم آذان تسمعون بها.

بحث

العقوبات الجسمية والروحية:

نحن نعلم، وطبقاً لصريح القرآن، أنّ للمعاد جانباً جسمياً، وآخر روحياً، وعلى ذلك فمن الطبيعي أن تكون العقوبات والمثوبات متصفتين بهما كذلك، ولذلك أُشير في آيات القرآن الكريم والرّوايات الإسلامية إلى كلا القسمين، غاية ما في الأمر أنّ إنتباه الناس وإحساسهم لمّا كان منصباً على الأمور الجسمية غالباً، لذلك يلاحظ أنّ التفصيل في العقوبات والمثوبات المادية أكثر، لكن لا يعني هذا أنّ الإشارة إلى المثوبات والعقوبات المعنوية قليلة.

وقد رأينا في الآيات أعلاه نموذجاً لهذا المطلب، فمع ذكر عدّة أقسام من العقوبات الجسمية الأليمة، هناك إشارة وجيزة عميقة المحتوى إلى الجزاء الروحي الذي سينال المستكبرين.

وتلاحظ في آيات أُخرى من القرآن الإشارة إلى المثوبات الروحية أيضاً، فيقول الله تعالى في موضع: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ويقول في موضع آخر: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وأخيراً يقول في موضع ثالث: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

ولا يخفى أنّه لا يمكن وصف اللذائذ المعنوية غالباً وخاصّة في ذلك العالم الواسع، ولذلك فقد أُشير إليها في القرآن إشارة غامضة عادة، أمّا العقوبات الروحية التي تكون بالتحقير والإهانة، التوبيخ والتقريع، والأسف والهم والحزن، فقد وصفتها الآيات وأوضحتها، وقد قرأنا نماذج منها في الآيات أعلاه.

الحكومة في القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

ويرى ـ على ما ينقل ـ «في ظلال القرآن» في الآية الأخيرة: إن السؤال الأوّل للإثبات أي لإثبات وجود مرض النفاق في قلوبهم فمرض القلب جدير بأن ينشيء مثل هذا الأثر.

والسؤال الثّاني للتعجب، فهل هم يشكّون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان؟ هل هم يشكّون في مجيئه من عند الله؟ أو هم يشكّون في صلاحيته لإقامة العدل؟

والسؤال الثّالث: لاستنكار أمرهم الغريب، والتناقض الفاضح بين ادعائهم وعملهم.

وإنّه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان، فالله خالق الجميع وربّ العالمين، فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه لحساب مخلوق آخر[١].

وما يورده هذا المفسّر هو أنَّ عبارة «أم ارتابوا» تعني الشك في عدالة الرّسول ﷺ وفي صحة تحكيمه في الوقت الذي يرى كثير من المفسّرين أنَّهُ الشكُّ في أصل النّبوة كما هو الظاهر.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، المجلد ١٧ ـ ٢٠، صفحة ١١٥، طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ الطبعة الأولى.

بحثان

١ ـ مرض النفاق:

قال في الأمثل: ليست هذه المرة الأولى التي يستخدم فيها القرآن عبارة «المرض» للنفاق، فقد استخدمها في مطلع سورة البقرة عند بيانه لصفات المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وكما قلنا في المجلد الأوّل في أثناء تفسير الآية المذكورة، فإنّ النفاق في حقيقته مرض وانحراف عن الطريق السوي، فالإنسان السليم له صورة واحدة هي انسجامُ روحِه مع بدنه.

فإذا كان مؤمناً فكلّ أجزاء بدنه تعبر عن إيمانها، وإذا كان عديم الإيمان فإنّ ظاهره وباطنه يكشفان عن كفره وانحرافه.

أمّا إذا كان مُتظاهراً بالإيمان ومبطناً للكفر، فإنّ ذلك يعتبر نوعاً من المرض.

وبما أنّ هؤلاء الأشخاص (المنافقين) لا يستحقون لطف الله ورحمته، بسبب عنادهم وإصرارهم على المُضي بمناهجهم المنحرفة، فقد تركهم الله على حالهم، ليزدادوا مرضاً.

والمنافقون في الواقع أخطر مجموعة في المجتمع، لأنّه لا يتّضح للمؤمن بأيّ أُسلوب يجب أن يعاملهم، فهم ليسوا أصدقاء ولا يبدون أنّهم أعداء، فيستفيدون من إمكاناتِ المؤمنين ويصونون أنفسهم عن العقاب المفروض على الكفار بالتظاهر وإخفاءِ حقائقهم المشؤومة، فأعمالهم أتعس من أعمال الكفار.

ولكن هؤلاء لا يمكنهم أن يُواصلوا هذا المنهج لمدّة طويلة، فلا بدّ أن يفتضح أمرهم وينكشف باطنهم. وكما ذكرت الآيات ـ موضع البحث ـ وسببُ نُزولها. افتضاحهم في عملية تحكيم واحدة وانكشاف باطنهم الخبيث.

٢ ـ الحكومة العادلة هي الحكومة الإلهية فقط:

لا شك في أن الإنسان مهما سعى في تهذيب نفسه من الصفات الرذيلة،

خاصّة الكِبر والبغضاء وحب الذات والأنانية، فإنّه قد يبتلى ببعضها دون وعي منه، إلّا المعصوم من البشر، إذ يعصمه الله من الخطأ والزلل.

ولهذا السبب نقول: الله وحده هو المشرّع الحقيقي، لأنّه إضافة على علمه المطلق بحاجات الإنسان، فإنّه يعلم سبل سدّ هذه الحاجات، وهو الذي لا يزلّ ولا ينحرف بسبب احتياجه وميول الحب والبغض فيه سبحانه.

وقضاء الله والنّبي والإمام المعصوم أفضل قضاء، ويليهم التابعون السائرون على نهجهم المتوكلون على الله، إلّا أنّ البشر الذي يصاب بالكبر وحبّ الذات لا يرضخ لهذا القضاء، فهو يبحث عن قضاء يشبع طمعه وشهواته. ما أجمل العبارة التي استخدمتها الآية الكريمة بحق هؤلاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

كما أنّ المرور في مثل هذا الإمتحان، خير دليل على إيمان الإنسان أو عدم إيمانه.

ويستوقفنا قولُ القرآن في موضع آخر: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أجل، المؤمنون الحقيقيون لا يرتضون قضاءك فحسب، وإنّما قد سلّموا أنفسهم لك حتى إنْ لحقهم ضررٌ.

أمّا المنافقون، فلا يقنعون بحكم من الله ورسوله ﷺ إلّا ما يحقق مصالحهم، فهم عبيد لها، وعلى الرغم من ادعائهم الإيمان، فهم مشركون حقّاً!

وعلى أي حال، فلا بد من دولة توقف الناس على وظائفهم القانونية، وتعاقب المخالفين المتجاوزين وتعيد الحقوق المهضومة إلى ذويها، وتصون النظام والإنضباط الإجتماعي الذي يمثل قاعدة السعادة ورمز بقاء المدنية، وأساس استمرار الحضارة وسبب تقدم البشرية في المجالات المادية والمعنوية.

وخلاصة القول: إن حفظ النظام الإجتماعي والحضارة الإنسانية وتعريف

أفراد المجتمع بواجباتهم، وما لهم وما عليهم من الحقوق، ورفع أي نزاع وتصارع في حياة الجماعة أمور تحتاج إلى: مرجع قوي يقوم بهذه المهام الضخمة، وهذا الواجب الإنساني الشريف ويحفظ بالتالي أساس الحضارة الذي هو حفظ النظام الإجتماعي وصيانته من التقهقر والإنحطاط.

إن حقيقة الإسلام ليست إلا سلسلة من «الأصول والفروع» المنزلة من جانب الله والتي كلف رسول الله ﷺ بدعوة الناس إليها وتطبيقها على الحياة في الظروف المناسبة، ولكن حيث إن تطبيق طائفة من الأحكام التي تكفل استقرار النظام في المجتمع لم يكن ممكناً دون تشكيل حكومة وقيام دولة، لذلك أقدم النبي ﷺ بحكم العقل، وبحكم ما كان له من الولاية المعطاة له من قبل الله، على تشكيل دولة.

على أن الحكومة ليست بذاتها هدف الإسلام بل الهدف هو تنفيذ الأحكام والقوانين وضمان الأهداف الإسلامية العليا، وحيث إن هذه الأمور لا تتحقق دون أجهزة سياسية، وسلطات حكومية لذلك قام النبي ﷺ بنفسه بمهمة تشكيل مثل هذه الدولة وتأسيس مثل هذه الحكومة.

والخلاصة أن إجراء حد السرقة والزنى على السارق والزاني وتنفيذ سائر الحدود والعقوبات ومعالجة مشاكل المسلمين، وتسوية نزاعاتهم في الأمور المالية والحقوقية، ومنع الاحتكار والغلاء، وجمع الضرائب المالية الإسلامية وتوسيع رقعة انتشار الإسلام، ورفع الاحتياجات الأخرى في المجتمع الإسلامي وغيرها لا يمكن أن تتحقق دون وجود أمير جامع وزعيم حازم بدون حكومة وزعامة مقبولة لدى الأمة.

وحيث يتوجب على المسلمين الآن أن يطبقوا الأحكام الإسلامية بحذافيرها من جانب، وحيث إن تطبيقها على الوجه الصحيح لا يمكن دون تأسيس سلطة يخضع لها الجميع من جانب آخر، لهذا كله يتحتم أن تكون لهم أجهزة سياسية وتشكيلات حكومية، في إطار التعاليم والقيم الإسلامية ليستطيعوا بها أن يتقدموا - في كل عصر - جنباً إلى جنب مع المتطلبات المستحدثة والاحتياجات المتجددة.

لقد أشار الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى ضرورة تشكيل مثل هذه الحكومة بل إلى ضرورة وجود حاكم ما مرجحاً الحاكم الجائر على الفوضى الإجتماعية والهرج والمرج الذي يستتبعه عدم وجود حاكم، وأشار في نفس الوقت إلى أن الحكومة في منطق الإسلام ليست هي الهدف، بل هي وسيلة لاستقرار حياة كريمة آمنة حتى يتمتع كل فرد بحقوقه العادلة.

لقد أشار الإمام علي إلى أن الدولة ـ في نظر الإسلام ـ وسيلة لحفظ النظام الإقتصادي والأمن والدفاع وأخذ حقوق المستضعفين من الأقوياء المستكبرين إذ يقول: «إنّه لا بد للناس من أمير، برّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع الفيء ويقاتل به العدو، وتأمن به السُبل ويؤخذ به للضعيف من القوي».

وفي رواية أُخرى قال: «أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقي، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي، إلى أن تنقطع مدته، وتدركه منيته»[١].

وعلى هذا البيان يكون وجود الدولة ضرورة إجتماعية لا مناص منها.

أضف إلى ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله كلف بعد رجوعه من حجة الوداع في غدير خم بأن ينصب علياً خليفة من بعده لإمرة المسلمين، من جانب الله، وكان الأمر الإلهي مصدراً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ثم يجسد الله أهمية هذا الموضوع وخطورته القصوى بأن عدم إبلاغ ما أوحي إليه في أمر الخلافة يساوي عدم إبلاغ الشريعة رأساً، إذ قال تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

إن هذه الآية كما تدلُّ على مقام الإمام وعظيم مكانته تكشف ـ كذلك ـ عن أهمية مقام الإمامة وخطورة قيادة المجتمع لأنه بسبب الإمام القائد تشرق أشعة العدالة على المجتمع البشري ولا تغيب... وهو الذي بسببه تبقى التعاليم الإلهية حيّة مصانة من كل تحريف وبسببه تصل البشرية إلى شواطىء السعادة المادية والمعنوية على السواء.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٩.

الآثار السيئة لفقدان القائد:

لقد بلغ الإسلام في حرب (أحد) أخطر مراحله، حيث عمد العدو إلى بث الشائعات عن مقتل النبي ﷺ، وفي هذه اللحظة الحساسة التي شعر المسلون فيها بفقدان الزعيم والقائد، خطرت في أذهان البعض فكرة العودة إلى الجاهلية والإرتداد

الإقتداء بسيرة النبي (ص):

كان الرسول الأكرم ﷺ إذا بعث سرية إلى الجهاد عين أمراء متعددين لتلك السرية يتوالون على قيادتها لكي لا تبقى دون آمر إذا أصيب أحدهم، فتصبح كالقطيع بلا راع تنال الذئاب من أطرافها، وتتخطفها أيدي المخاطر من جوانبها.

ولما كان القرآن الكريم يأمرنا باتباع سيرة الرسول والإقتداء به وجعله قدوة وأسوة فيقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

توجب علينا أن نجعل حياة النبي وفعله أسوة لنا حتى في موضوع تشكيل الدولة...

الرؤيا الصادقة في القرآن

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

التّفسير

بارقة الأمل وبداية المشاكل:

بدأ القرآن بذكر قصّة يوسف من رؤياه العجيبة ذات المعنى الكبير، لأنّ هذه الرؤيا في الواقع تعدّ أوّل فصل من فصول حياة يوسف المتلاطمة.

جاء يوسف في أحد الأيّام صباحاً إلى أبيه وهو في غاية الشوق ليحدثه عن رؤياه، وليكشف ستاراً عن حادثة جديدة لم تكن ذات أهمية في الظاهر، ولكنّها كانت إرهاصاً لبداية فصل جديد من حياته ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

يقول إبن عباس: (إنّ يوسف رأى رؤياه ليلة الجمعة التي صادفت ليلة القدر) (ليلة تعيين الأقدار والأجال).

ولكن كم كان ليوسف من العمر حين رأى رؤياه؟!

هناك من يقول: كان ابن تسع سنوات، ومن يقول: ابن سبع، ومنهم من يقول: إبن اثنتي عشرة سنة، والقدر المسلم به أنّه كان صبيّاً.

وممّا يستلفت الإنتباه إلى جملة «رأيت» جاءت مكررة في الآية للتأكيد، والقاطعية، وهي إشارة إلى أنّ يوسف ﷺ يريد أن يقول: إذا كان كثير من الناس ينسون رؤياهم ويتحدثون عنها بالشك والتردّد، فلست كذلك. بل أقطع بأنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين لي دون شك.

واللطيفة الأخرى هي أنّ ضمير «هم» الذي يأتي لجمع المذكر السالم العاقل، قد استعمل للكواكب والشّمس والقمر، ومثل هذا الإستعمال «ساجدين» أيضاً إشارة إلى أنّ سجود الكواكب لم يكن من قبيل الصدفة بل كان أمراً مدروساً ومحسوباً كما يسجد الرجال العقلاء!

وواضح ـ طبعاً ـ أنّ السجود المقصود منه هنا هو الخضوع والتواضع، وإلّا فإنّ السجود المعروف عند الناس لا مفهوم له بالنسبة للكواكب والشمس والقمر.

إنّ هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزى تركت يعقوب النّبي غارقاً في التفكير... فالقمر والشمس والكواكب، وأي الكواكب! إنّها أحد عشر يسجدون جميعاً لولدي يوسف، كم هي رؤيا ذات مغزى! لا شك أنّ الشمس والقمر «أنا وأمه أو خالته» والكواكب الأحد عشر إخوته، هكذا يرتفع قدر ولدي حتى تسجد له الشمس والقمر وكواكب السّماء.

إنّ ولدي «يوسف» عزيز عند الله إذ رأى هذه الرؤيا المثيرة!

لذلك توجه إلى يوسف بلهجة يشوبها الإضطراب والخوف المقرون «بالفرحة» و ﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ وأنا أعرف ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] وهو منتظر الفرصة ليوسوس لهم ويثير نار الفتنة والحسد وليجعل الإخوة يقتتلون فيما بينهم.

الطريف هنا أنّ يعقوب لم يقل «أخاف من إخوتك أن يقصدوا إليك بسوء» بل أكّد ذلك على أنّه أمر قطعي، وخصوصاً بتكرار «الكيد» لأنّه كان يعرف نوازع أبنائه وحساسيّاتهم بالنسبة لأخيهم يوسف، وربّما كان إخوته يعرفون تأويل الرؤيا، ثمّ إنّ هذه الرؤيا لم تكن بشكل يعسر تعبيرها.

ومن جهة أُخرى لا يتصوّر أن تكون هذه الرؤيا شبيهة برؤيا الأطفال، إذ يمكن احتمال رؤية الأطفال للشمس والقمر والكواكب في منامهم، ولكن أن تكون الشمس والقمر والكواكب موجودات عاقلة وتنحني بالسجود لهم، فهذه ليست رؤيا أطفال... ومن هذا المنطلق خشي يعقوب على ولده يوسف نائرة الحسد من إخوته عليه.

ولكن هذه الرؤيا لم تكن دليلاً على عظمة يوسف في المستقبل من الوجهة الظاهرية والمادية فحسب، بل تدل على مقام النبوّة التي سيصل إليها يوسف في المستقبل.

ولذلك فقد أضاف يعقوب ـ لولده يوسف ـ قائلاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ[1] ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أجل فإنّ الله على كل شيء قدير و ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

ملاحظات

١ ـ الرؤيا والحُلم:

إنّ مسألة الرؤيا في المنام من المسائل التي تستقطب أفكار الأفراد العاديين من الناس والعلماء في الوقت نفسه.

فما هذه الأحلام التي يراها الإنسان في منامه من أحداث سيئة أو حسنة، وميادين موحشة أو مؤنسة، وما يثير السرور أو الغم في نفسه؟!

أهي مرتبطة بالماضي الذي عشعش في أعماق روح الإنسان وبرز إلى الساحة بعد بعض التبديلات والتغييرات؟ أم هي مرتبطة بالمستقبل الذي تلتقط صور عدسة الروح برموز خاصّة من الحوادث المستقبلية؟! أو هي أنواع مختلفة، منها ما يتعلق بالماضي، ومنها ما يتعلق بالمستقبل، ومنها ناتج عن الميول النفسية والرغبات وما إلى ذلك...!؟

إنّ القرآن يصرّح في آيات متعددة أنّ بعض هذه الأحلام ـ على الأقل ـ انعكاسات عن المستقبل القريب أو البعيد.

وقد قرأنا عن رؤيا يوسف في الآيات المتقدمة، كما سنرى قصّة الرؤيا التي حدثت لبعض السجناء مع يوسف في الآية (٣٦) وقصّة رؤيا عزيز مصر في الآية (٤٣) وجميعها تكشف الحجب عن المستقبل.

---

(١) «التأويل» في الأصل إرجاع الشيء، وكل عمل أو كل حديث يصل إلى الهدف النهائي يطلق عليه «تأويل» وتحقق الرؤيا في الخارج مصداق التأويل... و«الأحاديث» جمع الحديث، وهو نقل ما يجري، والحديث هنا كناية عن الرؤيا لأن الإنسان ينقلها للمعبرين.

وبعض هذه الحوادث ـ كما في رؤيا يوسف ـ تحقق في وقت متأخر نسبياً «يقال إنّ رؤيا يوسف تحققت بعد أربعين سنة» وبعضها تحقق في المستقبل القريب كما في رؤيا عزيز مصر ولمن في السجن مع يوسف.

وفي غير سورة يوسف إشارات إلى الرؤيا التي كان لها تعبير أيضاً، كما ورد في سورة الفتح عن رؤيا النّبي محمّد ﷺ، وما ورد في سورة الصافات عن رؤيا إبراهيم الخليل «وهذه الرؤيا كانت وحياً إلهياً بالإضافة لما حملت من تعبير».

ونقرأ في الحديث عن النّبي الأكرم ﷺ عن الرؤيا قوله: «الرؤيا ثلاث: بُشرى من الله، وتحزين من الشيطان، والذي يحدث به الإنسان نفسه فيراه في منامه»[1].

وواضح أنّ أحلام الشيطان ليست شيئاً حتى يكون لها تعبير، ولكن ما يكون من الله في الرؤيا فهي تحمل بشارة حتماً... ويجب أن تكون رؤيا تكشف الستار عن المستقبل المشرق.

وعلى كل حال، يلزمنا هنا أن نبيّن النظرات المختلفة في حقيقة الرؤيا، ونشير إليها بأسلوب مكثف مضغوط.

والتفاسير في حقيقة الرؤيا كثيرة ويمكن تصنيفها إلى قسمين هما:

١ ـ التّفسير المادي.

٢ ـ التّفسير المعنوي.

١ ـ التّفسير المادي:

يقول الماديون: يمكن أن تكون للرؤيا عدّة علل:

أ): قد تكون الرؤيا نتيجة مباشرة للأعمال اليومية، أي أنّ ما يحدث للإنسان في يومه قد يراه في منامه.

ب): وقد تكون الرؤيا عبارة عن سلسلة من الأماني، فيراها الإنسان في النوم كما يرى الظمآن في منامه الماء، أو أن إنساناً ينتظر مسافراً فيراه في منامه قادماً من سفره.

---

(١) بحار الأنوار، ج١٤، ص٤٤١، ويضيف بعض العلماء قسماً رابعاً على هذه الأقسام، هو الرؤيا التي تكون نتيجةً مباشرة عن الوضع المزاجي والجسماني للإنسان وسيشار إليها في البحوث المقبلة... إن شاء الله.

ج): وقد يكون الباعث للرؤيا الخوف من شيء ما، وقد كشفت التجارب أن الذين يخافون من لص يرونه في النوم.

أمّا فرويد وأتباعه فلديهم مذهب خاص في تفسير الأحلام، إذ أنّهم بعد شرح بعض المقدمات يقولون: إنّ الرؤيا عبارة عن إرضاء الميول المكبوتة التي تحاول الظهور على مسرح الوعي بعد تحويرها وتبدّلها في عملية خداع الأنا.

ولزيادة الإيضاح يقولون: ـ بعد قبول أن النفس البشرية مشتملة على قسمين «الوعي» وهو ما له ارتباط بالأفكار اليومية والمعلومات الإرادية والإختيارية للإنسان، و«اللّاوعي» وهو ما خفي في باطن الإنسان بصورة رغبة لم تتحقق ـ فكثيراً ما يحدث أن تكون لنا ميول لكننا لم نستطع إرضاءها ـ لظروف ما ـ فتأخذ مكانها في ضمير الباطن: وعند النوم حين يتعطل جهاز الوعي تمضي في نوع من إشباع التخيُّل إلى الوعي نفسه، فتنعكس أحياناً دون تغيير [كمثل العاشق الذي يرى في النوم معشوقته] وأحياناً تتغير أشكالها وتنعكس بصورة مناسبة، وفي هذه الحالة تحتاج الرؤيا إلى تعبير.

فعلى هذا تكون الأحلام مرتبطة بالماضي دائماً ولا تخبر عن المستقبل أبداً، نعم يمكن أن تكون وسيلة جيدة لقراءة اللّاوعي!».

ومن هنا فهم يستعينون لمعالجة الأمراض النفسيّة المرتبطة بضمير «اللّاوعي» باستدراج أحلام المريض نفسه.

ويعتقد بعض علماء التغذية أنّ هناك علاقة بين الرؤيا وحاجة البدن للغذاء، فمثلاً لو رأى الإنسان في نومه دماً يقطر من أسنانه، فتعبير ذلك أنّ بدنه يحتاج إلى فيتامين (ث) وإذا رأى في نومه أن شعر رأسه صار أبيضاً، فمعناه أنّه مبتلى بنقص فيتامين (ب).

٢ ـ التّفسير المعنوي:

وأمّا الفلاسفة الميتافيزيقيون فلهم تفسير آخر للرؤيا، حيث يقولون: إنّ الرؤيا والأحلام على قسمين:

١ ـ الرؤيا المرتبطة بماضي الحياة حيث تشكل الرغبات والأمنيات قسماً مهماً من هذه الأحلام.

٢ ـ الرؤيّا غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التي تنشأ من التوهم والخيال (وإن كان من المحتمل أن يكون لها دافع نفسي).

وممّا لا شك فيه أنّ الأحلام المتعلقة بالحياة الماضية وتجسّد الأمور التي رآها الإنسان في طول حياته ليس لها تعبير خاص... ومثلها الأطياف المضطربة أو ما تسمى بأضغاث أحلام التي هي إفرازات الأفكار المضطربة، كالأطياف التي تمرّ بالإنسان وهو في حال الهذيان أو الحمّى، فهي ـ أيضاً ـ لا يمكن أن تكون تعبيراً عن مستقبل الحياة .... ولهذا فإنّ علماء النفس يستفيدون من هذه الأحلام ويتخذونها نوافذ للدخول إلى ضمير اللّاوعي في البشر، ويعدّونها مفاتيح لعلاج الأمراض النفسيّة، ويكون تعبير الرؤيّا عند هؤلاء لكشف الأسرار النفسية وأساس الأمراض، لا لكشف حوادث المستقبل في الحياة!

أمّا الأحلام المعلقة بالمستقبل فهي على نحوين:

قسم منها أحلام واضحة وصريحة لا تحتاج إلى تعبير... وأحياناً تتحقق بشكل عجيب في المستقبل القريب أو البعيد دون أي تفاوت.

وهناك قسم آخر من هذه الأحلام التي تتحدث عن المستقبل، ولكنّها في الوقت ذاته غير واضحة، وقد تغيّرت نتيجة العوامل الذهنية والروحيّة الخاصّة فتحتاج إلى تعبير.

ولكل من هذه الأحلام نماذج ومصاديق كثيرة، ولا يمكن إنكارها جميعاً، لأنّها لا في المصادر المذهبية أو الكتب التاريخية ـ فحسب ـ بل تتكرر في حياتنا أو حياة من نعرفهم بشكل لا يمكن عدّه من باب المصادفات والإتفاقات!

قال في الأمثل: ونذكر هنا عدّة نماذج من الأحلام الصادقة التي كشفت بشكل عجيب عن حوادث مستقبلية سمعناها من أفراد موثوقين:

١ ـ المرحوم الآخوند ملا علي من علماء همدان الموثوقين والمعروفين ينقل عن المرحوم الميرزا عبد النّبي النوري وهو من علماء طهران الكبار هذه القصة:

عندما كنت في سامراء كان يصلني سنوياً من مدينة مازندران مبلغ بمقدار مائة تومان تقريباً، وعلى أساس هذا الأمر كنت أستقرض دائماً مقدار حاجتي من المؤونة وعندما يصلني هذا المبلغ كنت أقوم بتسديد هذه القروض.

وفي أحد الأعوام جاءني خبر مؤسف، وهو أنّ المحصول الزراعي في مازندران سيّىء للغاية بسبب القحط، ولهذا فإنّهم يعتذرون عن عدم إرسال المبلغ المقرّر في هذه السنة، ولما سمعت بذلك تألمت بشدّة ونمت وأنا في هذه الحال من الهم والغم، فرأيت في عالم الرؤيا رسول الله ﷺ وهو يدعوني ويقول: يا فلان، قم وافتح تلك الخزانة (وأشار إلى خزانة في الحائط) وخذ منها مائة تومان موجودة هناك. فإنتبهت من النوم، ولم تمض فترة وجيزة حتى طرقت الباب بعد الظهر، فرأيت رسول الميرزا الشيرازي (قده) المرجع الكبير للشيعة وقال لي: إنّ الميرزا يدعوك: فتعجبت من هذه الدعوة في هذا الوقت بالذات. فذهبت إليه فرأيته جالساً في حجرته (وقد نسيت الرؤيا تماماً) وفجأة قال لي المرحوم الميرزا الشيرازي: يا ميرزا عبد النّبي افتح باب تلك الخزانة وخذ منها مائة تومان موجودة هناك. فتذكرت الرؤيا فوراً وتعجبت كثيراً وأردت أن أقول شيئاً، ولكنني شعرت بأنّه لا يرغب في ذلك، فقمت إلى الخزانة فأخذت المبلغ المذكور وخرجت.

٢ ـ وينقل صديق ـ وهو محل اعتماد ـ أن المرحوم التبريزي صاحب كتاب «ريحانة الأديب» كان له ولد يشكو من يده اليُمنى (ربّما كان مبتلى بالروماتيزم) بشكل يصعب عليه أن يمسك القلم بيده، فتقرر أن يسافر إلى ألمانيا للمعالجة ويقول: حين كنت في السفينة رأيت في المنام أن أُمي توفيت ففتحت التقويم السنوي وسجلت الحادثة ـ مقيدةً بالساعة واليوم ـ ولم تمض فترة حتى رجعت إلى بلدي فاستقبلني جماعة من الأقارب والأصدقاء فوجدتهم لبسوا ثياب الحداد فتعجبت، وكنت قد نسيت الرؤيا، وأخيراً أخبرت ـ بالتدريج ـ أنّ أُمي توفيت، فتذكرت مباشرةً رؤياي في السفينة فأخرجت التقويم وسألت عن اليوم الذي توفيت فيه فكان مطابقاً لذلك اليوم تماماً.

٣ ـ يقول سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» في هامشه على الآيات المتعلقة بسورة يوسف: إذا كنت أنكر جميع ما قلتم في الرؤيا فلن أستطيع أن

أنكر ما حدث لي يوم كنت في أمريكا أبداً. . . رأيتُ هناك في المنام أنّ ابن أختي قد نزفت عيناه دماً ولا يستطيع أن يرى (كان ابن أختي وسائر أعضاء أسرتي بمصر) فاستوحشت ممّا رأيت وكتبت رسالة إلى أسرتي بمصر فوراً. وسألتهم عن حال ابن أختي بوجه خاص، فلم تمض فترة وجيزة حتى جاءني الجواب الذي يخبرني بأنّ ابن أختي مبتلى بنزيف داخلي في عينيه ولا يستطيع أن يرى، وهو مشغول بالمعالجة.

وممّا يستلفت النظر أنّ النزف الداخلي كان بشكل لا يمكن رؤيته إلّا بالأجهزة الطبيّة، وقد حُرم ابن أختي من النظر والرؤية على كل حال. غير أنني رأيت في منامي حتى هذه المسألة الدقيقة.

إنّ الأحلام التي تكشف الحجب عن الأسرار والحقائق المرتبطة بالمستقبل، أو الحقائق الخفيّة المتعلقة بالحاضر، هي أكثر من أن تُحصر، وليس بمقدور بعض الأفراد الذين لا يعتقدون بهذه الحقائق إنكارها، أو حملها على المصادفة والإتفاق!

ومن خلال التحقيق مع الأصدقاء القريبين يمكن الحصول على شواهد كثيرة من هذه الأحلام، وهذه الأحلام لا يمكن تعبيرها عن طريق التّفسير المادي أبداً، وإنّما الطريق الوحيد هو تعبير فلاسفة الروح والإعتقاد باستقلال الروح، ومن مجموع هذه الأحلام يمكن أن نستفيد منها كشاهد على استقلال الروح.

١ ـ في الآيات ـ محل البحث ـ نلاحظ أن يعقوب ـ بالإضافة إلى تحذيره لولده يوسف من أن يقصّ رؤيّاه على إخوته ـ فإنّه عبّر عن رؤيّاه بصورة إجماليّة وقال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾.

ودلالة رؤيّا يوسف على أنّه سيبلغ في المستقبل مقامات كبيرة معنوية ومادية يمكن دركها تماماً. . . ولكن يبرز هذا السؤال، وهو: كيف عرف يعقوب أنّ ابنه يوسف سيعلم تأويل الأحاديث في المستقبل؟ أهو خبر أخبره يعقوب ليوسف مصادفةً ولا علاقة له بالرؤيّا، أم أنّه اكتشف ذلك من رؤيّا يوسف؟

الظاهر أنّ يعقوب فهم ذلك من رؤيّا يوسف، ويمكن أن يكون ذلك عن أحد طريقين:

الأوّل: إنّ يوسف في حداثة سنّه وقد نقل لأبيه ـ خاصّة ـ بعيداً عن أعين إخوته (لأنّ أباه أوصاه أن لا يقصّها على إخوته) وهذا الأمر يدلّ على أنّ يوسف نفسه كان له إحساس خاص برؤياه بحيث لم يقصصها بمحضر الجميع...

ولأنّ مثل هذا الإحساس في صبّي ـ كيوسف عليه السلام ـ يدلّ على أنّ له استعداداً روحيّاً لتعبير الرؤيا، وإنّ أباه قد أحسّ بهذا الإستعداد... وبالتربية الصحيحة سيكون له في المستقبل حظٌّ زاهر في هذا المجال.

الثّاني: إنّ ارتباط الأنبياء، بعالم الغيب له عدّة طرق، فمرّة عن طريق «الإلهامات القلبية» وتارة عن طريق «ملك الوحي» وأخرى عن طريق «الرؤيا».

وبالرغم من أنّ يوسف لم يكن نبيّاً في ذلك الوقت، لكن رؤيته لهذه الرؤيا ذات المعنى الكبير يدلّ على أنه سيكون له ارتباط بعالم الغيب في المستقبل، ولا بدّ أن يعرف تعبير الرؤيا ـ طبعاً ـ حتى يكون له مثل هذا الإرتباط.

٢ ـ من الدروس التي نستلهمها من هذا القسم من الآيات أن نحفظ الأسرار، وينبغي أن يُطبق هذا الدرس أحياناً حتى أمام الإخوة، فدائماً تقع في حياة الإنسان أسرار لو أذيعت وفشت بات مستقبله أو مستقبل مجتمعه معرضاً للخطر، والمواظبة على حفظ هذه الأسرار دليل على سعة الروح وتملك الإرادة، فكثير من ضعاف الشخصيّة أوقعوا أنفسهم أو مجتمعهم في الخطر بسبب إفشاء الأسرار، وكم يرى الإنسان ـ من مساءة وضرر لأنّه ترك حفظ الأسرار...

وفي هذا المجال ورد حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إذ قال: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال: سُنّة من ربّه، وسُنّة من نبيّه، وسُنّة من وليّه. فأمّا السُّنة من ربّه فكتمان السرّ، وأمّا السُّنة من نبيّه فمداراة الناس، وأمّا السُّنة من وليّه فالصبر على البأساء والضراء»[1].

---

(١) بحار الأنوار، طبعة جديدة، ج٧٨، ص٣٣٤.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: ٣٥-٣٨].

التّفسير

السّجن بسبب البراءة:

إنتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف في قصر العزيز في تلك الغوغاء والهياج، ولكنّ خبره ـ بالطبع ـ وصلَ إلى سمع العزيز... ومن مجموع هذه المجريات إتّضح أنّ يوسف لم يكن شابّاً عاديّاً، بل كان طاهراً لدرجة لا يمكن لأي قوّة أن تجرّه إلى الانحراف والتلوث، واتّضحت علامات هذه الظاهرة من جهات مختلفة، فتمزّق قميصه من دُبر، ومقاومته أمام وساوس نسوة مصر، واستعداده لدخول السجن وعدم الإستسلام لتهديدات امرأة العزيز بالسجن والعذاب الأليم، كلّ هذه الأمور أدلّة على طهارته لا يمكن لأحد أن يسدل عليها الستار أو ينكرها!

ولازم هذه الأدلّة إثبات عدم طهارة امرأة العزيز وانكشاف جريمتها، وعلى أثر ثبوت هذه الجريمة فإنّ الخوف من فضيحة جنسية في أُسرة العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم.

فكان الرأي بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس إسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أوّلاً، وليشيع بين الناس أنّ المذنب الأصلي هو يوسف، ثانياً، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

التعبير بكلمة «بدا» التي معناها ظهور الرأي الجديد، يدلّ على أنّ مثل هذا التصميم في حقّ يوسف لم يكن من قبل. ويحتمل أن تكون هذه الفكرة اقترحتها

إمرأة العزيز لأوّل مرّة. . . وبهذا دخل يوسف النزيه ـ بسبب طهارة ثوبه ـ السجن، وليست هذه أوّل مرّة ولا آخرها أن يدخل الإنسان النزيه «بجريرة نزاهته» السجن!!

أجل في المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين الذين يسيرون مع التيار وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب. . . . بل إنّ الأفراد النجباء كيوسف الذي لا يتلاءم مع ذلك المحيط ولونه يتحرّك على خلاف مجرى الماء! ينبغي أن يقبعوا في زاوية النسيان. . . ولكن إلى متى؟ هل تستمر هذه الحالة؟ قطعاً لا. . .

ومن جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾.

وحيث إنّ من الظروف لم تكن تسمح للإنسان أن يحصل فيها على الأخبار بطريق عادي، فإنّه يأنس لأحاسيس الآخرين ليبحث عن مسير الحوادث ويتوقّع ما سيكون، حتى أنّ الرؤيا وتعبيرها عنده يكون مطلباً مهمّاً.

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوماً هذان الفتيان اللذان يقال: إنّ أحدهما كان ساقياً في بيت الملك، والآخر كان مأموراً للطعام والمطبخ، وبسبب وشاية الأعداء وسعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسمّ الملك، وتحدّث كلّ منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة وكانت بالنسبة له أمراً عجيباً.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وحول معرفة الفتيين واطلاعهما على أنّ يوسف له خبرة بتأويل الأحلام هنالك أقوال بين المفسّرين:

قال بعضهم: إنّ يوسف نفسه أخبر السجناء بأنّ له اطلاعاً واسعاً في تفسير الأحلام، وقال بعضهم: إنّ سيماء يوسف الملكوتية كانت تدلّ على أنّه ليس فرداً عادياً. . . بل هو فرد عارف مطّلع وصاحب فكر ونظر، ولا بدّ أن يكون مثل هذا الشخص قادراً على حلّ مشاكلهم في تعبير الرؤيا.

وقال البعض الآخر: إنّ يوسف من بداية دخوله السجن برهن ـ بأخلاقه الحسنة والمعاشرة الطيّبة للسجناء وخدمتهم وعيادة مرضاهم ـ أنّه رجل صالح وحلّال المشاكل، لذلك كانوا يلتجئون إليه في حلّ مشاكلهم ويستعينون به.

وهناك ملاحظة جدير ذكرها، وهي أنّ القرآن عبّر بـ «الفتى» مكان «العبد» وهو نوع من الاحترام، وعندنا في الحديث «لا يقولنّ أحدكم عبدي وأمتي ولكن فتاي وفتاتي»[1] ليكون العبيد في مراحل الإنعتاق والحريّة التي نظّمها الإسلام في مأمن من كلّ أنواع التحقير.

التعبير بـ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ بدلاً من «إنّي رأيت» هو بعنوان حكاية الحال، أي أنّه يفرض نفسه في اللحظة التي يرى فيها الرؤيا «النوم» وهذا الكلام لتصوير تلك الحالة.

وعلى كلّ حال، فقد اغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا ـ وكان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء ونصحهم ـ وبحجّة التعبير كان يبيّن حقائق مهمّة تفتح لهم السُبُل ولجميع الناس أيضاً.

في البداية، ومن أجل أن يستلفت إهتمامهما واعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذي كان مثار اهتمامهما وتوجّههما ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾.

وبهذا فقد طمأنهما أنّهما سيجدان ضالّتهما قبل وصول الطعام إليهما.

وهناك احتمالات كثيرة في هذه الجملة بين المفسّرين، ومن جملتها: إنّ يوسف قال: أنا بأمر الله مطّلع على بعض الأسرار، لا إنّي أستطيع تعبير الأحلام فحسب، بل أنا أستطيع حتّى إخباركم بما سيأتيكم من الطعام وما نوعه وبأي صورة وأي خصوصية!.

فعلى هذا يكون التأويل بمعنى ذكر خصوصيات ذلك الطعام، وإن كان التأويل قليل الإستعمال في مثل هذا المعنى طبعاً، ولاسيّما أنّه ورد في الجملة السابقة بمعنى تعبير الرؤيا.

والاحتمال الآخر من مقصود يوسف هو: إنّ أي نوع من الطعام ترونه في النوم فأنا أعرف ما تأويله (ولكن هذا الاحتمال لا ينسجم مع الجملة السابقة) ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾.

---

(١) مجمع البيان، ج٥، ص٢٣٢.

فعلى هذا يكون أحسن التفاسير للجملة المتقدّمة، هو التّفسير الأوّل الذي ذكرناه في بداية الحديث.

ثمّ إنّ يوسف أضاف إلى كلامه مقروناً بالإيمان بالله والتوحيد الجاري بجميع أبعاده في أعماق وجوده، ليبيّن بوضوح أنّ لا شيء يتحقق إلّا بإرادة الله قائلاً: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ ولئلا يتصوّر أنّ الله يمنح مثل هذه الأمور دون حساب، قال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

والمقصود بهذه الملّة أو الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر أو عبدة الأصنام من كنعان.

وينبغي لي أن أترك مثل هذه العقائد لأنّها على خلاف الفطرة الإنسانية النقيّة، ثمّ إنّي تربّيت في أسرة الوحي والنبوّة ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾.

ولعلّ هذه هي أوّل مرّة يعرّف يوسف نفسه للسجناء بهذا التعريف، ليعلموا أنّه سليل الوحي والنبوّة وقد دخل السجن بريئاً... كبقيّة السجناء الأبرياء في حكومة الطواغيت.

ثمّ يضيف على نحو التأكيد ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ لأنّ أسرتنا أسرة التوحيد... أسرة إبراهيم محطّم الأصنام ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وعلى هذا فلا تتصوّروا أنّ هذا الفضل والحبّ شملا أسرتنا أهل النبوّة فحسب - بل هي الموهبة العامّة التي تشمل جميع عباد الله المودعة في أرواحهم المسمّاة بالفطرة حيث يتكاملون بقيادة الأنبياء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

جدير بالذكر والإلتفات أنّ «إسحاق» عُدّ في الآية المتقدّمة في زمرة «آباء يوسف» في حين أنّنا نعرف أنّ يوسف هو ابن يعقوب ويعقوب ابن إسحاق، فتكون كلمة أب بهذا مستعملة في الجدّ أيضاً.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

رؤيا ملك مصر وما جرى له:

بقي يوسف سنين في السجن المظلم كأي إنسان منسيّ ولم يكن لديه من عمل إلا بناء شخصيته وإرشاد السجناء وعيادة مرضاهم وتسلية المُوجَعين منهم ولم تغير هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ أُمّة مصر وما حولها.

لقد رأى ملك مصر الذي يقال أنّ إسمه هو «الوليد بن الرّيان» وكان «عزيز مصر وزيره» رأى هذا الملك رؤيّا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبّرين للرؤيا ومن حوله فقصّ عليهم رؤياه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ ۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

ولكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

«الأضغاث» جمع «ضِغْث» على وزن (حرص) ومعناه المجموعة من الحطب أو العشب اليابس أو الأخضر أو شيء آخر، و«الأحلام» جمع «حُلُم» على وزن «رُخم» معناه الطيف والرؤيا، فيكون معنى ﴿أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ﴾ هو الأطياف المختلطة، فكأنّها منشكّلة من مجموعة مختلفة ومتفاوتة من الأشياء، وجاءت كلمة الأحلام في جملة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ﴾ مسبوقة بالألف واللام العهدية وهي إشارة إلى أنّ المعبّرين غير قادرين على تأويل مثل هذه الأحلام.

ومن اللازم ذكر هذه المسألة الدقيقة وهي: إنّ إظهار عجز أُولئك في الحقيقة كان من أجل أنّ المفهوم الواقعي لهذه الرؤيا عندهم غير واضح، ولذلك عدّوها ضمن الأحلام المختلطة و«الأضغاث» حيث قسّموا الأحلام إلى قسمين:

أحلام ذات معنى وهي قابلة للتعبير.

وأحلام مختلطة لا معنى لها حيث لم يجدوا لها تعبيراً وتأويلاً... وكانوا يعدّون هذا النوع نتيجة قوّة الخيال، على العكس من النوع الأوّل الذي يعدّونه نتيجة إتّصال الروح بعالم الغيب.

كما أن هناك احتمال آخر، وهو أنّهم توقّعوا أن تقع حوادث مزعجة في المستقبل، وما اعتاد عليه حاشية الملوك والطغاة هو ذكر المسائل المريحة لهم فحسب، وكما يُصطلح عليه ما فيه طيب الخاطر، ويتمنعون عن ذكر ما يزعجهم، وهذا أحد أسباب سقوط مثل هذه الحكومات المتجبّرة!

هنا يرد سؤال وهو: كيف تجرّأ هؤلاء أمام السلطان، بقولهم جواباً لسؤاله عن رؤياه إنّها ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ في حين أنّ المعروف عند حاشية السلطان أنّ تفلسف كلّ حركة منه ولو كانت بغير معنى ويفسّرونها تفسيراً مقبولاً.

من الممكن أنّهم رأوا الملك مهموماً من هذه الرؤيا، وكان من حقّه ذلك لأنّــه رأى ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

ألا يدلّ ذلك على أنّ من الممكن أنّ أفراداً ضعافاً يتسلّمون السلطة من يده على حين غرّة؟!

لذلك قالوا له: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ ليرفعوا الكدورة عن خاطره، أي: لا تتأثر فما هنالك أمر مهم، وهذه الأحلام لا يمكن أن تكون دليلاً على أي شيء.

وهناك احتمال آخر ذكره المفسّرون وهو أنّ مرادهم من ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ لم يكن أنّ هذه الأحلام لا تأويل لها، بل المراد أنّ مثل هذه الأحلام ملتوية ومجموعة من أمور مختلفة، وهم غير قادرين على تأويل مثل هذه الأحلام، فهم لم ينكروا إمكان وجود أُستاذ ماهر وقادر على تأويل هذه الرؤيا، وإنّما أظهروا عجزهم عن التعبير والتأويل فحسب.

وهنا تذكّر ساقي الملك ما حدث له ولصاحبه في السجن مع يوسف، ونجا من السجن كما بشّره يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥].

أجل في زاوية السجن يعيش رجل حيّ الضمير طاهر القلب مؤمن وقلبه مرآة للحوادث المستقبلية، إنّ الذي يستطيع أن يكشف الحجاب عن هذه الرؤيا المغلقة ويعبّرها.

جملة ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ تشير إلى أنّ من الممكن أن يكون يوسف ممنوع من المواجهة، وكان الساقي يريد أن يأذن الملك ومن حوله بمواجهته لهذا الشأن.

وهكذا حرّك كلام الساقي المجلس وشخصت الأبصار نحوه، وطلبوا منه الإسراع بالذهاب إليه والإتيان بالخبر.

مضى الساقي إلى السجن ليرى صديقه القديم. . . ذلك الصديق الذي لم يفِ بوعده له، لكنّه ربّما كان يعرف أنّ شخصية يوسف الكريمة تمنعه من فتح «باب العتب» فالتفت إليه وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

كلمة «الناس» تشير إلى احتمال أنّ رؤيا الملك صيَّرها أطرافه المتملّقون وحاشيته حادثة مهمّة لذلك اليوم، فنشروها بين الناس وعمّموا حالة «القلق» من القصر إلى الوسط الإجتماعي العام.

وعلى كلّ حال، فإنّ يوسف دون أن يطلب شرطاً أو قيداً أو أجراً لتعبيره، عبّر الرؤيا فوراً تعبيراً دقيقاً لا غموض فيه ولا حجاب مقروناً بما ينبغي عمله في المستقبل و﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[1] [يوسف: ٤٧].

ثمّ إنّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا أمطار ولا زراعة كافية، فعليكم بالإستفادة ممّا جمعتم في سنيّ الرخاء: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ [يوسف: ٤٨].

ولكن عليكم أن تحذروا من استهلاك الطعام: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]. وإذا واظبتم على هذه الخطّة فحينئذٍ لا خطر يهدّدكم لأنّه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ [يوسف: ٤٩]

و﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، وليس هذا فحسب، بل ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ المحاصيل لاستخراج الدهن والفاكهة لشراب عصيرها. . . الخ.

---

(١) كلمة «دأب» على وزن «أدَب» تعني في الأصل إدامة الحركة، كما أنّها بمعنى العادة المستمرة، فيكون معنى الكلام: عليكم أن تزرعوا تبعاً لعادتكم المستمرة في مصر ولكن ينبغي أن تقتصدوا في مصرفه. . . ويحتمل أن يكون المراد منه أن تزرعوا بجد وجهد أكثر فأكثر لأنّ دأباً ودؤوباً بمعنى الجدّ والتعب أيضاً، أي اعملوا حتّى تتعبوا.

ملاحظات

١ - كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقاً ومحسوباً، حيث كانت البقرة في الأساطير القديمة مظهر «السَّنَة»... وكون البقرات سماناً دليل على كثرة النعمة، وكونها عجافاً دليل على الجفاف والقحط، وهجوم السبع العجاف على السبع السّمان كان دليلاً على أن يُستفاد من ذخائر السنوات السابقة.

وسبع سنبلات خضر وقد أحاطت بها سبع سنبلات يابسات تأكيد آخر على هاتين الفترتين فترة النعمة وفترة الشدّة.

إضافةً إلى أنّه أكّد له على هذه المسألة الدقيقة، وهي خزن المحاصيل في سنابلها لئلا تفسد بسرعة وليكون حفظها إلى سبع سنوات ممكناً.

وكون عدد البقرات العجاف والسنابل اليابسات لم يتجاوز السبع لكلّ منهما دليل آخر على انتهاء الجفاف والشدّة مع انتهاء تلك السنوات السبع... وبالطبع فإنّ سنةً سيأتي بعد هذه السنوات سنة مليئة بالخيرات والأمطار، فلا بدّ من التفكير للبذر في تلك السنة وأن يحتفظوا بشيء ممّا يخزن لها.

في الحقيقة لم يكن يوسف مفسّراً بسيطاً للأحلام، بل كان قائداً يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، وقد قدّم مقترحاً من عدّة مواد لخمسة عشر عاماً على الأقل، وكما سنرى فإنّ هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك وحاشيته وكان سبباً لإنقاذ أهل مصر من القحط القاتل من جهة، وأن ينجو يوسف من سجنه وتخرج الحكومة من أيدي الطغاة من جهة أُخرى.

٢ - مرّة أُخرى تعلّمنا هذه القصّة هذا الدرس الكبير وهو أنّ قدرة الله أكبر ممّا نتصوّر، فهو القادر بسبب رؤيا بسيطة يراها جبابرة الزمان أنفسهم أن ينقذ أمة كبيرة من فاجعة عظيمة، ويخلّص عبده الخالص بعد سنين من الشدائد والمصائب أيضاً.

فلا بدّ أن يرى الملك هذه الرؤيا، ولا بدّ أن يحضر الساقي عنده يتذكّر رؤياه في السجن، وترتبط أخيراً حوادث مهمّة بعضها ببعض، فالله تعالى هو الذي يخلق الحوادث العظيمة من توافه الأمور.

أجل، ينبغي لنا توكيد إرتباطنا القلبي مع هذا الربّ القادر...

٣ ـ الأحلام المتعدّدة في هذه السورة، من رؤيا يوسف نفسه إلى رؤيا السجينين إلى رؤيا فرعون مصر، والإهتمام الكبير الذي كان يوليه أهل ذلك العصر بالنسبة لتعبير الرؤيا أساساً، يدلّ على أنّ تعبير الرؤيا في ذلك العصر كان من العلوم المتقدّمة، وربّما وجب لهذا السبب ـ أن يكون نبي ذلك العصر ـ أي (يوسف) ـ مطّلعاً على مثل هذا العلم إلى درجة عالية بحيث يعدّ إعجازاً منه.

أليست معاجز الأنبياء يجب أن تكون من أبرز العلوم في زمانهم، ليحصل اليقين ـ عند العجز من قبل علماء العصر ـ بأنّ مصدر العلم الذي يحمله نبيّهم هو الله!

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

التّفسير

رؤيا النّبي الصادقة:

هذه الآية ـ أيضاً ـ ترسم جانباً آخر من جوانب قصة الحديبيّة المهمّة، والقصة كانت على النحو التالي:

رأى النّبي ﷺ في المدينة رؤيا أنّه يدخل مكّة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدّث أصحابه عن رؤياه فَسُرّوا جميعاً، غير أنّه لمّا كان جماعة من أصحابه يتصوّرون أنّ تعبير الرؤيا سيتحقق في تلك السنة ذاتها ومنعهم المشركون من الدخول إلى مكّة أصابهم الشك والتردّد... ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا النّبي غير صادقة؟ ألم يكن البناء أن نعتمر هذا العام؟! فأين هذا الوعد؟ وأين صارت هذه الرؤيا الرحمانية؟!

فكان جواب النّبي لهم: هل قلت لكم أنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟!

فنزلت الآية الآنفة في هذا الصدد والنّبي عائد من الحديبية إلى المدينة

وأكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولا بدّ أنّها كائنة... تقول الآية: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾[1] فما رآه النّبي في المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثمّ تضيف الآية قائلة: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ وكان في هذا التأخير حكمةٌ: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

ملاحظات

وفي الآية الكريمة عدّة ملاحظات تلفت النظر:

١ ـ ينبغي الإلتفات إلى أنّ «اللام» في ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ هي لام القسم، وأنّ «النون» في آخر الفعل هي للتوكيد، بأنّ هذا هو وعد إلهي قطعي في المستقبل وتنبؤ معجز صريح عن أداء المناسك والعمرة في كامل الأمان ومنتهى الطمأنينة ـ وكما سنبيّن ـ كان هذا التوقّع والتنبّؤ صادقاً في شهر ذي القعدة ذاته من السنة المقبلة، وهكذا أدّى المسلمون مناسك العمرة بهذه الصورة!

٢ ـ جملة ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ هنا لعلّها نوع من تعليم العباد لكي يعوّلوا على مشيئة الله عند الإخبار عن المستقبل وأن لا ينسوا إرادة الله، وأن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلّين عنه. وربّما هي إشارة للظروف التي يهيّؤها الله لهذا التوفيق «توفيق الله المسلمين لزيارة بيته في المستقبل القريب» والبقاء على خط «التوحيد والسكينة والتقوى».

كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض المسلمين الذين تنتهي أعمارهم في هذه الفترة والفاصلة الزمانية ولا يوفّقون إلى زيارة بيت الله، والجمع بين هذه المعاني كلها لا مانع منه أبداً...

٣ ـ التعبير بـ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ كما يعتقد كثيرٌ من المفسّرين هو إشارة إلى صلح الحديبيّة الذي عبّر عنه القرآن بالفتح المبين، ونعرف أنّ هذا الفتح كان السبيل إلى دخول المسجد الحرام في السنة التالية.

---

(١) «صدق» فعل ماض قد يستوفي مفعولين كما هي الحال في الآية الآنفة فرسوله مفعول به أوّل والرؤيا مفعول ثان، وقد يستوفي هذا الفعل مفعولاً واحداً يتعدّى إلى المفعول الثّاني بفي كقولك صدقته في حديثه.

على حين أنّ جماعة آخرين يعتقدون أنّ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ إشارة إلى «فتح خيبر».

وبالطبع فإنّ كلمة (قريباً) فيها تناسبٌ أكثر مع «فتح خيبر» لأنّه كان ـ تحقّقه العيني» بعد هذه الرؤيا في فترة أقل زمناً من فتح مكّة بعدها، ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن يقول في الآية (١٨) من هذه السورة ذاتها عند الكلام على بيعة الرضوان: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. وكما قلنا ـ ويعتقد بذلك أكثر المفسّرين أيضاً ـ أنّ المراد من هذا الفتح هو «فتح خيبر» والقرائن الموجودة في الآية تحكي عن هذا الفتح أيضاً، ومع الإلتفات إلى أنّ الآية محل البحث تنسجم مع تلك الآية فيبدو أنّ الآيتين بمعنى واحد...[١]....

وفي تفسير علي بن إبراهيم رواية تشير إلى هذا المعنى أيضاً[٢].

٤ ـ جملة «محلّقين رؤوسكم ومقصّرين» إشارة إلى واحد من مناسك العمرة وآدابها وهو «التقصير» وبه يخرج المحرم من إحرامه وقد استدل بعضهم بالآية في التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير في تقليم الأظافر أو الحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجباً قطعاً.

٥ ـ جملة «فعلم ما لم تعلموا» إشارة إلى مسائل مهمّة مطوية في صلح الحديبيّة وقد انكشفت بمرور الزمن ـ إذ قويت قواعد الإسلام وانتشر صوته وترامت أصداؤه في كلّ مكان وطُويت نزعة الحرب عند المسلمين واستطاعوا أن يفتحوا «خيبر» بفارغ البال وقرار البلبال، وأرسلوا المبلّغين إلى أطراف الجزيرة العربية وبعث النّبي ﷺ رسائله إلى أعاظم رؤساء الدول آنئذٍ، فهذه مسائل كان الفرد المسلم لا يعرفها لكنّ الله كان يعلمها...

٦ ـ نواجه في هذه الآية الكريمة موضوع الرؤيا، وهي رؤيا النّبي ﷺ الصادقة التي تعدّ (غصناً من غصون) الوحي وهي مشابهة لقصة رؤيا إبراهيم ﷺ وذبح ولده إسماعيل الواردة في سورة الصافات الآية (١٠٢).

٧ ـ الآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التي أخبر عنها القرآن،

---

(١) التعبير بـ«من دون شك» إنما بمعنى قبل ذلك، أي قبل أداء العمرة يفتح الله عليكم فتحاً قريباً في السنة المقبلة، أو بمعنى «غير ذلك» أي سينال المؤمنون فتحاً قريباً غير زيارة بيت الله والعمرة أيضاً.

(٢) نور الثقلين، ج٥، ص٧٦.

وهي شاهد على أنّ هذا الكتاب سماويّ وأنّه من معاجز النّبي الكريم حيث يخبرُ قاطعاً عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام في المستقبل القريب، وعن الفتح القريب قبله أيضاً، وكما نعلم أنّ هذين التنبّوءين قد حدثا فعلاً، والآن نتحدّث عن قصة «عمرة القضاء».

عمرة القضاء:

عمرة القضاء هي العمرة التي أدّاها النّبي ﷺ مع أصحابه بعد صلح الحديبيّة بعام، أي في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، (على وجه الدقّة بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرّسول وأصحابه مكّة).

وتسمية «عمرة القضاء» بهذا الإسم لأنّها في الحقيقة تعد قضاءً عن السنة السابقة...

وتوضيح ذلك: إنّه طبقاً لإحدى مواد معاهدة الحديبيّة أصبح من المقرر أن يؤدّي المسلمون العمرة وزيارة بيت الله في العام المقبل على أن لا يمكثوا في مكّة أكثر من ثلاثة أيّام، وفي الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّة ورؤساء قريش أيضاً، لئلا يقع نزاع محتمل بين الطرفين ولئلا يروا المسلمين يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر العبادة «التوحيدية».

وقد ورد في بعض التواريخ أنّ النّبي ﷺ أحرم في السنة المقبلة مع أصحابه والجمال المساقة للهدي وتحرّكوا جميعاً حتى بلغوا أطراف «الظهران» وضواحيه فأرسل النّبي ﷺ ما كان عنده من أسلحة وخيول تستلفت النظر مع أحد أصحابه واسمه «محمّد بن مسلمة» فلمّا رأى المشركون هذه الخطة فزعوا وخافوا خوفاً شديداً وظنّوا أنّ النّبي ﷺ يريد أن يقاتلهم وينقض المعاهدة الممضاة لعشر سنين وأخبروا أهل مكّة بذلك.

غير أنّ النّبي ﷺ حين وصل منطقة قريبة من مكّة أمر أن توضع الأسلحة من السهام والرماح وغيرها من الأسلحة في منطقة تدعى «ياجج» ودخل هو وأصحابه مكّة بالسيوف المغمدة.

فلمّا رأى أهل مكّة من النّبي ما رأوا فرحوا إذ وفى النّبي بوعده [فكأنّ النّبي بإقدامه هذا أنذر المشركين أن لو نقضوا العهد وأرادوا أن ينازلوا المسلمين فهم على أتم الإستعداد].

فخرج رؤساء مكّة منها لئلا تتأثر عواطفهم وقلوبهم بهذه «المناظر» ولا تثيرهم مناسك العمرة من قبل المسلمين.

غير أنّ بقية أهل مكّة من الرجال والنساء والأطفال اجتمعوا في السطوح وحول الكعبة وخلال الطريق ليروا كيف يؤدّي المسلمون مناسكهم...

فدخل النّبي مكّة بهذه الأُبّهة الخاصّة وكانت معه جمال كثيرة مسوقة للهدي فعامل أهل مكّة بمنتهى اللطف والمحبّة وأمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف وأن يزيحوا الإحرام عن أكتافهم قليلاً لتبدو علائم القدرة والقوّة فيهم وأن تترك هذه الحالة في أفكار أهل مكّة وأنفسهم تأثيراً كبيراً ودليلاً على قوّة المسلمين وحكمتهم!

وعلى كلّ حال، فإنّ «عمرة القضاء» كانت عبارة كما كانت في الوقت ذاته عَرضاً «للعضلات المفتولة» وينبغي القول أنّ «فتح مكّة» الذي تحقّق بعد سنة أُخرى كان قد نثر بذره في السنة وهيّأ الأرضية لاستسلام أهل مكّة للفاتحين (المسلمين).

وكان هذا الأمر مدعاةً لقلق رؤساء قريش إلى درجة أنّهم بعثوا رجلاً بعد مضي ثلاثة أيّام إلى النّبي يطلب منه أن يغادر بسرعة هو وأصحابه مكّة طبقاً للمعاهدة...

الطريف هنا، أنّ النّبي تزوّج أرملة من نساء قريش وكان من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين وذلك ليشدّ أواصره بهم ويخفّف من غلوائهم وبغضائهم.

وحين سمع النّبي اقتراحهم بالمغادرة قال: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه»، قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنّا.

ولو كان تمّ ذلك لكان له أثره في نفوذ أمر النّبي في قلوبهم غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه[1].

(١) مجمع البيان للطبرسي، ج٩، ص١٢٧، في ظلال القرآن، ج٧، ص٥١١، تأريخ الطبري، ج٢، ص٣١٠، مع شيء من التلخيص.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠١-١١٠].

قال في الأمثل: بحثُنا في الآيات السابقة انتهى عند هجرة إبراهيم عليه السلام من بابل بعد أن أدّى رسالته هناك وطلب من الله أن يرزقه ولداً صالحاً، إذ لم يكن له ولد.

وأول آية في هذا البحث تتحدَّث عن الإستجابة لدعاء إبراهيم إذ قالت: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

في الواقع إن ثلاث بشائر جمعت في هذه الآية، الأولى أنّه سيرزق طفلاً ذكراً، والثانية: أن هذا الطفل يبلغ سن الفتوّة، أمّا الثالثة فهي: أن صفته حليم.

وكلمة (حليم) تعني الذي لا يعجّل في الأمر قبل وقته مع القدرة عليه، وقيل: الذي لا يعجّل بالعقوبة، والذي له روح كبيرة وهو متسلّط على أحاسيسه.

ويرى «الراغب» في مفرداته أنّ كلمة حليم تعني الضابط نفسه في لحظة الإثرة والغضب، وبسبب كون هذه الحالة تنشأ من العقل والإدراك، فإنّ كلمة وعكس تعني ـ أحياناً ـ العقل والإدراك.

ولكن المعنى الحقيقي لكلمة حليم هو المعنى الأوّل الذي ذكرناه.

ويمكن الإستفادة من هذا الوصف في أنّ الله بشّر عبده إبراهيم في أنّه سيعطي إبنه إسماعيل عمراً يمكن وصفه فيه بالحليم، كما أنّ الآيات التالية ستوضّح أنّ إسماعيل بيّن مرتبة حلمه أثناء قضيّة الذبح، مثلما وضّح أبوه إبراهيم حلمه أثناء قضيّة الذبح، وأثناء إحراقه بالنار.

وكلمة (حليم) كرّرت (١٥) مرّة في القرآن المجيد، وأغلبها وردت وصفاً لله، عدا ثلاث موارد جاءت في وصف إبراهيم وإبنه إسماعيل من قبل القرآن الكريم، والثالثة جاءت في وصف شعيب على لسان الآخرين.

وكلمة (غلام) حسب اعتقاد البعض تطلق على كلّ طفل لم يصل بعد مرحلة الشباب، والبعض يطلقها على الطفل الذي اجتاز عمره العشر سنوات ولم يصل بعد إلى سنّ البلوغ.

ويمكن الإستفادة من العبارات المختلفة الواردة بلغة العرب في أنّ كلمة (غلام) تطلق على الذكر الذي اجتاز مرحلة الطفولة ولم يصل بعد إلى مرحلة الشباب.

أخيراً، وُلِدَ الطفل الموعود لإبراهيم وفق البشارة الإلهيّة، وأثلج قلب إبراهيم الذي كان ينتظر الولد الصالح لسنوات طوال، اجتاز الطفل مرحلة الطفولة وأضحى غلاماً. وهنا يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾.

يعني أنّه وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع فيها السعي وبذل الجهد مع والده في مختلف أمور الحياة وإعانته على أموره.

وقال البعض: بأنّ (السعي) هنا يعني العمل لله والعبادة، وبالطبع فإنّ كلمة (السعي) لها مفاهيم ومعان واسعة تشمل هذا المعنى أيضاً، ولكنّها لا يقتصر معناها عليه. و(معه) تدلّ على أنّه كان يساعد والده في أمور الحياة.

على كل حال، فقد ذهب جمع من المفسّرين: إنّ عمر إسماعيل كان (١٣) عاماً حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحير، والذي يدلّ على بدء امتحان عسير آخر لهذا النّبي ذي الشأن العظيم، إذ رأى في المنام أنّ الله يأمره بذبح إبنه الوحيد وقطع رأسه. فنهض من نومه مرعوباً، لأنّه يعلم أنّ ما يراه الأنبياء في نومهم هو حقيقة وليس من وساوس الشياطين، وقد تكرّرت رؤيته هذه ليلتين أخريين، فكان هذا بمثابة تأكيد على ضرورة تنفيذ هذا الأمر فوراً.

وقيل: إنّ أوّل رؤيا له كانت في ليلة التروية، أي ليلة الثامن من شهر ذي الحجّة، كما شاهد نفس الرؤيا في ليلة عرفة، وليلة عيد الأضحى، وبهذا لم يبق عنده أدنى شكّ في أنّ هذا الأمر هو من الله سبحانه وتعالى.

إمتحان شاقّ آخر يمرّ على إبراهيم الآن، إبراهيم الذي نجح في كافّة الإمتحانات الصعبة السابقة وخرج منها مرفوع الرأس، الإمتحان الذي يفرض عليه وضع عواطف الأبوّة جانباً والإمتثال لأوامر الله بذبح إبنه الذي كان ينتظره لفترة طويلة، وهو الآن غلام يافع قويّ.

ولكن قبل كلّ شيء، فكّر إبراهيم ﷺ في إعداد إبنه لهذا الأمر، حيث ﴿يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

الولد الذي كان نسخة طبق الأصل من والده، والذي تعلم من خلال فترة عمره القصيرة الصبر والثبات والإيمان في مدرسة والده، رحّب بالأمر الإلهي بصدر واسع وطيبة نفس، وبصراحة واضحة قال لوالده: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

ولا تفكّر في أمري، فإنّك ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

فما أعظم كلمات الأب والإبن وكم تخفي في بواطنها من الأمور الدقيقة المعاني العميقة؟!

فمن جهة، الأب يصارح ولده البالغ من العمر (١٣) عاماً بقضيّة الذبح، ويطلب منه إعطاء رأيه فيها، حيث جعله هنا شخصيّة مستقلّة حرّة الإرادة.

فإبراهيم لم يقصد أبداً خداع ولده، ودعوته إلى ساحة الإمتحان العسير بصورة عمياء، بل رغب بإشراكه في هذا الجهاد الكبير ضدّ النفس، وجعله يستشعر حلاوة لذّة التسليم لأمر الله والرضى به، كما استشعر حلاوتها هو.

ومن جهة أخرى، عمد الإبن إلى ترسيخ عزم وتصميم والده في تنفيذ ما أمر به، إذ لم يقل له: إذبحني، وإنّما قال له: إفعل ما أنت مأمور به، فإنّني مستسلم لهذا الأمر، وخاصّة أنّه خاطب أباه بكلمة ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ كي يوضّح أنّ هذه القضية لا تقلّل من عاطفة الإبن تجاه أبيه ولو بمقدار ذرّة، وأنّ أمر الله هو فوق كلّ شيء.

ومن جهة ثالثة، أظهر أدباً رفيعاً إتّجاه الله سبحانه وتعالى، وأن لا يعتمد أحد على إيمانه وإرادته وتصميمه فقط، وإنّما يعتمد على إرادة ومشيئة الله، وبعبارة أخرى: أن يطلب توفيق الإستعانة والإستقامة من الله.

وبهذا الشكل يجتاز الأب وإبنه المرحلة الأولى من هذا الإمتحان الصعب بانتصار كامل.

ماذا يدور في هذا الوسط؟ القرآن الكريم لم يفصل مجريات الحدث، وركّز فقط على النقاط الحساسة في هذه القصّة العجيبة.

كتب البعض: إنّ إسماعيل ساعد والده في تنفيذ هذا الأمر الإلهي، وعمل على تقليل ألم وحزن والدته.

فعندما أخذه الوالد للذبح وسط الجبال الجرداء والحارقة في أرض (منى) قال إسماعيل لوالده:

يا أبت، أحكم من شدّ الحبل كي لا تتحرّك يدي ورجلي أثناء تنفيذك الأمر الإلهي، أخاف أن يقلّل ذلك من مقدار الجزاء الذي سأناله.

والدي العزيز اشحذ السكين جيّداً، وامرره بسرعة على رقبتي كي يكون تحمّل ألم الذبح سهلاً بالنسبة لي ولك.

والدي قبل ذبحي اخلع ثوبي من على جسدي كي لا يتلوّث بالدم، لأنّي أخاف أن تراه والدتي وتفقد عنان صبرها.

ثمّ أضاف: أوصل سلامي إلى والدتي، وإن لم يكن هناك مانع أوصل ثوبي إليها كي يسلّي خواطرها ويهدّىء من آلامها، لأنّها ستشمّ رائحة إبنها منه، وكلّما أحسّت بضيق القلب، تضعه على صدرها ليخفّف الحرقة الموجودة في أعماقها.

قربت اللحظات الحسّاسة، فالأمر الإلهي يجب أن ينفّذ، فعندما رأى إبراهيم ﷺ درجة استسلام ولده للأمر الإلهي احتضنه وقبّل وجهه، وفي هذه اللحظة بكى الإثنان البكاء الذي يبرز العواطف الإنسانية ومقدّمة الشوق للقاء الله.

القرآن الكريم يوضّح هذا الأمر في جملة قصيرة ولكنّها مليئة بالمعاني، فيقول تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[1].

مرّة أخرى تطرق القرآن هنا باختصار، كي يسمح للقارىء متابعة هذه القصّة بانشداد كبير.

---

(١) (تلّه) من مادّة (تلّ) وتعني في الأصل المكان المرتفع، و(تلّه للجبين) تعني أنّه وضع أحد جوانب وجه ابنه على مكان مرتفع من الأرض.
(جبين) تعني أحد جانبي الجبهة أو الوجه، وطرفي الوجه أو الجبهة يقال لهما (جبينان).

قال البعض: إنّ المراد من عبارة ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ هو أنّه وضع جبين ولده - طبقاً لاقتراحه - على الأرض، حتى لا تقع عيناه على وجه إبنه فتهيج عاطفة الأبوّة وتمنعه من تنفيذ الأمر الإلهي.

على أيّ حال، كبّ إبراهيم عليه السلام إبنه على جبينه، ومرّر السكّين بسرعة وقوّة على رقبة إبنه، وروحه تعيش حالة الهيجان، وحبّ الله كان الشيء الوحيد الذي يدفعه إلى تنفيذ الأمر ومن دون أي تردّد.

إلّا أنّ السكّين الحادّة لم تترك أدنى أثر على رقبة إسماعيل اللطيفة.

وهنا غرق إبراهيم في حيرته، ومرّر السكّين مرّة أُخرى على رقبة ولده، ولكنّها لم تؤثّر بشيء كالمرّة السابقة.

نعم، فإبراهيم الخليل يقول للسكّين: إذبحي، لكنّ الله الجليل يعطي أوامره للسكّين أن لا تذبحي، والسكّين لا تستجيب سوى لأوامر الباري عزّ وجلّ.

وهنا يُنهي القرآن كلّ حالات الإنتظار وبعبارة قصيرة مليئة بالمعاني العميقة ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

إذ نمنحهم توفيق النجاح في الإمتحان، ونحفظ لهم ولدهم العزيز، نعم فالذي يستسلم تماماً وبكلّ الوجوه للأمر الإلهي ويصل إلى أقصى درجات الإحسان، لا يمكن مكافأته بأقلّ من هذا.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

عمليّة ذبح الإبن البارّ المطيع على يد أبيه، لا تعدّ عمليّة سهلة وبسيطة بالنسبة لأب انتظر فترة طويلة كي يرزقه الله بهذا الإبن، فكيف يمكن إماتة قلبه تجاه ولده؟ والأكثر من ذلك استسلامه ورضاه المطلق - من دون أي انزعاج - لتنفيذ هذا الأمر، وتنفيذه كافّة مراحل العملية من بدايتها إلى نهايتها، بصورة لا يغفل فيها عن أي شيء من الإستعداد لعملية الذبح نفسياً وعملياً.

والذي يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر الله، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح واطمئنان يحفّه اللطف الإلهي، واستسلام في مقابل هذا الأمر.

لذا فقد ورد في بعض الروايات أنّ جبرائيل هتف «الله أكبر» «الله أكبر» أثناء عمليّة الذبح لتعجّبه.

فيما هتف إسماعيل «لا إله إلا الله، والله أكبر».

ثمّ قال إبراهيم «الله أكبر ولله الحمد»[١].

وهذه العبارات تشبه التكبيرات التي نردّدها في يوم عيد الأضحى.

ولكي لا يبقى برنامج إبراهيم ناقصاً، وتتحقّق أمنية إبراهيم في تقديم القربان لله، بعث الله كبشاً كبيراً إلى إبراهيم ليذبحه بدلاً عن إبنه إسماعيل، ولتصير سنّة للأجيال القادمة التي تشارك في مراسم الحجّ وتأتي إلى أرض (منى) ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

ما المراد بالذبح العظيم؟

أو لأنّه كان فداء عن إسماعيل.

أو لأنّه كان لله وفي سبيل الله.

أو لأنّ هذه الأضحية بعثها الله تعالى إلى إبراهيم.

المفسّرون قالوا الكثير بشأنها، ولكن لا يوجد أي مانع يحول دون جمع كلّ ما هو مقصود أعلاه.

وإحدى دلائل عظمة هذا الذبح، هو اتّساع نطاق هذه العملية سنة بعد سنة بمرور الزمن، وحالياً يذبح في كلّ عام أكثر من مليون أضحية تيمناً بذلك الذبح العظيم وإحياءً لذلك العمل العظيم.

«فديناه» مشتقّة من (الفداء) وتعني جعل الشيء مكان الشيء لدفع الضرر عنه، لذا يطلق على المال الذي يدفع لإطلاق سراح الأسير (الفدية) كما تطلق (الفدية) على الكفّارة التي يخرجها بعض المرضى بدلاً عن صيامهم.

وبشأن كيفية وصول الكبش العظيم إلى إبراهيم ﷺ، أعرب الكثير من المفسّرين عن إعتقادهم في أنّ جبرائيل أنزله، فيما قال البعض الآخر: إنّه هبط

---

(١) تفسير القرطبي، وتفسير روح البيان.

عليه من أطراف جبال (منى)، ومهما كان فإنّ وصوله إلى إبراهيم كان بأمر من الله.

النجاح الذي حقّقه إبراهيم عليه السلام في الإمتحان الصعب، لم يمدحه الله فقط ذلك اليوم، وإنّما جعله خالداً على مدى الأجيال ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

إذ غدا إبراهيم عليه السلام «أسوةً حسنة» لكلّ الأجيال، و«قدوةً» لكلّ الطاهرين، وأضحت أعماله سنّة في الحجّ، وستبقى خالدة حتى تقوم القيامة، إنّه أبو الأنبياء الكبار، وإنّه أبُ هذه الأمة الإسلامية ورسولها الأكرم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

ولما امتاز به إبراهيم عليه السلام من صفات حميدة، خصّه الباري عزَّ وجلَّ بالسلام ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

نعم، إنّا كذلك نجزي ونثيب المحسنين ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ جزاء يعادل عظمة الدنيا، جزاء خالد على مدى الزمان، جزاء يجعل من إبراهيم أهلاً لسلام الله عزَّ وجلَّ عليه.

وعبارة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تثير الإنتباه، إذ أنّها أتت قبل عدّة آيات، وتكرّرت ثانية هنا، فهناك حتماً علّة لهذا التكرار.

المرحلة الأولى ربّما كانت بسبب أنّ الله سبحانه وتعالى صادق على نجاح إبراهيم في الإمتحان الصعب، وأمضى نتيجة قبوله، وهذه بحدّ ذاتها أهمّ مكافأة يمنحها الله سبحانه وتعالى لإبراهيم، ثمّ تأتي قضيّة (الفدية بذبح عظيم) و(بقاء إسمه وسنّته خالدين على مدى التاريخ) و(إرسال الباري عزَّ وجلَّ سلامه وتحيّاته إلى إبراهيم) التي اعتبرت ثلاث نعم كبيرة منحها الله سبحانه وتعالى لعبده إبراهيم بعنوان أنّها مكافأة وجزاء المحسنين.

علامة قبول الصلاة في القرآن

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

التّفسير

إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر:

بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفة من قصص الأمم السابقة وأنبيائهم العظام وما عاملهم به قومهم من معاملة سيئة مذمومة، وبيان نهاية هؤلاء الظالمين الأليمة، يتوجه الخطاب ـ على سبيل تسلية الخاطر وتقوية الروحية، وإراءة الخط الكلّي أو الخطوط العامة ـ للنّبي ﷺ ويأمره بما ينبغي عليه أن يفعله.

فيبدأ أوّلاً بقوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾. أي اقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه وتطلبه من العلم والحكمة والنصح، ومعيار معرفة الحق من الباطل، وسبل تنوير القلب والروح، ومسير حركة كل طائفة، أو مجموعة واتجاهها!

اقرأ... وامض على نهجها في حياتك، اقرأها واستلهم منها... اقرأها ونوّر قلبك بتلاوتها.

وبعد بيان هذا الأمر الذي يحمل ـ في الحقيقة ـ طابعاً تعليمياً، يأتي الأمر الثّاني الذي هو محور أصيل للتربية فيقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.

ثمّ يبيّن فلسفة الصلاة الكبرى فيقول: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1].

---

(١) قال في الأمثل: بيّنا الفرق بين الفحشاء والمنكر في تفسير الأية (٩٠) من سورة النحل في عبارة موجزة، وقلنا: إنّه يمكن التفريق بينهما بأن الفحشاء هي إشارة للذنوب الكبيرة الخفية، وأمّا المنكر فهو الذنوب الكبيرة الظاهرة، أو أن الفحشاء هي الذنوب التي تنتج بغلبة القوى الشهوانية، والمنكر من أثر القوى الغضبية.

طبيعة الصلاة ـ حيث إنها تُذكّر بأقوى رادع للنفس، وهو الإعتقاد بالمبدأ والمعاد ـ فإنّها تردع عن الفحشاء والمنكر، فالإنسان الذي يقف للصلاة، ويكبّر، يرى الله أعلى من كل شيء وأسمى من كل شيء، ويتذكر نعمه فيحمده ويشكره، ويثني عليه وينعته بأنّه رحمان رحيم، ويذكر يوم الجزاء «يوم الدين» ويعترف بالعبودية له، ويطلب منه العون ويستهديه الصراط المستقيم، ويتعوذ به من طريق المغضوب عليهم، ويلتجيء إليه (مضمون سورة الحمد).

فلا شك أنّ قلب مثل هذا الإنسان وروحه سوف تدبّ فيها حركة نحو الحقّ، واندفاع نحو الطهارة، ونهوض نحو التقوى.

يركع لله . . . ويضع جبهته على الأرض ساجداً لحضرته، ويغرق في عظمته، وينسى أنانيته وذاتيّاته جميعاً.

ويشهد بوحدانيته وبرسالة النّبي ﷺ.

ويصلي ويسلم على نبيّه، ويرفع يديه متضرعاً بالدعاء ليجعله في زمرة عباده الصالحين.

جميع هذه الأمور تمنح وجوده موجاً من المعنوية، وتكون سداً منيعاً بوجه الذنوب.

ويتكرر هذا العمل عدة مرّات «ليل نهار» فحين ينهض صباحاً يقف بين يدي ربّه وخالقه ليناجيه . . .

وعند منتصف النهار وبينما هو غارق في حياته المادية يفاجأ بصوت تكبير المؤذن، فيقطع عمله ويسرع إلى حضرته، بل في آخر النهار بداية الليل أيضاً وقبل أن يدلف إلى فراش الدعاء والراحة، يدعوه ويطلب منه حاجته، ويجعل قلبه مركز أنواره.

وبغض النظر عن كل ما تقدم فإنّ الإنسان حين يتهيأ لمقدمات الصلاة، يطهّر بدنه ويبعد عنه مسائل الحرام والغصب، ويتجه إلى الحبيب، فكلّ هذه الأمور لها تأثير رادع لنوازع الفحشاء والمنكر.

غاية ما في الأمر أنّ كل صلاة ـ بحسب شروط الكمال وروح العبادة لها ـ أثر رادع ناه عن الفحشاء والمنكر، فتارة تنهي نهياً كليّاً وأُخرى جزئياً . . . ومحدوداً.

ولا يمكن لأحد أن يصلي ولا تدع الصلاة فيه أثراً حتى لو كانت الصلاة

صورية، وحتى لو كان ملوّثاً بالذنب! وبالطبع فإنّ مثل هذه الصلاة قليلة الفائدة ومثل هؤلاء الأفراد لو لم يصلّوا صلاةً كهذه لكانوا أسوأ ممّا هم عليه.

ولنوضّح أكثر فنقول: النهي عن الفحشاء والمنكر له سلسلة درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

وممّا بيّناه آنفاً يتّضح أن تخبط بعض المفسّرين في تفسير هذه الآية، وانتخاب تفسيرات غير مناسبة لا وجه له! وربّما فسّروها بتفسير غير مناسب، لأنّهم رأوا بعض الناس يصلون ويرتكبون الذنوب، ففسّروا الآية في معناها المطلق دون سلسلة المراتب، وأخذوا يشكّون ويترددون، فاختاروا طرقاً أخرى في تفسير الآية.

فمنها ما قاله بعضهم: من أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ما دام الإنسان مشغولاً بها. وهذا كلام عجيب، إذ لا تتميز الصلاة بهذا وحده، فكثير من الأعمال على هذه الشاكلة.

وقال بعضهم: إنّ أعمال الصلاة وأذكارها بمثابة عبارات وجمل، كل جملة تنهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر، فمثلاً كل من التكبير والتهليل والتسبيح... كلٌّ منها يقول للإنسان: لا تذنب ولكن هل أنّ هذا الإنسان يصغي لهذا النهي أم لا... فهذا أمر آخر.

ولكن من ذهب إلى هذا التّفسير، غفل عن هذه الحقيقة، وهي أنّ النهي هنا ليس نهياً تشريعياً فحسب، بل هو نهي تكويني، فظاهر الآية أنّ الصلاة لها أثر ناه، والتّفسير الأصيل هو ما قدمنا ذكره وبيانه آنفاً.

وبالطبع فلا مانع من القول أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر نهياً تكوينياً ونهياً تشريعياً أيضاً.

«أحاديث» ينبغي الإلتفات إليها:

١ ـ في حديث عن النّبي الأكرم محمّد ﷺ ورد أنّه قال: «من لم تنهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بُعداً»[1].

---

(١) مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث «والحديث الثّاني يشعر بالنهي التشريعي».

٢ ـ وفي حديث آخر عنه ﷺ أيضاً: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر»[١].

٣ ـ كما نقرأ في حديث ثالث عنه ﷺ: إنّ شاباً من الأنصار أدّى الصلاة معه، ولكنّه كان ملوثاً بالذنوب القبيحة، فأخبروا النّبي ﷺ فقال: «إن صلاته تنهاه يوماً»[٢].

٤ ـ هذا الأثر للصلاة له أهمية قصوى إلى درجة أنّنا نجده في الرّوايات الإسلامية معياراً لقبول الصلاة وعدمها، إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، لينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر؟! فبقدر ما منعته قبلت منه!»[٣].

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره من شأن الصلاة: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة أخرى في الصلاة، أي أن أثراً آخر من آثار الصلاة وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربّه، هذا الذكر هو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلي للنهي عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكر الله، وكونه أكبر لأنّه العلّة والأساس للصلاة!

وأساساً... فإنّ ذكر الله فيه حياة القلوب ودعتها، ولا شيء يبلغ مبلغه ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولا ريب أنّ روح العبادة بجميع أقسامها ـ صلاة كانت أم غيرها ـ هو ذكر الله، فأذكار الصلاة، وأفعالها ومقدماتها، جميعها في الواقع تحيي ذكر الله في قلب الإنسان!

وممّا يلفت النظر أن في الآية (١٤) من سورة طه إشارة إلى هذه الحكمة الأساسية من الصلاة، إذ نلاحظ فيها الخطاب لموسى قائلاً: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

إلاّ أنّ المفسّرين الكبار ذكروا للجملة المتقدمة تفسيرات أخرى، وقد ورد

(١) مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث «والحديث الثاني يشعر بالنهي التشريعي».
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

في الرّوايات الإسلامية إشارة أيضاً... من ضمنها: إنّ المراد من الجملة المتقدمة، أن ذكر الله لكم برحمته أكبر من ذكركم لله بطاعته[1].

ومنها: إنّ ذكر الله أكبر من الصلاة وأعلى، لأنّ روح كل عبادة «ذكر الله».

وهذه التّفاسير التي ورد بعضها في الرّوايات الإسلامية، ربّما كانت إشارة إلى بطون الآية، وإلّا فإنّ ظاهرها منسجم مع المعنى الأوّل، لأنه في أغلب الموارد التي يرد التعبير فيها بـ «ذكر الله» أو «أذكروا الله»... الخ، يقصد بها ذكر الناس لله!

والآية المذكورة آنفاً، يتداعى لها هذا المعنى، إلّا أنّ ذكر الله لعباده يمكن أن يكون نتيجة مباشرة لذكر العباد لله، وبهذا يرتفع التضاد بين المعنيين.

في حديث عن معاذ بن جبل أنّه قال: لا شيء من أعمال إبن آدم لنجاته من عذاب الله أكبر من ذكر الله، فسألوه: حتى الجهاد في سبيل الله؟! فقال: أجل، فالله يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والظاهر أنّ «معاذ بن جبل» سمع هذا الكلام من رسول الله ﷺ: لأنّه نفسه ينقل إنّه سأل رسول الله ﷺ: أيّ الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله».

وحين أنّ نيّات الناس، وميزان حضور القلب منهم في الصلاة وسائر العبادات، كل ذلك متفاوت جدّاً، فإنّ الآية تختتم بالقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

أي يعلم ما تصنعون من أعمال في الخفاء أو العلن، والنيّات التي في قلوبكم أو الكلمات التي تجري على ألسنتكم!

بحث

تأثير الصلاة في تربية الفرد والمجتمع:

بالرغم من أنّ فائدة الصلاة لا تخفى على أحد، لكن التدقيق في متون الروايات الإسلامية يدلنا على لطائف ودقائق أكثر في هذا المجال!

١ - إنّ روح الصلاة وأساسها وهدفها ومقدمتها ونتيجتها... وأخيراً حكمتها وفلسفتها[2]، هي ذكر الله، كما بيّنت في الآية على أنّها أكبر النتائج.

---

(١) على ضوء هذا التّفسير يكون لفظ الجلالة «الله» فاعلاً في المعنى، وعلى التّفسير السابق يكون مفعولاً.

(٢) «الفلسفة» كلمة يونانية معناها «الحكمة» فهي ليست عربية لكنّها شاعت في العربية أيضاً.

وبالطبع فإنّ الذكر المراد هنا، هو الذكر الذي يكون مقدمة للفكر، والفكر الذي يكون باعثاً على العمل، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير جملة ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. قال: «ذكر الله عندما أحلّ وحرّم» أي على أن يتذكر الله فيتبع الحلال ويغضي أجفانه عن الحرام[1].

٢ ـ إنّ الصلاة وسيلة لغسل الذنوب والتطهر منها، وذريعة إلى مغفرة الله، لأنّ الصلاة ـ كيف ما كانت ـ تدعو الإنسان إلى التوبة وإصلاح الماضي، ولذلك فإنّنا نقرأ في حديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله إذ سأل بعض أصحابه: «لو كان على باب دار أحدكم نهر واغتسل في كل يوم منه خمس مرات أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟! قلت لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري كلما صلّى كَفَّرتْ ما بينهما من الذنوب»[2].

وعلى هذا فإنّ الجراح التي تخلفها الذنوب في روح الإنسان، وتكون غشاوة على قلبه، تلتئم بضماد الصلاة وينجلي بها صدأ القلوب!

٣ ـ إنّ الصلوات سدّ أمام الذنوب المقبلة، لأنّ الصلاة تقوي روح الإيمان في الإنسان، وتربّي شجيرة التقوى في قلب الإنسان، ونحن نعرف أن الإيمان والتقوى هما أقوى سدّ أمام الذنوب، وهذا ما بيّنته الآية المتقدمة عنوان «النهي عن الفحشاء والمنكر»، وما نقرأه في أحاديث متعددة من أن أفراداً كانوا مذنبين، فذكر حالهم لأئمة الإسلام فقالوا: لا تكترثوا فإنّ الصلاة تصلح شأنهم... وقد أصلحتهم.

٤ ـ إنّ الصلاة توقظ الإنسان من الغفلة، وأعظم مصيبة على السائرين في طريق الحقّ أن ينسوا الهدف من إيجادهم وخلقهم، ويغرقوا في الحياة المادية ولذائذها العابرة!

إلّا أنّ الصلاة بما أنّها تؤدّى في أوقات مختلفة، وفي كل يوم وليلة خمس مرات، فإنّها تخطر الإنسان وتنذره، وتبيّن له الهدف من خلقه، وتنبهه إلى مكانته وموقعه في العالم بشكل رتيب، وهذه نعمة كبرى للإنسان بحيث إنّها في كل يوم وليلة تحثه وتقول له: كن يقظاً.

---

(١) بحار الأنوار، ج٨٢، ص٢٠٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج٣، ص٧ (الباب الثاني من أبواب أعداد الفرائض الحديث ٣).

٥ ـ إنّ الصلاة تحطّم الأنانية والكبر، لأنّ الإنسان في كل يوم وليلة يصلي سبع عشرة ركعة، وفي كل ركعة يضع جبهته على التراب تواضعاً لله، ويرى نفسه ذرة صغيرة أمام عظمة الخالق، بل يرى نفسه صفراً بالنسبة إلى ما لا نهاية له!

ولأمير المؤمنين عليّ ﷺ كلام معروف تتجسد فيه، فلسفة العبادات الإسلامية بعد الإيمان بالله، فبيّن أوّل العبادات وهي الصلاة مقرونة بهذا الهدف إذ قال: «فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر»[١].

٦ ـ الصلاة وسيلة لتربية الفضائل الخُلقية والتكامل المعنوي للإنسان، لأنّها تُخرج الإنسان عن العالم المحدود وتدعوه إلى ملكوت السماوات، وتجعله مشاركاً للملائكة بصوته ودعائه وابتهاله، فيرى نفسه غير محتاج إلى واسطة إلى الله أو أن هناك «حاجباً» يمنعه... فيتحدث مع ربّه ويناجيه!

إنّ تكرار هذا العمل في اليوم والليلة ـ بالإعتماد على صفات الله الرحمن الرحيم العظيم، خاصة بالإستعانة بسور القرآن المختلفة بعد سورة الحمد التي هي خير محفّز للصالحات، والطهارة ـ له الأثر في تربية الفضائل الخُلقية في وجود الإنسان!

لذلك نقرأ في تعبير الإمام عليّ أمير المؤمنين ﷺ عن حكمتها قوله: «الصلاة قربان كلّ تقيّ»[٢].

٧ ـ إنّ الصلاة تعطي القيمة والروح لسائر أعمال الإنسان؛ لأنّ الصلاة توقظ في الإنسان روح الإخلاص... فهي مجموعة من النية الخالصة والكلام الطاهر «الطيب» والأعمال الخالصة... وتكرار هذه المجموعة في اليوم والليلة ينثر في روح الإنسان بذور سائر الأعمال الصالحة ويقوّي فيه روح الإخلاص.

لذلك فإنّنا نقرأ في بعض ما روي عن أمير المؤمنين ﷺ في ضمن وصاياه المعروفة بعد أن ضربه ابن ملجم بالسيف ففلق هامته، أنّه قال: «الله الله في صلاتكم فإنّها عمود دينكم»[٣].

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٥٢.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٣٦.
(٣) نهج البلاغة، ومن كتاب له «وصية له» ٤٧.

ونعرف أنّ عمود الخيمة إذا انكسر أو هوى، فلا أثر للأوتاد والطنب مهما كانت محكمة... فكذلك ارتباط عباد الله به عن طريق الصلاة، فلو ذهبت لم يبق لأي عمل آخر أثر.

ونقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قُبلت قبل سائر عمله، وإن رُدّت رُدّ سائر عمله»!

ولعل الدليل على هذا الحديث هو أنّ الصلاة رمزٌ للعلاقة والإرتباط بين الخالق والمخلوق! فإذا ما أُدّيت بشكل صحيح، وكان فيها قصد القربة والإخلاص «حيّاً» كان وسيلة القبول لسائر الأعمال، وإلّا فإنّ بقية أعماله تكون مشوبة وملوّثة وساقطةً من درجة الإعتبار.

٨ ـ إنّ الصلاة ـ بقطع النظر ـ عن محتواها، ومع الإلتفات إلى شرائط صحتها، فإنّها تدعو إلى تطهير الحياة! لأنّنا نعلم أن مكان المصلي، ولباس المصلي، وبساطه الذي يصلي عليه، والماء الذي يتوضأ به أو يغتسل منه، والمكان الذي نتطهر فيه «وضوءاً أو غسلاً» ينبغي أن يكون طاهراً من كل أنواع الغصب والتجاوز على حقوق الآخرين، فإنّ من كان ملوّثاً بالظلم والغصب والبغض في الميزان والبيع وآكلاً للرشوة ويكتسب أمواله من الحرام... كيف يمكن له أن يهيّىء مقدمات الصلاة؟! فعلى هذا فإنّ تكرار الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة ـ هو نفسه دعوة إلى رعاية حقوق الآخرين!

٩ ـ إنّ للصلاة ـ بالإضافة إلى شرائط صحتها ـ شرائط لقبولها، أو بتعبير آخر: شرائط لكمالها، ورعايتها ـ أيضاً ـ عامل مؤثر ومهم لترك كثير من الذنوب!

وقد ورد في كتب الفقه ومصادر الحديث روايات كثيرة تحت عنوان موانع قبول الصلاة، ومنها «شرب الخمر» إذا جاء في بعض الرّوايات: لا تُقبل صلاة شارب الخمر أربعين يوماً إلّا أن يتوب[١].

كما نقرأ في روايات متعددة أنّ من جملة «من لا تُقبل صلاته» «الإمام الظالم»[٢].

---

(١) بحار الأنوار، ج٨٤، ص٣١٧ و٣٢٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٨٤، ص٣١٨.

كما صُرّح في بعض الرّوايات بأنّ الصلاة لا تُقبل من «مانع الزكاة».

كما أنّ هناك بعض الرّوايات تقول: «إنّ الصلاة لا تُقبل ممن يأكل السحت والحرام، ولا ممن يأخذه العجب والغرور» وهكذا تتضح الحكمة والفائدة الكبيرة من وجود هذه الشروط.

١٠ ـ إنّ الصلاة تقوي في الإنسان روح الإنضباط والإلتزام، لأنّها ينبغي أن تؤدى في أوقات معينة، لأنّ تأخيرها عن وقتها أو تقديمها عليه موجب لبطلانها.

وكذلك الآداب والأحكام الأُخرى في موارد النية والقيام والركوع والسجود وما شابهها، إذ أن رعايتها تجعل الإستجابة للإلتزام في مناهج الحياة ممكناً وسهلاً.

كل هذه من فوائد الصلاة ـ بغض النظر عن صلاة الجماعة ـ وإذا أضفنا إليها خصوصية الجماعة، حيث إنّ روح الصلاة هي الجماعة، ففيها بركات لا تحصى ولا تعدّ ولامجال هنا لشرحها وبيانها، مضافاً إلى أن الجميع يدرك خيراتها وفوائدها على الإجمال.

ونختتم كلامنا في مجال حكمة الصلاة وفلسفتها وأسرارها بحديث جامع منقول عن الإمام الرضا عليه السلام إذ سئل عنها فأجاب بما يلي: «إنّ علّة الصلاة أنّها إقرار بالربوبية لله عزَّ وجلَّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يدي الجبار جلَّ جلاله بالذل والمسكنة والخضوع والإعتراف، والطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كل يوم إعظاماً لله عزَّ وجلَّ، وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطر، ويكون خاشعاً متذللاً، راغباً طالباً للزيادة في الدين والدنيا مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله عزَّ وجلَّ بالليل والنهار، لئلا ينسى العبد سيده ومدبِّره وخالقه فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصي ومانعاً له عن أنواع الفساد»[1].

---

(١) وسائل الشيعة، ج٣، ص٤.

استحباب الدعاء في القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

سأل رجل رسول الله ﷺ عن الله سبحانه: أهو قريب ليناجيه بصوت خفي، أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت الآية (٣) بعد أن ذكرت الآيات السابقة مجموعة هامّة من الأحكام الإسلامية تناولت هذه الآية موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الإرتباط بين العباد والمعبود سبحانه. ومجيء هذه الآية في سياق الحديث عن الصوم، يعطيه مفهوماً جديداً، إذ أنّ الدعاء والتقرب إلى الله روح كل عبادة.

هذه الآية تخاطب النبي ﷺ وتقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾.

إنّه أقرب ممّا تتصورون، أقرب منكم إليكم، بل ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

ثم تقول الآية: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

إذاً ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

ويلفت النظر في الآية، أنّ الله سبحانه أشار إلى ذاته المقدسة سبع مرات، وأشار إلى عباده سبعاً! مجسداً بذلك غاية لطفه وقربه وارتباطه بعباده.

روى عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الدُّعاء يَرُدُّ القضاء بعد ما أُبرِمَ إبراماً فأكْثِرْ من الدُّعاء فإنّه مفتاح كل رحمة ونجاح كل حاجة ولا يُنالُ ما عند الله عزَّ وجلَّ إلّا بالدُّعاء وإنّه ليس بابٌ يُكثَرُ قَرْعُهُ إلّا يوشك أن يُفْتحَ لصاحبه»[1].

(١) أصول الكافي، ج٢، كتاب الدعاء (باب إنّ الدعاء يرد البلاء)، الحديث ٧.

نعم، إنه قريب منّا، وكيف يبتعد وهو سبحانه ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

بحوث:

١ ـ فلسفة الدعاء:

أولئك الجاهلون بحقيقة الدعاء وآثاره التربويّة والنفسية، يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

يقولون: الدعاء عامل مخدّر، لأنّه يصرف النّاس عن الفعّالية والنشاط وعن تطوير الحياة، ويدفعهم بدلاً من ذلك إلى التوسّل بعوامل غيبية.

ويقولون: إنّ الدعاء تدخّل في شؤون الله، والله يفعل ما يريد، وفعله ينسجم مع مصالحنا، فما الداعي إلى الطلب منه والتضرّع إليه؟!

ويقولون أيضاً: إنّ الدعاء يتعارض مع حالة الإنسان الراضي بقضاء الله المستسلم لإرادته سبحانه!

هؤلاء ـ كما ذكرنا ـ يطلقون هذا التشكيك لجهلهم بالآثار التربوية والنفسية والإجتماعية للدعاء، فالإنسان بحاجة أحياناً إلى الملجأ الذي يلوذ به في الشدائد، والدعاء يضيء نور الأمل في نفس الإنسان.

من يبتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفة نفسية وإجتماعية، وعلى حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين: «ابتعاد الأمة عن الدعاء يعني سقوط تلك الأمة! المجتمع الذي قمع في نفسه روح الحاجة إلى الدعاء سوف لا يبقى مصوناً عادة من الفساد والزوال.

ومن نافلة القول أنّه من العبث الإكتفاء بالدعاء لدى الصباح وقضاء بقية اليوم كالوحش الكاسر، لا بُدّ من مواصلة الدعاء، ومن اليقظة المستمرة، كي لا يزول أثره العميق في نفس الإنسان»[1].

وأولئك الذين يصفون الدعاء بأنه تخديري لم يفهموا معنى الدعاء، لأنّ

---

(١) الدعاء الطيب وعالم النفس الشهير (ألكسيس كاريل».

الدعاء لا يعني ترك العلل والوسائل الطبيعية واللجوء بدلها إلى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهاية جهدنا للإستفادة من كل الوسائل الموجودة، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، وأعيتنا الوسيلة، نلجأ إلى الدعاء، وبهذا اللجوء إلى الله يحيي في أنفسنا روح الأمل والحركة، ونستمد من عون المبدأ الكبير سبحانه.

الدعاء إذاً لا يحل محل العوامل الطبيعية.

«الدعاء ـ إضافةً إلى قدرته في بث الطمأنينة في النفس ـ يؤدي إلى نوع من النشاط الدماغي في الإنسان، وإلى نوع من الإنشراح والإنبساط الباطني وأحياناً إلى تصعيد روح البطولة والشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة... صفاء النظرة، وقوة الشخصية، والإنشراح والسرور، والثقة بالنفس، والإستعداد للهداية، واستقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكنز عظيم دفين في نفوسنا. وانطلاقاً من هذه القوّة يستطيع حتى الأفراد المتخلفون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية والأخلاقيّة بشكل أفضل، وأكثر. لكن الأفراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جدّاً ـ مع الأسف ـ في عالمنا اليوم»[1].

ممّا تقدم نفهم الرد على من يقول أن الدعاء يخالف روح الرضا والتسليم، لأن الدعاء ـ كما ذكرنا ـ نوع من كسب القابلية على تحصيل سهم أكبر من فيض الله اللامتناهي.

بعبارة أخرى: الإنسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول على فيض الباري تعالى. وواضح أن السعي للتكامل ولكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة، لا عكس ذلك.

أضف إلى ذلك، الدعاء نوع من العبادة والخضوع والطاعة، والإنسان ـ عن طريق الدعاء ـ يزداد ارتباطاً بالله تعالى، وكما أنّ كلّ العبادات ذات أثر تربوي كذلك الدعاء له مثل هذا الأثر.

---

(١) الدعاء لألِكســس كاريل.

والقائلون أن الدعاء تدخُّل في أمر الله وأن الله يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الإلهية تغدق على الإنسان حسب استعداده وكفاءته ولياقته، وكلّما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

لذلك يقول الإمام الصادق ﷺ: «إنَّ عند الله عزَّ وجلَّ منزلةً لا تُنالُ إلّا بمسألة»(١).

ويقول أحد العلماء: «حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها»(٢).

ويقول: «إنّ أحدث العلوم الإنسانية ـ أعني علم النفس ـ يعلّمنا نفس تعاليم الأنبياء، لماذا؟ لأن الأطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء والصلاة والإيمان القوي بالدين يزيل عوامل القلق والإضطراب والخوف والهيجان الباعثة على أكثر أمراضنا»(٣).

٢ ـ المفهوم الحقيقي للدعاء:

علمنا أنّ الدعاء إنّما يكون فيما خرج عن دائرة قدرتنا، بعبارة أُخرى الدعاء المُستجاب هو ما صدر لدى الإضطرار وبعد بذل كل الجهود والطاقات ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]. يتضح من ذلك أن مفهوم الدعاء طلب تهيئة الأسباب والعوامل الخارجة عن دائرة قدرة الإنسان، وهذا الطلب يتجه به الإنسان إلى من قدرته لا متناهية ومن يهون عليه كل أمر.

هذا الطلب طبعاً يجب أن لا يصدر عن لسان الإنسان فقط، بل من جميع وجوده، واللسان ترجمان جميع ذرات وجود الإنسان وأعضائه وجوارحه.

يرتبط القلب والروح بالله عن طريق الدعاء إرتباطاً وثيقاً، ويكتسبان القدرة عن طريق اتصالهما المعنوي بالمبدأ الكبير، كما تتصل القطرة من الماء بالبحر الواسع العظيم.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٣٨، باب فضل الدعاء والحث عليه، حديث ٣.

(٢) آئين زندگي (فارسي)، ص١٥٦.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٢.

جدير بالذكر أن هناك نوعاً آخر من الدعاء يردّده المؤمن حتى فيما اقتدر عليه من الأمور، ليعبّر به عن عدم استقلال قدرته عن قدرة الباري تعالى، وليؤكد أن العلل والعوامل الطبيعية إنّما هي منه سبحانه، وتحت إمرته، فإن بحثنا عن الدواء لشفاء دائنا فإنّما نبحث عنه لأنّه سبحان أودع في الدواء خاصية الشفاء (هذا نوع آخر من الدعاء أشارت إليه الروايات الإسلامية أيضاً).

بعبارة موجزة: الدعاء نوع من التوعية وإيقاظ القلب والعقل، وارتباط داخلي بمبدأ كل لطف وإحسان، لذلك نرى أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «لا يقبلُ الله عزَّ وجلَّ دُعاء قلب لَاه»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله عزَّ وجلَّ لا يستجيب دُعاء بظهر قلب ساه»[2].

٣ ـ شروط استجابة الدعاء:

دراسة شروط استجابة الدعاء توضّح لنا كثيراً من الحقائق الغامضة في مسألة الدعاء، وتبين لنا آثاره والروايات الإسلامية تذكر شروطاً لاستجابة الدعاء منها:

١ ـ ينبغي لمن يدعو أن يسعى أولاً لتطهير قلبه وروحه، وأن يتوب من الذنب، وأن يقتدي بحياة قادة البشرية الإلهيين.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إياكم أن يسأل أحدكم ربَّهُ شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة حتى يبدأ بالثناء على الله، والمِدْحةِ لهُ والصلاة على النبي وآله، والإعتراف بالذنب، ثم المسألة»[3].

٢ ـ أن يسعى الداعي إلى تطهير أمواله من كل غصب وظلم، وأن لا يكون طعامه من حرام. عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أحب أن يُستجاب دعاءه فَلْيَطِبْ مطعمه ومكسبه»[4].

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٤٢، باب الإقبال على الدعاء، الحديث١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) سفينة البحار، ج١، ص٤٤٨ و٤٤٩.
(٤) المصدر نفسه.

٣ ـ أن لا يفترق الدعاء عن الجهاد المستمرّ ضدّ كل ألوان الفساد، لأنّ الله لا يستجيب ممن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن النّبي ﷺ: «لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهُنَّ عن المنكر، أو ليُسلطنَّ الله شراركم على خياركم فيدعوا خياركم فلا يُستجاب لهم»[1].

ترك هذه الفريضة الإلهية (فريضة المراقبة الإجتماعية) يؤدي إلى خلوّ الساحة الإجتماعية من الصالحين، وتركها للمفسدين، وعند ذاك لا أثر للدعاء، لأن هذا الوضع الفاسد نتيجة حتمية لأعمال الإنسان نفسه.

٤ ـ العمل بالمواثيق الإلهية، الإيمان والعمل الصالح والأمانة والصلاح من شروط استجابة الدعاء، فمن لم يف بعهده أمام بارئه لا ينبغي أن يتوقع من الله استجابة دعائه.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليّ ؑ، وشكا له عدم استجابة دعائه، فقال الإمام: «إنَّ قلوبكم خانت بثمان خصال:

أولها: إنّكم عرفتُمُ الله فلم تُؤدُّوا حقَّه كما أوجب عليكم، فما أغنت عنكم معرفتكم شيئاً.

والثانية: إنَّكم آمنتم برسوله ثم خالفتم سُنَّته، وأمَتُّم شريعتهُ فأين ثمرةُ إيمانكم؟!

والثالثة: إنَّكم قرأتُم كتابه المُنْزَل عليكم فلم تعملوا به، وقلتم سمعنا وأطعنا ثمَّ خالفتم!

والرابعة: إنّكم قلتم تخافون من النّار، وأنتم في كل وقت تقدمون إليها بمعاصيكم فأين خوفكم؟!

والخامسة: إنّكم قلتم ترغبون في الجنّة، وأنتم في كلّ وقت تفعلون ما يُباعدكم منها فأين رغبتكم فيها؟

والسادسة: إنّكم أكلتم نعمة المولى فلم تشكروا عليها!

والسابعة: إنّ الله أمركم بعداوة الشيطان، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فعاديتموه بلا قول، وواليتموه بلا مخالفة.

---

(١) سفينة البحار، ج١، ص٤٤٨ و٤٤٩.

والثامنة: إنّكم جعلتم عيوب الناس نصب أعينكم وعيوبكم وراء ظهوركم تلومون من أنتم أحقّ باللوم منه فأيّ دعاء يُستجاب لكم مع هذا، وقد سددتم أبوابه وطُرُقه؟ فاتّقوا الله وأصلحوا أعمالكم وأخلصوا سرائركم وأْمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فيستجيب الله لكم دعاءكم».

هذا الحديث يقول بصراحة: إن وعد الله باستجابة الدعاء وعد مشروط لا مطلق. مشروط بتنفيذ المواثيق الإلهية، وإن عمل الإنسان بهذه المواثيق الثمانية المذكورة فله أن يتوقع استجابة الدعاء، وإلّا فلا.

العمل بالأمور الثمانية المذكورة باعتبارها شروطاً لاستجابة الدعاء كاف لتربية الإنسان ولاستثمار طاقاته على طريق مثمر بنّاء.

٥ ـ من الشروط الأخرى لاستجابة الدعاء والعمل والسعي، عن عليّ عليه السلام: «الداعي بلا عمل كالرّامي بلا وتر».

الوتر بحركته يدفع السهم نحو الهدف، وهكذا دور العمل في الدعاء.

من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أن الدعاء لا يغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعية، بل أكثر من ذلك يدفعنا إلى توفير شروط استجابة الدعاء في أنفسنا، ويحدث بذلك تغييراً كبيراً في حياة الإنسان وتجديداً لمسيرته، وإصلاحاً لنواقصه.

أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامي أنه مخدّر؟!

حقيقة التوسُّل إلى الله في القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال في الأمثل: تُوجِّه هذه الآية الخطاب إلى الأفراد المؤمنين، تتضمَّن تكاليف ثلاثة يُؤدي الإلتزام بها وتطبيقها إلى نيل الفلاح وهذه التكاليف هي:

١ ـ إتّباع الحيطة والتقوى، كما تقول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ..﴾.

٢ ـ إختيار وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، حيث تقول الآية: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ...﴾.

٣ ـ الجهاد في سبيل الله، إذ تقول الآية: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ...﴾.

وستكون نتيجة الإلتزام بهذه التكاليف الإلهية وتطبيقها نيل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام والإيمان فتقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

إنّ أهم موضوع سنتناوله بالبحث في هذه الآية، هو الدعوة المُوجَّهة للإنسان المؤمن لاختيار طريقة تؤدي إلى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

فكلمة «الوسيلة» في الأصل بمعنى نشدان التقرب أو طلب الشيء الذي يؤدي إلى التقرب للغير عن ميل ورغبة، وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة «الوسيلة» الواردة في هذه الآية لها معان كثيرة واسعة، فهي تشمل كل عمل أو شيء يؤدي إلى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وأهم الوسائل في هذا المجال هي الإيمان بالله وبنبيّه ﷺ والجهاد في سبيل الله، والعبادات كالصّلاة والزكاة والصوم، والحج إلى بيت الله الحرام وصلة الرحم والإنفاق في سبيل الله سرّاً وعلانية، وكذلك الأعمال الصالحة ـ كما يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له وردت في «نهج البلاغة» منها: «إنّ افضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به

وبرسوله والجهاد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقامة الصّلاة فإنّها الملّة[1]، وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّةٌ من العقاب، وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر، ويرحضان[2] الذنب، وصلة الرحم فإنّها مثراة[3] في المال ومنساة[4] في الأجل وصدقة السرّ فإنّها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعرف فإنّها تقي مصارع الهوان...»[5].

كما أن شفاعة الأنبياء والأئمة والأولياء الصالحين تقرّب ـ أيضاً ـ إلى الله وفق ما نصَّ عليه القرآن الكريم، وهي داخلة في المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة» ـ وكذلك اتّباع النّبي والإمام والسير على نهجهما، كل ذلك يوجب التقرب إلى الساحة الإلهية المقدسة. وحتى عندما نُقْسِمُ على الله بمقام الأنبياء والأئمّة والصالحين فإنّه يدلّ على حبّنا لهم والإهتمام بالدّين الذي دعوا إليه، هذا القَسَمُ يعتبر ـ أيضاً ـ واحداً من المعاني الداخلة في المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة».

والذين خصصوا هذه الآية وقيدوها ببعض هذه المفاهيم لا يمتلكون في الحقيقة أي دليل على هذا التخصيص، لأنّ كلمة «الوسيلة» تُطلق في اللغة على كل شيء يؤدي إلى التقرب.

والجدير بالذكر هنا هو أنّ المراد من التوسل لا يعني ـ أبداً ـ طلب شيء من شخص النّبي أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن ـ عن طريق الأعمال الصالحة والسير على نهج النّبي والإمام ـ بطلب الشفاعة منهم إلى الله، أو أن يُقْسِمُ بجاههم وبدينهم (وهذا يعتبر نوعاً من الاحترام لمنزلتهم وهو نوع من العبادة) ويطلب من الله بذلك حاجته، وليس في هذا المعنى أيّ أثر للشرك، كما لا يخالف الآيات القرآنية الأُخرى، ولا يخرج عن عموم الآية الأخيرة موضوع البحث «فتدبّر».

---

(١) الملة: شريعة الإسلام.
(٢) يرحضان: يطهران أو يغسلان.
(٣) مثراة: مكثرة.
(٤) منساة: مطيلة.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١١٠.

التوسل في القرآن:

هناك آيات قرآنية أخرى تدل بوضوح على أنّ التوسل بمقام إنسان صالح عند الله، وطلب شيء من الله عن طريق التوسل بجاه هذا الإنسان عند الله، لا يعتبر امرأً محظوراً ولا ينافي التوحيد.

فنحن نقرأ في الآية (٦٤) من سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾. كما نقرأ في الآية (٩٧) من سورة يوسف، إنّ أخوة يوسف طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم الله، فقبل يعقوب هذا الطلب ونفذه.

والآية (١١٤) من سورة التوبة تشير إلى موضوع استغفار إبراهيم لأبيه، وهذا دليل على تأثير دعاء الأنبياء في حق الآخرين.

وقد ورد هذا الموضوع في آيات قرآنية أخرى ايضاً.

التّوسل في الرّوايات الإسلامية:

إنّ الرّوايات العديدة التي وردت عن طرق الشيعة والسُنة تفيد بوضوح أنّ التوسل بالمعنى الذي عرضناه لا ريب ولا شبهة فيه، بل إنّه يعد عملاً جيداً أيضاً، وهذه الرّوايات كثيرة وقد نقلتها كتب عديدة، ونحن نورد بعضاً منها مما ورد في مصادر جمهور السُنّة على سبيل المثال لا الحصر.

١ ـ جاء في كتاب «وفاء الوفا» لمؤلّفه العالم السنّي المشهور «السمهودي» إن طلب العون والشفاعة من النّبي ﷺ أو التوسل إلى الله بجاه النّبي وشخصه جائز قبل أن يولد ﷺ وبعد ولادته ووفاته وفي عالم البرزخ وفي يوم القيامة، ثمّ ينقل «السمهودي» في هذا المجال عن عمر بن الخطاب الرواية المعروفة التي تتحدث عن توسل آدم عليه السلام إلى الله بنبي الإسلام محمّد ﷺ وذلك لعلم آدم بأنّ هذا النّبي سيأتي إلى الوجود في المستقبل، ولعلمه بالمنزلة العظيمة التي يحظى بها عند الله، فيقول آدم: «ربّ إنّي أسألك بحق محمّد لما غفرت لي»[1].

---

(١) وفاء الوفاء، ج٣، ص١٣٧، في كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» نقل الحديث المذكور أعلاه كواحد من دلائل النبوة، ص٢١٥.

ثمّ ينقل «السمهودي» حديثاً آخر عن جماعة من رواة الحديث كالنسائي والترمذي، وهما عالمان مشهوران من أهل السنّة، كدليل على جواز التوسل بالنّبي ﷺ في حياته وخلاصة هذا الحديث إنّ رجلاً بصيراً طلب من النّبي أن يدعو له شفاء مريضه، فأمره النّبي ﷺ بتلاوة هذا الدعاء: «اللّهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرّحمة يا محمّد إنّي توجهت بك إلى ربّي في حاجتي لتقضي لي، اللّهم شفعه فيّ»[1].

وبعد هذا الحديث ينقل «السمهودي» حديثاً ثالثاً في جواز التوسل بالنّبي ﷺ بعد وفاته، فيذكر أن صاحب حاجة جاء في زمن عثمان إلى قبر النّبي ﷺ، فجلس بجوار القبر ودعا الله بهذا الدعاء: «اللّهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّنا محمّد ﷺ نبيّ الرحمة، يا محمّد إنّي أتوجه بك إلى ربّك أن تقضي حاجتي».

ثمّ يضيف «السمهودي» إنّه لم تمض فترة حتى قضيت حاجة الرجل[2].

٢ ـ أمّا صاحب كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» الذي يعارض بشدة موضوع التوسل فهو ينقل (٢٦) حديثاً من كتب ومصادر مختلفة ينعكس منها جواز التوسل، ومع أنّه سعى في أن يطعن بأسناد تلك الأحاديث، إلّا أنّ الواضح هو أنّه متى ما كانت الرّوايات كثيرة ـ في موضوع معين لدرجة التواتر ـ لا يبقى عند ذلك مجال للطعن، والتجريح في سند الحديث، والرّوايات التي وردت في المصادر الإسلامية بشأن التوسل قد تجاوزت حدّ التواتر لكثرتها.

ومن هذه الأحاديث التي رواها صاحب الكتاب المذكور، الحديث التالي: نقل: «ابن حجر المكي» صاحب كتاب «الصواعق» عن الإمام «الشافعي»، وهو أحد أئمّة السنّة الأربعة المشهورين، أنّه كان يتوسل إلى أهل بيت النّبي ويقول:

آل النّبي ذريعتي ... وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً ... بيد اليمين صحيفتي[3]

وينقل صاحب كتاب «التوصل...» أيضاً عن (البيهقي) أن الجفاف أصاب

(١) كتاب (وفاء الوفاء)، ص١٣٧٢.
(٢) وفاء الوفاء، ص١٣٧٣.
(٣) كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل»، ص٣٢٩.

المسلمين في أحد الأعوام من عهد الخليفة الثاني، فذهب بلال ومعه عدد من الصحابة إلى قبر النّبي ﷺ وقال: «يا رسول الله استسق لأمتك.... فإنّهم قد هلكوا...»[١].

ونقل أيضاً عن «ابن حجر» من كتاب «الخيارات الحسان» أنّ الإمام الشافعي كان أثناء وجوده في بغداد يزور أبا حنيفة ويتوسل إليه في حوائجه[٢].

ومن صحيح «الدارمي» ينقل صاحب كتاب «التوصل...» أيضاً، أن بعض الصحابة في المدينة اشتكوا إلى عائشة ما يعانونه من الجفاف الشديد الذي أصاب البلدة في أحد الأعوام، فأشارت عليهم أن يفتحوا فجوة في سقف المسجد على قبر النّبي ﷺ حتى ينزل المطر ببركة قبر النّبي ﷺ ففعلوا ذلك ونزل مطر غزير!

ونقل «الآلوسي» في تفسيره الكثير من الأحاديث والرّوايات الشبيهة بالأحاديث المارة الذكر، ولكنّه بعد إجراء تحليل ونقاش طويل حولها حتى أنّه تشدد في نقدها اضطر إلى الإذعان بها، فذكر أنّه بعد البحث الذي أجراه لا يرى مانعاً من التوسل إلى الله بمقام النّبي ﷺ سواء في حياته أو بعد وفاته، ثمّ أطال البحث في هذا المجال، وقال بأنّ التوسل إلى الله بمقام النّبي لا مانع فيه ـ أيضاً ـ شريطة أن يكون المتوسَّل به صاحب منزلة عند الله[٣].

أما مصادر الشيعة فقد تناولت هذا الموضوع بشكل واضح، لا ترى معه أي حاجة إلى نقل الأحاديث الواردة بهذا الصدد.

ملاحظات ضرورية:

نرى من الضروري ـ هنا ـ الإشارة الى عدّة أمور:

١ ـ لقد أسلفنا القول بأنّ التوسل ليس معناه طلب الحاجة من النّبي أو الإمام، بل المراد منه جعل النّبي أو الإمام شفيعاً إلى الله في قضاء الحاجة،

---

(١) كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل»، ص٢٥٣.
(٢) كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل»، ص٣٣١.
(٣) روح المعاني، ص١١٤ ـ ١١٥.

وهذا الأمر ـ في الحقيقة ـ توجه إلى الله، لأنّ احترام النّبي ﷺ إنّما هو من أجل أنّه رسول الله والسائر على هداه، العجب هنا أن يدعي البعض أن هذا التوسل نوع من الشرك، في حين أنّ المعروف عن الشرك هو القول بوجود من يشارك الله سبحانه في صفاته وأعماله، والتوسل الذي تحدثنا عنه لا صلة له مطلقاً ولا تشابه مع الشرك.

٢ ـ يصرّ البعض في وجود الفرق بين حياة النّبي ﷺ والأئمّة المعصومين ﷺ وبين وفاتهم، وكما رأيت فإنّ الكثير من الأحاديث السالفة كان يخص ما بعد وفاة النّبي ﷺ، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الفرد المسلم يعتقد بأنّ للنّبي والصالحين بعد وفاتهم حياة برزخية أوسع من الحياة الدنيا، وقد صرّح القرآن في هذا المجال بخصوص حياة الشهداء، حيث أكّد أنّهم ليسوا أمواتاً ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

٣ ـ وأصرّ آخرون على أنّ هناك فرقاً بين طلب الدعاء من النّبي ﷺ وبين القسم على الله بجاه النّبي، فهؤلاء يجيزون طلب الدعاء ولا يجيزون ما سواه، في حين لا يوجد بين هذين الأمرين أي فرق منطقي.

٤ ـ لقد بيّنا أنّ أحاديث التوسل قد وصلت بكثرتها إلى حد التواتر، أي أنّها لوفرتها تغني الباحث عن التحقيق في أسانيدها إضافةً إلى ذلك فإنّ من بين هذه الأحاديث الكثير من الرّوايات والأحاديث الصحيحة فلا يبقى بذلك لمن يريد الإعتراض على بعض الأسانيد أي مجال.

٥ ـ ويتبيّن مما قلناه سابقاً أن لا تناقض بين الرّوايات التي وردت في تفسير الآية الأخيرة تلك التي تقول بأنّ النّبي دعا الناس إلى أن يطلبوا له الوسيلة من الله، أو ما جاء عن الإمام عليّ ﷺ في كتاب «الكافي» من أنه قال: بأنّ «الوسيلة» هي أرفع وأسمى منزلة في الجنة فلا يتنافى ما ذكرناه نحن في تفسير الآية لأن الوسيلة تشمل كل أنواع التقرب إلى الله، وإن تقرب النّبي ﷺ إلى الله، وكذلك ما قيل عن أرفع منزلة في الجنة هما من مصاديق الوسيلة.

الإمتحان الإلهي في القرآن

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

سبب النزول

طبقاً لما نقل بعض المفسّرين، أنّ الآيات الإحدى عشرة الأولى من بداية سورة العنكبوت نزلت في المدينة في شأن المسلمين الذين كانوا في مكّة وغير راغبين بالهجرة إلى المدينة... وكانوا قد تلقوا رسائل من إخوة لهم في المدينة جاء فيها: «إنّ الله لا يقبل إقراركم بالإيمان حتى تهاجروا إلى المدينة فصمموا على الهجرة وخرجوا من مكّة، فتبعهم جماعة من المشركين والتحموا بالقتال فقتل منهم جماعة وجرح آخرون «وربّما سلّم بعضهم نفسه ورجعوا إلى مكّة».

وقال بعضٌ: إنّ الآية الثّانية من هذه السورة في شأن «عمار بن ياسر» وجماعة من المسلمين الأوائل، الذين آمنوا برسالة النّبي ﷺ ولاقوا صنوف التعذيب من الأعداء.

كما قال بعضهم: إنّ الآية الثامنة نزلت في إسلام «سعد بن أبي وقاص»!

غير أنّ التدقيق في الآيات يكشف عن أنّه لا دليل على ارتباط الآيات مع هجرة أولئك، سوى أنّ الآيات تبيّن الضغوط على المؤمنين في ذلك الوقت من قبل أعدائهم وأحياناً من الآباء المشركين، والأمهات المشركات ضدّ أبنائهم المؤمنين.

فهذه الآيات تشجّع المسلمين على الثبات والرجولة والإستقامة أمام أمواج الضغوط من قبل الأعداء... وإذا ورد الحديث فيها على الجهاد فالمراد منه -

أيضاً ـ الجهاد في هذا المجال، لا الجهاد المسلّح الذي تقوم به الجماعة، فذلك شُرّع في المدينة.

وإذا ورد الحديث عن المنافقين في هذه الآيات، فلعلّه إشارة إلى المسلمين الضعاف في إيمانهم، الذي كان يتفق وجودهم بين المسلمين في مكّة أحياناً. . . فتارة هم مع المسلمين وتارة مع المشركين، وكانوا يميلون مع الكفة الراجحة منهما.

وعلى كل حال، فارتباط الآيات بعضها ببعض وانسجامها توجب أن تكون هذه السورة «جميعها» مكية، وما ذكرناه من الرّوايات المتقدمة المتناقضة في ما بينها، لا يمكن أن تقطع هذا الإرتباط! (الأمثل).

التّفسير

قال في الأمثل: نواجه في بداية هذه السورة الحروف المقطعة [ألف ـ لام ـ ميم] أيضاً. . . وقد بيّنا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة[1].

وبعد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشرية، وهي مسألة الشدائد والضغوط والإمتحان الإلهي.

فيقول أوّلاً: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[2].

ثمّ يذكر القرآن هذه الحقيقة ـ الآية المتقدمة مباشرة، وهي أنّ الإمتحان سنة إلهية دائمية، فالإمتحان لا يختص بكم ـ أيّها المسلمون ـ بل هو سنة جارية في جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وهكذا ألقينا بهم أيضاً في أفران الإمتحانية الشديدة الصعبة. . . ووقعوا أيضاً ـ تحت تأثير ضغوط الأعداء القُساة والجهلة المعاندين. . . فساحة الإمتحان كانت مفتوحة دائماً، واشترك فيها جماعة كثيرون.

وينبغي أن يكون الأمر كذلك، لأنّه في مقام الإدعاء يمكن لكل أحد أن

(١) يراجع بداية تفسير سورة البقرة وبداية سورة آل عمران وبداية سورة الأعراف من التفسير الأمثل.

(٢) «يفتنون» مشتق من «الفتنة» وهي في الأصل وضع الذهب في النّار لمعرفة مقدار خلوصه، ثمّ أطلق هذا التعبير على كل إمتحان ظاهري ومعنوي. . . «المزيد من الإيضاح يراجع تفسير الآية (١٩٣) من سورة البقرة».

يذكر عن نفسه أنّه مجاهد وأفضل مؤمن وأكثر الناس تضحيةً... فلا بُدّ من معرفة قيمة هذه الإدعاءات بالإمتحان، وينبغي أن تعرف النيات والسرائر إلى أي مدى تنسجم مع هذه الإدعاءات...؟!

أجل ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

من البديهي أنّ الله يعرف جميع هذه الأمور جيداً ـ قبل أن يخلق الإنسان ـ إلّا أنّ المراد من العلم هنا هو التحقق العيني للمسائل... ووجودها الخارجي، وبتعبير آخر: ظهور الآثار والشواهد العملية... ومعناه أنّه ينبغي أن يرى علم الله في هذه المجموعة عملياً في الخارج، وأن يكون لها تحقق عيني، وأن يكشف كلٌّ عمّا في نفسه وداخله... هذا هو العلم حين يطلق على مثل هذه المسائل وينسب إلى الله!

والدليل على هذه المسألة واضح ـ أيضاً ـ لأنّ النيّات والصفات الباطنية إذا لم تحقق في عمل الإنسان وتكون عينيّة، فلا مفهوم للثواب والجزاء والعقاب!

وبعبارة أخرى: فإنّ هذا العالم مثله كمثل «المدرسة» أو «المزرعة» [والشبهان هذه واردة في متون الأحاديث الإسلامية] والمنهج هو الإستعدادات وتربّي القابليات وتكون فعلية بعد ما كانت بالقوّة.

وينبغي أن تنمو البذور في هذه المدرسة وأن تطلع البراعم من تحت الأرض فتحاط بالرعاية والعناية لتكون شجيرات صغيرة، ثمّ تكون أشجاراً ذوات أُصول قوية وأغصان «مثمرة على تعاقب الزمن... وهذه الأمور لا تكون إلّا بالإمتحان والإختبار.

ومن هنا نعرف أن الإمتحانات الإلهية ليست لمعرفة الأفراد، بل هي من أجل تربية الإستعدادات ورعايتها، لتتفتح وتكون بصورة أحسن.

فعلى هذا... لو أردنا نحن أن نمتحن شيئاً، فهو لأجل كشف المجهول، لكنّ امتحان الله ليس لكشف المجهول، لأنّه أحاط بكل شيء علماً... بل هو لتربية الإستعدادات وإيصال مرتبة «القوّة» إلى «العقل»[1].

---

(١) لمزيد من الإيضاح في مسألة الإمتحان الإلهي وجوانبها المختلفة، يراجع التفسير الأمثل ذيل الآية (١٧٥) من سورة البقرة.

بحث

الإمتحانات في وجوه مختلفة:

وبالرّغم من أن بيان عمومية الإمتحان لجميع الأمم والأقوام كان له أثر كبير فعال بالنسبة لمؤمني مكّة، الذين كانوا يمثلون الأقلية في ذلك العصر، وكان التفاتهم إلى هذه الحقيقة سبباً في وقوفهم بوجه الأعداء بصبر واستقامة. . . إلّا أن ذلك لم يكن منحصراً في مؤمني مكّة، بل إن كل جماعة وطائفة لها نصيب من هذه السُّنَّة الإلهية فهم شركاء فيها، إلّا أن الإمتحانات الإليهة لهم تأتي بصورة مختلفة.

فالجماعة الذين يعيشون في محيط ملوث بالمفاسد والوساوس تحيط بهم من كل جانب، فإن إمتحانهم الكبير في مثل هذا الجو والظروف، هو أن لا يتأثروا بلون المحيط وأن يحفظوا أصالتهم ونقاءهم.

والجماعة الذين يعيشون تحت ضغط الحرمان والفقر، يرون أنّهم لو صمموا على ترك رأس مالهم الأصيل «الإيمان» فإنّهم سرعان ما يتخلصوا من الفقر والحرمان لكن ثمن ذلك هو فقدانهم للإيمان والتقوى والكرامة والحرية والشرف، فهنا يكمن إمتحانهم. . .

وجماعة آخرون على عكس أولئك غرقى في اللذائذ والنعم، والإمكانات المادية متوفرة لديهم من جميع الوجوه. . . . ترى هل يؤدون في مثل هذه الظروف الشكر على النعم. . . أم سيبقون غرقى اللذائذ والغفلة وحب الدنيا والأنانية. . . غرقى الشهوات والإغتراب عن المجتمع وعن أنفسهم!

وجماعة منهم كالمتغربين في عصرنا، يرون بعض الدول بعيدة عن الله والفضيلة والأخلاق حقّاً، ولكنّها تتمتع بالتمدن المادي المذهل والرفاه الإجتماعي. هنا تجذب هؤلاء المتغرّبين قوّة خفية إلى سلوك هذا النوع من الحياة أو سحق جميع القيم والأصول والأعراف التي يعتقدون بها، ويبيعون أنفسهم أذلاء عملاء لتلك الدول، ليوفروا لهم ولمجتمعهم مثل هذه الحياة. . . وهذا نوع آخر من الإمتحان.

المصائب، والآلام والهموم، والحروب والنزاعات، والقحط والغلاء، وما

تثيره الحكومات الأنانية لتجذبهم إليها وتستعبدهم به وأخيراً الأمواج النفسية القوية والشهوات، كلّ منها وسيلة للإمتحان في طريق عباد الله، والسائرين في الميادين التي تتميز فيها شخصية الأفراد وتقواهم وإيمانهم وطهارتهم وأمانتهم وحريتهم... الخ.

ولكن لا طريق للإنتصار في هذه الإمتحانات الصعبة لاجتيازها إلّا الجدّ والسعي المستمر، والإعتماد على لطف الله سبحانه.

ومن الظريف أنّنا نقرأ حديثاً عن أحد المعصومين في أصول الكافي في تفسير الآية ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يقول فيه: «يُفتنون كما يفتن الذهب، ثمّ قال: يخلصون كما يخلص الذهب»[1].

وعلى كل حال، فإن طالبي العافية الذين يظنون أنّ إظهار الإيمان كاف بهذا المقدار ليكونوا في صفوف المؤمنين، وفي أعلى عليين في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهم في خطأ كبير.

---

(١) أصول الكافي، طبقاً لما نقل في تفسير نور الثقلين، ج٤، ص١٤٨.

من فصول الإمتحان الإلهي

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

الدنيا دار الإختبار الإلهي بعد ذكر مسألة الشهادة في سبيل الله والحياة الخالدة للشهداء، ومسألة الصبر والشكر... وكلها من مظاهر الإختبار الإلهي تعرضت هذه الآية للإختبار العام، ولمظاهره المختلفة باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾.

ولما كان الإنتصار في هذه الإختبارات لا يتحقق إلّا في ظل الثبات والمقاومة قالت الآية بعد ذلك: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الإمتحانات، لا غيرهم.

الآية التالية تعرّف الصابرين وتقول: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الإقرار التام بالعبودية المطلقة لله، يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا، لأنّه سبحانه مالكنا ومالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إيّاها، وإن استوجبت المصلحة أخذها منا، وفي المنحة والمحنة مصلحة لنا.

والإلتفات المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى الله سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياة، وبأن نقص المواهب المادية ووفورها غرض زائل، ووسيلة لارتقاء الإنسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية والعودة في عبارة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ له الأثر الكبير في تعميق روح المقاومة والإستقامة والصبر في النفس.

واضح أن المقصود من قول هذه العبارة ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقة، والإلتفات إلى ما تنطوي عليه من توحيد وإيمان.

وآخر آية في بحثنا هذا، تتحدث عن الألطاف الإلهية الكبرى، التي تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الإمتحانات الإلهية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[1].

هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، في مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والأخطار، لذلك تقول الآية: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

وبهذه العبارات المختصرة المقتضبة، يطرح القرآن مسألة الإمتحان الكبير بأبعاده المختلفة، وعوامل النجاح فيه ونتائجه.

بحوث

١ ـ لماذا الإختبار الإلهي؟

في مجال الإختبار الإلهي بحوث كثيرة، وأوّل ما يتبادر للذهن في هذا المجال هو سبب هذا الإختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجهله عنهم. فهل أن الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الإختبار لعباده، وهو العالم بكل الخفايا والأسرار؟! وهل هناك شيء خفي عنه حتى يظهر له بهذا الإمتحان؟!

والجواب أن مفهوم الإختبار الإلهي يختلف عن الإختبار البشري.

إختباراتنا البشرية ـ هي كما ذكرت آنفاً ـ تستهدف رفع الإبهام والجهل، والإختبار الإلهي قصده «التربية».

في أكثر من عشرين موضعاً تحدث القرآن عن الإختبار الإلهي، باعتباره سنّة كونية لا تنقض من أجل تفجير الطاقات الكامنة، ونقلها من القوّة إلى الفعل، وبالتالي فالإختبار الإلهي من أجل تربية العباد، فكما أن الفولاذ يتخلص من شوائبه عند صهره في الفرن، كذلك الإنسان يخلص وينقى في خضمّ الحوادث، ويصبح أكثر قدرة على مواجهة الصعاب والتحديات.

---

(١) قيل إن الصلوات هنا ألوان التكريم والتأييد، ورفعة المقام، وعن ابن عباس أنها غفران الذنوب (المنار، ج٢، ص٤٠)، وواضح أن الصلوات لها مفهوم واسع يشمل هذه الأمور وسائر النعم الإلهية.

الإختبار الإلهي يشبه عمل زارع خبير، ينثر البذور الصالحة في الأرض الصالحة، كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة وتبدأ بالنمو، ثمّ تصارع هذه البذور كل المشاكل والصعاب بالتدريج، وتقاوم الحوادث المختلفة كالرّياح العاتية والبرد الشديد والحر اللافح، لتخرج بعد ذلك نبتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

ومن أجل تصعيد معنويات القوات المسلحة يؤخذ الجنود إلى مناورات وحرب إصطناعية، يعانون فيها من مشاكل العطش والجوع والحر والبرد، والظروف الصعبة والحواجز المنيعة.

وهذا هو سرُّ الإختبارات الإلهية:

يقول سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في بيان سبب الإختبارات الإلهية: «... وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثّواب والعقاب»[1].

أي أن الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلا بدّ أن يظهر من خلال أعمال الإنسان، والله يختبر عباده ليتجلّى ما يضمرونه في أعمالهم، ولكي تنتقل قابليّاتهم من القوّة إلى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب.

لو لم يكن الإختبار الإلهي لما تفجرت هذه القابليات، ولما أثمرت الكفاءات وهذه هي فلسفة الاختبار الإلهي في منطق الإسلام.

٢ ـ الإختبار الإلهي العام:

نظام الحياة في الكون نظام تكامل وتربية، وكل الموجودات الحيّة تطوي مسيرة تكاملها، حتى الأشجار تعبّر عن قابلياتها الكامنة بالأثمار، من هنا فإنّ كل البشر، حتى الأنبياء، مشمولون بقانون الإختبار الإلهي كي تنجلي قدراتهم.

---

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار، رقم ٩٣.

الإمتحانات تشمل الجميع وإن اختلفت شدّتها وبالتالي تختلف نتائجها أيضاً، يقول سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

القرآن يعرض نماذج لاختبارات الأنبياء إذ يقول: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ويقول في موضع آخر بشأن اختبار سليمان: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

٣ ـ طرق الإختبار:

ذكرت الآية أعلاه نماذج ممّا يختبر به الإنسان، كالخوف والجوع والأضرار المالية والموت... لكن سبل الإختبار الإلهي لا تنحصر بما تقدم فذكر القرآن منها في مواضع أخرى: البنين، والأنبياء، وأحكام الله، بل حتى بعض ألوان الرؤيا: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

نعلم أنّ الناس إزاء الإختبارات الإلهية على نوعين: متفوّق في الإمتحان، وخاسر.

فحيثما تسود حالة «الخوف» مثلاً، ترى جماعة يتراجعون كي لا يصيبهم سوء، فينفضون أيديهم من المسؤولية، أو يلجأون إلى المداهنة أو التماس الأعذار، كقولهم الذي يحكيه القرآن: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

وثمة جماعة تقف كالطود الأشمّ أمام كل المخاوف، تزداد توكلاً وإيماناً، وهؤلاء الذين يقول عنهم القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وهكذا موقف النّاس من ألوان الإمتحانات الأُخرى، يعرض القرآن نماذج لموقف النّاجحين والفاشلين في الإختبار الإلهي، سنتناولها في مواضعها.

٤ ـ عوامل النجاح في الإمتحان:

هنا يتعرض الإنسان لاستفهام آخر، وهو أنّه إذا كان القرار أن يتعرض جميع أفراد البشر للإمتحان الإلهي، فما هو السبيل لإحراز النجاح والتوفيق في هذا الإمتحان؟ القرآن يعرض هذه السُبل في القسم الأخير من آية بحثنا وفي آيات أُخرى:

١ ـ أهم عامل للإنتصار أشارت إليه الآية بعبارة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، فالآية تبشّر بالنجاح أولئك الصابرين المقاومين، ومؤكدة أن الصبر رمز الإنتصار.

٢ ـ الإلتفات إلى أن نكبات الحياة ومشاكلها مهما كانت شديدة وقاسية فهي مؤقّتة وعابرة وهذا الإدراك يجعل كل المشاكل والصعاب عرضاً عابراً وسحابة صيف، وهذا المعنى تضمنته عبارة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

«كلمة الإسترجاع» هذه خلاصة كل دروس التوحيد، والإنقطاع إلى الله، والإعتماد على ذاته المقدسة في كل شيء وفي كل زمان، وأولياء الله ينطلقون من هذا التعليم القرآني، فيسترجعون لدى المصائب كي لا تهزمهم الشدائد، وكي يجتازوا مرحلة الإختبار بسلام في ظل الإيمان بمالكية الله والرجوع إليه.

قال أمير المؤمنين عليّ ﷺ في تفسير الإسترجاع: «إنّ قولنا: إنّا لله إقرارٌ على أنفسنا بالمُلك، وقولنا: إنّا إليه راجعون إقرارٌ على أنفسنا بالهُلْكِ»[1].

٣ ـ الإستمداد من قوّة الإيمان والألطاف الإلهية عامل مهم آخر في اجتياز الإختبار دون اضطراب وقلق وفقدان للتوازن. فالسائرون على طريق الله يتقدّمون بخطوات ثابتة وقلوب مطمئنة لوضوح النهج والهدف لديهم. وترافقهم الهداية الإلهية في اختيار الطريق الصحيح، يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٤ ـ التدقيق في تأريخ الأسلاف، وإمعان النظر في مواقفهم من الإختبارات الإلهية، عامل مؤثر في إعداد الإنسان لاجتياز الإمتحان الإلهي بنجاح.

لو عرف الإنسان بأن ما أُصيب به ليس حالة شاذّة، وإنما هو قانون عام شامل لكل الأفراد والجماعات، لهان الخطب عليه، ولتفهّم الحالة بوعي، ولاجتاز المرحلة بمقاومة وثبات، ولذلك يثبّت الله سبحانه على قلب نبيّه والمؤمنين باستعراض تأريخ الماضين، وما واجهه الأنبياء، والفئات المؤمنة من محن ومصائب خلال مراحل دعوتهم، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠].

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار، رقم ٩٩.

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

٥ ـ الإلتفات إلى حقيقة علم الله سبحانه بكل مجريات الأمور، عامل آخر في التثبيت وزيادة المقاومة.

المتسابقون في ساحة اللعب يشعرون بالإرتياح حينما يعلمون أنهم في معرض أنظار أصدقائهم من المتفرجين، ويندفعون بقوّة أكثر في تحمل الصعاب.

إذا كان تأثير وجود الأصدقاء كذلك، فما بالك بتأثير استشعار رؤية الله لما يجري على الإنسان وهو على ساحة الجهاد والمحنة؟! ما أعظم القوّة التي يمنحها هذا الإستشعار لمواصلة طريق الجهاد وتحمل مشاقّ المحنة!

حين واجه نوح عليه السلام أعظم المصائب والضغوط من قومه وهو يصنع الفلك، جاءه نداء التثبيت الإلهي ليقول له: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وعبارة «بأعيُننا» كان لها ـ دون شك ـ وقع عظيم في نفس هذا النّبي الكريم، فاستقام وواصل عمله حتى المرحلة النهائية دون الإلتفات إلى تقريع الأعداء واستهزائهم.

وَرَدَ عن سيّد الشهداء الحسين بن علي؟ عليه السلام أنّه قال بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشهد أصحابه وأهل بيته: «هوّنَ عليَّ ما نزلَ بي أنَّهُ بعين الله»[(١)].

٥ ـ الإختبار بالخير والشر:

الإمتحان الإلهي لا يجري عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن الله عبده بالخير وبوفور النعمة، كما يقول سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ويقول سبحانه على لسان نبيّه سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٤٦.

وهنا ينبغي أن نشير إلى عدة مسائل:

أحدها: أنه ليس من الضروري أن يُختبر جميع الناس بجميع وسائل الإختبار، بل من الممكن أن يكون إختبار كل فئة بلون من الإمتحان يتناسب مع الوضع الفردي والإجتماعي لتلك الفئة.

والأخرى: أنه من الممكن أن يختار الإنسان بعض الإمتحانات، بينما يفشل في امتحانات أُخرى.

وقد يكون إمتحان فرد من الأفراد موضع إمتحان آخر، كأن يكون موت ولد لإنسان موضع إمتحان أصدقائه وأقاربه، ليُرى مدى اتخاذهم موقف المواساة من صاحبهم.

وأخيراً، فالإختبار الإلهي ـ كما ذكرنا ـ شامل عام يدخل في نطاقه حتى الأنبياء ﷺ، بل إنّ اختبارهم بسبب ثقل مسؤوليتهم أشدّ بكثير من اختبار الآخرين.

القرآن الكريم يعرض صوراً لاختبارات شديدة مرّ بها الأنبياء ﷺ وبعضهم مرّ بمراحل طويلة شاقة قبل وصوله إلى مقام الرسالة، كي يكون على أتمّ الإستعداد لتحمل أعباء قيادة أُمّته.

وبين أتباع مدرسة الأنبياء نماذج رائعة للصابرين المحتسبين، كل واحد منهم قدوة على ساحة الإمتحان الإلهي.

فقد روي «أنّ أُمّ عقيل كانت امرأةً في البادية فنزل عليها ضيفان وكان ولدُها عقيلٌ مع الإبل فأُخبرت بأنّه ازدحمت عليه الإبلُ فرمت به في البئر فهلك فقالت المرأة للنّاعي انزل واقضِ ذمام القوم ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرّب إلى القوم الطعام فجعلوا يأكلون ويتعجّبون من صبرها (قال الراوي) فلمّا فرغنا خرجت إلينا وقالت يا قوم هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئاً؟ فقلتُ نعم، قالت: فاقرأ عليَّ آيات أتعزّى بها عن ولدي فقرأتُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ - إلى قوله: ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

أخبار يوم القيامة في القرآن

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-١٠٤].

التّفسير

الخصام بين المشركين ومعبوداتهم:

أشير في آخر آية من البحث السابق إلى يوم القيامة ومسألة المعاد. . . أمّا في هذه الآيات فنلحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم «المتاع في تلك السوق»، وعاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين والضالين وجنود إبليس، ويدلّ ظاهر الآيات أن هذا الوصف وهذا التصوير هو من كلام إبراهيم الخليل، وأنه ختام دعائه ربَّه، وهكذا يعتقد ـ أيضاً ـ أغلب المفسّرين. . . وإن كان هناك مَنْ يحتمل أنه من كلام الله، وأن الآيات محل البحث هي منه سبحانه جاءت مكمّلةً لكلام إبراهيم عليه السلام وموضحة له، إلّا أن هذا الاحتمال يبدو ضعيفاً! . . .

وعلى كل حال، فأوّل ما تبدأ به هذه الآيات هو: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

وفي الحقيقة إنّ هاتين الدعامتين المهمتين في الحياة الدُنيا «المال والبنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة، وكل ما كان دون هاتين الدعامتين رتبةً من الأمور الدنيوية ـ من باب أولى ـ لا نفع فيه، ولا فائدة من ورائه!

وبديهي أنّ المراد من المال والبنين هنا ليس هو ما كان ـ من المال

والبنين - في مرضاة الله، بل المراد منه الإستناد إلى الأمور المادّية، فالمراد إذاً هو أن هذه الدعامات المادية لا تحلُّ معضلاً في ذلك اليوم... أمّا لو كان أيٌّ من البنين والمال في مرضاة الله فلن يكون ذلك مادّياً... إذ يصطبغ بصبغة الله ويُعدّ من «الباقيات الصالحات»!..

ثمّ يضيف القرآن في ختام الآية، على سبيل الإستثناء ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وهكذا يتّضح أنّ أفضل ما ينجي يوم القيامة هو القلب السليم، ويا له من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسد فيه الإيمان والنية الخالصة، كما يحتوي على كل ما يكون من عمل صالح! ولم لا يكون لمثل هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح؟!

وبتعبير آخر: كما أن قلب الإنسان وروحه يؤثران في أعماله، فإن أعماله لها أثر واسع في القلب أيضاً، سواءً كانت أعمالاً رحمانية أم شيطانية!...

ثمّ يبيّن القرآن الجنّة والنار بالنحو التالي فيقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ[1] ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾. أي الضالين.

وهذا الأمر - في الحقيقة - قبل ورود كلٍّ من أهل الجنّة والنار إليهما! فكلّ طائفة ترى مكانها من قريب... فيُسرّ المؤمنون ويستولي الرعب على الغاوين، وهذا أوّل جزائهما هناك!

الطريف هنا أنّ القرآن لا يقول: اقترب المتقون أو أزلف المتقون من الجنّة، بل يقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا يدل على مقامهم الكريم وعِظَم شأنهم!...

كما ينبغي الإشارة إلى هذه اللطيفة، وهي أن التعبير بالغاوين هو التعبير ذاته الوارد في قصة الشيطان، إذ طرده الله عن ساحته المقدسة فقال له: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ثمّ يتحدث القرآن عن ملامةِ هؤلاء الضالين، وما يُقال لهم من كلمات التوبيخ أو العتاب، فيقول: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهل يستطيعون معونتكم في هذه الشدة التي أنتم فيها، أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر والمعونة: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[2].

---

(١) أزلفت: فعل مشتق من (الزلفى) على وزن (كبرى) ومعنى الفعل «قربت».

(٢) قد يكون المراد من «ينتصرون» هو أن يطلبوا العون والنصر لأنفسهم أو لغيرهم... أو مجموعها، لأننا سنلاحظ في الآيات المقبلة أن العَبَدَة ومعبوديهم يساقون إلى النار.

إلّا أنّهم لا يملكون جواباً لهذا السؤال! كما لا يتوقع أحد منهم ذلك!... ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾.

كما يقول بعض المفسّرين: إن كلاً منهم سيُلقى على الآخر يوم القيامة! ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

وفي الحقيقة أن هذه الفروق الثلاث، الأصنام والعابدين لها وجنود إبليس الدالين على هذا الانحراف، يساقون جميعاً إلى النّار... ولكن بهذه الكيفية... هي أن تلقى الفرق فرقةً بعد أخرى في النار. لأن «كُبكِبوا» في الأصل مأخوذة من (كبّ)، و(الكبّ) معناه إلقاء الشيء بوجهه في الحفرة، وما أشبهها، وتكراره «كبكب» يؤدي إلى هذا المعنى من السقوط، وهذا يدلّ أنّهم حين يُلقون في النار مثلهم كمثل الصخرة، إذ تهوي من أعلى الجبل أو تلقى من قمة الجبل، فهي تصل أولاً نقطةً ما في الوادي ثمّ تتدحرج إلى نقاط أُخر حتى تستقرّ في القعر!

إلّا أن الكلام لا يقف عند هذا الحدّ، بل يقع النزاع والجدال بين هذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصمتهم هنا، فيقول: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾.

أجل... إن العبدَة الضالين الغاوين يقسمون بالله فيقولون: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ[1] ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[2] ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾...

المجرمون الذين كانوا سادة مجتمعاتنا ورؤسائنا وكبراءنا، فأضلّونا حفظاً لمنافعهم، وجرّونا إلى طريق الشقوة والغواية... كما يحتمل أن يكون المراد من المجرمين هم الشياطين أو الأسلاف الضالين الذين جرّوهم إلى هذه العاقبة الوخيمة.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾...

والخلاصة أن الأصنام لا تشفع لنا كما كنا نتصور ذلك في الدنيا، ولا يتأتى لأي صديق أن يعيننا هنالك...

وممّا ينبغي الإلتفات إليه، أنّ كلمة (شافعين) جاءت في الآية السابقة بصيغة

---

(١) (إن كنا) مخففة من (إنّا كنا)...

(٢) يُحتمل أن تكون (إذ) هنا للظرفية، كما يحتمل أن تكون تعليلية.

الجمع كما ترى، إلّا أنّ كلمة (صديق) جاءت بصيغة الإفراد، ولعلّ منشأ هذا التفاوت والإختلاف، هو أن هؤلاء الضالين يرون بأم أعينهم المؤمنين الجانحين يشفع لهم الأنبياء والأوصياء أو الملائكة وبعض الأصدقاء الصالحين، فأولئك الضالون يتمنون الشافعين أيضاً، وأن يكون عندهم صديق هنالك!...

إضافةً إلى ذلك فإن كلمتي (الصديق) و(العدو) كما يقول بعض المفسّرين، تطلقان على المفرد والجمع أيضاً.

إلّا أنّهم ما أسرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المرّ، إذ لا جدوى هناك للحسرة ولا مجال للعمل في تلك الدار لجبران ما فات في دنياهم، فيتمنون العودة إلى دار الدنيا... ويقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وصحيح أنّهم في ذلك اليوم وفي عرصات القيامة يؤمنون بربّهم، إلّا أن هذا الإيمان نوع من الإيمان الإضطراري غير المؤثر، وليس كالإيمان الإختياري، وفي هذه الدنيا حيث يكون أساساً للهداية والعمل الصالح.

ولكن لا يحقق هذا شيئاً، ولا يحلُّ مُعضلاً، ولن تسمح سنّة الله بذلك، وهم يدركون تلك الحقيقة، لأنّهم يتفوّهون بكلمة «لو»[1]...

وأخيراً بعد الإنتهاء من هذا القِسم من قصة إبراهيم، وكلماته مع قومه الضالين، ودعائه ربّه، ووصفه ليوم القيامة، يكرر الله آيتين مثيرتين بمثابة النتيجة لعباده جميعاً، وهاتان الآيتان وردتا في ختام قصة موسى وفرعون، كما وردتا في قصص الأنبياء الآخرين من السورة ذاتها فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

وتكرار هاتين الآيتين، هو للتسوية عن قلب النّبي ﷺ وتسليته ومن معه من الصحابة القلة وكذلك المؤمنين في كل عصر ومصر لئلا يستوحشوا في الطريق من قلة أهله وكثرة الأعداء... وليطمئنوا إلى رحمة الله وعزته، كما أن هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين. وإشارة إلى أنه لو وجدوا الفرصة في حياتهم وأمهلهم الله إمهالاً فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته وكرمه!

---

(١) تعدّ (لو) من حروف الشرط ـ وعادةً ـ تستعمل حينما يكون الشرط محالاً.

القلب السليم في القرآن

ملاحظات

القلب السليم ـ وحده وسيلة النجاة:

في أثناء كلام إبراهيم الخليل ﷺ قرأنا ضمن ما ساقته الآيات المتقدمة من تعابير في وصف القيامة، أنّه لا ينفع في ذلك اليوم شيء ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

(السليم) مأخوذ من السلامة، وله مفهوم واضح، وهو السالم والبعيد من أيّ انحراف أخلاقي وعقائدي، أو أيّ مرض آخر!...

تُرى... ألم يقل الله في القرآن في شأن المنافقين ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

ونلاحظ تعاريف للقلب السليم في عدد من الأحاديث الغزيرة المعنى.

١ ـ ففي حديث عن الإمام الصادق ﷺ ـ ذيل الآية محل البحث[١] ـ يقول فيه: «وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط».

٢ ـ ونعلم من جهة أُخرى أن العلائق المادية الشديدة وحب الدنيا... كل ذلك يجرّ الإنسان إلى كل انحراف وخطيئة، لأن «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة»[٢].

ولذلك فالقلب السليم هو القلب الخالي من حبّ الدنيا، كما ورد هذا المضمون في حديث للإمام الصادق ﷺ ـ ذيل الآية محل البحث ـ إذ يقول: «هو القلب الذي سلم من حبّ الدنيا»[٣].

---

(١) راجع مجمع البيان، بل الآيات محل البحث.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٣٩.

(٣) تفسير الصافي في ذيل الآية محل البحث.

ومع الإلتفات إلى الآية (١٩٧) من سورة البقرة إذ تقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾... يتّضح أن القلب السليم هو القلب الذي يكون محلاً لتقوى الله.

٣ ـ وآخر ما نقوله ـ هنا ـ أنّ القلب السليم هو القلب الذي ليس فيه سوى الله، كما يجيب الإمام الصادق عليه السلام على سؤال في هذا الشأن فيقول: «القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه»[1].

ولا يخفى أن المراد من القلب في مثل هذه الموارد هو روح الإنسان ونفسُه.

وهناك مسائل كثيرة وردت في الرّوايات الإسلامية تتحدث حول سلامة القلب والآفات التي تصيبه، وطريق مبارزتها ومكافحتها، ويستفاد من مجموع هذا المفهوم الإسلامي المتين أن الإسلام يهتم قبل كلّ شيء بالأساس الفكري والعقائدي والأخلاقي، لأن جميع المناهج التطبيقية والعملية للإنسان هي إنعكاسات لذلك الأساس وآثاره!...

فكما أنّ سلامة القلب الظاهرية سبب لسلامة الجسم، وأن مرضه سبب لمرض أعضائه جميعاً، لأنّ تغذية الخلايا في البدن تتمّ بواسطة الدم الذي يتوزع ويُرسل إلى جميع الأعضاء بإعانة القلب على هذه المهمة... فكذلك هي الحال بالنسبة لسلامة مناهج حياة الإنسان وفسادها، كل ذلك انعكاس عن سلامة العقيدة والأخلاق أو فسادهما...

ونختتم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «إنّ القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس، وقلب مطبوع، وقلب أزهرُ أجرد؛ أجرد من غير الله. إلى أن قال عليه السلام: وأمّا الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر، وأمّا المنكوس فقلب المشرك ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] فإنّ القلب الذي فيه إيمان ونفاق، فهم قوم كانوا بالطائف، فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك، وإن أدركه على إيمانه نجا»[2].

٢ ـ وجاء في روايات متعددة عن الإمامين الصادقين(أبي جعفر وأبي

---

(١) الكافي... طبقاً لما جاء في تفسير الصافي ـ ذيل الآية محل البحث.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٤٢٢، الطبعة الرابعة، باب في ظلمة قلب المنافق.

عبد الله ﷺ) في تفسير ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قولهما: «هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثمّ خالفوه إلى غيره»[١].

وهذا الحديث يدل على أنّ القول بلا عمل قبيح ومذموم جدّاً، إذ يلقي أصحابه في النار، فأولئك قوم ضالون مضلّون، وكلامه يهدي الناس إلى الحق، بينما عملهم يجرّهم إلى الباطل، بل إن عملهم كاشف عن عدم إيمانهم بأقوالهم!

وينبغي الإلتفات ـ ضمناً ـ إلى أن كلمة «غاوون» المأخوذة من «الغي» لا تعني الضلال مطلقاً، بل كما يقول الراغب في المفردات: هو نوع من الجهل والضلال الناشيء عن فساد العقيدة.

٣ـ وردت في ذيل الآية: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ روايات متعددة، وبعضها صريحة في أن: «الشافعون الأئمة والصديق من المؤمنين».

وجاء في حديث آخر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل يقول في الجنّة: ما فعل صديقي فلان؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله: أخرجوا له صديقه إلى الجنّة، فيقول من بقي في النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

وبديهي أنّه لا الشفاعة بدون معيار وملاك، ولا السؤال في شأن الصديق دون حساب، فلا بد من وجود ارتباط أو علاقة بين الشفيع والمشفوع له ليتحقق هذا الهدف...

---

(١) نقل هذه الرواية مؤلف تفسير نور الثقلين عن أصول الكافي، وتفسير علي بن إبراهيم، والمحاسن للبرقي.

الشهادة في القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

التّفسير

العدالة الإجتماعية:

على غرار الأحكام التي وردت في الآيات السابقة حول تطبيق العدالة مع الأيتام والزوجات تذكر الآية الأخيرة ـ موضوع البحث ـ مبدأً أساسياً وقانوناً كلياً في مجال تطبيق العدالة في جميع الشؤون والموارد بدون استثناء، وتأمر جميع المؤمنين بإقامة العدالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ...﴾.

ويجب الإنتباه إلى أنّ كلمة «قوامين» هي جمع لكلمة «قوّام» وهي صيغة مبالغة من «قائم» وتعني «كثير القيام» أي أن على المؤمنين أن يقوموا بالعدل في كل الأحوال والأعمال وفي كل العصور والدهور، لكي يصبح العدل جزءاً من طبعهم وأخلاقهم، ويصبح الانحراف عن العدل مخالفاً ومناقضاً لطبعهم وروحهم.

والإتيان بكلمة «القيام» في هذا المكان، يحتمل أن يكون بسبب أنّ الإنسان حين يريد القيام بأي عمل، يجب عليه أن يقوم على رجليه بصورة عامّة ويتابع ذلك العمل، وعلى هذا الأساس فإنّ التعبير هنا بالقيام كناية عن العزم والإرادة الرّاسخة والإجراء لإنجاز العمل، حتى لو كان هذا العمل من باب حكم القاضي الذي لا يحتاج إلى القيام لدى ممارسة عمله.

ويمكن أن يكون التعبير بالقيام جاء لسبب آخر، وهو أنّ كلمة «القائم» تطلق عادة على شيء يقف بصورة عمودية على الأرض دون أن يكون فيه انحراف إلى اليمين أو الشمال، وعلى هذا فإنّ المعنى المراد منه في الآية يكون تأكيداً لضرورة تحقيق العدالة دون أقل انحراف إلى أي جهة كانت.

ولتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشهادة» على ضرورة التخلي عن كل الملاحظات والمجاملات أثناء أداء الشهادة، وأن يكون هدف الشهادة بالحق هو كسب مرضاة الله فقط، حتى لو أصبحت النتيجة في ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ . . .﴾.

وقد شاع هذا الأمر في كل المجتمعات، وبالأخص المجتمعات الجاهلية، حيث كانت الشهادة تقاس بمقدارالحبّ والكراهية ونوع القرابة بين الأشخاص والشاهد، دون أن يكون للحق والعدل أثر فيما يفعلون.

وقد نقل عن ابن عباس حديث يفيد أنّ المسلمين الجدد كانوا بعد وصولهم إلى المدينة يتجنبون الإدلاء بالشهادة لاعتبارات القرابة والنسب، إذا كانت الشهادة تؤدي إلى الإضرار بمصالح أقربائهم، فنزلت الآية المذكورة محذرة لمثل هؤلاء[1].

ولكن ـ وكما تشير الآية الكريمة ـ فإنّ هذا العمل لا يتناسب وروح الإيمان، لأنّ المؤمن الحقيقي هو ذلك الشخص الذي لا يعير اهتماماً للإعتبارات في مجال الحق والعدل، ويتغاضى عن مصلحته ومصلحة أقاربه من أجل تطبيق الحق والعدل.

وتفيد هذه الآية أنّ للأقارب الحق في الإدلاء بالشهادة لصالح ـ أو ضد ـ بعضهما البعض، شرط الحفاظ على مبدأ العدالة (إلّا إذا كانت القرائن تشير إلى وجود انحياز أو تعصب في الموضوع).

وتشير الآية بعد ذلك إلى عوامل الانحراف عن مبدأ العدالة، فتبيّن أنّ ثروة الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشهادة العادلة، كما أنّ

---

(١) تفسير المنار، ج٥، ص٤٥٥.

العواطف والمشاعر التي تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن لا تكون سبباً في الإمتناع عن الإدلاء بالشهادة العادلة حتى لو كانت نتيجتها لغير صالح الفقراء، لأنّ الله أعلم من غيره بحال هؤلاء الذين تكون نتيجة الشهادة العامة ضدهم، فلا يستطيع صاحب الجاه والسلطان أن يضرّ بشاهد عادل يتمتع بحماية الله، ولا الفقير سيبيت جوعاناً بسبب تحقيق العدالة، تقول الآية في هذا المجال: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

وللتأكيد أكثر تحكم الآية بتجنّب اتّباع الهوى، لكي لا يبقى مانع أمام سير العدالة وتحقيقها إذ تقول الآية: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾[1].

ويتّضح من هذه الجملة ـ بجلاء ـ أن مصدر الظلم والجور كلّه، هو اتّباع الهوى، فالمجتمع الذي لا تسوده الأهواء، يكون بمأمن من الظلم والجور.

ولأهمية موضوع تحقيق العدالة، يؤكّد القرآن هذا الحكم مرّة أخرى، فيبيّن أنّ الله ناظر وعالم بأعمال العباد ـ فهو يشهد ويرى كل من يحاول منع صاحب الحق من حقّه، أو تحريف الحق، أو الإعراض عن الحق بعد وضوحه، فتقول الآية: ﴿وَإِن تَلْوُوا[2] أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وجملة ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ تشير ـ في الواقع ـ إلى تحريف الحق وتغييره، بينما تشير جملة «تعرضوا» إلى الإمتناع عن الحكم بالحق، وهذا هو ذات الشيء المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام[3].

والطريف أن الآية اختتمت بكلمة ﴿خَبِيرًا﴾ ولم تختتم بكلمة «عليماً» لأنّ كلمة «خبير» تطلق بحسب العادة على من يكون مطلعاً على جزئيات ودقائق موضوع معيّن، وفي هذا دلالة على أن الله يعلم حتى أدنى انحراف يقوم به

---

(١) يمكن أن تكون عبارة «تعدلوا» اشتقاقاً إمّا من مادة «العدالة» أو من مادة «العدول» فإن كانت من مادة «العدالة» يكون معنى الجملة القرآنية هكذا: فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أي لكي تستطيعوا تحقيق العدل، وأما إذا كانت من مادة «العدول» يكون المعنى هكذا: فلا تتبعوا الهوى في أن تعدلوا أي لا تتبعوا الهوى في سبيل الإنحراف عن الحق.

(٢) إن عبارة «تلووا» مشتقة من المصدر «لي» على وزن «طي» وتعني المنع والإعاقة وقد وردت في الأصل بمعنى اللي والبرم.

(٣) تفسير التبيان، ج٥، ص٣٥٦.

الإنسان عن مسير الحق والعدل بأي عذر أو وسيلة كان، وهو يعلم كل موطن يتعمد فيه إظهار الباطل حقاً، ويجازي على هذا العمل.

وتثبت الآية إهتمام الإسلام المفرط بقضية العدالة الإجتماعية، وإن مواطن التأكيد المتكررة في هذه الآية تبيّن مدى هذا الإهتمام الذي يوليه الإسلام لمثل هذه القضية.

بيان

قال في الميزان: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ القسط هو العدل، والقيام بالقسط هو العمل به والتحفظ له، فالمراد بالقوّامين بالقسط القائمون به أتم قيام وأكمله، من غير انعطاف وعدول عنه إلى خلافه لعامل من هوى وعاطفة أو خوف أو طمع أو غير ذلك.

وهذه الصفة أقرب العوامل وأتم الأسباب لاتباع الحق وحفظه عن الضيعة، ومن فروعها ملازمة الصدق في أداء الشهادة والقيام بها.

ومن هنا يظهر أن الإبتداء بهذه الصفة في هذه الآية المسوقة لبيان حكم الشهادة ثم ذكر صفة الشهادة من قبيل التدرّج من الوصف العام إلى بعض ما هو متفرع عليه كأنه قيل: كونوا شهداء لله، ولا يتيسر لكم ذلك إلّا بعد أن تكونوا قوامين بالقسط فكونوا قوامين بالقسط حتى تكونوا شهداء لله.

وقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ اللام فيه للغاية أي كونوا شهداء تكون شهادتكم لله كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، ومعنى كون الشهادة لله كونها اتباعاً للحق ولأجل إظهاره وإحيائه كما يوضحه قوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي ولو كانت على خلاف نفع أنفسكم أو والديكم أو أقربائكم فلا يحملنّكم حبّ منافع أنفسكم أو حبّ الوالدين والأقربين أن تحرفوها أو تتركوها، فالمراد بكون الشهادة على النفس أو على الوالدين والأقربين أن يكون ما تحمله من الشهادة لو أدّاه مضراً بحاله أو بحال والديه وأقربائه سواء كان المتضرر هو المشهود عليه بلا

واسطة كما إذا تخاصم أبوه وإنسان آخر فشهد له على أبيه، أو يكون التضرر مع الواسطة كما إذا تخاصم إثنان وكان الشاهد متحمّلاً لأحدهما ما لو أدّاه لتضرَّر به نفس الشاهد أيضاً - كالمتخاصم الآخر - .

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ إرجاع ضمير التثنية إلى الغني والفقير مع وجود «أو» الترديدية لكون المراد بالغني والفقير هو المفروض المجهول الذي يتكرر بحسب وقوع الوقائع وتكررها فيكون غنيّاً في واقعة، وفقيراً في أخرى، فالترديد بحسب فرض البيان وما في الخارج تعدد، كذا ذكره بعضهم، فالمعنى أن الله أولى بالغني في غناه، وبالفقير في فقره، والمراد - والله أعلم - لا يحملنكم غنى الغنيّ أن تميلوا عن الحق إليه، ولا فقر الفقير أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق بل أقيموا الشهادة لله سبحانه ثم خلوا بينه وبين الغني والفقير فهو أولى بهما وأرحم بحالهما، ومن رحمته أن جعل الحق هو المتبع واجب الإتباع، والقسط هو المندوب إلى إقامته، وفي قيام القسط وظهور الحق سعادة النوع التي يقوم بها صلب الغني، ويصلح بها حال الفقير.

والواحد منهما وإن انتفع بشهادة محرّفة أو متروكة في شخص واقعة أو وقائع لكن ذلك لا يلبث دون أن يضعف الحق ويميت العدل، وفي ذلك قوّة الباطل وحياة الجور والظلم، وفي ذلك الداء العضال وهلاك الإنسانية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾، أي مخافة أن تعدلوا عن الحقّ والقسط باتباع الهوى وترك الشهادة لله فقوله: ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ مفعول لأجله ويمكن أن يكون مجروراً بتقدير اللام متعلقاً بالإتباع أي لأن تعدلوا.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ اللي بالشهادة كناية عن تحريفها من ليّ الإنسان. والإعراض ترك الشهادة من رأس.

وقرىء «وإن تلووا» بضم اللام وإسكان الواو من ولي يلي ولاية، والمعنى: وإن وليتم أمر الشهادة وأتيتم بها أو أعرضتم عنها فإن الله خبير بأعمالكم يجازيكم بها.

وجوب طاعة الله والنبي في القرآن

نعم في مجال الحاكمية التي يحتل النّبي ﷺ فيها سدّة الحكومة، يكون له الأمر والنهي.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨٠-٨١].

التّفسير

سنّة النّبي (ص) بمنزلة الوحيّ:

توضح الآية الأولى موضع النّبي ﷺ من الناس وحسناتهم وسيئاتهم وتؤكد أوّلاً بأنّ إطاعة النّبي ﷺ هي في الحقيقة طاعة لله، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ . . .﴾ أي لا إنفصال بين طاعة الله وطاعة الرسول، وذلك لأنّ النّبي ﷺ لا يخطو أي خطوة خلافاً لإرادة الله. . . كل ما يصدر منه من فعل وقول وتقرير إنّما يطابق إرادة الله سبحانه وتعالى ومشيئته.

ثمّ يبيّن إنّ النّبي ﷺ ليس مسؤولاً عن الذين يتجاهلون ويخالفون أوامره، كما أنّه ليس مكلّفاً بإرغام هؤلاء على ترك العصيان، بل إن مسؤولية النّبي ﷺ هي الدعوة للرسالة الإلهية التي بعث بها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الضالين والغافلين تقول الآية: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلمة «حفيظ» صفة مشبهة باسم الفاعل، وتدل على ثبات واستمرار الصفة في الموصوف، بخلاف اسم الفاعل «حافظ»،

فعبارة «حفيظ» تعني الذي يراقب ويحافظ بصورة دائمة مستمرة، ويستدل من الآية واجب النّبي ﷺ هو قيادة الناس وهدايتهم وإرشادهم، ودعوتهم إلى اتّباع الحقّ واجتناب الباطل، ومكافحة الفساد، وحين يصر البعض على اتّباع طريق الباطل والإنحراف عن جادة الحقّ، فلا النّبي ﷺ مسؤول عن هذه الإنحرافات، ولا المطلوب منه أن يراقب هؤلاء المنحرفين في كل صغيرة وكبيرة، كما ليس المطلوب منه ﷺ أن يستخدم القوة لإرغام المنحرفين على العدول عن انحرافهم، ولا يمكنه بالوسائل العادية القيام بمثل هذه الأعمال.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الآية قد تكون ـ أيضاً ـ إشارة إلى غزوات كغزوة أُحد حيث كان النّبي ﷺ مكلّفاً ـ فقط ـ بتجنيد الإمكانيات المتوفرة من الناحية العسكرية في إعداد خطة للدفاع عن المسلمين حيال هجمات الأعداء، وبديهي أن تكون إطاعة الرّسول ﷺ في هذا الأمر إطاعة لله، ولو افترضنا أنّ أفراداً عصوا الرّسول في هذا المجال وأدّى عصيانهم إلى تراجع المسلمين، فالعاصون ـ وحدهم ـ هم المسؤولون عن ذلك، وليس الرّسول ﷺ.

والأمر المهم الآخر في هذه الآية هو أنّها واحدة من أكثر آيات القرآن دلالة على حجيّة السنّة النبويّة الشّريفة، فهي حكم بوجوب الإذعان للأحاديث الصحيحة المروية عنه ﷺ، واستناداً إلى هذه الآية لا يجوز لأحد القول بقبول القرآن وحده وعدم قبول أحاديث وسنّة النّبي ﷺ، لأنّ الآية صريحة بأنّ طاعة النّبي ﷺ وأحاديثه المروية عنه بطرق صحيحة، هي بمثابة إطاعة الله.

ومن المنطلق نفسه تثبت حقيقة أُخرى، هي ضرورة إطاعة أئمة أهل بيت النّبي ﷺ، وهي ما أكد عليها حديث «الثقلين» الوارد في المصادر الإسلامية السنية والشيعية، وفيه بيّن النّبي ﷺ ـ صراحة ـ حجية أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومنه نستنتج أنّ إطاعة أوامرهم هي إطاعة للرّسول وبالنتيجة إطاعة لله تعالى، ولما كانت أحاديث أئمة أهل البيت بمثابة أحاديث النّبي ﷺ، فلا يستطيع أحد أن يقول: إنّي أقبل القرآن وأرفض أحاديث أهل البيت عليهم السلام، فذلك نقض للآية المذكورة أعلاه وللآيات المشابهة.

ولذلك نقرأ في الأحاديث التي أوردها صاحب تفسير البرهان في تفسير هذه الآية ما يؤكّد هذه الحقيقة.

إنّ الله وهب نبيّه حقّ الأمر في الآية المذكورة، والنّبي ﷺ بدوره وهب هذا الحق لعلي بن أبي طالب عليه السلام وسائر الأئمّة عليهم السلام من بعده، والناس ملزمون بإطاعة أوامر هذه النخبة الطاهرة عليهم السلام، لأن أوامر ونواهي النّبي ﷺ والأئمّة من أهل بيته الكرام هي أوامر ونواهي الله، وطاعتهم طاعة لله، وهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم وكل ما جاؤوا به للمسلمين هو من عند الله[1].

أمّا الآية الثّانية ففيها إشارة إلى وضع نفر من المنافقين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان، الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النّبي ﷺ والمسلمين بأنّهم مع الجماعة، ويظهرون الطاعة للرسول ﷺ ليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم وليحموا مصالحهم الخاصّة، بدعوى الإخلاص والطاعة للنّبي ﷺ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾.

وبعد أن ينصرف الناس من عند النّبي ﷺ ويختلي هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم في إطاعة النّبي ويتآمرون في ندواتهم الخاصّة - السرية الليلية - على أقوال النّبي: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ . . .﴾.

نعرف من هذه الآية أنّ المنافقين في زمن الرّسول ﷺ كانوا لا يألون جهداً في التآمر على النّبي ﷺ، وكانوا يخططون في إجتماعاتهم السريّة للوقوف بوجه الدعوة.

ولكن الله يأمر نبيّه بأن لا يلتفت إلى مكائد هؤلاء، وأن لا يخافهم ولا يخشى خططهم، وأن يتجنت الإعتماد عليهم في مشاريعه، بل يتوكل على الله الذي هو خير ناصر ومعين: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

---

(١) تفسير البرهان، ج١، ص٣٩٦.

سبب النزول

لهاتين الآيتين روايتان في سبب نزولهما: إحداهما في تفسير «مجمع البيان» والأخرى في تفسير «المنار».

الأولى تقول: ادّعى جمع من الحاضرين في مجلس رسول الله ﷺ أنّهم يحبّون الله، مع أنّ العمل بتعاليم الله كان أقلّ ظهوراً في أعمالهم، فنزلت هاتان الآيتان بشأنهم.

وتقول الأخرى: حضر فريق من مسيحيّي نجران مجلس رسول الله ﷺ وزعموا في حديثهم أنّ مبالغتهم في تقديس المسيح ﷺ إنّما ينطلق من حبّهم لله. فنزلت الآيتان تردّان عليهم.

التّفسير

الحب الحقيقي:

تقول الآية الأولى إنّ الحبّ ليس بالعلاقة القلبية فحسب، بل يجب أن تظهر آثاره في عمل الإنسان، إنّ من يدّعي حبّ الله، فعليه أوّلاً إتّباع رسوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

في الواقع أنّ من آثار الحبّ الطبيعية انجذاب المحبّ نحو المحبوب، والإستجابة له. صحيح أنّ هناك حبّاً ضعيفاً لا تتجاوز أشعّته جدران القلب، إلّا أنّ هذا من التفاهة بحيث لا يمكن إعتباره حبّاً. لا شكّ أنّ للحبّ الحقيقي آثاراً عملية تربط المحبّ بالحبيب وتدفعه للسعي في تحقيق طلباته.

والدليل على ذلك واضح، فحبّ المرء شيئاً لا بدّ أن يكون بسبب عثوره على أحد الكمالات فيه. لا يمكن أن يحب الإنسان مخلوقاً ليس فيه شيء من قوّة الجذب، وعليه فإنّ حبّ الإنسان لله ناشيء من كونه منبع جميع الكمالات وأصلها. إنّ محبوباً هذا شأنه لا بدّ أن تكون أوامره كاملة أيضاً، فكيف يمكن لإنسان يعشق الكمال المطلق أن يعصي أوامر الحبيب وتعاليمه، فإن عصى فذلك دليل على أنّ حبّه غير حقيقي.

هذه الآية لا تقتصر في ردّها على مسيحيّي نجران والذين ادّعوا حبّ الله

على عهد رسول الله ﷺ، بل هذا الردّ أصيل وعام في منطق الإسلام موجّه إلى جميع العصور والقرون إنّ الذين لا يفتأون ـ ليل نهار ـ يتحدّثون عن حبّهم لله ولأئمّة الإسلام وللمجاهدين في سبيل الله وللصالحين والأخيار، ولكنّهم لا يشبهون أولئك في العمل، هم كاذبون.

أولئك الغارقون في الذنوب من قمة الرأس حتى أخمص القدم، ومع ذلك فهم يرون أن قلوبهم مليئة بحبّ الله ورسوله وأمير المؤمنين والأئمّة العظام، أو الذين يعتقدون أنّ الإيمان والحبّ والمحبّة قلبية فحسب، هم غرباء على منطق الإسلام تماماً.

جاء في «معاني الأخبار» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما أحبّ الله من عصاه» ثمّ قرأ الأبيات:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه	هذا لعمرك في الفعال بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته	إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تقول هذه الآية: إذا كنتم تحبّون الله، وبدت آثار ذلك في أعمالكم وحياتكم، فإنّ الله سيحبّكم أيضاً، وسوف تظهر آثار حبّه أنه سيغفر لكم ذنوبكم، ويشملكم برحمته.

والدليل على هذا الحبّ المتقابل من قبل الله، واضح أيضاً، لأنّه سبحانه موجود كامل ولا متناه من كلّ الجهات، وسيرتبط ـ على أثر السنخية ـ بكل موجود يقطع خطوات على طريق التكامل برباط الحبّ.

يتبيّن من هذه الآية أن ليس هناك حبّ من طرف واحد، لأنّ الحبّ يدفع المحبّ إلى أن يحقّق عملياً رغبات حبيبه. وفي هذه الحالة لا يمكن للمحبوب إلّا أن يرتبط بالمحبّ.

قد يسأل سائل: إذا كان المحبّ دائم الإطاعة لأوامر المحبوب، فلا يبقى له ذنب فيغفر له، ولذلك فإنّ جملة: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ليست ذات موضوع.

في الجواب نقول: أوّلاً يمكن أن تعني هذه الجملة غفران الذنوب السابقة، وثانياً أنّ المحبّ لا يستمرّ في عصيان المحبوب، ولكن قد يزلّ أحياناً بسبب طغيان الشهوات، وهذا هو الذي يغفره الله سبحانه.

الدّين والحبّ:

جاء في كثير من الأحاديث أنّ أئمّة الإسلام كانوا يقولون: ما الدين إلّا الحب. ومن ذلك ما جاء في «الخصال» و«الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «وهل الدِّين إلّا الحبّ؟» ثمّ تلا هذه الآية: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

هذه الأحاديث تريد أن تبيّن أنّ حقيقة الدين وروحه هي الإيمان بالله وحبّه، ذلك الإيمان والعشق اللّذَين يعمّ نورهما كلّ الوجود الإنساني ويضيئانه، وتتأثر بهما الأعضاء والجوارح، ويظهر أثرهما في اتّباع أوامر الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

يستفاد من هذه الآية أنّ إطاعة الله، وإطاعة الرسول لا تنفصلان، وأن إطاعة الرسول ﷺ هي إطاعة الله وإطاعة الله هي إطاعة الرسول ﷺ.

ثمّ إنّ النّبي الأعظم بما هو نبيّ ورسول كان يَتحمَّل من جانبه سبحانه أموراً ووظائف هامة تنبع من صميم نُبوَّته ورسالته ونشير إلى أهمها:

الأول: تلاوة وتعليم الآيات القرآنية، التي كان ينزل بها أمين الوحي جبرائيل، على قلبه الشريف، تلك الآيات كانت تتضمن الأوامر والنواهي الإلهية، مثل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وما شابه ذلك.

الثاني: إبلاغ الأحكام والأوامر والنواهي بالبيان الشخصي والمراد من البيان الشخصي هو «الأحاديث» والألفاظ التي يكون إنشاؤها النّبي نفسه، فيما يكون معانيها من جانب الله تعالى، وهو ما يطلق عليه «الحديث النبوي» حسب ما اصطلح عليه.

ولم يكن للنبي ـ في إبلاغه لرسالات ربّه من شأن ـ سواء أكان عن طريق تلاوة القرآن أم عن طريق أحاديثه ـ إلا كونه رسولاً ومبلغاً لأوامره ونواهيه سبحانه.

وإذا ما وجدنا القرآن الكريم يصف النّبي بأنّه: «الشاهد والبشير والنذير» وما شابه ذلك فإنّ تلك الأوصاف ليست ناظرة إلا إلى هذه الوظائف التي ما كان للنبي فيها من دور إلا دور المبلغ فحسب.

الثالث: أعمال الولاية الإلهية الموهوبة له من الله سبحانه بقوله: ﴿ٱلنَّبِىُّ

أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. ومن الواضح أن أعمالها تحتاج إلى إصدار أوامر ونواهي إلى المؤمنين ولا ينجح النّبي في هذا المقام إلا أن يكون مطاعاً بين أمته.

وهذا كما لو أمر بتجييش الجيش، والنفر إلى الجهاد، ومكافحة الظالمين إلى غير ذلك مما يتقوم به إصلاح المجتمع، ولأجل ذلك عد الله سبحانه مخالفة النّبي معصية ربّما توجب الخروج عن الدين.

وما ورد من الآيات الدالة على لزوم طاعة النّبي ناظرة إلى هذا القسم من الأوامر الناشئة من هذا المقام. إن مقام النّبي في هذه الصورة هو مقام القائد الذي يأمر من يكون تحت قيادته وإمرته أو ينهاه، وليس مقام الإبلاغ المحض الذي ليس له شأن سوى إبلاغ أحكامه سبحانه.

فقد تقتضي المصالح الإسلامية ـ مثلاً ـ أن يدفع المسلمون ـ عدا الحقوق المالية الواجبة عليهم ـ مبالغ إضافية في سبيل المصالح الإسلامية أو قد يطلع النّبي ﷺ ـ على ظلم رجل لزوجته ـ ويرى في استمرار العلاقة الزوجية بينهما حرجاً لا يطاق وعسراً لا يحتمل وفي مثل هذه الصور يأمر النّبي ﷺ بدفع الضرائب الخاصّة للدولة الإسلامية وإطلاق سراح الزوجة حسماً لمادة الفساد، ويجب على المؤمنين إطاعته، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ففي هذه الآية التي تتحدث عن معصية الله والرسول ليس المقصود هو معصية الرسول بما هو مبلغ لرسالات الله وأحكامه، إذ ليس في هذه الحالة للرسول الأعظم أي أمر ونهي حتى تُعدُّ مخالفته مخالفة للرسول بل هو في هذه الحالة ليس إلّا مبلّغاً ومنبّئاً ورسولاً بين الله وعباده.

إنّ معصية الرسول إنّما تتحقق إذا كانت الأوامر صادرة عن موقع القيادة والإمرة وعند ذلك يُعدُّ الأمر والنهي أمراً ونهياً له، وتعد المخالفة مخالفة له.

والعجب أن صاحب المنار حصر إطاعة النّبي في مورد الأحكام التي أمر الله رسوله أن يبلغها عنه حيث قال: «قضت سنّة الله بأن يبلغ عنه شرعه للناس

رسل منهم وتكفل عصمتهم في التبليغ ولذلك وجب أن يطاعوا في ما يبينون من الدين والشرع.

مثال ذلك أن الله تعالى هو الذي شرّع لنا عبادة الصلاة وأمرنا بها ولكنه لم يبين لنا في الكتاب كيفيتها وعدد ركعاتها ولا ركوعها ولا سجودها ولا تحديد أوقاتها فبينها الرسول بأمره تعالى إيّاه بذلك في مثل قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فهذا البيان بإرشاد من الله تعالى فاتباعه لا ينافي التوحيد ولا كون الشارع هو الله وحده»[1].

وضعف هذا الكلام ظاهر إذ ليس للنّبي الأكرم في هذا المضمار أي أمر ولا نهي وإنّما هو مجرد مبلغ أو مذكر وليس له عليهم أي سلطة وسيطرة وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

(١) راجع المنار، ج٥، ص١٨٠.

بيعة الرضوان في القرآن

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ١٨-١٩].

التّفسير

رضي الله عن المشتركين في بيعة الرضوان:

ذكرنا آنفاً أنّه في الحديبيّة جرى حوار بين ممثلي قريش والنّبي ﷺ وكان من ضمن السفراء «عثمان بن عفان» الذي تشدّه أواصر القُربى بأبي سفيان، ولعلّ هذه العلاقة كان لها أثر في انتخابه ممثلاً عن النّبي ﷺ فبعثه إلى أشراف مكّة ومشركي قريش ليطلعهم على أنّ النّبي لم يكن يقصد الحرب والقتال بل هدفه زيارة بيت الله واحترام الكعبة المشرّفة بمعية أصحابه. . .إلّا أنّ قريشاً أوقفت عثمان مؤقتاً وشاع على أثر ذلك بين المسلمين أنّ عثمان قد قُتل! فقال النّبي ﷺ: لا أبرح مكاني هذا حتى أقاتل عدوّي!

ثمّ جاء إلى شجرة هناك فطلب من المسلمين تجديد البيعة تحتها، وطلب منهم أن لا يقصّروا في قتالهم المشركين وأن لا يُولّوا أدبارهم من ساحات القتال[1].

بلغ صدى هذه البيعة مكّة واضطربت قريش من ذلك بشدّة وأطلقوا عثمان.

وكما نعرف فإنّ هذه البيعة عُرفت ببيعة الرضوان وقد أفزعت المشركين وكانت منعطفاً في تاريخ الإسلام.

---

(١) مجمع البيان، ذيل الآيات محل البحث.

فالآيتان محل البحث تتحدّثان عن هذه القصّة فتقول الأولى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

والهدف من هذه البيعة الإنسجام أكثر فأكثر بين القوى وتقوية المعنويات وتجديد التعبئة العسكرية ومعرفة الأفكار واختبار ميزان التضحية من قبل المخلصين الأوفياء!

وهذه البيعة أعطت رَوْحاً جديدة في المسلمين لأنّهم أعطوا أيديهم إلى النبيّ واظهروا وفاءهم من أعماق قلوبهم.

فأعطى الله هؤلاء المؤمنين المضحّين والمؤثرين على أنفسهم رسول الله في هذه اللحظة الحسّاسة والذين بايعوه تحت الشجرة أعطاهم أربعة أجور، ومن أهمّ تلك الأجور والإثابات الأجر العظيم وهو «رضوانه» كما عبّرت عنه الآية (٧٢) من سورة التوبة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾... أيضاً.

ثمّ تضيف الآية قائلة: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

سكينة واطمئناناً لا حدّ لهما، وهم بين سيل الأعداء في نقطة بعيدة عن الأهل والديار والعدو مدجّج بالسلاح، في حين أن المسلمين عُزّل من السلاح «لأنّهم جاؤوا بقصد العمرة لا من أجل المعركة» فوقفوا كالجبل الأشم لم يجد الخوف طريقاً إلى قلوبهم!

وهذا هو الأجر الثّاني والموهبة الإلهية الأخرى، وأساساً فإنّ الألطاف الخاصة والإمدادات الإلهية تشمل حال المخلصين والصادقين.

لذلك فإنّنا نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول يا ربّ ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير فإذا علم الله عزّ وجلّ ذلك منه بصدق نيّته كتب الله له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله إنّ الله واسع كريم»[١].

وفي ذيل هذه الآية إشارة إلى الأجر الثالث إذ تقول: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٩٩.

أجل، هذا الفتح وهو فتح خيبر كما يقول أغلب المفسّرين [وإن كان يرى بعضهم أنّه فتح مكّة] هو ثالث أجر وثواب للمؤمنين المؤثرين، المضحّين.

والتعبير بـ«قريباً» تأييد على أنّ المراد منه «فتح خيبر»، لأنّ هذا الفتح حدث وتحقّق بعد بضعة أشهر من قضيّة الحديبيّة وفي بداية السنة السابعة للهجرة!

والأجر الرابع أو النعمة الرابعة التي كانت على أثر بيعة الرضوان من نصيب المسلمين كما تقول الآية التالية هي: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

وواحدة من هذه الغنائم الكثيرة هي «غنائم خيبر» التي وقعت في أيدي المسلمين بعد فترة قصيرة من قضية الحديبيّة، ومع الإلتفات إلى ثروة اليهود الكثيرة جدّاً تعرف أهمية هذه الغنائم.

إلّا أنّ تحديد هذه الغنائم بغنائم خيبر لا دليل قطعي عليه، ويمكن عدّ الغنائم الأُخرى التي وقعت في أيدي المسلمين خلال الحروب الإسلامة بعد فتح (الحديبيّة) في هذه الغنائم الكثيرة!

وحيث إنّ على المسلمين أن يطمئنوا بهذا الوعد الإلهي اطمئناناً كاملاً فإنّ الآية تضيف في الختام: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

فإذا ما أمركم في الحديبيّة أن تصالحوا فإنّما هو على أساس من حكمته، حكمة كشف عن أسرارها الأستار مضي الزمن، وإذا ما وعدكم بالفتح القريب والغنائم الكثيرة فهو قادر على أن يُلبس وعده ثياب الإنجاز والتحقّق!

وهكذا فإنّ المسلمين المضحّين الأوفياء أولي الإيمان والإيثار اكتسبوا في ظل بيعة الرضوان في تلك اللحظات الحسّاسة انتصاراً في الدنيا والآخرة، في حين أنّ المنافقين الجهلة وضعاف الإيمان احترقوا بنار الحسرات!

ونختم حديثنا بكلام لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يتحدّث عن بسالة المسلمين الأوائل وثباتهم وجهادهم الذي لا نظير له ويخاطب ضعاف الإيمان موبّخاً إيّاهم على خذلانهم فيقول: «فلمّا رأى الله صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت وأنزل

علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقياً جرانه ومتبوّئاً أوطانه ولعمري لو كنّا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود، ولا اخضرّ للإيمان عود وأيم الله لتحتلبنّها دماً ولتتبعنّها ندماً!»[١].

بحث

البيعة وخصوصيّاتها:

«البيعة» من مادة «بيع» وهي في الأصل إعطاء اليد عند إقرار المعاملة. ثمّ أطلق هذا التعبير على مدّ اليد على المعاهدة، وهكذا كانت حين كان الشخص يريد أن يعلم الآخر بوفائه له وأن يطيع أمره ويعرفه رسميّاً فيبايعه ويمدّ يده، ولعلّ إطلاق هذه الكلمة من جهة أنّ كلاًّ من الطرفين يتعهّد كما يتعهّد ذوو المعاملة فيما بينهما، وكان المبايع مستعداً أحياناً أن يضحّي بروحه أو بماله أو بولده في سبيل الطاعة! والذي يقبل البيعة يتعهّد على رعايته وحمايته والدفاع عنه!

يقول «ابن خلدون» في مقدمة تاريخه في هذا الصدد «كانوا إذا بايع الأمير جعل أيديهم في يده تأكيداً فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري»[٢].

وتدل القرائن على أنّ البيعة ليست من إبداعات المسلمين، بل هي سنّة متّبعة بين العرب قبل الإسلام، ولهذا السبب فإنّ طائفة «الأوس والخزرج» جاؤوا في بداية الإسلام خلال موسم الحج من المدينة إلى مكّة وبايعوا النّبي ﷺ في العقبة، وكان تعاملهم في قضية البيعة يوحي بأنّها أمر معروف، وبعدها وخلال فرص ومناسبات متعدّدة جدّد النّبي البيعة مع المسلمين، وكانت إحداها هذه البيعة التي عرفت ببيعة الرضوان في الحديبيّة، وأوسع منها البيعة التي كانت عند فتح مكّة.

ولكن كيف تتم البيعة؟!... بصورة عامّة تتمّ البيعة كما يلي:

يمدّ المبايع يده إلى يد المبايَع ويُبدي الطاعة والوفاء بلسان الحال أو المقال!... وربّما ذكر شروطاً أو حدوداً لبيعته كأن يعقد البيعة على بذل ماله! أو بذل روحه أو بذل جميع الأشياء حتى الولد والمرأة!

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٥٦.
(٢) مقدمة ابن خلدون، صفحة ١٧٤.

وقد تقع البيعة أحياناً على أن لا يفرّ المبايعُ أبداً أو أن يبقى على عهده وبيعته حتى الموت «وكان هذان المعنيان جميعاً في بيعة الرضوان كما صرَّحت بذلك التواريخ».

وكان النّبي الكريم يقبلُ بيعة النساء أيضاً لكن لا على أن يمددن أيديهنّ إلي يده الكريمة بل كان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده في طرف منه وتدخل يدها في طرف آخر.

وكان يشترط في البيعة أحياناً على عمل معيّن أو ترك عمل معيّن كما اشترط النبّي ﷺ على النساء المبايعات له بعد مكّة على ألّا ﴿يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وعلى كلّ حال فإنّ في أحكام البيعة بحوثاً مختلفة نشير إليها هنا على نحو الإيجاز والإختصار وإن كانت مسائل هذا البحث محاطة بهالة من الإبهام في الفقه الإسلامي:

١ ـ «ماهيَّة البيعة» نوع من العقد والمعاهدة بين المبايِع من جهة والمبايَع من جهة أُخرى، ومحتواها الطاعة والإتّباع والدفاع عن المبايَع، ولها درجاتٌ طبقاً للشروط التي يذكرونها فيها: ويستفاد من لحن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أنّ البيعة نوع من العقد اللازم من جهة المبايِع، ويجب العمل طبقاً لما بايع عليه، ويكون مشمولاً بالقانون الكلّي «أوفوا بالعقود» فعلى هذا لا يحقّ للمبايِع الفسخ، ولكن المبايَع له أن يفسخ البيعة إن وجد في الأمر صلاحاً وفي هذه الصور يتحرر المبايِع من بيعته(١).

٢ ـ ويرى البعض أنّ البيعة شبيهة بالإنتخابات أو نوعاً منها، في حين أنّ الإنتخابات على العكس منها تماماً، أي أنّ ماهيتها نوع من إيجاد المسؤولية الوظيفية والمقام للمُنتَخَب، أو بتعبير آخر هي نوع من التوكيل في عمل ما

---

(١) نقرأ في حادثة كربلاء أنّ الإمام الحسين عليه السلام خطب أصحابه ليلة العاشر من المحرم وأحلّ بيعته من أصحابه بعد أن أظهر تقديره لهم وشكرهم على مواساتهم إيّاه لينطلقوا حين يشاؤون فقال: «انطلقوا في حِلٍّ منّي ليس عليكم منّي ذمام» لكنّهم لم يتركوا الحسين عليه السلام وبقوا على وفائهم [الكامل: لابن الأثير، ج٤، ص٥٧].

بالرغم من أنّ الإنتخاب يقتضي وظائف على المُنْتَخِبِ أيضاً «كسائر الوكالات» في حين أنّ البيعة ليست كذلك!

وبتعبير آخر إنّ الإنتخابات تعني إعطاء «المقام» وكما قلنا هي شبيهة بالتوكيل في حين أنّ البيعة تعهد بالطاعة!

ومن الممكن أن يتشابه كلٌّ من البيعة والإنتخاب في بعض الآثار، لكن هذا التشابه لا يعني وحدة المفهوم والماهية أبداً...

ولذلك لا يمكن للمبايع أن يفسخ البيعة، في حين أنّ المنتخبين لهم الحق في الفسخ في كثير من المواطن بحيث يستطيع جماعةٌ ما أن يعزلوا المنتخب «فلاحظوا بدقة»! (الأمثل).

٣ ـ وبالنسبة للنّبي ﷺ والأئمّة المعصومين المنصوبين من قبل الله تعالى لا حاجة لهم بالبيعة، أي أنّ طاعة النّبي ﷺ والإمام المعصوم والمنصوب من قبل الله واجبة سواءً على من بايع أو لم يبايع!

وبتعبير آخر: إنّ لازم مقام النبوّة والإمامة وجوب الطاعة كما يقول القرآن الكريم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

لكن ينقدح هنا هذا السؤال وهو إذا كان الأمر كذلك فعلامَ أخذ النّبي من أصحابه ـ البيعة كراراً ـ أو المسلمين الجدد، وقد ورد في القرآن الإشارة إلى حالتين منها بصراحة إحداهما «بيعة الرضوان» ـ محل البحث ـ والأخرى «البيعة مع أهل مكّة» المشار إليها في سورة الممتحنة!

وفي الإجابة على هذا السؤال نقول: لا شك أنّ هذه المبايعات كانت نوعاً من التأكيد على الوفاء، وقد أدّيت في ظروف خاصة ولاسيما في مواجهة الأزمات والحوادث الصعبة لتنبض في ظلّها روح جديدة في الأفراد كما وجدنا تأثيرها المذهل في بيعة الرضوان في البحث السابق!...

إلّا أنّه فيما يتعلّق بمبايعة الخلفاء فقد كانت البيعة على أساس أنّها قبول لمقام الخلافة وإن كنّا لا نعتقد بخلافة من يخلف النّبي والتي تؤخذ البيعة لها عن طريق الناس، بل هي من قبل الله وتتحقّق بالنص من قبل النّبي أو الإمام السابق على اللاحق!

ومن هذا المنطلق فإنّ البيعة التي بايعها المسلمون لعلي عليه السلام أو للحسن أو الحسين عليهما السلام فيها (جنبة) تأكيد على الوفاء وهي شبيهة ببيعة النّبي صلى الله عليه وآله.

٤ ـ هل البيعة في العصر الحاضر مقبولة على أنّها أصل إسلامي، أو بتعبير آخر: هل يمكن تعميم البيعة، وهل للجماعة الفلانية أن تختار شخصاً لائقاً وواجداً للشرائط الشرعية كأن يكون آمراً للقوات المسلّحة أو رئيساً للجمعية أو رئيساً للحكومة فتبايعه؟ فهل أنّ مثل هذه البيعة مشمول بأحكام الشارع للبيعة؟!

وحيث إنّه لا يوجد عموم ولا إطلاق في القرآن والسنّة في خصوص البيعة فمن المشكل تعميم هذه المسألة وإن كان الإستدلال بعموم الآية: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] غير بعيد!

ولكن مع هذا الإبهام في المسائل المرتبطة بالبيعة فإنّ هناك مانعاً من أن نعوّل بصورة قطعية على ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وخاصّةً أنّنا لا نجد في الفقه أي مورد للبيعة لغير النّبي والإمام المعصوم.

وينبغي الإلتفات إلى هذه «اللطيفة» وهي أن مقام نيابة الوليّ الفقيه في نظرنا مقام منصوص عليه من قبل الأئمّة المعصومين عليهم السلام ولا حاجة له بالبيعة وبالطبع فإنّ اتباع الناس للولي الفقيه وطاعتهم له يمنحه الإمكان من الإستفادة من هذا المقام ويعطيه ـ كما هو مصطلح عليه ـ بسط اليد، لكنّ هذا لا يعني أنّ مقامه مشروط بتبعيّة الناس له، ثمّ إنّ اتباع الناس إيّاه لا علاقة له بالبيعة، بل هو عمل بحكم الله في شأن ولاية الفقيه «فلاحظوا بدقة». (الأمثل).

٥ ـ وعلى كلّ حال، فإنّ البيعة مرتبطة بالمسائل الإجرائية ولا علاقة لها بالأحكام، أي إنّ البيعة لا تمنح أحداً حق «التشريع والتقنين» أبداً . . . بل يجب أن تؤخذ القوانين من الكتاب والسنّة ثمّ تنفذ في حيّز الواقع، ولا كلام لأحد في هذا.

٦ ـ يُستفاد من الرّوايات أنّ البيعة مع الإمام المعصوم ينبغي أن تكون خالصةً لله، وبتعبير آخر هي من الأمور التي يلزم فيها قصد القربة.

فقد ورد عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله عزّ وجلّ يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم، رجل بايع إماماً لا يبايعه إلّا للدنيا، إن أعطاه ما يريده وَفَى له وإلّا كفّ، ورجلاً بايع رجلاً بسلعته بعد

العصر فحلف بالله عزَّ وجلَّ لقد أُعطيَ بها كذا وكذا فصدّقه وأخذها ولم يُعط فيها ما قال ورجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل»[١] «والتعبير بالعصر لعلّه لشرف هذا الوقت أو لأنّ كثيراً من الباعة يبيعون أجناسهم بالقيمة التي اشتروها في هذا الوقت».

٧ ـ «نكث البيعة» من الذنوب الكبيرة، ونقرأ حديثاً عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال: «ثلاث موبقات، نكث الصفقة، وترك السنّة، وفراق الجماعة»[٢].

ويظهر أنّ المراد من «ترك السنّة» هي ترك القوانين التي جاء بها النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وفراق الجماعة معناها الإعراض عنها لا محض عدم المشاركة في الجماعة.

٨ ـ البيعة في كلام الإمام عليّ عليه السلام. هناك في نهج البلاغة كلمات تؤكّد على البيعة وقد عوّل الإمام عليّ عليه السلام عليها مراراً وأنّ الناس بايعوه.

ومن جملتها أنّه قال في بعض خطبه: «أيّها الناس إنّ لي عليكم حقّاً ولكم عليَّ حق فأمّا حقكم عليَّ فالنصيحة لكم وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا» ثمّ يضيف عليه السلام: «وأمّا حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة بالمشهد والمغيب والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم»[٣].

ويقول عليه السلام في مكان آخر: «لم تكن بيعتكم إيّاي فلتةً»[٤].

وفي خطبته التي خطبها قبل حرب الجمل والتحرّك من المدينة نحو البصرة أشار إلى بيعة الناس إيّاه وأن يثبتوا على ما بايعوه فقال عليه السلام: «وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيّرين»[٥].

ونقرأ أخيراً في بعض كتبه لمعاوية حين لم يبايع الإمام عليّاً وكان يريد

---

(١) الخصال: باب الثلاثة ـ الحديث ٧٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٧، ص١٨٥.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٣٤.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٣٦.

(٥) نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام رقم ١.

الإنتقاد من علي عليه السلام قوله: «بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد»[١].

ويستفاد من بعض عبارات النهج أنّ البيعة ليست أكثر من مرة واحدة ولا سبيل لتجديد النظر فيها وليس فيها اختيار الفسخ، ومن يخرج منها فهو طاعن، ومن يتريث ويفكر في قبولها أو ردّها فهو منافق.

[إنّها بيعة واحدة لا يثنّى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار، الخارج منها طاعن والمروّي فيها مداهن][٢].

ويستفاد من مجموع هذه التعابير أنّ الإمام عليه السلام استدلّ على من لم يقبلوا بأنّ إمامته منصوص عليها من قبل النّبي ﷺ - وكانوا يتذرّعون بحجج واهية - بالبيعة التي كانت عندهم من المسلم بها، ولم تكن لهم الجرأة على أن يرفضوا طاعة الإمام ويسمعوا لمعاوية وأمثال معاوية، بأنّ خلافة الإمام مشروعة أيضاً وأن يذعنوا له «بل إنّ خلافته أكثر شرعيةً لأنّ بيعته كانت أوسع وكانت حسب رغبة الناس ورضاهم».

فبناءً على هذا لا منافاة بين الإستدلال بالبيعة ومسألة نصب الإمام بواسطة الله والنّبي ﷺ وتأكيد البيعة.

لذلك فإنّ الإمام يشير في مكان من (نهج البلاغة) نفسه بحديث الثقلين الذي هو من نصوص الإمامة كما يشير في مكان آخر إلى مسألة الوصية والوراثة. [فلاحظوا بدقّة].

كما يشير عليه السلام في بعض عباراته الأُخرى إلى لزوم الوفاء بالبيعة وعدم إمكان الفسخ والنكث وتجديد النظر وعدم الحاجة إلى التكرار وهذه هي مسائل مقبولة بالنسبة للبيعة أيضاً.

ويستفاد من هذه التعابير ضمناً بصورة جيّدة إذا كانت فيها «جنبة» إكراه أو إجبار أو أُخذت على حين غرّة من الناس فلا عبرة بها ولا قيمة لها بل البيعة الحق التي تكون في حال الإختيار والحرية والإرادة والتفكّر والتدبّر.

---

(١) من كتاب له عليه السلام رقم ٦، وينبغي الإلتفات إلى أنّ التعويل على بيعة الخلفاء السابقة هو لأنّ معاوية كان منصوباً من قِبلهم وكان يدافع عنهم فلا منافاة بين هذا وما جاء في الخطبة المعروفة بالشقشقية.

(٢) نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام برقم ٧.

الشفاعة في القرآن

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

العقاب الإلهي في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا ينزل بساحة الإنسان دون شك من أجل الإنتقام. بل إن العقوبات الإلهية تشكل عنصر الضمان في تنفيذ القوانين، وتؤدي في النتيجة إلى تقدم الإنسان وتكامله، من هنا يجب الاحتراز عن أي شيء يضعف من قوّة عنصر الضمان هذا، كي لا تنتشر بين الناس الجرأة على ارتكاب المعاصي والذنوب.

من جهة أخرى، لا يجوز غلق باب العودة والإصلاح بشكل كامل في وجه المذنبين، بل يجب فسح المجال لإصلاح أنفسهم وللعودة إلى الله وإلى الطهر والتقوى.

«الشفاعة» بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل. إنها وسيلة لعودة المذنبين والملوثين بالخطايا، وبمعناها الخاطىء تشجع على ارتكاب الذنوب.

أولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح والخاطىء لمسألة الشفاعة، أنكروا هذه المسألة بشكل كامل، واعتبروها شبيهة بالوساطات التي تقدم إلى السلاطين والحكام الظالمين.

وثمّة مجموعة استندوا إلى الآية الكريمة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨] فأنكروا الشفاعة تماماً، دون الإلتفات إلى سائر الآيات في هذا المجال.

اعتراضات المنكرين لمسألة الشفاعة يمكن تلخيصها بما يلي:

١ ـ الإعتقاد بالشفاعة، يضعف روح السعي والمثابرة في نفس الإنسان.

٢ ـ الإعتقاد بالشفاعة، انعكاس عن ظروف المجتمعات المتأخرة والإقطاعية.

٣ ـ الإعتقاد بالشفاعة، يؤدي إلى التشجيع على ارتكاب الذنوب وترك المسؤوليات.

٤ ـ الإعتقاد بالشفاعة، نوع من الشرك بالله، وهو معارض للقرآن!

٥ ـ الإعتقاد بالشفاعة، يعني تغيير أحكام الله وتغيير إرادته وأوامره!

ولكن كل هذه الإعتراضات ناتجة ـ كما سنرى ـ عن الخلط بين الشفاعة بمفهومها القرآني، والشفاعة بمعناها المنحرف الرائج بين الجهلة من النّاس.

ولما كانت هذه المسألة في جانبها الإيجابي والسلبي ذات أهمية بالغة، فعلينا أن ندرسها بالتفصيل من حيث مفهومها وفلسفتها، وارتباطها بعالم التكوين، وموقعها في القرآن والحديث، وصلته بالتوحيد والشرك، كي يزول كل إبهام يرتبط بالآية المذكورة وسائر الآيات في حقل الشفاعة.

١ ـ المفهوم الحقيقي للشّفاعة:

قال في الأمثل: كلمة «الشفاعة» من «الشفع» بمعنى «الزوج» و«ضم الشيء إلى مثله»، يقابلها «الوتر» بمعنى «الفرد». ثم أطلقت على انضمام الفرد الأقوى والأشرف إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف، ولها في العرف والشرع معنيان متباينان كل التباين:

أ): إن الشفاعة لدى السواد تعني أن الشفيع يستفيد من مكانته وشخصيته ونفوذه، لتغيير رأي صاحب قدرة بشأن معاقبة من هم تحت سيطرته.

والشفيع قد يرعب صاحب القدرة هذا، أو قد يستعطفه، أو قد يغير أفكاره، بشأن ذنب المجرم واستحقاقه للعقاب... وأمثال هذه الأساليب.

الشفاعة بهذا المعنى هي ـ بعبارة موجزة ـ لا تعني حدوث أي تغيير في المحتوى النفسي والفكري للمجرم أو المتهم، بل إن كل التغييرات والتحولات تتوجه نحو الشخص الذي تقدم إليه الشفاعة (تأمل بدقّة).

هذا اللون من الشفاعة ليس له مكانة في المفهوم الديني على الإطلاق، لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يخطىء حتى يتوسط الشفيع في تغيير رأيه، ولا يحمل تلك العواطف الموجودة في نفس الإنسان كي يتمكن من إثارة عواطفه، ولا يهاب نفوذ شخص كي ينصاع لأوامره، ولا يدور ثوابه وعقابه حول محور العدالة.

ب): المفهوم الآخر للشفاعة يقوم على أساس تغيير موقف «المشفوع له». أي أنّ الشخص المشفوع له يوفّر في نفسه الظروف والشروط التي تؤهّله للخروج من وضعه السيّىء الموجب للعقاب، وينتقل ـ عن طريق الشفيع إلى وضع مطلوب حَسَن يستحق معه العفو والسماح. والإيمان بهذا النوع من الشفاعة ـ كما سنرى ـ يربّي الإنسان، ويصلح الأفراد المذنبين، ويبعث فيهم الصحوة واليقظة. والشفاعة في الإسلام لها هذا المفهوم السامي.

وسنرى أنّ كل الإعتراضات والإنتقادات والحملات التي توجه إلى مسألة الشفاعة، إنّما تنطلق من فهم الشفاعة بالمعنى الأوّلي المنحرف، ولا تلتفت إلى المعنى الثاني المنطقي المعقول البنّاء.

هذا تفسير مقتضب للونين من ألوان الشفاعة. أحدهما «تحذيري» والآخر «بنّاء».

٢ ـ الشّفاعة في عالم التكوين:

التّفسير الصحيح والمنطقي للشفاعة ـ بالمفهوم الذي مرّ بنا ـ له مصاديق كثيرة في عالم التكوين والخلقة، (إضافة إلى عالم التشريع). الطاقات الأقوى في هذا العالم تنضم إلى الأضعف منها لتسيّرها نحو أهداف بنّاءة.

الشمس تشرق والأمطار تتساقط، لتفجّر القوّة الكامنة في البذرة لتحركها نحو الإنبات، ونحو شقّ جسم التربة والخروج إلى الفضاء الذي استمدت منه البذرة طاقات النموّ والتكامل.

هذه الظواهر هي في الحقيقة شفاعة تكوينية على صعيد قيامة الحياة الدنيا. ولو انطلقنا من هذه النماذج الكونية في الشفاعة لفهم الشفاعة على صعيد التشريع، لابتعدنا عن الانحراف، وسنوضّح ذلك قريباً.

٣ ـ مستندات الشفاعة:

القرآن الكريم تحدث في ثلاثين موضعاً عن مسألة «الشفاعة» (بهذا اللفظ)، وهناك إشارات أُخرى إلى هذه المسألة دون ذكر اللفظ.

يمكن تقسيم آيات الشفاعة في القرآن إلى المجموعات التالية:

المجموعة الأولى: آيات ترفض الشفاعة بشكل مطلق كقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

هذه الآيات رفضت كل الطرق المتصورة لإنقاذ المجرمين غير الإيمان والعمل الصالح، سواء كان طريق دفع العوض المادي، أو طريق الصداقة والخلّة، أو طريق الشفاعة.

ويقول تعالى بشأن بعض المجرمين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

المجموعة الثانية: آيات تحصر الشفاعة بالله تعالى كقوله سبحانه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]. و﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]

المجموعة الثالثة: آيات تجعل الشفاعة متوقفة على إذن الله تعالى كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

المجموعة الرابعة: آيات تبين شروطاً خاصة للمشفوع له. هذه الشروط تتمثل أحياناً في رضا الله سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

واستناداً إلى هذه الآية، شفاعة الشفعاء تشمل فقط أولئك الذين بلغوا مرتبة «الإرتضاء» أي القبول لدى الله سبحانه وتعالى.

ويتمثل الشرط أحياناً بالعهد عند الله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]. والمقصود من هذا العهد الإيمان بالله ورسوله.

ويتحدث القرآن عن سلب صلاحية الإستشفاع عن بعض الأفراد مثل المجرمين، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

ممّا تقدم يتضح أن اتخاذ العهد الإلهي، والوصول إلى منزلة نيل رضا الله، واجتناب بعض الذنوب مثل الظلم، شروط حتمية للشفاعة.

٤ ـ الشروط المختلفة للشفاعة:

آيات الشفاعة تصرّح أن مسألة الشفاعة في مفهوم الإسلام مقيدة بشروط، هذه الشروط تحدد تارة الخطيئة التي يستشفع المذنب لها، وتحدّد تارة أخرى

الشخص المشفوع له، كما تفيد من جهة أخرى الشفيع، وهذه الشروط بمجموعها تكشف عن المفهوم الحقيقي للشفاعة وعن فلسفتها.

ثمة ذنوب كالظلم مثلاً خارجة عن دائرة الشفاعة حيث يقول القرآن: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] كما مرّ، ولو فهمنا «الظلم» بمعناه الواسع ـ من خلال الأحاديث ـ فإنّ الشفاعة تقتصر حينئذٍ على المجرمين النادمين السائرين على طريق إصلاح أنفسهم، والشفاعة في هذه الحالة ستكون دعامة للتوبة والندم (سنجيب أولئك الذين يتصورون أن التائب النادم لا يحتاج إلى الشفاعة).

كما أنّ الشفاعة ـ وطبقاً للآية (٢٨) من سورة الأنبياء ـ لا تشمل إلّا أولئك المرتقين إلى درجة «الإرتضاء» وإلى درجة الإلتزام بالعهد الإلهي كما مرّ أيضاً في الآية (٨٧) من سورة مريم.

الإرتضاء، واتخاذ العهد، يعنيان على المستوى اللغوي وكذلك ما ورد في الرّوايات في تفسير هذه الآيات الإيمان بالله والحساب والميزان والثواب والعقاب، والإعتراف بالحسنات والسيئات، وبما أنزل الله، إيماناً عميقاً في الفكر، ظاهراً في العمل... إيماناً يبعد صاحبه عن صفات الظالمين الذين لا يؤمنون بأي قيمة إنسانية، ويدفعه إلى إعادة النظر في منهج حياته.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، هذه الآية تجعل الإستغفار مقدمة لشفاعة رسول الله ﷺ.

ويقول: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾ [يوسف: ٩٧-٩٨]، آثار الندم واضحة على إخوة يوسف في طلبهم من أبيهم.

ويقول سبحانه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فاستغفار الملائكة وشفاعتهم تقتصر على الأفراد المؤمنين السالكين سبيل الله.

وهنا يطرح أيضاً سؤال بشأن جدوى الشفاعة للأفراد المؤمنين السالكين سبيل الله، وسنجيب على ذلك في دراسة حقيقة الشفاعة.

وبشأن الشفعاء ذكر القرآن لهم شرطاً في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦]. من هنا فالمشفوع له أيضاً ينبغي أن يسلك طريق الحق في القول والعمل، كي يكون له إرتباط بالشفيع، وهذا الإرتباط الضروري بين الشفيع والمشفوع له يعتبر بدوره عاملاً بنّاءً في تعبئة الطاقات على طريق الحق.

٥ ـ الشّفاعة في الحديث:

في الرّوايات الإسلامية تعابير كثيرة تكمل محتوى الآيات المذكورة وتوضّح ما خفي منها، من ذلك:

١ ـ في تفسير «البرهان» عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي...» راوي الحديث ابن أبي عمير يقول: فقلتُ له: يا بن رسول الله كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ ومن يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى به؟ فقال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّا ساءهُ ذلك وندم عليه وقد قال النّبي صلى الله عليه وآله كفى بالندم توبة... ومن لم يندم على ذنبٍ يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشّفاعة وكان ظالماً والله تعالى ذِكرُهُ يقول: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1].

صدر الحديث يتضمن أن الشّفاعة تشمل مرتكبي الكبائر. لكن ذيل الحديث يوضح أن الشرط الأساسي في قبول الشفاعة هو الإيمان الذي يدفع المجرم إلى مرحلة الندم وجبران ما فات، ويبعده عن الظلم والطغيان والعصيان. (تأمل بدقّة).

٢ ـ في كتاب «الكافي» عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في رسالة كتبها إلى أصحابه قال: «من سرّهُ أن ينفعه شفاعة الشّافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه»[2].

---

(١) تفسير البرهان، ج٣، ص٥٧.

(٢) عن بحار الأنوار، ج٣، ص٣٠٤ الطبعة القديمة.

يتبين من سياق الرواية أن كلام الإمام يستهدف إصلاح الخطأ الذي وقع فيه بعض أصحاب الإمام في فهم مسألة الشفاعة: ويرفض بصراحة مفهوم الشفاعة الخاطىء المشجع على ارتكاب الذنوب.

٣ ـ وعن الصادق عليه السلام أيضاً: «إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقفا بين يدي الله عزَّ وجلَّ قيل للعابد: إنطلق إلى الجنّة، وقيل للعالم: قف تشفعُ للناس بحُسنِ تأديبك لهم»[١].

في هذا الحديث نجد إرتباطاً بين «تأديب العالم» و«شفاعته لمن أدّبهم» وهذا الإرتباط يوضّح كثيراً من المسائل المبهمة في بحثنا هذا.

أضف إلى ما سبق أن في اختصاص الشفاعة بالعالم وسلبها من العابد، دلالة أخرى على أن الشفاعة في المفهوم الإسلامي ليست معاملةً وعقداً وتلاعباً بالموازين، بل مدرسة للتربية، وتجسيد لما مرّ به الفرد من مراحل تربوية في هذا العالم.

٦ ـ التّأثير المعنوي للشّفاعة:

ما ذكرناه من روايات بشأن الشفاعة هو غيض من فيض، فالرّوايات في هذا المجال كثيرة تبلغ حدّ التواتر، وإنّما اخترنا منها ما يتناسب مع بحثنا.

النووي الشافعي[٢] في شرحه لصحيح مسلم، نقل عن القاضي عياض ـ وهو من كبار علماء أهل السنّة، ـ أنّ أحاديث الشفاعة متواترة[٣].

ابن تيمية (المتوفّى ٧٢٨ هـ) ومحمّد بن عبد الوهاب (المتوفّى ١٢٠٦ هـ)، مع ما لهما من تعصّب ولجاج في مثل هذه الأمور، يقرّان بتواتر هذه الرّوايات.

ثمّة كتاب دراسي معروف ومتداول بين «الوهّابية» هو «فتح المجيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن، ينقل عن «ابن القيم» ما يلي:

---

(١) الإختصاص، للمفيد، نقلاً عن البحار، ج٣، ص٣٠٥.

(٢) هو يحيى بن شرف، من علماء القرن السابع الهجري، والنووي نسبة إلى مدينة «النوى» قرب دمشق.

(٣) البحار، ج٣، ص٣٠٧.

«الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النّبي ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنّة قاطبةً ويدعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال»[١].

وقبل أن ندرس الآثار الإجتماعية والنفسية لمسألة الشفاعة والإشكاليات الأربع حول فلسفة الشفاعة، نلقي نظرة على الآثار المعنوية لهذه المسألة في إطار آراء الموحّدين المؤمنين بالشفاعة، فمثل هذه النظرة تمهّد السبيل لدراستنا القادمة في حقل الشفاعة ومعطياتها الإجتماعية والنفسية[٢].

قال في الأمثل: لو أخذنا بنظر الإعتبار ما مرّ بنا بشأن معنى الشفاعة لغوياً ومقارنتها بالشفاعة التكوينيّة، لما ترددنا في صحة ما ذهب إليه المحقق الطوسي.

فمن جهة، ثمّة رواية معروفة عن الإمام الصادق عليه السلام هي: «ما من أحد من الأوّلين والآخرين إلّا وهو مُحتاجٌ إلى شفاعة محمّد ﷺ يوم القيامة»[٣].

وإستناداً إلى هذه الرواية، يحتاج إلى الشفاعة كلّ الناس، حتى التائبون المغفور لهم، وفي مثل هذه الحالة لا بدّ أن تكون الشفاعة ذات تأثيرين، في الحطّ من الذنوب، وفي علوّ المنزلة.

أما الرّوايات التي تذهب إلى عدم حاجة الصالحين للشفاعة فهي تنفي ذلك النوع من الشفاعة الخاص بالمجرمين والمذنبين.

ومن جهة أُخرى ذكرنا أنّ الشفاعة تعني انضمام الفرد الأشرف والأقوى إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف، وهذه المساعدة قد تكون لزيادة نقاط القوّة، وقد تكون لإزالة نقاط الضعف.

في الشفاعة التكوينية نشهد هذين اللونين من الشفاعة في مسيرة حركة التكامل والنمو، فإنّ الكائنات الأضعف تحتاج إلى عوامل أقوى لإزالة عوامل التخريب تارة (كحاجة النباتات إلى نور الشمس لإبادة الآفات)، وتارة أُخرى

---

(١) فتح المجيد، ص٢١١.
(٢) ينبغي الإلتفات إلى أنا نعالج هذه المسألة من خلال المنطق الخاص لعلماء العقائد.
(٣) نقلاً عن البحار وكتب أخرى.

لزيادة نقاط القوّة وسرعة التطور (كحاجة النباتات إلى نور الشمس من أجل النمّو)، وهكذا الطالب يحتاج إلى الأُستاذ لإصلاح أخطائه من جهة، ولزيادة معلوماته من جهة أُخرى.

كل ذلك يدلّ على أن للشفاعة أثرين، ولا تقتصر على دائرة إزالة آثار الذنب والإثم (تأمل بدقّة).

ممّا تقدم نفهم أن التائبين بحاجة أيضاً إلى الشفاعة مع علمنا بأنّ التوبة وحدها كافية لغفران الذنوب، وذلك لسببين:

١ ـ التائبون بحاجة إلى الشفاعة لزيادة مكانتهم المعنوية، ولتقدمهم في مضمار التكامل والإرتقاء، وإن كان الغفران يتحقق بالتوبة.

٢ ـ ثمة خطأ وقع فيه كثيرون في فهم التوبة، إذ تصوروا أنّ التوبة من الذنب قادرة على إرجاع الإنسان إلى حالة ما قبل إرتكاب الذنب، بينما التوبة ليست كما ذكرنا في موضعه ـ سوى مرحلة أولى، إنّها كالدواء الذي يقطع عوارض المرض، وانقطاع العوارض لا يعني عودة الإنسان إلى حالته الطبيعية، بل يعني انتقاله إلى حالة نقاهة يحتاج خلالها إلى تقوية بنيته الجسمية، ليعود بعد مدة إلى مرحلة ما قبل المرض.

بعبارة أُخرى: للتوبة مراحل، والندم على الذنب والعزم على التطهر في المستقبل هو المرحلة الأُولى للتوبة. والمرحلة النهائية تتحقق حين يعود التائب إلى حالة ما قبل الذنب من كل النواحي. وفي هذه المرحلة تكون شفاعة الشافعين ذات أثر وعطاء.

أفضل شاهد على هذا ما ورد في القرآن وذكرناه من قبل بشأن استغفار الرّسول ﷺ للتائبين. وتوبة إخوة يوسف واستغفار يعقوب لهم، وأوضح من كل ذلك استغفار الملائكة للصالحين والمصلحين الوارد في الآيات المذكورة آنفاً. (تأمل بدقّة).

٧ ـ فلسفة الشّفاعة:

مرّ بنا فيما سبق «مفهوم» الشّفاعة و«أسانيدها» ونستطيع من ذلك أن نفهم بسهولة فلسفة الشّفاعة على الصعيد الإجتماعي والنفسي.

وبشكل عام وانطلاقاً من مفهوم الشفاعة نستطيع أن نتلمس الآثار التالية في المؤمنين بالشفاعة.

«مكافحة روح اليأس» من أهم آثار الشفاعة في نفس المعتقدين بها. مرتكبوا الجرائم الكبيرة يعانون من وخز الضمير، كما يشعرون بيأس من عفو الله، ولذلك لا يفكّرون بالعودة ولا بإعادة النظر في طريقة حياتهم الآثمة. وقد يدفعهم المستقبل المظلم إلى التعنت والطغيان، وإلى التحلل من كل قيد تماماً، كالمريض اليائس من الشفاء الذي يتحلل من أي نظام غذائي، لاعتقاده بعدم جدوى التقيد بنظام.

قلق الضمير الناتج عن هذه الجرائم قد يؤدي إلى اختلالات نفسية، وإلى تحفيز الشعور بالإنتقام من المجتمع الباعث على تلوّثه. وبذلك يتبدل المذنب إلى عنصر خطر، وإلى مصدر قلق إجتماعي.

الإيمان بالشفاعة يفتح أمام الإنسان نافذة نحو النور، ويبعث فيه الأمل بالعفو والصفح، وهذا الأمل يجعله يسيطر على نفسه، يعيد النظر في مسيرة حياته، بل ويشجعه على تلافي سيئات الماضي.

والإيمان بالشفاعة يحافظ على التعادل النفسي والروحي للمذنب، ويفسح الطريق أمامه إلى أن يتبدل إلى عنصر سالم صالح.

من هنا يمكن القول أن الإهتمام بالشفاعة بمعناها الصحيح عامل رادع بنّاء، قادر أن يجعل من الفرد المجرم المذنب فرداً صالحاً. وانطلاقاً من هذا الفهم نجد أنّ مختلف قوانين العالم وضعت فسحة أمل أمام المحكومين بالسجن المؤبّد باحتمال العفو بعد مدة إن أصلحوا أنفسهم، كي لا يتسرب اليأس إلى نفوسهم بذلك ويتبدّلوا إلى عناصر خطرة داخل السجن أو يصابون باختلالات نفسية.

٨ ـ شروط «توفّر الشّفاعة»:

الشفاعة بمعناها الصحيح لها قيود وشروط متعددة الجوانب، كما ذكرنا. من هنا فالمؤمنون بهذا المبدأ لا بدّ أن يسعوا لتوفير شروط الشّفاعة كي يشملهم عطاؤها، وأن يجتنبوا الذنوب التي تقضي على كل أمل في الشفاعة

كالظلم، وأن يستأنفوا حياة جديدة قائمة على اساس تغيير عميق في أنفسهم وأن يتوبوا من الذنب أو يهمّوا بالتوبة على الأقل من أجل بلوغ درجة «الإرتضاء» واتخاذ «العهد الإلهي» (بالتّفسير المذكور).

عليهم أن يكفوا عن مخالفة الأحكام والقوانين الإلهية، أو يقللوا من هذه المخالفة ما أمكنهم، ويعمقوا في أنفسهم الإيمان بالله واليوم الآخر.

من جهة أُخرى لا بدّ لنيل شفاعة «الشفيع»، أن يسعى الفرد لإيجاد نوع من التشابه والسنخية وإن كان ضعيفاً بينه وبين الشفيع.

وما أن «الشفاعة التكوينية» لا تتمّ إلّا بوجود نوع من السّنخية والتسليم والإستعداد في الموجود الأضعف، كذلك الشفاعة التشريعية لا تتحقق إلّا بتوفر مثل هذه القابليّات، (تأمل بدقّة).

القانون في القرآن

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

وهذه الآية ميّزت (عباد الرحمن) بالتوحيد الخالص الذي يُبعدهم عن كل أنواع الشرك والوثنية والتعدُّدية فقد أنار التوحيد أفاق قلوبهم، وحياتهم الفردية والإجتماعية، وانقشعت عن سماء أفكارهم وأرواحهم ظلمات الشرك، ويُستفاد جيداً من هذه الآية أن جميع الأنفس الإنسانية محترمة في الأصل، ومحرَّم إراقة دمائها إلّا إذا تحقَّقت أسباب ترفع هذا الاحترام الذاتي فتبيح إراقة الدم.

ثم نقول:

١ ـ حاجة المجتمع إلى القانون.

٢ ـ شرائط المشرِّع.

٣ ـ لا تتوفر هذه الشروط إلّا في الله.

إنّ اتساع الحياة الإجتماعية للبشر على وجه الأرض من جانب، وغياب العيش الفردي في الكهوف والغابات والبراري شيئاً فشيئاً من جانب آخر يكشف من أنّ الإنسان ميال بطبعه إلى النمط الإجتماعي من الحياة، ليتمكن بالتعاون مع أبناء نوعه من التفوق على المشكلات والمصاعب.

ومن جهة أُخرى لما كان الإنسان بطبعه مشدوداً إلى «حب الذات» وهو من الغرائز الأصيلة فيه فهو يريد ـ بمقتضى هذه الغريزة ـ حصر كل شيء لنفسه، وإذا يخضع للقوانين والنظم هو فلأنّه يرى في خضوعه للنظام ضماناً لمصالحه الشخصية ولأجل هذا إذا وجد فرصة للتمرد عليه ولم يجده مخالفاً لمصالحه يتمرد عليه بحرص وولع.

ولذلك اتفق العقلاء على لزوم وجود ما ينظم العلاقات البشرية، حتى يتسنى تكوين مجتمع إنساني صحيح يستطيع في ظله جميع البشر من استيفاء حقوقهم، ومعرفة واجباتهم وفي الحياة الإجتماعية ليقوموا بها دونما تجاوز أو عدوان. غير أنّه يجب علينا أن نعرف من هو الذي يقوم بهذا الواجب الأساسي.

فنقول: بما أنّ المُقَنِّنُ (المشرِّع) يريد أن يقود المجتمع البشري نحو الكمال المنشود ويعين في ضوء ذلك واجبات الأشخاص تجاه بعضهم وتجاه أنفسهم ويضمن حقوقهم، ويُقيِّضُ لهم سعادتهم المادية والمعنوية يجب أن يتوفر فيه أمران أساسيان:

١ ـ أن يعرف الإنسان بعامة خصوصياته ويكون واقفاً على أسرار الكائن البشري وعارفاً بأموره الروحية والجسمية.

بنحو دقيق كالطبيب الذي لا يمكن أن يقوم بواجبه إلّا بعد أن يتعرف على أحوال المريض وأوضاعه معرفة جيدة دقيقة ليتسنى له معالجة المريض بنحو صحيح.

وبعبارة أُخرى إنّ المُقَنِّنُ يجب أن يكون ملماً جيداً بعلم النفس الإنسانية وعلم الإجتماع محيطاً بهما، واقفاً على حقائقهما، لتوقف غرض التشريع على ذلك، وبالجملة يجب أن يكون واقفاً على الأحوال الفردية والإجتماعية.

٢ ـ يجب أن يكون منزهاً عن الهوى وعن أي نوع من حب الذات والنفعية لأن حب الذات حجاب غليظ يحول دون رؤية المشرع للواقع، ويغطي على بصره وبصيرته.

لأن المرء مهما كان عادلاً ومنصفاً ربما يقع بصورة لا شعورية في شباك «الهوى» ويتأثر بغريزة «حب الذات» وينحرف تحت ضغط «النفعية» عن صراط العدل المستقيم.

ويجب أن نرى الآن فيمن يتوفر هذان الشرطان بنحو كامل؟

لا ريب إذا كان يتعين على المُقَنِّنُ أن يكون ذا معرفة كاملة للإنسان، فلا ريب أنّه لا يوجد هناك من يعرف حقيقة النفس الإنسانية واحتياجاتها بكاملها سوى الله الذي خلق الإنسان.

ولقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة إذ قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فالله الذي خلق جميع ذرات هذا العالم وركب أجزاءه ولاءم بين مختلفاته هو الذي يعلم ـ علماً تاماً ـ أسرار ما خلق، وهو الذي يعلم ما يصلح النفس الإنسانية وما يفسدها... أحسن من غيره.

وهو بعلمه المُطلق وإحاطته الواسعة أدرى من غيره بعلاقات الأفراد، وأبعادها وآثارها، ويعرف العناصر الصالحة لإقامة مجتمع صالح سعيد، فهو أدرى من غيره بالقوانين التي تليق بالمجتمع الإنساني وتسعده. هذا بالنسبة إلى الشرط الأول.

وأما الشرط الثاني أعني تجرد المُشرِّع عن أي نوع من أنواع الهوى والنفعية فلا بُد من الإعتراف بأنّه لا أحد هناك يتصف بهذه الصفة غيره سبحانه، فهو الموجود الوحيد الذي لا نفع له في المجتمع الإنساني ليخشى عليه ويحرص على حفظه وصيانته عند سَنِّ القوانين.

فهو الذي تنزّه عن الغرائز، في حين يتصف جميع أبناء البشر بحسب الذات ـ التي تعتبر من أخطر آفات التشريع الصحيح ـ فهم مشدودون إليها رغم سعيهم للتخلص من مخالبها، ومتأثرون بها مهما حاولوا عدم الخضوع لسلطانها.

وقد أشار جان جاك روسو إلى هذه الحقيقة بقوله: «لاكتشاف أفضل القوانين المفيدة للشعوب لا بدّ من وجود عقل يرى جميع الشهوات البشرية ولكن لا يجد في ذاته ميلاً نحوها. عقل لا يرتبط بالطبيعة ولا يخضع لضغوطها ولكنه يعرفها تمام المعرفة، عقل لا ترتبط سعادته بنا ولكنه مستعد لأن يعيننا في سعادتنا»[1].

على هذا الأساس لا توجد في الإسلام أي سلطة تشريعية لا فردية ولا جماعية ولا يكون هناك مشرع إلّا «الله» وحده.

---

(١) العقد الإجتماعي.

وأما المجتهدون والفقهاء فهم في الحقيقة ليسوا إلّا متخصصين في معرفة القانون، وظيفتهم الكشف عن الأحكام بعد الرجوع إلى مصادرها، وبالتالي تطبيق الأحكام الشرعية على مصاديقها في بعض المجالات.

فمن مراجعة الآيات القرآنية يثبت أن حق التشريع خاص بالله فقط، ولا يحق لأحد ـ في النظام التوحيدي ـ أن يفرض رأيه على الآخرين فرداً كان أو مجتمعاً، وأن يدعو الناس إلى الخضوع لها والأخذ بها.

فالناس جميعاً ـ في النظام التوحيدي ـ متساوون كأسنان المشط ـ كما قال الرسول الأعظم ﷺ «الناس كأسنان المشط»[1].

فلا فضل لأحد على أحد، ولا امتياز.

إن الإسلام كما لم يسمح لأحد بأن يختص بوضع القوانين سواه وحارب تلك الفكرة كذلك حارب كل الطبقات السائدة في الأنظمة الطاغوتية التي تضع بعض الطبقات فوق القوانين، فالجميع سواسية أمام القانون كما عبّر عن ذلك الرسول الأعظم ﷺ إذ قال: «الناس أمام الحق سواء»[2].

ففي الأنظمة الطاغوتية نجد الأُمراء والحُكام والمُلوك وحواشيهم ومن يدور في فلكهم يعفون أنفسهم من الضرائب والرسوم، وكأنهم بحاجة الى الشفقة والعطف والمعونة ـ رغم امتلاكهم لأضخم الثروات ـ في حين يتحتم على أفراد الشعب حتى الضعفاء أن يتحملوا تلك الرسوم الثقيلة والضرائب الباهظة، لا على الحاجات المهمة فقط، بل حتى على الإبرة والخيط التي يستوردونها من الخارج ليكسوا عريهم، ويقوا أبدانهم برد الشتاء، حرّ الصيف.

هذه هي خصائص النظم الطاغوتية، وهي تماماً على العكس من النظام الإسلامي التوحيدي الذي لا يقر أي امتياز لأحد على آخر أو لطبقة على أخرى، ولا يعمل إلّا بميزان العدل والمساواة.

ومن الطبيعي أن هذه العدالة والمساواة في النظام الإسلامي ليستا ناشئتين

(١) حديث مشهور.
(٢) حديث مشهور.

إلّا من تنزّه المشرّع (أي الله) عن الهوى والنفعية وحب الذات التي يخضع لها مشرعوا القوانين والنظم البشرية.

واعلم أن الكفر وعدم الإيمان هو عين الاحساس بالمسؤولية، وهو الخروج عن القانون، وتجاهل القيم الأخلاقية، وهذه الأمور هي التي تسبب فقدان وحدة المجتمعات، وتزلزل أعمدة الإعتماد والطمأنينة، وهدر الطاقات البشرية والإقتصادية، واضطراب العدالة الإجتماعية.

ومن البديهي أنّ المجتمع الذي تسيطر عليه هذه الأمور سوف يتراجع بسرعة، ويتخذ طريقه إلى السقوط والفناء.

واذا كنّا نرى أنّ هناك مجتمعات تحظى بتقدم نسبي في الأمور المادية مع كفرهم وانعدام التّقوى فيهم، فإنّ علينا أن نعرف أيضاً أنّه لا بدّ من أن يكون ذلك مرهوناً بالمحافظة النسبية لبعض الأصول الأخلاقية، وهذا هو حصيلة ميراث الأنبياء والسابقين، ونتيجة أتعاب القادة الإلهيين والعلماء على طول القرون، وبالإضافة إلى الآيات السالفة هناك روايات كثيرة أيضاً اعتمدت هذا المعنى، وهو أنّ الإستغفار وترك المعاصي يبعث على إصلاح المعيشة وازدياد الرّزق.

ففي حديث ورد عن الإمام عليّ عليه السلام: «أكثِرْ الإستغفار تجلب الرّزق»[1].

ونقل في حديث آخر عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله تعالى ومن استبطأ الرّزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فيقل: لا حول ولا قوّة إلّا بالله»[2].

ونقرأ في نهج البلاغة أيضاً: «وقد جعل الله سبحانه الإستغفار سبباً على الرزق، ورحمة الخلق فقال سبحانه ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾»[3] [نوح: ١٠-١١].

والحقيقة أنّ الحرمان في هذا العالم سببه العقوبات على الذنوب، وفي

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٢٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٤٣.

الوقت الذي يتوب فيه الإنسان، ويتخذ طريق الطهارة والتقوى يصرف الله تعالى عنه هذه العقوبات.

لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات باختلاف ألوان الحياة:

إنّ التطور الإجتماعي يستلزم تطوراً في قوانين الإجتماع، والقانون الموضوع في ظرف خاص، ربما يكون مضراً أو غير مفيد أصلاً في ظرف آخر، ومقتضيات الزمان (القوانين) تختلف باختلاف المجتمعات وألوان الحياة، فما صح الأمس لا يصح اليوم، وما يصح اليوم، لا يصح غداً.

وبعد ذلك نقول: إنّ الهدف من تشريع القوانين والأنظمة الخارجية، في المجتمع البشري ليس إلّا تأمين الحياة الإجتماعية له، وصونها عن التصادم والجدال وحفظها عن الهلاك والبوار.

فالنظام التشريعي ليس أمراً مطلوباً بالذات، بل هو ذريعة لتأمين الحياة وحفظها عن التحطم.

وعلى هذا، قد يعترض بأنّ الحياة الإجتماعية، لو استمرت على وتيرة واحدة لساغ لأي قانون تشريعي كان سائداً في الأزمنة الغابرة، أن يسود في جميع الظروف والأجواء، وأما إذا لم تكن على وتيرة واحدة بل كانت الحياة في المجتمع الإنساني منذ لجأ الإنسان إلى الحضارة والعيش الإجتماعي، متحولة ومتغيرة، فكيف يصح لقانون موضوع في ظرف أن يطبق في ظرف مباين له.

مثلاً: إذا تأمل في الدور الذي كانت وسائل النقل فيه منحصرة في الجمال وغيرها من المواشي، وكانت الثروات الطبيعية فيه لا تكاد تستغل باستثناء شيء قليل فيها، وكانت أدوات الحروب الطاحنة فيه، لا تتجاوز السيف والسهم، فلا يرتاب في أنّ الحياة الإجتماعية في ذلك الدور، لا تلتقي مع الدور الذي بلغت فيه حضارة الإنسان حداً، سخّر معه الأرض والفضاء ووضع أرض القمر تحت قدميه، واستخدم الكهرباء والبخار، وأخذ يقطع المسافات البعيدة بالسيارة والطائرة والصاروخ، ويواجه العدو في جبهات الحرب بالقنابل الذريّة والهيدروجينية، إلى غير ذلك من الآلات القاتلة، فكيف يمكن لقانون واحد، وضع لتأمين الحياة في مجتمع خاص، أن يسود في الدورين؟ وهل القوانين

الإجتماعية إلّا «رد فعل» للأوضاع الإجتماعية المتطوّرة، إذ كلما تغيَّرت الأوضاع الإجتماعية وتطوَّرت، فلا بد وأن يتبعها «ردُّ فعل» في التغيُّر والتبدُّل.

واعلم أنّ للإنسان (مع قطع النظر عما يحيط به من شروط العيش المختلفة) روحيات وغرائز خاصة تلازمه، ولا تنفك عنه، إذ هي في الحقيقة مشخصات تكوينية له، بها يتميز عن سائر الحيوانات وتلازم وجوده في كل عصر ولا تنفك عنه بمرور الزمن.

فهاتيك الغرائز الثابتة والروحِيَّات الخالدة، لا تستغني عن قانون ينظم اتجاهاتها وتشريع ينظمها، وحكم يصونها عن الإفراط والتفريط، فإذا كان القانون مطابقاً لمقتضي فطرته وصالحاً لتعديلها ومقتضياً لصلاحها ومقاوماً لفسادها، لزم خلوده بخلودها، وثبوته بثبوتها.

وأنّ للإنسان خُلُقاً وروحيات وغرائز، قد فطر عليها، ولا تنفك عنه ما دام إنساناً، وكل واحد منها يقتضي حكماً يناسبه ولا يباينه، بل يلائمه، ويدوم بدوامه ويثبت بثبوته عبر الأجيال والقرون.

وإليك نماذج من هذه الأمور لتبين لك بأن التطور لا يعم جميع نواحي الحياة، وإن الثابت منها يقتضي حكماً ثابتاً لا متطوراً.

١ ـ إنّ الإنسان بما هو موجود إجتماعي، يحتاج لحفظ حياته وبقاء نسله إلى العيش الإجتماعي والحياة العائلية، وهذان الأمران من أسس حياة الإنسان، لا تفتأ تقوم عليهما في جملة ما تقوم عليه منذ بدء حياته.

وعلى هذا، فإذا كان التشريع الموضوع لتنظيم المجتمع مبنياً على العدالة، حافظاً لحقوق أفراده، خالياً عن الظلم والجور والإعتساف، وبعبارة أُخرى موضوعاً على ملاكات واقعية، ضامناً لمصلحة الإجتماع وصائناً له عن الفساد والإنهيار، لزم بقاؤه ودوامه، ما دام مرتكزاً على العدل والإنصاف.

٢ ـ إنّ التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس، فهما موجودان مختلفان اختلافاً عضوياً وروحياً، على رغم كل الدعايات السخيفة الكاذبة، التي تريد إزالة كل تفاوت بينهما، ولأجل ذلك، اختلفت أحكام كل منهما عن الآخر، اختلافاً يقتضيه طبع كل منهما، فإذا كان التشريع مطابقاً لفطرتهما

ومسايراً لطبعهما، ظل ثابتاً لا يتغير بمرور الزمان، لثبات الموضوع، المقتضي ثبات محموله، حسب الإصطلاح المنطقي.

٣ ـ الروابط العائلية، كرابطة الولد بالوالدين، والأخ بأخيه، هي روابط طبيعية، لوجود الوحدة الروحية، والوحدة النسبية بينهم، فالأحكام المتفرقة المنسقة، لهذه الروابط من التوارث ولزوم التكريم، ثابتة لا تتغير بتغير الزمان.

٤ ـ التشريع الإسلامي حريص جداً على صيانة الأخلاق وحفظها من الضياع والإنحلال، ومما لا يشك فيه، أن الخمر والميسر والإباحية الجنسية. . . ضربة قاضية على الأخلاق، وقد عالج الإسلام تلك الناحية من حياة الإنسان بتحريمها، وإجراء الحدود على مقترفيها، فالأحكام المتعلقة بها، من الأحكام الثابتة مدى الدهور والأجيال، لأن ضررها ثابت لا يتغير بتغير الزمان، فالخمر يزيل العقل والميسر ينبت العداوة في المجتمع والإباحية الجنسية تفسد النسل والحرث دائماً، ما دامت السماوات والأرض، فتتبعها أحكامها في الثبات والدوام.

هذا وأمثاله من الموضوعات الثابتة في حياة الإنسان الإجتماعي قد حددها ونظمها الإسلام بقوانين ثابتة تطابق فطرته وتكفل للمجتمع بتنسيق الروابط الإجتماعية والإقتصادية على أحسن نسق وحفظ حقوق الأفراد وتنظيم الروابط العائلية.

وحصيلة البحث إن تطور الحياة الإجتماعية في بعض نواحيها لا يوجب أن يتغير النظام السائد على غرار الفطرة، ولا أن تتغير الأحكام الموضوعة على طبق ملاكات واقعية، من مصالح ومفاسد كامنة في موضوعاتها، فلو تغير لون الحياة في وسائل الركوب، ومعدات التكتيك الحربي و. . . مثلاً، فإن ذلك لا يقتضي أن تنسخ حرمة الظلم ووجوب العدل ولزوم أداء الأمانات ودفع الغرامات والوفاء بالعهود والأيمان و. . . .

فإذا كان التشريع على غرار الفطرة الإنسانية، وكان النظام السائد حافظاً لحقوق المجتمع وموضوعاً على ملاكات في نفس الأمر، تلازم الموضوع في جميع الأجيال، فذلك التشريع والنظام يحتل مكان التشريع الدائم.

المُقرّرات المتطورة في الإسلام:

إن للإنسان مع هذه الصفات والمشخصات الذاتية، ظروف عيش أخرى زمانية ومكانية، لا تزال تتغير، ويتغير معها وضع الإنسان، من حال إلى حال، فمثل هذه الظروف الطارئة تتغير أحكامها بتغيرها.

وفي الفقه الإسلامي، يطلق على الأحكام المتعلقة بهذه الظروف عنوان «المقررات» كما يطلق على الأحكام المتعلقة بالظروف الثابتة، عنوان «القوانين».

وهذه المقررات ليست بمعزل عن القوانين الكلية الإسلامية، ولا تكون اعتباطاً وفوضى بل تجري في ضوء القوانين الكلية الثابتة، بحيث لا تناقضها ولا تعطلها، وإن شئت قلت: إنّ هنا أحكاماً وخطوطاً عريضة تمثل القاعدة المركزية في التشريع الإسلامي وهي مصونة عن التحول والتبدل، مهما اختلفت الأوضاع وتباينت الملابسات.

قال في مفاهيم القرآن: وهناك أحكام متفرعة على تلكم الخطوط، مستخرجة منها، بإمعان ودراية خاصة، يستنبطها الباحث الإسلامي باستفراغ وسعه على ضوء هذه الخطوط العريضة، بشرط أن لا يصادمها وهذا القسم من الأحكام يتجدد بتجدد العهود وتباين الظروف وتعدد الملابسات واختلاف الشرائط.

فمن قواعد الدين الإسلامي ما هو خالد وثابت وهو ما يمس الفطرة الإنسانية وله صلة بالكون والطبيعة، وما هو متغير ومتبدل، وهو الذي لا يمس واقع العلاقات الإجتماعية والشؤون البشرية ولا يتجاوز حدود الظواهر الإجتماعية وقد منحه هذا التطور، أسباب الخلود والبقاء والمسايرة مع عامة الحضارات، بشرط أن لا يصطدم التحول على أي أساس مع أُسسه ولا يتجاوز حداً من حدوده.

فالحكم الكلي الذي يعالج القضايا البشرية على غرار الفطرة، وصعيدها الكوني، ثابت وخالد في كل العصور والأزمنة، وإن تطورت الأوضاع الإجتماعية والسياسية واختلفت حاجات الناس فإنّ الأنظمة الإسلامية والدساتير الشرعية، تساير الفطرة الإنسانية الثابتة، وتوالي الطبيعة الكونية، ولا تتخلف عنهما قدر شعرة فإذا كان التشريع معبراً عن الكون الثابت، ومبتنياً عليه، فيخلد بخلوده، ويدوم بدوامه.

أجل إنّ تقلّب الأحوال وتحول الأوضاع الإجتماعية يتطلب تحولاً في السنن والأنظمة، وتبدلاً في الأحكام والقوانين، غير أنّه لا يتطلب تحولاً فيما يمس واقع الإنسانية السائد في جميع الأحوال ومختلف الأوضاع، كما لا يتطلب تحولاً في القوانين الكونية التي أصبحت تدبر الكون بأصوله الثابتة فلا تتغير النسب الرياضية ولا النتائج الهندسية وإن تطورت الأوضاع وتبدلت الحضارات.

وإنّما المتغير هو المظاهر والقشور، والشكل التطبيقي لهاتيك الأحكام في مختلف الأوضاع وتطور الإجتماع، والمتأثر بالأوضاع هو القسم الثاني لا الأول، ولا ضير فيه فإنّ الدين الإسلامي إنّما يستعرض القضايا التي تمس واقع البشرية، والمسائل التي لها صلة بالكون والطبيعة ويترك التطبيق بعد لنفس المكلف حسب ظروفه وأحواله.

وبذلك تقف على أنّ التطور والتحول، فيما كتب له التغير والتبدل جزء جوهري للدين، عنصر داخل في بناء التشريع الإسلامي كما أنّ الثبات والدوام فيما فرض له ذلك، أحد عناصر الدين ومن أجزاء ذلك البناء التشريعي السامي فتجريده من أي واحد من عنصريه يوجب انحلال المركب وفناء الدين، وتأخره عن مسايرة المراكب الحضارية.

قال سيدنا الأستاذ (رضي): هناك أحكام شرعية ثابتة لا يعرض عليها التغيير والإختلاف، ولا يمكن أن يتأثر باختلاف البيئة والمحيط بشكل من الأشكال.

وهناك لون آخر من المقررات الإجتماعية التي تجري بإشراف من هيئة الولاية العامة، تختلف باختلاف الظروف وتتأثر باختلاف البيئات والأزمنة.

ولتوضيح الأمر نستعير شاهداً من الظواهر الإجتماعية التي نعيشها في حياتنا الخاصة.

لنفترض أن مواطناً برأس عائلة صغيرة، ويدير أمور العائلة الداخلية في حدود مقررات البلاد العامة... فيأمر بعض أفراد العائلة بالقيام بهذا الشأن من شؤون البيت، ويأمر آخرين منهم بشأن آخر من شؤون العائلة ويحدد اختيارات كل واحد منهم في البيت في حدود مصلحة العائلة ويأمر بالإنقطاع عن العمل يوماً أو يومين للإستجمام ويأمر بالإستمرار في العمل في حدود ما تقتضيه مصلحة العائلة، وحسب ظروف البيت الخاصة.

وفي الوقت الذي يملك هذا الشخص كل هذه الصلاحيات الواسعة في الإرادة والسلطة لا يسمح له أن يخرج عن دائرة مقررات البلاد العامة في شأن من الشؤون أو يتجاوز حدود النظام العام بشكل من الأشكال.

ومما تقدم يتضح أن المقررات المرعية في محيط هذه العائلة على نوعين: نوع يتسم بطابع الثبات والبقاء. ونوع يتعرض للإختلاف والتغيير حسب ما تقتضيه مصلحة البيت.

والنسبة ذاتها قائمة بين الشريعة الإسلامية، التي يطبعها طابع من الثبات والبقاء، والمقررات التي تختلف باختلاف الظروف والمصالح الإجتماعية والتي تدور في فلك الشريعة من غير أن تتجاوزها بحال من الأحوال[1].

ودونك نماذج هذا القسم، أي من الأحكام المتطورة المتغيرة بتغيير الزمان:

١ ـ في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية: يجب على الدولة الإسلامية أن تراعي مصالح الإسلام والمسلمين، فهذا أصل ثابت وقاعدة عامّة، وأمّا كيفية تلك الرعاية، فتختلف باختلاف الظروف الزمانية والمكانية، فتارةً تقضي المصلحة السلام والمهادنة والصلح مع العدو، وأخرى تقتضي ضد ذلك.

وهكذا تختلف المقررات والأحكام الخاصة في هذا المجال، باختلاف الظروف ولكنها لا تخرج عن نطاق القانون العام الذي هو رعاية مصالح المسلمين، كقوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وقوله سبحانه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

٢ ـ العلاقات الدولية التجارية: فقد تقتضي المصلحة عقد اتفاقات اقتصادية وإنشاء شركات تجارية أو مؤسسات صناعية، مشتركة بين المسلمين وغيرهم، وقد تقتضي المصحلة غير ذلك. ومن هذا الباب حكم الإمام

---

(١) نظرية السياسة والحكم في الإسلام ص٣٧ ـ ٣٩.

المغفور له، الفقيد المجدد، السيد الشيرازي بتحريم التدخين ليمنع من تنفيذ الإتفاقية الإقتصادية التي عقدت في زمانه بين إيران وانكلترا، إذ كانت مجحفة بحقوق الأمة المسلمة الإيرانية لأنها حوّلت لانكلترا حق احتكار التنباك الإيراني.

٣ ـ الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الأعداء، قانون ثابت لا يتغير، فالمقصد الأسنى لمشرع الإسلام، إنّما هو صيانة سيادته عن خطر أعدائه وإضرارهم ولأجل ذلك أوجب عليهم تحصيل قوة ضاربة ضد الأعداء، وإعداد جيش عارم جرار تجاه الأعداء كما يقول سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فهذا هو الأصل الثابت في الإسلام الذي يؤيده العقل والفطرة أما كيفية الدفاع، وتكتيكه ونوع السلاح، أو لزوم الخدمة العسكرية وعدمه، فكلها موكولة إلى مقتضيات الزمان، تتغير بتغيره، ولكن في إطار القوانين العامة فليس هناك في الإسلام أصل ثابت، حتى مسألة لزوم التجنيد العمومي، الذي أصبح من الأمور الأصلية في غالب البلاد.

وما نرى في الكتب الفقهية من تبويب باب، أو وضع كتاب خاص، لأحكام السبق والرماية، وغيرها من أنواع الفروسية التي كانت متعارفة في الأزمنة الغابرة ونقل أحاديث في ذلك الباب، عن الرسول الأكرم ﷺ وأئمة الإسلام، فليست أحكامها أصلية ثابتة في الإسلام، دعا إليها الشارع بصورة أساسية ثابتة، بل كانت هي نوع من تطبيق لذلك الحكم الغرض منه تحصيل القوة الكافية، تجاه العدو في تلكم العصور وأما الأحكام التي ينبغي أن تطبق في العصر الحاضر، فإنّه تفرضه مقتضيات العصر نفسه[1].

---

(١) قال المحقق في الشرائع ص١٥٢ وفائدة السبق والرماية، بعث النفس على الإستعداد للقتال والهداية لممارسة النضال وهي معاملة صحيحة. وقال الشهيد الثاني في المسالك في شرح عبارة المحقق: لا خلاف بين المسلمين في شرعية هذا العقد، بل أمر به النّبي في عدة مواطن لما فيه من الفائدة المذكورة وهي من أهم الفوائد الدينية لما يحصل بها من غلبة العدد في الجهاد لأعداء الله تعالى، الذي هو أعظم أركان الإسلام ولهذه الفائدة يخرج عن اللهو واللعب المنهي عن المعاملة عليهما.

فإذا كانت الغاية من تشريعهما الإستعداد للقتال والتدرب للجهاد، فلا يفرق عندئذٍ بين الدارج في زمن النّبي ﷺ وغيره أخذاً بالملاك المتيقن.

فعلى الحاكم الإسلامي تقوية جيشه وقواته المسلحة بالطرق التي يقدر معها على صيانة الإسلام ومعتنقيه عن الخطر ويصد كل مؤامرة عليه من جانب الأعداء حسب إمكانيات الوقت.

والمقنن الذي يتوخى ثبات قانونه ودوامه وسيادة نظامه الذي جاء به، لا يجب عليه التعرض إلى تفاصيل الأمور وجزئياتها، بل الذي يجب عليه هو وضع الكليات والأصول ليساير قانونه جميع الأزمنة بأشكالها وصورها المختلفة، ولو سلك غير هذا السبيل لصار حظه من البقاء قليلاً جداً.

٤ ـ نشر العلم والثقافة، واستكمال المعارف التي تضمن سيادة المجتمع مادياً ومعنوياً يعتبر من الفرائض الإسلامية، أمّا تحقيق ذلك وتعيين نوعه ونوع وسائله فلا يتحدد بحد خاص، بل يوكل إلى نظر الحاكم الإسلامي، واللجان المقررة لذلك من جانبه حسب الإمكانيات الراهنة في ضوء القوانين الثابتة.

وبالجملة: فقد ألزم الإسلام، رعاة المسلمين، وولاة الأمر نشر العلم بين أبناء الإنسان واجتناب مادة الجهل من بينهم ومكافحة أي لون من الأمية، وأما نوع العلم وخصوصياته، فكل ذلك موكول إلى نظر الحاكم الإسلامي وهو أعلم بحوائج عصره.

فرب علم، لم يكن لازماً، لعدم الحاجة إليه، في العصور السابقة، ولكنه أصبح اليوم في الرعيل الأول من العلوم اللازمة التي فيها صلاح المجتمع، كالاقتصاد والسياسة.

٥ ـ حفظ النظام وتأمين السبل والطرق، وتنظيم الأمور الداخلية ورفع مستوى الإقتصاد و.... من الضروريات، فيتبع فيه وأمثاله مقتضيات الظروف وليس فيه للإسلام حكم خاص يتبع، بل الذي يتوخاه الإسلام هو الوصول إلى هذه الغايات، وتحقيقها بالوسائل الممكنة دون تحديد وتعيين لنوع هذه الوسائل وإنّما ذلك متروك إلى إمكانيات الزمان الذي يعيش فيه البشر، وكلها في ضوء القوانين العامة.

٦ ـ قد جاء الإسلام بأصل ثابت في مجال الأموال وهو قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] وقد فرع الفقهاء على هذا الأصل

شرطاً في صحة عقد البيع أو المعاملة فقالوا: يشترط في صحة المعاملة وجود فائدة مشروعة وإلّا فلا تصح المعاملة ومن هنا حرموا بيع (الدم) وشراءه.

إلّا أنّ تحريم بيع الدم أو شراءه، ليس حكماً ثابتاً في الإسلام بل التحريم كان في الزمان السابق صورة إجرائية لما أفادته الآية من حرمة أكل المال بالباطل وكان بيع الدم في ذلك الزمان مصداقاً له فالحكم يدور مدار وجود الفائدة، (التي تخرج المعاملة عن أن تكون أكل المال بالباطل) وعدم تحقق الفائدة، فلو ترتبت فائدة معقولة على بيع الدم أو شراءه، فسوف يتبدل حكم الحرمة إلى الحلية، والحكم الثابت هنا هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

وفي هذا المضمار ورد أنّ عليّاً عليه السلام سئل عن قول الرسول صلى الله عليه وآله: غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود؟ فقال عليه السلام: إنما قال صلى الله عليه وآله: ذلك والدين قل فأما الآن فقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار.

وفي الختام نأتي بما أفاده الشيخ الرئيس ابن سينا في هذا المقام في الشفاء قال: «ويجب أن يفوض كثير من الأحوال خصوصاً في المعاملات إلى الإجتهاد فإنّ للأوقات أحكاماً لا يمكن أن تنضبط وأما ضبط المدينة بعد ذلك بمعرفة ترتيب الحفظة ومعرفة الدخل والخرج، وإعداد أهَب الأسلحة والحقوق والثغور وغير ذلك فينبغي أن يكون ذلك إلى السائس من حيث هو خليفة ولا تفرض فيها أحكام جزئية فإن في فرضها فساداً لأنها تتغير مع تغير الأوقات وفرض الكليات فيها مع تمام الاحتراز غير ممكن فيجب أن يجعل ذلك إلى أهل المشورة»[1].

---

(١) مفاهيم القرآن.

قانون التقوى في القرآن

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

التّفسير

الإيمان ووضوح الرؤية:

تناولت الآيات السابقة أوامر حياتية تتضمّن السعادة المادية والمعنوية للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن إلّا في ظلال التقوى، لذلك جاءت هذه الآية المباركة لتؤكّد أهمية التقوى وآثارها في مصير الإنسان، وقد بيّنت الآية أربعة ثمار ونتائج للتقوى.

فقالت ابتداءً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ ... فُرْقَانًا﴾.

وكلمة «فرقان» صيغة مبالغة من مادة (فرق) وهي هنا بمعنى الشيء الذي يفصل بين الحق والباطل تماماً.

إنّ هذه الجملة الموجزة والكبيرة في معناها قد بيّنت إحدى أهم المسائل المؤثرة في مصير الإنسان، وهي أنّ درب الإنسان نحو النصر محفوف دائماً بالمصاعب والحفر فإذا لم يبصرها جيداً ويحسنُ معرفتها واتقاءها فسيسقط فيها لا محالة، فأهم مسألة في هذا الطريق هي معرفة الحق والباطل، معرفة الحسن والقبيح، معرفة الصديق والعدو، معرفة الفوائد والأضرار، معرفة عوامل السعادة والضياع، فإذا استطاع الإنسان معرفة هذه الحقائق جيداً فسيسهل عليه الوصول إلى الهدف.

إنّ المشكلة التي تعترض الإنسان غالباً هي خطأه في تشخيص الباطل

واختياره على الحق، وانتخاب العدوّ بدل الصديق، وطريق الضلال بدل طريق الهداية، وهنا يحتاج الإنسان إلى بصر وبصيرة قويّة، ووضوح رؤية. إنّ هذه الآية المباركة تقول: إنّ هذه البصيرة ثمرة لشجرة التقوى. أمّا كيف تعطي هذه التقوى البصيرة للإنسان؟ فقد يكون الأمر مبهماً لدى البعض، لكن قليلاً من الدقّة والتأمل كافية لتوضيح العلاقة الوثيقة بين هذين الإثنين، ولإيضاح ذلك نقول:

أولاً: إنّ قوّة عقل الإنسان تستطيع إدراك الحقائق بقدر كاف، ولكن ستائر الحرص والطمع والشهوة وحبّ النفس والحسد، والحبّ المفرط للمال والأزواج والأولاد والجاه والمنصب كل ذلك يغدُو كالدخان الأسود أمام بصيرة العقل، أو كالغبار الغليظ الذي يملأ الآفاق، وهنا لا يمكن للإنسان معرفة الحق والباطل في أجواء مظلمة، أمّا إذا غسل تلك الغشاوة بماء التقوى وانقشع ذلك الدخان الأسود، عند ذاك تسهل عليه رؤية نور الحق.

ثانياً: إنّنا نعلم أنّ كل كمال في أي مكان إنّما هو قبس من كمال الحق، وكلّما اقترب الإنسان من الله فإنّ نور الكمال المطلق سينعكس في وجوده أكثر، وعلى ذلك فإنّ أي علم ومعرفة فهو نبع من علمه ومعرفته تعالى، وكلّما تقدّم الإنسان في ظلال التقوى وترك المعاصي من الله، ذابت قطرة وجوده في بحر وجود العظيم أكثر، وسيحصل على مقدار أكثر من العلم والمعرفة.

وبعبارة أُخرى فإنّ قلب الإنسان كالمرآة، ووجود الله كالشمس الساطعة على الوجود، فإذا تلوثت مرآة قلبه من الأهواء حتى اسودت، فسوف لا تعكس النور، فإذا تمّ جلاؤها بالتقوى وزال الدرن عنها، فإنّ تلك الشمس الوضاءة الساطعة ستنعكس فيها وتنير كل مكان.

ولذلك فإنّنا نرى على مدى التاريخ بعض النساء والرجال المتّقين يملكون وضوحاً من الرؤية لا يمكن بلوغه بوسائل العلم والمعرفة أبداً، فهم يرون أسباب الكثير من الحوادث التي تعصف بالمجتمع غير المرئية، ويرون وجود أعداء الحق وإن حجبتها آلاف الستائر الخادعة.

وهذا الأثر العجيب للتقوى في معرفة الواقع، جاء ذكره في الكثير من

الرّوايات والآيات الأخرى، ففي سورة البقرة تقول الآية (٢٨٢): ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، وجاء في الحديث المعروف: «المؤمن ينظر بنور الله».

وفي نهج البلاغة في قصار الكلم: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

ثالثاً: بالتحليل العقلي يمكن فهم العلاقة الوثيقة بين التقوى وإدراك الحقائق أيضاً، لأنّ المجتمعات التي تسير في دروب الفساد والرذيلة وأجهزة الإعلام فيها تطبل لذلك المسير، والصحافة والراديو والتلفزيون كلها تدعو للتلوُّث والانحراف وخدمة الفساد، فمن البديهي أن يصعب على الناس تمييز الحق من الباطل، الجيد من الرديء، ونتيجة الأمر، فإنّ انعدام التقوى يكون سبباً لفقدان القدرة على هذه المعرفة أو سوء المعرفة.

ومثال آخر: فإنّ عائلة غير تقيّة، وصغارها يشبون في محيط ملوّث بالفساد والرّذيلة، فمن العسير على هؤلاء في المستقبل تمييز الجيد من الرديء، وإهدار القوى والطاقات في الذنوب يتسبب بقاء الناس على مستوى دان من البصيرة والمعرفة وانحطاط في التفكير حتى وإن كانوا متقدمين في الصناعة والحياة المادية.

وبناءً على ما تقدم فإنّنا نرى أنّ أدنى انحراف عن التقوى يسبب نوعاً من العمى وسوء المعرفة، لذلك نرى في العالم الصناعي اليوم مجتمعات متقدمة جدّاً في العلم والصناعة، ولكنّها في حياتها اليومية مصابة بأمراض ومشاكل شديدة تبعث على الإستغراب والتعجب، وهنا تنجلي عظمة ما قاله القرآن الكريم.

ونظراً إلى أنّ التقوى لا تنحصر بالتقوى في العمل، بل تشمل التقوى في التفكير والعقل، فإنّ هذه الحقيقة تتّضح بصورة أجلى. فالتقوى في الفكر تعني مواجهة التسيّب وعدم الإنضباط في التفكير، بمعنى أن نبحث في دراساتنا وتحقيقاتنا عن أصح الأدلّة وأوثق البراهين، وأن لا نلتزم بعقيدة دون التحقيق الكافي والدقة اللازمة.

والذين يراعون التقوى ويلتزمونها في تفكيرهم سيبلغون النتائج الصحيحة أسرع بكثير ممن لا يلتزم بها، كما أنّ الخلط يكثر عند من لا يتقي الله في استدلالاته وأسلوب تفكيره.

وهناك أمر آخر يجب الإنتباه إليه، لأنّ الكثير من مفاهيمنا الإسلامية قد تعرضت للتشويه بين المسلمين، وهو أنّ الكثير من الناس يتصور أنّ الإنسان المتقي هو الذي يكثر من غسل بدنه ولباسه ويعتبر كل فرد وكل شيء نجساً ومشكوكاً فيه، وينزوي جانباً متجنباً الخوض في الأمور الإجتماعية، ويسكت أمام كل واقعة، فهذه النظرات المغلوطة عن التقوى والمتقين في الحقيقة إحدى عوامل انحطاط المجتمعات الإسلامية، لأنّ هذه التقوى لا تنتج معرفة ولا وضوح رؤية ولا تكون فرقاناً بين الحق والباطل.

وعلى كل حال، وبعد أن اتّضح أوّل ثواب للمتقين نعود لتفسير بقية الآية وسائر الثمار الأربعة لها.

يقول القرآن الكريم: إنّه إضافة إلى معرفة الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوى أن يغطي على ذنوبكم ويمحو آثارها من وجودكم: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

وثمار كثيرة أخرى تنتظركم لا يعلمها إلّا الله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. فهذه الآثار الأربعة هي ثمرات في شجرة التقوى، ووجود روابط طبيعية بين التقوى وقسم من هذه الآثار لا يمنع من نسبة كل ذلك إلى الله تبارك وتعالى، لأنّنا وكما قلنا مراراً في هذا التّفسير فإنّ أي موجود ذي آثار إنّما تحصل بمشيئة الله وقدرته، فيمكن نسبة تلك الآثار إلى الله عزّ وجلّ، وإلى ذلك الموجود أيضاً.

وأمّا الفرق بين (تكفير السيئات) و(الغفران). فقد قال بعض المفسّرين بأنّ الأولى إشارة إلى الحجب من الدنيا، والثّانية إلى النجاة من الجزاء الأخروي، ويردُ احتمال آخر هنا وهو أنّ (تكفير السيئات) تشير للآثار النفسية والإجتماعية للذنوب والتي تزول بفعل التقوى ولكن (الغفران) إشارة إلى مسألة العفو الإلهي والخلاص من الجزاء...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

التّفسير

قانون التقوى هو أغلى القيم الإنسانية:

كان الخطاب في الآيات السابقة موجّهاً للمؤمنين وكان بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقد نهى الذكر الحكيم في آيات متعدّدة عمّا يُوقع المجتمع الإسلامي في خطر، وتكلّم في جوانب من ذلك.

في حين أنّ الآية محل البحث تخاطب جميع الناس وتبيّن أهم أصل يضمن النظم والثبات، وتميّز الميزان الواقعي للقيم الإنسانية عن القيم الكاذبة والمغريات الباطلة. فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾.

والمراد بـ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ هو أصل الخلقة وعودة أنساب الناس إلى «آدم وحواء»، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغي أن تفتخر قبيلة على أخرى من حيث النسب، وإذا كان الله سبحانه قد خلق كلّ قبيلة وأولاها خصائص ووظائف معيّنة فإنّما ذلك لحفظ نظم حياة الناس الإجتماعية! لأنّ هذه الإختلافات مدعاةٌ لمعرفة الناس، فلو كانوا على شاكلة واحدة ومتشابهين لساد الهرج والمرج في المجتمع البشري أجمع.

وقد اختلف المفسّرون في بيان الفرق بين «الشعوب» جمع شعب ـ على زنة صعب ـ (الطائفة الكبيرة من الناس)، و«القبائل» جمع قبيلة فاحتملوا احتمالات متعدّدة:

قال جماعة إنّ دائرة الشعب أوسع من دائرة القبيلة، كما هو المعروف في العصر الحاضر أن يطلق على أهل الوطن الواحد.

وقال بعضهم: كلمة «شعوب» إشارة إلى طوائف العجم، وأمّا «القبائل» فإشارة إلى طوائف العرب.

وأخيراً فإنّ بعضهم قال بأنّ «الشعوب» إشارة إلى انتساب الناس إلى المناطق «الجغرافية» و«القبائل» إشارة إلى انتسابهم إلى العرق والدم.

لكنّ التّفسير الأوّل أنسب من الجميع كما يبدوا وعلى كلّ حال، فإنّ القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخرة والمباهاة في العصر الجاهلي ويُلغي التفاضل بالأنساب والقبائل يتّجه نحو المعيار الواقعي القيم فيضيف قائلاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وهكذا فإنّ القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الإمتيازات الظاهرية والمادية، ويعطي الأصالة والواقعية لمسألة التقوى والخوف من الله، ويقول إنّه لا شيء أفضل من التقوى في سبيل التقرّب إلى الله وساحة قدسه.

وحيث إنّ «التقوى» صفة روحانية وباطنية ينبغي أن تكون قبل كلّ شيء مستقرّةً في القلب والروح، وربّما يوجد مدّعون للتقوى كثيرون والمتّصفون بها قلة منهم، فإنّ القرآن يضيف في نهاية الآية قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

فالله يعرف المتّقين حقّاً وهو مطّلع على درجات تقواهم وخلوص نيّاتهم وطهارتهم وصفائهم، فهو يكرمهم طبقاً لعلمه ويثيبهم، وأمّا المدّعون الكذبة فإنّه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم أيضاً.

بحثان

١ ـ القِيم الحقّة والقِيم الباطلة:

لا شكّ أنّ كلّ إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمة وافتخار، ولذلك فهو يسعى بجميع وجوده لكسب القيم...

إلاّ أنّ معرفة معيار القيم يختلف باختلاف الثقافات تماماً، وربّما أخذت القيم الكاذبة مكاناً بارزاً ولم تُبق للقيم الحقّة مكان في قاموس الثقافة للفرد.

فجماعة ترى بأنّ قيمتها الواقعية في الإنتساب إلى القبيلة المعروفة، ولذلك فإنّهم من أجل أن تعلوَ سمعةُ قبيلتهم وطائفتهم يظهرون نشاطات وفعاليات عامة ليكونوا برفعة القبيلة وسموّها كبراء أيضاً.

وكان الإهتمام بالقبيلة والإفتخار بالإنتساب إليها من أكثر الأمور الوهمية رواجاً في الجاهلية إلى درجة كانت كلّ قبيلة تعدّ نفسها أشرف من القبيلة الأخرى، ومن المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهلية في أعماق نفوس

الكثيرين من الأفراد والمجتمعات!! وجماعة أُخرى تعوّل على مسألة المال والثروة وامتلاكها للقصور والخدم والحشم وأمثال هذه الأمور، فتعدّها دليلاً على القيمة الشخصيّة وتسعى من أجل كلّ ذلك دائماً.

وجماعة تعتبر (المقامات) السياسية والإجتماعية العليا معياراً للشخصية والقيم الإجتماعية!

وهكذا تخطو كلّ جماعة في طريق خاص وتنشدّ قلوبها إلى قيمة معينة وتعدّها معيارها الشخصي!

وحيث إنّ هذه الأُمور جميعها أُمور متزلزلة ومسائل ذاتية ومادية عابرة فإنّ مبدأ سماوياً كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبداً... لذلك يشطب عليها بعلامة البطلان ويعتبر القيمة الحقيقية للإنسان في صفاته الذاتية وخاصة تقواه وطهارة قلبه والتزامه الديني.

حتى أنّه لا يكترث بموضوعات مهمّة كالعلم والثقافة إذا لم تكن في خطّ «الإيمان والتقوى والقيم الأخلاقية»...

ومن العجيب أن يظهر القرآن في محيط يهتمّ بالقيمة القبلية أكثر من اهتمامه بالقيم الأُخرى، إلّا أنّ القرآن حطّم هذه الوثنية وحرّر الإنسان من أسر العِرق والدم والقبيلة واللون والمال والمقام والثروة وقاده إلى معرفة نفسه والعثور على ضالّته داخل نفسه وصفاتها العليا.

الطريف أنّ في ما ذُكر في شأن نزول الآية محل البحث لطائف ودقائق تحكي عمق هذا الدستور الإسلامي.

منها: إنّ النّبي ﷺ أمر «بلالاً» بعد فتح مكّة أن يؤذّن، فصعد بلال وأذّن على ظهر الكعبة، فقال «عتّاب بن أسيد» الذي كان من الأحرار: أشكر الله أن مضى أبي من هذه الدنيا ولم يرَ مثل هذا اليوم.... وقال «الحارث بن هشام»: ألم يجدْ رسول الله غير هذا الغراب الأسود للأذان؟! فنزلت الآية الآنفة وبيّنت معيار القيم الواقعية[1].

---

(١) روح البيان، ج٩، ص٩٠، كما ورد في تفسير القرطبي، ج ٩، ص٦١٦٠.

وقال بعضهم: نزلت الآية عندما أمر الرّسول ﷺ بتزويج بعض الموالي من بنات العرب و«الموالي تطلق على العبيد الذين عُتقوا من ربقة أسيادهم أو على غير العرب (المسلمين)». فتعجّبوا وقالوا: يا رسول الله أتأمرنا أن نزوّج بناتنا من الموالي «فنزلت الآية وأبطلت هذه الأفكار الخرافية»[1].

ونقرأ في بعض الرّوايات الإسلامية أنّ النّبي ﷺ خطب يوماً في مكّة فقال: «يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هيّن على الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

وقد جاء في كتاب «آداب النفوس» للطبري أنّ النّبي ﷺ التفت إلى الناس وهو راكب على بعيره في أيّام التشريق بمنى «وهي اليوم الحادي عشر والثّاني عشر والثّالث عشر» من ذي الحجة فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى ألا هل بلّغت: قالوا نعم! قال ليبلغ الشاهد الغائب»[3].

كما ورد في حديث آخر بهذا المعنى ضمن كلمات قصيرة ذات معاني غزيرة أنّه ﷺ قال: «إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسادكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه وإنّما أنتم بنو آدم وأحبّكم إليه أتقاكم»[4].

إلّا أنّ العجيب أنّه مع هذه التعليمات الواسعة الغنية ذات المغزى الكبير ما

---

(١) روح البيان، ج٩، ص٩٠، كما ورد في تفسير القرطبي، ج ٩ ص٦١٦٠.

(٢) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦١٦١.

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص٦١٦٢، والتعبير «بالأحمر» في هذه الرواية لا يعني من بشرته حمراء بل من بشرته حنطية، لأنّ أغلب الناس في ذلك المحيط كانوا بهذه الصفة ومن الطريف أن يطلق الأحمر على الحنطة أيضاً.

(٤) المصدر السابق.

يزال بين المسلمين من يعوّل على الدم والنسب واللسان ويقدّمون وحدة الدم واللغة على الأخوة الإسلامية والوحدة الدينية ويحيون العصبية الجاهلية مرّةً أُخرى، وبالرغم من الضربات الشديدة التي يتلقّونها من جراء ذلك، إلّا أنّهم حسب الظاهر لا يريدون أن يتيقّظوا ويعودوا إلى حكم الإسلام وحظيرة قدسه!

حفظ الله الجميع من شر العصبية الجاهلية.

إنّ الإسلام حارب العصبية الجاهلية في أي شكل كانت وفي أيّ صورة ليجمع المسلمين في العالم من أي قوم وقبيلة وعرق تحت لواء واحد ـ لواء القومية لا سواه ـ لأنّ الإسلام لا يوافق على هذه النظريات المحدودة ويعدّ جميع هذه الأمور وهمية لا أساس لها حتى أنّه ورد في حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «دعوها فإنّها منتنة»[١].

ولكن لماذا بقيت هذه الفكرة المُنتنة مترسّخة في عقول الكثيرين ممّن يدّعون أنّهم مسلمون ويتّبعون القرآن والأخوة الإسلامية ظاهراً؟! لا ندري!!

وما أحسن أن يُبنى المجتمع على أساس معيار القيم الإسلامي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وإن تطوى القيم الكاذبة من قوميّة ومال وثروة ومناطق جغرافية وطبقية عن هذا المجتمع.

أجل، التقوى الإلهية والإحساس بالمسؤولية الداخلية والوقوف بوجه الشهوات والإلتزام بالحق والصدق والطهارة والعدل، هي وحدها معيار القيم الإنسانية لا غير، بالرغم من أنّ هذه القيم الأصيلة نسبت وأُهملت في سوق المجتمعات المعاصرة وحلّت محلها القيم الكاذبة.

في نظام القيم الجاهلية الذي كان يدور حول محور «التفاخر بالآباء والأموال والأولاد» لم ينتج سوى حفنة سرّاق وناهبين، غير أنّه بتبدّل هذا النظام وإحياء أصل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ الكبير كان من ثمراته أُناس أمثال سلمان الفارسي وأبو ذرّ الغفاري وعمّار وياسر والمقداد. والمهم في ثورات المجتمعات الإنسانية هو الثورة على القيم وإحياء هذا الأصل الإسلامي الأصيل!

---

(١) صحيح مسلم، طبقاً لما نقل في ظلال الإسلام، ج٧، ص٥٣٨.

ونختتم كلامنا هذا بحديث للنّبي ﷺ إذ قال: «كلكم بنو آدم وآدم خُلق من تراب ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[1].

٢ ـ حقيقة التقوى:

كما رأينا من قبل، فإنّ القرآن جعل أكبر امتياز للتقوى، وعدّها معياراً لمعرفة القيم الإنسانية فحسب!

وفي مكان آخر عدّها خير الزاد والشراب إذ يقول: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٩٧]

أمّا في سورة الأعراف فقد عبّر عنها باللباس ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

كما أنّه عبّر عنها في آيات أخر بأنّها واحدة من أوّل أُسس دعوة الأنبياء، ويسمو بها في بعض الآيات إلى أن يعبّر عن الله بأنّه أهل التقوى فيقول: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

والقرآن يعدّ التقوى نوراً من الله، فحيثما رسخت التقوى كان العلم والمعرفة إذ يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ويقرن التقوى بالبرّ في بعض آياته فيقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢].

أو يقرن العدالة بالتقوى فيقول: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

والآن ينبغي أن نرى ما هي «حقيقة التقوى» التي هي أعظم رأس مال معنوي وافتخار للإنسان.

أشار القرآن إشارات تكشف أستاراً عن حقيقة التقوى، فيذكر في آيات متعدّدة «القلب» مكاناً للتقوى، ومن ضمنها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ [الحجرات: ٣].

ويجعل القرآن «التقوى» في مقابل «الفجور» كما نقرأ ذلك في الآية (٨) من سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾.

---

(١) في ظلال القرآن، ج٧، ص٥٣٨.

ويعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان والإخلاص والنية الصادقة أساسه التقوى، كما جاء في وصفه في شأن «مسجد قبا» (في المدينة) حيث بنى المنافقون في قباله «مسجد ضرار» فيقول: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ التقوى هي الاحساس بالمسؤولية والتعهّد الذي يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجةً لرسوخ إيمانه في قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنب ويدعوه إلى العمل الصالح والبرّ ويغسل أعمال الإنسان من التلوّثات ويجعل فكره ونيّته في خلوص من أي شائبة.

وحين نعود إلى الجذر اللغوي لهذه الكلمة نصل إلى هذه النتيجة أيضاً لأنّ «التقوى» مشتقّة من «الوقاية» ومعناها المواظبة والسعي على حفظ الشيء، والمراد في هذه الموارد حفظ النفس من التلوّث بشكل عام، وجعل القوى تتمركز في أمور يكون رضا الله فيها:

وقد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

١ ـ حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الإعتقادات الصحيحة.

٢ ـ تجنّب كلّ إثم وهو أعم من أن يكون تركاً لواجب أو فعلاً لمعصية.

٣ ـ التجلّد والإصطبار عن كلّ ما يشغل القلب ويصرفه عن الحقّ، وهذه تقوى الخواص بل خاص الخاص[١].

وفي نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام تعابير حيّة وبليغة في شأن التقوى، حيث ذكرت التقوى في كثير من خطب الإمام وكلماته القصار!

ففي بعض كلماته يقارن عليه السلام بين التقوى والذنب، فيقول: «ألا وإنّ الخطايا خيل شُمس حُمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النّار، ألا وإنّ التقوى مطايات ذلل حَمَلَ عليها أهلها وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنّة»[٢].

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٢٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

وطبقاً لهذا التشبيه اللطيف فإنّ التقوى هي حالة ضبط النفس والتسلّط على الشهوات، في حين أنّ عدم التقوى هو الإستسلام للشهوات وعدم التسلّط عليها.

ويقول الإمام علي عليه السلام في مكان آخر: «اعلموا عباد الله أنّ التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه ألا وبالتقوى تقطع حُمَّةُ الخطايا»[١].

ويضيف في مكان آخر أيضاً: «فاعتصموا بتقوى الله فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروتُهُ ومعقلاً منيعاً ذروتُهُ»[٢].

وتتّضح حقيقة التقوى وروحها من خلال مجموع التعبيرات آنفة الذكر.

وينبغي الإلتفات إلى هذه «اللطيفة» وهي أنّ التقوى ثمرة شجرة الإيمان، ومن أجل الحصول على هذه الثمرة النادرة والغالية ينبغي أن تكون قاعدة الإيمان راسخة ومُحكمة!

وبالطبع فإنّ ممارسة الطاعة وتجنّب المعصية والإلتفات إلى المناهج الأخلاقية تجعل التقوى راسخة في النفس، ونتيجتها ظهور نور اليقين والإيمان في نفس الإنسان، وكلّما ازداد نور التقوى ازداد نور اليقين أيضاً، ولذلك نجد التقوى في بعض الرّوايات الإسلامية على أنّها درجة أعلى من الإيمان وأدنى من اليقين.

يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة والتقوى فوق الإيمان بدرجة واليقين فوق التقوى بدرجة وما قُسِمَ من الناس شيء أقلّ من اليقين».

ونختتم بحثنا بأبيات تجسّد حقيقة التقوى ضمن مثال جليّ:

خلّ الذنوب صَغيرها وكبيرها فهو التُّقى

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يَرى

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠.

رأي العلماء في الثواب والعقاب:

للعلماء آراء مختلفة في الثواب والعقاب:

١ ـ يعتقد البعض أن جزاء الأعمال الأخروي أمر اعتباري، مثل المكافأة والعقوبة في هذه الدنيا، أي كما أنّ هناك في هذه الدنيا عقاباً على كلّ عمل سَيىء أقرّه القانون الوضعي، كذلك وضع الله لكلّ عمل ثواباً أو عقاباً معيّنين. وهذه هي نظرة الأجر المعيّن والجزاء القانوني.

٢ ـ ثمّة آخرون يعتقدون أنّ النفس البشرية تخلق الثواب والعقاب، فالنفس تخلق ذلك في العالم الآخر دون اختيار، أي أنّ الأعمال الحسنة والأعمال السيّئة في هذا العالم تخلق في النفس صفات حسنة أو سيّئة، وهذه الصفات تصبح جزءاً متمكّناً من ذات الإنسان، وتبدأ هذه بإيجاد صورة تناسبها من السعادة أو العذاب. فذو الباطن الحسن في هذا العالم يتعامل مع مجموعة من الأفكار والتصوّرات الحسنة، والأشرار والخبثاء مشغولون بأفكارهم الباطلة وتصوّراتهم الدنيئة في نومهم ويقظتهم.

وفي يوم القيامة تقوم هذه الصفات نفسها بخلق السكينة والعذاب أو الشقاء والسعادة. وبعبارة أخرى أنّ ما نقرأه من نِعم الجنّة وعذاب جهنّم ليس سوى ما تخلقه هذه الصفات الحسنة أو السيّئة في الإنسان.

٣ ـ فريق ثالث من كبار علماء الإسلام اتّخذوا سبيلاً آخر دعموه بكثير من الآيات والأحاديث. يقول هؤلاء: إنّ لكلّ عمل من أعمالنا ـ حسناً كان أم سيّئاً ـ صورة دنيوية هي التي نراها، وصورة أخروية كامنة في باطن ذلك العمل. وفي يوم القيامة، وبعد أن تكون قد طرأت عليه تحوّلات كثيرة، يفقد صورته الدنيوية ويظهر بصورته الأخروية فيبعث على راحة فاعله وسكينته، أو شقائه وعذابه.

هذه النظرة من بين النظرات الأخرى، تتّفق مع كثير من آيات القرآن، وبناءً على ذلك، فإنّ أعمال الإنسان ـ وهي مظاهر مختلفة من الطاقة ـ لا تفنى بموجب قانون بقاء «المادة، الطاقة» وتبقى أبداً في هذه الدنيا، على الرغم من أنّ الناظر السطحي يظنّها قد تلاشت.

إنّ بقاء هذه الأعمال بقاءً أبدياً يتيح من جهة أن يراها الإنسان عند محاسبته يوم القيامة ولا يبقى له مجال للإنكار، كما يتيح للإنسان من جهة أُخرى أن يعيش يوم القيامة بين أعماله، فيشقى أو يسعد. وعلى الرغم من أنّ علم الإنسان لم يبلغ بعد مرحلة اكتشاف الماضي، إلّا للحظات قليلة سابقة[١]، فممّا لا شكّ فيه أنّه لو تمّ صنع جهاز أدقّ وأكمل، أو لو كانت لنا «رؤية» و«إدراك» أكمل لاستطعنا أن نرى وندرك كلّ ما حدث في الماضي. (ليس هناك ما يمنع أن يكون جانب من الثواب والعقاب ذا طابع توافقي).

العلم وتجسيد الأعمال:

لإثبات إمكان تجسيد الأعمال الماضية، يمكن الإستناد إلى مبادىء الفيزياء الثابتة اليوم، فقوانين الفيزياء تقول إنّ المادة تتحوّل إلى طاقة، وذلك لأنّ «المادة» و«الطاقة» مظهران لحقيقة واحدة، كما تقول أحاديث النظريات بهذا الخصوص، وأنّ المادة طاقة متراكمة مضغوطة تتحوّل إلى طاقة في ظروف معيّنة. وقد تكون الطاقة الكامنة في غرام واحد من المادة تعادل في قوة انفجارها أكثر من ثلاثين ألف طن من الديناميت.

ملخّص القول: إنّ المادة والطاقة مظهران لحقيقة واحدة وبالنظر لعدم فناء الطاقة والمادة، فليس هناك ما يحول دون تراكم الطاقات المنتشرة مرّة أُخرى وتتّخذ صورة مادّة أو جسم، فإذا كانت نتيجة الأعمال صالحة ظهرت بصورة نِعم مادّية جميلة، وإذا كانت شرّاً وسيّئة فإنّها تتجسّد في وسائل عذاب وعقاب.

---

(١) اكتشف علماء جهاز تصوير يعمل بالأشعة ما تحت الحمراء تستطيع أن تصوّر حدثاً لم يمض عليه أكثر من بضع لحظات، إنّ الجهاز يعمل وفق نظام حراري يجتذب الأمواج الصادرة عن الأجسام، ويحوّلها بوساطة جهاز يدعى: «ترموجرام» إلى سالب وموجب، ثمّ يصوّرها بالأسود والأبيض. كما ذكرت وسائل الإعلام وبهذا يمكن أن نعرف كيفية وقوع جريمة وتصوير أعمال المجرمين السابقة ثمّ عرضها عليهم وكشف كذبهم.

الأخلاق في القرآن

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

سبب النزول

ذكر المفسّرون لهاتين الآيتين شأناً (في نزولهما) بل شؤوناً مختلفة منها أنّ جملة ﴿لَا يَسْخَرْ﴾ نزلت في «ثابت بن قيس» خطيب النّبي ﷺ الذي كان ثقيل السمع، وكان حين يدخل المسجد يجلس إلى جنب النّبي ويُوفَّر له المكان عنده ليسمع حديث النّبي، وذات مرّة دخل المسجد والمسلمون كانوا قد فرغوا من صلاتهم وجلسوا في أماكنهم، فكان يشقّ الجموع ويقول: تفسّحوا، تفسّحوا حتى وصل إلى رجل من المسلمين فقال له: اجلس (مكانك هنا) فجلس خلفه مُغضَباً حتى انكشفت العتمة فقال ثابت لذلك الرجل: من أنت فقال: إن فلان قال له: ثابت ابن فلانة؟! وذكر اسم أمّه بما يكره من لقبها... وكانت تعرف به في زمان الجاهلية فاستحيى ذلك الرجل وطأطأ برأسه إلى الأرض، فنزلت الآية ونهت المسلمين عن مثل هذا العمل.

وقيل إنّ جملة ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ نزلت في أمّ سلمة إحدى أزواج النّبي ﷺ لأنّها كانت تلبس لبوساً خاصاً أو لأنّها كانت قصيرة فكانت النساء يسخرن منها، فنزلت الآية ونهت عن مثل هذه الأعمال!

وقالوا إنّ جملة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ نزلت في نفرين من الصحابة

اغتابا صاحبهما «سلمان» لأنّهما كانا قد بعثاه نحو النّبي ﷺ ليأتيهما بطعام منه، فأرسل النّبي سلمان نحو «أسامة بن زيد» الذي كان مسؤول بيت المال فقال أسامة ليس عندي شيء الآن... فاغتابا أسامة وقالا إنّه بخيل وقالا في شأن سلمان: لو كنّا أرسلناه إلى بئر سميحة لغاض ماؤها «وكانت بئراً غزيرة الماء» ثمّ انطلقا ليأتيا أسامة وليتجسّسا عليه، فقال لهما النّبي ﷺ إنّي أرى آثار أكل اللحم على أفواهكما: فقالا يا رسول الله لم نأكل اللحم هذا اليوم فقال رسول الله: أجل تأكلون لحم سلمان وأسامة. فنزلت الآية ونهت المسلمين عن الإغتياب[1].

التّفسير

الإستهزاء وسوء الظنّ والغيبة والتجسّس والالقاب السيئة حرام!

حيث إنّ القرآن المجيد اهتمّ ببناء المجتمع الإسلامي على أساس المعايير الأخلاقية فإنّه بعد البحث عن وظائف المسلمين في مورد النزاع والمخاصمة بين طوائف المسلمين المختلفة بيّن في الآيتين محل البحث قسماً من جذور هذه الإختلافات ليزول الإختلاف (بقطعها) ويُحسم النزاع!

ففي كلٍّ من الآيتين الآنفتين تعبير صريح وبليغ عن ثلاثة أُمور يمكن أن يكون كلٌّ منها شرارة لاشتعال الحرب والإختلاف، إذ تقول الآية الأولى من الآيتين محل البحث أوّلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾.

لأنه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

والخطاب موجّه هنا إلى المؤمنين كافة فهو يَعمُّ الرجال والنساء وينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح، لأنّ أساس السخرية والإستهزاء هو الإحساس بالإستعلاء والغرور والكبر وأمثال ذلك إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الدامية على امتداد التاريخ!

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٥، والقرطبي في تفسيره، إذ ذكر هذا الشأن مع شيء من التفاوت.

وهذا الإستعلاء أو التكبّر غالباً ما يكون أساسه القيم المادية والظواهر المادية فمثلاً، فلانٌ يرى نفسه أكثر مالاً من الآخر أو يرى نفسه أجمل من غيره أو أنّه يُعدُّ من القبيلة المشهورة والمعروفة أكثر من سواها، وربّما يسوقه تصوّره بأنّه أفضل من الجماعة الفلانية علماً وعبادةً ومعنوية إلى السخرية منه، في حين أنّ المعيار الواقعي عند الله هو «التقوى» التي تنسجم مع طهارة القلب وخلوص النيّة والتواضع والأخلاق والأدب!

ولا يصحّ لأي أحد أن يقول أنا أفضل عند الله من سواي، ولذلك عُدَّ تحقير الآخرين والتعالي بالنفس من أسوأ الأمور وأقبح العيوب الأخلاقية التي يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبية في حياة الناس جميعاً.

ثمّ تقول الآية في المرحلة الثاني: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

كلمة «تلمزوا» هي من مادة «لَمْز» على زنة «طنز» ومعناها تتّبع العيوب والطعن في الآخرين، وفسّر بعضهم الفرق بين «الهمز» و«اللمز» بأنّ «اللمز» عدّ عيوب الناس بحضورهم، و«الهمز» ذكر عيوبهم في غيابهم، كما قيل إنّ «اللمز» تتبّع العيوب بالعين والإشارة في حين أنّ «الهمز» هو ذكر العيوب باللسان.

الطريف أنّ القرآن في تعبير «بأنفسكم» يُشير إلى وحدة المؤمنين وأنّهم نسيجٌ واحد، ويبيّن هنا بأنّ جميع المؤمنين بمثابة النفس الواحدة فمن عاب غيره فإنّما عاب نفسه في الواقع!

وتضيف الآية في المرحلة الثالثة أيضاً قائلة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾.

هناك الكثير من الأفراد الحمقى قديماً وحديثاً، ماضياً وحاضراً مولعون بالتراشق بالألفاظ القبيحة، ومن هذا المنطلق فهم يحقّرون الآخرين ويدمّرون شخصياتهم وربّما انتقموا منهم أحياناً عن هذا الطريق، وقد يتّفق أنّ شخصاً كان يعمل المنكرات سابقاً، ثمّ تاب وأناب وأخلص قلبه لله، ولكن مع ذلك نراهم يرشقونه بلقب مبتذل كاشف عن ماضيه!

الإسلام نهى عن هذه الأمور بصراحة ومنع من إطلاق أي إسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مدعاةً لتحقير المسلم.

ونقرأ في بعض الأحاديث أنّ «صفية بنت حيي بن أخطب» المرأة اليهودية التي أسلمت بعد فتح خيبر وأصبحت زوجة النّبي ـ جاءت صفية يوماً إلى النّبي وهي باكية العين فسألها النّبي عن سبب بكائها، فقالت: إنّ عائشة توبّخني وتقول لي يا ابنة اليهودي، فقال لها النّبي ﷺ: فلمَ لا قلت لها: أبي هارون وعمّي موسى وزوجي محمّد فكان أن نزلت هذه الآية ـ محل البحث ـ[1].

ولذلك فإنّ الآية تضيف قائلة: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي قبيح جدّاً على من دخل في سلك الإيمان أن يذكر الناس بسمات الكفر.

واحتمل بعض المفسّرين احتمالاً آخر لهذه الجملة المذكورة آنفاً وهي أنّ الله نهى المؤمنين أن يرضوا بأسماء الفسق والجاهلية لأنفسهم بسبب سخرية الناس ولتحاشي استهزائهم.

ولكن مع الإلتفات إلى صدر الآية وشأن النّزول المذكور يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

وتُختتم الآية لمزيد التأكيد بالقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وأي ظلم أسوأ من أن يؤذي شخص بالكلمات اللاذعة و«اللاسعة» والتحقير واللمز قلوب المؤمنين التي هي «مركز عشق» الله وأن يطعن في شخصياتهم ويبتذل كرامتهم التي هي أساس شخصيتهم.

ماء وجوههم الذي هو أساس حياتهم الأهم.

وقلنا إنّ في كلٍّ من الآيتين ـ محل البحث ـ ثلاثة أحكام في مجال الأخلاق الإجتماعية، فالأحكام الثلاثة في الآية الأولى هي «عدم السخرية» و«ترك اللمز» و«ترك التنابز بالألقاب».

والأحكام الثلاثة في الآية الثانية هي «اجتناب سوء الظن» و«التجسّس» و«الإغتياب».

في هذه الآية يبدأ القرآن فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص١٣٦.

والمراد من «كثيراً من الظن» الظنون السيّئة التي تغلب على الظنون الحسنة بين الناس لذلك عبّر بـ«الكثير» وإلّا فإنّ حسن الظن لا أنّه غير ممنوع فحسب، بل هو مستحسن كما يقول القرآن في الآية (١٢) من سورة النور: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

وممّا يلفت النظر أنّه قد نُهي عن كثير من الظنّ، إلّا أنّه في مقام التعليل تقول الآية: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ولعلّ هذا الإختلاف في التعبير ناشىءٌ من أنّ الظنون السيّئة بعضها مطابق للواقع وبعضها مخالف له، فما خالف الواقع فهو إثم لا محالة، ولذلك قالت الآية: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وعلى هذا فيكفي هذا البعض من الظنون الذي يكون إثماً أن نتجنّب سائر الظنون لئلا نقع في الإثم!

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو أنّ الظنّ السيىء أو الظنّ الحسن ليسا اختياريين (غالباً) وإنّما كلٌّ منهما على أثر سلسلة من المقدّمات الخارجة عن اختيار الإنسان والتي تنعكس في ذهنه، فكيف يصحُّ النهي عن ذلك؟!

وفي مقام الجواب يمكن القول بأنّه:

١ - المراد من هذا النهي هو النهي عن ترتيب الآثار، أي متى ما خطر الظنّ السيىء في الذهن عن المسلم فلا ينبغي الإعتناء به عمليّاً، ولا ينبغي تبديل أُسلوب التعامل معه ولا تغيير الروابط مع ذلك الظرف، فعلى هذا الأساس فإنّ الإثم هو إعطاء الأثر وترتّبه عليه.

ولذلك نقرأ في هذا الصدد حديثاً عن نبيّ الإسلام يقول فيه: «ثلاث في المؤمن لا يستحسنّ، وله منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظن ألّا يحققه»[1]... إلى آخر الحديث الشريف.

٢ - يستطيع الإنسان أن يبعد عن نفسه سوء الظن بالتفكير في المسائل المختلفة، بأن يفكر في طرق الحمل على الصحة، وأن يجسّد في ذهنه الاحتمالات الصحيحة الموجودة في ذلك العمل، وهكذا يتغلّب تدريجياً على سوء الظنّ!

---

(١) المحجة البيضاء، ج٥، ص٢٦٩.

فبناءً على هذا ليس سوء الظنّ شيئاً (ذا بال) بحيث يخرج عن اختيار الإنسان دائماً!

لذلك فقد ورد في الرّوايات أنّه: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه، ولا تظنّن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجدُ لها في الخير محملاً»[1].

وعلى كلّ حال، فإنّ هذا الأمر واحد من أكثر الأوامر والتعليمات جامعيّةً ودقّةً في مجال روابط الإنسان الإجتماعية التي تضمن الأمن في المجتمع بشكل كامل!

ثمّ تذكر الآية موضوع «التجسّس» فتنهى عنه بالقول: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾!

و«التجسّس» و«التحسّس» كلاهما بمعنى البحث والتقصّي، إلّا أنّ الكلمة الأولى غالباً ما تستعمل في البحث عن الأمور غير المطلوبة، والكلمة الثانية على العكس حيث تستعمل في البحث عن الأمور المطلوبة أو المحبوبة! ومنه ما ورد على لسان يعقوب في وصيته ولَدَه! ﴿يَٰبَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي الحقيقة إنّ سوء الظنّ باعث على التجسّس، والتجسّس باعث على كشف الأسرار وما خفي من أمور الناس، والإسلام لا يبيح أبداً كشف أسرار الناس!

وبتعبير آخر إنّ الإسلام يريد أن يكون الناس في حياتهم الخاصة آمنين من كل الجهات، وبديهي أنّه لو سمح الإسلام لكلّ أحد أن يتجسّس على الآخرين فإنّ كرامة الناس وحيثيّاتهم تتعرض للزوال، وتتولد من ذلك «حياة جهنمية» يحسّ فيها جميع أفراد المجتمع بالقلق والتمزّق!

وبالطبع فإنّ هذا الأمر لا ينافي وجود أجهزة «مخابرات» في الحكومة الإسلامية لمواجهة المؤامرات، ولكنّ هذا لا يعني أنّ لهذه الأجهزة حقّ التجسّس في حياة الناس الخاصّة.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، باب التهمة وسوء الظنّ، الحديث٣، وقد ورد شبيه هذا المعنى في نهج البلاغة مع شيء من التفاوت في «الكلمات القصار»، رقم ٣٦٠.

وأخيراً فإنّ الآية تضيف في آخر هذه الأوامر والتعليمات ما هو نتيجة الأمرين السابقين ومعلولهما فتقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

وهكذا فإنّ سوء الظنّ هو أساس التجسّس، والتجسّس يستوجب إفشاء العيوب والأسرار، والاطلاع عليها يستوجب الغيبة، والإسلام ينهى عن جميعها علّةً ومعلولاً!

ولتقبيح هذا العمل يتناول القرآن مثلاً بليغاً يجسّد هذا الأمر فيقول: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾!

أجل، إنّ كرامة الأخ المسلم وسمعته كلحم جسده، وابتذال ماء وجهه بسبب اغتيابه وإفشاء أسراره الخفية كمثل أكل لحمه.

كلمة «ميتاً» للتعبير عن أنّ الإغتياب إنّما يقع في غياب الأفراد، فمثلهم كمثل الموتى الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وهذا الفعل أقبح ظلم يصدر عن الإنسان في حقّ أخيه!

أجل، إنّ هذا التشبيه يبيّن قبح الإغتياب وإثمه العظيم.

وتولي الرّوايات الإسلامية أهمية قصوى لمسألة الإغتياب، ونادراً ما نجد من الذنوب ما فيه من الإثم إلى هذه الدرجة.

وحيث إنّه من الممكن ان يكون بعض الأفراد ملوّثين بهذه الذنوب الثلاثة ويدفعهم وجدانهم إلى التيقظ والتنبّه فيلتفتون إلى خطئهم، فإنّ السبيل تفتحه الآية لهم إذ تُختتم بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

فلا بدّ أن تحيا روح التقوى والخوف من الله أوّلاً: وعلى أثر ذلك تكون التوبة والإنابة لتشملهم رحمة الله ولطفه.

بعض التعاليم في القرآن

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ٩-١١].

«تقهر» من القهر (كما عن الراغب) الغلبة مع التحقير، ولكن تستعمل في كل واحد من المعنيين ومعنى التحقير هنا هو المناسب.

قال في الأمثل: وهذا يدل على أنّ هناك مسألة أهم من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام وهي اللطف بهم والعطف عليهم، وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفي، ولذا جاء في الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمرّ على يده نور يوم القيامة».

كأنّ الله يخاطب نبيّه قائلاً: لقد كنت يتيماً أيضاً وعانيت من آلام اليتم، والآن عليك أن تهتمّ بالأيتام كل اهتمام، وأن تروي روحهم الظمأى بحبّك وعطفك.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

«نَهَرَ» بمعنى ردّ بخشونة، ولا يستبعد أن تكون مشتركة في المعنى مع «نهر» الماء، لأنّ النهر يدفع الماء بشدّة.

وفي معنى «السائل» عدّة تفاسير:

الأوّل: أنّه المتجه بالسؤال حول القضايا العملية والعقائدية والدينية، والدليل على ذلك هو أنّ هذا الأمر تفريع ممّا جاء في الآية السابقة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، فشكر هذه الهداية الإلهية يقتضي أن تسعى أيّها النّبي في هداية السائلين، وأن لا تطرد أي طالب للهداية عنك.

والتّفسير الآخر: هو الفقير في المال والمتاع، والأمر يكون عندئذٍ ببذل الجهد في هذا المجال، وبعدم ردّ هذا الفقير السائل يائساً.

والثّالث: إنّ المعنى يشمل الفقير علمياً والفقير مادياً، والأمر بتلبية احتياجات السائل في المجالين، وهذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهية لنبيّه ﷺ، ومع إيوائه حين كان يتيماً.

وذهب بعضهم إلى حصر معنى السائل في طالب المعرفة العلمية، زاعماً أنّ كلمة السائل لم ترد في القرآن الكريم بمعنى طالب المال والمتاع[1]، بينما تكرر في القرآن هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. وفي هذا المعنى أيضاً وردت في سورة المعارج، الآية: ٢٥، وفي سورة البقرة، الآية: ٧٧.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وبتعابير تنمّ عن غاية الشكر والإمتنان، لا عن التفاخر والغرور. وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله، إنفاقاً يبيّن مدى هذه النعمة. هذه هي خصلة الإنسان السخيّ الكريم... يشكر الله على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، خلافاً للسخفاء البخلاء الذين لا يكفون عن الشكوى والتأوه، ولا يكشفون عن نعمة ولو حصلوا على الدنيا وما فيها، وجوههم يعلوها سيماء الفقر، وكلامهم مفعم بالتذمّر والحسرة، وعملهم يكشف عن فقر!

بينما روي عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه»[2].

من هنا يكون معنى الآية: بيّن ما أغدق الله عليك من نِعَم بالقول والعمل، شكراً على ما أغناك الله إذ كنت عائلاً.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ النعمة في الآية هي النعمة المعنوية ومنها النبوّة والقرآن، والأمر للنبيّ بالإبلاغ والتبيين، وهذا هو المقصود من الحديث بالنعمة.

ويحتمل أيضاً أن يكون المعنى شاملاً للنعم المادية والمعنوية، لذلك ورد

---

(١) تفسير محمّد عبده، جزء عم، ص١١٣.
(٢) نهج الفصاحة، حديث٦٨٣.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «حدث بما أعطاك الله، وفضلك، ورزقك، وأحسن إليك وهداك»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أعطي خيراً فلم يُر عليه، سمّي بغيض الله، معادياً لنعم الله»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «إنّ الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده»[٣].

بحوث

١ ـ القيادة المنطلقة من المعاناة والآلام:

الآيات الكريمة في هذه السورة، ضمن سردها النعم الإلهية على رسول الله صلى الله عليه وآله، تعكس أيضاً مسألة يُتم النبيّ في صباه، وظروفه المادية الصعبة التي عاناها، والأتعاب والآلام التي قاساها، ومن بين هذه الآلام انطلق، ويجب أن يكون كذلك.

القائد الإلهي الإنساني يجب أن يذوق مرارة العيش، ويتلمس بنفسه الظروف القاسية، ويشعر بكل وجوده الحرمان، كي يستطيع أن يتفهم صحيح ما تعانيه الفئات المحرومة، ويتحسّس آلام الناس ومعاناتهم في معيشتهم.

يجب أن يفقد أباه في صغره كي يشعر بآلام الأطفال الأيتام، ولا بدّ أن يبقى جائعاً لأيّام وأن ينام عاصب البطن، كي يفهم بكل وجوده آلام الجياع.

لذلك كان صلى الله عليه وآله تغرورق عينه بالدموع حين يرى يتيماً، وكان يضمّ ذلك اليتيم إلى صدره ويداعبه بكل حرارة.

يجب أن يتفهّم ما يعانيه مجتمعه من فقر ثقافي، كي يعتزّ بكل من يأتيه لطلب معرفة أو علم، ويستقبله بصدر رحب.

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٧.

(٢) تفسير القرطبي، ج١٠، ص٧١٩٢، وقريب من هذا المعنى في الكافي، ج٦، كتاب الزي والتجميل، حديث ٢.

(٣) فروع الكافي، ج٦، ص٤٣٨.

ليس النّبي الخاتم وحده، بل قد يكون كلّ الأنبياء منطلقين من حياة المعاناة والألم، وهكذا كلّ القادة الحقيقيين الناجحين كانوا كذلك... ويجب أن يكونوا كذلك.

من كان يرفل في نعومة العيش، وفي الثراء والقصور، وكان ينال كلّ ما يريد، كيف يستطيع أن يدرك آلام المحرومين وكيف يستطيع أن يتفهم معاناة الفقراء والبائسين ليهب لمساعدتهم؟!

في حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق ﷺ: «ما بعث الله نبياً قط حتى يسترعيه الغنم يعلّمه بذلك رعيّة الناس»[١].

وفي رعي الغنم دروس في تحمل الآلام، وفي الصبر أمام موجود ضعيف قليل الشعور، كما إنّه استلهام لدروس التوحيد والعرفان من خلال حياة الصحراء والعيش في أحضان الطبيعة.

وفي رواية أنّ «موسى بن عمران» سأل ربّه عن سبب اختياره لمقام النبوّة فجاءه الجواب: أتذكر يوماً أنّ حملاً قد فرّ من قطيع غنمك فتبعته حتى أخذته ثمّ قلت له: لماذا أتعبت نفسك، ثمّ حملته على كتفك، وجئت به إلى القطيع، ولذلك اخترتك راعياً لخلقي، وهذا يعني أنّ الله تعالى رأى في موسى قدرة فائقة على التحمّل تجاه هذا الحيوان ممّا يدلّ على قوّة روحية فائقة أهّلته لهذه المنزلة الكبيرة.

٢ ـ الإهتمام بالأيتام:

لا يخلو مجتمع من أيتام فقدوا الأب في صِغَرهم، وهؤلاء الاطفال يجب أن يتمتعوا بحماية من مختلف الجهات.

فمن الناحية العاطفية، يشعر هؤلاء بنقص، إذا لم يُسدَّ فإنّهم سيشبّون أفراداً غير سالمين، وكثيراً ما يكونون قساة مجرمين خطرين. ومن الناحية الإنسانية يجب أن يعيش هؤلاء في حماية ورعاية كسائر أبناء المجتمع، أضف إلى ذلك يجب أن يشعر أفراد المجتمع بضمان مستقبل أبنائهم الذين قد يصابون باليتم في يوم من الأيّام.

---

(١) بحار الأنوار، ج١١، ص٦٤: ح٧.

الأيتام قد يكونون أصحاب تركة مالية يجب أن تصان بكلّ دقّة، وقد يكونون معدمين مالياً فيجب الإهتمام بهم من هذه الناحية، والآخرون يتحملون مسؤولية التعامل مع هؤلاء بكل اهتمام ورفق كي يزيلوا عنهم غبار عناء الوحدة.

لذلك ركزت آيات القرآن الكريم ونصوص الشريعة الأخرى على هذه المسألة ذات البعد الأخلاقي والبعد الإجتماعي والإنساني.

وعن رسول الله ﷺ قال: «إنّ اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله لملائكته يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غيب أبوه في التراب؟ فتقول الملائكة: أنت أعلم، فيقول الله تعالى: «يا ملائكتي، فإنّي أشهدكم أن لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة»[1].

وأكثر من ذلك، روي عنه ﷺ قال: «إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمن»[2].

وروي عنه ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة إذا اتقى الله عزَّ وجلَّ، وأشار بالسبابة والوسطى»[3].

ولأهمية هذه المسألة قرنها عليّ أمير المؤمنين في وصيته المعروفة بالصلاة والقرآن وقال: «الله الله في الأيتام فلا تغبُّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم»[4].

وعن أحد الصحابة قال: كنّا جلوساً عند رسول الله فأتاه غلام فقال: غلام يتيم وأخت لي يتيمة، وأمّ لي أرملة، أطعمنا ممّا أطعمك الله، أعطاك الله ممّا عنده حتى ترضى، قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، اذهب يا بلال فأتنا بماكان عندنا فجاء بإحدى وعشرين تمرة، فقال: سبع لك وسبع لأختك وسبع لأمّك، فقام إليه معاذ بن جبل فمسح على رأسه وقال: جبر الله يُتمك وجعلك خلفاً من أبيك وكان من أبناء المهاجرين.

فقال رسول الله ﷺ: رأيتك يا معاذ ما صنعت.

قال: رحمته.

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٠.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج٣١، ص٢١٩.

(٣) نور الثقلين، ج٥، ص٥٩٧، ح٢٣.

(٤) نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة رقم: ٤٧.

قال ﷺ: «لا يلي أحدكم منكم يتيماً فيحسن ولايته، ووضع يده على رأسه إلّا كتب الله له بكل شعرة حسنة ومحا عنه بكلّ شعرة سيئة، ورفع له بكلّ شعرة درجة»[1].

في المجتمعات الكبيرة مثل مجتمعاتنا اليوم، لا يمكن للمسلمين أن يكتفوا طبعاً بالأعمال الفردية، بل لا بدّ أن تتمركز القوى لرعاية الأيتام وفق برنامج اقتصادي وثقافي وتعليمي مدورس، كي ينشأ هؤلاء الأيتام أفراداً لائقين للمجتمع الإسلامي. وهذا يتطلب تعاوناً اجتماعياً عامّاً.

٣ ـ التحدّث بالنعم:

إظهار نعمة الرّب، حين يكون بدافع الشكر والثناء، لا على سبيل التفاخر والإستعلاء، يدفع الإنسان نحو التكامل على سلّم العبودية، كما إنّ له أيضاً آثاراً إجتماعية إيجابية، وآثاراً نفسية تبعث على السكينة والإستقرار.

الإنسان الذاكر لنعم ربّه لا يشتدّ عليه ضغط النواقص. إذا أُصيب في عضو من أعضاء بدنه يخفف عليه ألم الإصابة شكره على سلامة بقية الأعضاء، وإذا فقد شيئاً لا يجزع لأنّه شاكر على ما بقي عنده من إمكانات.

هؤلاء الذاكرون لنعم الله لا يعتريهم يأس وقنوط في الشدائد والهزات، ولا يصيبهم قلق واضطراب، قلوبهم هادئة ونفوسهم مطمئنة وقدرتهم على مواجهة المشاكل الكبيرة.

إلهي! نِعَمُك أكثر من أن نحصيها ونتحدث بها، فلا تسلبها عنّا، بل زدها بكرمك.

ربّاه! نحن في هذه الدنيا مغمورون ببحر كرمك فلا تحرمنا من عطائك يوم القيامة.

يا ربّ العالمين! وفقنا لأن نكون في مساعدة المحرومين مسارعين، ولحقوق الأيتام محافظين.

آمين يا ربّ العالمين. (الأمثل)

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٦.

أخبار الإنسان في القرآن

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق: ١-١٠].

التّفسير

ممَّ خُلق الإنسان؟!

تبتدىء السورة ـ كمثيلاتها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم ـ بعدّة أقسام بليغة تبعث على التأمل، وهي مقدمة لبيان أمر مهم.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾... ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾... ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.

«الطارق»: من (الطرق) ـ على زنة برق ـ وهو الضرب، ولهذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاة، و(المطرقة) هي الآلة التي يطرق بها الحديد وغيره.

ويقال للقادم ليلاً (الطارق)، لأنّ البيوت عادةً ما تغلق أبوابها ليلاً، فكلُّ قادم يلزمه والحال هذه طرق الباب.

وعندما جاء المنافق (الأشعث بن قيس) لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام ليلاً، جلب معه الحلوى، ظناً منه أنّ هذه الحلوى ستجعل من أمير المؤمنين عليه السلام ظهيراً له في قضية معينة.

فذكر الأمير عليه السلام هذه الواقعة متعجباً وذاماً: «وأعجب من ذلك طرقنا بملفوفة في وعائها»[1].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

ويفسّر القرآن الكريم «الطارق» بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، النجم اللامع الذي مع علوّه الشاهق وكأنّه يريد أن يثقب سقف السماء، وكأنّ نوره المتشعشع يريد أن يثقب ستار الليل الحالك، فيجلب الأنظار بميزته هذه.

ولكن، أيُّ نجم هو الطارق؟ هل هو الثريا (لبعدها الغائر في عمق السماء)، زحل، الزهرة، أم الشهب (لما لها من نور جذّاب)، أم كل النجوم؟

ثمّة احتمالات متباينة في هذا الموضوع، ولكن وجود صفة «الثاقب» لهذا النجم تعطي الإشارة إلى أنّ النجوم المتلألئة التي تثقب أنوارها ظلمة الليل، وتجذب الأنظار إليها، هي المرادة وليس كلّ نجم.

وفسّرت بعض الرّوايات «النجم الثاقب» بكوكب (زحل) من المنظومة الشمسية لشدّة نوره ولمعانه.

وروي أنّ مُنجّماً سأل الإمام الصادق عليه السلام، بقوله: فما يعني بالثاقب؟ قال: «لأنّ مطلعه في السماء السابعة، وأنّه ثقب بضوئه حتى أضاء السماء الدنيا، فمن ثمّ سمّاه الله «النجم الثاقب»»[1].

ويعتبر (زحل) من أبعد النجوم أو الكواكب في مجموعتنا الشمسية التي يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة، ويقع في المدار السابع للشمس، ولذا عبّر عنه الإمام عليه السلام بأنّه في السماء السابعة.

وما لهذا الكوكب من خصائص تؤهله لأن يُقسم به، فهو أبعد ما يمكن رؤيته من منظومتنا الشمسية، لذا فالعرب يشبهون كلّ عالٍ به، ويطلقون عليه أحياناً (شيخ النجوم)[2]، وله حلقات رائعة تحيط به، وله أيضاً ثمانية أقمار، وتعتبر حلقاته من أعجب ظواهر السماء.

ومع كلّ ما توصل إليه علماء الفلك بخصوصه، فثمّة أسرار لم يكشف عنها الستار بعد.

وقيل: إنّ لزحل عشرة أقمار، يمكن رؤية ثمانية منها بالناضور العادي (تلسكوب)، ولا يمكن رؤية الآخرين إلّا بالنواضير الكبيرة[3].

---

(١) نور الثقلين، ج٥، ص٥٥٠، ح٤.
(٢) دائرة المعارف دهخدا، مادة زحل.
(٣) دائرة المعارف دهخدا، مادة زحل.

وممّا لا شك فيه، أنّ هذه الحقائق ما كانت مكتشفة في عصر نزول الآية المباركة، وتوصل إليها بعد قرون من نزولها.

وعلى أي حال، فيمكن تفسير ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ بكوكب زحل، على اعتبار كونه أحد مصاديقه الواضحة، ولا ينافي تفسيره بأي نجوم أخرى عالية ووضّاءة، فالتّفسير المصداقي كثير الإستعمال في رواياتنا.

وفي الآية (١٠) من سورة الصافات: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾، فوصف «الشهاب» بأنّه «ثاقب» يحمل الإشارة لاحتمال أن يكون الظاهرة السماوية المذكورة هي ظاهرة «الشهب»، لتكون أحد تفاسير الآية المبحوثة، ويؤيد ذلك أيضاً بعض ما ذكر في شأن نزول الآية[1].

ولنرى لأي شيء كان هذا القسم: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾[2].

يحفظ عليه أعماله، وتسجل كل أفعاله، ليوم الحساب.

كما جاء في الآيات (١٠ ـ ١٢) من سورة الإنفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾.

فلا تظنوا بأنّكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فثمّة ملائكة عليكم مأمورين يسجلون كلّما يبدر منكم... وهذا ما له الأثر البالغ في عملية إصلاح وتربية الإنسان. مع أنّ الآية لم تحدد هوية «الحافظ»، ولكن الآيات الأخرى تبيّن بأنّ «الحفظة» هم الملائكة وأنّ «المحفوظ» هو أعمال الإنسان من الطاعات والمعاصي.

وقيل: يراد بها حفظ الإنسان من الحوادث والمهالك، ولولا ذلك لما خرج الإنسان من الدنيا بالموت الطبيعي والأطفال بالخصوص.

أو المراد هو: حفظ الإنسان من وساوس الشياطان، ولولا هذا الحفظ لما سلم أحد من وساوس شياطين الجن والإنس.

وبلحاظ ما تتطرق إليه الآيات التالية (حول المعاد والحساب الإلهي)،

---

(١) روح البيان، ج١٠، ص٣٩٧.

(٢) «إنْ» في الآية: نافية و«لمّا»: بمعنى «إلّا».

يكون التّفسير الأوّل أقرب من غيره وأنسب، ولو أنّ الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة غير بعيد عن مراد الآية.

والعلاقة ما بين المقسوم به وما أُقسم له وثيقة، حيث إنّ السماء العالية والنجوم التي تتحرك في مسارات منظمة، دليل على وجود النظم والحساب الدقيق في عالم الوجود، فكيف يمكن أن نتصور بأنّ أعمال الإنسان دون باقي الأشياء لا تخضع لهذه السُنّة، بل لتبقى سائبة بلا ضبط وتسجيل وليس عليها من حافظ؟!!

ثمّ يستدل القرآن الكريم على المعاد في مقابل من يقول باستحالة المعاد: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

وبهذا... أخذ القرآن الكريم بأيدي الجميع وأرجعهم إلى أول خلقهم، مستفهماً عمّا خلق منه الإنسان.

وبدون أن ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾، وهو ماء الرجل الذي تسبح فيه الحيامن، ويخرج بدفق.

ويستمر في تقريب المراد: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

«الصلب»: الظهر، و«الترائب»: جمع (تريبة)، وهي ـ على ما هو مشهور بين علماء اللغة ـ عظام الصدر العليا وضلوعه.

وكما يقول ابن منظور في لسان العرب: قال أهل اللغة أجمعون: الترائب موضع القلادة من الصدر.

وذكرت معان أُخرى للترائب منها: إنّها القسم الأمامي للإنسان (في قبال الصلب، الذي هو ظهر الإنسان)، إنّها اليدان والرجلان والعينان، إنّها عظام الصدر، أو ما يلي الترقوتين منه، وقيل: أربعة أضلاع من يمين الصدر وأربعة من يساره.

وأدناه، نذكر بعض الآراء الكثيرة للمفسّرين بخصوص المراد من «الصلب والترائب» الواردة في الآية المباركة.

١ ـ «الصلب» إشارة إلى الرجال، و«الترائب» إشارة إلى النساء، لأنّ في الرجال مظهر الصلابة، وفي النساء مظهر الرقة واللطافة.

وعليه، فالآية بصدد ذكر حيمن الرجل وبويضة المرأة، ومنهما تتشكل نطفة خلق الإنسان.

٢ ـ «الصلب» إشارة إلى ظهر الرجل، و«الترائب» إشارة إلى صدره، فيكون مراد الآية نطفة الرجل التي تقع ما بين ظهره وصدره.

٣ ـ إرادة، خروج الجنين من رحم أمّه، لأنّه يكون بين ظهرها والجزء الأمامي لبدنها.

٤ ـ قيل: إنّ في الآيتين سرّاً من أسرار التنزيل، ووجهاً من وجوه الإعجاز، إذ فيها معرفة حقائق علميّة لم تكن معروفة حينذاك وقد كشف عنها العلم أخيراً.

وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات، التي حيرت الألباب، فقد ثبت أن خصية الرجل ومبيض المرأة في بداية ظهورهما في الجنين يقعان في مجاورة كلية الجنين، أي بين وسط الفقرات (الصلب) والأضلاع السفلى للصدر (الترائب) ثمّ مع نمو الجنين ينتقلان تدريجياً إلى الأسفل، وبما أنّ تكوّن الإنسان يمثل تركيباً من نطفة الرجل والمرأة والمحل الأصلي لجهاز توليد النطفة فيهما هو بين الصلب والترائب، اختار القرآن لذلك التعبير. وهذا ما لم يكن معروفاً حينذاك.

وبعبارة أُخرى: إنّ كلّ من الخصيّة والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع[1].

ويشكل على هذا التفسير بـ: إنّ القرآن إنّما يقول: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾، فهو يمرّ من بينهما حال الخروج، في حين لا يقول التفسير المذكور ذلك، ويشير إلى محل توليده بينهما أثر النمو الجنيني، بالإضافة إلى أنّ تفسير «الترائب» بأسفل الضلوع لا يخلو من نقاش.

٥ ـ مراد الآية، هو المني، لأنّه في الحقيقة مأخوذ من جميع أجزاء

(١) تفسير المراغي، ج٣٠، ص١١٣.

البدن، ولذا عندما يقذف إلى الخارج فإنّه يقترن مع انفعال وهيجان البدن كلّه وبعده فتور البدن بأجمعه، فيكون مقصود «الصلب» و«الترائب» في هذه الحال تمام قسمي بدن الإنسان، الأمامي والخلفي.

٦ ـ وقيل أيضاً: إنّ المصدر الأساس لتكوين المني هو النخاع الشوكي الواقع في ظهر الإنسان، ثمّ القلب والكبد، فالأوّل تحت أضلاع الصدر، والآخر بين المكانين المذكورين، وعلى هذا الأساس قالت الآية: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾.

ويكفينا الرجوع إلى الآيات المبحوثة لدفع الغموض الحاصل، فالآيات تشير إلى ماء الرجل دون المرأة، بقرينة «ماء دافق» وهذا لا يصدق إلّا على الرجل، وعليه يعود الضمير في «يخرج».

وعليه، فينبغي إخراج المرأة من هذه الدائرة، ليكون البحث منصباً على الرجل فقط، وهو المشار إليه في الآية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

التّفسير

الشّرف العظيم:

وتنتقل السّورة في آخر مطافها إلى تلك النفوس المطمئنة ثقة بالله وبهدف الخلق، بالرغم من معايشتها في خضم صخب الحياة الدنيا، فتخاطبهم بكلّ لطف ولين ومحبّة، حيث تقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾... ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾... ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾... ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾.

فهل ثمّة أجمل وألطف من هذا التعبير!...

تعبير يحكي دعوة الله سبحانه وتعالى لتلك النفوس المؤمنة، المخلصة، المحبّة والواثقة بوعده جلّ شأنه... دعوتها لتعود إلى ربّها ومالكها ومصلحها الحقيقي...

دعوة مفعمة برضا الطرفين، رضا العاشق على معشوقه، ورضا المعشوق على عاشقه...

وتتوج تلك النفوس الطاهرة بتاج العبودية، لتدخل في صف المقرّبين عند الله، ولتحصل على إذن دخول جنان الخلد، وما قوله تعالى «جنتي» إلّا للإشارة إلى أنّ الـمُضَيِّفَ هو الله جلَّ جلاله... فما أروعها من دعوة! وما أعظمه وأكرمه من داعٍ! وما أسعده من مدعو!

ويراد بالنفس هنا: الروح الإنسانية.

«المطمئنة»: إشارة إلى الإطمئنان الحاصل من الإيمان، بدلالة الآية (٢٨) من سورة الرعد: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

ويعود اطمئنان النفس، لاطمئنانها بالوعود الإلهية من جهة، ولاطمئنانها لما اختارت من طريق...

وهي مطمئنة في الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، ومطمئنة عند أهوال حوادث يوم القيامة الرهيبة أيضاً.

أمّا (الرجوع إلى الله)، فهو ـ على قول جمع من المفسّرين ـ رجوع إلى ثوابه ورحمته.

ولكنّ الأنسب أن يقال: إنّه رجوع إليه جلَّ وعلا، رجوع إلى جواره وقربه بمعناها الروحي المعنوي، وليست بمعناها المكاني والجسماني.

وثمّة سؤال يرد إلى الذهن... متى ستكون دعوته المباركة، هل ستكون بعد مفارقة الروح البدن، أم يوم القيامة؟؟

لو أخذنا بظاهر الآيات المباركة، فسياقها يرتبط بالقيامة، وإن كان تعبير الآية ذو شمولية.

«راضية»: لما ترى من تحقق الوعود الإلهية بالثواب والنعيم بأكثر ممّا كانت تتصور، وشمول العبد برحمة وفضل الله سيدخل في قلبه الرضا بكلّ ما يحمل الرضا من معان وأكثر.

«مرضية»: لرضا الله تبارك وتعالى عنها.

فعبدٌ بما ذُكِرَ من أوصاف، بلا شكّ مكانه الجنّة، وذلك لأنّه عمل بكلّ ما يملك في سبيل رضوان معبوده الأحد الصمد، ووصل في عمله لمقام الرضا

التام والتسليم الكامل لخالقه تبارك وتعالى، حتى نال وسام حقيقة العبودية، ودخل طائعاً وواثقاً في صف عباد الله الصالحين.

وقد خصّ بعض المفسّرين سبب نزول هذه الآيات في (حمزة سيد الشهداء)، ولكن بلحاظ كون السّورة مكّية، فيمكن اعتبار ذلك أحد تطبيقات (مصاديق) الآيات وليس شأناً للنزول.

روي أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قد سأله قائلاً: جعلت فداك يا ابن رسول الله، هل يكره المؤمن على قبض روحه؟

قال: «لا والله، إنّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليّ الله، لا تجزع، فوالذي بعث محمّداً لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: ويمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذريتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر، فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول: «يا أيتها النفس المطمئنة (إلى محمّد وأهل بيته) ارجعي إلى ربّك راضية (بالولاية) مرضية (بالثواب) فادخلي في عبادي (يعني محمّد وأهل بيته) وادخلي جنّتي»، فما شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي»[1].

(١) الكافي، ج٣، ص١٢٧، باب أنّ المؤمن لا يكره على قبض روحه، الحديث ٢.

مفهوم الموت في القرآن

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

التّفسير

قال في الأمثل: إتماماً للأبحاث المرتبطة بالعالم الآخر ومصير المؤمنين والكفّار يأتي الحديث في هذه الآيات عن لحظة الموت المؤلمة والتي تعتبر باباً إلى العالم الآخر فيقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾[(١)]. أي كلّا إنّه لا يؤمن حتى تصل روحه التراقي.

هو ذلك اليوم الذي تنفتح فيه عينهُ البرزخية، وتزال عنها الحجب، ويرى فيها علامات العذاب والجزاء، ويوقف على أعماله، ففي تلك اللحظة يقرّ بالإيمان ولكن إيمانه لا ينفعهُ ولا يفيد حاله أبداً.

«تراقي»: جمع «ترقوة»، وهي العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال، وبلوغ الروح إلى التراقي كناية عن اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان، وذلك عندما تخرج الروح من البدن، تتوقف الأعضاء البعيدة عن القلب (كاليدين والرجلين) قبل غيرها، كأن الروح تطوي نفسها في البدن تدريجياً حتى تصل إلى الحلقوم.

وفي هذه الفترة يسعى أهله وأصدقائه مستعجلين قلقين لإنقاذه، يقول تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ أي هل هناك من منقذ يأتي لإنقاذ هذا المريض؟

---

(١) «إذا» أداة شرطية وجزاؤه محذوف، والتقدير (إذا بلغت التراقي انكشف لهُ حقيقة الأمر، ووجد ما عمله)، والفاعل في (بلغت) هو (النفس) وهو محذوف ويعرف بقرينة الكلام.

ويقولون هذا الحديث عن وجه العجز واليأس، والحال أنّهم يعلمون أنه قد فات الآوان ولا ينفع معه طبيب.

«راق»: من مادة (رقي) على وزن (نهي) و(رقيه) على وزن (خفيه) وهو الصعود، ولفظة (رقيه) تطلق على الأوراد والأوعية التي تبعث على نجاة المريض، وقيل للطبيب الذي ينجي المريض ويخلصه مما هو فيه «راقي»، فيكون مفهوم الآية: ينادي أهل المريض، وأحياناً المريض نفسه من شدّة الضجر: ألا هل من داع يدعو بدعاء لينجّي هذا المريض؟

وقال البعض: إنّ المعنى قول الملائكة بعضها لبعض: من يرقى بروحه من الملائكة، أملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟

وأضاف البعض إنّ ملائكة الله تكره قبض روح غير المؤمن، ولذا يقول ملك الموت: من يرقى بروحه، والمعنى الأوّل أوجه وأنسب.

وفي الآية التالية إشارة إلى اليأس الكامل للمحتضر فيقول تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي في هذه الحالة يصاب باليأس من الحياة واليقين بالفراق، ثمّ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ وهذا الإلتفاف إمّا لشدّة الأذى لخروج الروح، أو لتوقف عمل اليدين والرجلين وتعطيل الروح منها.

وذكرت تفاسير أخرى لهذه الآية، منها ما نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (التفت الدنيا بالآخرة)[١]، ومثله عن علي بن إبراهيم[٢].

ونقل عن ابن عباس كذلك المراد من الآية: التفاف أمر الآخرة بأمر الدنيا.

وقال البعض: هو التفاف شدائد الموت بشدائد القيامة.

والظاهر رجوع جميع هذه المعاني إلى ما أوردناه في قول الباقر عليه السلام، واتخذ هذا التّفسير لكون أحد معاني «الساق» في لغة العرب هو الحادثة الشديدة والمصيبة والبلاء العظيم.

وقال آخرون: هو التفاف الساق في الكفن، ويمكن جمع هذه التفاسير في معنى الآية إذ لا منافاه بينها.

---

(١) نور الثقلين، ج٥، ص٤٦٥.
(٢) المصدر السابق

ثمّ يقول تعالى في آخر آية من آيات البحث: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾. أجل إلى الله تعالى المرجع حيث يحضر الخلائق عند محكمة العدل الإلهية، وهكذا ينتهي المطاف إليه، وهذه الآية أيضاً تأكيد على مسألة المعاد والبعث الشامل للعباد، ويمكن أن تكون إشارة إلى الحركة التكاملية للخلائق وهي متجهة نحو الذات المقدّسة واللامتناهية.

ملاحظة

لحظة الموت المؤلمة:

كما نعلم أنَّ القرآن كثيراً ما أكّد على مسألة الموت خصوصاً عن الاحتضار، وينذر الجميع أنَّهم سيواجهون مثل هذه اللحظة. وقد عبّر عنها أحياناً (بسكرة الموت)[1] وأحياناً أخرى (بغمرات الموت)[2] وكذلك ببلوغ الحلقوم[3] ويعبر عنه أيضاً ببلوغ الروح إلى التراقي، أي العظام المكتنفة للنحر كما في الآيات مورد البحث، ويستفاد من مجموع ذلك أنَّ تلك اللحظة على خلاف ما يقوله الماديون، لحظة صعبة ومؤلمة، ولِمَ لا يكون كذلك والحال أنّها لحظة انتقال من هذا العالم إلى عالم آخر، أي إنَّ الإنسان كما ينتقل من عالم الجنين إلى عالم الدنيا مصحوباً بألم شديد، فكذلك الإنتقال إلى العالم الآخر بهذا الشكل.

والمستفاد من الرّوايات أنّ هذه اللحظة سهلة على المؤمنين، وصعبة ومؤلمة على فاقدي الإيمان، وذلك لشوق المؤمنين للقاء الله ورحمته ونِعَمِهِ السرمدية بحيث لا يشعرون بآلام لحظة الإنتقال. وأمّا المجموعة الثانية فإنّ الآلام تتضاعف عليهم لحظة الإنتقال لخوفهم من العقوبات من جهة، ولمصيبة فراق الدنيا التي يحبونها من جهة أُخرى.

نقل في حديث للإمام علي بن الحسين عليه السلام عندما سئل عن الموت، فقال: «للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة، وفك قيود وأغلال ثقيلة، والإستبدال

---

(١) ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

(٣) ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

بأفخر الثياب وأطيبها رواح، وأوطىء المراكب، وآنس المنازل، وللكافر كخلع ثياب فاخرة، والنقل عن منازل أنيسة، والإستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها، وأوحش المنازل وأعظم العذاب»[١].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عندما طلب شخص منه أن يصف له الموت فقال الإمام عليه السلام: «للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب أو أشدّه»[٢].

على كلّ حال، فإنّ الموت باب يؤدي إلى عالم البقاء، كما في حديث عن الإمام أمير المؤمنين إذ قال: «لكل دار باب وباب دار الآخرة الموت»[٣].

أجل، إنّ ذكر الموت له الأثر البالغ والعميق في كسر الشهوات وإنهاء الآمال الطويلة والبعيدة ومحو آثار الغفلة عن مرآة القلب، لذا ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوّي القلب بمواعد الله ويرقّ الطبع، ويكسر أعلام الهوى، ويطفىء نار الحرص، ويحقّر الدنيا، وهو معنى ما قال النّبي صلى الله عليه وآله: «فكر ساعة خير من عبادة سنة»[٤].

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ١٩-٢٢].

التّفسير

القيامة ـ والبصر الحديد:

تعكس الآيات أعلاه مسائل أُخرى تتعلّق بيوم المعاد: «مشهد الموت» و«النفخ في الصور» و«مشهد الحضور في المحشر»!

فنقول أوّلاً: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦، ص١٥٥.
(٢) بحار الأنوار، ج٦، ص١٥٢.
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد، ج٢، ص٣٤٥.
(٤) بحار الأنوار، ج٦، ص١٣٣.

سكرة الموت: هي حال تشبه حال الثمل السكران إذ تظهر على الإنسان بصورة الإضطراب والإنقلاب والتبدّل، وربّما استولت هذه الحالة على عقل الإنسان وسلبت شعوره واختياره.

وكيف لا تكون كذلك مع أنّ الموت مرحلة إنتقالية مهمّة ينبغي أن يقطع الإنسان فيها جميع علائقه بالدنيا التي تعلّق بها خلال سنين طويلة، وأن يخطو في عالم جديد عليه مليء بالأسرار، خاصّة أنّ الإنسان ـ لحظة الموت ـ يكون عنده إدراك جديد وبصر حديد ـ فهو يلاحظ عدم استقرار هذا العالم بعينيه ويرى الحوادث التي بعد الموت، وهنا تتملّكه حالة الرعب والإستيحاش من قرنه إلى قدمه فتراه سَكِراً وليس بسكر[١].

حتى الأنبياء وأولياء الله الذين يواجهون حالة النزاع والموت باطمئنان كامل ينالهم من شدائد هذه الحالة نصيب، ويصابون ببعض العقبات في حالة الإنتقال، كما قد ورد في حالات إنتقال روح النّبي الأكرم ﷺ إلى بارئها عند اللحظات الأخيرة من عمره الشريف المبارك أنّه كان يدخل يده في إناء فيه ماء ويضعها على وجهه ويقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ثمّ يقول: «إنّ للموت سكرات»[٢].

وللإمام علي كلام بليغ يرسم لحظة الموت وسكراتها بعبارات حيّة بليغة إذ يقول: «إجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثمّ ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم ومنطقه وأنّه لَبَيْنَ أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحّة من عقله وبقاء لبّه يفكّر فيم أفنى عمره؟ وفيم أذهب دهره؟ ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتّعون بها»[٣].

كما أنّ هذا المعلّم الكبير ينذر في مكان آخر البشرية فيقول: «إنكم لو

---

(١) السّكر ـ على زنة المكر ـ معناه في الأصل سدّ طريق الماء، والسِكر ـ على زنة الفكر ـ معناه المحلّ المسدود، وحيث إنّ حالة الثمل تقع حاجزاً وسدّاً بين الإنسان وعقله فقد سمّيت بالسُكر على زنة الشُكر.

(٢) روح المعاني، ج٩، ص١١٨.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم وسمعتم وأطعتم ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا وقريب ما يطرح الحجاب»[١].

ثمّ يضيف القرآن في ذيل الآية قائلاً: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[٢]، أجل إنّ الموت حقيقة يهرب منها أغلب الناس لأنّهم يحسبونه فناءً لا نافذةً إلى عالم البقاء، أو أنّهم لعلائقهم وارتباطاتهم الشديدة بالدنيا والمواهب المادية التي لهم فيها لا يستطيعون أن يصرفوا قلوبهم عنها، أو لسواد صحيفة أعمالهم.

أيّاً كان فهم منه يهربون... ولكن ما ينفعهم ومصيرهم المحتوم في انتظار الجميع ولا مفرّ لأحد منه، ولا بدّ أن ينزلوا إلى حفرة الموت ويقال لهم هذا ما كنتم منه تفرّون!!

وقائل هذا الكلام ربّما هو الله أو الملائكة أو الضمائر اليقظة أو الجميع!

والقرآن يبيّن هذه الحقيقة في آيات أُخر كما هو في الآية (٧٨) من سورة النساء إذ يقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾!.

وقد ينسى الإنسان المغرور جميع الحقائق التي يراها بأمّ عينيه على أثر حبّ الدنيا وحبّ الذات حتّى يبلغ درجةً يقسم فيها أنّه خالد كما يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

ولكن سواء أقسم أم لم يقسم، وصدّق أم لم يصدّق فإنّ الموت حقيقة تحدق بالجميع وتحيق بهم ولا مفرّ لهم منها.

ثمّ يتحدّث القرآن عن النفخ في الصور فيقول: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

والمراد من «النفخ في الصور» هنا هو النفخة الثانية، لأنّه كما نوّهنا آنفاً فإنّ الصور ينفخ فيه مرّتين: فالنفخة الأولى تدعى بنفخة الفَزَع أو الصَعَق وهي التي تكون في نهاية الدنيا ويموت عند سماعها جميع الخلق ويتلاشى نظام العالم الدنيوي، والنفخة الثانية هي نفخة «القيام والجمع والحضور» وتكون في

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠.

(٢) كلمة تحيد مشتقة من مادّة حيد ـ على وزن صيد ـ ومعناها العدول عن الشيء والفرار منه...

بداية البعث والنشور والقيامة وبها يحيى الناس جميعهم ويخرجون «وينسلون» من الأجداث والقبور إلى ربّهم وحساب «عدله» وجزائه.

«النفخ» معناه معروف، و«النفخة» بمعنى المرّة منه، و«الصور» هو المزمار أو «البوق» والذي يستعمل في القضايا العسكرية عادةً لجمع الجنود أو تفريقهم أو الإستعداد أو الذهاب للراحة والنوم، واستعماله في صور إسرافيل نوع من الكناية والتشبيه.

وعلى كلّ حال، فمع الإلتفات وملاحظة جملة «ذلك اليوم الوعيد» يتّضح أنّ المراد من نفخة الصُور هنا هو النفخة الثانية ويوم النشور والقيامة.

وفي الآية التالية بيان لحال الناس يوم المحشر بهذه الصورة: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

فالسائق يسوقه نحو محكمة عدل الله، والشهيد يشهد على أعماله! وهي كمحاكم هذا العالم إذ يسوق المأمورون المتّهمين ويأتون معهم للمحكمة ويشهد عليهم الشهود.

واحتمل بعض المفسّرين أنّ السائق هو من يسوق الصالحين نحو الجنّة والطالحين نحو جهنّم، ولكن مع ملاحظة كلمة «الشهيد» معها يكون المعنى الأوّل وهو السوق نحو محكمة عدل الله أنسب.

ولكن من هما السائق والشهيد؟ أهما «ملكان» من الملائكة أو سواهما، هناك تفاسير متعدّدة.

قال بعضهم: إنّ «السائق» هو الملك الذي يكتب الحسنات، و«الشهيد» رسول الله ﷺ ولكن هذه الرّواية مع ملاحظة لحن الآيات تبدو ضعيفة.

وقال بعضهم: «السائق» الملك الذي يسوق كلّ إنسان و«الشهيد» عمل الإنسان.

كما قيل إنّ «السائق» ملك و«الشهيد» أعضاء جسم الإنسان أو صحيفة أعماله أو الكتاب الذي في عنقه.

ويحتمل أنّ السائق والشهيد ملك واحد، وعطف اللفظين بعضهما على الآخر هو لاختلاف الوصفين، أي أنّ مع الإنسان ملكاً يسوقه إلى محكمة عدل الله ويشهد عليه أيضاً.

إلّا أنّ أغلب هذه التفاسير مخالف لظاهر الآية، وظاهر الآية كما فهم منه أغلب المفسّرين أنّ ملكين يأتيان مع كلّ إنسان، فواحد يسوقه والآخر يشهد على أعماله.

ومن الواضح أنّ شهادة بعض الملائكة لا تنفي وجود شهادة أخرى لبعض الشهود في يوم القيامة، الشهود الذين هم من قبيل الأنبياء وأعضاء البدن، وصحائف الأعمال والزمان والمكان الذين وقع عمل الإنسان فيهما أو أثم فيهما.

وعل كلّ حال، فالمَلَك الأوّل يمنع الإنسان عن الفرار، والملك الثاني يمنع الإنكار، وهكذا فإنّ كلّ إنسان في ذلك اليوم مبتلى بأعماله ولا مفرّ له من جزاء أعماله أبداً.

وهنا يخاطب المجرمون أو جميع الناس (فرداً فرداً) فيقال: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أجل، إنّ أستار عالم المادّة من الآمال والعلاقة بالدنيا والأولاد والمرأة والأنانية والغرور والعصبية والجهل والعناد وحبّ الذات لم تكن تسمح أن تنظر إلى هذا اليوم مع وضوح دلائل المعاد والنشور، فهذا اليوم ينفض عنك غبار الغفلة، وتماط عنك حجب الجهل والتعصّب واللجاجة، وتنشقّ أستار الشهوات والآمال، وما كان مستوراً وراء حجاب الغيب يبدو ظاهراً اليوم، لأنّ هذا اليوم يوم البروز ويوم الشهود ويوم تبلى السرائر!

ولذلك فقد وجَدْتَ عيناً حادّة البصر ويمكن أن تدرك جميع الحقائق بصورة جيّدة.

أجل، إنّ وجه الحقيقة لم يكن مخفياً ولا لثام على جمال الحبيب، ولكن ينبغي أن ينفض غبار الطريق ليمكن رؤيته.

إلّا أنّ الغرق في بحر الطبيعة والإبتلاء بأنواع الحجب لا يسمحان للإنسان أن يرى الحقائق بصورة واضحة، لكنّه في يوم القيامة حيث تنقطع كلّ هذه العلائق فمن البديهي أن يحصل للإنسان إدراك جديد ونظرة ثاقبة، وأساساً فإنّ يوم القيامة يوم الظهور وبروز الحقائق!

حتى في هذه الدنيا استطاع البعض تخليص أنفسهم من قبضة الأهواء

واتّباع الشهوات وأن يلقوا الحجب عن عيون قلوبهم لرزقوا بصراً حديداً يرون به الحقائق، أمّا أبناء الدنيا فمحرومين منه.

وينبغي الإلتفات إلى أنّ الحديد نوع من المعدن كما يطلق على السيف والمُدية، ثمّ توسّعوا فيه فأطلقوه على حدّة البصر وحدّة الذكاء، ومن هنا يظهر أنّ المراد بالبصر ليس العين الحقيقية الظاهرة، بل بصر العقل والقلب.

يقول الإمام عليّ عليه السلام في أولياء الله في أرضه: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استعوره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحل الأعلى أُولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه»[1].

بحوث

١ ـ حقيقة الموت:

يتصوّر أغلب الناس أنّ الموت أمر عدمي ومعناه الفناء، إلّا أنّ هذه النظرة لا تنسجم مع ما ورد في القرآن المجيد وما تدلّ عليه الدلائل العقلية ولا توافقها أبداً.

فالموت في نظر القرآن أمر وجودي، وهو إنتقال وعبور من عالم إلى آخر، ولذلك عُبّر عن الموت في كثير من الآيات بـ«تُوفّي» ويعني تسلّم الروح واستعادتها من الجسد بواسطة الملائكة.

والتعبير في الآيات المتقدمة ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ هو إشارة إلى هذا المعنى[2] أيضاً، وقد جاء في بعض الآيات التعبير عن الموت بالخلق: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢].

وهناك تعبيرات متعدّدة عن حقيقة الموت في الرّوايات الإسلامية، ففي

---

(١) نهج البلاغة ـ الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

(٢) في المراد من الباء في كلمة بالحق هناك إحتمالات عديدة، فمنهم قال معناه التعدية والحقّ معناه الموت، ويكون معنى الجملة إنّ سكرات الموت لها واقعية أي أنّ السكرات تصحب معها الموت، وقيل إنّ الباء للملابسة، أي إنّ سكرات الموت تأتي مع الحقّ...

رواية أنّ الإمام علي بن الحسين سئل: ما الموت؟ فقال ﷺ: «للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة وفكّ قيود وأغلال ثقيلة والإستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح وأوطأ المراكب وآنس المنازل وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن منازل أنيسة والإستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب».

وسئل الإمام محمّد بن عليّ ﷺ السؤال الآنف ذاته فقال: «هو النوم الذي يأتيكم كلّ ليلة إلّا أنّه طويل مدّته لا ينتبه منه إلّا يوم القيامة»[١].

وقد قلنا في المباحث المتعلّقة بالبرزخ أنّ حالات الأشخاص متفاوتة في البرزخ، فبعضهم كأنّهم يغطّون في نوم عميق، وبعضهم «كالشهداء في سبيل الله والمؤمنين الراسخين» ينعمون بأنواع النعم بينما يعذّب الأشقياء والجبابرة بعذاب الله الأليم! (الأمثل).

وقد بيّن الإمام الحسين ﷺ لأصحابه حقيقة الموت يوم عاشوراء عند إشتداد المأزق والقتال بتعبير لطيف بليغ فقال: «صبراً بني الكرام، فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة، والنعم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب إنّ أبي حدّثني عن رسول الله أنّ الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جناتهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم»[٢].

ونقرأ في حديث آخر أنّ الإمام موسى بن جعفر ﷺ دخل على رجل يعاني سكرات الموت ولم يُكلّم أحداً، فسأل الحاضرون الإمام موسى بن جعفر: يا بن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف الموت وكيف هو حال صاحبنا؟

فقال ﷺ: «الموت هو المصفاة يصفّي المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم كفّارة آخر وزر بقي عليهم ويصفّي الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذّة أو راحة تلحقهم وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم، وأمّا صاحبكم هذا فقد

---

(١) بحار الأنوار، ج٦، ص١٥٥، [ويظهر أنّ المراد من الإمام محمّد بن علي هو الإمام التاسع محمّد الجواد ﷺ].

(٢) معاني الأخبار ص٢٨٩، باب معنى الموت الحديث٣.

نخل من الذنوب نخلاً وصُفّيَ من الآثام تصفية وخلص حتى نقي كما ينقى الثوب من الوسخ وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا دار الأبد»[١].

٢ ـ سكرات الموت:

كان الكلام في الآيات الآنفة على سكرات الموت، وقلنا أنّ «السكرات» جمع سكرة، ومعناها الحالة التي تشبه حالة الثمل على أثر اشتداد حالة الإنسان فيضطرب منها فيرى سكراً وليس بِسَكِر!

صحيح أنّ الموت هو للمؤمنين بداية انتقال إلى عالم أوسع مليء بمواهب الله، إلّا أنّه مع ذلك فإنّ هذه الحالة الإنتقالية ليست سهلة لأي إنسان، لأنّ روحه تطبّعت مع البدن سنين طوالاً وارتبطت به.

ولذلك فإنّه حين يسأل الإمام الصادق عليه السلام عن سبب اضطراب الجسد حين خروج الروح منه يجيب: «لأنّه نما عليها البدن»[٢].

وهذا يشبه تماماً حالة قلع السنّ الفاسد من اللثّة، فإنّه عند قلعه يحسّ الإنسان بالألم إلّا أنّه يشعر بالراحة بعدئذٍ.

ونقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الإنسان يستوحش من ثلاثة أيّام، يوم يولد فيه فيرى هذا العالم الذي لم يعرفه، ويوم يموت ويرى عالم ما بعد الموت، ويوم يبعث حيّاً في عرصات القيامة فيرى أحكاماً لم يرها في هذه الدنيا... لذلك فإنّ القرآن يقول في شأن يحيى بن زكريا: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[٣] [مريم: ١٥]... ويحكي على لسان عيسى ابن مريم مثل هذا الكلام، فهذان النبيّان مشمولان بعناية الله في هذه الأيّام الثلاثة!

وبالطبع فإنّه من المُسلّم به أنّ المرتبطين بهذه الدنيا يكون انتقالهم منها أصعب وقطع القلوب منها أشدّ، كما أنّ الآثمين وأصحاب الذنوب تكون عليهم سكرات الموت أكثر ألماً ومرارة!

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بحار الأنوار، ج٦، ص١٥٦.

(٣) المصدر نفسه مع شيء من التلخيص: نقرأ في سورة مريم الآية (١٥) في شأن يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ كما نقرأ في شأن عيسى ابن مريم في السورة ذاتها ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣].

٣ ـ الموت حقّ:

ليست الآيات محل البحث وحدها تتحدّث عن الموت بأنّه حقّ، بل هناك آيات كثيرة في القرآن تصرّح بأنّ الموت حقّ ويقين، إذ نقرأ في الآية (٩٩) من سورة الحجر ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾. وفي الآية (٤٧) من سورة المدثر نقرأ ما يشبه هذا التعبير أيضاً.

كلّ ذلك لأنّ الإنسان إذا أنكر كلّ شيء فليس بوسعه أن ينكر أنّ الموت حقّ وأنّه لا بدّ أن يُطرق بابه، فالموت يطرق أبواب الجميع ويأخذهم معه أخيراً.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

التّفسير

نستنتج من الآيات السابقة واللاحقة أنّ هاتين الآيتين تقصدان مجموعة من المنافقين تسللوا إلى صفوف المسلمين، وقد قرأنا في الآيات السابقة أنّ هؤلاء قد أبدوا الخوف والقلق من المشاركة في مسؤولية الجهاد، وقد ظهر عليهم الضجر والإستياء حين نزول حكم الجهاد، فردّ عليهم القرآن الكريم وأنّبهم لموقفهم هذا بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]. موضحاً أنّ الحياة بكل زخارفها سرعان ما تزول، وإنّ ما يناله المؤمنون الذين يخشون الله ولا يعصونه من الخير والثواب هو خير من كل ما في هذه الدنيا من خيرات.

وفي هذا المقطع القرآني ردّ آخر على أولئك المنافقين، حيث بيّن أنّ الموت آتيهم يوماً لا محالة، حتى إذا تحصنوا في قلاع عالية ومنيعة بحسب ظنّهم، وما دام الموت يدرك الإنسان بهذه الصورة أليس من الخير له أن يموت على طريق مثمر وصحيح كالجهاد؟!

وممّا يلفت الإنتباه أنّ القرآن الكريم يطلق في مواقع متعددة إسم «اليقين» على الموت، كما في الآية (٩٩) من سورة الحجر، والآية (٤٨) من سورة المدثر - ومعنى هذه العبارة القرآنية هو أنّ الإنسان مهما كانت عقيدته - يؤمن بوجود الموت إيماناً لا يخامره فيه شك مطلقاً، ومهما أنكر المرء من حقائق لا يستطيع إنكار الموت الذي يشهده بأم عينه أو يسمع عنه كل يوم، والإنسان الذي يحب الحياة ويخال أنّ الموت هو الفناء الذي لا حياة بعده أبداً يخاف من ذكر الموت ويفر من مظاهره.

الآيتان الأخيرتان تؤكدان حقيقة عدم جدوى الفرار من الموت، فهو يدرك الإنسان يوماً ما لا محالة، وهو حقيقة قطعية يقينية في عالم الوجود.

وعبارة ﴿يُدْرِككُّمُ﴾ الواردة في الآية الأُولى تعني الملاحقة، واللاحق هو الموت الذي يدرك الإنسان، وتوحي بأنّ الفرار لا ينقذ الإنسان من هذا المصير الحتمي.

وتؤكد الحقيقة المذكورة الآية الثّامنة من سورة الجمعة إذ تقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

إذاً ليس من العقل والمنطق أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة ويفر بعد ذلك من ميدان الجهاد، ويحرم نفسه أشرف ميتة وهي الشهادة في سبيل الله، فيموت على فراشه فلو عاش الإنسان بعد فراره من الجهاد أيّاماً أو شهوراً أو سنوات لتكرر ما فعل ولتكررت أمامه المشاهد الماضية، فهل من العقل أن يحرم الإنسان نفسه لأجل هذه المتكررات من الثواب الأبدي الذي يناله المجاهد في سبيل الله؟!

وهنا أمر ثان يجب الإنتباه له في الآية الأُولى من هاتين الآيتين، وهو عبارة ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1] التي تؤكد أنّ الموت الطبيعي لا يداهم الإنسان من

(١) «مشيدة» في الأصل من مادة «شيد» على وزن نيل، بمعنى الجص والمواد الأخرى التي تستخدم لتقوية البنيان، وبما أن أكثر المواد استعمالاً في البناء في تلك الأزمنة هو الجص فإنّ هذه الكلمة تطلق عليه عادة، فيكون معنى ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] هو القلاع الرصينة والمتينة، وقد تستعمل ويراد بها المرتفعة والعالية. وذلك أيضاً لنفس السبب لأنّه من دون استخدام الجص لم يكن بالإمكان بناء تلك الأبنية المرتفعة.

خارج وجوده ـ خلافاً لما يتصورون ـ ولا يحتاج إلى اجتياز القلاع والحصون، بل يأتي من داخل وجود الإنسان حيث تقف أجهزة الإنسان عن العمل بعد نفاذ قدرتها المحدودة على البقاء.

نعم، الموت غير الطبيعي يأتي الإنسان طبعاً من خارج وجوده، وبذلك قد تنفع القلاع والحصون في تأخير هذا النوع من الموت عنه.

ولكن ماذا ستكون النهاية والنتيجة هل بمقدور القلاع والحصون أن تحول دون وصول الموت الطبيعي الذي سيدرك الإنسان ـ دون شك ـ في يوم من الأيّام؟!

من أين تاتي الإنتصارات والهزائم؟

يشير القرآن في هاتين الآيتين إلى وهم آخر من أوهام المنافقين، حين يوضح أنّ هؤلاء إذا أحرزوا نصراً أو غنموا خيراً قالوا: إنّ الله هو الذي أنعم عليهم بذلك، وزعموا أنّهم أهل لهذه النعمة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

أمّا إذا مني هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى في ميدان القتال، ألقوا اللوم على النّبي ﷺ وافتروا عليه بقولهم إنّ ما نالهم من سوء هو من عنده، متهمين خططه العسكرية بالضعف، من ذلك ما حدث في غزوة أُحد، تقول الآية: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ...﴾.

ويحتمل بعض المفسّرين أن تكون هذه الآية قد نزلت بشأن اليهود، ويرون أنّ المقصود بالحسنة والسيئة ـ هنا ـ هو ما كان يحدث من وقائع سارة وضارة، حيث كان اليهود حين بعثة النّبي ﷺ ينسبون كلّ ما حدث سار ونافع إلى الله، ويعزون حدوث الوقائع الضّارة إلى وجود النّبي ﷺ بين ظهرانيهم، بينما اتصال الآية بالآيات السابقة والتالية، التي يدور الحديث فيها عن المنافقين ـ يدل على أنّ المقصود في هذه الآية الأخيرة هم المنافقون.

ومهما يكن من أمر، فإنّ القرآن الكريم يردّ على هؤلاء مؤكداً أنّ الإنسان المسلم المُوحّد الذي يؤمن صادقاً بالله ويعبده ولا يعبد سواه إنّما يعتقد بأنّ كل الوقائع والأحداث والإنتصارات والهزائم هي بيد الله العليم الحكيم، فالله هو الذي يهب الإنسان ما يستحقه ويعطيه بحسب قيمته الوجودية، وفي هذا المجال تقول الآية: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

والآية ـ هذه ـ تحمل في آخرها تقريعاً وتأنيباً للمنافقين الذين لا يتفكرون ولا يمعنون في حقائق الحياة المختلفة، حيث يقول: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

وبعد هذا ـ في الآية التالية ـ يصرّح القرآن بأنّ كل ما يصيب الإنسان من خيرات وفوائد كلما يواجهه الكائن البشري من سرور وانتصار هو من عند الله، وإنّ ما يحصل للإنسان من سوء وضرر وهزيمة أو خسارة فهو بسبب الإنسان نفسه تقول الآية: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ...﴾ وتردّ الآية في آخرها على أولئك الذين كانوا يرون وجود النّبي ﷺ سبباً لوقوع الحوادث المؤسفة فيما بينهم فتقول: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

جواب على سؤال مهم:

السؤال المهم الذي يتبادر إلى الذهن حين قراءة هاتين الآيتين الأخيرتين هو: لماذا نسب الخير والشر في الآية الأولى كلّه لله؟ ولماذا حصرت الآية التالية الخير ـ وحده ـ لله، ونسبت الشرّ إلى الإنسان؟

حين نمعن النظر في الآيتين تواجهنا عدّة أُمور، يمكن لكل منها أن يكون هو الجواب على هذا السؤال.

١ ـ لو أجرينا تحليلاً على عناصر تكوين الشر لرأينا أنّ لها اتجاهين: أحدهما إيجابي والآخر سلبي، والإتجاه الأخير هو الذي يجسد شكل الشر أو السيئة ويبرزه على صورة «خسارة نسبية» فالإنسان الذي يقدم على قتل نظيره بسلاح ناري أو سلاح بارد يكون قد ارتكب بالطبع عملاً شريراً وسيئاً، فما هي إذاً عوامل حدوث هذا العمل الشرير؟

إنّها تتكون من: أوّلاً: قدرة الإنسان وعقله وقدرة السلام والقدرة على الرمي والتهديف الصحيحين واختيار المكان والزمان المناسبين، وهذه تشكل عناصر الإتجاه الإيجابي للقضية، لأنّ كل عنصر منها يستطيع في حدّ ذاته أن يستخدم كعامل لفعل حسن إذا استغل الإستغلال الحكيم، أمّا الإتجاه السلبي فهو في استغلال كل من هذه العناصر في غير محله، فبدلاً من أن يستخدم السلاح لدرء خطر حيوان مفترس أو للتصدي لقاتل ومجرم خطير، يُستخدم في

قتل إنسان بريء، فيجسد بذلك فعل الشر، وإلّا فإنّ قدرة الإنسان وعقله وقدرته على الرمي والتهديف، وأصل السلاح وكل هذه العناصر، يمكن أن يستفاد منها في مجال الخير.

وحين تنسب الآية الأولى الخير والشرّ كلّه لله، فإنّ ذلك معناه أنّ مصادر القوّة جميعها بيد الله العليم القدير حتى تلك القوّة التي يساء استخدامها، ومن هذا المنطلق تنسب الخير والشرّ لله، لأنّه هو واهب القوى.

والآية الثانية: تنسب «السيئات» إلى الناس إنطلاقاً من مفهوم «الجوانب السلبية» للقضية ومن الإساءة في استخدام المواهب الإلهية.

تماماً مثل والد وهب ابنه مالاً ليبني به داراً جديدة، لكن هذا الولد بدلاً من أن يستخدم هذا المال في بناء البيت المطلوب، اشترى مخدرات ضارة أو صرفه في مجالات الفساد والفحشاء، لا شك أنّ الوالد هو مصدر هذا المال، لكن أحداً لا ينسب تصرف الإبن لوالده، لأنّه أعطاه للولد لغرض خيري حسن، لكن الولد أساء استغلال المال، فهو فاعل الشرّ، وليس لوالده دخل في فعلته هذه.

٢ ـ ويمكن القول ـ أيضاً ـ بأنّ الآية الكريمة إنّما تشير إلى موضوع «الأمر بين الأمرين».

وهذ قضية بحثت في مسألة الجبر والتفويض، وخلاصة القول فيها أنّ جميع وقائع العالم خيراً كانت أم شرّاً ـ هي من جانب واحد تتصل بالله سبحانه القدير لأنّه هو الذي وهب الإنسان القدرة والقوّة وحرية الإنتخاب والإختيار، وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ ما يختاره الإنسان ويفعله بإرادته وحريته لا يخرج عن إرادة الله، لكن هذا الفعل ينسب للإنسان لأنّه صادر عن وجوده، وإرادته هي التي تحدد اتجاه الفعل.

ومن هنا فإنّنا مسؤولون عن أعمالنا، واستناد أعمالنا إلى الله ـ بالشكل الذي أوضحناه ـ لا يسلب عنّا المسؤولية ولا يؤدي إلى الإعتقاد بالجبر.

وعلى هذا الأساس حين تنسب «الحسنات» و«السيئات» إلى الله سبحانه وتعالى، فلفاعلية الله في كل شيء، وحين تنسب السيئة إلى الإنسان فلإرادته وحريته في الإختيار.

وحصيلة هذا البحث إنّ الآيتين معاً تثبتان قضية الأمر «الأمر بين الأمرين» (تأمل بدقّة)!

٣ ـ هناك تفسير ثالث للآيتين ورد فيهما أثر عن أهل البيت ﷺ، وهو أنّ المقصود من عبارة السّيئات جزاء الأعمال السيئة وعقوبة المعاصي التي ينزلها الله بالعاصين، ولما كانت العقوبة هي نتيجة لأفعال العاصين من العباد، لذلك تنسب أحياناً إلى العباد أنفسهم وأحياناً أخرى إلى الله، وكلا النسبتين صحيحتان، إذ يمكن القول في قضية إنّ القاضي هو الذي قطع يد السارق، كما يجوز أن يقال إنّ السارق هو السبب في قطع يده لارتكابه السرقة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

التّفسير

الموت وقانونه العام:

تعقيباً على البحث حول عناد المعارضين وغير المؤمنين تشير هذه الآية إلى قانون «الموت» العام وإلى مصير الناس في يوم القيامة، ليكون ذلك تسلية للنّبي ﷺ والمؤمنين، وتحذيراً ـ كذلك ـ للمعارضين العصاة.

فهذه الآية تشير ـ أوّلاً ـ إلى قانون عام يشمل جميع الأحياء في هذا الكون وتقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾.

والناس، وإن كان أكثرهم يحب أن ينسى مسألة الفناء ويتجاهل الموت، ولكن هذا الأمر حقيقة واقعة إن حاولنا تناسيها والتغافل عنها، فهي لا تنسانا، ولا تتغافل عنّا.

إنّ لهذه الحياة نهاية لا محالة، ولا بدّ أن يأتي ذلك اليوم الذي يزور فيه الموت كل أحد، ولا يكون أمامه ـ حينئذٍ ـ إلّا أن يفارق هذه الحياة.

إن المراد من «النفس» في هذه الآية هو مجموعة الجسم والروح، وإن كانت النفس في القرآن تُطلق أحياناً على خصوص «الرّوح» أيضاً.

والتعبير بالتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل، لأنّ المرء قد يرى الطعام

بعينيه أو يلمسه بيده، ولكن كل هذا لا يكون ـ والأحرى لا يحقق الإحساس الكامل بالشيء، نعم إلّا أن يتذوق الطعام بحاسة الذوق فحينئذٍ يتحقق الإحساس الكامل، وكأن الموت ـ في نظام الخلقة ـ نوع من الغذاء للإنسان والاحياء.

ثمّ تقول الآية بعد ذلك ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ أي أنّه ستكون بعد هذه الحياة مرحلة أخرى هي مرحلة الثواب والعقاب، وبالتالي الجزاء على الأعمال، فهنا عمل ولا حساب وهناك حساب ولا عمل.

وعبارة «توفون» التي تعني إعطاء الجزاء بالكامل تكشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله ـ يوم القيامة ـ وافياً وبدون نقيصة، ولهذا لا مانع من أن يشهد الإنسان ـ في عالم البرزخ المتوسط بين الدنيا والآخرة ـ بعض نتائج عمله، وينال قسطاً من الثواب أو العقاب، لأنّ هذا الجزاء لا يشكل الجزاء الكامل.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾.

وكلمة «زحزح» تعني محاولة الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثير شيء، وتخليصها من جاذبيته تدريجاً.

وأمّا كلمة «فاز» فتعني في أصل اللغة «النجاة» من الهلكة، ونيل المحبوب والمطلوب.

والجملة بمجموعنها تعني أنّ الذين استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من جاذبية النّار ودخلوا الجنّة فقد نجوا من الهلكة، ولقوا ما يحبونه، وكأن النّار تحاول بكلّ طاقاتها أن تجذب الآدميين نحو نفسها... حقّاً إنّ هناك عوامل عديدة تحاول أن تجذب الإنسان إلى نفسها، وهي على درجة كبيرة من الجاذبية.

أليس للشهوات العابرة، واللذات الجنسية غير المشروعة، والمناصب، والثروات غير المباحة مثل هذه الجاذبية القوية؟؟

كما أنّه يستفاد من هذا التعبير أنّ الناس ما لم يسمعوا ويجتهدوا لتخليص أنفسهم وتحريرها من جاذبية هذه العوامل المغرية الخداعة فإنّها ستجذبهم نحو نفسها تدريجاً، وسيقعون في أسرها في نهاية المطاف.

أمّا إذا حاولوا من خلال تربية أنفسهم وترويضها، وتمرينها على مقاومة هذه الجواذب والمغريات وكبح جماحها، وبلغوا بها إلى مرتبة «النفس المطمئنة» كانوا من النّاجين الواقعيين، الذين يشعرون بالأمن والطمأنينة.

ثمّ يقول سبحانه في نهاية هذه الآية: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

وهذه الجملة تكمل البحث السابق وكأنها تقول: إنّ هذه الحياة مجرّد لهو ومتاع تخدع الإنسان من بعيد، فإذا بلغ إليها الإنسان ونال منها ولمسها عن كثب وجدها ـ على الأغلب ـ فراغاً في فراغ وخواءً في خواء، وما متاع الغرور إلّا هذا.

هذا مُضافاً إلى أنّ اللذائذ المادية تبدو من بعيد وكأنّها خالصة من كل شائبة، وخالية من كل ما يكدرها، حتى إذا اقترب إليها الإنسان وجدها ممزوجة بكل ألوان العناء والعذاب، وهذا جانب آخر من خداع الحياة المادية.

كما أنّ الإنسان ينسى ـ في أكثر الأحيان ـ طبيعته الفانية، ولكنّه سرعان ما ينتبه إلى أنّها سريعة الزوال، قابلة للفناء.

إنّ هذه التعابير قد تكررت في القرآن والأحاديث كثيراً، والهدف منها جميعاً شيء واحد هو أن لا يجعل الإنسان هذه الحياة المادية ولذاتها العابرة الفانية الزّائلة هدفه الأخير، ومقصده الوحيد النّهائي الذي تكون نتيجته الغرق والإرتطام في شتى ألوان الجريمة والمعصية، والابتعاد عن الحقيقة وعن التكامل الإنساني، وأمّا الإنتفاع بالحياة المادية ومواهبها كوسيلة للوصول إلى التكامل الإنساني والمعنوي فليس غير مذموم فقط، بل هو ضروري وواجب.

مفهوم الموت في الروايات

قيل للصادق عليه السلام: صف لنا الموت؟ قال عليه السلام: الموت هو خروج الروح من البدن، فالروح نور يضيء ظلمة البدن، ويشع العين نظراً، ومن الأذن سمعاً، وكذا سائر الحواس، والموت: هو انتقال النور إلى مكان آخر،

وخروج هذا النور من البدن ومثال ذلك: إذا وضعت مصباحاً داخل كوخ فيه عدة ثقوب، فإنّ ضوءه سيشع من الثقوب إلى الخارج، وإذا أخرجت المصباح من داخله فإنّه سيظلم وينقطع الإشعاع من داخله، والموت هو إخراج مصباح الروح من البدن.

ومن جهة أخرى، قال الصادق عليه السلام: «الموت للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فينعمس لطيبه، وينقطع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب، أو أشد، قيل له: فإنّ قوماً يقولون إنّه أصعب من نشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، ورضخ بالأحجار، وتدوير قطب الأرحية في الأحداق. قال عليه السلام: كذلك هو على بعض الكافرين والفاجرين بالله عزَّ وجلَّ ألا ترون منهم من يعاني تلك الشدائد، فذلكم الذي هو أشد من هذا، إلا من عذاب الآخرة فإنّه أشد من عذاب الدنيا، قيل: فما بالنا نرى كافراً يسهل عليه النزاع فينطفيء وهو يحدث ويضحك ويتكلم، وفي المؤمنين أيضاً من يكون كذلك، وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد. فقال عليه السلام: ما كان من راحة للمؤمن هناك فهو عاجل ثوابه، وما كان من شديد فتمحيصه من ذنوبه ليرد الآخرة نقيّاً مستحقّاً لثواب الأبد لا مانع له دونه، وما كان من سهولة هناك على الكافر فليُوَفَّ أجر حسناته في الدنيا ليرد الآخرة وليس له إلا ما يوجب عليه العذاب، وما كان من شدة على الكافر هناك فهو ابتداء عذاب الله له بعد حسناته ذلك بأنّ الله عدل لا يجور».

وقال عليه السلام في حديث آخر: «يا مفضل إيّاك والذنوب وحذّرها شيعتنا فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم إن أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان وما ذاك إلّا بذنوبه، وإنّه ليحبس عنه الرزق وما هو إلّا بذنوبه، وإنّه ليشدد عليه عند الموت وما هو إلّا بذنوبه، حتى يقول من حضره: لقد غمّ بالموت فلما رأى ما قد دخلني قال عليه السلام: أتدري لم ذاك يا مفضل؟ قال: قلت لا أدري جعلت فداك، قال: ذاك والله إنّكم لا تؤاخذون بها في الآخرة وعجلت لكم في الدنيا». قال عليّ عليه السلام: «دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على رجل من ولد عبد المطلب فإذا هو في السَّوْقِ (النزاع) وقد وُجّه إلى غير القبلة فقال: وجّهُوهُ إلى القبلة، فإنّكم إذا فعلتم ذلك أقبلت عليه الملائكة، وأقبل الله عليه بوجهه، فلم يزل كذلك حتى يُقبض».

قيل للصادق عليه السلام: أخبرنا عن الطاعون؟ فقال: «عذاب لقوم ورحمة لآخرين. قالوا: وكيف تكون الرحمة عذاباً؟ قال: أما تعرفون أن نيران جهنم عذاب على الكافرين، وخزنة جهنم معهم فيها فهي رحمة عليهم».

قال الصادق عليه السلام: «لا تحضر الحائض والجنب عند التلقين إنّ الملائكة تتأذى بهما». والتَّلْقِيْنُ: هو تذكير الميت وتفهيمه بعقيدته.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «الميت تدمع عينه عند الموت، وذلك عند معاينة رسول الله صلى الله عليه وآله، يرى ما يُسرّه، ثم قال عليه السلام: ترى الرجل ما يَسرّه فتدمع عينه ويضحك».

وقال عليه السلام أيضاً: «لا تكتموا موت ميت من المؤمنين مات في غيبته لتعتد زوجته ويقسم ميراثه».

وسمي النزاع بالإحتضار (وهو افتعال من الحضور وهو السَّوْق. أعاننا الله عليه وثبتنا بالقول الثابت لديه) لحضور الموت عند المريض أو حضور الملائكة عنده أو حضور الأئمة عليهم السلام خصوصاً أمير المؤمنين عليه السلام، فالمؤمن يراه حيث يحب والكافر يراه حيث يكره، أو لحضور المؤمنين عنده ليشيّعوه أو لاستحضار عقله أو لجميع ذلك.

وقد روى في الحدائق عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «حضر رجلاً الموت فقيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ فلاناً قد حضره الموت، فنهض رسول الله ومعه أناس من أصحابه حتى أتاه وهو مُغمى عليه، قال: فقال يا ملك الموت كُف عن الرجل حتى أسأله، فأفاق الرجل، فقال له النّبي صلى الله عليه وآله: ما رأيت؟ قال: رأيت بياضاً كثيراً وسواداً كثيراً، قال صلى الله عليه وآله: فأيّهما كان أقرب إليك؟ فقال: السواد، فقال النّبي صلى الله عليه وآله: قل: اللّهم اغفر لي الكثير من معاصيك، واقبل مني اليسير من طاعتك، فقاله ثم أُغمي عليه، فقال يا ملك الموت خفف عنه حتى أسأله، فأفاق الرجل فقال: ما رأيت؟ قال: رأيتُ بياضاً كثيراً وسواداً كثيراً، قال: فأيّهما كان أقرب إليك؟ فقال البياض، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: غفر الله لصاحبكم. قال أبو سلمة: قال أبو عبد الله عليه السلام إذا حضرتم ميّتاً فقولوا له هذا الكلام ليقوله».

قال حريز: «كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام فقال له رجل: إنَّ أخي منذ ثلاثة أيّام في النزع وقد اشتدَّ عليه الأمر فادعُ له، فقال: اللّهم سهل عليه سكرات الموت، ثم أمره وقال: حولوا فراشه إلى مصلاه الذي كان يصلي فيه فإنّه يخفف عليه إن كان في أجله تأخير، وإن كانت منيته قد حضرت فإنّه يسهل عليه إن شاء الله تعالى».

قال عبد الله القزويني: «سألتُ أبا جعفر محمّد بن علي عليهما السلام فقلتُ: لأيّ علة يولد الإنسان هٰهنا ويموت في موضع آخر؟ قال: لأنّ الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه خلقهم من أديم الأرض (التراب) فمرجع كل إنسان إلى تربته».

قال عبد الرحمن: قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: «لأيّ علة إذا خرجت الروح من الجسد وجد له مسّاً (يشعر بخروجها) وحيث ركبت لا يعلم؟ قال: لأنّه نما عليه البدن».

أهوال القيامة في القرآن

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ١-٦]

تبدأ هذه السورة بقَسَمَيْن غَزِيْرَيْن بالمعاني والحقيقة أن أحد دلائل وجود «المعاد» هو وجود «محكمة الوجدان» الموجودة في أعماق الإنسان والتي تنشط وتُسر عند الإقدام لإنجاز عمل صالح وبهذه الطريقة تُثَبّتُ صاحبها وتكافئه وعند ارتكاب الأعمال السيئة والرذيلة فإنها سوف تقوم بتقريع صاحبها وتُؤنّبه وتعذبه إلى حدّ أنّه قد يقوم على الإنتحار للتخلص ممّا يمرّ فيه من عذاب الضمير.

وفي الحقيقة أنّ الضمير هو الذي أصدر حكم الإعدام، وتمّ تنفيذ ذلك بنفسه، إنّ دوي النفس اللوامة في وجود الإنسان واسع جدّاً، وهي قابلة للتمعن والمطالعة في كلّ الأحوال وفي بحث الملاحظات نشير إلى ذلك بشكل واسع.

عندما يكون (العالم الصغير) أي وجود الإنسان محكمة في قلبه، فكيف يمكن للعالم الكبير أن لا يملك محكمة عدل عظمى؟

فمن هنا نفهم وجود البعث والقيامة بواسطة وجود الضمير الأخلاقي، ومن هنا تتّضح الرابطة الظريفة بين القَسَمَيْن، وبعبارة أُخرى فإنّ القَسَم الثّاني هو دليل على القسم الأوّل.

وأمّا ما يراد بـ«النفس اللوامة»[1] فهناك أقوال كثيرة ومختلفة قد ذكرت

---

(١) اللوامة: صيغة مبالغة وتعني كثير اللوم.

للمفسّرين، وأحد تلك التّفاسير المشهورة هو ما ذكرناه آنفاً، هو أنّ «الوجدان الأخلاقي» الذي يلوم الإنسان في الدنيا على المعصية ويحفّزه على إصلاح ما بدا منه.

والتّفسير الآخر هو أنّ المراد بالنفس الإنسانية بصورة عامة التي تلوم صاحبها يوم القيامة، فإذا كان مؤمناً فإنّها تلومه على عدم الإكثار من الصالحات وعلى قلّة الطاعة، وإن كان كافراً فإنّها تلومه على كفره وشركه وفجوره.

وأمّا الآخر: فالمراد نفس الكافر التي تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر ومعصية.

والوجه الأوّل يناسب الآية السابقة والتي تليها، أجل إنّ لمحكمة الضمير مقاماً ومنزلة عظيمة ولهذا يقسم الله بها، ويستعظم قدرها، وهي بحقّ عظيمة القدر، لأنّها أحد العوامل المهمّة لخلاص الإنسان بشرط أن تكون واعية ويقظة وغير عاجزة بسبب الذنوب والآثام.

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ جواب القسم محذوف، وهذا ما تدل عليه الآيات التالية والتقدير «لتبعثن يوم القيامة» أو «أنكم تبعثون» فيكون المعنى: لا أُقسم بيوم القيامة ولا أُقسم بالنفس اللوامة أنّكم تبعثون يوم القيامة وتجزون ما كنتم تفعلون.

ومن الظريف أنّ القسم جاء بيوم القيامة على وجود يوم القيامة، وذلك لأنّه إلى درجة من الوضوح والبداهة أنّه يمكن القسم به حتى في مقابل المنكرين.

ثمّ يستفهم تعالى في الآية الأخرى للتوبيخ فيضيف: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

ورد في رواية أنّ أحد المشركين وهو «عدي بن أبي ربيعة» كان جاراً للنّبي ﷺ فسأل النّبي عن أمر القيامة فأخبره به، فقال عدي: لو عاينت ذلك اليوم لم أُصدقك، أوَ يَجمع الله هذه العظام؟ فنزلت هذه الآيات وأجابتهُ على ذلك، ولذا قال فيه النّبي ﷺ «اللّهمّ اكفني شرّ جار سوء»[1].

---

(١) أورد هذه الرواية المراغي، وكذلك ذكرت في روح المعاني، وتفسير الصافي بتفاوت يسير.

وهناك نظائر لهذا المعنى في الآيات القرآنية الأُخرى، منها الآية (٧٨) من سورة (يس) حيث إنّ منكراً من منكري المعاد كانت بيده عظاماً، فقال للنّبي ﷺ: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟

والتعبير بكلمة «يحسب» التي هي من الحسبان وتعني الظن، إشارة إلى أنّ المنكرين لا يؤمنون بما يقولون، بل يعتمدون على ما يظنون من الوهم.

ولكن نرى أنّه قد اعتمد على العظام خاصّة، وهذا لكون دوام بقاء العظام أكثر من غيرها من أجزاء الجسد، ولذا تكون إعادتها تراباً متناثراً بعيداً في نظر عديمي الإيمان.

ثمّ إنّ العظام من الأركان المهمّة في بدن الإنسان، لأنّها تشكل أعمدة البدن، وكلّ الحركات والتغيرات المهمّة الحاصلة في البدن وكذلك الفعاليات المختلفة تتمّ بواسطة العظام، وكثرة وتنوع أشكال ومقاييس العظام في جسم الإنسان من عجائب الخلقة الإلهية، تتّضح أهميتها عندما تتعطل فقرة واحدة من فقرات الظهر عن العمل وتسبب في شلّ حركة البدن.

«البنان» أطراف الأصابع، وقيل الأصابع، وفي المعنيين إشارة إلى أنّ الله تعالى ليس القادر على جمع العظام وإرجاعها إلى صورتها الأُولى فحسب، بل إنّه تعالى يسوي العظام الصغيرة والظريفة والدقيقة للأصابع على ما كانت عليه في الخلق الأوّل، والأعجب من ذلك يمكنهُ تعالى إعادة بصمات الأصابع كما كانت عليه أيضاً.

ويمكن أن يكون ذلك إشارة لطيفة إلى الخطوط الموجودة في أطراف الأصابع والتي نادراً ما تتساوى هذه الخطوط عند شخصين.

وبتعبير آخر إنّ هذه الخطوط الموجودة في أطراف الأصابع هي المعرّفة لشخص الإنسان، ولذا صار بصم الأصابع في عصرنا هذا أمراً علمياً، وبهذه الطريقة يمكن كشف الكثير من السراق والمجرمين، فيكفي في كشف السارق وضعه أصابعه على مقبض الباب، أو زجاجة الغرفة، أو قفل الصندوق وبقاء أثر خطوط أنامله عليها، ثمّ يؤخذ من ذلك الطبع نموذج وتتمّ مقابلته مع آثار أصابع اللصوص السابقين التي أُخذت منهم سلفاً، وهكذا يعرف المجرم والسارق.

وفي الآية الأُخرى إشارة إلى أحد العلل الحقيقة لإنكار المعاد فيقول: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، إنّهم يريدون أن يُكذِّبوا بالبعث وينكروا المعاد، ليتسنى لهم الظلم وارتكاب المحارم والتنصل من المسؤولية أمام الخلق، وذلك لأنّ الإيمان بالمعاد والقيامة ومحكمة العدل الإلهية بمثابة سدّ عظيم في مقابل المعاصي والذنوب والنفس الأمارة التي تريد كسر هذا السدّ وهذا الطوق ليفجر الإنسان مدى عمره ويعمل ما يشاء، وهذا ليس منحصراً بالأزمنة السابقة، بل إنّ إحدى علل الميول إلى المادية وإنكار المبدأ والمعاد في هذا العصر هو كسب الحرية للفجور والهروب من المسؤولية، وتحطيم كل القوانين الإلهية، وإلّا فإنّ دلائل المبدأ والمعاد واضحة، وقد ورد في تفسير علي بن إبراهيم في توضيح معنى هذه الآية حيث قال: يقدّم الذنب ويؤخر التوبة ويقول سوف أتوب.

وقيل المراد من «الفجور» و«التكذيب»، فيكون المعنى، يريد أن يكذب بالبعث الذي سوف يقع أمامه، ولكن التفسير الأوّل أنسب.

ثمّ يضيف بعد ذلك: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أجل، إنّه يستفهم مستنكراً عن وقوع يوم القيامة ويهرب ممّا كُلّف به لكي يفسح لنفسه طريق الفجور أمامه، والجدير بالذكر أنّ سؤالهم هذا عن وقت حدوث القيامة لا يعني أنّهم يؤمنون بأصل القيامة، بل هو مقدّمة لإنكار أصل القيامة كالذي يقول: (فلانٌ سوف يقدم من السفر) وإذا ما تأخر فترة من الزمن يعترض من ينكر قدوم ذلك المسافر فيقول: (متى سوف يأتي المسافر).

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ٧-١٥].

أنهت الآيات السابقة بسؤال كان قد وَجّه المنكرون للبعث يوم القيامة وهو: يوم القيامة متى يأتي ذلك اليوم؟ وهذه الآيات هي التي تجيب عن هذا السؤال، فتشير أوّلاً إلى الحوادث السابقة للبعث أي إلى التحول العظيم

وانعدام القوانين الحاصل في الأنظمة الكونية فيقول تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ[١] ٱلْبَصَرُ﴾ بمعنى اضطراب العين ودورانها من شدّة الخوف والرعب ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾.

ذكرت معانٍ متعددة للمفسّرين في ما يراد بالجمع بين الشمس والقمر، فقيل هو اجتماعهما، أو طلوعهما كليهما من المشرق، وغروبهما من المغرب، وقيل اجتماعهما بعد زوال نوريهما[٢] ويحتمل أن ينجذب القمر تدريجياً بواسطة الشمس وباتجاهها ثم اجتماعهما معاً بعد ذلك، وينتهي بالتالي ضياؤهما.

على كلّ حال، فقد أُشير إلى ظاهرتين من أهم الظواهر الإنقلابية لأواخر الدنيا، أي إلى زوال نور القمر واجتماع الشمس والقمر مع البعض، وهو ما أُشير إليه في الآيات القرآنية الأُخرى أيضاً، فيقول تعالى في سورة التكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي إذا أظلمت الشمس، ونعلم أن ضوء القمر من الشمس، وعندما يزول نور الشمس يزول بذلك نور القمر، وبالتالي تدخل الكرة الأرضية في ظلام دامس وعتمة مرعبة.

وبهذه الطريقة والتحول العظيم ينتهي العالم، ثم يبدأ بعث البشرية بتحول عظيم آخر (بنفخة الصور الثانية والتي تعتبر نفخة الحياة) فيقول الإنسان في ذلك اليوم: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[٣] [القيامة: ١٠].

أجل، الكفرة والمذنبون الذين كذبوا بيوم الدين يبحثون عن ملجأ في ذلك

---

(١) «برق»: من مادة برق ـ على وزن فرق ـ وهو الضوء الظاهر من بين السحب ويطلق على كل ما هو وضاء، و«برق البصر» في هذه الآية إشارة إلى الحركة الشديدة، والإضطراب الشديد للبصر من شدة الهول والخوف، وقيل هو سكون حدقة العين والنظر بدهشة إلى نقطة وغالباً ما تكون علامة الرعب، وهناك شواهد كثيرة على هذا المعنى في أشعار العرب تشير إلى إبراق البصر يُراد به التحير، والتفسير الأوّل أوجه.

(٢) يقول الطبرسي في «مجمع البيان» الجمع ثلاثة أنواع: جمعٌ في المكان، وجمعٌ في الزمان، وجمع الأوصاف في الشيء الواحد «كاجتماع العلم والعدالة في الإنسان» ولكن الجمع الذي يراد به اشتراك شيئين في الصفة كزوال نوريّ القمر والشمس معاً هو تعبير مجازي (إذ لا بدّ من الإستفادة من القرينة) مجمع البيان، ج١٠، ص٣٩٥.

(٣) «المفر»: اسم مكان من الفرار، واحتملهُ البعض الآخر مصدراً ولكنه بعيد.

اليوم لشدّة خجلهم، ويطلبون سبل الفرار لثقل خطاياهم وخوفهم من العذاب، كما كانوا يبحثون عن طريق الفرار في الدنيا عندما كانوا يواجهون حادثةً خطيرة، فيقيسون ذلك اليوم بهذا ولكن سرعان ما يقال لهم: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾[1] [القيامة: ١١].

فلا ملجأ إلّا إلى الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ وذكرت لهذه الآية تفاسير أُخرى غير التفسير المذكور أعلاه منها: إن الحكم النهائي لذلك اليوم هو بيد الله تعالى.

أو إن المقر النهائي للإنسان في الجنّة أو النّار هو بيد الله.

أو أن الإستقرار للمحاكمة والحساب يومئذٍ يكون عنده، ولكن بالتوجه إلى الآية التي تليها نرى أن ما قلناه هو الأنسب والأوجه.

ويعتقد البعض أن هذه الآية هي من الآيات التي تبين خط مسير التكامل الأبدي للإنسان، وهي من جملة الآيات التي تقول: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ التغابن: ٣]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦]، و﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[2] [النجم: ٤٢].

وبعبارة أوضح أنّ الناس في حركة دائبة في هذا الطريق الطويل من حدود العدم إلى إقليم الوجود، ولا يزالون في حركة هذا الإقليم نحو الوجود المطلق، والوجود الأزلي، وأن هذه الحركة والسلوك التكاملي في استمرار إلى الأبد ما داموا لا ينحرفون عن هذا الصراط المستقيم حيث يدخلون في كل يوم مرحلة جديدة من التقرب إلى الله تعالى، وإذا انحرفوا عن مسيرهم فإنّهم سوف يسقطون وينتهون.

عندئذٍ يضيف في إدامة هذا الحديث: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أمّا عن معنى هاتين العبارتين فقد ذكرت لهما تفاسير عديدة.

أوّلاً: المراد ما قدم من الأعمال في حياته، أو الآثار الباقية منه بعد

---

(١) «وزر» على وزن قمر، وتعني في الأصل الملاجيء الجبلية وأمثالها، ومنها يطلق على الوزير لما يلتجى به في الأمور، وعلى كل حال فإنّها تعني في هذه الآية كل نوع من الملجأ والمخبأ.

(٢) هناك نظرات أخرى في تفسير هذه الآيات وضحنا ذلك في تذيلها.

موته، ممّا ترك بين الناس من السنن الصالحة والسيئة والتي يعملون ويسيرون بها ووصول حسناتها وسيئاتها إليه. أو الكتب والمؤلفات والأبنية القائمة على الخير والشرّ، والأولاد الصالحين والطالحين التي تصل آثارهم إليه.

والثّاني: يمكن أن يراد به الأعمال الأولى التي أتى بها، والأعمال الأخيرة التي أتى بها في عمره. وبعبارة أخرى أنّه يُنبّأ بجميع أعماله.

والثّالث: إنّ المراد هو ما قدم من ماله لنفسه وما ترك لورثته، وقيل: ما قدم من الذنوب، وما أخر من طاعة الله أو بالعكس.

والوجه الأوّل هو الأنسب، لما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير «(ينبّأ) بما قدم من خير وشرّ، وما أخر من سنّة ليس بها من بعده فإن كان شرّاً كان عليه مثل وزرهم، ولا ينقص من وزرهم شيئاً، وإن كان خيراً كان له مثل أجورهم، ولا ينقص من أجورهم شيئاً»[1].

ثم يضيف في الآية الأخرى ويقول: «إنّ الله وملائكته يطلعون العباد على أعمالهم، وإن كان لا يحتاج إلى ذلك، لأنّ نفسه وأعضاءه هم الشهود عليه في ذلك اليوم، فيقول تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

سياق هذه الآيات في الحقيقة هو نفس سياق الآيات التي تشير إلى شهادة الأعضاء على أعمال الإنسان، كالآية (٢٠) من سورة فصلت حيث يقول الله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

والآية (٦٥) من سورة (يس): ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وعلى هذا فإنّ أفضل شاهد على الإنسان في تلك المحكمة الإلهية للقيامة هو نفسهُ، لأنّهُ أعرف بنفسه من غيره، وإن كان الله تعالى قد أعطاه شواهد أخرى كثيرة لإتمام الحجّة عليه.

«بصيرة»: لها معنى مصدري بمعنى (الرؤيا والإطلاع)، ومعنى وصفي

---

(١) تفسير البرهان، ج٤، ص٤٠٦، ومثله في تفسير القرطبي، ج١٠، ص٦٨٩١.

(الشخص المطّلع) ولذا فسّره البعض بمعنى (الحجة والدليل والبرهان) والذي هو واهب للمعرفة[١].

«معاذير»: جمع (معذرة) وتعني في الأصل البحث عمّا تمحى به آثار الذنوب، وقد تكون أحياناً أعذاراً واقعية، وأُخرى صورية وظاهرية.

وقيل: المعاذير جمع معذار، وهو الستر، والمعنى وإن أرخى الستور ليخفي ما عمل فإن نفسه شاهد عليه، والأوّل أوجه.

على كل حال، فإنّ الحاكم على الحساب والجزاء في ذلك اليوم العظيم هو المطّلع على الأسرار الداخلية والخارجية، وكذلك نفس الإنسان المحاسب لنفسه، كما جاء في الآية (١٤) من سورة الإسراء: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

إنّ الآيات مورد بحثنا وإن كانت تتحدث كلّها عن المعاد والقيامة، فإنّ مفهومها واسع، ولذا فإنّها تشمل عالم الدنيا، وتعلم الناس بأحوال أنفسهم وإنّه كان فيهم من يكتم ويغطي وجههُ الحقيقي بالكذب والإحتيال والتظاهر والمراءاة.

لذا ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويسرّ سيئاً أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك، والله سبحانه يقول: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ إنّ السريرة إذا صلحت قويت العلانية»[٢].

وورد أيضاً في حديث صيام المريض عن الصادق عليه السلام عندما سأله أحد أصحابه: ما حد المرض الذي يفطر صاحبه؟ فأجاب الإمام: «بل الإنسان على نفسه بصيرة، وهو أعلم بما يطيق»[٣].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

---

(١) «التاء»: مصدرٌ على الإحتمال الأوّل، وتاء التأنيث على الإحتمال الثّاني، لأنّه يراد بالإنسان هنا الجوارح أو النفس، فالتأنيث مجازي، وقيل إنّ التاء تاء المبالغة للأخبار بشدّة معرفة الإنسان بنفسه.

(٢) مجمع البيان، ج١٠، ص٣٩٦، (وأورد الشيخ الصدوق في من لا يحضره الفقيه في كتاب الصيام، ج٢، ص١٣٣، باب حد المرض الذي يفطر صاحبه، الحديث١٩٤١).

(٣) المصدر السابق.

التّفسير

إنّ علينا جمعه وقرآنه:

هذه الآيات بمثابة الجملة الإعتراضية التي تتداخل أحياناً في كلام المتحدث. كمن يكون مشغولاً بالخطابة في مجلس ما والناس مجتمعون في آخر المجلس، والحال أنّ صدر المجلس خال، فيقطع حديثه مؤقتاً، ويدعو الحاضرين للتقدم لينفتح الطريق للقادمين، ثم يستأنف حديثه مجدداً، أو كالأستاذ الذي يقطع حديثه لينبه طالباً، وبعد ذلك يكمل حديثه.

فعندما يسمع شخص ما حديث الأستاذ عن طريق شريط كاسيت يرى إشكالاً في استمراريّة الحديث، ويتعجب لما يرى من عدم الترابط بين الجمل، ولكن مع التمعن في شرائط المجلس الخاصّة يتّضح فلسفة هذه الجمل المعترضة.

بعد هذه المقدمة نتّجه إلى تفسير الآيات التي يراد بحثها، حيث يترك الله تعالى الحديث عن القيامة وأحوال المؤمنين والكفرة مؤقتاً، ليعطي تذكرة مختصرة للنّبي ﷺ حول القرآن فيقول: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ لهذه الآية أقوال متعددة للمفسّرين، وعلى المجموع ذكرت لها ثلاثة تفاسير:

الأوّل: هو التفسير المشهور الذي نقل عن ابن عباس في كتب الحديث، وهو أنّ النّبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي ليقرأ عليه القرآن، تعجّل بقراءته ليحفظه وذلك لحبه الشديد للقرآن، فهناه الله عن ذلك وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

الثّاني: نعلم أن للقرآن نزولين هما: نزولٌ دفعي، أي نزوله بتمامه على قلب النّبي ﷺ في ليلة القدر، ونزولٌ تدريجي والذي كان أمده ٢٣ عامّاً، وكان النّبي ﷺ يعجل في إبلاغ الرسالة أحياناً قبل النزول التدريجي للآيات أو قراءة ما يرافق تلك الآيات، فنهاهُ الله عن ذلك. وأمره أن يبلّغ ويتلو ما ينزل عليه في حينه، وعلى هذا يكون مضمون هذه الآية كالآية (١١٤) من سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

وليس في هذين التّفسيرين اختلاف واسع، ويكون المعنى: لا ينبغي للنّبي أن يعجل في استلام الوحي.

الثّالث: ولم يذهب إليه إلّا القليل، وهو أنَّ المخاطبين في هذه الآيات المذنبون، وذلك في يوم القيامة حيث يأمرون بمحاسبة أنفسهم وذكر أعمالهم، ويقال لهم: لا تعجلوا في ذلك، ومن الطبيعي أنّهم سوف يتضجرون عند ذكرهم لسيئاتهم ويمرون عليها باستعجال، فيأمرون بالتأني في قراءتها واتباع الملائكة عند ذكر الملائكة لأعمالهم، وطبقاً لهذا التّفسير لا تكون هذه الآية كجملة معترضة، بل مرتبطة مع الآيات السابقة واللاحقة لها. لأن جميعها تتحدث عن أحوال القيامة والمعاد، وأمّا التّفسير الأوّل والثّاني فيناسبان شكل الجملة المعترضة.

ولكن التّفسير الثّالث بعيدٌ وخاصّة مع الإلتفات إلى ذكر إسم القرآن في الآيات اللاحقة، ويشير سياق الآيات إلى أن المراد هو أحد التفسيرين السابقين. ولا إشكال في الجمع بينهما بالرغم من أنَّ سياق الآيات اللاحقة يؤيّد التّفسير الأوّل أي المشهور (فتدبّر).

ثمّ يضيف: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾[1]، وبالتالي لا تقلق على جمع القرآن، نحن نجمعه ونتلوه عليك بواسطة الوحي.

ثم يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾، ثمّ يُضيف: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

فيكون جمع القرآن وقراءته لكم وتبيينه وتفصيل معانيه بعهدتنا، فلا تقلق على شيء، فالذي أنزل الوحي هو الذي يحفظه، وأمّا ما يُعهد إليك هو اتباعك له وإبلاغك الرسالة للناس، وعن بعضهم أنّ المراد من الجمع ليس الجمع في لسان الوحي، بل جمعه في صدر النّبي ﷺ وقراءته على لسانه أي لا تعجل إنَّ علينا أن نجمعه في صدرك ونثبت قراءتهُ في لسانك بحيث تقرأه متى شئت.

على كل حال، فإنّ هذه العبارات تؤيد التّفسير الأوّل، وهو أنّ الوحي النازل بواسطة جبرائيل عليه السلام عندما كان يهبط على النّبي ﷺ ليقرأ عليه القرآن كان ﷺ يكرر الآيات بسرعة لئلا ينساها. وهنا جاء الأمر من الله أن اهدأ واطمئن، فإنّه تعالى هو الذي يجمع الآيات ويبيّنها. وهذه الآيات تبيّن ضمنياً

(١) يجب الإنتباه إلى أنّ «القرآن» في هذه الآية والآية التي تليها هو مصدرٌ ويُراد به القراءة.

أصالة القرآن، وحفظه من أي تغيّر وانحراف، لأنَّ الله تعالى تعهد بجمعه وقراءته وتبيينه.

وورد في أنّ رسول الله ﷺ كان بعد نزول هذه الآيات إذا أتاه جبرائيل ﷺ أطرق، فإذا ذهب قرأ كما وعده الله[1].

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

التّفسير

الوجوه الضاحكة والوجوه العابسة في ساحة القيامة:

ترجع هذه الآيات مرّةً أُخرى لتكمل البحوث المتعلقة بالمعاد. وخصوصيات أُخرى من القيامة، وكذلك تبيّن علل إنكار المعاد فيقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾[2] فليس الأمر كما يتصور من أنّ دلائل المعاد خفيّة ولا يمكنكم الإطلاع عليها، بل إنّكم عَشِقْتُكُمُ الدنيا. ولهذا السبب تركتم الآخرة ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

إنّ الشك في قدرة الله تعالى وجمع العظام وهي رميم ليس هو الدافع لإنكار المعاد، بل إنّ حبّكم الشديد للدنيا والشهوات والميول المغرية هي التي تدفعكم إلى رفع الموانع عن طريق ملذاتكم، وبما أنّ المعاد والشريعة الإلهية توجد موانع وحدوداً كثيرة على هذا الطريق، لذا تتمسكون بإنكار أصل الموضوع، وتتركون الآخرة بتمامها.

وكما ذكرنا سابقاً أنَّ إحدى العلل المهمّة للميول إلى المادية وإنكار المبدأ والمعاد هو كسب الحرية المطلقة للإنجراف وراء الشهوات واللذات والذنوب، ولا ينحصر في العهود السابقة، بل يتجلّى هذا المعنى في عالم اليوم بصورة أوضح.

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٣٩٧.

(٢) قال البعض إنّ (كلاّ) إشارة إلى نفي تدبرهم للقرآن المجيد، وليس هذا المعنى صحيحاً لأنّ المخاطب هو نفس النّبي ﷺ ولها جانب إعتراضي كما قلنا في الآيات المتعلقة بالقرآن، وأمّا الآيات التي نحن بصدد البحث فيها فإنّها تتميم للآيات السابقة حول القيامة.

وهاتان الآيتان تؤكّدان ما ورد في الآيات السابقة والتي قال فيها تعالى شأنه: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ وقال أيضاً: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ثمّ ينتهي إلى تبيان أحوال المؤمنين الصالحين والكفّار المسيئين في ذلك اليوم، فيقول تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾.

«ناضرة»: من مادة (نضرة) وتعني البهجة الخاصّة التي يحصل عليها الإنسان عند وفور النعمة والرفاه، ووفورها يلازم السرور والجمال والنورانية، أي أنَّ لون محياهم يحكي عن أحوالهم، كيف أنّهم أُغرقوا في النعم الإلهية، وهذا شبيه لما جاء في الآية (٢٤) من سورة المطفّفين: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

هذا من ناحية العطايا المادية، وأمّا عن العطايا الروحية فيقول تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ نظرة بعين القلب وعن طريق شهود الباطن، نظرة تجذبهم إلى الذات الفريدة وإلى ذلك الكمال والجمال المُطْلَقَيْن، وتهبهم اللذة الروحانية والحال الذي لا يوصف، إذاً إنَّ لحظة منها أفضل من الدنيا وما فيها. والجدير بالذكر أن تقديم (إلى ربّها) على (ناظرة) تفيد الحصر، أي ناظرة إلى الله فقط لا إلى غيره.

وإذا قيل إنَّ أهل الجنان ينظرون إلى غير الله تعالى أيضاً، فإنّنا نقول: إذا نظروا إلى غيره فإنّهم سوف يرون آثار الله فيها، والنظر إلى الأثر هو نظرٌ إلى المُؤثّر، وبعبارة أُخرى، أنّهم يرونه في كلّ مكان. ويرون تجلي قدرته وجلاله وجماله في كل شيء، ولذا فإنَّ نظرهم إلى نعم الجنان لا يجرهم إلى الغفلة عن النظر إلى ذات الله.

ولهذا السبب ورد في بعض الرّوايات في تفسير هذه الآية: (إنّهم ينظرون إلى رحمة الله ونعمته وثوابه)[1] لأنّ النظر إلى ذلك هو بمثابة النظر إلى ذاته المقدسة.

قال بعض الغافلين: إنّ هذه الآية تُشير إلى شأنه في يوم القيامة، ويقولون: إنَّ

---

(١) تفسير روح الثقلين، ج٥، ص٤٦٤، و٤٦٥.

الله سوف يُرى بالعين الظاهرة في يوم القيامة. والحال إنَّ مشاهدتهُ بالعين الظاهرة تستلزم جسمانيتهُ. والوجود في المكان، والكيفية والحالة الخاصّة وجود جسماني، ونعلم أنَّ ذاتهُ المقدّسة منزَّهة عن مثل هذا الإعتقاد الملوث، كما اعتمد القرآن هذا المعنى في آياته مرات عديدة، منها ما في الآية (١٠٣) من سورة الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وهذه الآية مطلقة لا تختص في الدنيا.

على كل حال، فإنّ عدم النظر الحسي إلى الله تعالى أمرٌ واضح لا يحتاج البحث فيه أكثر من هذا، ويقرُّ بذلك من لهُ أدنى اطلاع على القرآن والمفاهيم الإسلامية.

وقال البعض في معنى الناظرة أقوالاً أُخرى مثلاً: ناظرة من مادة الإنتظار، أي أنَّ المؤمنين لا ينتظرون شيئاً إلّا من الله تعالى، وحتى أنّهم لا يعتمدون على أعمالهم الصالحة وأنَّهم ينتظرون رحمة الله ونعمته بشكل دائم.

وإذا قيل إنَّ هذا الإنتظار سيكون مصحوباً مع نوع من الإنزعاج، والحال أنَّ المؤمن لا شيء يزعجهُ في الجنان؟ فيقال: إنّ ذلك الإنتظار المصحوب بالإنزعاج هو ما لا يُطمأن عقباه، أمّا إذا ما وُجد الإطمئنان. فسيكون مثل هذا الإنتظار مصحوباً بالهدوء[١].

والجمع بين معنى (النظر) و(الإنتظار) غير بعيد، لجواز استعمال اللفظ الواحد في المعاني المتعددة. وإذا كان المراد هو أحد المعنيين، فإنَّ الأرجح هو المعنى الأوّل.

وننهي هذا الكلام بحديث مسندٍ إلى النّبي ﷺ إذ قال: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجينا من النّار»؟

قال: «فيكشف الله تعالى الحجاب فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربّهم»![٢]

---

(١) يعتقد البعض أنّ (النظر) الذي يعني الإنتظار لا يتعدى بـ(إلى) بل يتعدى بدون حرف الجر، ولكن هنا شواهد من أشعار العرب تشير إلى أن (النظر) الذي يعني الإنتظار يتعدى كذلك بـ(إلى) (راجع مجمع البيان، ج١٠، ص٣٩٨، وتفسير القرطبي، ج١٠، ص٦٩٠٠).

(٢) روح المعاني، ج٢٩، ص١٤٥.

والظريف هو ما ورد في حديث عن أنس بن مالك، عن النّبي ﷺ قال: «ينظرون إلى ربّهم بلا كيفية ولا حد محدود ولا صفة معلومة»[١]، وهذا الحديث تأكيد على المشاهدة الباطنية لا العينية.

وفي النقطة المقابلة لهذه الجماعة المؤمنة، هناك جماعة تكون وجوههم مقطبة. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾.

«باسرة»: من مادة (بسر) على وزن (نصر)، وهو الشيء غير الناضج والعمل الذي لم يأت حينه، ولذا يقال لفاكهة النخل غير الناضجة (بسر) على وزن (عسر) ويطلق على عبوس الوجه. وهذا الوصف هو ردّ فعل الإنسان قبل وصول العذاب والأذى إليه.

فعندما ينظر الكافرون إلى علامات العذاب وصحائف أعمالهم الخالية من الحسنات والمملوءة بالسيئات، يصيبهم الندم والحسرة والحزن ويعبسون وجوههم لذلك.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

يرى الكثير من المفسّرين بأنَّ (الظن) هنا بمعنى العلم. أي أنّهم يوقنون بمثل هذا العذاب، والحال أنَّ بعضهم يرى أنَّ (الظن) هنا بمعناه المعروف أي الإحتمال القوي، ومن الطبيعي أنّهم يوقنون إجمالاً بأنّهم سوف يعذبون، ولكن ليس بمثل هذا العذاب الشديد[٢].

«فاقرة»: من مادة (فقرة) على وزن (ضربة) وجمعها (فقار) وتعني حلقات الظهر، ويقال للحادثة الثقيلة التي تكسر حلقات الظهر (فاقرة)، و«الفقير» قيل له ذلك لهذا الوجه، أي أنّهُ مكسور الظهر[٣].

على كل حال، فإنّ هذا التعبير كناية للعقوبات الثقيلة والتي تنتظر هذه الجماعة في جهنّم، إنّهم ينتظرون عذاباً قاصماً، والحال إنَّ الجماعة السابقة

---

(١) تفسير الميزان، ج٢٠، ص٢٠٤.

(٢) من جملة الشواهد التي جاؤوا بها لهذا الموضوع هو أنّ الظن إذا كان بمعنى العلم فيجب أن يكون (أن) بعد (تظن) مخففة من الثقيلة والحال هو (أن) مصدر بقرينة إعمالها النصب.

(٣) «فاقرة»: صفة الموصوف محذوف وتقديرهُ (داهية فاقرة) و(تظن) فعلٌ و(وجوه) فاعله، وفي التقدير (أرباب الوجوه) أو (ذوات الوجوه).

منتظرون لرحمة الله تعالى ومستعدون للقاء المحبوب، هؤلاء لهم أسوأ العذاب. وأولئك لهم أسمى النِعَم الجسمانية والمواهب واللذات الروحانية.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

التّفسير

إتماماً للأبحاث المرتبطة بالعالم الآخر ومصير المؤمنين والكفّار يأتي الحديث في هذه الآيات عن لحظة الموت المؤلمة والتي تعتبر باباً إلى العالم الآخر فيقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾[1] أي كلّا إنّه لا يؤمن حتى تصل روحه التراقي.

هو ذلك اليوم الذي تنفتح فيه عينهُ البرزخية، وتزال عنها الحجب، ويرى فيها علامات العذاب والجزاء، ويوقف على أعماله، ففي تلك اللحظة يقرّ بالإيمان ولكن إيمانه لا ينفعهُ ولا يفيد حاله أبداً.

«تَرَاقِيْ»: جمع «تَرْقُوَة»، وهي العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال، وبلوغ الروح الى التراقي كناية عن اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان، وذلك عندما تخرج الروح من البدن، تتوقف الأعضاء البعيدة عن القلب (كاليدين والرجلين) قبل غيرها، كأن الروح تطوي نفسها في البدن تدريجياً حتى تصل إلى الحلقوم.

وفي هذه الفترة يسعى أهله وأصدقاؤه مستعجلين قلقين لإنقاذه، يقول تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي هل هناك من منقذ يأتي لإنقاذ هذا المريض؟

ويقولون هذا الحديث عن وجه العجز واليأس، والحال أنّهم يعلمون أنّه قد فات الأوان ولا ينفع معه طبيب.

«راق»: من مادة «(رَقْيٌ) على وزن (نَهْيٌ) و(رُقْيَهُ) على وزن (خُفْيَهُ) وهو الصعود ولفظة (رقيه) تطلق على الأوراد والأوعية التي تبعث على نجاة

---

(١) «إذا»: أداة شرطية وجزاؤه محذوف، والتقدير (إذا بلغت التراقي انكشف لهُ حقيقة الأمر، ووجد ما عمله)، والفاعل في (بلغت) هو (النفس) وهو محذوف ويعرف بقرينة الكلام.

المريض، وقيل للطبيب الذي ينجي المريض ويخلصه مما هو فيه «راقي»، فيكون مفهوم الآية: ينادي أهل المريض، وأحياناً المريض نفسه من شدّة الضجر: ألا هل من داع يدعو بدعاء لينجي هذا المريض؟

وقال البعض: إنّ المعنى قول الملائكة بعضها لبعض: من يرقى بروحه من الملائكة، أملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟

وأضاف البعض إنّ ملائكة الله تكره قبض روح غير المؤمن، ولذا يقول ملك الموت: من يرقى بروحه، والمعنى الأوّل أوجه وأنسب.

وفي الآية التالية إشارة إلى اليأس الكامل للمحتضر فيقول تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي في هذه الحالة يصاب باليأس من الحياة واليقين بالفراق، ثمّ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ وهذا الإلتفاف إمّا لشدّة الأذى لخروج الروح، أو لتوقف عمل اليدين والرجلين وتعطيل الروح منها.

وذكرت تفاسير أُخرى لهذه الآية، منها ما نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (التفت الدنيا بالآخرة) ومثله عن علي بن إبراهيم.

ونقل عن ابن عباس كذلك من المراد من الآية: التفاف أمر الآخرة بأمر الدنيا.

وقال البعض: هو التفاف شدائد الموت بشدائد القيامة.

والظاهر رجوع جميع هذه المعاني إلى ما أوردناه في قول الباقر عليه السلام، واتخذ هذا التّفسير لكون أحد معاني «الساق» في لغة العرب هو الحادثة الشديدة والمصيبة والبلاء العظيم.

وقال آخرون هو التفاف الساق في الكفن. ويمكن جمع هذه التفاسير في معنى الآية إذ لا منافاة بينها.

ثمّ يقول تعالى في آخر آية من آيات البحث: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾. أجل إلى الله تعالى المرجع حيث يحضر الخلائق عند محكمة العدل الإلهية، وهكذا ينتهي المطاف إليه، وهذه الآية أيضاً تأكيد على مسألة المعاد والبعث الشامل للعباد، ويمكن أن تكون إشارة إلى الحركة التكاملية للخلائق وهي متجهة نحو الذات المقدّسة واللامتناهية.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ١-٩].

التّفسير

يوم تُطوى الكائنات فيه!

نواجه في بداية السورة، إشارات قصيرة، مثيرة ومرعبة لما سيجري لنهاية العالم المذهلة ـ بداية يوم القيامة ـ، فتنقل الإنسان في فكره وأحاسيسه إلى مفاجآت ذلك اليوم الرهيب، قد تحدثت تلك الإشارات عن ثمانية علائم من يوم القيامة.

وأول مشهد عرضته عدسة العرض القرآني، هو: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

«كورت»: من (التكوير)، بمعنى الطي والجمع واللّف (مثل لف العمامة على الرأس)، وأخذ هذا المعنى من كتب اللغة والتّفسير المختلفة.

واستعملت كذلك بمعنى: (الرمي) أو (إطفاء شيء).. والمعنيان ـ كما يبدو ـ مستمدان من المعنى الأصلي.

وعلى أيّ حال، فالمقصود هو: خمود نور الشمس وذهابه، وتغيّر نظام تكوينها.

وكما بات معلوماً... فالشمس في وضعها الحالي، عبارة عن كرة مشتعلة، على هيئة غازية ملتهبة، وتتفجر الغازات على سطحها بصورة شعلات هائلة محرقة، قد يصل إرتفاعها إلى مئات الآلاف من الكيلومترات!

ولو قُدّرَ وضع الكرة الأرضية وسط شعلة منها، فإنّها تستحيل فوراً إلى رماد وكتلة من الغازات!!

ولكن... عند حلول وقت نهاية العالم، والإقتراب من يوم القيامة، سيخمد ذلك اللهب المُروِّع، وستجمع تلك الشعلات، فيطفأ نور الشمس، ويصغر حجمها... وهو ما أشير إليه بالتكوير.

وجاء في (لسان العرب): (كورت الشمس: جمع ضوءها ولف كما تلف العمامة).

وقد أيّد العلم الحديث هذه الحقيقة، من خلال اعتقاده وبعد دراسات علمية كثيرة، بأنّ الشمس تسير تدريجياً نحو الظلام والإنطفاء.

ويأتي المشهد الثّاني: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾.

«انكدرت»: من (الإنكدار)، بمعنى السقوط والتناثر، واشتق من (الكدورة)، وهي السواد والظلام.

ويمكن جمع المعنيين في الآية، لأنّ النجوم في يوم القيامة ستفقد إشعاعها وتتناثر وتسقط في هاوية الفناء، كما تشير إلى ذلك الآية (٢) من سورة الإنفطار: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾، والآية (٨) من سورة المرسلات: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾.

والمشهد الثّالث: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾.

وقد ذكرنا مراحل فناء الجبال، إبتداء من السير والحركة وانتهاء بتحولها إلى غبار متناثر (فراجع تفسير الآية ٢٠ من سورة النبأ).

وثمّ يأتي دور المشهد الرابع: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾.

«العشار»: جمع(عشراء) وهي الناقة التي مرّ على حملها عشرة أشهر، فأضحت على أبواب الولادة، بعدما امتلأت أثداؤها باللبن.

وهي من أحبّ وأثمن النوق لدى العرب زمن نزول الآية المباركة.

«عطلت»: تركت لا راعي لها.

فهول ووحشة القيامة، سينسي الإنسان أحبّ وأثمن ما يمتلكه.

وقال العلّامة الطبرسي في مجمع البيان: وقيل: العشار، السحاب تعطل فلا تمطر، أي: إنّ الغيوم ستظهر في ذلك اليوم، ولكن لا تمطر، (ويمكن أن تكون الغيوم ناشئة من الغازات المختلفة، أو تكون غيوماً ذرية، أو طبقات من الغبار الناتج عن تدمير الجبال.. وكل ذلك لا تمطر).

ويضيف الطبرسي قائلاً: قال الأزهري: لا أعرف هذا في اللغة.

وثمّة علاقة بين ما ذهب إليه الشيخ الطريحي في (مجمع البحرين) بقوله: العشار: بمعنى الناقة الحامل ثمّ أُطلق على كلّ حامل، وبين إطلاقها في

الآية. فلا غيوم غالباً ما تكون محملة بالأمطار، ولكن الغيوم التي ستظهر في السماء على أعتاب ذلك اليوم سوف لا تكون حاملة بالمطر ـ فتأمل.

وقيل: «العشار»: هي البيوت أو الأراضي الزراعية التي ستتعطل بذلك اليوم، وستخلو من الناس والزراعة.

وأشهر ما فسّرت به الآية هو التفسير الأوّل.

وينتقل المشهد الخامس الى الوحوش: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

فالحيوانات الوحشية التي تراها في الحالات العادية تبتعد الواحدة عن الأخرى خوفاً من الإفتراس والبطش، ستراها وقد جمعت في محفل واحد، وكلّ منها لا يلتفت إلى ما حوله لما سيكون به من رهبة وأهوال ذلك اليوم الخطير، وكأنّها تقصد من اجتماعها هذا التخفيف عن شدّة خوفها وفزعها!!

ونقول: إذا اضمحلت كلّ خصائص الوحشية للحيوانات غير الأليفة نتيجة لأهوال يوم القيامة، فما سيكون مصير الإنسان حينئذٍ؟!

ويعتقد كثير من المفسّرين بأنّ الآية تشير إلى حشر الحيوانات الوحشية في عرصة يوم القيامة لمحاسبتها على قدر ما تحمل من إدراك، ويستدلون بالآية (٣٨) من سورة الأنعام على ذلك، والتي تقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

وما يمكننا قوله: إنّ الآية تتحدث عن علائم نهاية الدنيا المهولة، وبداية عالم الآخرة وعليه... فالتفسير الأوّل أنسب.

وتُصَوِّرُ البحار في المشهد السادس: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

«سجرت»: من (التسجير)، بمعنى إضرام النّار.

وإذا خالج القدماء التعجب والإستغراب لهذا الوصف القرآني، فقد بات اليوم من البديهيات الكسبية، لما يتركب منه الماء من عنصري الأوكسجين

---

(١) قال في الأمثل: بحثنا موضوع حشر وحساب الحيوانات في هذا التفسير ذيل الآية (٣٨) من سورة الأنعام، فراجع.

والهيدروجين، القابلان للإشتعال بسرعة، ولا يستبعد أنْ يوضع الماء ـ في إرهاصات يوم القيامة ـ تحت ضغط شديد ممّا يؤدي إلى تجزئة وتفكيك عناصره، وعندها سيتحوّل إلى كتلة ملتهبة من النّار.

وقيل: «سجّرت»: بمعنى (امتلأت)، كما يقال للتنور الممتلىء بالنّار (مسجّر)، وعلى ضوء هذا المعنى، يمكننا أنْ نتصور إمتلاء البحار ممّا سيتسبب من الزلازل الحادثة وتدمير الجبال في إرهاصات يوم القيامة، أو ستمتليء بما يتساقط من أحجار وصخور سماوية، فيفيض ماؤها على اليابسة ليغرق كلّ شيء.

ويأتي دور المشهد السابع: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

فتبدأ المؤالفة بخلاف حال الدنيا... فالصالحون مع الصالحين، والمسيئون مع المسيئين، وأصحاب اليمين مع أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال مع أصحاب الشمال، فإذا ما جاور المؤمن مشركاً، أو تزوج الصالح من غير الصالحة في الحياة الدنيا، فتصنيف يوم القيامة غير ذلك، فهو يوم الفصل الحق.

وثمّة احتمالات أُخرى، منها:

ردّ الأرواح إلى أجسادها...

زواج الصالحين بالحور العين...

قرن الضالين بالشياطين...

لحوق الإنسان بحميمه، بعد أنْ فرّق الموت بينهما...

قرن الإنسان بأعماله.

والتّفسير الأوّل أقرب، بدلالة الآيات (٧ـ ١١) من سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾.

فبعد أنْ تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن ستة تحولات، كمقدمات يوم القيامة،تأتي الآية أعلاه لتخبر عن أولى خطوات يوم القيامة، المتمثلة بالتحاق كلّ شخص بقرينه.

ونصل إلى المشهد الثامن: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

«الموؤُدة»: من (الوَأْدِ) على وزن (وَعْد)، بمعنى دفن البنت حيّة بعد ولادتها.

وقيل: الوأد بمعنى الثقل، وتوسع معناه (لما ذُكِر)، لما فيه من دفن البنات في القبر وإلقاء التراب عليهن.

واطلق الأئمة الأطهار ﷺ مفهوم الوَأد، ليشمل كلّ قطع رحم وقطع مودّة... حينما سُئل الإمام الباقر ﷺ عن معنى الآية، قال: «مَنْ قتل في مودّتنا»[1].

وفي رواية أُخرى: إنّ الدليل على ذلك هو آية القربى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2] [الشورى: ٢٣].

ولا شك أنّ التّفسير الأوّل ينسجم مع ظاهر الآية، ولكن المفهوم والملاك قابلان للتوسع والشمول.

ملاحظات

١ ـ وَأْدُ البنات:

تعتبر عادة (الوأد) ـ والتي أشار إليها القرآن الكريم مراراً ـ من أقبح جرائم وعادات عصر جاهلية ما قبل الإسلام.

وإذا كان البعض قد حصرها في قبيلة (كندة) أو بعض القبائل الصغيرة المتناثرة هنا وهناك دون بقية القبائل العربية الأُخرى، فالمسلم به أنّها كانت من الشيوع بحيث تناول القرآن الكريم ذكرها لأكثر من مرّة وبتأكيد شديد.

ولكن، حتى مع افتراضنا لندرة هذا العمل القبيح، فإنّه من القباحة والشناعة ما يدعونا لبحثه ودراسته...

يقول المفسّرون: كانت المرأة في الجاهلية إذا ما حان وقت ولادتها حفرت حفرة وقعدت على رأسها، فإن ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلاماً حبسته، وقال شاعرهم مفتخراً:

سمبتها إذا ولدت (تموت) والقبر صهر ضامن زميت[١]

وثمّة أسباب كثيرة وراء هذه الجريمة البشعة، منها:

إحتقار المجتمع الجاهلي للمرأة....

وجود الفقر الشديد في تلك الحقبة الزمنية، والمرأة كانت مُستهلِكَةً غير منتجة، إضافة لعدم اشتراكها في الغارات التي تقوم بها القبيلة لتوفير لقمة العيش.

الخوف من وقع النساء أسرى في شباك الأعداء، نتيجة للمعارك التي كانت دائرة على الدوام بين القبائل، لأنّ في هكذا أسر جرح للشرف وإذلال شديد.

وتجمعت هذه الأسباب (بالإضافة لأسباب أُخرى) فأدت إلى ظهور عادة (الوأد) الوحشية بين أفراد القبائل في ذلك العصر القابع تحت ظلام الجهل المقيت.

وممّا يؤسف له، إنّ جاهلية القرون الأخيرة قد كررت تلك الممارسات البشعة وبصورة أُخرى، حتى وصل ببعض الدول تدّعي التمدن والتحضر لأنّ تقنن وتقرّ (حرية) إسقاط الجنين! نعم، فالحال واحدة.. فإذا كان أهل الجاهلية الأولى يقتلون البنت، فمتمدني هذا العصر يقتلون الأطفال وهم في بطون أُمهاتهم (بنتاً أو ابناً)!!

٢ ـ اهمية المراة في الإسلام:

بإمكاننا أن نستشف مدى اهتمام الإسلام بالمرأة وبالدم الإنساني (خصوصاً دم الأبرياء)، من خلال اهتمام الباري جلّ شأنه بمسألة وَأدِ البنات، ويكفي القرآن الكريم دلالة على أنْ قدّم ذكر بحث مسألة الوأد في محكمة العدل الإلهي يوم القيامة على مسألة نشر صحف الأعمال وبقية المسائل الأُخرى، لما فيها من قباحة وشناعة في حق المرأة كإنسانة لها حقّ الحياة كما للرجل من حق.

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤٤.

٣ ـ مَنْ الإنسان... الموؤُدة أمْ الوائد؟

لو أمعنا النظر في أسلوب كلام الآية، لرأينا أنّ السؤال سيوجه يوم القيامة إلى الموؤُدة دون الوائد على الذنب الذي قُتِلت من أجله، وكأن القاتل لا قيمة له حتى يسأل عن قباحة جريمته، بالإضافة إلى الإكتفاء بشهادة الموؤُدة لإثبات جريمة الوائد عليه... فالموؤُدة تُعامل يوم القيامة باعتبارها إنسان محترم له حقوقه، والوائد مهمل مهان.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

التّفسير

يوم يرى الإنسان ما قدّم!!

فبعد مرحلة الفناء العام، تأتي مرحلة الظهور الجديد للعالم، لتقام محكمة العدل الإلهي، ومن خطوط هذه المرحلة: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

«الصحف»: جمع (صحيفة) بمعنى المبسوط من الشيء، كصحيفة الوجه، والصحيفة التي يكتب عليها.

فستنشر الصحف التي دوّنت فيها أعمال الناس من قبل الملائكة وكلٌّ سيعرف جزاءه بعد الإطلاع على صحيفة أعماله، كما تشير إلى ذلك الآية (١٤) من سورة الإسراء: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

وسيكون نشر الصحف أمام الملأ العام لتقرّ عيون المحسنين سروراً، ويقاسي المسيئون العذاب النفسي.

ثمّ يضيف: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾.

«كشطت»: من (الكشط) على وزن (كشف)، بمعنى قلع جلد الناقة، كما قال الراغب في مفرداته، وأمّا في (لسان العرب) فتعني: كشف الغطاء عن الشيء، و«تكشط السحاب» أي، تقطع وتفرّق.

وما يراد من «كشطت» في الآية، هو: رفع الحجب الفاصلة بين العالمين الدنيوي والعلوي، التي تمنع رؤية الناس للملائكة أو الجنّة والنّار، فيرى الإنسان

حينها عالم الوجود شاخص أمام ناظريه شخوصاً حقيقياً، وكما تصور الآيات التالية ذلك، حيث إنّ الجنّة ستقترب من الإنسان ليرى نعيمها، وتزداد النّار سعيراً لاهبة.

نعم، أوليس يوم القيامة (يوم البروز)... فلا الحقائق ستخفي، ولا يكون للحجب أثراً.

فالآية وما سبقها وسيلحقها إذن (حسب التّفسير أعلاه) قد تحدثت عن المرحلة الثّانية للقيامة - مرحلة ما بعد البعث - فما ذكره كثير من المفسرين، من كون الآية تشير إلى انهيار وتحطم السماوات، والمتعلق بحوادث المرحلة الأولى للقيامة (مرحلة الفناء العام)، يبدو أنّه بعيد، لأنّه لا ينسجم مع معنى «كشطت» من جهة أخرى.

ويتأكد ذلك بوضوح من خلال الآية: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾.

فجهنّم موجودة في كل الأوقات، ولكنّ حجب الدنيا هي المانعة من رؤيتها، فالآية على سياق الآية (٤٩) من سورة التوبة: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وكما أنّ جهنّم موجودة فالجنّة كذلك بدلالة آيات قرآنية كثيرة[١].

ويبيّن البيان القرآني بذات السياق السابق: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

وهذا المعنى هو تكرار لما جاء في الآية (٩٠) من سورة الشعراء: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

«أزلفت»: من (زلف) على وزن (حرف)... و«زلفى»: على وزن (كُبرى)، بمعنى القرب، فيمكن أن يكون المراد هو: القرب المكاني، أو القرب الزماني، أو القرب من حيث الأسباب والمقدمات، ويمكن أيضاً أن تحمل الكلمة جميع ما ذكر من معان.

فستكون الجنّة قريبة من المؤمنين من حيث: المكان، زمان دخولها، من حيث تسهيل أسبابها لهم.

وقد تجلت مكانة المؤمنين عند الله حينما صرّحت الآية باقتراب الجنّة من المؤمنين، ولم تقل: اقترب المؤمنين من الجنّة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣، وسورة الحديد الآية: ٢١... الخ.

وكما قلنا آنفاً... فالجنّة والنّار موجودتان في كلّ وقت، ولكنْ مع حلول يوم القيامة تكون الجنّة والنّار أشدّ اشتعالاً من أي وقت مضى.

وتأتي الآية الأخيرة (من الآيات المبحوثة) لتتم ما جاء قبلها من جمل، حيث تمثل جزاء الشرط للجمل السابقة والتي وردت في (١٢) آية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

التّفسير

نزل به رسول كريم:

بعد أن تناولت الآيات السابقة مواضيع: المعاد، مقدمات يوم القيامة، وحوادث يوم القيامة... تأتي الآيات أعلاه لتطرق عن: أحقّية القرآن وصدق نبوّة محمّد ﷺ، والآيات في حقيقتها تأكيدٌ على ما جاء في الآيات السابقة لموضوعات «المعاد»، إضافةً لذكرها صور بيانية منبهة على هذه الحقيقة.

وتشرع الآيات بـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ[1] ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾

«الخنّس»: جمع (خانس)، من (خنس) وهو الإنقباض والإختفاء ويقال للشيطان: «الخنّاس»، لأنّه إذا ذُكر الله تعالى، وكما ورد في الحديث الشريف: «الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذُكر الله خَنَس»[2].

«الجوار»: جمع (جارية)، وهي الشيء الذي يتحرك بسرعة.

«الكنّس»: جمع (كانس)، من (كنس)، على وزن (شمس)، وهو الإختفاء، و«كناس» الطير والوحش: بيت يتخذه.

---

(١) تعرض المفسّرون في بحوث عديدة لكلمة «لا»، هل هي: نافية، زائدة، للتأكيد... وقد تناولنا ذلك مفصلاً في أول سورة القيامة (في نفس هذا الجزء)، فراجع.

(٢) لسان العرب، مادة (خنس).

ولكن... ما هي الأشياء المقصودة بهذا القسم؟

يعتقد كثير من المفسّرين، أنّها الكواكب[١] الخمسة التي في منظومتنا الشمسية، والتي يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة (عطارد، الزهرة، المريخ، المُشتري وزحل).

ونقول توضيحاً: لو تأملنا السماء عدّة ليال، لرأينا أنّ نجوم السماء أو القبة السماوية تظهر وتغيب بشكل جماعي من دون أن تتغير الفواصل والمسافات فيما بينها، وكأنّها لآلىء خيطت على قطعة قماش داكن اللون، وهذه القطعة تتحرك من المشرق إلى المغرب، إلّا خمسة كواكب قد خرجت عن هذه القاعدة، فنراها تتحرك وليس بينها وبين بقية النجوم فواصل ثابتة، وكأنّها لآلىء قد وضعت على تلك القطعة وضعاً، من دون أن تخيّط بها!

وهذه الكواكب الخمس هي المقصودة في هذا التفسير، وما نلاحظه من حركتها إنّما تكون لقربها منّا لا نتمكن من تمييز حركات بقية النجوم لعظم المسافة فيما بيننا وبينها.

ومن جهة أُخرى: ينبغي التنويه إلى أنّ علماء الفلك يطلقون على هذه الكواكب اسم (الكواكب المتحيرة)، لأنّها لا تتحرك على خط مستقيم ثابت، فتراها تسير باتجاه معين من الزمن ثمّ تعود قليلاً ومن ثمّ تتابع مسيرها الأوّل وهكذا... لهؤلاء العلماء من البحوث العلمية في تحليل هذه الظاهرة.

وعليه... يمكن حمل إشارة الآيات إلى الكواكب السيّارة «الجوار»، التي في سيرها لها رجوع «الخنس»، ثمّ تختفي عند طلوع الفجر وشروق الشمس... فهي تشبه غزالاً يتصيد طعامه في الليل وما أن يحلّ النهار حتى يختفي عن أنظار الصيادين والحيوانات المفترسة فيذهب إلى «كناسه»، ولذا وصفت الكواكب بـ«الكنّس».

وثمّة احتمال آخر: «الكنّس»: اختفاء الكواكب في ضوء الشمس.

---

(١) الفرق بين النجوم والكواكب، إنّ الأولى شموس كشمسنا، والثانية عبارة عن أجسام باردة كالأرض، تنعكس عليها أشعة الشمس فتضيء، ويمكن تمييزها على صفحة السماء بثبوت نورها، في حين تكون النجوم متلألئة بالنور.

أي إنّها حينما تدور حول الشمس، تصل في بعض الوقت إلى نقطة مجاورة للشمس فيختفي نورها تماماً عن الأبصار، وهو ما يعبّر عنه علماء الفلك بـ (الإحتراق).

و«الكنّس»: في نظر بعض آخر: إشارة إلى دخول الكواكب في البروج السماوية، وذلك الدخول يشبه إختفاء الغزلان في أماكن أمنها.

وكما هو معروف، إنّ كواكب مجموعتنا الشمسية لا تنحصر بهذه الكواكب الخمس، بل ثمّة ثلاثة كواكب أُخرى (أورانوس، بلوتون، نبتون)، ولكنّها لا ترى بالعين المجرّدة لبعدها عنّا، وللكثير من هذه السيّارات قمراً أو أقماراً، فعدد كواكب هذه المجموعة بالإضافة إلى الأرض هو تسعة كواكب.

و«الجواري»: توصيف جميل لحركة الكواكب، حيث شبّه بحركة السفن على سطح البحر.

وعلى أيّ حال، فكأنّ القرآن الكريم يريد بهذا القسم المليء بالمعاني الممتزجة بنوع من الإبهام، كأنّه يريد إثارة الفكر الإنساني، وتوجيهه صوب الكواكب السيّارة ذات الوضع الخاص على القبة السماوية، ليتأمل أمرها وقدرة وعظمة خالقها سبحانه وتعالى.

وثمّة احتمالات أُخرى في هذا الموضوع أهملناها لضعفها.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في تفسير الآيات المذكورة: «هي خمسة أنجم: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد»[1].

ويعرض لنا القرآن لوحة أُخرى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾.

«عسعس»: من (العسعسة)، وهي رقة الظلام في طرفي الليل (أوله وآخره)، ومنه إطلاق لفظ «عسعس» على حرّاس الليل، وبالرغم من إطلاق هذه المفردة على معنيين متفاوتين، ولكن المراد منها في هذه الآية هو آخر الليل فقط بقرينة الآية التالية لها، وهو ما يشابه القسم الوارد في الآية (٣٣) من سورة المدثر: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾.

والليل، من النعم الإلهية الكبيرة، لأنّه: سكن للروح والجسم، معدّل لحرارة الشمس، وسبب لإدامة حياة الموجودات... أمّا التأكيد على نهايته

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤٦.

فيمكن أن يكون بلحاظ كونه مقدمة استقبال نور الصباح، إضافة لما لهذا الوقت بالذات من فضل كبير في حال العبادة والمناجاة والدعاء، ويمثل هذا الوقت أيضاً نقطة الشروع بالحركة والعمل في عالم الحياة.

ويأتي القسم الثّالث والأخير من الآيات: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

فما أروع الوصف وأجمله! فالصبح كموجود حي قد بدأ أوّل أنفاسه مع طلوع الفجر، ليدبّ الروح من جديد في كلّ الموجودات، بعد أنّ تقطعت أنفاسه عند حلول ظلام الليل!

ويأتي هذا الوصف في سياق ما ورد في سورة المدّثر، فبعد القسم بإدبار الليل، قال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾، فكأنّ الليل ستارة سوداء قد غطت وجه الصباح، فما أن أدبر الليل حتى رفعت تلك الستارة فبان وجه الصبح مشرقاً، وأسفر للحياة من جديد.

وتجسّد الآية التالية جواب القسم للآيات السابقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

فالجواب موجّه لمن اتّهم النّبي ﷺ باختلاف القرآن ونسبته إلى الباري جلّ شأنه.

وقد تناولت وما بعدها خمسة أوصاف لأمين وحي الله جبرائيل عليه السلام، وهي الأوصاف التي ينبغي توفرها في كلّ رسول جامع لشرائط الرسالة...

فالصفة الأولى: إنّه «كريم»: إشارة إلى علو مرتبته وجلالة شأنه.

ومن صفاته أيضاً: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾.[1]

«ذي العرش»: ذات الله المقدّسة. مع أنّ الله مالك كلّ عالم الوجود، فقد وصف «بذي العرش» لما للعرش من أهمية بالغة على غيره (سواء كان العرش بمعنى عالم ما وراء الطبيعة، أو بمعنى مقام العلم المكنون).

أمّا وصفه بـ«ذي قوّة» (أي: صاحب قدرة)، لما للقدرة العظيمة والقوّة الفائقة من درو مهم وفعّال في عملية حمل وإبلاغ الرسالة، وعموماً... ينبغي

(١) «مكين»: (المكانة)، وهي المقام والمنزلة، وما يستفاد من مفردات الراغب وغيره من المفسّرين، إنّه اسم مكان من (الكون) ولكثرته في الكلام فقد استعمل على صيغة الفعل فقيل: (تمكن) و(تمسكن).

لكل رسول أن يكون صاحب قدرة معينة تتناسب وحدود رسالته، وعلى الإخلاص في مجال عدم نسيان ما يُرسل به.

«مكين»: صاحب منزلة ومكانة، وبدون ذلك لا يتمكن الرسول من أداء رسالته على أتمّ وجه، فلا بد من كونه شخصاً جليلاً، لائقاً، ومقرباً للمُرسِل.

وممّا لا شك فيه إنّ التعبير بـ «عند» لا يراد منه الحضور المكاني، لأنّ الباري جلّ شأنّه لا يحده مكان، والمراد هو الحضور المقامي والقرب المعنوي.

وتتناول الآية التالية الصفة الرابعة والخامسة: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

«ثَمّ»: إشارة إلى البعيد، ويراد بها: إنّ أمين الوحي الإلهي نافذ الكلمة في عالم الملائكة، ومُطاع عندهم، وإنّه في ذروة الأمانة في عملية إبلاغ الرسالة.

وما نستشفّه من الرّوايات: إنّ جبرائيل عليه السلام ينزل أحياناً وبصحبته جمع كبير من الملائكة في حال إبلاغه للآيات القرآنية المباركة، وهو ما يوحي بأنّه مُطاع بينهم، وهو ما ينبغي أن يكون في كلّ أمّة تتبع رسولاً، فلا بدّ من طاعتها له.

وروي... أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبرائيل عليه السلام عند نزول هذه الآيات: «ما أحسن ما أثنى عليك ربّك!: ذي قوّة عند ذي العرش مكين، مُطاع ثمّ أمين، فما كانت قوتك؟ وما كانت أمانتك؟

فقال: أمّا قوّتي فإنّي بعثت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن في كلّ مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهنّ فقلبتهنّ. وأمّا أمانتي، فإنّي لم أؤمر بشيء فعدوته إلى غيره»[1].

وينفي القرآن ما نُسب إلى النّبي صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾.

«الصاحب»: هو الملازم والرفيق والجليس، والوصف هذا مضافاً إلى أنّه يحكي عن تواضع النّبي صلى الله عليه وآله مع جميع الناس... فلم يرغب يوماً في الإستعلاء على أحد منكم، فإنّه قد عاش بينكم حقبة طويلة، وجالسكم، فلمستم عن قرب رجاحة عقله وحسن درايته وأمانته، فكيف تنسبون له الجنون؟!

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤٦، وورد هذا المضمون في تفسير (الدر المنثور) في ذيل الآية المبحوثة.

وكلٌّ ما في الأمر إنّه قد جاءكم بعد بعثته بتعاليم تخالف تعصبكم الأعمى وتحارب أهواءكم الجاهلية، فما راق لكم الإنضباط والترابط، وحبذتم الإنفلات والتراخي، فوليتم الأدبار عن تعاليمه الربانية ونسبتم إليه الجنون، فراراً من هدي دعوته المباركة!

ونسبة الجنون إلى النّبي ﷺ ليس بالشيء الجديد في مسير دعوة السماء فقد واجه جميع أنبياء الله ﷺ هذا الإفتراء الفارغ من قبل جهلة وكفرة عصورهم، وقد حدثنا القرآن الكريم بتلك الوقائع: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

فالعاقل في منطق الجاهلية، من يخضع للعادات والتقاليد المعاشة وإن كانت فاسدة منحطة، ومَنْ يطلق لجماح أهوائه وشهواته العنان، ومَنْ لا يفكر بأيّ إصلاح أو تغيير لأنّه خروج على السائد المتعارف عليه.

وبناء على هذا المقياس الأعمى... فكلُّ الأنبياء في نظر عبدة الدنيا مجانين...

ويؤكّد القرآن على الإرتباط الوثيق ما بين النّبي ﷺ وجبرائيل ﷺ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، وهو «الأفق الأعلى»، الذي تظهر فيه الملائكة، حيث شاهد رسول الله ﷺ جبرائيل ﷺ.

وقد استدلّ بعض المفسّرين بالآية (٧) من سورة النجم على التفسير أعلاه، والتي تقول: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

ولكننا نرى أنّ الآية مع بقية آيات السورة تتحدث عن حقيقة أُخرى.

وقال بعض: إنّ النّبي ﷺ قد رأى جبرائيل ﷺ في صورته الحقيقية مرّتين، الأولى عند بداية البعثة النبوية المباركة، حيث ظهر له في الأفق الأعلى وقد غطى الشرق والغرب حتى بُهر النّبي بعظمة هيئته، والثّانية رآه عند معراجه إلى السماوات العُلى واعتبروا الآية المحبوثة إشارة لتلك الرؤيتين.

وثمّة من يذهب في تفسير الآية من كونها تشير إلى مشاهدة الله عزَّ وجلَّ بالشهود الباطني.

وتأتي الصفة الخامسة: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

فهو ليس ممن يقبرون في صدورهم ممّا يوحى إليه، ولا يبخل ولا يتوانى عن الإبلاغ ويوصله إلى كلّ النّاس كاملاً وبأمانة.

«ضنين»: من (ضنّة) على وزن (مِنّة)، أي: البخل بالأشياء الثمينة والنفيسة، فالأنبياء ﷺ منزّهون عن ذلك، وإذا ما بخل الآخرون بما صار في حوزتهم من علم محدود، فالنّبي فوق ذلك وأنزه مع ما له من منبع علم إلهي.

وتقول آخر الآيات المبحوثة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

فالآيات القرآنية ليست كحديث الكهنة الذي يأخذوه من الشياطين، ودليلها معها، وحيث إنّ حديث الكهنة محشو بالأكاذيب والتناقضات، ويدور حول محور ميولهم ورغباتهم، في حين لا يشاهد ذلك في الآيات القرآنية إطلاقاً.

والآية تجيب على إحدى افتراءات المشركين، حين اتهموا النّبي ﷺ بأنّه كاهن وكلّ ما جاء به قد أخذه من الشياطين! فحديث الشيطان! لا يتعدى أن يكون باطلاً وضلالاً في حين أنّ الآيات الرّبانية كلّها نور وهداية، وهذا ما يشعر به كلُّ مَنْ يواجه القرآن ومنذ وهلته الأولى.

«رجيم»: من (الرجم)، و(رجام) على وزن (لجام) بمعنى أخذ الحجارة، وتُطلق على رمي الحجارة على الأشخاص أو الحيوانات، ويستعار الرجم للرمي، بـ: الظنّ، التوهم، الشتم، والطرد، و«الشيطان الرجيم» بمعنى المطرود من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: ١-٥].

التّفسير

عندما يحلّ الحدث المروع!

تقدّم لنا الآيات (مرّة أخرى) مشاهداً مروعة من يوم القيامة، فتخبر عن تفطّر السماء من هول الكارثة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾.

ثمّ تنتقل إلى ما سيصيب الكواكب ونظامها: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾.

فسينهدم العالم العلوي، وستحدث الإنفجارات العظيمة المهيبة في كلّ

النجوم السماوية، وسيتخلخل نظام المنظومات الشمسية، فتخرج النجوم من مساراتها لتصطدم الواحدة بالأخرى وتتلاشى... فينتهي عمر العالم، ويتناثر كلُّ شيء ليُبنى على أنقاضه عالم جديد آخر.

«انفطرت»: من (الإنفطار)، بمعنى الإنشقاق، وقد ورد التعبير في آيات أخرى كالآية الأولى من سورة الإنشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، والآية (١٨) من سورة المزمل: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾.

«انتثرت»: من (النثر) على وزن (نصر)، بمعنى نشر الشيء وتفريقه، و«الإنتثار»: هو الانتشار والتفرق. وباعتبار أنّ انتشار النجوم يؤدّي إلى تفرقها في السماء (كحبات العقد المنفرط) فقد فسّرها الكثير من المفسّرين بـ(سقوط النجوم)، وهو من لوازم معنى الإنتثار.

«الكواكب»: جمع (كوكب)، وله معان كثيرة منها: النجوم بشكل عام، والزهرة بشكل خاص، النبت إذا طال، البياض الذي يظهر في سواد العين، لمعان الحديد: بريقه وتوقده و«غلام كوكب»: ممتلىء إذا ترعرع وحسن وجهه، وكوكب كلّ شيء: معظمه، مثل كوكب العشب وكوكب السماء وكوكب الشمس.

والكوكب أيضاً: الماء، السيف، سيد القوم... الخ.

وعلى ما يبدو أنّ المعنى الحقيقي هو (النجم المتلألىء)، وما دون ذلك معان مجازية استعملت لعلاقة المشابهة.

ولكن، ما هي العوامل التي ستؤدي بالكواكب إلى التناثر والتفرق في الفضاء مع فقدانها لنظامها الذي يحكمها؟

هل بسبب فقدان التعادل الموجود في الجاذبية فيما بينها؟ أم ثمّة قوّة هائلة ستفعل ذلك؟ أم بسبب التوسع المستمر الحاصل في العالم ـ كما يقول ذلك العلم الحديث؟...

لا يستطيع أيُّ أحد أنْ يتكهن السبب بدّقة... وكلُّ ما نعلمه أنّ هذه الأمور تهدف إلى تعريف الإنسان بما سيحدث بالمستقبل الآت، وتدعوه لخلاص نفسه من أهوالها وهو الكائن الضعيف وسط تلك الحوادث الجسام؟!

فالآيات تحذر الإنسان من أن يتخذ العالم الفاني هدفاً لوجوده، فيتصور محل خلوده، لأنّ ذلك سيؤول إلى تلوث قلب الإنسان (شاء أم أبى)، وما ينتج عن التلوث سوى الذنوب المؤدّية إلى عذاب الجحيم...

وينتقل البيان القرآني من السماء إلى الأرض، فيقول: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي اتصلت.

مع أنّ البحار متصلة فيما بينها قبل حلول ذلك اليوم (ما عدا البحيرات)، لكنّ اتصالها سيكون بشكل آخر، حيث ستفيض جميعها وتتمزق حدودها وتصير بحراً واحداً لتشمل كلّ الأرض، بسبب الزلازل المرعبة وتحطم الجبال وسقوطها في البحار... هذا أحد تفاسير الآية السادسة من سورة التكوير (الآنفة الذكر) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

وثمّة احتمال آخر بخصوص الآية المبحوثة والآية (٦) من سورة التكوير، يقول: يراد بـ«فجّرت» و«سجّرت» الإنفجار والاحتراق، لأنّ مياه البحار والمحيطات ستتحول إلى قطعة من نار لاهب.

وكما أشرنا سابقاً، فالماء يتكون من عنصرين شديدي الإشتعال (الأوكسجين والهيدروجين) فلو تحلل الماء إلى عنصريه فسيكفيه شرارة صغيرة لجعله قطعة ملتهبة من النيران.

وتتناول الآية التالية عرضاً لمرحلة القيامة الثانية، مرحلة تجديد الحياة وإحياء الموتى، فتقول: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾... وأُخرج الموتى للحساب.

«بعثرت»: قُلِبَ ترابها وأثير ما فيها.

واحتمل (الراغب) في مفرداته: إنّ «بعثرت» تكونت من كلمتين، (بعث) و«أثيرت»)، فجاء المعنى منهما، كقولنا: «بسملة» من «بسم» ولفظ الجلالة «الله».

وعلى أيّ حال، فإننا نرى شبيه هذا المعنى قد ورد في سورة الزلزلة: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] أي الأموات (بناءً على المشهور من تفاسيرها)، وفي الآيتين (١٣ و١٤) من سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

وتوضح الآيات أنّ إحياء الموتى وإخراجهم من القبور سيكون مفاجئاً وسريعاً.

وبعد ذكر كلّ تلك العلائم لما قبل البعث ولما بعده، تأتي النتيجة القاطعة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

نعم، فستتجلى حقائق الوجود، وسيصير كلّ شيء بارز إنّه «يوم البروز» وسيرى الإنسان كلّ أعماله محضرة بخيرها وشرّها، لأنّه يوم إزالة الحجب، ورفع مبررات الغرور والغفلة، وعندها... سيعلم الإنسان ما قدّم لآخرته، وما ترك بعده من آثار حسنها وسيئها، مثل: الصدقة الجارية، فعل الخير، عمارة الأبنية، الكتب التي ألفها، ما سنّ من السنن... فإن كان ما خلّفه خالصاً لله فسينال حسناته، وإن كانت نيّة أفعاله غير خالصة لله فستصل إليه سيئات تبعاته.

وهذه نماذج من الأعمال التي ستصل نتائجها إلى الإنسان بعد الموت، وهو: المراد من «وأخّرت».

صحيح أنّ الإنسان يعلم بما عمل في دنياه بصورة إجمالية، لكنّ حبّ الذات والإشتغال بالشهوات والنسيان غالباً ما ينسيه ما قدّمت يداه، فيتغافل عن النظر إلى ما بدا منه، أمّا في ذلك اليوم الذي سيتحول ويتغيّر فيه كلّ شيء حتى روح الإنسان فسيلتفت إلى ما قام به من عمل بكلّ دقّة وتفصيل، كما تشير الآية (٣٠) من سورة آل عمران: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾، فكلٌّ سيرى كلّ أعماله حاضرة مجسمة أمام عينه.

وقيل: «ما قدّمت»، إشارة إلى أعمال أوّل عمر الإنسان، و«أخّرت»، إشارة إلى أعمال آخر عمره.

ويبدو أنّ التفسير الأوّل أنسب من جميع الجهات.

ويراد بـ«نفس» الواردة بالآية، كلُّ نفسٍ إنسانية.

الإقتصاد الإسلامي في القرآن

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٦-٧]

بعد خروج يهود بني النضير من المدينة بقيت بساتينهم وأراضيهم وبيوتهم وقسم من أموالهم في المدينة، فأشار بعض شيوخ المسلمين على رسول الله ﷺ تماشياً مع سنّة جاهلية ـ حيث قالوا له خذ الصفوة من أموالهم وربع ممتلكاتهم، واترك انا المتبّقي كي نقسّمه بيننا، فنزلت الآيات أعلاه حيث أعلنت صراحة أنّ هذه الغنائم التي لم تكن بسبب قتال، ولم تكن نتيجة حرب، فإنّها جميعاً من مختصات الرّسول ﷺ باعتباره رئيساً للدولة الإسلامية، ويتصرّف بها كما يشاء، وفقاً لما يقدره من المصلحة في ذلك.

وسنلاحظ أنّ الرسول ﷺ قسّم هذه الأموال بين المهاجرين الفقراء في المدينة وعلى قسم من الأنصار من ذوي الفاقة[1].

التّفسير

حكم الغنائم بغير الحرب:

إنّ هذه الآيات ـ كما ذكر سابقاً ـ تبيّن حكم غنائم بني النضير، كما أنّها في الوقت نفسه توضّح حكماً عاماً حول الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بدون حرب، كما ذكر ذلك في كتب الفقه الإسلامي بعنوان (الفيء).

---

(١) مجمع البيان، نهاية الآيات مورد البحث وتفاسير أخرى.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[١].

«أفاء» من مادة (فيء) على وزن شيء ـ وهي في الأصل بمعنى الرجوع، وإطلاق كلمة (فيء) على هذا اللون من الغنائم لعلّه باعتبار أنّ الله سبحانه قد خلق هذه النعم والهبات العظيمة في عالم الوجود في الأصل للمؤمنين، وعلى رأسهم الرّسول الأعظم ﷺ الذي هو أشرف الكائنات، وبناءً على هذه النعم بموجب القواعد الشرعية والعرفية، إلّا أنّهم يعتبرون غاصبين لها، ولذلك فإنّ عودة هذه الأموال إلى أصحابها الحقيقيين (وهم المؤمنون) يسمّى (فيئاً) في الحقيقة.

«أوجفتم» من مادّة (إيجاف) بمعنى السّوق السريع الذي يحدث غالباً في الحروب.

«خيل» بمعناه المتعارف عليه (وهي اسم جنس وجمعها خيول)[٢].

«ركاب» من مادّة (ركوب) وتطلق في الغالب على ركوب الجمال.

والهدف من مجموع الجملة أنّ جميع الموارد التي لم يحدث فيها قتال وفيها غنائم فإنّها لا توزّع بين المقاتلين، وتوضع بصورة تامّة تحت تصرّف رئيس الدولة الإسلامية، وهو يصرفها في الموارد التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

ثمّ يضيف سبحانه أنّ الإنتصارات لا تكون غالباً لكم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

نعم، لقد تحقّق الإنتصار على عدو قوي وشديد كيهود (بني النضير) وذلك بالمدد الإلهي الغيبي، ولتعلموا أنّ الله قادر على كلّ شيء، ويستطيع سبحانه

---

(١) «ما» في (ما أفاء الله ورسوله) موصولة في محلّ رفع مبتدأ وما في ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ نافية، ومجموع هذه الجملة خبر، وهنالك احتمال ثان: وهو أنّ (ما) في (ما أفاء) شرطية، (وما) الثانية مع جملتها تكون جواباً للشرط ومجيء (الفاء) في صدر جملة الخبر حينما تكون فيها شبيهة بالشرط، فلا إشكال فيه.

(٢) يقول الراغب في المفردات: إنّ الخيل في الأصل من مادّة (خيال) بمعنى التصوّرات الذهنية، وخيلاء بمعنى التكبّر والتعالي على الآخرين لأنّه ناتج من تخيّل الفضيلة، ولأنّ ركوب الإنسان على الحصان يشعر بالإحساس بنوع من الفخر والزهو غالباً، لذلك أُطلق لفظ الخيل على الحصان، والنقطة الجديرة بالملاحظة أنّ خيل تطلق على الحصان وكذلك على راكبه.

بلحظة واحدة أن يذلّ الأقوياء، ويسلّط عليهم فئة قليلة توجّه لهم ضربات موجعة وتسلب جميع إمكاناتهم.

ولا بدّ للمسلمين أن يتعلّموا من ذلك دروس المعرفة الإلهية، ويلاحظوا علائم حقّانية النّبي ﷺ، ويلتزموا منهج الإخلاص والتوكّل على الذات الإلهية المقدّسة في جميع ممارساتهم.

وهنا قد يتبادر سؤال وهو: إنّ الحصول على غنائم بني النضير لم يتمّ بدون حرب، بل إنّ المسلمين زحفوا بجيشهم نحو قلاعهم وحاصروها، وقيل أنّ إشتباكاً مسلّحاً قد حصل في حدود ضيّقة بين الطرفين.

وفي مقام الجواب نقول: بأنّ قلاع بين النضير ـ كما ذكروا ـ لم تكن بعيدة عن المدينة، وذكر بعض المفسّرين أنّ المسافة بين المدينة والقلاع ميلان وأنّ المسلمين ذهبوا إليها سيراً على أقدامهم، وبناءً على هذا لم يواجهوا مشقّة حقيقية. أمّا بالنسبة لموضوع الإشتباك المسلّح فإنّه لم يثبت من الناحية التاريخية، كما أنّ الحصار لم يستمرّ طويلاً، وبناءً على هذا فإنّنا نستطيع القول بأنّه لم يحدث شيء يمكن أن نسمّيه قتالاً، ولم يرق دم على الأرض.

والآية اللاحقة تبيّن بوضوح مورد صرف (الفيء) الوارد في الآية السابقة وتقول بشكل قاعدة كليّة: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وهذا يعني أنّ هذه الغنائم ليست كباقي الغنائم الحربية التي يكون خمس منها فقط تحت تصرّف الرّسول ﷺ وسائر المحتاجين، والأربعة الأخماس الأخرى للمقاتلين.

وإذا ما صرّحت الآية السابقة برجوع جميع الغنائم لرسول الله ﷺ فلا يفهم من ذلك أن يصرفها جميعاً في موارده الشخصية، وإنّما أُعطيت له لكونه رئيساً للدولة الإسلامية، وخاصّة كونه المتصدّي لتغطية حاجات المعوزين، لذا فإنّ القسم الأكبر يصرف في هذا المجال.

وقد ذكر في هذه الآية بصورة عامّة ستّ مصارف للفيء.

١ ـ سهم لله، ومن البديهي أنّ الله تعالى مالك كلّ شيء، وفي الوقت نفسه غير محتاج لأي شيء، وهذا نوع من النسبة التشريفية، حتى لا يحسّ بقيّة الأصناف اللاحقة بالحقارة والذلّة، بل يرون سهمهم مرادفاً لسهم الله عزَّ وجلَّ، فلا ينقص من قدرهم شيء أمام الناس.

٢ ـ سهم الرّسول: ومن الطبيعي أن يصرف لتأمين احتياجاته الشخصية ﷺ وما يحتاجه لمقامه المقدّس وتوقّعات الناس منه.

٣ ـ سهم ذوي القربى: والمقصود بهم هنا وبدون شكّ أقرباء الرّسول ﷺ وبني هاشم، حيث إنّهم مستثنون من أخذ الزكاة والتي هي جزء من الأموال العامّة للمسلمين[١].

وأساساً لا دليل على أنّ المقصود من ذوي القُربى هم أقرباء الناس جميعاً، لأنّه في هذه الحالة ستشمل جميع المسلمين، لأنّ الناس بعضهم أقرباء بعض.

ولكن هل عناك شرط يقضي أن يكون ذوو القُربى من المحتاجين والفقراء أو لا يشترط ذلك؟ لقد اختلف المفسّرون في ذلك بالرغم من أنّ القرائن الموجودة في نهاية هذه الآية والآية اللاحقة توضّح لزوم شرط الحاجة.

٤، ٥، ٦ ـ «سهم اليتامى» و«المساكين» و«أبناء السبيل»، وهل أنّ جميع هؤلاء يلزم أن يكونوا هاشميين أو أنّها تشمل عموم اليتامى والمساكين وأبناء السبيل؟

اختلف المفسّرون في ذلك، ففقهاء أهل السنّة ومفسّروهم يعتقدون أنّ هذا الأمر يشمل العموم، في الوقت الذي اختلفت الروايات الواردة عن أهل البيت ﷺ في هذا المجال، إذ يستفاد من قسم منها أنّ هذه الأسهم الثلاثة تخصّ اليتامى والمساكين وأبناء السبيل من بني هاشم فقط، في حين صرّحت روايات أُخرى بعمومية هذا الحكم، ونقل أنّ الإمام الباقر ﷺ قال: «كان أبي

---

(١) هذا التّفسير لم يأت به الشيعة فقط، حيث جاء ذكره في تفاسير أهل السنّة أيضاً، كما ذكر ذلك الفخر الرازي في التّفسير الكبير، والبرسوني في روح البيان، وسيّد قطب في ظلال القرآن، والمراغي في تفسيره والآلوسي في روح المعاني.

يقول: لنا سهم رسول الله، وسهم ذي القربى ونحن شركاء الناس فيما بقي»[١].

والآيات الثامنة والتاسعة من هذه السورة، التي هي توضيح لهذه الآية، تؤيّد أيضاً أنّ هذا السهم لا يختص ببني هاشم، لأنّ الحديث دالّ على عموم فقراء المسلمين من المهاجرين والأنصار.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد نقل المفسّرون أنّ الرّسول ﷺ بعد حادثة بني النضير قسّم الأموال المتبقية بين المهاجرين من ذوي الحاجة والمسكنة، وعلى ثلاثة أشخاص من طائفة الأنصار، وهذا دليل آخر على عمومية مفهوم الآية. وإذا لم تكن بعض الروايات متناسبة معها، فينبغي ترجيح ظاهر القرآن[٢].

ثمّ يستعرض سبحانه فلسفة هذا التقسيم الدقيق بقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ فيتداول الأغنياء الثروات فيما بينهم ويحرم منها الفقراء[٣].

وذكر بعض المفسّرين سبباً لنزول هذه الجملة بشكل خاصّ، وأُشير له بشكل إجمالي في السابق، وهو أنّ مجموعة من زعماء المسلمين قد جاؤوا لرسول الله ﷺ بعد واقعة بني النضير، وقالوا له: خذ المنتخب وربع هذه الغنائم، ودع الباقي لنا نقتسمه بيننا، كما كان ذلك في زمن الجاهلية. فنزلت الآية أعلاه تحذّرهم من تداول هذه الأموال بين الأغنياء فقط.

والمفهوم الذي ورد في هذه الآية يوضّح أصلاً أساسيّاً في الإقتصاد الإسلامي وهو: وجوب التأكيد في الإقتصاد الإسلامي على عدم تمركز الثروات بيد فئة محدودة وطبقة معيّنة تتداولها فيما بينها، مع كامل الإحترام للملكية الشخصية، وذلك بإعداد برنامج واضح بهذا الصدد يحرّك عملية تداول الثروة بين أكبر قطاع من الأمّة.

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص٢٦١، ووسائل الشيعة، ص٣٦٨، حديث١٢، وباب واحد من أبواب الأنفال.

(٢) وسائل الشيعة، ج٦، ص٣٥٦، (حديث٤، باب واحد من أبواب الأنفال).

(٣) (دولة) بفتح الدال وضمّها بمعنى واحد، وفرّق البعض بين الإثنين وذكر أنّ (دولة) بفتح الدال تعني الأموال، أمّا بضمّها فتعني الحرب والمقام، وقيل إنّ الأوّل اسم مصدر، والثاني مصدر، وعلى كلّ حال، فإنّ لها أصلاً مشتركاً من مادة «تداول» بمعنى التعامل من يد إلى أخرى.

ومن الطبيعي ألّا نقصد من ذلك وضع قوانين وتشريعات من تلقاء أنفسنا ونأخذ الثروات من فئة ونعطيها لآخرين، بل المقصود تطبق الإسلامية في مجال كسب المال، والإلتزام بالتشريعات المالية الأُخرى كالخمس والزكاة والخراج والأنفال بصورة صحيحة، وبذلك نحصل على النتيجة المطلوبة، وهي إحترام الجهد الشخصي من جهة، وتأمين المصالح الإجتماعية من جهة أُخرى، والحيلولة دون إنقسام المجتمع إلى طبقتين: (الأقليّة الثريّة والأكثرية المستضعفة).

ويضيف سبحانه في نهاية الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وبالرغم من أنّ هذا القسم من الآية نزل بشأن غنائم بني النضيرو إلّا أنّ محتواها حكم عام في كلّ المجالات، ومدرك واضح على حجيّة سنّة الرّسول ﷺ.

وطبقاً لهذا الأصل فإنّ جميع المسلمين ملومون باتّباع التعاليم المحمّدية، وإطاعة أوامر رسول الله ﷺ، واجتناب ما نهى عنه، سواء في مجال المسائل المرتبطة بالحكومة الإسلامية أو الإقتصادية أو العبادية وغيرها، خصوصاً أنّ الله سبحانه هدّد في نهاية الآية جميع المخالفين لتعاليمه بعذاب شديد.

بحوث

مصارف الفيء:

«الفيء» كما قلنا هو الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بدون حرب، وهذه الأموال كانت توضع تحت تصرّف الرّسول ﷺ باعتباره رئيساً للدولة الإسلامية، وهي أموال كثيرة في الغالب، وخاصّة في بداية الفتوحات الإسلامية ويقدر لهذه الأموال أن تلعب دوراً هامّاً في تنمية الثروة في المجتمع الإسلامي، خلافاً لما كان متّبعاً في الجاهلية حيث تقسّم هذه الأموال بين أغنياء القوم فقط، في حين أنّها وضعت مباشرةً تحت تصرّف رئيس الدولة الإسلامية في التشريع الإسلامي فيصرفها كما يرى حسب الأولويات.

وكما قلنا في بحث الأنفال فإنّ هذه الأموال تشكّل قسماً من «الفيء» والقسم الآخر من الفيء هو كلّ الأموال التي يكون مالكها مجهولاً، كما

وضّح ذلك في الفقه الإسلامي، وتبلغ إثنتي عشرة فقرة، وبهذا فإنّ قسماً كبيراً من النعم والهبات الإلهيّة توضع تحت تصرّف رئيس الدولة الإسلامية عن هذا الطريق، ومن ثمّ تحت تصرّف المحتاجين[1].

ويتّضح ممّا تقدّم أن لا تضادّ بين الآية الأولى والآية الثانية، بالرغم من أنّ الآية الأولى تضع الفيء تحت تصرّف شخص الرّسول، والآية الثانية توضّح لنا ستّة أبواب لمصارف الفيء، على أن يراعى في صرفها الأولويات الخاصّة.

وبتعبير آخر، فإنّ الرّسول ﷺ، لا يريد الأموال لأموره الشخصية، بل بعنوان قائد المسلمين ورئيس دولتهم يصرفها في الأمور التي تحقّق مصلحة الدولة الإسلامية بشكل عامّ.

وممّا يجدر بالملاحظة أنّ هذا الحقّ ينتقل من بعد الرّسول ﷺ إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ومن بعدهم إلى نوّابهم، يعني (كلّ مجتهد جامع للشرائط) لأنّ الأحكام الإسلامية لا تعطّل، والحكومة الإسلامية من أهمّ المسائل التي يتعامل المسلمون معها. وقسم من هذه الأسس قُنّنت ضمن الهيكل الإقتصادي العامّ للمجتمع الإسلامي، كما أنّها تمثّل مبدأً أساسيّاً في النظام الإقتصادي للدولة الإسلامية.

---

(١) الموارد الإثني عشر للأنفال هي:
١ ـ الأراضي التي تركها أهلها ورحلوا عنها (أراضي يهود بني النضير).
٢ ـ الأراضي التي تركها أصحابها برغبة منهم إلى رئيس الدولة الإسلامية مثل (فدك).
٣ ـ أراضي الموات.
٤ ـ سواحل البحار.
٥ ـ قمم الجبال.
٦ ـ الوديان.
٧ ـ الغابات والآجام.
٨ ـ الغنائم الحربية الثمينة الخاصّة بالملوك.
٩ ـ ما يختاره قائد المسلمين من الغنائم العامّة لنفسه.
١٠ ـ الغنائم الحاصلة من الحروب التي لم يأذن بها الحاكم الشرعي.
١١ ـ المعادن.
١٢ ـ ميراث من لا وارث له.
ومن الطبيعي أنّ في بعض الموارد أعلاه قد حصلت إختلافات بين الفقهاء إلّا أنّ الأكثرية الغالبة قد اعتبرت هذه الموارد، ويمكن مراجعة ذلك في الكتب الفقهية.

قـال تـعـالـى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

التّفسير

المبادىء الأوليّة للإقتصاد الإسلامي:

هذه الآية الكريمة تشير إلى أحد الأصول المهمّة والكليّة للإقتصاد الإسلامي الحاكمة على مجمل المسائل الإقتصاديّة، بل يمكن القول إنّ جميع أبواب الفقه الإسلامي في دائرة الإقتصاد تدخل تحت هذه القاعدة ولذا نلاحظ أنّ الفقهاء العظام تمسّكوا بهذه الآية في مواضع كثيرة في الفقه الإسلامي وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

أمّا المراد من «الباطل» في هذه الآية الشريفة فقد ذكر له عدّة تفاسير، ذهب أحدها إلى أنّ معناه الأموال التي يستولي عليها الإنسان من طريق الغصب والعدوان، وذهب آخرون أنّ المراد هو الأموال التي يحصل عليها الشخص من القمار وأمثاله.

ويرى ثالث أنّها إشارة إلى الأموال التي يكتسبها الشخص بواسطة القَسَم الكاذب (وأشكال الحيل في المعاملات والعقود التّجارية).

ولكنّ الظاهر أنّ مفهوم الآية عام يستوعب جميع ما ذكرنا من المعاني للباطل لأنّ الباطل يعني الزّائل وهو شامل لما ذكر من المعاني، فلو ورد في بعض الرّوايات ـ كما عن الإمام الباقر عليه السلام ـ أنّ معناه (القسم الكاذب) أو ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره بـ(القمار) فهو في الواقع من قبيل المصاديق الواضحة له.

فعلى هذا يكون كلّ تصرّف في أموال الآخرين من غير الطريق المشروع مشمولاً لهذا النهي الإلهي. وكذلك فهكذا أنّ جميع المعاملات التي لا تتضمّن هدفاً سليماً وترتكز على أساس عقلائي فهي مشمولة لهذه الآية.

ونفس هذا المضمون ورد في سورة النساء الآية (٢٩) مع توضيح أكثر حيث تخاطب المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

إنّ استثناء التّجار المقترنة مع التراضي هو في الواقع بيان لمصداق بارز للمعاملات المشروعة والمباحة، فلا تنفي الهبة والميراث والهديّة والوصيّة وأمثالها، لأنّها تحقّقت عن طريق مشروع وعقلائي.

والملفت للنظر أنّ بعض المفسّرين قالوا: إنّ جعل هذه الآية مورد البحث بعد آيات الصوم (الآيات ١٨٢ ـ ١٨٧) علامة على وجود نوع من الإرتباط بينهما، فهناك نهيٌ عن الأكل والشرب من أجل أداء عبادة إلهيّة، وهنا نهيٌ عن أكل أموال الناس بالباطل الذي يعتبر أيضاً نوع من الصوم ورياضة النفوس، فهما في الواقع فرعان لأصل التقوى. ذلك التقوى الذي ورد في الآية بعنوان الهدف النهائي للصوم(١).

ولا بدّ من ذكر هذه الحقيقة وهي أنّ التعبير بـ(الأكل) يُعطي معنًى واسعاً حيث يشمل كلّ أنواع التصرّفات، أي أنّه تعبير كنائي عن أنواع التصرّفات، و(الأكل) هو أحد المصاديق البارزة له.

ثمّ يشير في ذيل الآية إلى نموذج بارز لأكل المال بالباطل والذي يتصوّر بعض الناس أنّه حقّ وصحيح لأنّهم أخذوه بحكم الحاكم فيقول: ﴿وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢).

(تدلوا) من مادّة (إدلاء)، وهي في الأصل بمعنى إنزال الدلو في البئر لإخراج الماء، وهو تعبير جميل للموارد التي يقوم الإنسان فيها بتسبيب الأسباب لنيل بعض الأهداف الخاصّة.

وهناك احتمالان في تفسير هذه الجملة:

الأول: هو أن يكون المراد أن يقوم الإنسان بإعطاء قسماً من ماله إلى القضاة على شكل هديّة أو رشوة (وكليهما هنا بمعنًى واحد) ليتملّك البقيّة، فالقرآن يقول: إنّكم بالرّغم من حصولكم على المال بحكم الحاكم أو القاضي ظاهراً، ولكنّ هذا العمل يعني أكلٌ للمال بالباطل، وهو حرام.

---

(١) اقتباس من تفسير في ظلال القرآن، ج١، ص٢٥٢.
(٢) جملة «تدلوا» عطف على تأكلوا، فعلى هذا يكون مفهومها «لا تدلوا».

الثّاني: أن يكون المراد أنّكم لا ينبغي أن تتحاكموا إلى القضاة في المسائل الماليّة بهدف وغرض غير سليم، كأن يقوم أحد الأشخاص بإيداع أمانة أو مال ليتيم لدى شخص آخر من دون شاهد، وعندما يطالبه بالمال يقوم ذلك الشخص بشكايته لدى القاضي، وبما أنّ المُودِعَ يفتقد إلى الشاهد فسوف يحكم القاضي لصالح الطرف الآخر، فهذا العمل حرام أيضاً وأكلٌ للمال الباطل.

ولا مانع من أن يكون لمفهوم الآية هذه معنًى واسعاً يشمل كلا المعنيين في جملة (لا تدلوا)، بالرغم من أنّ كلّ واحد من المفسرين ارتضى أحد هذين الاحتمالين.

والملفت للنظر أنّه ورد حديث عن رسول الله ﷺ يقول: «إنّما أنا بشرٌ وإنّما يأتيني الخصم فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له فإن قضيت له بالحقّ مُسلّم فإنّما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها»[1]. أي لا تتصوّروا أنّه من أمواله ويحل له أكله لأنّ رسول الله حكم له بهذا المال، بل هي قطعة من نار.

بحث

وباء الرشوة:

من الأوبئة الإجتماعية التي ابتلى بها البشر منذ أقدم العصور وباء الإرتشاء، وكانت هذه الظاهرة المَرَضِيَّة دوماً من موانع إقامة العدالة الإجتماعية ومن عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المقتدرة، بينما سُنّت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليها. الأقوياء قادرون بما يمتلكون من قوّة أن يدافعوا عن مصالحهم، بينما لا يملك الضعفاء إلّا أن يلوذوا بالقانون ليحميهم، ولا تتحقّق هذه الحماية في جوّ الإرتشاء، لأنّ القوانين ستصبح ألعوبةً بيد القادرين على دفع الرشوة، وسيستمر الضعفاء يعانون من الظلم والإعتداء على حقوقهم.

ولهذا شدّد الإسلام على مسألة الرشوة وأدانها وقبّحها واعتبرها من الكبائر،

(١) في ظلال القرآن، ج١، ص٢٥٢.

فهي تفتّت الكيان الإجتماعي، وتؤدي إلى تفشّي الظلم والفساد والتمييز بين الأفراد في المجتمع الإنساني، وتصادر العدالة من جميع مؤسّساته.

جدير بالذكر أنّ قبح الرشوة قد يدفع بالراشين إلى أن يغطّوا رشوتهم بقناع من الأسماء الأخرى كالهدية ونظائرها، ولكن هذه التغطية لا تغيّر من ماهيّة العمل شيئاً والأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرّمة غير مشروعة.

وهذا «الأشعث بن قيس» يتوسّل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة إلى بيت أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أملاً في أن يستعطف الإمام تجاه قضية رفعها إليه، ويسمّي ما قدّمه هديّة، فيأتيه جواب الإمام صارماً قاطعاً، قال: «هبلتك الهُبول، أعَنْ دين الله أتيتني لتخدعني؟... والله لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصِيَ الله في نملة أسلبُها جَلبَ شعيرة ما فعلته، وأنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمُها. ما لِعليّ ونعيم يفنى ولذّة لا تبقى؟!...».

الإسلام أدان الرشوة بكلّ أشكالها، وفي السيرة أنّ واحداً ممّن ولاّه رسول الله صلى الله عليه وآله قَبِلَ رشوة قدّمت إليه بشكل هدية، فقال له الرسول: «كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟!» قال: كانت هدية يا رسول الله. قال: «أرأيت لو قعد أحدكم في داره ولم نولّه عَمَلاً أكان الناسُ يهدونه شيئاً؟!»[1].

ومن أجل أن يصون الإسلام القضاة من الرشوة بكلّ أشكالها الخفيّة وغير المباشرة، أمر أن لا يذهب القاضي بنفسه إلى السوق للشراء، كي لا يؤثّر فيه بائع من الباعة فيبيعه بضاعة بثمن أقل، ويكسب على أثرها تأيد القاضي في المرافعة.

أين المسلمون اليوم من هذه التعاليم الدقيقة الصارمة الهادفة إلى تحقيق العدالة الإجتماعية بشكل حقيقيّ عمليّ في الحياة؟!

إنّ مسألة الرشوة مهمّة في الإسلام إلى درجة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول عنها: «وأمّا الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم»[2].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٢ باب ٥ من أبواب ما يكتسب به ح٢.

وورد في الحديث النبوي المعروف: «لعن الله الراشي والمرتشي والماشي بينهما»[١].

كيف يعالج النظام الإقتصادي في الإسلام ظاهرة الفقر؟

«المشكلة الإقتصادية» كانت ولا تزال في مقدمة الإنسان، لأنّها تكاد تكون من أشد الأمور تأثيراً في حياته المادية وعلاقاته الإجتماعية، إنّها تمثل إحدى السُبل الأساسية إلى التقدم العلمي والتطور الحضاري وانتشار العدل الإجتماعي.

من هذا المنطلق اعتبر الإسلام استقرار الحياة الإقتصادية أساساً لبناء المجتمع الإسلامي الملتزم، كما اعتبر توفير الكفاية المعاشية سبباً في الإستعانة على تقوى الله، والذي يؤكد النصوص الدينية التي تربط ربطاً محكماً بين الدنيا والآخرة، وبين الرفاه الإقتصادي والسمو الروحي والأخلاقي.

في القرآن الكريم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

في الحديث النبوي الشريف: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه».

«نعم العون على تقوى الله: الغنى».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «غنى يحجزك عن الظلم خير من فقر يحملك على الإثم».

من خلال هذه الرؤية الواقعية كانت عناية الإسلام بتنظيم الحياة الإقتصادية وفق نظام عادل يقوم على أساس الإيمان بحق الإنسان في توفير مختلف حاجاته الطبيعية، والفكرية والنفسية والروحية... الحاجات التي توفر العيش الحر الكريم للفرد، والأمن والإستقرار للمجتمع.

ولعل من الأولويات الإقتصادية التي ركز عليها الإسلام: ظاهرة الفقر،

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠١، ص٢٧٤، وج١١ باب الرشا في الحكم.

الظاهرة التي لم يخل منها زمان ولا مكان، والتي حرمت الإنسان من أدنى مقومات العيش العزيز، والتي كانت السبب في الإضطرابات والثورات في العالَمين القديم والحديث.

ـ كيف واجه الإسلام هذه الظاهرة؟

ـ وما هي الأسس الإقتصادية التي عالج بها أسباب انتشارها؟. . .

تحديد الفقر:

في المصطلح الإجتماعي:

ـ الفقر هو عجز الإنسان ـ أو جماعة من الناس ـ عن تأمين الحاجات الضرورية التي تُوفّر لهم مستوى الكفاية في العيش.

وفي المصطلح الفقهي:

ـ الفقير: هو الإنسان الذي لا يستطيع توفير مؤونة سنة.

وتأمين الكفاية في العيش، أو توفير مؤونة السنة، هو أحد الحقوق الأساسية للإنسان، لا يجوز التهاون بها، لأنّه السبيل الأساسي إلى الحياة العزيزة، والوسيلة الرئيسية إلى التقدم المادي والمعنوي.

سلبيات الفقر:

يقول الصحابي الجليل «أبو ذر الغفاري»: «كاد الفقر أن يكون كفراً».

فالإهتمام بظاهرة الفقر ـ ماضياً وحاضراً، وسيبقى مستقبلاً ـ لم يكن ترفاً أو عبثاً، فالفقر شر مستطير، وداء سرطاني قاتل، إذا ما استشرى في واقع أمة من الأمم كان السبب:

١ ـ في انتشار الظلم الإجتماعي، والقلق النفسي، والإضطراب الفكري.

٢ ـ في تفشي الأمراض الجسدية والإنفعالية والعقلية.

٣ ـ في ظهور الأمية والجهل والتخلف.

٤ ـ في الإنحلال الخُلقي، وانتشار الجرائم الإجتماعية.

٥ ـ في زرع بذور الحقد والكراهية بين الطبقات الإجتماعية المتفاوتة.

٦ ـ في الاضطرابات والثورات التي تؤدي إلى اهتزاز النظام العام في المجتمع.

وبكلمة موجزة: انتشار الفقر يمثل السبب الرئيس لانحطاط الأمم وتخلفها، وعامل أساس للقضاء على طمأنينتها واستقرارها.

مصادر الثروة عند الناس:

إنّ الله تعالى حين استخلف الناس، لم يمنحهم الحرية المطلقة في أمر التصرف بماله، وإنّما حدد لهم مصادره المشروعة، والأطر السليمة للإنتاج والتوزيع والإستهلاك.

ولعل أهم مصادر الثروة في الإقتصاد الإسلامي: الملكية التي تتمثل بشكلين متكاملين:

١ ـ **الملكية الفردية**: وتعني حق الفرد في حيازة أموال منقولة وغير منقولة، ضمن إطار من القيود والشروط، حددتها الشريعة الإسلامية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ...﴾ [النساء: ٣٢].

وحق الملكية فرضته رسالة السماء، استجابة لإلحاح الفطرة الإنسانية التي جبلت على حب الذات والرغبة في التمليك، واقع الإنسان هذا يصوره القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

غير أنّ للملكية الفردية ضوابط تمنع الفرد من الإسترسال مع حب الذات بشكل غير متوازن، فحددت لها منابع أهمها:

أ ـ **العمل**: ويعني تملك الإنسان من خلال بذل جهد جسدي أو فكري مقابل عوض.

ب ـ الإرث من الأقرباء.

ج ـ توزيع الدولة بعض ممتلكاتها العامة لاستثمارها من قبل المزارعين وغيرهم.

د ـ الحقوق الشرعية (زكاة ـ خمس ـ صدقات ـ كفارات. . .) يحصل عليها المحتاجون الذين لا يملكون مؤونة سنتهم.

هـ ـ صلة الأفراد لبعضهم البعض (الهدايا ـ الهبات ـ المساعدات . . .).

وفي المقابل حرّم الإسلام الملكية الفردية من خلال بعض المصادر الفاسدة: مثل: الكسب عن طريق بيع الخمور، وآلات اللهو، والمحرمات بمختلف أشكالها، وبيع السلاح للعدو، وتعاطي الربا، وممارسة الغش، ومزاولة الاحتكار. . .

وحين شرّع الله الملكية الفردية، وضع حدوداً تحول دون نمو الثروات نمواً سرطانياً قاتلاً، وهذه الحدود تتمثل:

أ ـ قانون الإرث الذي يفتت الثروات الطائلة في فترات زمنية محدودة.

ب ـ الضرائب المالية المفروضة (الزكاة، الخمس، الكفارات. . .).

ج ـ الضرائب التصاعدية، وتفرضها الدولة في حالات الضرورة.

د ـ الصدقات المستحبة التي حثّ عليها الشرع.

٢ ـ **الملكية العامة**: وتعني الملكية التي يشترك فيها جميع أفراد الأمة، ويعود إنتاجها لصالح الجميع، وهذا اللون من الملكية يتمثل:

أ ـ الثروات الطبيعية: (المعادن، المناجم، البترول).

ب ـ الأوقاف، الطرقات، الحدائق العامّة، شواطىء البحار، المراعي، المشاعات. . .

وتستطيع الدولة التصرف بالأملاك العامّة لتحقيق التوازن الإجتماعي، وأداء الخدمات التي تفرضها حاجات الأمة.

المحتويات